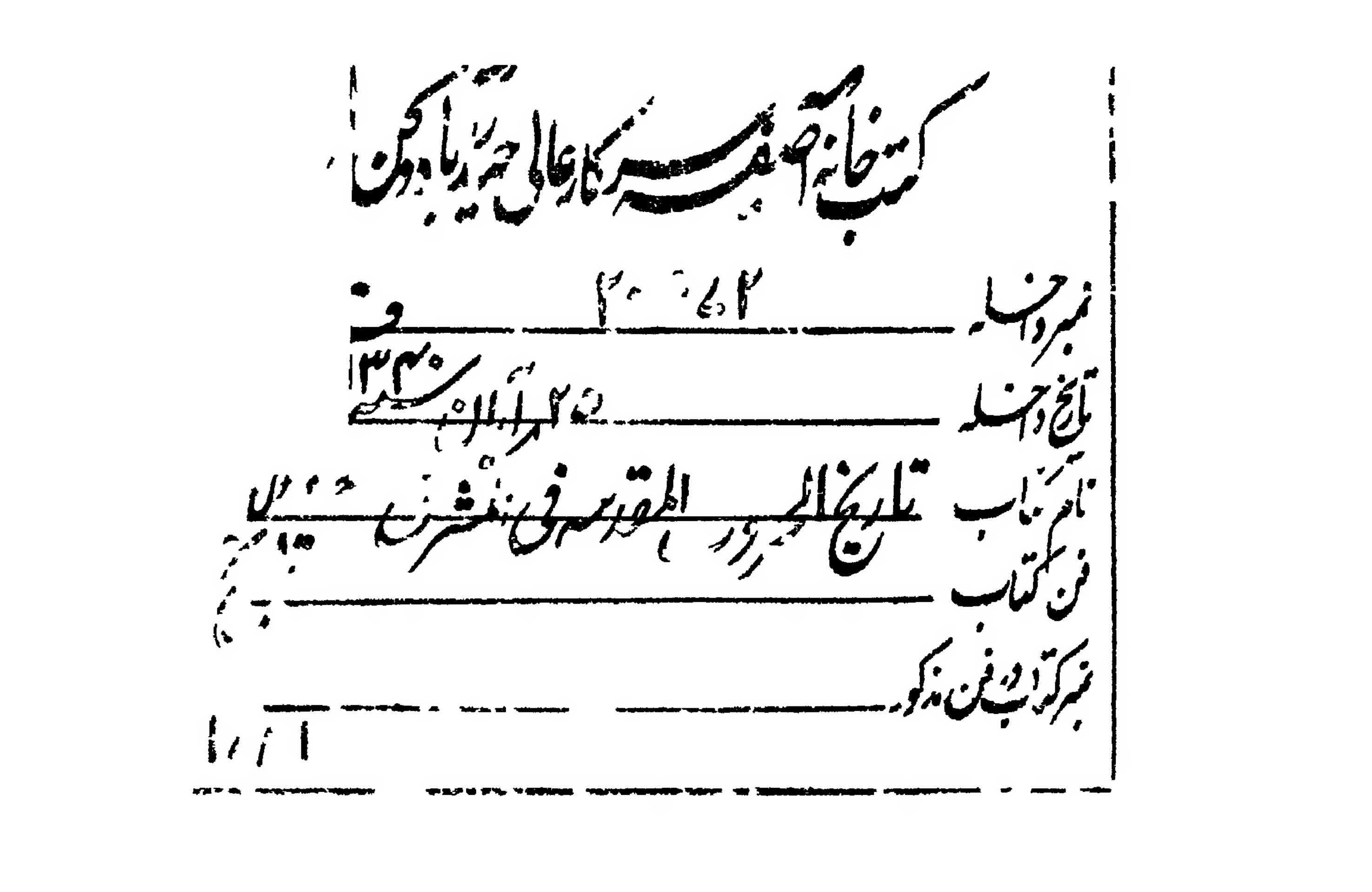
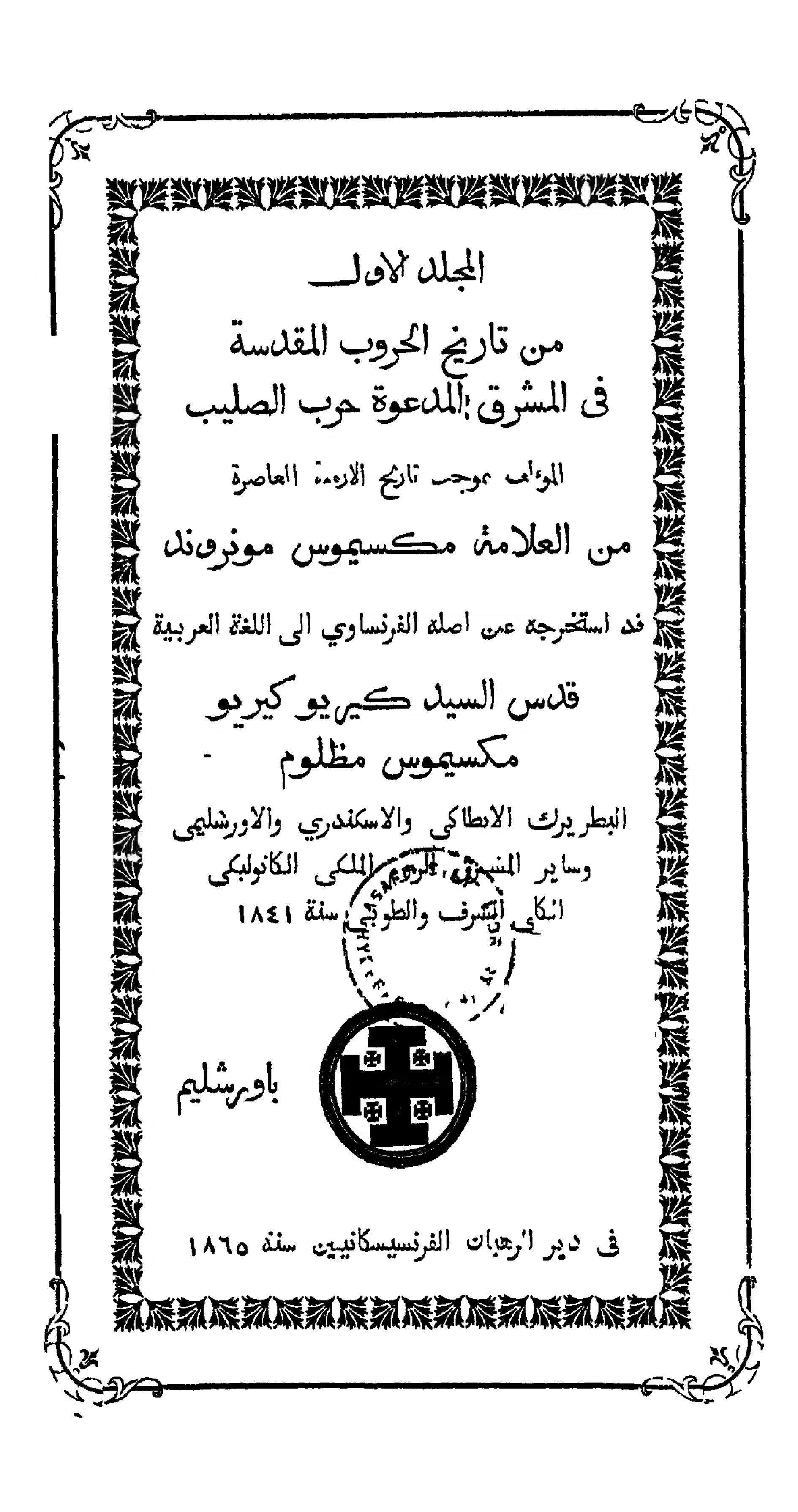






المجلد الاول

من تاريخ الحروب المقدسة
فى المشرق المدعوة حرب الصليب

المؤلف بموجب تاريخ الازمنة العاصرة

من العلامة مكسيموس مونروند

قد استخرجه عن اصله الفرنساوي الى اللغة العربية

قدس السيد كيريو كيريو
مكسيموس مظلوم

البطريرك الانطاكي والاسكندري والاورشليمي
وساير المشرق للروم الملكى الكاثوليكى
انكاي الشرف والطوبى سنة ١٨٤١

باورشليم

في دير الرهبان الفرنسيسكانيين سنة ١٨٦٥

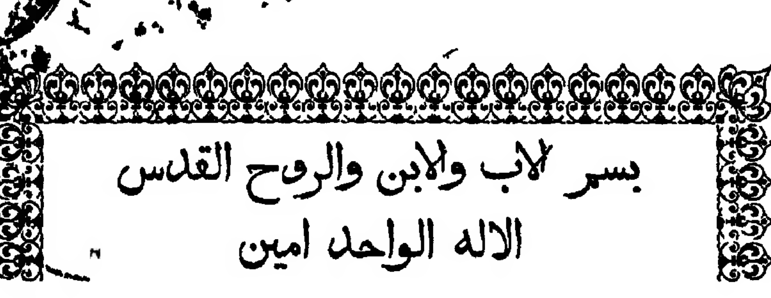
Nihil Obstat: Simon Isaac *Deputatus.*

IMPRIMATUR.

† J. Patriarcha Hierosolymitanus.

* فهرس *





بسم الاب والابن والروح القدس
الاله الواحد امين

نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بطبع المجلد الاول من تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب المؤلف بموجب تاريخ الازمنة المعاصرة ضمن مجلدين مرتباً من الرجل العلامة مكسيموس مونروند المطبوع اصله بالفرنساوى سنة ١٨٤١ فى مدينة باريس ويكون محتوياً اول مجلد على اثنى عشر فصلاً ☆

الفصل الاول

فى الاخبار عن بطرس السايح وعن المناداة بحرب الصليب الاولى
وعن البابا اوربانوس الثانى وعن مجمعى بلاصانس وكلارمونت
وعن المرة الاولى فى اتجاه العساكر الى هذا الحرب

•انه فيما بين المسيحيين الذين جاؤوا زوّاراً الى مدينة اورشليم في اواخر جيل الكنيسة الحادى عشر قد وجد رجل سايح مسكين يسمي بطرس. فهذا قد كان مولوداً من عيلةٍ شريفة فى بيكارديه حاصلاً من السما على نفسٍ حارة وعقلٍ حادق وحسٍ سهل الانعطاف فاي نعم ان قامته كانت غير مستقيمة وهيئته على اول نظر اليها مكروهة ولكن حينما كان هو يرفع طرفه نحو السما كانت تستحيل صورته الى بهاء زى اشعةٍ وكل ما فيهِ الى جمالٍ مشرقاً كانهُ الهى. فقد كان اذاً من المخلوقات العجيبة

التي لا تستوفى الاشواق على الارض الارتوا من مشاهدتها الجاذبة الى صورة سعيدة عقلية من الغبطة السماوية ✿

فبطرس هذا كما كتب عنه احد المورخين كان من الرجال المشهورين فى مهنة الحروب متزوجاً ذا اولادٍ ولكن لا مجد الانتصار الحربى ولا محبته لزوجته الامينة ولا عواطفه الابوية نحو بنيه امكنها ان توعب اتساع قلبهِ بل كان معبساً هادساً متعطشاً باحتراقٍ دايماً نحو خيراتٍ اخر معتبراً جميع ما يعدهُ بهِ العالم كعديم الفاعلية باطلاً . ومن ثم اخيراً قد ترك كل شي ولبس الثوب الرهباني وانفرد سايحاً فى التوحد النسكى حيثما كانت روحه المضغوطة تومل راحتها وهدوها الذى فقدته قبلاً ✿

فاذ انفصل هو عن البشر واتجه بكليته نحو السماء . قد كان هذا الراهب الحار في قلايته يظن ذاته فى المبادي فايزاً فى المسكنة الباطنة غير انه خلواً من ابطاء قد اشتعلت فى قلبهِ نارٌ آكلة من قبل اعمال النسك والسهر فى العبادة والصلوات الحارة والتاملات العقلية التقويت وجعلت تقلقه بدون كفافٍ وتجذبه الى الاتجاه نحو مسالك خصوصية للحصول على غاية مجهولة منه ولانه قد غُلب هو من هذا الاعتماد فطفق ينتظر من السما ما يُرشد اليهِ كانت آلة لاتمام الارادة الالهية متقداً بحرارة رسولية وبشجاعةٍ تليق بالشهدا فيوميا كانت الوف من التصورات تلهب عقله المتبلبل . واخيراً اهمل مغارة نسكه والتصق ببعض زوار مساكين كانوا ذاهبين الى بلاد فلسطين حيث بلغ برفقتهم الى مدينة اورشليم فمدينة داوود هذه المقدسة لم تكن وقتيذٍ مجيدةً مزهرةً كما كانت فى ازمنة ملوك يهوذا واسرايل بل هى مترملة محزونة متنهدة منذ

اجيالٍ تحت نير الاسلام القاسى البربري ❊

فبطرس السايح عند ملاحظته حال مسيحيين بلاد المشرق فى ذلك الزلّ والهوان والبُسر والاضامات لم يمكنه ان يضبط ذاته عن هطل الدموع الحارة التى كانت تنسكب من عينيه بسخاء فوق قبر المسيح وان امتلاء هو خشوعاً بالعبادة وقلقاً من تلك الحال وغيظاً مقدساً من الظلم الحاصل للمسيحيين هناك. فقد اتاه فكرٌ شجاعى مستولياً على وجههِ وباجتماعه ببطريرك اورشليم سمعان زى الشيخوخة المحترمة وبمخاطبتهما عن هذا الموضع الذى ازداد هواجسه حرارةً وتصوراته احتداداً ومعاً شرعا يبكيان على حال اخوتهما التعيسة هاتفاً السايح بقوله اوآه ترى اى متى يوضع حداً لهذه الشدايد والنوايب ❊

فاجابه البطريرك قايلاً اي نعم خلواً من ريبٍ ان الله حينما ينعطف نحو الرافة على زلنا ومصايبنا فيستاصلها عنا بواسطة جذبه قلوب سلاطين المغرب الى الشفقة علينا والى الميل نحو انقاذ هذه المدينة المقدسة فعند التلفظ بالكلمات المذكورة بطرس وسمعان شعرا بثقةٍ ورجاءٍ وعانق بعضهما بعضاً بسكب دموع تعزيةٍ ووعد احدهما الاخر بان يمارسا فى هذا الشان الاجتهاد التام لعلهما يفوزان بغاية مقصدهما السعيد ❊

فيوماً ما (كما يقرر التاريخ المدقق) اذ كان هذا الانسان الغير اعتيادي بطرس مصلياً بحرارةٍ حذا قبر المسيح المقدس سمع صوتاً سماوياً يخاطبه هكذا. انهض يا بطرس واسرع منذراً عن شقا شعبى فقد آن الحين الذى فيهِ خدامى يحصلون على الفرج والاسعاف والاماكن المقدسة تتحول من العبودية. فالسايح التقى حال استماعه هذه الالفاظ الخارجة من فم يسوع المسيح نفسه قد التهب بانقاد غيرةٍ مضعفة ولم يعد هو يشك اصلاً

في انه قد اختير من السما لاتمام المشية الالهية ومن ثم سافر هو حالاً في البحر متجهاً نحو بلاد ايطاليا باسراعٍ لكي ينطرح على قدمي الحبر الاعظم ✲

فالبابا اوربانس الثاني كان وقتيذٍ جالساً في الكرسي البطرسي وكان هو تلميذاً لسالفيه غريغوريوس وفيكطوراميناً على ما كانا يفكران بهِ بشجاعةٍ نحو الموضوع المشار اليهِ فلما مثل امامه بطرس وخاطبه عن ذلك قد اقتبله بمسرةٍ كانه نبي جديد واستبان لديهِ تاكيد الرجاء المعزي بنوال حال اخرى سعيدة لمسيحيّ المشرق وعلى هذه الصورة قد اوعب هو تدابيره الواسعة شجاعةً ورسم على بطرس ان ينادي مبشراً للشعوب بانقاذ اورشليم المزمع ان يصير عن قريب ✲

فقد كان هذا الامر حينيذٍ مشهداً عظيماً غير اعتياديٍ في العالم وهو ان انساناً حقيراً سايحاً مسكيناً منادياً في البلدان مجتازاً اقاليم ايطاليا نافذاً من جبال البر جايلاً في كل مملكة فرانسا وفي اكثر جهات ممالك اوروبا مباشراً هذا الانذار بنوعٍ مذهلٍ صيّر قلوب السامعين ان تشترك بحرارة قلبهِ وباتقاد لبهِ وبخشوع جوارحه وبغيرة تقواه. فامرٌ عذبٌ هو ان يقراء في تواريخنا القديمة خبرية هذا الرسول السارة والعظيمة معاً. وكيف انها مع تسامي مقدارها قد فازت بغايتها الكلية بواسطة رجل واحد فقط خلواً من مسندٍ اخر يعضده عن نوالها سوي بساطة انذاره الموعبة ثقةً بالله الذي كان يهجس في قلبه فصاحة الفاظه المضافة الى منظره راكباً على بغلٍ برجليين حافيتين ضابطاً بيده الصليب براسٍ مكشوف مترديًا بثوب المسيح الخشن مجتازاً في المدن والقري منادياً بحرب الصليب في الطرقات والازقة والكنايس ومن على المنابر مخبراً باحوال

تدبير الاراضي المقدسة من الامم شارحاً بصروحية انواع الشقا
والاضامات والاضطهادات والمظالم الحادثة للمومنين في اورشليم
ونواحيها مزكياً صدق شهادة اقواله بوصفه عن جبل صهيون
ومكان الجلجلة وبستان الزيتون وقد كان احياناً يقود برفقته
بعض اوليك المسيحيين الشرقيين الذين كان يصادفهم في بعض
امكنة رسالته هاربين من الاسر والضنا متسولين في حال فقرهم
الكلي. وهكذا كان يريهم لسامعي انذارهُ مفصحاً عن مصايبهم
ومستشهداً اياهم على صدق اقواله وهذه كلها بمصاقبتها لظروف
وعظه وخشوع كلماته وسكب دموعه الحارة وضنك جسمه باماتات
النسك واشراق بهجة عواطفه نحو السماء. قد جعلته لدي
الشعوب عجيباً واكسبته حبهم الشديد اياه وصيرتهم حقاً
متاكدين عنه انه نذيرٌ مرسلٌ من السما حتى انهم بمقدار ما
كانوا يسمعون الفاظه المتكاثرة فبمقدار ذلك كانوا يزدادون انشغافاً
الى استماع غيرها منه بالتذاذ مثابرين اتباعهُ متقاطرين من
كل جهةٍ بازدحامٍ حولهُ مقبّلين ارديته فارشين الاعشاب
والاغصان في الارض حيثما كان هو يمر عليها متخاطفين اجزاء
وشاح البغل مركوبه بمنزلة ذخاير لهم داعيين اياهُ عموماً باسم
قديس ونبي باكيين معه على شقاء حال اورشليم موعبين قلبياً
بان يبيحوا خيراتهم وموجوداتهم حتى حيوتهم من اجل انقاذها
من الاسر والهوان ✿

فنحن اذا اقسنا بموجب حكمنا الضعيف احوال تلك الازمنة
على مقياس احوال ازمنتنا الحاضرة فلا ريب في انه يظهر
لدينا ان المفعول الذي حصل من قبل انذار بطرس السايح
المذكور هو عديم الامكان بالتصديق ولكن الحقيقة هي غير هذا
القياس على اهل جيل الكنيسة الحادي عشر ففي يومنا هذا

ان اتفق ان يشاهد راهبٌ ما مسكين ينذر الشعوب بان يذهبوا الى الحرب من اوروبا الى بلاد فلسطين فلكانت الناس خلواً من شكٍ تهزّوا به ويحتقرون من يتبع خطواته ولكانوا بفتور عبادةٍ يسمعون كلماته وهكذا اتعابه كانت تذهب سديً غير ان احوال الارواح فى الجيل الحادي عشر قد كانت مختلفة عن احوال ارواح زماننا على انه وقتيذٍ لم يكن يحدث شك من اصحاب الشكوك والفلسفة بل ان الايمان كان حياً فى جميع القلوب وكان المومنون بمجرد ذكر اسم اورشليم ينتاش فوادهم بتعظيمه متذكرين هذه المدينة المقدسة بعواطف اشواقهم وشدة حبهم ولم تكن فى ذلك الحين برودة محبة الذات تجلد الانفس والبراهين ذات الصلف والعجرفة لم تكن تناقض الحال في هل انه يجب ان يُقاوم او يطاع حالاً الالهام بالاعتماد على امرٍ مهمٍ معتبر فهذه الامانة المخصبة المتنقة فى احضان اهالى الاجيال المتواسطة بنوع عبادةٍ وتقليداتٍ تقوية وسداجة السيرة لم تكن تسمح لهم اصلاً بالارتياب فى العجايب الموعود بها باسم الرب ولا بالرجا فى استخلاص الاماكن المقدسة من ايدي الغير المومنين ولا بان يموتوا شهدا فى المكان الذى فيه مات يسوع المسيح عينه من اجل خلاص البشر وهذه التاملات كانت تقدم لمسيحى المغرب راية الغلبة مضعّفةً بالاكتساب وتنعش في مخيلتهم املاً حياً بسعادة النهاية . ومن ثم كانوا اجوافاً . وجموعاً غفيرة يحلفون اقساماً رهيبةً بان يذهبوا الى اعانة اخوتهم الشرقيين حالما بالعناية الالهية كل الوسايط البشرية تكون تباشرت حسب الاقتضاء فلما كانت الامور على هذه الحال عموماً . قد ارسل ملك القسطنطينية اليكسيوس كومنينوس قصاداً الى الحبر الاعظم مستمداً منه اغاثة اللاتينيين

اياه . لان الاتراك كانت تضايقه كما انه لهذه الغاية انفذ رسايل منه الى سلاطين المغرب مخبراً اياهم عن الامكنة التى الاتراك امتلكوها من اقاليم اسيا الصغري اليهم وعن الخطر الداهم المدينة المملكة القسطنطينية بان تسقط تحت ولاية هولاء البربرية ومستحلفاً الامراء والمتقدمين بان يأتوا اليه لاجل حمايتها . مقرراً لهم بان خزاين هذه المدينة الغير محصاة تكون اجرة شجاعتهم ✿

فالبابا اوربانوس الثانى بعد ما تحقق مفاعيل انذار بطرس السايح قد اهتم بالتيام مجمع فى مدينة بلاصانس حيث اجتمع فيه ما ينيف عن مايتى اسقف مع روساء اساقفة . ثم اربعة الاف اكليريكى وثلثون الفاً من العلمانيين . فهذا المجمع العظيم صنع جلساته فى البرية فى مكان سهل واسع بالقرب من المدينة وكانت اعين الشعوب متجهة خاصةً نحو قصاد الملك اليكسيوس منزهلين من فخرة ملابسهم الشرقية وصاغيين الى اصواتهم الملتمسة المعونة بمناشدة واستحلاف نحو سلاطين المغرب بان يوجهوا قوة اسلحتهم لمعاضدة القسطنطينية ولانقاذ اورشليم . ومن ثم الحبر الاعظم شرع يحرض المومنين بحرارةٍ علي اتحاد قواهم واتفاق عزايمهم نحو قضية هكذا مقدسة الامر الذي بلغ مفعوله عند الشعوب باقتناع تام وحالاً ما عادوا يهتمون فى شى اخر سوي فى ذهابهم الي بلاد فلسطين بالحرب المقدس وهكذا باينوا المجمع موعدين بانهم غب ايامٍ قليلة يلتيمون تحت بيارق الصليب باتفاقٍ عام ✿

غير ان حرارة مواعيدهم هذه الاولى ما توخرت زماناً طويلاً عن الفتور لانه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم ومحلاتهم المحبوبة لديهم بالذهاب الى اقاليم ومناخات مجهولة منهم خاصةً الايطاليانيون الذين هم طايفة قليلة الشجاعة وبالتالى ما تمموا

مقاصدهم الاولى الشريفة وعلى هذه الصورة مجمع بلاصانس اذ تبلبل من مسيحيين مختلفي البلاد والاطباع فلم يقر فيه اعتماد تحديدي على كيفية الحرب ضد الغير المومنين والبابا اوربانوس ما عاد استطاع ان يجدد حرارة الشعوب الذين حوله بل حول نظره وافكاره نحو امكنة اخري ولكن تري ما هي الارض التى في حضنها كان يلزم ان يتوطد الاتفاق على هذا السفر. فاهالى بلاد النمسا كانوا وقتيذٍ حاصلين على انقسام ضد الكرسى الرسولى وشعوب الاقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام في صد البربر عنهم وكانوا قليلى الانعطاف نحو حروبٍ يمارسونها حمايةً عن ديانةٍ مجهولة من كثيرين منهم وخيراتها لم تكن اتصلت الى جميعهم. ومملكة اسبانيا كانت تحت الاضامة من الغير المومنين انفسهم وبالكاد كانت تقدر ان تستخدم اسلحتها لحماية ذاتها. وهكذا بلاد الانكليز الضعيفة في ذاك الوقت الذى فيه سلطانها غوليالموس كان غير راسخ في البلدان التى امتلكها جديداً وبالتالى كان محتاجاً الى حمايتها بالعساكر الموجودة تحت ولايته لاسيما النورماندية ☆

فاذاً مملكة فرانسا الارض الشريفة هي التى أنتخبت لكى تعطى العلامة الاولى للحرب المقدسة الشرقية ولكى تكتسب يوماً ما اكثر المجد الغير المايت الذي تتوج بهِ منتصرةً. ومن حيث ان هذه المملكة اعتادت على ان تجذب وراها بنموذجها ممالك اوروبا فابناوها الشجعان ما توخروا عن ان يعطفوا الى اتباعهم الشعوب الاخرين بالسفر الى هذه الاقاليم الشرقية البعيدة التى شدايدها ومصايبها العديدة كانت تدعوهم الى اسعافها فاذاً على صوت الديانة الطالبة الاغاثة من امراء بلاد فرانسا ومتقدميها قد اتقدوا بالغيرة وبادروا الى العمل

واوصلوا مراكبهم الى بلاد سوريا التى بعد ذلك ثلثة من سلاطين فرانسا الواحد بعد الاخر قد توجهوا الى نواحيها محاربين من اجلها فيا لها من عناية جهادية مجيدة ويا لها من اعمال مشرقة بالشرف فيوم ما يلجى وفيه يحتفل بتذكار هذه الحرب المقدسة ويُكتَب اسم فرانسا في راس كل وجه من كتاب تاريخها الدايم الذكر عن جيلها الماضي الجيل المغبوط الذي ابتدى بانظار بطرس السايح الذى هو فرنساوي وطناً عن مولد وانتهى بالقديس لويس سلطان فرانسا بالحرب المقدسة الاخيرة التى فيها مات هذا السلطان القديس من اجل الايمان فى ارض الغير المومنين ☆

فاذاً البابا اوربانوس الثاني اجتاز بلاد ايطاليا ومرّ من على جبال البر ودخل الى مملكة فرانسا وصنع مجمعاً فى مدينة كليرمون فى شهر تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ فهذا المجمع لم يكن لا اقل عدداً ولا اضعف كرامةً من مجمع بلاصانس نظراً الى الامراء مع الروساء الكنايسيين والقصاد الملوكيين والانام الفضلا بالقداسة والعلما الاكثر اشتهاراً في ذاك الدهر وقد تقاطرت اليه شعوب من كل الجهات حتى صار عددهم كانه غير محصى من جميع الطوايف ☆

(فيقول احد المورخين) انهُ في اواسط شهر تشرين الثانى المدن والقري التى حول كليرمون قد وجدت مملوةً من الشعوب حتى كانت فى مواضع كثيرة من الحقول منصوبة الخيام والمضارب لماوات الكثيرين منهم ولين كان الفصل شتوياً والصقع شديد البرد ☆

فالجلسات الاولى من هذا السينودوس قد تخصصت لترتيب مراسيم ذات حكمة فى التهذيب الكنايسي ولاجل استيصال الحرب الجنسية من بين كثيرين لانه فى ذاك العصر الذي كان

لم يزل بربرياً . كان اذا احد الاشراف ولو من اقل رتبة أهين باحد الانواع فاخذ حق اهانته قد كان يستعمله بقوة الاسلحة ومن ثم الخصومات والبغضات والانتقام للذات كان يدوم فيها بين العيلات المتقدمة ومن جري هذه العوايد السيئة قد كانت بلاد اوروبا موعبة بلبلات وانقسامات . والكنيسة مراتٍ كثيرة توسطت فيما بينها للصلح باتعابٍ من حيث ان الشرايع كانت لضعفها غير قادرة على وضع حدٍ لهذه الشرور . ومن ثم كانت الكنيسة مرتبة الفرضية المسماة مهلة الله وبوقتها كان الضرب بالحرب ممنوعاً اربعة ايامٍ في كل سبةٍ ولكن هذه الفرضية كانت تناست فمجمع كليرمون جددها بقوةٍ وصرامةٍ تحت قصاصات مخوفة . ثم ان هذا المجمع قد وضع تحت حماية الديانة والامان الراهن جميع الارامل والايتام والمهن المتجرية والاعمال المدنية . واعلن ان المعابد الالهية والصلبان المصنوعة على الطرقات تكون للضعفا ملجأً سندياً يعضدهم جداً كقوةٍ عديمة الانغلاب ضد كل نوع من الاغتصابات الناشية عن ظلمٍ ما ضد العدل ☆

ثم ان الجلسة العاشرة لهذا المجمع قد التيمت فى قصر المدينة العظيم الذي تزاحمت فيه الناس الغير المحصى عددهم . وبطرس السايح ذو الملابس المدنية الخشنة شوهد فى هذا المحفل جالساً بجانب الحبر الاعظم وهو الذي فتح الخطاب معدداً انواع الشرور والشدايد التى ادثرت سكان اورشليم وهاتفاً هكذا : يا للخجل ويا للغم الشديد : اننى شاهدت هناك مسيحيين مثقلين بالسلاسل الحديدية تحت صفة ماسورين بالعبودية مكدنين بنير الفلاحة كاحقر الحيوانات . وقد نظرت قبر المسيح محتقراً مهاناً بنفاقٍ والزوار الاتيين من الاقطار لزيارتهِ متكبدين الزل والاضطهاد

الاشد قساوةً من المتمردين اعداء الله والبشر. ثم ان عيني تقدمان صدق الشهادة بما عاينتاه عن حال فقر كهنة المرتج وزلهم. فيا له من نفاقٍ جسيم قد نظرت منهم مجذوبين من باطن الكنيسة تحت ضرب اعصاب البقر ومحكوم عليهم بموتٍ شنيع ✿

فاذ كان بطرس يتكلم هكذا قد وجدت سحنة وجههِ كلية الكابة مبتلة بالدموع المنسكبة من مقلتيه حتى ان صوته مرات ينقطع من غصص البكاء. وعلى هذه الصورة الفاظه وحركاته وهيئته قد جذبت اليهِ محبة القلوب كلها في ذاك المحضر ✿

حينئذٍ الحبر الاعظم رفع صوته مريداً اتمام هذه الارسالية قايلاً: ايها المسيحيين ان تلك الارض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذاك الجبل الذي عليه هو تالم ومات من اجلنا وذاك الضريح الذي هو تنازل الى ان يُدفن فيهِ بمنزلة ضحية للموت فكلها اضحت ميراثاً لشعب غريب وغاب كل بهاءوها الاصلي وهياكلها قد خربت واشعت نورها الساطعة تحولت الى ظلام حالك وهي تستحق الندب الشديد والبكا. ولم يعد لله معبداً داخل المدينة المقدسة الخصوصية والمشرق المهد والينبوع المقدس لايماننا لم يعد مشهداً الا لافتخارات اعمال الغير مؤمنين وجهات اسيا الاكثر ثروةً وغناءً قد التحفت بالظلام الى الكره والفقر المهين. وانطاكيه وافسس ونيقيه قد صارت مدن الاسماعيليين والاتراك قد مدوا ولايتهم الى حدود هاليبونوس لا بل الى حدود ابواب القسطنطينية. ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد ينهدد بان يستولي على كل ممالك الغرب ✿

ثم ان هذا الحبر الاعظم وجه خطابه نحو الاشخاص الذين

من طوايف مختلفة حضروا فى هذا المجمع مسايلاً اياهم هل ان مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم باردة غير حساسة . وبعد ذلك اتجه نحو فرانسا الممثلة فى هذا المجمع بواسطة انام عظما حاضرين من قبلها هاتفاً : ايتها الطايفة الفرنساوية العزيزة لدي الله : ان كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعة بنيك فانا الذي اعرف جيداً تقواك وحسن كفايتك بالشجاعة والغيرة قد اجتزت الجبال الالبية وحضرت لكي انذر بكلام الله فى وسط بلادك . اوآه انتِ قط ما نسيتِ ان اراضيكِ هذه يوماً ما داستها السراكسة ولقد كانت انتشرت فيها الشرايع المحمدية لولا يخرجهم منها عاجلاً كارلوس مارتيل وكارلوس الكبير . فتذكري اذاً الاغرار ثم افتخارات ابويك المجيدة الذين لما انقادوا بروح السعادة الخالدة قد انقذوا بلادك وخلصوا بلاد المغرب من رق عبودية مخجلة . فمن ثم الحرب الحاضر تحت عناية الله ننتظر منكِ انتصاراً اعظم وظفراً افضل وهكذا الاوروبا واسيا معاً تصيران ممنونتين لكِ بالخلاص فذلك تعرفين مدينة اورشليم ايضاً المدينة المقدسة التى الرب اختارها منتخبة بمنزلة مهدٍ وينبوعٍ للايمان الذي هو نفسه اوجده فى العالم اجمع ✿

فحينما كان الجليل يتكلم هكذا فالسامعون كانوا يستوعبون فحوي الفاظه موافقين عواطف قلبه حتى ان دموع الكثيرين منهم كانت تنحدر من اعينهم خاصةً عند ذكره احوال اورشليم والمومنين المضنوكين فى تلك الجهات تحت نير العبودية المرة . ومن ثم الاشراف وضعوا ايديهم على سيوفهم وحلفوا بان يبادروا لانقاذ المضنوكين وقد ازدادوا فى عزايمهم ثقةً وتوطيداً حينما سمعوا من فم هذا البابا انه متحقق جداً ان الله اختاره واسطةً

لهذا العمل وان ارادته تعالى هى ان يتم بمعونته الالهية خلواً من ريب ✿

فلما تاءكد الحبر الاعظم صدق بلوغ مفعول خطابه بسعادة اهتم فى ان ينعش العزايم باشد حرارة فى قلوب الموعدين بالحرب ويوطد رجاهم فى عظم مجد الانتصار ويمكّن عواطف حبهم نحو اخوتهم الشرقيين فقد اردف قوله بكلامه معهم هكذا ✿

لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الاسلحة التى انتم لحد الان تستخدمونها بعضكم ضد بعض لاخذ الثار والانتقام للذات من ابناء جنسكم عن بعض اهانات . فالحرب المقدسة المعتمدة الان ليست هى لاخذ الثار عن الاهانات ضد البشر بل عن الصادرة في حق الله عينه وانتم تنتقمون عنها وليست هى لاكتساب مدينة واحدة فقط من الشقاء التى تلجو منه بقوة شجاعتكم . بل هى اقاليم اسيا بجملتها مع غناها وخزاينها العديمة الاحصاء فاتخذوا محجة انقهر المقدس وخلصوا الاراضى المقدسة من ايادي المختلسين واذتم املكوها لذواتكم فهذه الارض حسب الفاظ التوراه تفيض لبناً وعسلاً وقد أعطيت ميراثاً مقسوماً لبني اسرائيل ومدينة اورشليم هى قطب الارض المذكورة والامكنة المخصبة الشابهة فردوساً سماوياً . ثم ان فادي الجنس البشرى قد شرفها بمجيه الى العالم فيها وقدسها بالفاظه وكرسها بالامه واشتراها بثمن دمه ومجدها بكرامة قبره . فلنبكى يا اخوتى ونندب بالدموع غلطنا الذي سلّم السما ضدنا ونرثى بالعبرات عبودية صهيون تحت الاسر ولكن الويل لنا اذا وجدت دموعنا عقيمة نظير الزرع المبدور على الرمل الناشف اواه كيف يمكننا هاهنا ان نتمتع براحة فى الوقت الذي فيه سلطانة المدن توجد اسيرة تحت القيود الحديدية فى الشقا . فيا ايها المحاربون المسيحيون

الشجعان الذين تسمعون صوتي فانتم خلواً من اهمال تفتشون
على علة ما لكي تحاربوا من اجلها بعضكم ضد بعض . فافرحوا
في هذا اليوم مبتهجين لان علة حقيقية ظهرت وانتم الذين
كنتم موجبين للخيفة والرعدة في قلوب ابنا اوطانكم . اذهبوا حاربوا
البربر لتخليص الاراضي المتدسة من استيلايهم وانتم الذين كنتم
تبيعون زراعكم بعلوفة دنية لاجل اشفاء غليل الغير . امضوا متسلحين
بسيف مفانيجي ابطرسية واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافات
السماوية الابدية . فاذا انتم انتصرتم على اعدايكم فالملك الشرقي
يكون لكم قسماً وميراثاً واما اذا قُتلتم فلكم المجد في انكم
تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح . والباري تعالى
لا يمكن ينسى انكم كنتم محاربين تحت رايته في جنديته
المقدسة . فهوذا الوقت الذي فيه توضحون ان كنتم متسلحين
بشجاعة حقيقية ام لا . وهذا هو الحين الذي فيه انتم تفون عن
كثرة الاغتصابات التي مارستوها عدواناً في حين الصلح وعن
وفور الانتصارات التي اكتسبتوها ضد العدل والانسانية . ومن
حيث انكم صبغتم ايديكم بالدم ظلماً فاغسلوها بدم الغير
المومنين ومن حال كونكم جنود الجحيم صيروا جنود لله الحي .
فحيثما يسوع المسيح يدعوكم للمناضلة عنه فاي قيد يمكنه ان
يصدكم عن اتباع صوته افما تسمعون انين اورشليم تحت الاسر
فتذكروا كلمات الرب هذه القايل بها من احب اباً او اماً
اكثر مني فلن يستحقني ومن ترك بيتاً او اباً او اماً او
امراة او بنين او حقولاً لاجلي ولاجل اسمي فياخذ المكافاة
عوض الواحد ماية ضعف وينال الحيوة الابدية في السماء ☆

فخطاب البابا هذا قُبل من الجميع بادلة الخشوع والحرارة
بنوع انه قط ما حصل مديح واكرام ومفعول لاعظم خطباء العالم

بمقدار ما حصل له من الانتصار وهكذا السامعون اجمعون استوعبوا شجاعةً فُطُلْحَلية شريفة ونهضوا واقفين وبصوتٍ واحدٍ صرخوا كافةً الله يريد هذا الله يريد هذا . فاردف قوله لهم الحبر الاعظم بكلامه اي نعم ان الله يريد هذا خلواً من ريب فاذاً لاحظوا انتم في هذا اليوم اتمام كلمات المخلص التى بها وعد بانه متى اجتمع اثنان او ثلثة باسمي فانا اكون فى وسطهم فهو نفسه قد لقنكم هذه الكلمات التى قلتموها على سماعى ولتكن هذه الالفاظ عينها صراخاً لكم فى الحرب وهى تنذر الجميع بالحضرة الالهية امام الله رب الجيوش . قال هذا ثم انه اظهر للشعوب المسيحية علامة الفدا المقدسة صليب الخلاص ونفوه نحوهم هاتفاً هذا هو يسوع المسيح نفسه الناهض من القبر وهو يعلن لكم صليبه الذي هو العلامة ولكن هذا علامةً يرفع بين الطوايف لكى يجمع بنى اسرائيل المتفرقين الى واحدٍ فاحملوه على عواتقكم او على صدوركم وليشرق فوق اسلحتكم وفي روس سناجقكم وهو يصير لكم واسطة فعالة للانتصار بالغلبة والظفر او غصن نخلة الاستشهاد وهو الذى يذكركم باتصالٍ فى ان يسوع المسيح مات عنكم ولاجلكم وفى انه يلزمكم ان تموتوا من اجله تعالى . فعند ما البابا كفّ عن خطابه المذكور فالمومنون المجتمعون في هذا المحفل قد اظهروا مشهداً لا يمكن وصفه بشرح كافى لان كلمات هذا الحبر الاعظم كانت تلهب قلوب السامعين اذ ان البعض كانوا يتخشعون بالتقوي ساكبين الدموع السخينة من اعينهم بتاءملاتٍ على حال اورشليم وذلّها وعبوديتها والبعض كانوا يستوعبون رجزاً ضد البربر القساة المستعبدين المسيحيين الشرقيين على تلك الصورة وكانوا يبرزون الاقسام الرهيبة بان يتحاموا عنهم وعن اورشليم الى الموت وغير هولاء واوليك البعض

كانوا يرتلون تسابيح ومزامير شكرية لله على هذا الاعتماد باشهار حرب الصليب والبعض كانهم اضحوا خارجين عن ذواتهم كان يعانق احدهم الاخر حالفين بان يحب بعضهم بعضاً نظير اخوة طبيعيين وبانهم خلواً من مهلةٍ يسافرون معاً نحو بلاد فلسطين. ولكن حالما البابا اعطى اشارة للصمت قد صار هدوءٌ تام ضد الهيج والانضغاط الذين كانا حادثين فيما بين تلك الجموع الغفيرة وهكذا ركعوا على الارض جثواً اجمعين قارعين صدورهم ثم باصغاء سمعوا الكردينال غريغوريوس تالياً بصوتٍ عالٍ شهير صورة اعتراف عام التى اقتبلوها بعبادةٍ تقوية وعند نهايتها مد يديه المكرمتين الحبر الاعظم ومنح الجميع البركة واعطاهم الحلة عن زلاتهم كافةً ☆

وهذا المشهد العظيم قد اتبع من منظر اخر ليس باقل منه خشوعاً وهو ان ادهمار الذي من مونتيل اسقف مدينة بوي قد تقدم وطلب من البابا ان يكون هو اول من يجاهد في سبيل الله. ثم تسلم من يد الحبر الاعظم سنجق الصليب وقد اتبعه بانموذج نظيره عددٌ عظيم من روساء الكنايس ومن الاشراف المختلفى الرتب والتسميات متناسيين خصوماتهم الناشية قبلاً فيما بينهم متحالفين على دوام المحاربة من اجل اخوتهم الشرقيين وهكذا المتقدمون فيما بين هولاء الامراء والاشراف تسلموا من يد البابا سنجق صليب اخر واقتدا بمثلهم جميع المومنين الذين كانوا حاضرين في ذاك المحفل علقوا على صدور اثوابهم صلباناً بلون احمر وحالاً اتخذوا لذواتهم تسمية صليبيين كما انهم لقبوا الحرب التى شرعوا يمارسون الذهاب اليها مسمينها حرب الصليب المقدس. واما الحبر الاعظم فاذ اعلن حال كونه مغموماً جداً من عدم امكانه ان يذهب هو بشخصهِ امامهم فى هذا

الحرب المقدس قد اقام بوظيفته نايب عنه رسولى اسقف بوى نفسه المقدم ذكره راساً لهولا المومنين الحربيين اجمعين ٭

ثم انه حينيذٍ قد اشتهرت الانعامات الاختصاصية الملايمة جداً لجذب عددٍ كافٍ من المومنين لان النوايد الملاحظة الديانة وحدها لم تكن كافية للحصول على جمهور مصاقب هذا الحرب. فمن ثم الانعام الاول الذي أعطى لمن يذهب فى هذا الحرب كان ابطال التاديبات القصاصية فى التوبة المشتهرة التى كانت تفرض بقوانين ثقيلة على الخطاة ذوى الكباير التى بمجرد تذكرهم بها كان يقلق ضمايرهم بجلادٍ قاسٍ. فاذاً كلٌ من هولاء الخطاة بواسطة سفرهٍ الى بلاد فلسطين فى هذه الحرب الصليبية كان يفى عن ثقل قوانين التوبة وصرامتها التى كان ملتزماً بممارستها ٭ الانعام الثانى هو ما اعلنه المجمع المذكور بان المحاربين الصليبيين يعفون من دفع الفوايد ايضاً ٭ الانعام الثالث هو ان هذا المجمع اطلق قصاص الحرم الكبير الاناتيما ضد كل الذين تصدر منهم اغتصابات مخالفة العدل باى نوعٍ كانت نحو جنود المسيح الصليبيين ٭ الانعام الرابع هو ان المجمع المقدس المذكور وضع تحت حماية الكنيسة الجامعة وحماية القديسين الرسولين بطرس وبولس اشخاص جميع الصليبيين وافراد عيلاتهم وكل نوع من ارزاقهم وموجوداتهم. فعلى هذه الصورة المجمع المشار اليهِ اشهر عموماً من دون تاخير الخبرية العظيمة بالحرب على بلاد فلسطين وعدد كلى جداً من المسيحيين لعمد المجى اليها لان الاساقفة برجوعهم من المجمع المقدس الى ابرشياتهم قد وجدوا منشغلين فى تكريس سناجق الصلبات التى كانت تتقدم منهم الي الجماهير المسافرة الى هذا الحرب. والبابا اوربانوس عينه قد اجتاز فى عدة اقاليم من مملكة فرانسا حيث صنع مجامع في مدن روان وطورس

ونسيماس باذلاً عنايته واجتهاده فى كل مكان على صالح هذا
الحرب الصليبية ففى المواضع جميعها التى كانت تدوسها رجلاه
فالانام الشرفا بمراتبهم ومصافات الاكليروس كانوا ياتون اجواقاً
نحو مناداته والمومنون اجمعون اتقدوا بحرارة تقوية لا توصف
مبرزين الحلف على ذهابهم الى الحرب المذكور ضد الاسلام فهذه
القضية الشريفة ذات الاباحة الغلبية ما لبثت مفاعيلها داخل
اراضي فرانسا وحدها بل نظير مبشر حيّ امتدت حالاً منذرةً
فى الاصقاع البعيدة ايضاً التى اهاليها ارسلوا اولادهم متحدةً
اياهم مع رجال اوروبا الاخرين اذ ان ممالك الانكليز والنمسا
وايطاليا واصبانيا قد تناسوا امور الحروب الاجنبية التى كانت
تتهدد بلادهم وتدثر اراضيهم ونادوا باجتماع عساكر مضعفة مهتمين
فى تجهيزهم وارسالهم الى حرب الصليب كأنّ الاراضى المقدسة
اضحت وطناً عمومياً لجميع المسيحيين لانهم نحوها كانوا باجمعهم
يحولون انظارهم الى شطوطها البعيدة كانوا يرسلون امتعتهم كالى
مقر راحتهم ومركز فخرهم ومجدهم ❊

فاقاليم اوروبا فى اخر الجيل الحادي عشر قد التزمت بان
تجهز كثرة الصليبيين بعدد هكذا عظيم من القبيل الاتى شرحه.
ايضاً الذي يشير اليه احد المورخين المعتبرين قايلاً ان الامور
كلها حينيذٍ كانت حاصلة على بلبلة عظيمة جداً حتى انه
كان يبان ان العالم مال نحو نهايته وكاد عن قليل يسقط فى
الخراب الاخير ❊

لانه وقتيذٍ كانت الشعوب حاصلين فى حال استعباد الخدمة
للمتقدمين والقحط بمحل اراضى فى مدة عدة سنوات مترادفة
كان ادثر البلاد والطوايف الغريبة والمجاعة وكثرة اللصوص التابعة
اعتيادياً الانتقام القحطى المذكور كانت ضاعفت الاضامات

على سكان المدن والقري فان كانت اذاً على هذا المنوال اراضيهم ما عادت تقدر ان تعولهم فكيف لا يهملونها ويتجهون نحو اراضي المشرق المخصبة التي حسبما يشير اليها نص الكتاب المقدس تدر لبناً وعسلاً- ثم لقد سمعوا الكلام المشهور عن كثرة غناء بلاد اسيا وخزاينها والرجا فى ان يمتلكونها يوماً ما قد اضاء امام اعينهم كانهُ شعاع منير لظلام حالهم فاضحت لديهم بلاد اوروبا امكنة منفاهم وبلاد المشرق محلات وطنهم. فمن ثم اشهار هذه الحرب المقدسة بروح الديانة والتقوى ايضاً لم يكن يدعهم ان يتاخروا اصلاً عن الاعتماد عليها والذهاب اليها تحت رايات الصليب التى فى ظلها كانوا موقنين بان يجدوا سعادةً ومجداً ونهاية عجيبة. ثم ان الامراء والاشراف اذ لم يعودوا ان يضبطوا رعاياهم عن الاعتماد على الذهاب الى هذه الحرب فقد ارتضوا بطيبة خاطرٍ فى ان يمضوا معهم قواداً لهم وروسا عليهم نحو اصقاعٍ هكذا بعيدة والاساقفة لما رأوا ذواتهم محتاجين الى اعطاء انفسهم نموذجاً لرعاياهم بالغيرة والاجتهاد فكثرة منهم بروح السذاجة حملوا الصلبان بايديهم مصادفةً لتحريضاتهم وانذارهم بالحرب وتاهبوا الى ان يسيروا بها امام خرافهم الناطقة مرافقينهم اليها قواداً لهم الى حد اسوار اورشليم ٭

ثم ان الديانة مع الظروف الاخر لم تكن هى الا العلة الاخص الاشد قوةً فى تحريكها ارواح اوليك الصليبيين الاكثر عدداً فيما بينهم لانه ان كانت العلل البشرية قد استطاعت ان تجذب عدداً وافراً من الناس الى السفر فى هذا الحرب. فشرف الديانة قد كان هو وحده العلة الاخص التى اشرقت على انفس هولاء الجموع الغفيرة وصيرتهم ان يحتملوا صابرين ويتكبدوا بضبط الذات مشقات هذا السفر ومخاطر هذه الحروب واضرار حوادثها والاضامات

المقترنة بها مدة عدة سنوات والايمان عينه هو الذى جعلهم
ان يفوزوا بعجايب الشجاعة لانه لقد كان كفراً بالجميل هو ان
المسيحي يرفض المجد والافتخار فى ان ينسب للامانة المقتدرة
كل ما حصل عليه فى هذا الحرب من الامور العظيمة والعجيبة .
ففى زمان الحرب الصليبية هذه وتوابعها الصليبيات الاخر قوة
الديانة المسيحية اذ كانت حيّة فى الانفس فكانت تعظمها الى
اسمى درجة لان حرارة الديانة المتعاظم شرفها لحد العبادة العميا
قد كانت حينيذٍ تعطف اليها انقياد الشعوب وتتخذ فى قلوبهم
المحل الاول فاذاً على مجرد صوت الديانة لم يكن احد يتاخر
عن ان يضحى كل شى لكي يطير نحو المكان الذي تدعوه اليه
الارادة السماوية ليمارس فيه شجاعته المسندة حتى ان محبة
الوطن والعواطف الاشد تعلقاً نحو العيلة ترمى اسلحتها امام
هذه الحركة الباطنة العديمة ان تقاوم الجاذبة اياه الى المحاربة
الحرّة بالاشتداد لاجل دعوى تخص الله *
فاذاً الارتياب نحو هذه الدعوه اُحتسب عند اوليك المحاربين
نذالة وذلاً كما انهم اعتدوا مقاومة هذه الحركة الباطنة نوعاً من
النفاق وهكذا اوليك الذين حالهم او سنهم او امراضهم كانت
تمنعهم من الذهاب الى الحرب الصليبية قد كانوا يندبون سوء
حظهم ويشكون من عدم استحقاقهم لهذا العمل المقدس ولكن
اذ لم يقدروا ان يحملوا مع الصليبيين ثقل المحاربة شرعوا
يساعدونهم فى التضرعات والابتهالات الى الله من اجلهم لا بل
النساء والاولاد كانوا ينقشون بنخز الابر او بالة اخري رسم الصليب
فى اعضاء جسمهم الاكثر لطافةً كالصادغ والوجنات والايادي .
ثم ان الرهبان والحبسا والسواح اهملوا الاديرة وخرجوا من المحابس
والاكواخ (كما يقرر المورخ المعاصر قايلاً) انه لامرٌ مذهل وحالٌ

عجيب بان هذه الحركة كانت عمومية حتى انك يا هذا بالكاد يمكنك ان تصادف بيتاً ما من جميع البيوت لا يكون خرج منه ذاهباً الى هذا الحرب لا بل انى شاهدت بعينى بعض عيلات تتوجه بجملتها لاتمام نية الرب وكثيرون من الرهبان خرجوا من اديرتهم ومحلات نسكهم مسافرين مع الصليبيين خلواً من انهم يودعوا روساهم القانونيين او ياخذوا اذنهم وهكذا انضافوا الى الجماهير الحربية ☆

ثم ان المورخين المعاصرين يوردون في تاءليفاتهم شرح عدة من العجايب ومن العلامات الغير اعتيادية التى حدثت فى تلك الايام ضمن السما وعلى الارض فيقولون انه شوهدت احياناً نجوم تساقطت من السما وتركت فى مسافة انحدارها طريقاً مصبوغاً بالدم الاحمر. ومرةً اخري قد ظهر عمود نار نظير الصاعقة قد خطف نظر الذين شاهدوه وكان هو فى طوله وعرضه حاملاً على صورة حربة بحدّين وضياءُه كان اشدّ اشراقاً من ضياء النهار الرايق بالصحو وقد امتد بطوله الى فوق كرة الشمس عينها ويوماً اخر قرب غروب الشمس قد ظهرت في الجو كُراتٌ من نار كبيرة المقدار فى امكنة مختلفة من الفضا خلواً من وجود شى من الغيوم والسحاب وحسب زعم البعض ان هذه الكرات ما كانت من مادة النار بل هى بعض قوات سماوية منذرة بظهورها حركة طوايف اوروبا الى هذه الحرب الصليبية. ومرةً اخري شوهدت فى الجو صور مدن وعساكر واسلحة وخيول وركاب مرسومة عليهم صلبان واخيراً عند نهاية هذه الظهورات قد شوهدت مدة ستة ايام متواصلة فوق اثواب المسيحيين صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم خلواً من امكان محوها لا بالماء ولا بالنار وبعد هذا جميعه قد شاع فيها بين الشعوب تواتر الاخبار بان

كثيرين من القديسين ومن الملوك المسيحيين خرجوا من قبورهم وظهروا لكثيرين وفيما بين هولاء تحقق انها شوهدت صورت جسم الملك كارلوس الكبير عينه وكان يجول بحرارة محرضاً المسيحيين على محاربة الغير مؤمنين ❁

فبسهولةٍ يقدر كل احدٍ ان يتصور كم كانت عظيمة المفاعيل التي ابرزتها هذه الظهورات والعلامات في عقول المومنين بانواعٍ مختلفة وفي قلوبهم المتعطشة الى معرفة امور مثل هذه عجيبة وهكذا السفر نحو بلاد فلسطين اضحى عاماً وحيثما كان الصليبيون يمرّون ذاهبين الى الحرب فالناس كانوا يركعون مقبلين اقدامهم ثم في المدن والقري وقتيذٍ جميع الاعمال الاخر قد توقفت عن مجراها وحالاً قد كفت السرقات والخطف وما عاد احد يتكلم عنها او عن لصوص برية لانها انقطعت وظهر عند جميع المغرب روح صلح عام ❁

(فيقول المورخ الشهير غويبارت) ان عاصفة ريح شديدة اذا اخمدها قليل من المطر تكف. هكذا الحرب وكل الالام البشرية والخصومات القوية والانقسامات المزمنة قد خمدت وكفت بهفيف نداء الصليب الاتي وقتيذٍ من السما فقد طفق الانام الاسياد ذوي املاك القري والمذارع يفتشون على من يشتريها منهم ولو باثمان واطية ولكنهم لم يكونوا يجدوا مشترياً وكذلك عادت الاراضي تناقصت اسعارها جداً جداً. وعلى هذه الصورة عقيب القحط والغلا ظهرت انواع الخصب والرخص (كما يقول احد المورخين العيانيين) انه على البدية شوهدت سبعة اغنام لا تباع باكثر من سبعة دنانير وصار يعطى بيعاً بقطعة من المعاملة الشي الذي لم يكن قبلاً يعطى باضعافها حتى ولا لاجل انقاذ الانسان ذاته من الحبس او فداءً عن العذاب واوليك الذين

كانوا فيما سلف هزواً وسخرية للذين حولهم من ذوي الصلف والعجرفة قد حملوا السلاح فى هذه الحرب بالمساواة لهم والشعب الواطى جداً والاشراف زوي المراتب العلياء الذين كانوا بعيدين المسافة بعضهم عن بعضٍ شرعوا يكاتب احدهم الآخر كانهم متساوون مرسلين مكاتيبهم المترادفة صحبة سعاة للتعريف عن الامكنة والايام التى فيها كان يلزم اجتماعهم للسفر جملةً ❊

ثم ان المجمع الملتيم فى كليرمون فى شهر تشرين الثانى سنة ١٠٩٥ قد كان عين سفر العساكر الصليبية فى عيد السيدة فى ١٥ آبٍ سنة ١٠٩٦ ولكن حيثما دخل فصل الربيع لا شى يمكنه ان يضبط حرارة هولاء الصليبيين عن السفر حسبما اعلن مورخ هذه الحرب برنردس الخازن قايلاً . انه عند دخول شهر ادار كنت يا هذا تشاهد تحضيرات الخيول وتجهز الامور ونصب الخيام والسناجق والاسلحة واما الشعب الواطى فلم يكن يهتم في الحصول على بغال وخيام وحزم احمال لانهم لم يقدروا حال كونهم مشاة ان يحملوها بل ان كل واحدٍ منهم كان يدبر امره حسب مقدرته وعندما دنا حين السفر كنت تسمع صراخات عظيمة ببكاء وتوجع من التاخير عن المشى لانه الى القنادق لم يكن احد يريد الذهاب والبعض من العيلات كافةً اتخذوا المسير الى الحرب بنساهم واولادهم واطفالهم بصورة زوار صليبيين كانوا يتغاطرون الى حيثما كانوا يلتيمون معاً في الامكنة المعينة لا بل ليس عيلات بجملتها لكن اهالى قرى بتمامها كانوا ينطلقون الى هذا الحرب وفى حال سفرهم نحو الاراضى المقدسة كانوا يجذبون لاتباعهم والشنطة معهم الاشخاص الذين كانوا يصادفوهم فى طريقهم فهذه الجماهير الملتيمة من كل ذى جنسٍ وسنٍ وقامةٍ ورتبةٍ مختلفة الانواع المتسلح اناس منهم بالحراب وغيرهم

بالمزارق واخرون بمتخال حديد قد كانت تصور مشهداً غريباً لا يمكن وصفه لان بعضهم كانوا مشاة بارجلهم وبعضهم راكبين خيول وغيرهم سايرين على عجلات . ثم ان تلاطم الاسلحة ورعود الطبول والزمور والابواق كانت مختلطة مع اصوات ترتيل المزامير والتسابيح فالمرأة العجوز ماشية بحذاء شاب والغني برفقة الصعلوك والمحارب اللابس الخوذة في راسه بجانب الراهب السايح وعند حلولهم اجمعين كانت توجد المضارب والخيام والصواوين والسناجق منصوبة في السهول والوديان وعلى الجبال وبالاجمال صوت محاربين وصورة مقيدين مجتمعتان معاً والصراخات المتداومة سيراً وحلولاً من الجميع كانت هي الالفاظ * الله يريد هذا الله يريد هذا * ثم ان هذه الاجواق والجموع كانت تسافر في الطرقات خلواً من قايد يروسهم وبدون ذخاير لمعاشهم ومن غير سند اخر سوي رجاهم الوطيد في ذاك الوقت على الذي يعول فراخ الغربان ولا يمكن ان يترك انزوار اللابسين الصلبان ان يدثروا بالجوع (فيقول غويبارتوس المورخ) ان الصليبيين لم يكن لهم ملك خصوصي ومع كل ذلك كانوا بلا توقف سايرين بجماهيرهم فهكذا هم جدّوا في سيرهم بهذه الحرب الصليبية الاولى وكان الجهل المضاف فيهم الى حال املهم الوافر يصير جميع الموضعات الجديدة التي كانوا يصادفونها شياً مذهلاً مبهجاً لهم وعند دنوهم في مسيرهم الى مدينة والى ضيعة والى كهف فالاحداث المشاة مع امهاتهم كانوا يسالونهن هل ان ذاك المكان هو مدينة اورشليم التي هم قاصدون البلوغ اليها *

فالامراء والروساء الذين كان يلزمهم ان يقودوا الصليبيين الى بلاد فلسطين قد كانوا حددوا بان هولاء يسافروا ضمن ازمنة مختلفة وفي طرقات متباينة وبان مكان اجتماعهم العام يكون مدينة

القسطنطينية . غير ان الجماهير الذين كانوا تابعين بطرس السايح
في انذاره هذا قد ارادوا ان يسبقوا الصليبيين الاخرين وقد
اختاروا لذواتهم بطرس المذكور قايداً وهذا الناسك الشجاع سلم
ذاته لتوسلاتهم وتوشح بثوبه الرهباني وشد نعليه في رجليه وركب
البغلة التي كان مستخدماً اياها في جولانه في مملكة فرانسا
وغيرها من الاروبا وترؤس على هولاء الالوف من الصليبيين
برفقته مملواً ثقةً ورجاءً بالمواعيد العجيبة المعطاة لهم باسم
الرب وهكذا سافروا من ناحية موسيل وتوجهوا نحو المانيا وقد
انضاف اليهم في مسيرهم عددٌ وافر جداً من الناس الذين
تبعوا نموذجاتهم من الحربيين المقبلين من كل ناحية من مملكة
فرانسا وحينئذٍ بطرس قسم عساكره الى قسمين ووضع احدهما
تحت اقتيادة واوامره وسلم ثانيهما لتدبير غوتيار خلواً من ان
يوجد منه كالقواد خيالةً شرفا ومراكيب مزينة وغير ذلك من
الاشياء اللايقة لهذا المقام ✫

فالقسمان المذكوران بلغا الى نواحي الريز واجتازا بلاد المانيا
خلواً من مانع اصلاً غير ان الاعدا القساة كانوا ينتظرون الصليبيين
في بلاد هونكريا وبولغاريه وعند نهر الطونا مستعدين الى ان
يطبقوا عليهم ويعجزوا عليهم عن المسير الى القسطنطينية ✫

ثم من حيث ان قلة المعاش وعدم الذخاير وما يتبع ذلك
من الاعواز في الجماهير التي تحت تدبير غوتيار قد جذبتهم
الى بعض انواع من النهب والخطف في اراضي بولغاريه فشعوب
تلك البلاد غاروا على نقل اسلحتهم ووثبوا على هولاء الجماعة
فقتلوا منهم عدداً وافراً وبددوا مصافاتهم العديمة الفطنة فغوتيار
المخذول من هذا الحادث اغتصب ذاته على جمع الباقيين
المتفرقين وكدوا بالجري في خروجهم من تلك البلاد البربرية

وانجروا الى اراضي تركيا وبعد مدة شهرين باتعاب ومشقات واعواز وافرة بلغوا الى القسطنطينية وهناك الملك اليكسيوس سمح لهم بان يتيموا في المدينة المذكورة الى ان يكون باغيا بطرس السايح والعساكر الذين معه كونهم لم يزالوا متعاقبين ☆

على ان بطرس الراهب الشديد الحرارة حينما وصل الى حدود هونكريه وسمع ما حدث لغوتيار قد استوعب غضباً وعزم على ان ينتقم من دم جنود المسيح الذين قتلوا فاعطى عساكره علامة الفتك وسكان مدينة ساملين وقعوا في حوزتهم وقتل منهم اربعة الاف نفر. الامر الذي لما بلغ خبره الى سكان هونكريه تناولوا اسلحتهم برجز شديد واجتمعوا للمحاربة فبطرس وعساكره حاضروا وشكاً للهرب من امام لولومان سلطان هونكريه واجتازوا بلاد موراويا ولكن مصايب تعيسة قد عطلت سيرهم في سهول مدينة نيصا التي في بولغاريه لانه هناك سكان البلاد حاربوهم وكسروهم وعلى هذه الصورة النساء والاولاد والموجودات وصدقات المومنين صارت غنيمة المنتصرين واما الباقيين من تلك الجماهير الوف قليلة مبددة بالهرب ههنا وهناك فقد حاضروا وراء قايدهم بطرس الحزين على المصاب مجتازين بلاد تركيا ومن حيث انهم تعلموا على مصروفهم الادب واللطف فشرور جديدة ما اصابتهم في تلك المسافة وهكذا بلغوا الى تحت اسوار القسطنطينية كظافرين صورةً لا حقيقة بايديهم سعف النخل ☆

ثم ان عدداً وافراً من بلاد النمسا تحت ولاية قايدهم غوشالك كاهن بالاطينات قد تبعوا بطرس السايح وعساكره. وقد عوقبوا نظير اوليك قصاصاً عن زلات عجرفتهم وتعدي كثيرين منهم فاحاق بهم ما احاق بالذين سبقوهم وهذا عينه حدث لاوليك العساكر الصليبية القليلين الفطنة والانصاف الذين اقبلوا من

جهات ريز وموسيل تحت رياسة الكونته اميكون الذين بعد ان كانوا فى اوطانهم قبل سفرهم فتكوا باليهود ومارسوا في مسافة سفرهم اغتصابات اخر فالهونكريون ذبحوا منهم كثرةً وافرة فى سهل ماسبورك فى ناحية لايتا ❊

فالبواقي من جميع هولاء العساكر الصليبية العديمة التهذيب والفطنة قد التموا فى القسطنطينية واضيف اليهم الاخرون الذين من بيزا ومن البندقية ومن جينوا وقدر مجموع هولاء الطوايف الغربية نحو ماية الف صليبي محارب والملك اليكسيوس كومتينوس نقلهم بمراكبه مع الذخاير التى قدمها لهم الى قاطع البحر وراء جهة البوصفور غير انه فى تلك الناحية ايضاً لاجل انقسامهم بعدم الاتفاق ولاجل قلت انقيادهم للروسا بالطاعة الواجبة ولنقص فطنتهم ولحال كونهم عديمى الخبرة فى حروب هذه صفتها فلم يقدروا ان يحموا ذواتهم من هجمات عساكر الاسلام عليهم سكان قاطع البيتنيه فى نواحى نيقيه لانهم وثبوا عليهم بالقرب من هذه المدينة واحاطوا بهم من كل جهة وضربوهم بشراسة وحشية حتى قطعوهم ارباً وهكذا صاروا ضحية بايدي هولاء الاتراك الذين بنوع مهيل ذبحوهم حتى انه لم يتخلص منهم بالهرب الا بعض القليل ثم ان القايد غوتيار الشجاع الكافى جداً لتدبير طغمات وافرة من العساكر المهذبة لا التى مثل هذه قد سقط هو ايضاً مايتاً فى هذه المعركة مضروباً بسبعة جراح فى فخذه وبالتالى انه من هذه العساكر الصليبية الغربيين الذين اجتازوا من اوروبا الى اسيا لم يعد باقياً من اجسامهم بعد ذلك في سهل نيقيه الا كيمان عظامهم المختلطة خلواً من تمييز فهذه كانت النهاية التعيسة لعساكر عديمي الفطنة (كما يقول المورخ برنردوس الخازن) أنظرت يا هذا كيف ان شعوباً عظيمة المقدار قد فقدوا

كلهم لاجل حماقة ادنياهم الذين لم يريدوا ان يشاهدوا احداً رئيساً عليهم ولا ان ينقادوا بمشورة الرجال العقلا فقليل جداً هو ان يشاهد هنا كم هو عظيم الخطر والظن بعمل معركات الحرب من اوليك الذين تنقصهم الفطنة ☆

فاما بطرس السايح فقد كان رجع الى القسطنطينية قبل حدوث المعركات المذكورة متشكياً بمرارةٍ من الصليبيين الذين لم يكونوا يريدوا ان يطيعوا اوامره وهو ما عاد يسميهم الا لصوصاً وسراقاً لا يستحقون مشاهدة قبر المسيح وتقديم السجود له فاذاً رسالة هذا الانسان الغير اعتيادى قد انتهت على الصورة المرقومة فى المرة الاولى التى بها هو اعطى وظيفة الوعظ والانذار في جميع الصليبيين الى الحرب المقدس خلواً من ان يكتسب لذاته راية الغلبة الاشد لمعاً فى اراضى بلاد فلسطين فلانه خجل هو من ثمرة حماقة تلك الجماهير قد حلف بانه لا يرجع عن عزمه الاول ما لم يشاهد حرب صليبية اخري ☆

فهكذا العناية الالهية باحكامٍ غامضة غير مدركة توزع لكل احدٍ ارسالة الى عملٍ خاص فحينما يكون هذا العمل تم فهو تعالى يكون واسطة والة جديدة للبلوغ الى الغاية المقصودة من ارداته القدوسة وتكون الاثمار الناجة عنها موسسة على البداية الاولى انتهى فيها العمل الاول ☆

لان قضية الحرب الصليبية كانت منتظرة شى اخر اعظم واشد كفاية للعمل وهذه الواسطة والالة الجديدة المكونة منه عز وجلّ تصير هى المنقذ الحتيقى لاورشليم ولقبر المسيح المقدس فى شخص رجل قايد عظيم متراس على عساكر مهذبة طايعة امينة مقتدية بنطحلية قايدها نسير فى اثر الصليبيين اخوتهم التعيسين وتكون لهم الغلبة والانتصار ولهم يعطى المجد الذى

كان معداً لاخوتهم الاولين الذين فتحوا لهم السبيل وهكذا يستحقون ان تتدون اعمال جهادهم بظروفها الاكثر تدقيقاً من المورخين المعاصرين لهم وتذاع سمعة مديحهم في العالم ليس في التواريخ فقط بل ايضاً بقصايد جليلة من شعراء سوّرانت بنوع دايم الذكر في الاحقاب المقبلة ✿

الفصل الثاني

في الاخبار عن القايد الحديد غودافروا ده بولون المنتخب رئيساً للصليبين الاخرين وعن كيفية سير هذه العساكر ثانية وعن مكثهم في القسطنطنية وعن الملك اليكسيوس ثم عن دخول هولاء الصليبين الى اقاليم الاسيا

فسكان الاوروبا عندما بلغتهم الاخبار المحزنة المهولة عما حدث لاوليك الصليبيين الذين عند خروجهم من محلاتهم وسفرهم نحو المشرق كانوا نحو ثلاثماية الف نفر قد شمل قلوبهم الغم الشديد وغاصوا في بحر الاحزان ولكن وجدوا بعيدين جداً عن ان تقلّ شجاعتهم او يضعف املهم لا بل ان ما اصاب اخوتهم من التعاسة قد انعش في قلوبهم شجاعة جديدة مضعفة في ان يمارسوا ما به يسدوا نقص اوليك ولانهم اضحوا شديدي الباس في ان ينتقموا عن دما ارفاق غيرتهم المساكين قد اغتنموا الفرصة في ان يتعلموا ما اصاب اخوتهم بان يوجدوا عقلا فطنين فنونيين مهذبين اكثر اهلاً من اوليك لنوال المعونات السماوية. ومن ثم حالاً شوهدت اهالي ممالك المغرب قايمون على اقدام الحرب المرتبة المهذبة الرسومية بابلغ استعداد واقوي تدبير وبالحقيقة انه يلزم ان يعتبر تاريخ الحرب المقدسة مبتدياً

من هذا الاوان على ان الحربيين الاوليين الزوّار الذين تكردسوا في اوايل بلاد اسيا الخشينين في المزايا والتصرفات والغير اهلاً لحربٍ ما مثل هذا لقد تلاشوا بايدين اجمعين نظير الامواج البحرية التى تشاهد اتية من ظهر المياه متعالية تعج بهديرها كالبقرِ ولكنها متلاشية عند الشط غير ان النهاية السعيدة المجيدة قد حفظت للعساكر الصليبيين الاتين وراهم ☆

فيما بين القواد المسيحيين الذين اعتمدوا على السفر نحو بلاد المشرق في الحرب التى نحن بصددها قد كان المتقدم عليهم المتلالى بالرتبة السامية والصفات الجليلة غودافروا ده بوليون دوكا بلاد لورّين الواطية المولود (حسب تقرير بعد المورخين) في برايانت فألون الغير بعيد من فلوروس وكان هذا الشريف متسلسلاً من عيلة حكام بورغونيا امرايها وجدّه ابو امه قد كان موئوداً من الدم الملوكى المتصل من الملك كارلوس العظيم والمورخون مع الشعرا قد اتفقوا على اذاعة مديح هذا الانسان المفخم نسباً واعمالاً لانه لم يوجد نوع من شرف لم يكن هو اكتسبه لذاته وقد كان هو في تلك الاجيال المتواسطة نموذجاً حياً للاذام الشرفا في سيرته الشريفة حتى ان تواريخ تلك الازمنة تاتى متواترة بذكر صفات هذا الرجل الذي هو مجموع الاخلاق الحميدة وركن الحوادث الذايعة الصيت بالمديح لاسيما لانه كان يضيف الى تقواه المسيحية وحسن عبادته الدينية شجاعة اعظم الفطاحل وصفات اشدّ المحاربين في القتال وكان ينوع مذهل يجمع في شخصه اتضاعاً واحتشاماً ووداعة صفاتٍ لانسان شريف متربى بجودة الاخلاق مع فروسية غضبية جهبزية تخص الجبابرة في القتال بان خيوليته في المعركات الهجومية كانت مرافقة من شدة باس وحرارة الدم الفايرة وكان سليم

القلب ساذج الفكر راسخ فى الايمان وطيد فى الاعتقاد الكاثوليكى بعيد ابعد البعد عن ان يشترك باضاليل كثيرين من ارفاقه اشراف ذلك الحين فهذا الصليبى المحارب الحقيقى ركن الفخر المسيحى العجيب قد نشر مجد اسم المسيح فى اصقاع بعيدة واكتسب لذاته الاعتبار والوقار والرعدة عند الغير المومنين لان سمو فضايله قد صيره راساً عاماً لهذه الصليبية المستحقة الاسم الاول ابلغ تراُساً مما يجب محقاً للولاية التى اتخذها على عساكره العمومية لان مشوراته الصالحة كانت تبرز مفاعيلها فى حد الخصومات والمقاولات المنتشية وفى مدة دوام هذا الحرب لم يكن هو حارب احداً مطلقاً الا الذين هم اعداء الله. وقط لم يكن يريد ان ينسب انتصاره لذاته بل لله وحده وبالاجمال لم يكن احد نظيره صور فى ذاته جودة اتحاد تقواه وحسن ديانته مع شجاعته وغلبة محاربته ثم انتصاراته المجيدة مع تواضعه المسيحى العميق ☆

فهذا القايد العظيم نذر نذراً ان يزور اورشليم لكن لا بصورة حاج زاير بل بصورة مخلص لها من العبودية فحال انتصاب علامة الحرب من دوكا بلاد لورّان فاشراف بلاد فرانسا والذين نواحى الرين قد نهضوا عاجلاً والامرا باعوا مقاطعات املاكهم للغير ليصرفوا اثمانها فى اسفارهم لان قيمة اراضى مزرعة ما لم تكن بالكاد كافية لتجهيز لوازم شخص واحد من الرجال النبلا والنساء خلعن عنهن زيناتهن واولادهن وهكذا القايد المقدم ذكره دوكا ده بوليون من دون تاخير اخذ بترتيب رياسته على العساكر الذين تجهزوا بعدد غفير نحو مايه الف محارب صليبى مهذبين جداً مروضين فى صنعة الحرب من الذين علموهم اياها بكفاية ثم انه تورد اليه عدد وافر من نبلا فرانسا

والنمسا مقيدين معهم طغمات من الجنود والشرفا ومن الخيالة وهولاء النبلا الاسياد هم اوسطاكيوس الذي من بلونيا وبودوين واخوته واولاد عمه بودوين روبورك وبودوين حاكم هانسوت وغرنبيل حاكم ده هاش وجرارد وبطرس ده طول وهوكز ده سان بول وابن الجلرات فلدوكا ده لوران والعساكر التى صحبته كانوا يتقدموا بالمسير نحو القسطنطينية بعد مجمع كلرمون بمدة ثمانية اشهر ولكنهم فى مسيرهم ضمن بلاد المانيا قد شوهدوا شياً اخر عمّا كان به بطرس السايح والذين معه فى اجتيازهم تلك الامكنة لانهم فى هذا السير قد اذهلوا سكان البلاد من حسن صفاتهم وادبهم واحتشامهم وقناعتهم وفطنتهم ومن ثم الاهالى وجدوا بعيدين عن ان يفكروا في ان يمنعوهم عن المرور فى اراضيهم لا بل كانوا جميعاً يطلبون لهم من الله النصر والغلبة وحسن النهاية ☆

واما الجانب الاخر من العساكر فقد اخذوا طريق ايطاليا متجهين نحو الاراضى المقدسة تحت رياسة هوكز حاكم فارماندواس اخي سلطان فرانسا الشاب المجمل مع شرف اصله بصفات كريمة فايقة سنه متراًساً على رعاياه الماشية تحت تدبيره وكذلك روبارتوس الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نورمانديا وهو الابن الاكبر لكيليوم القاهر وممتلك شجاعة الحرب ولكنه وال مبدرق طايش غير راسخ الذي لكى يقدر ان يقوم بمصاريف هذا السفر قد رهن مقاطعات املاكه تحت يد اخيه كوينوم اندكس وايضاً روبارتوس آخذ والي مقاطعة فلاندرة الشاب الجليل الذى شجاعته جعلته ان يلقب بحربة المسيحيين فهذا كان متراًساً على عساكره الفريزونيين والفلامندريين ونظيره استفانص والى حكومة بلواز وكاترينز المتلالى بالافعال المجيدة

في هذا الحرب فهو كان اميراً محباً لدرس العلوم ولاجل جودة عقله وزكاوة رؤيته قد كان هو المعتمد فى ديوان مشورة الحرب الحاضرة ولكن هذا الامير اد كان متمتعاً بثروة غناء كلي غير محصى ومالكاً عدة من البلاد والقلاع والقراء والمزارع موازية عدد ايام السنة فقد اهمل ذاته متراخياً فيما بين خزاينه وظهر له ان الافضل هو ان يعيش براحةٍ فى وطنه عيشةً صلحية احري من ان يظهر شجاعته لاكتساب مجد الانتصارِ فيما بين اخطارٍ مبينة ☆

ثم انه حول هولاء الاربعة قواد المتقدمين على باقى اروسا قد كان يوجد جمع غفير من مقاطعات امرا اخرين مع عدد وافر من الخيول واركاب الشرفا الشجعان الافل شهرةً ولكن اسماوهم مكرمة بالذكر الحميد وكان مسيرهم متاخراً تابعاً للمتقدمين غير ان الاكثرين كانوا مقيدين معهم نساهم واولادهم وامتعتهم الاخف ثقلاً واسلحتهم الحربية . فبعد ان اجتازوا الجبال الالبية قد توجهوا باجواقهم المختلفة نحو بلاد ايطاليا حيثما كان يلزمهم ان يسافروا بحراً الى جهة بلاد اليونان ثم انهم فى مقاطعة لوكا قد صادفوا الحبر الاعظم اوربانوس الثانى نفسه الذي باركهم بفرحٍ وتضرع لله من اجل سعادة الغاية المقصودة منهم ومن هناك ساروا الى المُدن التى فى بوليا حيث مكثوا مدة بعض اشهر منتظرين الهواء الموافق لسفرهم البحرى ☆

ومن حيث ان مرورهم فى اراضى ايطاليا قد انعش فى سكانها الغيرة نحو اقتفا اثرهم ونموذجهم فمن ثم بوهيموند امير بلاد تارانت كان هو الاول الذي عزم على ان يضيف اجتهاداته وعنايته الى الصليبيين المذكورين لكى يشترك فى مجدهم وفخرة مسيرهم هذا ☆

ثم ان غويزكار ابن روبارتوس كان احد هولاء الشرفا الشجعان النرمنديين الذي كان استولى على بوليا وكلابريا وكذلك بوهيموند قد كان مستحقاً ان يوجد هو ابناً لابيه شبيهاً له في جودة العقل وشدة الشجاعة (والمورخون المعاصرون قالوا) ان قامته كانت عالية جداً حتى انه كان اطول بدراع هاشمي من جميع الاشخاص الاطول فيما بين عساكره وكانت فصاحته متناسبة لشجاعته غير انه كان محب الفخفخة غضوباً وكان يعتد اعداً له المتوليين والمتقدمين في سعادة الحال ولكنه كان يمارس كل ما عنده من الاجتهاد لكي يبلغ الى ان يضع بالعمل مقاصده واتباعاً لاوامره عدد وافر من رعاياه قد اسرعوا الى اتباعه تحت رايته وهكذا وجد هو في زمانٍ قليل ريساً على كثيرين من شرفا بلاد بوليا الاشدا ومثلهم غيرهم من بلاد كلابريا وسيشيليا وفيما بين هولاء كان ريكاردوس امير سالارنوس واخوه رانولف وروبارتوس ده هوس وروبارتوس ده سوردقال وهرمفروا ده مونتيك وهذا السيد الشاب زهرة النبل قد كلله المورخون والشعرا بالتقريظات والنعوت السامية فلم يكن يعرف شريعةً اخري الا الديانة وشرف الاسم وكان دايماً مستعداً لان يضحي ذاته وحياته ولم يكن بعيد الشبه عن القايد العظيم غودافروا ده بوليون نظراً الى التقوى والفضيلة ثم نظراً الى الشجاعة ونظيره كان هو نموذجاً كاملاً للشرفا الشجعان وللمسيحيين السعدا ✲

ثم ان عساكر اخر صليبية اخيرة قد سافروا من اقليم قبلي فرانسا تحت رياسة ادهمار ده مونتيل اسقف بوي وتحت تدبير رايموند كونته ده ساةجيال وده طولوزا على ان ادهمار كان اقيم من البابا اوربانس الثاني ريساً كنايسياً روحياً على جماعة حرب الصليب وقد كان هو الآلة الابتدائية لحركة هذا الحرب

المقدس ومن حيث ان صفاته خليلة مصاقبة لهذه الوظيفة السامية وتصرفاته بها ظهرت كاية المديح والاستحقاق فقد اكتسب هو قلوب جميع الجيوش الصليبية الى محبته واعتبارهم اياه الوافر جداً وهكذا اضحت مشوراته ذات الحكمة مفيدة وحسنة القبول عند جميعهم وقد كان يعزى الناس الذين تحت رياسته فى حدوث المشقات ويخفف عن المضنوكين اوجاعهم بالفاظه العذبة ويشجع الضعفا فى حين الاخطار مذكراً كلاً من الصليبيين بالموضوع والغاية التى من اجلها هم فى تلك الحال حيثما كانوا يوجدون متناسينها وكانت كلماته مسموعة دايماً باحترام تبرز اثمارها الفعانة الخلاصية فى قلوب اوليك المحاربين ❊

اما رايموند والى طولوزا فكان هو الاعظم ثروةً وغناءً فيما بين الامراء الذاهبين فى هذا الحرب الصليبية لان مقاطعات املاكه كانت تغطى ارياف نهر رهونا وحدود دردونيا وقد كان اسمه ذايعاً بالمجد والافتخار فى محاربته المورين فى مملكة اصبانيا ولاجل قيمة خدمته هذه العظيمة السلطان الفونسوس الكبير قد ازوجه بابنته الويرا ومع انه حين ذهابه قايداً للجيوش الصليبية كان متقدماً فى السن فمع ذلك لم تكن قوته ونشاطه وشجاعته ومسيره اقل من احوال الامراء الشبان وصفاته فى الحرارة وسطوة التدابير والغيرة فى اكتساب مجد الانتصار ما كانت تحتمل قداً لها مماثلاً اياه ولا ريساً يسموه افعالاً حتى ان المومنين رفقاه كانوا منذهلين من تصرفاته المجيدة ليس باقل من الغير مومنين ولين كان توبيخه احياناً مهيناً لبعض المحاربين معه ❊

وقد كان الانام الشرفا الذين من غازكونيا ولانكادوك وليموزين وافرنيا والبرونانص اجمعون مرافقين رايموند وادهمار وفيما بين هولاء النبلا وجد بسمو الاعتبار هرقل كونته ده بولينياك

وغوليانوس ده ساربات وروجار كونتة ده فواكس غوليامو سيد مونت بيلير ورايموند بلات سيد آلامر وايزارد كونتة ده ديا وراميوت كونتة ده اورانج ورايموند ده نيلّ واسيارفوراس وكليرمون وجارارد كونتة ده روسيلون وغاسطون فين كونتة ده بيارن ورايموند فيس كونتة ده طوريفا وغوليامومس ده اورجال كونتة ده فولكاكير ثم اسافقة ابت ولوديف واورانج مع رئيس اساقفة طوليد الذين هم ايضاً كانوا حاملين الصليبات المقدسة وهولاء السادات الكرام كانوا متقيدين صحبتهم الجماهير الغفيرة من رعاياهم نحو بلاد فلسطين ☆

فاذاً رايموند القايد الشيخ العظيم كان سايراً على روس جيوشه المؤلفين نحو ماية الف نفر صليبي وقد اجتاز بهم الجبال الالبية وبلاد لومباردية والتريول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية ماراً بمشقات مع عساكره في بلاد مجهولة وقتيذ وبين شعوب بربرية من اقاليم دالماسيا ☆

فهكذا كانت جيوش الحرب الصليبية المختلفة الضخمات تحت تدابير الامراء الكليى الاقتدار والشرفا المشجعات والنبلا الكرام ذاهبين بعزايم راسخة لاجل استخلاص قبر المسيح المقدس من العبودية وعلى هذه الصورة وجدت عظيمة حركة شعوب اوروبا الذين تبعاً لها حركة حنة كوفيتوس قد زعزعت ممالك الاروبا من اساساتها وكردست جيوشها فى اقاليم الاسيا لا بل ان المورخ المعاصر روبارتوس الراهب اذ اراد ان يشير الى ذلك قد استعار الفاظ اشعيا النبى قايلاً لا تنوحنّ نحو الشمال بقولى اعطنى اولاد لى ونحو القبلى قايلاً لا تمنع مجيهم اليّ فانا اقول ابنى من الاقاليم الاكثر بعداً وبناتى من اقاصى الارض (فالمغرب كقول احد المورخين) قد شوهد متقيداً باجناز عجيب زوار المسيح بعدد كانه يوازي عدد رمل البحر ونجوم السماء ولكن

الصعوبة والموانع البديهة قد اعاقت مسيرهم عند شطوط البوسفور واخرت دخولهم المشتهى بحرارةٍ متقدة الى اراضى سوريا ☆

فعلو تخت القسطنطنية قد اهبط حينيئذٍ سيده المحسن اليه على ان الملك الكسيوس كومنينوس قد كان هو نفسه استدعى الامراء اللاتينيين الى جوف مملكته ولكن عند مشاهدته وفور كثرة هذه الجيوش الغربية داخلة فى حدود اقاليمه قد شمله الخوف الباطن واستحوذت عليه الندامة من انه قبلاً التمس من ممالك المغرب نجدتهم لاسعافه بعساكر هكذا قوية فاذ حصل هو مرتجفاً رعباً باطلاً على مملكته فعوضاً عن ان يوافق غيرتهم قد فكر في ان يخترع لهم موانع تصدّ قوادهم الاقويا وشدة باس عساكرهم فهذا الملك الضعيف القلب والشديد المخايلة الباطلة شرع يخاتل الغربيين ويعامل بالقساوة الصليبيين لاسيما لان ابنته حنة كانت تصوّره ملكاً تاماً غير مصدّق مشغول قوة هذه الجيوش فعيناه تغشيتا بمغايرة خفية ولم يكشف عن ذاته سوي علامات متسلط حقيقى وباطناً درس فى ان يعطل غايات هولاء الصليبيين المقدسة فلقد كان يمكنه ان يمشي هو معهم راساً على جميعهم بقلبٍ شريف وروح عالية ويكتسب بهم راية الغلبة وعلامة الظفر العظيمتين فى بلاد فلسطين ولكنه قد عمى بروح عدم ثقته بهم وتغلب عليهِ سابق خوفه منهم وقلق ضعفه العديم الفطنة وظن انهُ يكفيه ان يخادعهم لنظرة حال كونهم فى مسيرهم تكبدوا مشقات كثيرة فاذاً قد انفذ هو كثرةً من عساكرهِ الى الامكنة العارف بانها عسرة المجال على الصليبيين ومفيدة للنصرة عليهم وفى الوقت عينه ارسل الى قوادهم المقصودين من قبله يهنيهم بالسلامة ثم ان هوكز كونته فارمنداوس من حيث انه فى البحر قد غرق مركبه والخذف

الى شط الابيروس سالماً فالملك المذكور ارسل اليه حالاً حاكم دوراتسيوس واحضره الى قرب القسطنطينية باكرام واحتفال وافرين ولكنه بعد ذلك آمر بان يقيدوه الى ضمن هذه المدينة بمنزلة اسير محبوس ظاناً بحبائنه انه اذا حفظ فى سجنه اخا سلطان فرانسا المذكور بمنزلة رهينة ضد اعمال اللاتينيين المزمع حدوثها كان يفيده ذلك ❊

غير ان نوع تصرف هذا الملك الناقد الاركان حينما ظهر هكذا لدى امراء الجيوش الصليبية واستبان لهم عدم امانته وارتيابه بهم فحالاً البغضة والاحتقار حل فى قلوبهم ضده عوضاً عما كانوا قبلاً يعتبرونه بالوقار والتكريم ثم انه اذ بلغ الى مدينة فيليبو بوليس غودافروا ده بويون قد سمع باسر هوكز اخى سلطان فرانسا محبوساً وقد التهبت نفسه بحرارة الغيظ الشديد ومن ثم لم يقدر ان ينال من الملك تعويض هذه الاهانة باصلاح ما فرط منه فلم يعد يصغى هو الا الى صوت الانتصار ومن ثم شرع يعامل اهالى تلك الاصقاع معاملة حرب اعداء وهكذا اراضى تركيا قد ادمرت باوامره وسكانها اضحوا موضوع مفاعيل رجزه العادل وفى حال مصابهم هذا مملوين خوفاً هربوا متقاطرين الى جهة القسطنطينية ملتمسين طريقة لخلاصهم فحينئذٍ الملك اليكسيوس اذ تحقق ما حل بهم من النقم والانتقام واعتراه الخوف من اللاتينيين قد وعد بان يعطيهم ما كانوا يطلبونه منه وسنداً على هذا الوعد قايد الجيوش الصليبية كف الحرب عن البلاد وشرع يسير بعساكره فى اصقاع الروم منصرفاً معهم كانهم اخلاً كنى زمان الصلح وبالتالى اجتازوا اراضيهم خلواً من عوارض جديدة ❊

اما الملك اليكسيوس فمن حيث ان روحه كانت اسيرة

لنوع طابعه المحب المخاتلة قد فكر واعتمد على ان يقيد الامرا اللاتينيين بصورة تصرفه الى ان ياتوا اليه متواضعين امام قدميه وهو يستخدمهم كمروسيه تابعين ادنى اشارة عن اوامره وارادته ❊

كما ان اخا سلطان فرانسا الذي كان اسيراً عنده قد انخدع من تمليقات هذا الملك واجتذب من هداياه فقد ابرز امامه القسم الاحتفالي على الطاعة له وحفظ الامانة بالخضوع لاوامره وبعدم الانحراف ضده وبهذا الثمن المشتهر قد اشتري منه عتقه من الاسر وهكذا انطلق الى الجيوش الصليبية فعند اجتماعه بهم اظهر علامات الفرح ولكن هذا السرور قد زال بالكلية حينما عرف عند الجميع على ماذا هو نال العتق وما هي الشروط التي ارتبط بها وماذا كان ملتزماً بان يترر لتايد الجيوش على لسان الملك وبالتالي ان الاشراف الفرنساويين على مجرد سماعهم انه كان يلزمهم بموجب تلك الشروط ان يتخضعوا كمروسين لملك غريب قد امتلأوا غضباً رافضين ذلك ومعتمدين على مقاومته فهذا الرفض المترفع اوعب الملك كيداً ورجزاً وظن انه يقدر ان يغصبهم الى الطاعة لاوامره بواسطة الجوع بمسكه عنهم الذخاير الضرورية للمعاش وعلى هذه الصورة بقوة مراسيمه قطع الاتصال مطلقاً فيما بين القسطنطينية وبين مضارب هولاء الجيوش ومنع نفود انواع القوت كلها اليهم غير ان رايه هذا بات يقودهم الى اتباع مشيئته بالاغتصاب قد كان بيس الراي لان قايدهم باتفاق باقي الروسا قد اشتد غيظاً من غلاظة هذا التصرف ومن المخادعات التي عاملهم بها الملك وقد اعطى علامة الحرب واطلق العساكر ضد القري والمحلات المجاورة القسطنطينية وهولاء شرعوا في مدة ايام ينهبوا الموجودات بشراسة كلية حتى ان مضاربهم امتلأت من الخصب من كل نوع ولكن من

حيث ان عيد الميلاد كان افترب زمانه فتحركت فيهم واجبات الديانة والقناعة وهكذا كفوا عن اعمالهم الحربية وحينيذٍ صارت المراسلة فيما بين الجهتين فيما للصلح. والملك ارتضى بان تُعطَى للصليبيين ذخاير المعاش وقد استبان على هذه الصورة هدو الخواطر وتوطيد الصلح *

غير ان هذه الامور انسلامية قد استمرت زماناً يسيراً لان هذه المعاطاة الاجتماعية ظاهراً وعدم الاركان وقلة اليقين فيما بين اليكسيوس الملك وبين غوادافروا قايد الصليبيين العام قد جعلت الامور فيما بين اللاتينيين والروم ان تنتقض مراتٍ مترادفة وتقضي الى سفك الدم ثم ان تصرف بوهيموند امير تارنتا العديم الفطنة والملو جسارة قد اوقع فيما بينهم نوعاً جديداً من عدم الاركان والخوف على ان حرارة هذا الامير ذات العجرفة الخادعة روحه قد بحثت في مخيلته ان يحارب مملكة الروم فاعتمد على ان يمتلك في الاول المدينة القسطنطينية ومن ثم مشى نحوها بما كان معه من العساكر ولكن عند قربه من مدينة دوراتسيوس قد بعث رسلاً الى غودافروا كي يوعبه سراً اعتماده المرقوم ويجذبه الى الاتفاق معه عليه غير ان هذا القايد الصليبي الحقيقي قد رذل ذلك الراي رذلاً مطلقاً بحرارةٍ مظهراً لهولاء الرسل الصليب المعلق علي صدره مشيراً بذلك الى انه كان هذا الصليب امام عينيه دايماً ليذكره خلواً من كفاف بانه انما اتخذ الاسلحة ليحارب بها الغير المومنين لا المومنين *

اما الملك اليكسيوس فمن دون اعاقةٍ قد فهم ما اضمر به امير تارنتا ولكي يلجو من غايلته قد اجتهد في ان يكتسب لذاته صداقة غودافروا ومحبة الامراء الذين برفقته ومن ثم اراد ان يرفع المخاينات من الوسط ويضع حداً لمنع الحرب فارسل

مع معسكر الصليبيين بمنزلة رهنية ابنه يوحنا الاوفر معزةً لديه وحينيذٍ غودافروا خلسواً من قلة اركان دخل القسطنطينية ونزل في قصر الملك عينه (وعلى ما اورده البارتوس المورخ الذي من اكس) ان الملك عند مشاهدته هذا القايد العظيم والامرا الذين صحبته بتلك الملابس الناخرة الكلية الثمن المزينة بالالماس والذهب وكيف ان البرفير والارجوان كانت اعتياديى للبوس اهالي المغرب قد انذهل متعجباً ولكن هذا الانذهال قد اعترى في الوقت نفسه هولاء الامراء اللاتينيين عند نظرهم المرة الاولي كم كان عظيماً مجد تلك المدينة الملوكية وفخرة عماراتها وزيناتها وثروة غنايها وفرادة اشكال موجوداتها وبهاء جمال ترتيبها (كما يقول احد المورخين هاتفاً) يا الجمال هذه المدينة العظيم يا سمو ارتفاعها على المدن ترى ما هي هذه الديورة وما هي هذه الزينات الكاينة في رحاب فساحتها وفي مجلات ازقتها فالامر يوجب الاسهاب في الاطناب اذا اريد ان يسرح مفصلاً كل ما حوته هذه المدينة من الخزاين والثروات الغنية ومن الذهب والفضة ومن الاقمشة الفاخرة ومن الذخاير المتقدسة ايضاً ☆

ثم ان الملك اقتبل هولاء الامراء بكل بشاشةٍ وعذوبةٍ معانقاً اياهم الواحد بعد الاخر بموجب رتبتهم وهم كذلك كانوا ينحنون امام العرش الملوكي الشرقي ويسلمون بالجثو على ركبهم بالاحترام والاوقار على شخص هذا الملك العظيم وبعد هذه التكريمات المتبادلة فالملك خاطب غودافروا قايلاً اننا لقد سمعنا من المخبرين انك انت هو احد النبلا المسيحيين والخيال الشجاع الاوفر مديحاً ورجولية الذي لاجل امانة يسوع المسيح قد اتخذت صفة محاربٍ ضد الغير المومنين ولهذا نحن نحبك

من كل قلبنا ونريد ان نرفعك الى اسمى درجة ممكنة من الشرف والمجد لانك مستحق لذلك فاذاً نحن نريد ان نجعلك ابناً لنا ونضع مملكتنا في لواء حمايتك لكي تحفظها بحال جيدة وتحامي عنها ضد جميع اعدائنا (والمورخ برنردوس يضيف الى ذلك قايلاً) انه بعد هذا الخطاب الملك اكرم الفايد والامراء باحتفال وفرح عمومي وهكذا قد توطد الصلح فيما بينه وبين الصليبيين ✿

ثم ان هولاء الامراء اوعدوا الملك بان يرجعوا الى تحت ولايته المدن التي كانت مختصة بمملكته وبان يكرموه بباقي ما يستولون عليه واما الملك فقد حلف لهم بانه من جهته يسعف الصليبيين بكل الوسايط الممكنة له وهكذا يشترك معهم بالاخطار والمجد الملحق بهذه القضية المقدسة ✿

وقد اعتبر الملك هذا الاكرام والمواعيد من الامراء اللاتينيين بمنزلة انتصار ودليلاً لمعرفة الجميل قد اوعبهم من الهدايا ثم اصدر اوامره الى جميع رعاياه بان يقتبلوا الصليبيين بمودة ويعتبروهم اصحاباً مرتبطين مع المملكة بصلح اكيد ويقدموا الى مضاربهم مواد القوت وكل ما يلزم بسخاء وبهذه التصرفات حصل الفرح والسرور عند الجهتين اللتان بالصواب كانتا تعتبران الصلح وطيداً بينهما وتستبشران بحسن النهاية المبتغاة غير انه فيما بين الشعوب الروم واللاتينيين كانت الاراء مختلفة والاطباع متباينة والمزايا متنافضة فاذاً هل كان يمكن ان هذا الاتفاق يدوم مدةً من الزمان مستطيلة على ان التوهمات السابقة في عقول الروم من الغربيين لم تزل موجودة على الدوام حتى ان الملك اليكسيوس نفسه لم يكن يتلاشى من تصوراته ما كان مبجفاً فيها الحسبات عند مشاهدة جماهير هكذا قوية من

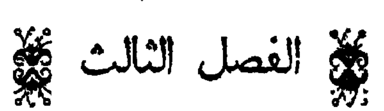
العساكر الملتهبة من كل الطوايف اللاتينية حول مملكته ثم ان غودافروا التقي لم يكن من جهته مستطيعاً ان يضبط ضمن الحدود الواجبة حرارة الشراسة المتقدة في عساكره المقلقة اياه باتصال واليكسيوس المرتعش رعبةً من فقدان بلاده قد اجتهد في انه اقنع قايد الجيوش المذكور بان يجعل مسيره من ناحية القسطنطينية الى اراضي اسيا من جهات البوصفور فهكذا العساكر الصليبية سافروا بالابتعاد مجتازين في امكنة عسرة فيها ضيعوا زماناً طويلاً اضامهم واضعف شجاعتهم بلا فايدة وجاؤوا الى المحلات التي فيها صادفوا مقاومات جديدة افضت بهم الى اكتساب انتصار مجيد ملايم لقوة بطشهم ❁

على ان الامرا الصليبيين بالمقابلة لما صنعوه في القسطنطينية بتركهم ذواتهم ان ينخدعوا من تمليقات الملك اليكسيوس ومن الهدايا التي قدمها لهم قد اخفضوا شدة حرارة جراءتهم امام عرش ملكٍ قد كانوا انذهلوا من فخفخته وموكبه وخزاينه فقدموا له جزية الخضوع واستعوضوا منه ثمن هذه الطاعة ضيافاته الانسانية ولطافة سلوكه معهم مضافةً الى اسعافه اياهم بكل الانواع التي كانوا يترجونها حتى ان امير نارتنا نفسه المملو من الفخر والفطحلية ومحبة التغلب لم يعد يمكنه ان يقاوم مواعيد الملك السامية ودلايل الصداقة والمودة الاكيدة التي اظهرها لهم بل رفض عزمه الذي كان هو اعتمد عليه قبلاً ضده وخلواً من ارتياب في امانة ما حلف قد ابرز هو القسم الاحتفالي امامه بان يكون من اخص الخاضعين لسلطانه اكثر من رعاياه انفسهم الاوكد امانةً في طاعته وهكذا الملك اليكسيوس وعد من جهته هذا الامير باتساع ولايته وابتهج بمشاهدته شراسة هذا الانسان المقتدر في الحروب قد خمدت وابخار حبة الغلبة قد تبددت فروبارتوس

كونته ده فلاندره ودوكا ده نورماندیا واسطفانوس كونته ده شارتره وده بلواز وریمند كونته ده طولوزا قد بلغوا بعد ذلك الى القسطنطينية مع العساكر التي برفقتهم من اهالي حكوماتهم وكلهم واحداً فواحداً قدموا للملك جزية الاكرام والاوقار المتضع فامرٌ يوجب الاندهال والكدر معاً هو ان هولاء الامراء بجيوشهم المقتدرة ومزايا شجاعتهم الفريدة التي كانوا مزمعين بها بعد حين ان يكتسبوا مجد سفرهم هذا الصليبي كما كان الامل عند الجميع يشاهدون في وقت ذهابهم لاكتساب الانتصار راكعين على ركبهم ومواضعين جبهاتهم امام ملك غريب كان هو نفسه مرتجفاً منهم خوفاً من انهم يدثروا مملكته بهذه الصورة الاولى التي تقدمها امام اعيننا تواريخ الحرب المقدسة هي محزنة وغير مظنونة فالمورخون قد فتشوا على ما به يعذرون تصرفات هولاء الامراء بقولهم ان خضوعهم لهذا الملك كان غير اكيد كشي عابر طريق لا بل كاغتصابي وان القسم الذي ابرزوه له قد كان بصورة كانها باطنة لان نية كان يغضي الى صورة اخري وهي انه به كان يقدم للملك نوع من الاكرام والاحترام وان هولاء الصليبيين كانوا مرتابين نوعاً في حقيقة نهاية الحرب ولم تكن فيهم قوة كافية للمعركة مع قوى اليكسيوس وكانوا موضوعاً غير قابل ان يقاوم دونة مثل هذه حسرة مطلقة (فيقول المورخ راهب دير القدس رامي) انه لا يعجب اصلاً من الحلف المصنوع من امراء كلي الشرف اذا كان ههنا يصير التامل في انهم بالقسم حققوا ان لا يصنعوا الشي الذي ما كانوا قادرين ان يفعلوه بالخلاف على انهم كانوا منطلقين ليدخلوا في اراضي مقفرة حيثما لم يكونوا عتيدين ان يصادفوا سوى الاعداء والصناء والتلحط فمن هذا التبديل يبان ان الامراء ما ابرزوا ذلك القسم الا

قهراً عن ارادتهم ولكننا نخجل من ان نقول انه وجد فيما بينهم واحداً فقط شريف وشجيع قد اضحى عديم الانقلاب فيما بين جميع ما اظهره نحوهم الملك من الاكرام الذي يخدع اشد القلوب وهذا هو قد كان الرجل الشهير تنكريد الذي اسمة قد وجد دايماً في اخبار الحرب الصليبية ممزوجاً مع الاعمال الجميلة وهذا البطل ذو النفس الشجاعة لم يرد ان يخضع ذاته لابراز قسمٍ كان هو يلاحظ ترجيم عدم امكانه على حفظة فاذاً هذا الشريف اذ ندب حال ضعف الامراء ارفاقه قد ابتعد عن تلك المدينة المملوة من مشاهد الفخفخة الشرقية والبذخ ومن سخاء ملكٍ غني ومن ملذات التنعم التي ارخت عزايم الصليبيين التقوية وقد تبعه جانب جزئي من المحاربين ومعهم قد اجتاز هو الى شقة البحر الاخري داخلاً في بداية اراضي اسيا المزمعة عن قريب ان تكون مشهداً لافعالهِ المضية فمقاومة تنكريد هذا الشريف لابراز القسم قد كدّرت فرح الملك الخدّاع لاسيّما لان تدابيره الرفيعة التي بلغ هو بها اربة من الامراء الصليبيين لم تكن كافية لان تزيل عن روحه عدم اركانه بهم وخوفه من مقدرتهم وظواهر محبتهم الانتصار ولذلك كان هو دايماً يرتعش من شجاعتهم فيوماً كان يبلغ القسطنطينية اناس من النبلا الصليبيين القادمين من اوروبا وهو كان فاتحاً لهم خزاينه لاجل اسعافهم لكي يصل هو اخيراً الى الامنية منهم كونه متحسباً جداً من غوايل تكاثرهم في تخت ملكه فاذاً قلق روحه لم يسكن وانزعاج افكاره لم يكف الا بعد ما كانت الامراء والعساكر اجمعون قطعوا خليج البحر وانتقلوا الى جهات البوسفور وحينيذٍ هو امتلك تقليل الخوف منهم خلواً من ان يتلاشى عنه بالكلية اما الصليبيون فغب اجتماعهم

بجيوشهم في سكاري اسيا قد هيأوا قوة اسلحتهم لمحاربة الغير المومنين كما كان ينبغي والملك اليكسيوس انسحب الى مخادع قصره وكان نظره عن بعد يلاحظ مسير الجيوش المسيحية غير متغافل عن استعمال الوسايط التي بها كان يومل ان تحصل منهم الافادة لمرغوباته بقوة انتصارهم على اعدائه ✱



الفصل الثالث

في كيفية سير الصليبيين ضمن اراضي اسيا وفي حصار مدينة نيقيه وفي المعركة التي حدثت في دوريله

فالجيوش الحربية بعد انتظامهم في بداية اراضي الاسيا قد اخذوا بالمسير بقلوب شجيعة فرحة في اقاليم البتينيه المخصب في السهول ولكن هوذا مشهد مخيف قد تكون لديهم بغتة واقلق ابتهاجهم الذي به هم كانوا معتزين في تقدمهم داخل البلاد وهو انهم على الفور شاهدوا اناساً كثيرين ذاهبين اليهم من الجبال والبراري القريبة مساكين نصف عراة باجسام مجرحة مضنوكين جداً من الكد والتعب والجوع وباصوات باكية كانوا يلتمسون المعونة من هذه العساكر المسيحية فهولاء القوم المظلومون كانهم عدد جنود المسيح وبالتالي كانوا من احباء الصليبيين واخوتهم اي انهم كانوا من تلك البقايا الذين لبثوا في الحيوة من الجماهير التي كانت برفقة بطرس السايح الذين اختفوا فيها بين الصخور وتحت كهوف الجبال وضمن الاحراش وبذلك خلصوا من الموت الذي به الاتراك ابادوا اخوتهم فالجيوش الصليبية عندما رأوهم في الحال السيئة المشروحة انعطفت احشاؤهم الرأفة نحوهم واخذوهم الى مضاربهم معتنين بهم وهولاء المساكين

لما نظروا ذواتهم فيما بين اخوتهم الذين لم يكونوا ان يشاهدوهم قد نسيوا جميع شدايدهم ومصايبهم المرة وحيثما اخبروا الصليبيين بجميع ما حلّ بهم فى تلك المدة فقلوب السامعين تفطرت حزناً على نوايبهم وكل احدٍ كان يندب تعاسة مسير بطرس السايح وغوتيار والدموع تهطل من عيون الجميع باشفاقٍ وحالاً قلوب هذه الجيوش استوعبت رجزاً ضد الغير المومنين وعزماً شديداً على الانتقام منهم عمّا فعلوه مع اخوتهم وقد تضاعف في البابهم هذا الغيظ الشديد حينما شرعوا فى مسيرهم يشاهدون فى تلك الاراضى عظام الموتى وفضلات امتعتهم الفانية وبقايا اجسامهم المحزنة المنظر التى هى اثار الصليبيين الاولين المقتولين فى تلك الاصقاع وهكذا جميعاً جثوا على ركبهم ورفعوا اصواتهم نحو السما ملتمسين من العزة الالهية الرحمة والاشفاق عليهم ثم نهضوا بقلوب شجيعة وعزايم متفقة على الحرب خلواً من مبالاة بالاخطار والموت نفسه الى ان ينتقموا عن دما الشهدا الاولين اخوتهم الصليبيين والى ان يستنقذوا قبر فادى العالم من النفاق ومن عبودية قاتلى ارواقهم فعلى هذه الصورة اذ تعززت قلوبهم بالامل وكانت تتزايد فيهم المسرة والثقة بالرجا فى نوال الانتصار بمقدار ما كانوا يلاحظون حسن الترتيب ومصافاتهم ووحدة اتفاق راي فوادهم ونشاطة عزايم اجواقهم ودلايل دوام حرارة شجاعتهم فهذا الرجا بتاكيد فوزهم بالغلبة بمعونة الله التى هم كانوا واثقين بها قد املا طغماتهم ابتهاجاً عاماً وقد كان زمان مسيرهم هذا فى اوايل فصل الربيع وكانت الاراضى مكتسية بالعشب والزهور كما ان الزروع الناشية وعدالة الطقس بالصحو وعذوبة المناخ وخصب الحقول وبشاشة المنظر في اقليم البتينيه قد اذهل اعين هولاء الجيوش وازال من احشايهم التوجع

الذى تكبدوه قبلاً بمشاهدتهم اخوتهم فى تلك الحال وحرك فيهم الاسراع بالاقبال نحو تلك الامكنة الغنية الى حد نهاية سفرهم فعلى هذه الصورة الجيوش الصليبية بحسن نظام وقوة شجاعة كانوا يتقدمون نحو مدينة نيتيه الى ان نصبوا خيامهم بالقرب منها ☆

فمدينة نيقية قد كانت راس اقليم البتينيه وتحت مملكة الروم الاصلية (التى كانت تمتد من حد نهر الفراة والعاصى الى حد شط البوصفور وكانت تحوي ضمنها المقاطعات والاقاليم الاكثر غناء فى الاسيا الصغرى) فهذه المدينة الشايعة الصيت منذ الجيل الرابع بسبب التيام المجمع المسكونى الاول فيها من ثلث ماية وثمانية عشر اسقفاً فيه نصروا معتقد الايمان ضد ارتقة اريوس قد كانت الى حين قدوم العساكر الصليبية نحوها لم تزل مجملة معتبرة مزهرة ولاجل ذلك الاتراك كانوا متخذينها مركزاً كريماً لديهم محافظين عليها كركن موافق لهم للتقوية والجهاد ومنه بسهولة كانوا معتمدين الاستيلاء على القسطنطينية ومنها الامتداد فى الاوروبا وقد كان وقتئذ رئيساً على عساكرهم الكاينة فى تلك المدينة سلطانها ابن سليمان داوود الملقب كيليدج ارسلان اي سيف الاسد الشبيه بشجاعة ابيه والوارث فروسيته وجودة عقله فهذا القايد عندما بلغه خبر تجهيز العساكر الصليبية قد استعدّ وجمع تحت سلجقه اخص جهابزة الاسلام واشجع رجالهم ليس فقط فى كل اقاليم الاسيا الصغري بل ايضاً من بلاد العجم بطغمات عديدة من الجيوش التى التيمت تحت رايته بعزم وثيق موطد من قبل زيادة افراط تمسكهم بديانتهم على ان يعاركوا العساكر الغربية من كل ناحية الى الموت ☆

فبموجب اوامر كيليدج ارسلان كانت مدينة نيقيه تجهزت جيداً بالتمكين والتحصين لانها هي المدينة الاولى التي كان الحرب الغربي مزمعاً ان يضربها وهكذا عند وصول الجيوش المسيحية الى نواحيها كانت هي حاصلة على جميع الوسايط المرتبة بفطنة لحمايتها من كل نوع من الذخاير لاسيما لان موقعها في محلها كان يبان انه عديم الانغلاب حامياً اياها طبيعياً ايضاً بانها محاطة بجبال عالية ومحجوزة من جهتيها القبلية والغربية بالبحيرة الواسعة المدعوة اسكانيوس المتصلة بالبحر ☆

ثم انها كانت محصنة ما عدا ذلك بخنادق عميقة جداً تحوطها وغب الخنادق كان لها سور عريض متين يدورها وضمنه بامكنة متباينة مشيدة ثلثماية وسبعون برجاً شاهقاً يحتوا كل منها عدداً غفيراً من العساكر ثم فوق الارض المستعلية بالقرب من المدينة كان سلطان الاسلام المذكور مقيماً راساً على مائة الف محارب من الرجال كانت سيوفهم مهيات الى الاندفاع على العساكر الصليبية لكي يصدوهم عن البلوغ الى هذه المدينة ☆

ولكن هل ان هذه الصعوبات والموانع كلها امكنها ان تبرد حرارة شجاعة الجيوش الصليبية المتقدمة العديمة الصبر عن التوقف والتماهل بالحرب . كلا لان اشواقهم الحارة نحو اعطائهم برهاناً مضيئاً على غيرتهم ورجوليتهم في بداية دوسهم ارض الاسيا لم تكن تنتصر الا ان يسمح لهم بالهجوم قبل بوقت على هذه المدينة القريبة من انظارهم فاذاً تبعاً لما اعتمده ديوان مشورة القواد الصليبيين قد اشهر الامر بحصر المدينة المذكورة وغب ان تعينت المحلات لكل طغمة من العساكر حولها فجميع الجيوش العظيمة الكمية قد ضربت خيامها في السهول المحيطة بالمدينة . فيا له من مشهد مذهل جليل ٠

شوهد مثله قط فى اراضى البتينيه منذراً بحرب ٍ مهيلة على ان عدد هولاء الجيوش كان قريباً من ان يوازي عدد الشعب الاسرائيلى حينما اجتاز البحر الاحمر بان العساكر الركاب على الخيل كانوا ما ينيف عن ماية الف خيال والعساكر المشاة كانوا نحو خمسماية الف محارب وبالتالى ان اخص جنود اوروبا الفطاحل هولاء انما انتقلوا من بلادهم الى هذه الاصقاع البعيدة لكى يناقضوا ابنا محمد بالولاية حتى اصقاع الاسيا التى كانوا اختطفوها واستملكوا غناها . فهولاء الصليبيون كانوا وقتيذٍ مولفين من عشرة طايفة وقبيلة مختلفين باللغات والعوايد والاخلاق تحت تدبير قوادهم وحكامهم ذوي اجناسهم الذين كلٌ منهم نصب مضاربه وحده مميزاً عن الاخر صحبة رجاله محاطاً بتحصيناته الخصوصية ما عدا الصخور وعظام الاموات الذين قتلوا من الصليبيين الاولين اذ انها استخدمت بمنزلة متاريس كونها كما ذكرنا قبلاً وجدت ملقاة فى الاراضى بلا دفن مجردة يابسة كالحجارة ثم انهم اقاموا فى كل محلة من اجواق تلك الجيوش مضرباً عظيماً فاخراً بمنزلة كنيسة فى اعلا ارض من المحلة وفى هذه المضارب الجميلة شرعوا جميعاً يمارسون واجبات الديانة المسيحية بحسن عبادة لله كانهم فى كنايس شهيرة بمذابحها المقدسة متوسلين لعزته الالهية بان يبارك شجاعتهم الغير المغلوبة لينتصروا على اعداء المسيح ✿

فعساكر الطايفة الفرنساوية كانت فيما بين ساير الطوايف المجتمعة فى تلك السهول ضابطة المقام الاعظم والاسم الاجل كما يتحقق ذلك اتفاق لهج المورخين المعاصرين الذين كتبوا اخبار هذه الحرب المقدسة الاولى اذ انهم فى تكلمهم عن حوادثها اعطوا طايفة فرانسا الالقاب الامجد والنعوت الافخم ملاحظينها

متقدمة في كل شي على الطوايف الاخر فاحد هولاء المورخين بعد ان تكلم عن كلٍ من الامراء الصليبيين وعن المحل الذي كان هو وابناء طايفته نازلاً فيه حول مدينة نيقيه يشير الى خبرية حسار بليون ذات الحكاية الاستعارية ويضع ابطال هومير تحت ابطال روسا الجيوش الصليبية مقايساً تفضيل العساكر المسيحية على العساكر الاسرائيلية وبعد ذلك هو ينتقل من الاستعارة الى المديح هاتفاً بقوله. سقياً لكِ يا فرانسا ايتها الطايفة التي يلزم ان تعلو سمواً على ساير الطوايف كم كانت محلات مضاربكِ جميلة ومصافاتكِ بهية حول نيقيه بعساكركِ الشجعان في اراضي الروم فالله يحفظ اولادكِ باتفاق لكي يستطيعوا ان يمتلكوا موضوع اشواق قلوبهم الذي هو مدينة اورشليم ✿

واما انواع الاسلحة التي كانت بايدي الجيوش الصليبية فهي الحراب والمزارق والسيوف والارماح والخناجر ونوع من النبابيت التي بضرب نبوت واحد منها يرمى العدو في الارض متلاشياً ثم المقاليع التي تستخدم لرشق الحجارة ولحذف الطابات الرصاصية وكذلك القوس والنشاب بالنوع الذي الشرقيون كانوا وقتئذٍ يجهلون استعماله ثم ان الاشراف وانروساء النبلا كانوا لابسين الزروخا والدروع التي من حديد او من بولاد والجنود ركاب الخيل كانوا يحملون الدرق والاتراس المدورة والمربعة ثم الاتراس الطويلة التي يمكنها ان تحجب الجسم كله في خباها ولكلٍ من القواد كان سنجق خصوصي تتلالى في اعلاه انواع من التصاوير والتماثيل بالوان مختلفة تستخدم للعساكر اشارةً يفهمون من استعمالها المختلف ما يلزم ان يمارسوه كما كانت مرسومة في البيارق صور صلبان واسد ونمورة ونجوم وابراج وغير ذلك وهذه الاشاير المتميزة هي الانام الشرفا واما عند الجيوش الصليبية فلم تكن وقتئذٍ مقصودة

سوي علامات وتماثيل كأنها تستدعي المروسين الى استماع اصوات روساهم وتستنشد الله لمعونتهم فى الحرب وتصوّر امام عينيهم ما به يتوطد رجاهم وتنتاش شجاعتهم نحو المعركة ☆

ثم ان الصوت الرياسي باوامر الحرب لم يكن مختصاً بواحد فقط للجيوش الصليبية حين المعركة بل ان كل واحد من الامراء والحكام فى محلته الخصوصية كان يرتب عساكره ويدبر محارفتهم بما كان يرى ملايماً للحوادث الحربية بنوع ان تلك الجيوش الصليبية كانت تصوّر نوعاً من المشيخات العامة المولفة من عدة اعضاء رياسية لم يكن موضوع تدبيرها الا الديانة وشرف الاسم وهكذا الجميع من قواد وعساكر لم يكونوا يتوقعون شياً مشوقاً اليه منهم الا الوقت الذى فيه كلٌ يظهر بالعمل ما هو عظم غيرته وحسن محاربته وجهبزية شجاعته ثم ان الكهنة الذين برفقتهم كانوا على روسهم محافظين وبانموذج الحسن اياهم معمرين وقد تلالاء على الجميع بالفضايل والغيرة رئيس هولاء الكهنة السيد ادهمار جايلاً من محلة الى اخرى مفتقداً الجميع مجتهداً فى ان يذكرهم بواجبات الشريعة الانجيلية وهكذا الصليبيون بحسن طاعتهم لارشادات الكهنة والسيد المذكور كانوا سالكين بالفضايل والاداب والاستعدادات المقدسة لكى يستحقوا بذلك المعونات السماوية ☆ (وحسب تقرير المورخين العيانيين كانت هولاء الجيوش طول زمان محاصرتهم مدينة نيقيه خالين من افعال تستحق اللوم فاذاً كان يتوطد الامل بنجاح هذه الارسالية الاولى بواسطة حسن نجابة الاشراف الاجلا واذا كانت احياناً الاخبار المتاخرة عنهم مختلفة كما يحزن القلب فهاهنا قلما يكون ما صدر منهم وعنهم مشاهد مكدرة او متقلات غير واجبة ولا مفيدة او انقسامات مضرة بل الاعتبار مرافق شرف

اعمالهم الحربية) ثم ان الانسانية كانت تمدح فيهم خلواً من ندبٍ على شي غير ملايم شرف انتصارهم فالمحاربات التى تباشرت منهم ضد المدينة فى الايام الاولى من محاصرتهم لم تكن ذات نصرةٍ خصوصية بل ابتدائية ولين كانوا اظهروا فيها افعالاً كلية الشجاعة على ان العساكر الاسلام الذين كانوا محافظين المدينة ضمنها اذ تضاعفت شدة عزايمهم على المحامات عنها وعن الخزاين الغنية جداً التى فيها من قبل الرسايل المتواترة اليهم من سلطانهم كيليدج ارسلان فقد اباحوا قواهم وعظم باسهم فى صد الصليبيين عنها ورد هجماتهم القوية ضدها ومنع تقدمهم اليها لا بل ان السلطان المذكور نفسه انحدر بعساكره من اعلا الجبال التى كان معهم فوقها وهجم بهم على هؤلاء الجيوش المسيحية بجهادٍ عنيف حتى انهم رجعوا الى حدود متاريسهم الاولى ثم ان المحلات المحصنة بمضارب الاميرين غودافروا ده بوليون ورايموند ده طولوزا كانت هي التى قبل الجميع اضطرمت بنيران الحرب الشديد بهجوم الاسلام عليها فجيوش الامراء الاخرين حينما شاهدوا هجمات الاسلام هذه الباغتة بعزمٍ قوي شرعوا يرتدون الى الوراء الا ان اصوات السيد ادهمار وشجاعة الروسا والقواد قد صيرتهم ان يعودوا بجراءةٍ الى مصادمة الاعدا فالمعركة اضحت دموية والجهتان اظهرتا فيها منزهات الرجولية الجهبزية (كما يقول المورخ متّى الذي من اوديسّا) ان جهتي عساكر النصاري والاسلام قد تصادمتا معاً برجزٍ وعنفٍ وقد كان يُشاهَد من هذا الفريق ومن ذاك لميع الذروخا والحراب والمزارق والدرق وكان يُسمع رعد مزاحمة الاسلحة وملاطمة الاتراس ومدافعة الحراب عنها كما ان الفضاء كان يرن من صراخات الفريقين باصوات مرعبة والاراضي شوهدت مصبوغةً بالدما . والخيول من

هذه الاصوات والملاطمات طحمت عنفاً عن لجاماتها فالبطل كان يشاهد متعاركاً مع بطل نظيره وشبه اشبال الاسود الجهتان بغضبٍ شديد فى موقعة هذه المعركة تحاربتا بباسٍ رجولى فريد ❊

ثم ان غودافروا وتانكريد وغيرهما من القواد كانوا نظير البرق مجتازين فى ظهور خيولهم الجامحة من محلةٍ الى اخرى زايرين كالسباع ضد الاسلام موعبينهم من الرعدة والهلع ومسقطين منهم بسيوفهم قتلا على الارض انفار بلا عددٍ واما الانتصار والظفر الذي فى دوام المعركة كان مجهول حكمه للفريقين فقد بلغ اخيراً غايته بتاج الغلبة لجيوش الصليبيين على الاتراك الذين بانكسارهم ادبروا هاربين وفرسان الغالبين جرت فى ظهورهم الى ان احتمى الباقون منهم فى حراش الجبال ❊

غير ان الاسلام لم يبالوا بهذه الكسرة ولم تقل بها جراءتهم لانهم فى اليوم التالى عند شروق الفجر غلساً كيليدج ارسلان الغيور على ان يستعوض عن جهل عساكره في اليوم الماضى قد ظهر مع جيوش فى سهل نيقيه وحينئذٍ معركة جديدة شديدة ابتدات بين الفريقين واستدامت برجزٍ واحتدادٍ قوى من اشراق الشمس الى المغرب فالاسلام الآيسون مع عدم نقص شجاعتهم قد استعملوا مع قوتهم كل انواع الخداع الحربى وكل اصناف الحيل والمدافعة والرجولية ضد الجيوش المسيحية ولكن هولاء الصليبيون ايضاً المتضاعفة شجاعتهم بنصرتهم السابقة والمشتدة غيرتهم على عدم خسرانهم المجد الذى اكتسبوه فى الظفر الاول قد حاربوا بشجاعةٍ جهبزية مجيدة اعداهم بمصادمات قوية ومناضلة غريبة فقدوا بها من عساكرهم موتى على الارض نحو الفين محارب الى ان تكللت معركتهم هذه بالنصر على الاسلام الذين قُتل منهم نحو اربعة الاف وقد قطعت الجيوش الصليبية روسهم

وبواسطة منجانيقات الحرب حذفوها على المدينة بمنزلة القبر الامر الذى اوضح للاسلام المحاصرين ضمنها حقيقة غلبة النصارى هذه الثانية عليهم ✫

فهولاء السراكسة من قبل الظفرين المذكورين ضدهم ضعفت قواهم والرعب شمل قلوبهم وكيليدج ارسلان اذ ايس من انه عاد يقدر ان يحمى مدينة نيقيه قد اهتم فى جمع المبددين من جيوشه ومر بهم فى اخر حدود الاقاليم وهناك كان يومل ان يجدد الحرب على العساكر المسيحية ولكن الجيوش الصليبية الاخص شددوا الحصار ضد نيقيه بقوة غريبة واستخدموا ضد اجدرتها واسوارها كل نوع من المنجانيقات والكبوش والات الحرب الاخر المستعملة لذلك الحين من الرومانيين القدما من البيزاويين والجنويزيين بعد الروم باشد فاعلية واحكم صناعة رافعين ابراجاً وقتية وطابيات عليّة وهكذا بشدة الضرب صارت تشاهد الاسوار من كل ناحية مندكة متساقطة حتى ان اجواقاً من الجيوش مدوا النبابيت من الطابيات الى السور بمنزلة جسورة فوق الخنادق وكانوا يجتازون من عليها الى اركان السور وبالمعاول ينقبونه وبهذه الانواع ادثروا من جوانب الحصون عدة امكنة ومن ثم اهالى المدينة ليأسهم تناولوا الاسلحة كافة ولكن باطلاً كانوا يدافعون عن ذاتهم برميهم فوق روس العساكر حجارة كبيرة مهدومة من الاسوار وكبايرمغموسة بالزيت ملتهبة واخشاباً مشعولة لكن هذه الاعمال كلها لم تضعف شجاعة الابطال المسيحية الذي لم يكن الموت يخيفهم لانهم شدوا عزايمهم على النصر (او على الموت بمجد) فاي نعم .انه كان يتساقط منهم باعمال اعدايهم المذكورة اناس قتلا ولكن هم ايضاً بواسطة حذفهم على الاسلام بالات الحرب حجارة كبيرة

كانوا يقتلون بها منهم كثرة من الاشخاص ☆

فهذه المحاربة استدامت اياما ولكنها اضحت يوما فيوما قتالة بزيادة لان الاعدا كانوا يرشقون المسيحيين بحراب ونشابات مسمومة وبهذه وبغيرها قتلوا منهم عددا وافرا. واحد المورخين القدما يورد نوعا اخر من الموت المرّ الذى تكبده اناس من الصليبيين وهو ان الاسلام كانوا يرشقون الحبال التى فى روسها كلاليب من حديد ضد النصاري الذين كانوا يصعدون عليهم من راس السور والذي كان ينشبك بالكلاليب كانوا يسحبونه حيا الى المدينة وغب ان يذيقونه عذابات مختلفة كانوا يعرونه من ملابسه ويصعدون به الى جهة السور الباقية تحت حمايتهم ثم يعلقونه حيا مربوطا في شرافات السور واخيرا يحرقونه ويرمونه على اخوته الذين اسفل بصورة مستكرهة جدا ☆

اما قواد الجيوش الصليبية ففى دوام هذه الحرب الدموية اظهروا من انواع الشجاعة والرجولية ما كان يخال عجيبا فايق الطبيعة لاسيما غودافروا ده بوليون الذى مارس امورا سامية ذايعة الصيت خاصة القضية الاتى شرحها التى ذكرها كل الذين كتبوا هذه الحروب وهى انه فوق اسوار نيقيه قد كان يظهر واحد من الاسلام شديد الباس عظيم القوة ذو جسم كبير نظير الجبابرة وكان يعيّر اقويا الجيوش الصليبية كانه هو وحده كان مقتدرا ان يحاربهم وكان يشتمهم ويسخر بهم ويجدف على الاسم المسيحى ثم انه مرات كثيرة كان يضرهم بقوة رشق الحجارة الثقيلة وكذلك ضرب نشابه ما كان يخرم بالصيب وبالتالى كان بهذه الانواع يميت كثيرين منهم غير انه اخيرا بيد داود اخر ابيدت كبريا جلياط اخر وهو ان هذا السركسى الجبار فى احد الايام صعد الى البرج الذي كان يحاربه رايموند وشرع

يشتم الصليبيين باشد شناعة من السبات والتجاديف وكان يدّعى بانه هو وحده يحارب طغماتٍ كثيرة منهم فحالاً غودافروا بادر الى ناحيته واعدل قوسه وارماه بنبلٍ قتال فى صدره فدخل النشاب فى قلبه وهذا الجرح العميق جندل المسلم الجبار من اعلى طبقة البرج الى الخندق العميق فهلك وحينئذٍ جميع الجيوش المسيحية في الوقت عينه عرفت سقطة هذا المعير صفوف جنود الرب من قبل اصوات التهليل والفرح والتسابيح لله التى مارستها العساكر الصليبية امام ذاك البر لاجل قتل هذا المسلم العظيم الفريد في نوع جبرأوته ☆

فالاسلام لما راوا ذواتهم غير قادرين بعد ذلك ضمن المدينة على دوام مصادرة الجيوش المسيحية العديمة الانغلاب قد ضعفت قلوبهم وخمد بأسهم ولم يعد باقياً لتمام انكسارهم الاّ امرٌ واحدٌ وهو ان الشقة البحرية التى من جهتى المدينة القبلية والغربية استمرت حرة تحت حوزهم وبهذه الطريقة كانوا ضمن البحيرة ياتون الى المدينة بالاسعافات الضرورية لهم من القوت وغيره ومن ثم ولين كانت الاسلام يومياً يخسرون عدداً ليس بقليل من ناسهم وانهداماً من جهات سورهم فبواسطة المعونات التى كانت تاتيهم بالبحيرة لم يكونوا يريدون ان يرموا الاسلحة من ايديهم. واذا باشاعاتٍ تواردت فيما بينهم بغتةً فاذهلتهم وهدمت عزايمهم وهى انهم فى احد الايام على الفور شاهدوا ظهر البحيرة مملواً سفاين متوسطة موجود فى كلٍ منها خمسون محارباً من الصليبيين وبذلك قد انقطع عن المدينة واسطة اتصالها من جهة البحر على ان العمارة بالمراكب الحربية المسيحية كانت من هناك انزلت سفاينها الصغيرة وارسلتها موسوقة بهولاء الجنود بعد تجهيزها فى بلاد الروم فقد كانت اصوات هولاء الجنود ضمن

النقاير تصرخ بدلايل الفرح وعلامات الغلبة رافعين السناجق والرايات المختلفة الاشكال فوقتيذٍ الجيوش التي خارج المدينة شددت الحرب ضدها باعظم قوة واوفر حرارة وفي الهندسة الحربية وضرب الكبوش في ذاك اليوم عينه جنود الامير رايموند الشجعان هدموا البرج الذي كانوا هم محاصرينه وهو اعظم ابراج المدينة فسقوط هذا البرج باندكاك حجارته قد ارعد المحلات وزعزع البيوت وحالاً عرفت سقطته عند الجميع واوعبت قلوب الاسلام ارتعاشاً ثم في اليوم الثاني اذ هربت في احد السفن من البحيرة حرمت السلطان وابنيها الصغيرين جداً قد شعر بهربها الصليبيون الذين في السفن فادركوها وقبضوا عليها واخذوها اسيرةً فهذا الحادث ثم وقوع الخوف الشديد في قلوب الاسلام اقنعهم بان يرموا اسلحتهم ويسلموا المدينة في نهاية الحصار الذي دام مدة سبع جمع الامر الذي اوعب الباب الجيوش المسيحية فرحاً وابتهاجاً مقتنعين بانهم بلغوا الى كمال الانتصار ولكن هوذا على غفلةٍ وردت اليهم داهية من صاحبٍ مخاتل قد سلبت منهم مجد فخرهم بعدم امتلاكهم هذه المدينة الاولى العظيمة ✡

على ان الملك اليكسيوس الذي على نوعٍ ما تشبّه بالطير الكاسر الذي يتبع اثر الاسد مفتشاً على علقه من غنيمة الاسد نفسه قد سافر من القسطنطينية وبلغ الى حد بيليكان ومن هناك ارسل في اثر الصليبيين بعض طغمات من عساكر الروم تحت اوامر قايدين عاملين مفوضين اتمام ارادته واثقاً بهما ان يكملا بالمكر حيلته السرّية فاحدهما المسمّى بوطوميت قد بلغ اربه في انه دخل بالخفا الى مدينة نيقية واستطاع ان يخدع سكانها بتصوره امام اعينهم شدة بأس الصليبيين وكيف انهم

لا محالة كانوا متوقعين امتلاك مدينتهم ومن ثم بانواع مختلفة فعالة قد اقنعهم في ان يسلموا المدينة لولاية الملك اليكسيوس ويعرفوه سلطاناً عليهم خلواً من ان يدفعوا امتلاكها بايدي الصليبيين وهكذا فاز هو منهم بالقبول وتمم رسالته الخفية كاقصى مراده فاذاً حينما اعتمدت الجيوش الصليبية على الهجمة الاخيرة التي بها ازمعوا ان يمتلكوا المدينة واذا بمشهدٍ غريب غير مظنون بهِ من احد منهم وهو انهم شاهدوا بغتةً سناجق الملك اليكسيوس منصوبة فوق اسوار نيقيه وبيارقه يلعب فيها الهوا وبالتالي ان المكر اكتسب قيمة دما الجنود الابطال التي سفكوها لحد ذاك الوقت وهذا الامتلاك المحق للصليبيين الذي كان عتيداً ان يفتح لهم الطريق الرحبة الى بلاد سوريا قد خُطف منهم خلواً من رجوعٍ *

فهذا الحادث الغير المُنتَظر قد املى جوارح الجيوش الصليبية غماً واندهالاً مع غيظٍ كلي العدالة واكثر القواد احتموا غضباً وغلا دمهم احتراقاً عازمين على ان ينتقموا لذواتهم عن هذه الاهانة من الملك المخاتل الذى عاملهم بهذا الافتراء على حقوقهم واما الروم عمد الملك فقد اوردوا لتبريرهم من الذنب في الفعل المذكور نوع الاتفاق الذي تم فيما بين قواد الصليبيين وبين اليكسيوس وايضاً ان هذا الملك كان قد جهّز لمساعدتهم جانب من عساكره وارسلهم لاجل الاشتراك في حصار نيقيه غير ان التمرمر والتهديد لبثا يتزايدان في المعسكر وسخاء الملك الذي كان مارسه نحوهم لم يمكنه ان يزيل عنهم الغيظ لانه لا يوازي هذه المعاملة ومن ثم كبر فطنة القايد العظيم غودافروا وسمو حكمته امكنها باتعابٍ وافرة ان تهدي روع الجيوش والامراء ويبرد غليل الحرارة المتقدة في روسهم على ان هذا القايد

الشجاع الفطن قد كان هو اكثر من الجميع يندب بكره قلبي خيانة اليكسيوس وغشه ومكره ولكنه في الوقت ذاته كان بحداقة لبه يلاحظ الظروف الحاصلة بها حينئذٍ العساكر الصليبية ويقابلها مع مقدرة ملكٍ قوي مثل اليكسيوس ضمن بلاده ويعرف جيداً ان نقض الصلح ضده يتكلف عليهم خسارةً عظيمة من الرجال وكيف ان الجيوش المسيحيين من هذا الملك وحده كانت فازت بذخاير المعاش والمعونات غب وصولها الى القسطنطينيه ولكن نقول هكذا ان حظهم ونصيبهم كان موجوداً بين يديه فسنداً على هذه الملاحظات كلها غودافروا كتم اهانته واخفى غيظه العادل واعتمد على دوام الصلح مع اليكسيوس لاجل خير المسيحيين واقنع بهِ شركاه وجيوشهم مبرهناً لهم لياقته عن انتصار زمني زايل على امتلاك مدينة واحدة لاجل اكتساب مملكة الروم باسرها وكيف ان الخلاف يوجب فيهم الرجوع عن الغاية الاولى المقدسة المقصودة منهم ويخسرهم حقيقة امانتهم امام البشر ويفقدهم مجد سمعتهم ويضيع اجرهم امام الله . فهذه المخاطبات المساعدة من الناظ دوكا لورين العذبة بها اللاتينيين قد خنقوا في ذواتهم سيات الغضب والعزايم المضادة وارتضوا بدوام حفظهم الصلح مع الروم غير ان هذا الاتحاد المجذوب قهراً والضراورة الكدرة وهذا الخضوع المسحوب بكل نوع من الذل والدناءة من جهة الملك لم يمكنها ان يردوا اليه الاعتبار من جهة الرجال الصليبيين الابطال والثقة بهِ لان نقص الامانة بهِ والبغضة ضده يتجددان بعد ذلك حينما يُشاهَد هو سامحاً بان زوجة السلطان وابنيها يعتقا من الاسر ويعامل المحابيس الاتراك بعواطف ميله نحوهم لانه وقتئذٍ التشكي والملامة والتهديدات لا تعود تكفي عن الظهور فيما بين الروم واللاتينيين ومن ثم

اقل شرار من حمية الارواح تعود كافية لان تشعل نيران حرب شديدة ردية الغوايل وعديمة الصلح ☆

فقد كانت مرت سنة كاملة للجيوش الصليبيين من حين مباينتهم اوطانهم وبداية مسيرهم نحو المشرق وقد تركوا مدينة نيقيه غب اكتسابهم الظفر مرتين على الاسلام متعزيين بالرجا في اكتساب بلاد اخر وبعد اخذهم الراحة مدة من الايام في نواحي نيقيه رفعوا مضاربهم وساروا نحو سهول اقاليم صوريا قاسمين جيوشهم قسمين احدهما يتقدم الاخر بمسافة غير بعيدة ثم اجتازوا جبال افريجيا الصغيرة جاهلين الموانع المزمعة ان تصادفهم وموعبين ثقة من قوة عساكرهم التي امتحنت بالعمل في انتصاراتهم المتقدمة على اعدايهم سايرين في طرقاتهم امينين من الحوادث العتيدة غير ان هذا السفر المضيم كان يلزم ان يعتبر افتتاح الاتعاب والانصاب والعذاب المقبل عليهم اذ ان الجبال والوديان والانهر ومهالك الطرقات هي متصلة امامهم ثم في السهول اكثر الاسبلة هي مجهولة ومقفرة وكذلك نقص القوت والمياه وحرارة المناخات كانت مصايب ثقيلة مزمعة ان تظهر لهم عجزهم عن احتمالها كما حدث هذا جميعه في سيرهم لاسيما لانهم في تلك الاراضي لم يكونوا يسيروا مسافة مستطيلة في طريق معروفة لان الخراب الكاين في تلك الجهات من جرا الحروب السابقة قد صيرها غير مسلوكة ومقطوع اتصالها الى المدن البعيدة فاذاً الجيوش الصليبية صودفوا تايهين ضايعين في تلك الاقفار الحارة وحينيذٍ شرعوا يندبون ذواتهم ويتضرعون لله بان يغيثهم ويساعد شجاعتهم ☆

ثم ان مصيبة اعظم من ذلك جداً لضررهم قد داهمتهم وهي ان كيليدج ارسلان المقهور منهم الموعب رجزاً ضدهم والمنتظر

الوقت الذى فيه ياخذ ثار خجله عن انكساره امامهم مرتين
قد كان جمع بواقي عساكره مع غيرهم مستحضراً على الاندفاع
عليهم فهذا السلطان سحب معه مايتي الف محارب وسعى في
اثر الصليبيين متوقعاً الفرصة الموافقة له لكي يغسل بدمايهم
دنس العار الذي اصبغ هو به بانتصارهم السابق عليه اولاً وثانياً ☆

فاخذ مسيحي العساكر الغربية المتراس عليه غودافروا مع الامراء
رايمند وهوكز الكبير والكونته ده فياندره قد كان مجتازاً في سهل
دوريله في الوقت الذي فيه كان القسم الاخر سايراً متقدماً
عند النهر الصغير الجاري في الوادي الجميل المسمى غورغوني تحت
رياسة بوهاموند وتانكريد ودوكا نرمانديا فبعد مسافة يوم واحد
هذا القسم الثاني كان بلغ الى صقع جميل محتوي على مرعى
جيد فاعتمدوا ان ينصبوا مضاربهم فيه حيث مرت عليهم تلك
الليلة بأمن تام ولكن في اليوم الذي كان اول شهر تموز سنة ١٠٩٧
عند شروق النهار قد شوهدت على الفور عن بعدٍ غيوم الغبار
المتصاعدة من الارض وسمعت قعقعة الاسلحة ونظر ايع الحراب
والرماح والخودات ورنة اصوات صهيل الخيل وهذه كلها انذرت
بقدوم جيوش العدو المسلم عليهم فالمسيحيون انبغتوا ولكنهم لم
يتجزعوا بل انهم حالاً وثبوا على رجليهم واستعدوا للقتال ومن
حيث بوهاموند اضحى وقتيذٍ ريساً على هولاء الجيوش قد
اعطي الاوامر اللازمة وكلٌ منهم اعتمد طاعتها فمعسكرهم كان
محمياً بالنهر الجارى وباراضي مندداة بسواقي المياه ثم باشجار
حرشية فوضعوا في وسط المعسكر النساء والاولاد والمرضى محتاطين
حولهم لحمايتهم والعسكر المشاة اسرعوا الى مسك الحدود التى
عينها لهم القايد واما الخيالة فانقسموا الى ثلثة اجواق قوية
وضبطوا ثلاثة محلات متباعدة محافظين على جميع الجيوش من

هجوم العدو فاحد هذه الاجواق كان عليهِ رئيساً تانكريد اخو غويلوم وعلى الثاني الدوكا ده نورمانديا والكونتـه ده شاتريـز واما امير نارانت فاخذ الجوق الثالث ووقف بهِ في محل مرتفع ناظراً جميع الجيوش تحت عينيهِ ومستعداً الى ان يغار برفقة الخيالة الذين معه الى اي محلٍ ضرورياً لهُ الغوث بافعال رجوليته حسب الاحتياج ✿

وهوذا هدير صراخ الاسلام انذر بدنوهم من المعسكر وكانوا ينحدرون باسراع مطلوق من الجبال القريبـة وحينما لم يعـد فيما بينهم وبين الجيوش الصليبية سوي مرمى نشاب قد اصطفوا للمعركـة واطلقوا على النصاري رشقات السهام والحجارة فالخيالة الصليبية احموا دواتهم بالزروخة والاتـراس من النشاب وهجموا على الاسلام فردوهم الى الوراء بسهولةٍ ولكن من حيث ان حيولهم امتلات جراحات سهام العدو وخال لها صراخات الاسلام رعوضاً مخيفة قد اجفلتها فشمصت وبلبلت صفوف ركابها بلبلةً محزنة فهولاء الابطال الفايرة دماوهم من شدة حرارة عزايمهم على الفتك باعدايهم قد ساقوا خيولهم هجماً فقطعوا النهـر الى ناحيتـه الاخرى وطبتوا باندفاع واحد على الاسلام الذين ولوا من امامهم الى حدٍ امين لهم وغب ان استمكنوا من ذواتهم انحدفوا على الصليبيين وازعجوهم جداً بضباب انغبار وبالنبال والحجارة كالمطر وبقوة سرعة جري خيولهم قد فسخوا صفوف هولاء الابطال واغتنموا فرصة بلبلتهم التي عطلت مفاعيل شجاعتهم وعكسوا حسن ترتيبهم الحربي فاشتدت المعركة بخطرٍ مبين على النصاري ✿

فوقتيذٍ لم يعد احد من الصليبيين يسمع صوت قايده بل طفق كلٌ منهم ان يفعل ما يرشده اليه رايه حتى ان القواد والروسا انفسهم شرعوا يحاربون خلواً من ترتيب في ارضٍ

مجهولة منهم وكل انسان كان يحامى عن حياته بما امكنه مع ارفاقه ولكن هذا النوع من الحرب الذي استعملته السراكسة بهجمات متزادفة قد كان ساعةً بعد ساعةٍ يضاعف سفك الدما حتى ان عدداً وافراً من الخيالة الابطال صاروا مطروحين فى الاراضى وغويلوم اخو تانكريد سقط مايتاً بسهام العدو وتانكريد عينه اذ انكسر رمحه حصل عما قليل ان يوخذ مخطوفاً من العدو وقتيلاً وانما خلاص حياته تم بواسطة جرات الامير ده نارانتا الغير المغلوبة ثم ان روبارتوس ده باباريس قد شاهد اخص ابطال جنوده فقدوا بالمعركة وقد لحقهم الموت فيها بينهم وهكذا الكثرة والسرعة والاندفاعات المتواصلة من الاسلام تغلبت على قوة الصليبيين وشجاعتهم وشاهدوا ذواتهم فى تلك الحال السيئة المنذرة بخصرانهم التام ولكن مع كل ذلك لم تكن لحد هذا الوقت النصرة موكدة لفريق من الاثنين ففيما هم فى تلك الظروف واذا بمجموع عساكر قوية جاءت لمعونة الاسلام وحينيذٍ سلطان نيقيه وجّه قوته الاولي بالاندفاع بجيوشه على الصليبيين لانه اجتاز النهر برفقة اخص جنوده وملك حدود المعركة ✿

ثم نظير اسد زاير ليخطف اطلق عنان خيوله وهجم على المسيحيين فى وسط معسكرهم الامر الذى صيّر هذا المعسكر فى حال بلبلة كلية اضاعت رشدهم لان هولاء البرابرة كانوا خلواً من تمييز يضربون يميناً وشمالاً ياخذون كل من يقع فى اياديهم وتحت اسلحتهم وهكذا النساء والاولاد والمرضى الذين كانوا فى الوسط قد صاروا ضحية قساوة هولاء الجنود البربرية ولم يوفروا منهم الّا نساء الامراء وبناتهم الذين اما لاجل حداثتهنّ او لاجل جمالهنّ قد اخذوهنّ اساري ليزينوا بهنّ قصورة سلطانهم ✿

فشدة وقوة السراكسة وفوزهم بالنجاح وصراخات المفنوكين

والاساري قد انذرت بعدم رجاء الصليبيين على السفر ولكنهم لما أعينوا بواسطة البطل الشجاع بوهيموند الذي هجم على السلطان ليكتسب منه موضعه قد جددوا عزمهم المرّ بالمعركة بنوع لا يمكن وصفه كلٌ منهم في دوره ولكن قد كلّت اذرعتهم من الجهاد العنيف ضد عدوٍ كان على عدد الساعات يزداد قوةً بتوارد عساكر جديدة لمعونته فلم تعد لهم قوة على المحاربة ولا ايدي تستطيع ان تستعمل الاسلحة وقد شوهدت اجسامهم مملوةً جراحاتٍ وكانت شدة حرارة الشمس في ذلك النهار تجعلهم ضمن اتونات النار ومن ثم رأوا ذواتهم كانهم اجمعون على حافة الهلاك التام لمعسكرهم فبينما هم في هذه الحالة المحزنة ظهرت لهم اليد العجيبة التي مورخوا هذا الحرب يوردونها باتفاق راي واعطتهم املاً جديداً بعد الأيس من النصر ☆

على ان روبرتوس دوكا ده نورماندیا الذي رجاوه بالله لم يضعف قد اعتدل جانباً مع الباقين من جيوشه وسحب سنجقه الابيض اللامع بالذهب وبالزينة الجميلة خافقاً في الهوا وهجم بالعسكر هجمة عنيفة الي وسط معسكر الاسلام وجميعاً بصوت واحد عجوا صارخين الله هكذا يريد الله هكذا يريد فعلى هذا الصراخ بالكلمات المذكورة التي لم تكن قط خايبة من المفعول فالشجاعة التي كانت خمدت في الصليبيين انتشاءت متجددةً وطفقوا يتطايرون في اثر خطوات روبارتوس الذى كان يضرب بسيفه يميناً وشمالاً كل من صادفه وقتل به احد امراء الاسلام المتقدمين من ثم حينيذٍ المعركة بين الفريقين تجددت باشد بأس واعظم قوة وامرّ شراسة وحالاً تانكريد وريكارد امير سالارنو واسطفانوس كونته ده بلواز وباقي القواد قد توطدوا باتباع نموذج روبارتوس وقد مارسوا انواع رجولية فطحلية غريبة واما بوهيموند

الذى كان ساعياً ومضايقاً للسلطان وجيشه بالمزاحمة فى المعركة فقد شاهد فى حربه جوقاً من الصليبيين اخذين سبيل الهرب فحالاً صرخ بهم قائلاً يا ايها الجنود المسيحية الى اين انتم تهربون اما تشاهدون سوابق خيل العدو تجري اكثر منكم وتدرككم حيثما تظنون ملجأكم فهلموا اليّ واذا اريكم طريقاً اكثر امناً لكم من الغايلة واسلم عاقبة من الذي انتم تجوزونها فهؤلاء حالاً ارتدوا اليه تابعين خطواته متشددين بشجاعته محاربين معه برجولية تجددت فيهم ولكن عظم درجات الحرّ الذيب باضافته على تعب الجهاد الكلى قد اشعل فى احشا العساكر الصليبية نار عطش قتّال عديم الاحتمال وهذا قد آل بهم حدوده الاخيرة واقضى بهم الى الموت مغلوبين لا باسلحة اعدايهم بل من قبل سلطان مهلك للطبيعة بسيف العطش ففيما هم فى هذه الحال واذا بغوث غير منتظر قد ردّ اليهم الحيوة وهو ان النساء والبنات المأخوذات اساري من السراكسة قد استغنمن فرصة بلبلتهم بهجوم روبارتوس عليهم فردن من بين الجيوش الى الصحرا ودرن من وراء المقاتلين وجمعن خوذات العساكر المقتولين الواقعة فى الاراضى مع اوعية اخر عديدة ونهبن الى النهر فاوعبنها مياه باردة واسرعن بها الى الجيوش المسيحية البايدين من العطش فسقينهم وهكذا ملكوا قواهم فتجددوا المعركة بنشاط شديد لكيلا يفقدوا الظفر باعدايهم غير ان طول دوام الحرب بعد الضنا والمشقات فى جيش جرحاهم ضد السراكسة الذي على ممر الساعات كانت تزداد كثرتهم من الاتيين لمعونتهم قد صوّر فى اعين هولاء الجيوش المسيحية ان رجوليتهم ما عادت تقدر ان تخلصهم لأن برهةً من الزمان اذا كان يحصل بها تشجيع النصرة لهم كان يعقبها اليأس ببرهة ضدية يسمو بها

العدو عليهم واذا التيم منهم جوق يقصد الرجوع الى معسكرهم ليأخذ الراحة قليلاً في حماه كان ينتظره جوقاً اخر من السراكسة يعاركه ✿

فعلى هذه الصورة قد استولى بين الجيوش الصليبية روح البلبلة والبشللة والضعف وقطع الرجاء وبالتالي امرٌ كلي الصعوبة هو تصوير حالهم وتنفيذ بهذه الصورة المهيلة فكثيرة وافرة من الجنود سلموا ذواتهم للموت وكانوا يجثون امام الاساقفة والكهنة ملتمسين منهم الحلة الاخيرة عن زلاتهم والاكليروس شرعوا يرفعون اياديهم الى السما بالتضرعات لله رب الجنود مستحلفينه باسمه القدوس بان يرسل معونة لعبيده هؤلاء المحاربين من اجله والنساء كنّ يصرخنَ باصوات الندب واوليك الذين بقيوا اشد باساً من الاخرين كانوا يهتمون في رفع جثث القتلى من الاراضي ونقل المجروحين الى المضارب واما القواد ففيما بين جيوشهم المضطربين بكل نوع من البلبلة قد عدموا مفاعيل اوامرهم ومقدرتهم على ترتيب المعركة برسم الحرب وبالاجمال حينما كان يظهر من كل الدلايل ان سهل غورغوني هذا النهر ازمع ان يكون مدفناً عاماً لجميع هولاء العساكر الصليبية واذا بحدوث ضجة بغتةً في العسكر كانت تشير الى الخلاص الذى دنى منهم واحياهم جديداً ✿

على انه حالاً ارتفعت من افواه المسيحيين اصوات البهجة والحبور عندما شاهدوا مقبلين عليهم لخلاصهم اخوتهم ذوي القسم الاخر من الجيوش الذين كانوا صحبة غودافروا ورايموند ده طولوزا اللذان حالما شعرا بان القسم الاول من العساكر وقع تحت محاربة السراكسة سحبا معهما حالاً عاجلاً خمسين الفاً من الخيالة وبادروا كافةً لاسعافه ركداً وكانت السيوف المستلة بايديهم

والخوذات التي في روسهم مع الحراب والارماح تسطع لامعةً عن بعدٍ باشراق الشمس الحارة فهذا المشهد الذي راته عساكر سهل غورغوني مقبلاً اليهم من الجبال ناحية المشرق قد اوعب قلوبهم بهجةً وسروراً لا يمكن وصفها مع رجاء اكيد في نوال الظفر على اعدايهم كما انه بالضد املى بواطن عساكر الاسلام رعباً وغماً فغودافروا ميز ذاته من الخيالة جانباً وتقدم بها قبل الجيوش الاخر واندفع بهولاء الفطاحل علي معسكر الجيش داخلاً في باطن اخوته المقاتلين مجدداً باسهم وعذايمهم الى ان بلغ السهل جميع العساكر التي برفقة رايموند وحينيذٍ لما هولاء الجيوش شاهدوا حال اخوتهم والاراضي مصبوغة بدما المقتولين منهم قد اضطرمت في قلوبهم نيران الرجز ضد الاعدا وغاروا برجولية لا يمكن وصفها لينتقموا عن دما اوليك المساكين البايدين بسيوف الاسلام وهكذا باصواتٍ مهيلة وصراخات مرعبة طلبوا تجديد المعركة فالمقاتلون الصليبيون اذاً قد اصطفوا للحرب بمراتب جهادية حسب الرسوم ودوكا ده لورين اقاد جنح العساكر اليميني مع كونته ده فلاندرا والكونته ده ذفار فاما بوهيموند وتنكريد وروبرتوس ده نورمانديا فتراسوا على جنح العساكر الشمالي واما المصاف الاوسط فكان تحت رياسة رايموند وهذا الغفر الاخير سلم لعناية ادهمار وعلى هذه الصورة مشت العساكر كلها واستلوا سيوفهم وضربوا تراسهم بها وصرخوا باجمعهم هاتفين الله يريد هذا الله يريد هذا وتقدموا على الاسلام بقلوب موطدة على الرجا وبعزايم شديدة ❊

فالغير مومنين اذ امتلوا رعبةً وخوفاً من هذه الجيوش العظيمة المعدلة بحسن الترتيب قد رجعوا الى الورا متاخرين حتى وصلوا الى الجبال القريبة منهم موملين انهم هناك يحمون ذواتهم من هجوم الصليبيين عليهم فوقفوا في تلك المحلات صامتين

غير متحركين ولكن بقلوب مرتجفة هلعاً فالكونته ده طولوزا اذ
كان هو الاول مع عسكره فى الهجمة عليهم فقد قسم مصافاتهم
وشلّ جماعاتهم وبلبلهم جداً وفى الحال غودافروا وتنكريد
وهوكز الكبير وروبارتوس قد اضافوا جيوشهم الى الكونته المذكور
بشدة اقتدار واتحد الجناحان معاً في الوقت الذى فيه كان ادهمار
دار بالغفر الاخير من وراء الجبل وانتصب بعساكره خلف الاسلام
الذين على هذه الصورة وجدوا محاطين من كل الجهات بقوة
الجيوش الصليبية ولم يعودوا يجدوا لذواتهم مهرباً كما انهم لم
يندروا فى هذه المرة ان يستخدموا خيلتهم السريعى الجري فى
الاندفاع على مقابلتهم بل لبثوا فى امكنتهم محامين عن ذواتهم
بالمدافعة العديمة الثايدة ولذلك المعركة وحينئذٍ اضحت مقتلةً
حقيقية بالمزاحمة بضرب السيف حتى اتصل عدد المقتولين من
الاسلام الى عددٍ مختلف من الامراء الكبار والى ثلثة الاف
من اصحاب الوظايف والى عشرين الفاً من العساكر الدون
خيالة ومشاة (فهنا المورخ روبارتوس الراهب يهتف قايلاً)
يا لهُ من مشهدٍ عظيم عن جمهور مثل هذا ممتد في الاراضى
مع التراب والغبار مختلطاً فكم من روس مقطوعة من جثثها
وكم من اعضاءٍ مبطورة ومبدورة فى الحقول فغب هذه المعركة
اوليك الذين كانوا فقرا صاروا اغنيا والذين كانوا نصف عراة اضحوا
مكتسيين بملابس السلاطين على ان معسكر السراكسة جميعه الذى
كان مشتوراً في محلين عندما قامت عليهما المعركة الاخيرة هذه
قد سقط تحت حوزة الجيوش المسيحية بجملتها من المضارب
الجليلة المزينة بغناء ومن الخزاين الوافرة كانها كنوز ومن انواع
القوت المخصبة وهذه باسرها امتلكتها الجيوش الصليبية مكافاةً
عن شجاعتهم الظافرة حتى ان اعينهم اندهلت من مشاهدة

هذا الفخر والشخشخة الشرقية بالملابس والزينات الغنية جداً التي انتصارهم اكسبهم اياها وقد كان اندهاشهم اعظم حينما نظروا ذلك العدد العظيم من الابل التي اوروبا التي الاسلام كانوا مستخدميها لحمل امتعتهم وذخائرهم الحربية لان الغربيين لحد ذلك الوقت ما كانوا يعلموا ان الجمال تستعمل فى الحمل نظير البغال وامثالها ثم فى الوقت الذى فيه كثيرون من العساكر المسيحية المحبين الكسب وقفوا هناك متأملين هذه الغنايم العظيمة فتيه عينه الاخرون الاوفر رجولية قد ركبوا خيول الاسلام المقتولين وسعوا ركداً فى اثر المنكردسين هرباً بعد الكسرة تايهين فى الجبال على ان الخوف الذى استولى على قلوب اوليك الاسلام قد كان بهذا المقدار شديداً وفعالاً (حتى انه كما يقول المورخ البرتوس الاكسى) قد وجد اناس من الهاربين من المعركة يركدون مدة يومين كاملين هنعين ينظرون الى ورايهم مع انه لم يكن احد فى هربهم هذا يسعى فى اثرهم فلا شك فى ان الله نفسه اوقع فى قلوبهم هذا الخوف فى اليوم المذكور الذى هو الاكثر اشاعة بالذكر فيها بين المواقع الاخر التى فاز بها الصليبيون بالانتصار والمجد الذى كل القواد والجنود معاً بالظفر التام لان هذه الافعال العظيمة قد جعلت اسم شجاعتهم شهيراً فى العالم خلواً من محو اصلاً ☆

ثم ان هذه الجيوش بعد نهاية الحرب المذكورة وهم فيما بين تلك الظروف ما نسوا اصلاً ان يجتمعوا حالاً ويقدموا لله جزية الشكر الواجب عارفين جميل المحسن اليهم لانهم كافة قد نسبوا انتصارهم هذا الغريب الى فعل اعجوبة الهية لاسيما لان كثرة منهم كانوا يشهدون بانهم نظروا القديسين العظيمين فى الشهدا جاورجيوس وديمتريوس الذين هم كانوا يستغيثون بمعونتهما

ذارين من انسا حين المعركة الاخيرة ومحاربين معهم اعداهم ☆

وهكذا مصاف الاكليروس الذين وقت الحروب الحوا قوتهم في تشجيع العساكر فهولاء عقب نهاية المعركة انتهوا امام الهياكل جاثين على ركبهم وقايلين. ان المدايح والتسابيح هي لك ايها الرب لانك انت هو الذى اوقعت الرعب في قلوب اعداينا ويمينك هي التي ادثرتهم اذ انك كنت مرافقاً ايانا كمحارب غير منظور وبرحمتك الغير المتناهية كنت لنا ومعنا رئيساً وسلاحاً مرهفاً في خلاص شعبك ☆

ثم بعد ذلك صار الاهتمام في دفن القتلى المسيحيين بالاكرام الواجب مع هطل الدموع وكان عددهم اربعة الاف نفر مكرمين من الصليبيين تكرمة شهدا الحق واخيراً ذاك المشهد العظيم تكمل تذكاره بعيد ذي فرح عام مقترن بالعبادة والمسرة الجسدية ايضاً ثم انهم لبسوا اثواب السراكسة وتقلدوا باسلحتهم واتكوا في خيامهم وكانوا منذهلين من غناء هذه الموضوعات الدالة على فخرة الاسياويين واخيراً اتصلوا الى تعكير الخواطر بالمخاصمة على اقتسام هذه الغنايم مدهوشين من عظم قيمتها الامر الذي دنس اسم انتصارهم العجيب ☆

واما نظراً الى الاسلام فقد استمر زماناً طويلاً مستولياً على قلوبهم الجزع الشديد من الصليبيين وحينما كان البعض من العرب يوبخون سلطان نيقيه على هربه من امام النصاري فهذا المحارب الجسور كان يحامي عن برارته بشدة مديح شجاعة الصليبيين ورجوليتهم الحديمة الانغلاب وهنا يليق ان نسمع من فم عدو تقريظات ابطال المسيحيين وهي ان هذا السلطان كان يقول هكذا . فانتم لا تعرفون الافرنج اصلاً فشجاعتهم كلي الهية اذا لم تكن شيطانية افهل انتصرنا عليهم لكي يهيئ الترتيل فهذه

الطايفة هى ذات عددٍ غير ممكن احصاوه وهى لا تخاف لا من العدو ولا من الموت فهم خرجوا علينا من الجبال وخلوا من توقفٍ هجموا على مصافات عساكرنا فترى من كان يمكنه ان يحدق نظره فى برق لميع اسلحتهم لان حرابهم كانت تضى نظير النجوم المشرقة وترسهم وخوذاتهم كانت مشعشعة شبه اشراق الفجر فى ايام الربيع وقعقعة اسلحتهم كانت ترعد نظير الصواعق وعندما كانوا يصطفون للمعركة فنبالهم عند قيسانهم كانت نرشق على خطٍ مستوٍ وكانّ اوتارها برميها عديمة الصوت ثم انهم كانوا ينقضون هجماً على اعدايهم شبه الاسود الضارية الملهعة جوعاً ✩ (انتهى) فهكذا اضحى صيت هذه المعركة الدموية ذايعاً فى الاقطار وتايد ذكر اسم محلها دوريله واسم نهر غورغونى وقد فتح للمسيحيين محجة وسبيلاً واسعاً في سهول الاسيا الصغري حينما كان ينتظر شجاعتهم مقدارٌ عظيم من الاتعاب والانصاب فتقليد تقوي قد تسلسل فيما بين الاثينيين والروم ايضاً لتابيد الاعتقاد بان ما حدث فى المعركة المذكورة انما كان مفعول بشفاعة القديسين المحاميين عن العساكر المسيحية ✩

ثم انه بعد زمانٍ طويل من هذه المعركة فالارمن شيدوا كنيسةً فى الوادى نفسه الذي كان شاهداً على اعمال اوليك الفوارس الابطال وفى كل سنةٍ في يوم الجمعة الاول من شهر ادار كان الشعب يتقاطر الى هذه الكنيسة اجواقاً غفيرة فى ذاك السهل واكثر من واحدٍ فقط من الزوار كان يعتقد بانه ينظر القديس جاورجيوس يظهر ايضاً هناك راكباً على جواده ماسكاً بيده الرمح الخلاصى الذى بهِ اعطى الانتصار للمسيحيين في ذاك المحل ✩

الفصل الرابع

في مسير الصليبيين المتعب وما اصابهم من العذاب وفي مدة اقامتهم ضمن مدينة انطاكيه الصغرى وفي الانقسام الذى حدث بين بودوين وبين تانكريد وفي استيلا بودوين على مدينة اودسّا اى الرها

والجيوش الصليبية انشرسوث بعلة انتصاراتهم قد اخذوا بالمسير من دوريله وتقدموا الى سهول بلاد الاسيا الصغري وكانوا حينيذٍ مولفين معسكراً واحداً غير منقسم وبالتالي ما عادوا يتخافون من ان العدو ياخذهم بمباغتةٍ غير ان اخطاراً اخر كانت منتظرتهم في مصافات جديدة حيثما كانت تسير خطواتهم لان قلة القوت والذخاير الاخر كانت بدات تضيم جيوشهم بالجوع والعطش ثم ان ظفراً قوياً قد كان تهيى بايدي الاسلام المغلوبين ليشفوا به غليل شراستهم المقهورة قبلاً *

فسلطان نيقيه الملو غضباً من انكساره قد اتخذ عدم الاهتمام في حماية بلادٍ قاطعة الرجا من ان تقدر ان تحمي ذاتها فقد جمع ساير العساكر المتبددة واضاف اليها كمية رجال من العرب وشرع يطوف البلدان القريبة مملواً خجلاً وكان يحرق بيادر الغلات في كل مكان ويدثر الكروم والحقول المخصبة ويهدم الفنادق والمنازل وكنايس المسيحيين وفي بحصر ايام قليلة كل حدود كايسترا وميساندرا والكبادوك وبيسيديه وايساوريا والبلاد الاخر الى حد جبل طاوروس قد اضحت مشهداً للنهب والسلب والخطف والخراب وكل هذه الاراضي المخصبة من ثم صارت

عديمة الافادة للمجتازين حاصلة على صورة محلات مهدومة بالحروب دافدة انعلات والماوي او كانها داثرة بعواصف العناصر المهيلة ☆

اما الجيوش الصليبية فكانوا يسيرون خلواً من خوفٍ وبدون ان يسبقوا ويتاملوا احوال بلادٍ غير معروفة منهم فاذاً كانوا يشاهدون القري والحقول داثرة والمحلات منهوبة خربة من غير ان يعرفوا الحقيقة فبعد ايامٍ مرت عليهم بهذا السفر في اراضي فريجيا المعروفة من انقدما بتسمية فريجيا المحروقة قد كانت ذخاير معاشهم دنت من النهاية وبداء ان ينقص من عندهم القوت وحصلوا في العوز الكلى بنوع ان المورخين القدما حينما يصورون صورة حال هولاء الصليبيين في تلك الاراضي من القحط والجوع والعطش والضناء فملجرد قرآة تخبيرهم هذا بالشرح الواجب ينضي بالقاري الى تفطّر القلب من الحزن عليهم لانهم اتصلوا الى ان ياكلوا العشب والبقول اليابسة حتى الغروس البرية ونادراً جداً كانوا يحصلون على قليل من السنبل الذي كانوا يفركونه بين ايديهم وياكلونه والعساكر كانت تضج من حال كونها في اراضي مقحلة وتحت سماء كانه نحاس وفي براري عديمة الماء لم يكن ممكناً لهم ان يصادفوا فيها ولا ساقية من الماء يرطبون بهٖ شدة عطشهم اللغوب ومن حيث ان الجوع والعطش اباد بالموت الجانب الاكبر من الخيل والبهايم فاضحوا كثيرون من الاشراف والنبلا ليس فقط معدومين مراكبهم يمشون علي ارجلهم بل ايضاً حاملين على ظهورهم فردات امتعتهم الضرورية لهم مطلقاً . فهنا احد المورخين القدما يقول انك يا هذا لقد كنت تضحك او بالحري لكان اشفاقك يقودك الي هطل الدموع السخينة من عينيك عند نظرك كثيرين

من هولاء الانام لنقص البهايم من عندهم بالموت حاملين بقيح ملابسهم وفردات امتعتهم على ظهورهم وغيرهم مثقلون بحمل الات الحرب حتى المنجانيق والكبوش وغيرهم حاملين الكلاب والخنازير لعجزها بالجوع والعطش عن المشي لان بهايمهم ماتت تحت احمالها والاشراف كانوا يشاهدون مثقلين باسلحتهم وبالكاد راكبين على البقر *

ثم لمّا انهم بلغوا الى ثغر ساوريا فهناك تكبدوا من العذاب اشده ومن الضيقات امرّها حتى ان اخص ذوي الاقتدار على الاحتمال بشجاعة قد سقطوا متلاشيين من شدة العطش ويؤكد ذلك غوليليوم الذي من صور بقوله انه في يوم واحد مات منهم عطشاً خمسماية نفر وقد شوهد حينيذٍ منظرٌ مهول وهو ان البعض من النساء الحوامل يلدنَ قبل الزمان الطبيعي خلواً من مسعفٍ ضمن محل محروق من القري ومن شدة مصايبهن مويسات كنّ يلعنّ عدم عقريتهنّ عند مشاهدتهنّ بهطل الدموع اولادهنّ على صدورهنّ اليابسة يطلبون اللبن من اثديتهنّ بعويل خلواً من ان ينالوا منهنّ نقطةً *

ولكن يا للعجب من ان المورخين بعد ان يوردوا هذه الحال المحزنة والشدايد الفايقة الاحتمال يجدون في تاريخهم محلاً يندبون فُقد الطيور البواشق الصيادة التي بعض الامراء احضروها صحبتهم الى بلاد اسيا (فيقول البارتوس الاكسي) ان الطيور الكواسر المعودة على الصيد التي هي ملذة الانام الكبار كانت عقرت من العطش بين ايادي اسيادها والكلاب الصيادة كذلك كانت تتلاشى بين ارجل المقيدين اياها *

غير ان الجيوش الصليبية في وديان بيسيديا رفعوا اصواتهم الى الله بالتضرعات والبكا طالبين الغيات والمعونة الالهية والباري

تعالى انعطف بالاشفاق على توجعهم واسعفهم بواسطة خلاصية وهو ان كلباً ما اذ كان جايلاً بعيداً من المعسكر مفتشاً على ما به يروي عطشه قد رجع حالاً الى محل صاحبه وشوهد صوفه مع رجليه مبتلاً برطوبة تشير الى انه هناك وجد ماء فشرب منه الامر الذي جذب البعض الى المضي نحو المكان الاتي منه الكلب فوجدوه نهراً جارياً واذيع ذلك عند الجميع فتقاطروا نحو النهر ذايبين من العطش والحر الشديد فانكبوا يشربون الماء بغير قياس وفطنة الى ان ارتووا مترطبين غير ان هذا افضى بهم الى مضرة عظيمة لانه في تلك البرهة عينها مات منهم على الفور نحو ثلثماية شخص وعدد وافر غيرهم اعتراهم مرض ثقيل جداً ✿

فاخيراً هذه الجيوش الصليبية بلغوا الى مدينة انطاكيه الصغرى راس اقليم بيسيديا التى فتحت لهم ابوابها . فموقع هذه المدينة هو شهى جداً في محل انشراحى بين اراضى مقسمة ببساتين وحراش وسواقى مياه جارية ومن ثم ظهر مرضياً لهولاء العسكر ان يمكثوا هناك مدةً من الايام لراحتهم من المشقات فاذاً دخلوا المدينة التى أعطى لهم من القواد الاذن بالاقامة فيها متمتعين بالسكنية والراحة وبذلك قد نسيوا اوجاعهم ومشتاتهم التى تكبدوها متعزيين بهذا المقر المخصب من الغلات والاثمار ✿

ثم من حيث ان اخبار انتصارات هذه الجيوش المسيحية قد رنت الى بعيد واوعبت الناس انذهالاً من قدومهم فسكان الاسيا الصغرى كلهم قد اضطربوا والكثير فيها بين اهالى مدن هذا الاقليم المخصب الغنى ارسلوا من قبلهم معتمدين الى قواد الجيوش الصليبية وان يكن ذلك خوفاً منهم او استمالةً اليهم مقدمين لهم الاسعافات والذخاير ومقررين لهم الطاعة التامة وهكذا

المسيحيون فى زمان وجيز اصبحوا اولياء على بلاد كثيرة كانوا يجهلون اسماوها واسما سلاطينها القدماء وعلى هذه الصورة صار حظهم جديداً منذراً باعظم سعادة مقبلة وهم استوعبوا مسرة بتنعمهم فى هذه المدينة غب المشقات الاليمة وبملاحظتهم اكتساب المحلات بلا حرب وبتاملهم فى سمو اسمهم وصيت انتصاراتهم وهكذا الاشراف عند نظرهم جودة المحلات التى بقرب المدينة جميلة المنظر رحبة الاتساع موضوعاً قابلاً للصيد فقد تعاطوا هذه النزهة الامر الذي مارسته افادة صحتهم واكتسبتهم قوةً جديدة بعد الضناء ✿

ففى مدة اقامتهم ضمن المدينة المذكورة رايموند ده سان جيل كونته ده طولوزا احد القواد المتقدمين انطرح مريضاً مرضاً ثقيلاً فلما عُرف ذلك عند الجيوش فالجميع تكدروا بالحزن وشملهم الغم قلبياً على فقدهم هذا القايد الجليل الشديد الباس والكريم الاخلاق فحينما كان هذا الكونته فى حال المنايا بالكاد يردف الكلام بصوت مهموس على الصلوات التى كان يتلوها عنده اسقف ارانج واذا باحد الكونتية من بلاد ساكسو جاء الى هناك مبشراً رايموند بانه من قبل الله يخبره بانه لا يموت هو بهذا المرض فرايموند رئيس هذا المحارب ما اعتبر ذلك بشى الا ان المخبر اكدّ له انهُ هو نال من الله ما التمسه منه وهو انهُ امهل الموت عنه . وبالحقيقة ان رايموند قد شفى من مرضه وبعد ايام قليلة قد شاهدته الجنود الصليبية فيما بينهم بفرح عظيم وكانوا يعتبرون شفاه انهُ بغير شك حدث باعجوبة من الجود الالهى . غير انه نحو ذاك الوقت قد قلقت راحة الصليبيين بعارض لم يكن ملاحظاً ولا مظنوناً متهدداً بنهاية ايام قايدهم العظيم غودافروا الجليل ده بوليون على ان هذا البطل الصنديد اذ كان يوماً ما

خرج الى الصيد ففي حين ممارسته اياه قد ابتعد عن ارفاقه وتاه وحده في حرش واذا به يسمع من ورايه صوت صراخ فلما حول نظره (يقول البارثوس الاكسي) شاهد رجلاً من الصايبيين حاملاً على ظهره رزمةً من امتعة متبوعاً من دبٍّ كبير الجسم مهول المنظر اتياً عليه ليفترسه فغودافروا الغيور جداً على خلاص اخوته المسيحيين قد انتضى سيفه بسرعةٍ وانحدر حالاً من على جواده الى الارض بجانب الرجل فالدبّ حينما راي فرس غودافروا اتجه ضدها ليفترسها بانتصابه على رجليه مستعداً للاندفاع فغودافروا قصد ان يغوص سيفه في قلب هذا الوحش الكاسر واما الدبّ فاهمل وثبته وعج بصوتٍ مخيف ارعد في الحرش وهجم على غودافروا ليفسخه مفترساً فغودافروا التف بوشاحه وانطرح في الارض تحت الدبّ ولكن اذ فكر بانه هو الذي ذاع صيته ورجوليته في الافاق يموت مقتولاً من وحش قد شد عزايم قوته ونهض من الارض قايماً على رجليه ولكن في رفعه سيفه ليضرب به الدبّ في تلك الحال التي فيها الدبّ كان يصارعه قد جرح هو ذاته بدون انتباه جرحاً عميقاً غير انه لم يبال بكثرة الدما الدافقة من جرحه بل لبث يعارك الدب بالضرب والمصارعة بقوةٍ شديدة فاحد ارفاقه اذ انتبه على الحادث اسرع لمعونته وساعده على قتل هذا الوحش المخيف فلما خرجا من هذه المعركة فمن كثرة فروغ الدم غودافروا سقط في الارض غايباً عن الوعي فشيل فيما بين حيّ وميت واوتي به الى المعسكر فهذا المنظر قد اوجب الحزن الاتيم في قلوب الجميع بما لا يوصف اعظم مما لو كانوا يخسرون اجلّ النصرات ويحيق بهم امرّ النكبات وهكذا المسيحيون كافةً هناك رفعوا اصواتهم الى الله بالتضرع من اجل شفايه

فطلباتهم استجيبت وقايدهم العظيم فاز رويداً رويداً بالشفاء ولكن الضعف الشديد لم يفارقه ومن ثم فبها بعد عوضاً عن ان يكون راكباً فرسه امام الجيوش التزم بان يتبعهم محمولاً فى كرسى سايراً وراهم ✿

ولكن حوادث اخر محزنة اشد حزناً ازمعت ان تلم بالجيوش الصليبية لان شيطان الانقسام قد اجتهد فى ان يوقعه باكثر ضرر فيها بين قوادهم فالمشاهد المكربة التى لاحظناها لحد هذا الوقت فى التاريخ الحاضر يلزمنا الان ان نضيف اليها مشهداً اولياً صادراً عن الانقسام الذي دخل فى مضارب هولاء العساكر بنوع ردي جملة مرات ٍ قبلاً بدون ان يبلغ مفعوله بالتمام ✿

فتنكريد وبودوين اخو غودافروا قد كانا سافرا من المعسكر على روس بعض جماهير من فلاماند وايطاليا لكي يعرفوا البلاد ويبددوا فضلات الهاربين او غيرهم من العساكر الاسلام فقد كانوا تقدموا الى حدود بلاد ليكاونيا تخم ايقونيه خلواً من ان يجدوا احداً يمانعهم ومن ثم واصلوا مسيرهم واتجهوا الى ان يجتازوا جبال كيليكيا الى حد شط البحر فتانكريد الذي كان آخذاً برفقته السابقين وصل بهم الى تحت اسوار مدينة ترسوس التى يكرّم ذكرها لاجل ان القديس بولس الرسول ولد فيها فسكان هذه المدينة الذين كانوا وقتيذٍ تحت ولاية الاسلام الترك قد ارتضوا بان يرفعوا فوق أسوارها سنجق المسيحيين فى الوقت الذي فيه بلغ الى حد هذه الاسوار بودوين والعساكر التى معه فلما شاهد فى اعلاها سنجق تانكريد يتموج فى الهوا قد امتلى بودوين غيرةً محركة من محبة الذات بروح غضبٍ شديد وادّعى برفعه ووضع سنجقه بدلاً منه الامر الذي اوقع المجافاه بالكلام فيما بينه وبين تانكريد واحتدت الارواح من الجهتين واعتمدوا ان

يحيلا القضية لانتخاب اهل المدينة فهولاء كانوا مسيحيين بالعدد الاكثر من الاسلام ومن حيث انهم اعتبروا تانكريد بمنزلة مخلصهم الاول من عبودية الاسلام لانه هو الذي بلغ اليهم قبلاً وسكان المدينة قدموا له الطاعة ورفعوا سنجقه قبل وصول بودوين فاختاروه ولكنهم اذ شاهدوا شدة الغضب الذى اظهره من ثم بودوين متعهداً اياهم بالانتقامات المريعة قد استوعبوا خوفاً قوياً وحالاً مدوا ايديهم وفتحوا ابواب مدينتهم لهذا الخصم المشتعل رجزاً وحينيذٍ سنجق تانكريد قد طُرح من فوق الاسوار الى الخندق ونُصب عوضه سنجق بودوين ❊

فهذا المشهد قد اضرم فى قلوب العساكر النورمانديه والايطاليانيه الذين مع تانكريد بنيران غضبٍ عادل وابرز فى عزايمهم كافةً الاعتماد على ان يغسلوا دنس هذا الافترا والاهانة بدما بودوين وارفاقه ولقد كانوا وضعوا اعتمادهم هذا بالعمل لولا ان تانكريد الجليل الاخلاق يرجعهم عنه ليس بسلطان. رياسته عليهم فقط بحتمٍ مطلق بل بتوسلاته اليهم ايضاً وبمفاعيل عذوبة الفاظه لان شهامة نفسه لم تسمح له بان يوافق على استخدام الاسلحة التى جاءُوا بها الى المشرق ضد اعدا يسوع المسيح استخداماً منقلباً ضد اخوتهم اذ كتم هو اهانته واخفى غيظه فى احشايهِ قد اخذ عساكره وابتعد بهم عن المدينة سايراً الى الامكنة التى كان يومل ان يظهر فيها مشهداً اكثر نُيافه لشرف الاسم المسيحى باكتسابٍ جديد ❊

غير ان بوهيموند قد كان ارسل الى تانكريد جوقاً اخر ليس معتبراً من العساكر لاجل مساعدته وكانه هولاء العساكر بلغت الى ترسوس بعد سفر تانكريد من حذايها فطلبوا من اخوتهم الصليبية محلاً ضمن المدينة ليبيتوا فيه تلك الليلة فقط وفى

الغد يسافروا الَّا ان بودوين برجزءٍ قد رفض مطلوبهم هذا قلقاً ومتحسباً غايلة عدم الاركان بهم غير ان تصرفه هذا القاسي سبب المضرة التعيسة للعساكر المذكورين الذين التزموا بان يبيتوا في البر العديم كل حماية ولان عددهم لم يكن اكثر من ثلثماية شخصاً فالاتراك القريبون لتلك الجهات عرفوا الحادث واجتمعوا في ظلام الليل بعددٍ غفير وهجموا على هولاء المساكين المرسلين من بوهيموند فقتلوهم كافةً واخذوا اسلحتهم ومضاربهم فلما عرف ذلك المسيحيون ضمن المدينة قد اعتراهم حزن عظيم واشتعلت فيهم نيران الغضب والخوف معاً وهوذا الصراخات كانت ترعد في المدينة برجزءٍ في طلب الانتقام والموت والانتصار وهكذا في برهةٍ واحدة شوهدت سكان المدينة كلهم قايمين على الاقدام ينهبون ويقتلون الاسلام الذين ذُبحوا بايدى النصاري خلواً من شفقة اما بودوين المتشامخ المحب المجد الباطل قد شمله الخوف من هذا الحادث الدموى الذي هو كان علته فابقى في طرسوس جانباً من العسكر كافياً لحمايتها واخذ الباقيين وابتعد عن المدينة سايراً في اثر القايد تانكريد الى ان بلغ فيما بعد مدينة ماليسترا او بالحرى موبسواسطيه التى كانت ازمعت ان تقع تحت حوزة نورماند الرجل الشريف والبطل الصنديد المحق ❊

فالعساكر التى صحبة تانكريد حينما شاهدوا بودوين مع العساكر الفلامندية اتين الى جهتهم وفكروا بانهم خلواً من ريب كان مزمعاً ان يحدث ما جراء تحت اسوار طرسوس بمعاشرتهم على اخذ الانتصار منهم لذواتهم فقد امتلأوا حرارةً وما عاد يمكنهم ان يضبطوا ذواتهم من الغيظ لانه تجدد في عقولهم الاهانة والافترا الذي صدر هناك في حقهم خاصةً بعد ان كان بلغهم

خبر الثلثمائة نفر الذين قتلوا خارج طرسوس بذنب بودوين ومن ثم احترق دمهم في عروقهم من شدة حزنهم وقهرهم وجميعاً صرخوا بعزمٍ وطيد على المشي لمقابلة اخصامهم بالضر فتانكريد شرع ينصحهم يعظهم يزجرهم يتضرع اليهم يبرهن لهم ولكن كل ذلك ذهب سدى لا بل انهم طفقوا يوبخونه على ضيعان شرفه وشرفهم وينسبونه للموالسة على الحقوق وما اشبه ذلك خلواً من انه ما عاد يستطيع ان يهدي روعهم بنوع من الانواع لا بل انه هو نفسه ما عاد له صبر او احتمال لالفاظهم التي قرعوه بها لاسيما قولهم له انه جبان خايف عديم الحس على فقدان الشرف الامر الذي احوجه حينيذٍ الى موافقتهم على قصدهم فمشى امامهم وهم جروا منحدفين ضد عساكر بودوين فيا له من منظرٍ مبغوضٍ به المرة الاولى الجيوش يحارب بعضهم بعضاً في معركةٍ مهولة شديدة البأس بحربٍ جنسية تامة في اراضي الاسيا التي جميعاً اتوا من المغرب اليها لكي يزيلوا منها قوة تسلط الغير المومنين عليها فالمعركة بين الفريقين بمقابلة ذات حماقةٍ وشجاعةٍ قويتين جداً الا ان النصرة لبثت مدة ساعات غير مرجحة لا لهولاء ولا لاوليك ولكن قد ظهرت هي لجهة عساكر بودوين الاوفر عدداً جداً من الايطاليانين الذين حينيذٍ التزموا بان ينسحبوا الى داخل مدينة موبسواسطيه وقد قتل من الفريقين عدد ليس بقليل من الاشخاص الذين يُندَب فقدهم بالدموع السخينة ✡

فزمن الليل عقيب ذاك اليوم هدّي حرارة الغيظ ومهّد السبيل للصلح عند الجهتين وهكذا في اليوم المقبل ما عاد يسمع عندهما تكلم اخر الا مما يلاحظ الديانة والانسانية لان الحزبين بافرادهم شرعوا يتاملون شناعة السمعة الرديّة عنهم بان المسيحيين

يتحارب بعضهم بعضاً ويقتل احدهم الآخر بالتبادل ومن ثم صارت المراسلة بين الفريقين بواسطة وكلا عنهما لايقاع الصلح فيما بينهما واخيراً بودوين وتانكريد دفنا في قبر النسيان الحوادث الماضية وعانق احدهما الآخر بمحبة امام عساكر الجهتين والجميع فقد فرحوا ومدحوا هذه المصالحة بعلامات الابتهاج وحلفوا وتحالفوا على دوام الاتحاد العمومي لكي ينتقموا لدما اخوتهم المسفوكة قبلاً معتمدين المحاربة ضد اعدا يسوع المسيح وحدهم ✿

فتنكريد بعد ان جرى بعساكره في سواحل اقليم كيليكيا بعلامات النصر والغلبة على سكانها وبلغ الى حد اسكندرونة واضحى سيداً على كل هذه المقاطعات قد رجع الى المعسكر العام مكتسياً بالفخر والمديح وغنياً مع عساكره بالغنايم التي احضروها معهم وعند وصولهم الى المعسكر فالجميع لاقوهم بالاكرام والاحترام ودلايل الابتهاج العمومي وبالتقريظات المحقة لفروسياتهم ✿

ولكن بالخلاف حدث الامر عند رجوع بودوين والذين معه من المعسكر العام لان الجميع قبلوهم ببرود الوجه وبالتشكي من افعالهم وبالملامة المرة عليهم فقد وبخ بودوين من كل القواد على قتل الثلثماية شخص من اخوتهم بخطيته . وغودافروا اخوه نفسه قد وبخه ولامه واظهر غيظه ضده بشدة على نوع تصرفه البعيد جداً عن شرف اقرانه غير ان بودوين الذي قد كان قلبه امتلك حب الرفعة ورذيلة البخل فتوبيخات القواد الآخرين اياه وقلة الاعتبار له من الجيوش افلتته قليلاً ومن حيث ان الخير العمومي لم يكن في لبه الغاية الاولى لاعماله فلذلك انما كانت افكاره متجهة نحو اشواقه في ان يكون لذاته سلطنة خصوصية باسمه في بلاد اسيا ومن قبيل انه وقتيذ

ظهر واضحاً ان شركاه القواد الاخرين قد احتقروه وعنفوه ففكر في نفسه ان هذه هي فرصة مناله لاتمام ضميره السابق العزيم به منه بانفصاله ذاته عن العساكر الصليبية فاذاً لم يعد هو غب ذلك يفتكر سوى بان يشفي غليل اشواقه لذاته بالانفصال كما ان الامور قد جاءت على مراده وطابقت مقاصده بما حصل عليه هو فيما بعد ✫

على ان بودوين قد كان اتحد بالمودة والخلولية مع امير ارمني اسمه فانكراس الذي مدة حصار مدينة نيقيه كان اضاف ذاته الى الجيوش الصليبية فهذا الامير قبلاً كان سلطاناً على اقليم ايبيريا الشمالية وكان طرد عن ولايته من رعاياه انفسهم فحينئذٍ قد انضاف هو الى الصليبيين يحارب معهم متوقعاً الفرصة التي بها يمكنه ان يرجع الى بلاده منتصراً ولكنه بابلغ نوع قد التصق الى بودوين بملاحظته فيه صفاتٍ تلايم غرضه اى لانه رآه محباً للدخول في امور اكتساب البلاد فمن هذا القبيل هو كان يجتهد بالدخول في مشاركته بالاعمال وقد اغواه بما اذاه بادعاه في ان الاراضي والبلدات الكاينة من الجهتين على شطوط نهر الفراة غنية بالموجودات وجيدة المناخات وان سكان تلك المدن هم كثيرون العدد جداً من المسيحيين والجميع مستعدون لفتح ابواب البلاد والاحصان الى الذين يظهرون امامهم من الجيوش الصليبية فمن حيث ان بودوين انجذب من هذه المخاطبات مغرماً قد اقنع ذاته بحقيقيتها وهكذا باجتهاد وعناية كليين قد امكنه ان يولف لذاته الف وخمسماية عسكري مشاة ومايتين خيال بها قد ترك ارفاقه الصليبية وسافر صحبة الامير الارمني المذكور مؤملاً ان يفوز بالمواعيد المقدم شرحها باكتساب البلاد التي حول نهر الفراة ✫.

غير انه فيما بين هذين القايدين (اللذان كلٌّ منهما مجذوب اسيراً لانه التملك على البلاد المقصودة منهما) لم يمكن للاتفاق ووحدة الراى بالمودة ان تدوم زماناً مديداً كما قد تم لان امتلاكهما بعد ذلك المدينتين المدعوتين طورباسال ورافاندال قد صار المشهد الوضيع لانقسامهما الواحد ضد الاخر لان بانكراس اذ تحقق ادعا بودوين فى امتلاكهما وحده ولاحظ التهديد الصاير ضده من العسكر الموافق ارادة بودوين قد آيس من ابتغاه وابتعد عن العسكر مفتكراً فى تدابير اخر مفيدة له ✿

اما بودوين ففى حال دنوه من الاراضى الشاربة مياه الفراة فسكان البلاد كانوا ياتون الى ملاقاته مقدمين ذواتهم لخدمته ومرافقين اياه اعانةً واهداءً على بلادٍ اخر مجهولة منه فاسم الجيوش الصليبية كان قد شاع فى كل الامصار والخوف والجزع امتلك قلوب الاسلام كما ان المسيحيين فى كل صقعٍ بقلة صبرٍ يتوقعون يومياً ان يطرحوا من اعناقهم نير هولاء الغير المومنين الامر الذى افاد الصليبيين افادةً عظمى وسهل لهم ارتفاع موانع كثيرة فاذاً العساكر التى برفقة بودوين اذ قد تضاعفت من المضافين اليها اهالى البلاد الافويا قد ساروا خلواً من مقاومة او ممانعة او خطر الى حد مقاطعة مدينة اودسّا (اي الرها) التى هى راس مدن بين النهرين المدعو اقليمها باليوناني ميسوبوطاميا فمدينة الرها هذه الذايعة الذكر فى تاريخ اجيال الكنيسة الاولى قد كانت سكانها بذاك الوقت مسيحيين (الا القليل جداً منهم) فلما تحررت قبلاً من استيلاء الاسلام تحت شروط قد اضحت بمنزلة ملجاء لكل مسيحى مضام ان يهرب اليها وقد كان ملك الروم ارسل اليها من قبله اميراً يونانياً اسمه تاودورس وكانت وقتيذٍ تحت ولاية هذا الامير ولكنه كان يفى الاسلام جزيةً

سقوية" معلومة" ليهجعوا عن مقاومته فعند ما بلغ سكان هذه المدينة جزيل قرب الجيوش الصليبية اليهم قد امتلأُوا فرحاً وتهليلاً ورجاءً وحالاً ارسلوا اثنى عشر وكيلاً منهم وعنهم مرافقين اسقفهم نفسه الى بودوين متوسلين اليه بالمجي اليهم ومستحلفينه بان ينقذ مدينتهم التى سكانها كلهم نصاري انقاذاً تاماً محررة من تعدي الاسلام عليها فهذا القايد قبل مطلوبهم وسار معهم نحو ابواب المدينة حيث خرجت لملاقاته شعوب غير محصاة حاملين بايديهم اغصان الزيتون وغيرها مرتلين الاناشيد والتسابيح مع ان العساكر التى كانت وقتيذٍ صحبته لم تكن سوى ماية خيال من حيث انه فى كل مدينةٍ قدمت له الطاعة وامتلكها قد ترك فيها جانباً من عسكره لاجل محافظتها فمع ذلك سكان الرها اقتبلوا كل واحد من هولاء الخيالة بمنزلة مخلص وهكذا دخولهم الى المدينة المذكورة كان صورةً حية لدخول جيوش منتصرة مكللة بالظفر ❊

غير ان الامير تاودورس حاكم هذه المدينة اذ شاهد منظر هذه الحفلة الاحتفالية لم يتاخر عن ان يكتسب لها غوايل غير مرضية لهُ وقد ظهر له ان الاسلام لقد كانوا لديهِ اسهل منوال من هولاء الصليبيين فلم يرَ تدبيراً اوفق له من انه اخذ بالاجتهاد في ان يكتسب صداقة قايدهم بودوين مقدماً له كل نوع من الهدايا الغنية مومّلاً انه بواسطة ذلك يميله الى ان يكون تبعاً لهُ والى ان يحمي دوام ولايته على المدينة غير ان بودوين الشرس الاخلاق قد كانت افكاره تمتد الى ما هو اعظم من التملكات فشرع يعلن واضحاً له انهُ لا يمكن ان يرتضي بان يحمي تحت سطوته مدينةً لم تصر ملكه الحر وانه بدون ذلك هو كان يهمل الرها لحمية غضب الاَسلام ويبتعد

عنها فاما الشعب سكان الرها فاذ كانوا يكرهون ابتعاد بودوين عنهم فلما سمعوا منه التهديد باهمالهم قد انهضوا شغباً في المدينة واجتمعوا اليه اجواقاً مستحلفينه بعدم تركهم وتاودورس نفسه التزم بان يضيف تضرعه الى توسلاتهم لا بل انه لكي يجتذبه بابلغ نوع الى مرغوبه قد اعلن انه حال كونه متقدماً في السن وليست له اولاد ترثه فهو يريد ان يتبنى ببودوين له متخذاً اياه ابناً بالذخيرة وانه من ذالك الوقت يعلنه خليفته ووريثه في التملك على الرها فلما سمع ذلك بودوين ارضاه تفكره باكتسابه لذاته صفة جديدة تجعله بعد موت تاودورس وريثاً شرعياً لاقليم واسع من تلك البلاد الغنية ومن ثم كف عن الممانعة ووعد بان يحمي تحت سيفه مقاطعة قد اضحت ميراثاً له غب زمان ما وهو مزمع ان يكون سلطاناً عليها خليفةً لملوك الرها ✱

فهذا الحادث الغير المظنون ولا مؤمل من بودوين نفسه قد اكتسبه في حضنه بغتةً خلواً من تعب ميراثاً هكذا عظيماً ولذلك اخذ صحبته العساكر الذين عند تاودورس وخرج ضد الاسلام المتهددين بالانتقام واتحد معه قسطنطين الامير الارمني فضربوا عساكر الامير بالدوك المسلم وكسروهم في عدة موقعات واخيراً هذا القايد المحمدي مع فضلات عساكره التي لم تزل وافرة قد انسحب الى مدينة ساموصاتا الا ان بودوين على رس عساكره وعساكر تاودورس مع الامير قسطنطين مشوا نحو المدينة المذكورة وامتلكوا ضيعها والبيوت القريبة من الاسوار بالسيف ونهبوها واقتسموا الغنايم ولكن الغير المومنين وثبوا عليهم غفلةً واشتدت المعركة الدموية بين الفريقين واخيراً انتصرت الاسلام عليهم فقتلوا منهم الفين شخص مقاتل وهكذا الباقون تبددوا وهربوا راجعين الى مدينة الرها حيث رجوعهم على

هذه الصورة اوعب قلوب الجميع حزناً وانذهالاً ☆

فالمودة وحسن الاتفاق اللذان لحد ذاك الوقت حفظا فيما بين بودوين وتاودورس قد انقلبا حينئذٍ الى بغضةٍ ومغايرة ردية وكلٌ منهما كان ينسب الاخر بالتبادل حدوث هذه الخسارة والكسرة الذلة واما سكان الرها الكافرون بجميل تاودورس المحسن اليهم اميرهم الذي دايماً عاملهم بعذوبةٍ وافرة ومراتٍ كثيرة انقذهم من عبودية الاسلام فقد اظهروا غرضهم الاعمى نحو بودوين متكرهين من تاودورس متفوهين ضده بانه' ثقّل عليهم كثيراً باخذ الاموال منهم ودفعها للاسلام المتعطشين لغباً لاحتشادها وباستخدامه المسيحيين رعايا له' كان يظهر بهم اقتداره وانهم لذلك رفضوه وفضلوا عليه بودوين مريدينه والياً عليهم وبهذه الاقوال شغبوا الجميع الى رايهم متعصبين ضد واليهم الشيخ الذي لما عرف ذلك يقيناً وتحقق الخطر المبين على حياته قد انتقل حالاً من قصره الى قلعة المدينة واستعد الى ان يحمي ذاته وعيلته هناك بمقاومة شديدة فوقتيذٍ نهضت سكان المدينة بغضبٍ وحشي واجتمعوا كافةً تحت اسوار القلعة وشرعوا يحاربونها بقوةٍ عمومية معتمدين باي نوعٍ كان على اخذها وقتل تاودورس الذي ليأسه من المقدرة على دوام مقاومتهم قد طلب منهم ان يعفوا عن حياته وحيوة الذين معه وهو يترك القلعة ويخرج ذاهباً مع عيلته الى مدينة ميليتينا فهذا الطلب قبلته اهل المدينة وجملةً مع بودوين ابرزوا القسم على الانجيل وعلى الصليب المقدسين بان يحفظوا له هذا الشرط بامانةٍ ولكن يالخيانة البشر (يقول المورخ متى الرهاوي) انهم في الغد الذي كان واقعاً فيه عيد الاربعين شاهداً بودوين والمتقدمون في المدينة قد استولوا على القلعة وحينيذٍ الشعب الواطى المستاجرين

لذلك قد اندفعوا على الامير تاودورس بقساوةٍ بربرية والاسلحة باياديهم وقبضوا عليه ثم طرحوه من راس السور الى اسفل وتمموا وحشيتهم فى انهم قطعوا جسمه الف قطعة وبعد ان اضحوا مدنسين بسفك الدم الزكي دفعوا مفاتيح المدينة الى يد بودوين ✿

فهكذا انتهى فعل اغتصابى ظالم بربري من شعبٍ متعصب بالقساوة ضد اميرٍ كلي الاستحقاق من قبل سمو صفاته وعدالة حقوقه واما بودوين المذنب اقلما يكون بعدم محاماته مطلقاً عن حيوة ابيهِ بالذخيرة انشيخ الجليل فقد نوي به سلطاناً مخلصاً لمدينة الرها وبهذه الصورة هو جلس على عرشٍ مفتخر واعلن ولايته على رعاياه الجدد وصيّر داته مهاباً عند اعدايهِ ثم بعد ذلك مدينة ساموصاتا مع مدنٍ اخر مختلفة قد سقطت تحت ولايته ولما ترمل هو بموت امراته غويداشيده قد تزوج بابنة اخى امير الارمن الذي باتحاده معه قد استطاع هو اى بودوين ان يمد سلطنته الى حد جبل طاوروس فاذاً بلاد بين النهرين كافةً مع كل البلدان التى على شطوط نهر الفراة من الجهتين قد عرفته سلطاناً عليهم وقبلوا شرايعه ومن حيث انه استوعب نفقةً وصلفاً باقتداره وقد استنسى بانه هو كان من الصليبيين الناصدين مجرد خلاص اورشليم من الاسر فلم يعد هذا الامير ان يفتكر في شي اخر سوي فى ان يوسع حدود سلطانه فهكذا رجل من اشراف اوروبا صليبى نصب سلجنته فى ارض اسيا الصغري وبعده تملك مسلطناً على البلاد الاكثر غناءً فى مملكة الاوثوريين وامرية الرها التقوية بعدة حصون التى كانت فى حوزة الاسلام المختطفينها قبلاً باغتصاباتهم اضحت حرة تحت ولاية بودوين وخلفايه المسيحيين الى حد حرب الصليب الثانية فاذاً بودوين قد تنعم بمشاهدة مجد معسكره

وتقدمه بالنجاحات الى ما سما به على ما كان يومله من وجوده مع الجيوش الصليبية ولكنه لقد كان هو اعظم سعادة لو ان مجده هكذا يكون دايماً شريفاً نقياً ولم يكن هو اشتراه بدما اخوته و بموت ابيه بالذخيرة الموعب قساوة بربرية بزنبه هذا ✿

الفصل الخامس

✿ في حصار مدينة انطاكيه العظمى وامتلاكها ✿

فالجيوش الصليبية في مشيهم الانتصاري ضمن المحلات والمقاطعات التي كان ادثرها نهباً وحرقاً وهدماً ذاك المقهور كيلدج ارسلان قد شاهدوا الاسيا الصغري واقاليمها على نوع ما طايعة لهم لاجل مجرد سمعة الظفر الذي فازوا به قبلاً على ان مدن ليكاونيا وهيراكليا وقيسارية كبادوكيا وتيانا وفوزقون ومرعش فهذه المدن مع ما يليها قد وقعت تحت حوزة العساكر المسيحية ولكن حينما هم كانوا هكذا يسيرون مفتخرين بالانتصار خلواً من خوف ما من ان يصادفهم الاعدا فمحل المحلات الداثرة وحرارة المناخات والاراضي ونقص المياه واوعار الطرقات وتوابع ذلك قد صيرت اسفارهم هذه متعبة مضنكة مولمة ذات مشقات مختلفة فهم كانوا يتقدمون في مسيرهم خلواً من الحفظ الواجب والفطنة اللازمة في سهول اسيا ولم يفكروا في ان مشيهم دايماً الى ما قدام بدون ان يلاحظوا الي ما هو خلفهم متهاونين في ان يوطدوا منهم محافظين كافين في البلاد التي استولوا عليها فبذلك كانوا يقطعون عن ذواتهم الوسايط في اتصال الاسعافات اليهم من الاوروبا مع انهم على الدوام لم يكونوا يقدروا ان يستغنوا عن

معونات كذا ثم ان اجتيازهم فى الجبال العسرة المجـال جـداً جداً فيما بين فوزقون ومرعش المدعوة جبل الشيطان قد تكبدوا مضرات وخساير كلية ولكن بعد ان كانوا بشدايد مهيلة عديمة الوصف انجزوا مسيرهم من جلجلة جبل طاوروس وجبل امانوس وبلغوا اخيراً الى اراضى سوريا المخصبة فهذا المنظر قوي شجاعتهم وانعش افيدتهم وانساهم جميع ما اصابهم من النكال والعذاب والاخطار والاتعاب وقد كانوا يعلمون ان اقليم فلسطين انما هـو ضمن تلك الاراضى السورياويـة الاقليم الـذى كانت نـذورهم متجهة نحوه وغاية مسيرهم كانت اليه وامتلاكهم اياه كان هـو المقصد الوحيد المضطرمة حرارة قلوبهم نحوه فاذاً اتري ان مدينة اورشليم المقدسة صارت قريبة منهم ولم تعد بعيدة عن الحاظهم فيا له من رجاء جذاب الاميال ويا لها من تعزية منتظرة بعد اهكذا انما هو باق بعض من العناء وبعض ايام من المسافـة ولربما ان اعينهم وافكارهم وقتيذٍ كانت تصور فى اوهامهم كانهم مشاهدون قبر مخلص العالم ☆

فمدينـة انطاكيه العظمى كانت فى الايام التى فيهـا الجيوش الصليبية دخلوا فى اراضى سوريا هى المدينة الاولى التى دنوا منها ولكن قبل بلوغهم الى امام اسوارها كان يلزمهم ان يجتازوا من فوق الجسر المعمر على النهر المسمّى اورونته الذي هو العاصى والجسر المذكور كان محصناً من ناحيتيه ببرجين عظيمين مكسيين بالحديد وهناك كانت توجد عساكر الاسلام محافظين المدخل بقوة اسلحتهم لمنع الاجتياز فالدوكا ده نورمانديا البارتوس قايد الجيش السابق الصليبيين قد فاز بانه حالاً صير هذا المدخل المنيع العسر جداً حراً للمجتازين لانه على راس عساكره الابطال قد هجم على جنود الاسلام الذين اذ هلعوا رعباً وجزعاً قد اهملوا مكانهم

عاجلاً وفروا هاربين الى المدينة بخجلٍ مضحك وهكذا الجيوش الصليبية صاروا تابعين خطوات القايد المذكور الغالب بسيفه المستل بيده وبلغوا كافتاً بضرب الابواق والات الطرب الى محل واسع بعيد عن انطاكيه مسافة ميل واحد وهناك ضربوا اخيام معسكرهم ☆

فهذه المدينة الشايعة الصيت فى التواريخ راس مدن اقاليم سوريا الملقبة بسلطانة المشرق قد كانت وقتيذٍ هى المدينة الاولى في العضمة في كل العالم قاطبةً بعد مدينتى رومية العظمى والقسطنطنيه وموقعها هو فيما بين بلاد معتبرة ومخصبة وفى كل زمانٍ كانت تجذب اليها كثرة من الغربا وملوك مختلفون من الرومانيين سكنوها ازمنةً مستطيلة واهتموا فى انهم زينوها بعمارات ملوكية جليلة كلية الاعتبار ولكن الجيوش الصليبية انعطفت سيمات حبهم نحو هذه المدينة لاجل شى اخر تذكروه هناك وهو انه نظراً الى امور الديانة وسر الافتدا فمن بعد مدينة اورشليم لم يكن فى سياق تاريخ الكنيسة مكان معتبر اكثر من انطاكيه الذى كانت تتقاطر الزوار لزيارتها بتقوي وعبادة موازية على نوعٍ ما لتلك التى بها كانوا يزورون اورشليم وضمن هذه المدينة تلاميذ مخلص العالم قد اتخذوا اول مرة لقب مسيحيين والقديس بطرس الرسول هناك عُرف انه أول راعٍ لكنيسة المسيح الناشية وداخلها قد تلالاء عددٌ وافر من الشهدا والقديسين والعلما وعجايب كثيرة من القوة الالهية صُنعت داخل جدرانها ومن ثم جنود الحرب المقدسة عند نظرهم اسوار هذه المدينة المعتبرة قد انتاشت فيهم سيمات الديانة واضحوا متغزلين بملاحظتها ومنشغفين نحو الدخول اليها بالرجا منتصرين ولم يعد عندهم صبر عن سرعة محاصرتها والهجمات على اسوارها ولكن عددٌ

مختلف من الصعوبات والموانع القوية الغير مغلوبة كانت مهيات ضد شجاعتهم قبل ان يفوزوا بامتلاكها ❁

على ان موقع هذه المدينة السعيد وحصونها وكثرة الابراج المستديرة حولها كانت تجعلها كانها عديمة الامتلاك بالقوة وهى مشيدة فوق اربعة تلال متميزة مقسومة بفروع قوية جارية من نهر اورونته العاصى الساقية اراضيها حيث ان هذا النهر امواجه القوية كانت تلاطم جوانبه الشديدة فى محل انقسامه والمدينة محاطة بعمار صخور كبيرة مضروباً بالزميل ومستديرة بخنادق عميقة جداً منصوبة فى دايرتها اشجار غليظة ومحصنة ايضاً ببساتين ذات حيطان مرتفعة واخيراً محمية بقلعة شاهقة قوية جداً مرتفعة فوق التل الغربى ضمنها (فيقول احد المورخين الشهيرين) ان مدينة انطاكيه فى هدوها وفى شراستها تعطى ناظرها خوفاً بمجرد المشاهدة فى عظم الابراج الحصينة الواسعة المستديرة حولها وعدد هذه الابراج كان ثلاثماية برج ولكن مع كل هذه التحصينات المهيلة مدينة انطاكيه كانت قبلاً عدة امرار اخذت ممتلكة من الروم ومن الاسلام ولم يكن لها حينيذٍ اكثر من اربعة عشر سنة ممتلكة من الاتراك جديداً فقد كان وقتيذٍ ضمن هذه المدينة عدد كلى من السراكسة الذين كانوا قاطنين فى البلاد القريبة اليها وعندما بلغتهم اخبار قدوم الجيوش الصليبية الى اراضى سوريا قد اهملوا محلاتهم وهربوا الى انطاكيه باعيانهم وخزاينهم اما اكسيان الابن الاصغر للملك شاه المقيم فى هذه المدينة سلطاناً عليها فحالما سمع بمجى الجيوش الصليبية قد سبق واوعب انطاكيه من الذخاير ومن آلات الحرب واستعد للمحاصرة ضمنها هو وعدد عظيم من العساكر ❁

فالامراء اللاتينيون عند ملاحظتهم هذه الموانع والصعوبات كلها

عقدوا الاجتماع بالمشورة فى هل انهم حالاً يشهرون الحصار ضد انطاكيه ام كيف فالاراء فيما بين القواد قد وجدت مختلفةً فالبعض منهم اذ انقادوا بفطنة باردة قد برهنوا عن حال قرب فصل الشتاء الذى مدته ذات امطار وبرد وجوع بعدم الموجودات من الغلات وامراض وهذه كلها هى مصايب اشد من اسلحة العدو نفسها وبها كفاية لدثار المعسكر المسيحى ومن ثم اختتموا كلامهم بان يصير التمهل بالحصار الى زمان الربيع والى ان تكون وصلتهم المعونات التى وعدهم بها الملك اليكسيوس غير ان هذا الراى الاخرون قد قاوموه بحدة واكثر الامراء والقواد قد ضحضوا براهينهم وفيما بين هولاء إفسده بالاخص ادهمار ده مونتيل وغودافروا ده بوليون الذي صرخ قايلاً يكفى كلام باطل فلنغتنم فرصة الرعب والخوف الذين شملا قلوب اعداينا افهل نتركهم الى ان يزدادوا قوةً وكثرةً في طولة الزمان ليحاربونا بشدة او هل ان الخليفة فى بغداد وسلطان العجم لا ياتيان الى معونتهم فلا ريب اذاً في انه اية مهلة من الزمان تعطى عن الحصار والحرب غايلتها علينا ردية وتعدمنا اثمار انتصاراتنا التى اكتسبناها لحد الان فماذا يهمنا مجى عساكر جديدة من المغرب الينا اهل ياتون لكى يشتركوا فى ظفرنا خلواً من ان يشتركوا بشدايدنا واخطارنا واتعابنا التى تكبدناها لحد ههنا واما فصل الشتا فهل ان صعوبته تهين جنود السيح اكثر من الاهانة التى تلتحق بصليبه تعالى من الكفرة او هل اننا نصنع نظير بعض انواع الطيور التى حينما تشعر ببرد الشتا فى احد الاقاليم تسافر الى اقاليم معتدلة فمن منا لا يتذكر فى حصار مدينة نيقيه وفى معركات ارض دوريلى ومعركات اخر كثيرة غيرها فغنى الذخاير والموجودات التى ضمن انطاكيه منتظرة الجيوش الصليبية وابواب

المدينة لا تتاخر عن ان تفتح لهم ✿

فهذا الخطاب قبل بكل علامات الرضى وهكذا ديوان المشورة قد حكم بان تحاصر انطاكيه خلواً من ادنى امهال والمعسكر فى اليوم نفسه قد انتقل الى امام اسوار المدينة والقواد المتقدمون اقتسموا المحلات حولها كلٌ منهم بعساكره فالمحل الذي من المشرق امام باب القديس بولس قد اخذه بوهيموند وتانكريد مع العساكر الايطاليانية وعن جهة يمينهم قد تمكنت العساكر النرماندية والبريطونية والفلامندية اما الفرنساويون المترأس عليهم روبارتوس هوكز ده فارماندوا وروبارتوس كونته ده شارتره فقد رتبوا ذواتهم فى ناحية الاسوار الشمالية امام باب الكلب واما الكونته ده طولوزا وادهمار ده مونتيل وغودافرا ده بوليون فمدوا عساكرهم الى حد مجرى نهر العاصى حيثما يلفت هذا النهر نحو المغرب ويقرب من اسوار المدينة اما جهة المدينة القبلية المحمية بالجبل الاورونته فبقيت مكشوفةً نظير الجهة الغربية المحمية بالنهر المذكور ✿

غير ان صمتاً تاماً وسكوتاً كاملاً حُفظا فى الابراج والاسوار والمدينة نفسها ولم يظهر فوق شرافات الحصون ولا محارب واحد الامر الذي اوجب فى الجيوش الصليبية ان يحكموا بان الخوف الشديد ملك قلوب المحاصرين وقطع اوصالهم وبدد جراتهم وكانهم عدلوا عن ان يحموا ذواتهم ويحاربوا اعداهم ومن ثم اذ الخضعت هولاء الجنود بالامل فى انهم يملكوا المدينة بسهولة وكأن العدوّ صار فى ايديهم فقد تركوا ذواتهم متوانين بنوع لا يحتملَ حتى انهم احتقروا التوقيات الواجبة كانها غير مفيدة ولا لازمة وتفرقوا فى الكروم والجناين القريبة اليهم ولم يعودوا يفتكروا سوي بالتمتع بجودة التلذذ ✿

فتحت سما سوريا الحسن المناخ حيث يُستنشق النسيم بروايح الزهور الزكية حول بحرات المياه وسنسبيلات المكان المسمي ضافني على شط نهر العاصي الشايع صيته في تاريخ الامم لاجل المعبد الذي كان هناك للصنم ادوني ✿

السيلحيون قد تراخوا عن صرامة التهذيب وتناسوا انهم انما تدرعوا بالاسلحة لاجل الحرب المقدسة وهكذا الفساد وطلق العنان للالام البشرية الجسدية قد استولى درجةً فدرجةً على قلوب جنود المسيح واذا اردنا ان نصدق ما اورده فى هذا الشان مورخوا ذاك العصر قد صودف اخيراً مشهدٌ غريب غير مسموع مثلهُ وهو ان الرذايل كلها البابلية قد توطدت تحت مضارب مخلصي صهيون ففي طول هذه المدة الاعدا الاسلام كانوا ساهرين يهيبون ذواتهم الى حرب شديدة وهكذا العساكر التى ضمن المدينة ظهروا بغتةً على هولاء الصليبيين حينما كانوا جايلين فى القرى والمزارع التى حول جبل اورنته حيثما جذبتهم رغباتهم للنهب او للملذات وهناك ما عاد لهم مهرب من احد هذين الامرين بعد تقوية العدو بتماهلهم وهما اما الموت واما الوقوع فى الاسر فهذا ما اراد الاله الازلى ان ينتقم بهِ عن الاهانة الصادرة فى حق اسمه المثلث التقديس وكان يعدمهم المجد الذي كان مهيى لهم ان يشاهدوا بهِ ذواتهم جاثيين امام قبر مخلص العالم ابنه الحبيب قصاصاً عادلاً عما بهِ دنسوا بافعالهم الاثيمة الصلبان التى هم كانوا حاملينها على صدورهم غير ان انتقاماً اخر ليس باقل ثقلٍ من هذه كان مزمعاً ان يحل بهم كانه علامة جديدة لظهور غضب الله عليهم ✿

فالحرب قد اشتدت وتجددت هجمات الصليبيين مراتٍ على المحاصرين ولكن من دون فايدة بتةً بنوع ان هولاء الجيوش

اذ قطعوا الرجا من انهم يقدرون ان يزعزوا ناحية ما من الاسوار مطلقاً فشرعوا قلما يكون فى ان يضبطوا الحصار جيداً من كل جهات المدينة ليقطعوا الوارد من اتصال المعونات الى داخلها ويشيدوا ابراجاً ضد ابراج. وهذه القضية المحتوم بها من قبل الضرورة وهى تحصين الحصار الى زمان طويل قد كانت مرّة ذات شحطة كاية على الجنود الذين قلة صبرهم بالكاد تحتملها لانها صارت لهم علةً لفناء عدد عظيم منهم كما ياتى القول على انهم بسبب املهم الاول العديم الافراز فى ان انتصارهم على المدينة كان وزمان الحصار لم يكن مستطيلاً فقد افنوا فى ايام قليلة ذخاير القوت التى كانت تكفيهم بحسن التدبير مدة اشهر وحسب اعتيادهم لم يفكروا فى الايام الاولى من وصولهم امام انطاكيه لا فى ان يحاربوا المحاصرين بصرامة. ويحموا ذواتهم من الغوايل ولا فى ان يهتموا باحضار ذخاير تصدّ عنهم الجوع العتيد ان يحيق بهم لاسيما حينما اعتمدوا ضرورةً على تشييد الابراج امام اسوار المدينة يمكنهم منها وبها ان يضايقوا العدو بشدة الحرب فهذه التعميرات والتحصينات الخارجية قد تكلفت عليهم افناء ايام عديدة الى ان ادركهم فصل الشتا وابتدا يذيقهم شدايده كما ان الذخاير القوتية نفدت من عندهم واعتراهم القحط وهكذا هم وجدوا مكتنفين ببلايا ثقيلة من كل جهة. ثم ان المراكب التى كانت اتية فى البحر الابيض لمعونتهم من قبل اهالى بيزا البندقية وجينوا قد صادمتها عواصف شديدة ردتها الى الوراء من دون امكان وصول شى منها الى سواحل سوريا وكذلك فى بلاد اليونان والغرب لم يبلغ ولا مركب واحد الى مينا القديس سمعان البعيد عن انطاكيه مسافة ثلث ليكات وهكذا من وفور الامطار واتصالها الحادثة فى ذاك الفصل ما عاد

امكان للدواب ان تنقل غلات ما من جهة البحر الى المعسكر ✽

اواه من ترى يمكنه يصور الحال التى المت بتلك الجيوش والدثار الذي احاق بهم من ثقل هذه المصايب والنوايب طول مدة حصار انطاكيه القتال فغزارة الامطار المتداومة والرطوبات الزمهريرية والامراض المختلفة الانواع والجوع من قلة المواكيل قد كانت محيقة بالعسكر كله وموعبة احزاناً واوجاعاً ومرايـر علقمية فالخيول قد هلكت على نوعٍ ما جميعها لان جانباً كبيراً منها قد ذبحته العساكر واكلته وفى تلك السهول المخصبة التى فى الايام الاولى من الحصار اغوت جنود المسيح الى ارتكاب المعاصى قد اهلكتها الامطار الشديدة بغلاتها واثمارها بالكلية ثم ان الانهر الشتوية عدت امرار بغتت فى غديرها العظيم محلات كثيرة من المعسكر واخذت فى مجاريها القوية عدداً وافراً من الخيم والمضارب الكبار معما كان ضمنها من الموجودات كما ان وفور المياه والنداء والرطوبات ارخت اوطار القيسات وجلبت الصدا للحراب والدرق والسيوف فاكثر الجنود خلواً من ملابس كانوا يلتجيون الى المغاير وكهوف الجبال ولغوم الارض لكى يجدوا فيها لذواتهم ماوي من الامطار والبرد والجليد والرياح العاصفة فمرض الحمى الوبائية قد ضرب المعسكر بقساوة كلية وسبب فى الجيوش فناءً عظيماً حتى انه حسب تقرير احد المورخين القدما ان العساكر الاصحا ما عاد لهم زمن كافي لدفن اخوتهم الذين على مدى الساعات كانوا يموتون بعدد وافر ✽

ففيما بين الحوادث اليومية التى كانت تلمّ بالعسكر من المحزنات والتى كانت اخبارها تاتى اليهِ من خارج ايضاً توجد الخبرية المكربة الاتى ايرادها التى بمجرد قراتها تجذب الى هطل الدموع علي الامير صوينون وخطيبته فهذا الشاب

الشريف النبيل وريث تخت سلطنة داذبزي حينما كان سايراً صحبة ارفاقه الشجعان الى الاراضى المقدسة بالقرب منها قد وثب عليه الاتراك بغتة وذبحوه بهذا خطيبته فلورين ابنة اوداس دوكا برغونيا على ان هذه الابنة الشريفة الجميلة قد ارادت ان ترافق خطيبها الجليل المذكور معتمدة الزواجة به غب اخذ مدينة اورشليم من الغير المومنين وحينما كان هو وارفاقه يتحاربون الاعدا قبل موته كانت هى قريبة منه فى المعركة فرشقت من الاسلام بسبعة اسهام وهكذا هى وخطيبها فى وقت واحد قتلا فى المعركة بعد ان شاهدوا موت خيالتهما وخدامهما الامينين (فيقول غوديليوم الصوري) ان اخباراً مثل هذه كانت تتوارد يومياً الى معسكر الجيوش الصليبية موعبة من الكدر ومحزنة القلوب الاشد صلابةً مع ان احوال المعسكر كانت مملوة مصايب ثقيلة فى كل نوع ✿

ثم ان داهيةً اخرى حلة بالجيوش الصليبية وهى ان نظراً الى مشهدهم الموعب من الشرور والنكبات فعددٌ وافرٌ جداً منهم عند اشعارهم بذواتهم خيبوبة شجاعتهم فقد انقطع رجاوهم من حقيقة المواعيد السماوية وهكذا ابتعدوا عن الدعوى المقدسة وهربوا بخجل من المعسكر مهملين اخوتهم فهولاء طفقوا ينفصلون من بين الاخرين اخذين بالمسير الى بلاد الكادان بين النهرين ليجدوا ما به يقيتون ذواتهم ويسترون فقرهم مخدعين انفسهم لطاعة الامير بودوين او كانوا يذهبون الى بلاد كيليكيا التى صارت تحت ولاية المسيحيين فسفر اجواق بجملتها من هولاء المحاربين كان يحزن قلوب اخوتهم الباقين في المعسكر ولكن الحزن صار اشد والرجا قد ضعف بالاكثر عند هولاء حينما شاهدوا ان البعض من القواد انفسهم قد اهملوا عساكرهم وتوجهوا ضد التزامهم بان

يعطوا مرؤوسيهم نموذج الصبر والشجاعة لان دوكا نورمانديا قد سافر الى مدينة اللادقيه ولم يعد يرجع الى المعسكر الا بعد ثلاثة كتابات استدعائية من القواد جميعهم تحررت له باسم يسوع المسيح وكذلك طاتيس القايد المُرسل من قبل الملك اليكسيوس لمعونتهم قد هرب مع العسكر الذي هو كان متراءساً عليه وغويليوم فيس كونته ده مالون الذي شجاعته في حروب سابقة خصوصية لقبته بشاربانتير فهذا ايضاً ترك سنجق الصليبيين وابتعد عنهم واخيراً بطرس السايح الذي بحرارة غيرته وشدة صراخاته وبراهين فصاحته قد حرك اهالي الاوروبا الى هذا الحرب المقدسة فبطرس هذا نفسه اذ كان في المعسكر امام اسوار انطاكيه قد غير ملبوسه وهرب عند انقطاع رجايه من الانتصار ولكن هربه هذا قد سبب انذهالاً كلياً عند الجميع ☆

(فيقول المورخ غويبارتوس) انهُ عند ما عُرف ان بطرس السايح هرب من المعسكر فهذا الامر اعتُبر كأنّ النجوم سقطت من السما ☆

و بعد ذلك كانهُ كان يخاطبه هذا المورخ قايلاً * تذكر اصوامك حتى ان جلدك لصق بعظامك وضعف معدتك شابه الخيط وصيدك هو الحشيش مرعى الغنم فهكذا انت كنت حينما جمعت الشعوب فانت ما كنت تدعوهم الى اعياد الفرح والرقص فاذاً اعرف ان تثبت ذاتك في الشي الذي انت جذبت الغير اليه واعطى النموذج فيما علمت به ولكن هرب بطرس السايح لم يكن مدة مديدة لان تنكريد الشجاع ادركه بسعيه وراءه فارجعه الى المعسكر جملةً مع شاربانتير ولما شرع كثيرون يوبخونه على نوع هربه هذا ذي النذالة واللوم فهو ابرز القسم على الانجيل الطاهر بانه يستمر ثابتاً على القضية

التى كان انذر بها ونحن عن قربٍ نشاهد بطرس هذا على اصوار المدينة المقدسة حيث عيناه وقتيذٍ تنظر اخيراً تخليص التهر المقدس من الهوان والنفاق الذي هو كان قبلاً لاحظه هناك *

ثم ان الاسقف الفاضل ادهمار وغيره من الرعاة ذي الغيرة والفضيلة والفطنة قد مارسوا كل اجتهاداتهم فى ابعاد الشعب عن الرذايل وفى ردهم الى التهذيب والاعمال الصالحة وقد تكلموا ضد مآثمهم باصوات قوية وتوبيخات فعالة ولم يكفوا عن البراهين المحتقة ان جميع ما حدث لهم من الضرر قد كان قصاصاً عادلاً بسبب خطاياهم فزنزلةً عظيمة زعزعت البلاد كلها وفلجرٌ مشعشع ظهر منظوراً من العساكر الصليبية فى غير وقته وقد اتخذوه بمنزلة علامة لغيظ الله عليهم فاذاً بواسطة الصلوات والتضرعات والاصوام المناعة والزياحات حول المعسكر قد اجتهدوا كافةً فى ان يعطفوا قلب الله عليهم ليذيل عنهم الانتقام وقد انتقلوا هكذا من حالٍ الى حال ضدية ولم يعد يسمع فى المعسكر الّا اصوات الابتهالات والتسابيح وممارسة افعال التوبة وحفظ الشرايع المقدسة مناقضة للافعال القبيحة السابقة بصرامةٍ عادلة وتلك الفضلات الباقية فى انفسهم من حسن العبادة قد انتعشت وفتحت اعينهم وشرعوا يندبون مآثمهم باكين من اجلها وموعدين بعدم الرجوع اليها فيما بعد ومن ثم ظهر فيهم سمات التهذيب والترتيب بالانقلاب عن تصرفاتهم الماضية المكروهة فى الغاية *

فاما الاسلام فان قد شاهدوا وعرفوا الشدايد والنوايب والشرور والمضرات السابق شرحها التى كانت ملمة بالجيوش المسيحية فقد امتلأت قلوبهم فرحاً متحققين ان هذه كلها كانت اسعافات لهم وقد استنتجوا منها لذواتهم الامل الكلى فى سهولة انتصارهم على ذاك المعسكر فى ظروفه السيئة وقد كانوا مستخدمين عدة

استخلص سريان جواسيس لهم الذين كانوا يتجولون خارجاً بملابس اعتيادية ويوميا يأتونهم بالاخبار عن حوادث الصليبيين وعن احوال المهدّب المرة المحيقة بهم ولكن خباثتهم اخيراً قد انكشفت (كما قرر المورخ برنردوس الخازن) قايلاً انه كان هكذا كثيرون لا يكفون عن المجي الى المعسكر والذهاب منه بانصال ولم يكن احد بالامكان يفهم منهم شياً بالخلاف فقد عرفوا انهم من الغير مومنين ❊

فبوهيموند حينيذٍ استوعب رجزاً واعتمد على ان ينقي المعسكر جميعه من هولاء الخبثا المرسلين من الاعدا الجواسيس عليهم صارخاً تري ما هو الموجب للسماح لهولاء البربر ان يدخلوا فيها بين شعبنا متجسسين ثم (كما يورد غويليلموس الصوري) ان بوهيموند امر بانه اي احدٍ كان من الاتراك يقع تحت نظر احد من الصليبيين يلزم ان يقبض عليه ويقاد امام اصحاب الوظايف العلية الذين حالاً يامرون بان توقد ناراً قوية وبان يطرح ذاك المسلم عليها ليشوي معداً ماكولاً له ولارفاقه وقد اعلن حاتماً بان من يصنع خلاف ذلك فيكون ضمان الغايلة على راسه فقد التيم مجمع المشورة والامراء والروسا فيه قد رسموا بانه من ذاك اليوم وصاعداً كل من قبض عليهم من الاتراك المحاربين او من جواسيسهم يلزم ان يذبحوا وتوخذ لحمانهم وتصلح اطعمةً مطبوخةً ومشويةً وتوكل من القواد ومن الجنود ❊

فمرسوم بوهيموند المبتدع منه هذا البربري الوحشي قد وضع بالعمل مدققاً بامانةٍ فالاسلام سكان انطاكيه وما يليها عند ما سمعوا بهذا المرسوم وبعمليته قد استوعبوا جزعاً ورعبتاً وما عاد احد منهم يقترب الى معسكر الصليبيين فبهذه الطريقة المخترعة من خباثة القايد بوهيموند (يضيف المورخ المذكور قوله الى كلامه)

قد انقطعت اخبار حوادث المعسكر عن الاسلام وما عادوا يعرفون اعمال الجيوش المسيحية الخصوصية ولا تدابيرهم الحربية ❊

فغب النظر الى الطريقة المذكورة المفيدة للصليبيين الا انها مكروهة وغير برية من الزلل ينبغي ان تمدح فطنة الاسقف ادهمار وغيرته فيما صنعه باكثر افادة وهو انه صير الصليبيين ان يفلحوا الاراضي المجاورة مدينة انطاكيه ويزرعوها وجعل هذه الاعمال مشتهرة وبذلك اعلن هذا الرجل ذو الفضائل للاسلام انه لا يمكن لشي من الاشيا مطلقاً ان يضعف صبر المسيحيين بطولة الزمان بل انهم وطدوا اعتمادهم على ان يسكنوا بطمانينة حول اسوار المدينة التي هم محاصرونها خلواً من انفكاك عنها ❊

ثم ان الفصل الربيعي بعد ذلك قد دنى وصحبته قد ورد توطيد الرجا وقد كفت الامراض عن المعسكر وقلة الغلات وذخاير القوت اخذت بالزوال عنهم وهكذا شرعوا يباركون الانعامات السماوية وجددوا تضرعاتهم الحارة لدي الرب وعظموا جودة صلاحه بالتسابيح والنشايد مثرين بفضل احسانه اليهم عارفين جميل رافته نحوهم ❊

ففيما هم في ذلك اقبلت نحوهم الى معسكرهم قصاد الخليفة المتولي فى ذلك الزمان على المملكة المصرية فهولاء القصاد اعلنوا لقواد الصليبيين من قبل سيدهم ارادته فى ان يكون متحداً معهم بالمودة والحب والصلح وان يحامى عنهم موعداً اياهم بان يهتم فى رجوع الكنايس المشيدة للمسيحيين وبان يحمى ديانتهم وخدامها تحت لواه وبان يفتح ابواب مدينة اورشليم لكل الزوار الاتين اليها بشرط انهم يدخلونها بدون اسلحة وبان لا يستمروا ضمنها كلٌ منهم اكثر من مدة شهر واحد ثم اشهروا لهم انه اذا هم رفضوا خير اتحادهم معه بالصورة المشروحة فشعوب

الاقاليم المصرية والحبشية مع شعوب اسيا وافريقية من حد مقاطعة غزه الى ابواب مدينة بغداد جميعاً يقومون حالاً تبعاً لصورته اذ هو نايب عن محمد وهكذا يظهرون لعساكر المغرب كم هي عظيمة قوة سيوفهم ❊

اما قواد الجيوش المسيحية فقد اجتهدوا بكل عنايتهم في ان هولاء القصاد الاسلام لا يكتشفون على احوال معسكرهم المقلّة المعوزة المنقهقرة ومن ثم اظهروا اامامهم سيمات الفخر والعظمة وعلامات الشخشخة والصلف لانهم فتحوا مضاربهم الواسعة المزينة بالوان وزغرفات مختلفة وزينوا خيولهم بافخر ما كان عندهم وصنعوا امامهم رياضات الحرب بسباقات الخيل وملعبة الحراب والرماح المتجلية الواحد ضد الاخر ثم مارسوا بحضورهم تجديد الحرب على المحاصرين وهذا جميعه (فيقول روبارتوس الراهب) صنعوه لغاية ان يوضحوا للقصاد ان الناس الذين هذه حالهم وهذا اهتمامهم لا يوجد عندهم خوف من احد اصلاً ❊

فاذ قد استمعوا مخاطبات القصاد المذكورة بروح متمرد خلواً من اعتبار نحو الخليفة المصري فاحد القواد المتقدمين قد نهض سرعةً ومد يده نحو هولاء القصاد بجراعةٍ معلناً ارادة الجيوش الصليبية الثابتة على الحرب قايلاً لهم هكذا امضوا وقولوا للذي ارسلكم ذاك الذي كتب محدداً بان نختار اما الصلح واما الحرب موضحين له ان النصارى الناصبين معسكرهم امام مدينة انطاكيه لا يخافون لا من الشعوب المصرية ولا من اوليك الذين هم من الحبشة ولا من المختصين ببغداد وانهم لا يتدروا ان يسيروا باتحاد مع احد الا مع الممالك التي روساوها وشعوبها يحترمون الشرايع المقسطة ومراسيم العدل ويوقرون سناجق يسوع المسيح ❊

ثم فى الوقت الذي كان فيه هولاء القصاد المصريون في همة السفر من المعسكر فالجنود الصليبية قد اكتسبوا نصرةً على الاسلام لان امير تارنتا وكونته ده سان جيل قد اخذا عساكرهما وبغتةً هجموا على عشرين الف خيال اتين الى معونة اهل انطاكيه فقطعوا ارباً فى محل غير بعيد عن المدينة وكان ارسالهم من قبل سلطان حلب وسلطان دمشق ووالى قيساريه وامراء حمص وهيارابولى ثم حينما سافرت القصاد الى مينا القديس سمعان لكى يتوجهوا بحراً راجعين نحو سيدهم فالصليبيون ارسلوا اليهم مايتين من روس الاسلام التى قطعوها محملة على جمال ومايتين اخر من الروس الاسلامية قد حذفتها الجنود المسيحية بالات الحرب من فوق الاسوار على المحاصرين ضمن المدينة واخيراً عددٌ وافر من الروس المقطوعة رفعتها العساكر المنتصرة على خوازيق فى معسكرهم حول المدينة امام اعين الاسلام علامة نصرهم واستيفاءً لاعين المسيحيين عن الاهانة التى صنعتها الاسلام لايقونة مريم العذرا التى كانت وقعت فى ايديهم ☆

ثم ان هولاء الجيوش الصليبية اذ انتعشت ارواحهم بتغيير احوالهم الى ما هو اجود وبهذه الغلبة التى فازوا بها فقد اكتسبوا من جديد انواع شجاعتهم الاولي ولذلك صادموا وثبات اعدايهم فى عدة معركات اخر في محلات مختلفة بالقرب الى انطاكيه ومع المحاميين عنها من الاسوار بدون خسارة بل بانتصارات متواصلة ما عدا جمهور واحد فقط منهم قد كان ماضياً الى شط البحر منتظراً قدوم المراكب البيزاوية والجينوزية فوثب عليه الاسلام اربعة الاف وبددوه فما بلغ ذلك الى المعسكر فالجيوش شددوا الحصار ضد انطاكيه وقد استداروا حولها وعليها من كل الجهات وضايقوها جداً حتى كادت عما قليل توخذ الا ان

الخصومة التى انتشت فيما بين قواد الجيوش وسببت انقسامهم قد اخرت سقوط هذه المدينة فى ايديهم نظير ما كان الخصام الذي حدث فيما بين الجيوش اليونانية اخر سقوط ايليون فى ايديهم ففى بحر تلك المدة التى فيها القاطنون ضمن انطاكيه اخذوا مهلةً عن الحرب قد ادخلوا ضمن اسوارها ذخاير وافره من القوت ومعونات حربية كثيرة وهكذا استعدوا الى مقاومة شديدة ولم تذهب عزايمهم هذه بطالة من العمل خاصةً ضد المحابيس المسيحيين الذين كانوا اخذوهم اسري فى المعركات المتقدمة وفيما بين هولاء قد حفظ لنا التاريخ اسم احدهم وهو الرجل الشريف رايموند بورشار الذى اماتوه فى فخره شهيداً. فالاسلام يوماً ما اقادوا هذا النبيل من السجن الي اعلى اسوار المدينة تجاه الجيوش الصليبية وشرعوا يعذبونه امامهم كي يقول لهم استخكونى انا الاسير بفديةٍ عظيمةٍ تليق بمقامى. اما هذا الشجاع فقد خاطب من اعلى السور اخوته المسيحيين بلهج اخر قايلاً ايهم احرسوا جداً متحرسين من ان تجعلوا لاجل انقاذى من الاسر ضحية ما تضركم. بل احتسبونى كانى قد متّ فيما مضى وداوموا شدة حربكم ضد مدينةٍ ما عادت تقدر ان تثبت مجاهدة امامكم زماناً طويلاً. فوالى انطاكيه اذ قد امتلاء غضباً من هذا الكلام قد حتم على رايموند بان يرفض حالاً ديانته ويعتنق الديانة الاسلامية وفى الوقت ذاته اوعده بانه اذا طاع هو حكمه هذا فكان يوعبه من الهدايا ومن سيمات الشرف ولكن هذا الصليبى التقى رفض ذلك مطلقاً وركع على ركبتيه ماداً يديه ونظره نحو الشرق وحينيذٍ الوالى امر بقتله والجلاد حالاً قطع راسه وحذفه من اعلى السور الى الخندق كما انه في ذلك النهار عينه الوالى المذكور امات عدداً وافراً من المحابيس الصليبيين

محروقين فوق كومة حطب عظيمة متقدة بالنار ✿

ثم ان الاسلام حينما شاهدوا ذواتهم قبل نهاية مهلة رفع الاسلحة التي نالوها ناجحين قد نادوا بتجديد الحرب ومارسوه بافادتهم افهل اذاً انطاكيه بعد ان تحاصرت من الصليبيين مدة سبعة اشهر تفوز سالمة وتلجو من ان توخذ اى نعم لقد كان يتم بالفعل لولا تاتى لمعونة شجاعة الجيوش المسيحية الحيلة والخيانة ومحبة الترأس وبالتالى لقد كانت هذه المدينة سيدة المشرق بعد كل ما مارسوه في حصارها بقيت حرة خلواً من ان يقدروا ان يمتلكوها في تلك الظروف ✿

على ان بوهيموند امير تارنتا قد غار من السعادة الزمنية التي فاز بها بودوين بجلوسه سلطاناً على مدينة الرها وما يحوطها وكان منذ ايام سالفة يفتش علي فرصة ملايمة بها يمكنه ان يبلغ اربه نظير ذاك وقد وضع نظره على انطاكيه وكان يومل انه يوماً ما يمكنه ان يصل الى ان يكون سلطاناً عليها وحده بالتوفيق نحو هذه الغاية التي هو كان يدرسها ليلاً ونهاراً قد اقاده غب التفحص المتصل الى انسان متجاسر على الخيانة قد طابق معه على مرامه بنوع كلى ليوصله الى التملك المشتهى منه ✿

فهذا الانسان كان اسمه فيروز وكان هو ابناً لرجل ارمنى كانت صنعته ان يعمل الزروخه والدروعه البولاد ولكن فيروز كان نكر الديانة المسيحية المولود هو فيها واعتنق الديانة المحمدية ومرات كثيرة كانت تتغير سيرته من حال الى اخري ومن راي الى اخر لعدم ثباته ولقلق روحه وكان هو ذا دمٍ باردٍ ومعاً ذا وقاحةٍ وجسارةٍ قويتين وذا قلبٍ اسير لمحبة الرفعة وكان مستعداً دايماً لان يصنع بالرشوة لحبه الفضة ما بالكاد يمكن ان يصنع من اعظم الغيورين على فعل قضيةٍ ما بغيرة ديانته خارجة

عن الحدود ومن حيث انه كان هو شديد النشاط فى معاطات الامور نقّاد كالزيبق فى اشغاله فقد كان اكتسب لذاته عواطف اكسان سلطان انطاكيه نحوه واركانه اليه وثقته به ومن ثم قامه قايداً ومحافظاً على ثلاثة ابراج انطاكيه الاخص التى عليها الاعتماد فهذا بعد ان كان حامى عن تلك الابراج ضد الجيوش الصليبية بغيرة متقدة قد زعل من وظيفة فيها كانت امانته بالخدمة تستمر عقيمة من الارتقا الى ما هو اعلى رتبة وفكر بالاعتماد على الخيانة التى بها كان يربح ما يفى ابتغاه من الغنا والتقدم ويكسب نجاته من الخطر موطداً لذاته مقاماً امينا ٭

ففى مدة طول الحصار قد حصل فيروز هذا على فرصات بان يتخاطب مع بوهيموند امير تارنتا موطدين المودة بينهما باركان مظهرين بالتبادل احدهما للآخر اسرار قلبه اما بوهيموند فكان متقنعاً بان نصيب الصليبيين كان فى يده الطويلة الباع وبانه لا بد من ان يفوز هو عن اعماله الكاية بمكافات سامية فاما فيروز فمن جهته كان مشعراً باطناً بتوبيخ ضميره القاسى على نكرانه الايمان بالمسيح حزيناً من جرى هذا الاثم موعداً بان يساعد المسيحيين مساعدة كنذر عليه قابى توصلهم الى مقصودهم ثم لكى يظهر هو ما به يبرر ذاته عند بوهيموند من اثم الخيانة ضد وظيفته وسيده سلطان انطاكيه وهكذا يوسس لذاته سعادته العتيدة فقد كان يدّعى بان المسيح ترايا له وضيحاً وشار عليه بان يسلم انطاكيه للصليبيين ٭

فحينيذ بعد تلك المفاوضات السرية فيما بين بوهيموند وفيروز قد رتبا الطرايق التى بها كان يمكنهما ان يبلغا الى الغاية وغب المفارقة اجتهد بوهيموند فى عمل جمعية روسا الجيوش الصليبية للمشورة وفى المحضر قد صنع خطبة قوية بحرارة بها برهن

لهم مذكراً بجميع المصايب الحالّة بمعسكرهم وبتلك الاعظم منها المزمع حلولها به قايلاً لهم فيما بين الاشياء الاخر بالفاظٍ واضحة اخيراً هكذا ان جيوشاً عظيمةً هي اتية عن قرب الى معونة اهل انطاكيه فيلزم ان نسبق ونستدرك النجاة من غوايلهم ولكن لاجل امتلاك مدينة مثل هذه محصنة ومحماة بقوة عديمة الانغلاب ضروري هو بعد الامتحانات التي ذهبت سدىً ان نمارس انواع الخيانة والبراطيل ففيها بين سكانها خلواً من شك يوجد البعض الذين يقبلون المرام بقوة الذهب او تبعاً لمواعيد عظيمة مستقبلة وكلٌ منهم يوكد لنا بمساعدته ايانا من داخل بنوالنا الانتصار ولا ريب في ان الخدمة التي يقدمها لنا في هذا الشان هولاء الرجال هي فايقة على كل قيمةٍ حتى ان امتلاك انطاكيه عينها هبةً لا تفي عظم استحقاق الذي يفتح للجيوش المسيحية ابوابها من باطنها ويدخلهم اليها ✿

فالبعض من القواد قد فهموا بسهولةٍ مرام بوهيموند خلواً من انه يكشف بنوع ابلغ وعرفوا مقاصده فرفضوا استعمال الخيانات والرشوة لبلوغ غايته لاسيما رايموند الشيخ امير طولوزه الذي بقوة براهينه دحض اقوال بوهيموند وسناداته وعدم استقامتها ✿

فعلى هذه الصورة خرج امير تارنتا هذا من ديوان المشورة الذي فيه انكشف مرامه واحتقر ومن ثم هو وتنيذ قطع الرجا من البلوغ اليهِ ولكن بعد ايامٍ اخر قد تواردت الاخبار بان كاربوغا سلطان الموصل هو اتٍ ضد الصليبيين بجيوش قوية مولفة من مايتي الف رجل فهذه الاخبار صورت فرصةً ملايمة لبوهيموند بان يجدد اعراضه على ديوان مشورة ارفاقه القواد بما كان هو قبلاً خاطبهم قايلاً لهم هكذا هوذا نحن قادمون على الخطر العظيم ضدنا فالزمان قد ضايقنا جداً وربما نهار غدا ما

يوهلنا الى النفود ولا يعود في يدنا ان ندبر شياً ويمكن اننا في الغد نخسر اثمار اعمالنا كلها وفوايد انتصاراتنا السابقة جميعها والحال ان الله يريد خلاص الجيوش المسيحية ويطلب منا ان نبلغهم الى حد ضريح ابنهِ فان كنتم ترتضون بالطريقة التى كلمتكم عنها في الايام الماضية فنهار غدا نفسه سنجق الصليبيين ينتصب فوق اسوار انطاكيه وبعد ذلك نقدر ان نمشي الى جهة اورشليم بانتصار. فخطاب امير تارنتا هذا قد اقنع اخيراً القواد بهِ لان هولاء الروسا كلهم قد غلبوا من الضرورة المداهمة ورأوا ذواتهم مضطرين الى ان يحموا ذواتهم وعساكرهم داخل اسوار المدينة فقبلوا العصبة المقدمة من بوهيموند التى قبلاً كانوا رفضوها. فالامير المذكور اذ امتلى من الرجا والثقة قد كشف لهم حينيذٍ التدبير المرتب فيما بينه وبين فيروز وحالاً اخبر فيروز عينه بتمام الاعتماد الذي دنت ساعته وان الوقت الذي فيهِ يلزم ان يتم مواعيده ❊

فمن يتلو اقوال المورخين القدما عن شرح امتلاك انطاكيه في الموقعة الليلية وظروفها يظن بذاته قارياً تلك القصايد العتيقة المصورة مواقع ومعركة وهمية اختراعية لانهم حرروا هذه الموقعة بألوانها الحيّة وبوصف حوادثها وبعظم اعتباراتها ولكن نحن هاهنا نختصر هذه الخبرية بقدر الامكان موردين منها الاشيا الجوهرية فقط. فنقول. انه من حيث ان التدبير المصنوع من بوهيموند قد قُبل من جميع ارفاقه قواد الجيوش الصليبية في ديوان مشورتهم فقر الاعتماد على وضعه بالعمل في اليوم الثاني الذي عند بلوغهم اليهِ قد تظاهرت العساكر المسيحية بانهم فكوا الحصار عن انطاكيه واخذوا بالسفر مبتعدين بالرجوع الى الورا لانهم قبل غروب الشمس ببعض ساعاتٍ ضربوا بالطبول وصرخوا بالابواق واسرعوا بالمسير جهاراً وغب ابتعادهم عن المدينة مسافة كافية لقطع

النظر قد حولوا وجوههم راجعين نحوها بهدوٍ وصمتٍ تامين حتى بلغوا الى قرب البرج الملقب ببرج الثلث الاخوات الذي فيروز القايد كاينٌ فيه اما فيروز هذا ففى دنو الليل حينما كان الذين حوله مطمانين هادين قد ثبت هو فى محله منتظراً بلوغ العساكر الصليبية تحت البرج ليتم خيانته المخيفة ثم ان هذا الارمنى الجاحد كان لهُ اخٌ مقامٌ على حراسة برج المدينة معه ولكنه غير شجيع نظيره ولذلك هو ما اعلمه بهذه المادة السرية فلما هو وقتيذٍ تحقق انه مزمع ان يسلم البرج لولاية امير تارنتا فى تلك الليلة فلم يعد يعلم كيف يدبر الامر بامانةٍ (الا ان المورخ الشيخ يقول) انهُ شاهد اخاه هذا فى تلك البرهة ذايماً فخشي من انه يفيق بالضرورة عند صعود العساكر الصليبية على البرج ولا يوفق على تسليمه فاخذ بيده السيف وذبحه بهِ حالاً فمات *

فالساعة المعينة قد بلغت والظلام الحالك فى تلك الليلة قد اسقف الجنود المسيحية والضباب اظلم ضياء النجوم ثم ان البرق والرعود قد بلبلت مسامع الحراس فى الابراج الاخر فلم يشعروا بحركات الجيش الصليبى المجتمع حول الاسوار وقد كان يظهر جو السما ناحية المغرب ملتهباً بالاحمرار وقد ظهر وقتيذٍ فى السما النجم ابو ذنب لامعاً وهذا قد اتخذته العساكر المسيحية بمنزلة علامة جيدة لانتصارهم ودليلاً على ابادة الاسلام اعدايهم المحاصرين *

ثم ان هولاء الجنود الصليبية كانوا واقفين ينتظرون بقلة صبر الاشارة المعينة لتقدمهم نحو الابراج ومن ثم بوهيموند ارسل من قبله واحداً من طايفة اللومبارديين اسمه بايبيان فصعد الى اعلى البرج بواسطة سُلّم من جلد وقد اقتبله فيروز واراه برهاناً

لامانة وعده باخاه مذبوحاً وجثته مطروحة عند رجليه فقد رجع بابيان الى بوهيموند واخبره بما راه وسمعه من فيروز واستحلفه بان لا يتاخر ولا برهة واحدة عن اغتنام الفرصة ✿

غير انه في ذاك الوقت حلّ بغةً فى قلوب العساكر الصليبية خوفٌ وارتعاش وهكذا لم يتقدم ولا واحد منهم ليصعد الى البرج فهنا بوهيموند قد اشتعل رجزاً وهو نفسه اول من صعد قدامهم على سلم من حبال ولكن ولا واحد من الجنود اتبعه فوصل وحده الى اعلاء البرج عند فيروز الذى بحرارةٍ وبخ تاخيرهم فنزل هذا الامير راجعاً بحرارة قوية واخيراً خطابه ونموذجه قوّي قلوب كثيرين من القواد وحينئذٍ ستون شخصاً تقدموا فتمسكوا بالسلالم الحبالية وفيما بينهم تميز بالشجاعة الكونتـه ده فلاندرا وغيره من الروساء (فيقول احد المورخين) ان فولشار ده شارتريز على راس جنوده كان نظير النسر الذي يشجع بعملـه افراخه على الطيران قد طار هو امام هذه الجنود صاعداً على السلالم وهم تبعوه فى هذه الطريق المخطرة نظير الروسا الاخرين وحالاً عدد عظيم من الجيوش صعدوا وراهم بنوع ان البعض من السلالم الجلد لكثرة الصاعدين عليها واحداً تحت الاخر قد انقطعت وهم سقطوا بانزعاج وقعقعة كما ان اناساً منهم بعد ان كانوا وصلوا الى شرافات البرج وتمسكوا بها قد سقطوا فوق اسلحة الجنود الواقفين اسفلاً وبهذه الحالة قد صارت البلبلة والرهج بنوع لا يوصف فى المعسكر ولكن فيروز بهدوٍ وقساوةٍ كان يدوس فوق جثة اخيه المقتول ويشجع الجيوش مسروراً بنفوذ حيلته ودخوله فى مودة الامراء الصليبية الذين اباح لهم ان يقتلوا اخاه الثانى الذي كان باقياً لهُ ومعه فى الحراسة فى برجٍ اخر وهكذا قد ملكهم الثلاثة ابراج التى كانت تحت

ولايته وبعد ذلك ملكوا سبعة ابراج اخر بكل سرعة وباقي الجيوش الصليبية خلعوا باب المدينة القريب الى هذه الابراج من دون مانع ودخلوا المدينة بازدحام كلي وغودافروا ورايموند الكونتة ده نورمانديا وغيرهما جازوا في طرقات انطاكية على روس العساكر والابواق صرخت من كل ناحية واصوات الجيوش تعالت بالهتاف الرب يريد هذا الله يريد هذا وكانت ترعد فوق الاربعة تلال في المدينة وتبشر جميع سكانها بالانتصار العظيم الذي به هم امتلكوها وهذا تم في شهر حزيران سنة ١٠٩٨ ✻

فهكذا بعد ثمانية اشهر من حصار انطاكيه وغب جميع ما تكبدته الجيوش المسيحية من انواع الشدايد والنوايب المرة والخساير والاخطار قد امتلكوا هذه المدينة سيدة المشرق ولكن ههنا نلاحظ ان فرح هذه الغلبة والظفر قد امتزج بالكدر من قبل ما صنعته هولاء الجيوش بالمقتلة العظيمة المخيفة التي صنعوها بالاسلام واكمد بها انتصارهم اللامع على انه في تلك الليلة الواحدة نحو عشرة الاف مسلم الذين ما قدروا ان ينالوا حفظ حياتهم بالهرب قد بادوا بسيوف العساكر الصليبية وفي صباح تلك الليلة قد شوهد سنجق الامير بوهيموند الاحمر اللون منصوباً فوق اعلى ابراج المدينة فعند ما نظرته الجنود المسيحية واتقدت فيهم نار الغرام بالغلبة التي فازوا بها قد شعشعوا دلايل الظفر وكانهم سكروا بزيادة الابتهاج فاضافوا الى ما كانوا صنعوه ليلاً مقتلةً جديدة في الاسلام على ان المسيحيين القاطنين في انطاكية قد اتخذوا مع منقذيهم هولاء واروهم الجنازير والقيود الحديد التي كانت الاسلام ربطوهم بها فهذا المشهد المحزن قد هيج في العساكر المنتصرة زيادة الرجز وحمية الغضب فحينيذٍ جردوا سيوفهم وهجموا على البيوت والازقة يقتلون الاسلام خلواً من استثنا بنوع ان

الدما صارت تجري في الطرقات وفي الساحات وفي المساكن في كل ناحية واما النصاري فكانوا بعلامات الديانة التي يعطونها على ذواتهم يلجوا من سيوف الجنود مع موجوداتهم واما الامتعة الاسلامية فنهبت تماماً وهكذا لم ينج من سيوف هولاء الجيوش الا الاماكن التي كانوا يشاهدونها محمية بعلامة الصليب بمنزلة اشارة للتقوي والرحمة *

واما كل الذين بعدد عظيم من الناس هربوا من انطاكيه الى القرى والحقول القريبة فقد جرت في اثرهم العساكر الصليبية ولم يتركوا منهم في الحيوة الا الذين اخذوهم اساري ثم ان سلطان انطاكيه اكسان نفسه هرب من باب المدينة وحده مرتعشاً وسار راكضاً فيما بين الجبال والحراش نحو بلاد بين النهرين كي يتصادف مع عساكر كاربوغا غير ان البعض من الارمن حالما شاهدوه في تلك الحال عرفوا ان انطاكيه اخذت منه فواحد منهم تقدم اليه واخذ منه سيفه وخرطه في امعاه بدون ادنى اعتبار فاباد حياته *

فاما فيروز فقد فاز بقيمة اعتبار خيانته وتغمر بالغنا والهدايا من الامرا الصليبيين لاسيما من الامير بوهيموند الذي اضحى مديوناً له بهذه السلطنة التي نالها بواسطته وهو قد اعتنق من جديد الديانة المسيحية وتعلق بسعادة احوال الصليبيين وصار معهم فيما بعد الي اورشليم حيث وجد فيما بينهم على اسوار هذه المدينة المقدسة * ولكن بعد مدة سنتين قد انخدع من قبل اميانه انكلية نحو محبة الرفعة العديمة الشبع ومن ثم قد رجع هذا الجاحد الى الديانة المحمدية ومات مكروهاً مهاناً من اهالي الملتين المتحاربتين احداهما ضد الاخري لاجل انه تقلب معها مرات في عدم ثباته وخياناته المتصلة محارباً

اليوم رايات الذين كان منهم بالامس ومناقضاً في الغد من حامي عنهم اليوم ※

الفصل السادس

في المصايب الجديدة المرة التي حدثت للصليبيين بعد امتلاكهم مدينة انطاكيه * وفي شان الحربة المقدسة * وفي المعركة العظيمة التي حدثت تحت اسوار المدينة المذكورة

فالجيوش الصليبية الذين استولوا على مدينة انطاكيه تحت سلطانهم وفازوا بخزاينها وغنايها العظيم وتوطدوا داخل اسوارها الحصينة قد اطلقوا لذواتهم العنان بالاعتماد على عيد فرح ومسرات مبهجة مدة ثلاثة ايام فيها احتفلوا بزينة تصرفهم وتكريم ظفرهم وتمجيد تذكار غلبتهم ولكن حالاً في اليوم الرابع انقلب عندهم الشي الى ضده انقلاباً سريعاً به شوهد معسكرهم موعباً خوفاً وحزناً وهكذا صراخات المسرة والابتهاج ابتدلت بالعويل والندب ※

على ان جيوشاً عظيمةً من السراكسة اقبلت بغتةً الى نواحي اسوار انطاكيه لان اوامر سلطان العجم ومناداته بصفة كونه والياً مطلقاً على سلوكيا وتلك الاقاليم فاهالي بلاد خورسان وماربا وداديلونيا مع قسم من اهالي الاسيا الصغرى وكل المشرق ومن حد دمشق الى اورشليم وارابيا قد قاموا حاملين الاسلحة وملتامين من كل الجهات الى محاربة العساكر الصليبية فالسلطان كاربوغا والي الموصل المحارب الشرس الوحشي عندما راق من الحرب الجنسية التي كانت حادثة في بلاده قد سحب عساكره واتى بها الى جهة انطاكيه وكذلك سلاطين نيقيه وحلب

والشام وحاكم اورشليم وثمانية وعشرين اميراً من بلاد فارس وفلسطين وسوريا كانوا تابعين سلطان الموصل وعساكرهم كانت تغلي دماؤهم في احشاوهم رجزاً ذايبين تعطشاً نحو النصرة على العساكر الغربيين وحالفين على نبيهم محمد اقساماً رهيبة بان يبيدوا النصاري من الوجود فاذاً هذه الجيوش القوية كانت تتوارد بشراسة وغضب وتهديد مهيل نظير نهر شتوي عجاج في شدة هديرة يبتلع في دورانه كلما يكون امام قوة جريه ✿

فاهالي معسكر الصليبيين عند ملاحظتهم قوة هولاء الاعدا الجدد الذين هم يلتزمون بمحاربتهم قد شعروا بان شجاعتهم بادت وقلوبهم هلعت وعزايمهم نقطعت بالغم والكدر ولم يكونوا وجدوا في خزاين انطاكيه من ذخاير القوت الّا ما قلّ ومن جهة اخري ان القري والمزارع الغريبة من انطاكيه قد كانت في الاشهر الماضية متكبدة غوايل الحرب والنهب وعدم الغلات فلم يكن يمكنها ان تقدم لهم حينيذٍ ذخاير ما تسد ضرورتهم هذه القصوي وبالتالي عرفوا جيداً حالهم بانهم ما كانوا قادرين ان يحتملوا الحصار ولا مدة وجيزة من الزمان حتى ان الاماكنة المتقدمة المحمية بالعساكر المحافظة بدون تاخير قد ذاقة هجمات الاسلام عليهم ليس من دون خسارة كثيرين من الجبابرة الذين فقدانهم يستحق الندب ومن حيث ان قلعة انطاكيه الى ذلك الوقت لم تكن سلمت ذاتها بل ان العساكر الاسلام لم تزل ضمنها وقد اضطر الصليبيون الى انهم غلقوا ابواب انطاكيه في وجه العدو الذي ادركهم فعلى هذه الصورة هم صودفوا محاصرين فيما بين الجنود الذين في القلعة داخلاً وبين العساكر الخارجة تحت الاسوار ✿

ثم ان ميننا القديس سمعان قد اخذ ارتجالاً من الجنود الذين

ارسلهم كاربوغا وامتلكوه جيداً مع المراكب التى ضمنه الجالبة للعساكر الصليبية ذخاير للقوت وهوذا القحط والجوع من دون تاخير اعلن تاثيرات فى المحاصرين قد ازعجهم جداً ✿

فالمورخون المتقدمون عند تكلمهم عن هذه الكارثة الجديدة يعطون عنها صورةً محزنة بما تكبده جنود المسيح هولاء من قبلها فى اثنى انتصارهم العظيم حالاً (فيقول البارتوس الاكسى) انه فى اول يوم من الحصار بالكاد انهم اشتروا باثمان غالية جداً جداً ما كان اكثر ضرورةً لحفظ الحيوة لان الاشيا كلها اضحت عديمة الوجود والجوع شرع يعذب المسيحيين بازدياد يومى بنوع كلى حتى انهم اتصلوا اضطراريا لحفظ الحيوة الى ان ياكلوا ليس فقط لحوم الجمال والخيل والبغال والاتن وغيرها من الحيوانات بل ايضاً الجلود الغديمة التى كان لها فى الوجود ثلث سنوات وستة سنين بعد ان يكونوا لينوا صلابتها بالمياه المغلية ورشوا عليها من البهار وغيره لامكان مضغها وابتلاعها وكثيرون منهم كانوا يملأون بطونهم من الحشايش والشروش وغيرها من النباتات اليابسة غب سلقيا هذا ما عدا الذين يومياً كانوا يموتون من الجوع وبوفاتهم تتناقص الجنود عدداً وغودافروا مرةً دفع خمسة عشر حفنة من الفضة ثمن لحم جمل واحد ضعيف وبودري معلم منزله كان يدفع ثلاثة حفنات فضة ثمن كل من المعزي الوافرة الضعف (لا بل ان ما يقوله روبارتوس الراهب هو ابلغ من ذلك وهذه هى الفاظه) ان وجوه العساكر كمدت وضعفت وادرعهم تخلت عديمة الحركة وايديهم اخذتها الرجفة وبالكاد عادت تقدر ان تقلع الحشيش من الارض المعشبة وتقطف اوراق الاشجار وقشور النصبات لياكلوها والامهات اذ تركن اطفالهنّ على اثداهنّ فاذ لم يكونوا يجدوا فيها قليلاً من اللبن كانوا يموتون على صدورهنّ ✿

فيا لها من امورٍ محزنة ويالهُ من جوعٍ كافر ويا لها من ظروفٍ فايقة الاحتمال حلت باوليك العساكر ومن معهم حتى انهم انه لم يعودوا يقدرون من شدة محاصرتهم الضيقة من الاسلام ان يفوزوا بقطعة لرض خالية من السكن لاجل دفن موتاهم فالتزموا بان يقبروهم فيما بين البيوت لا بل ان بعض الامراء الصليبيين الذين منذ ايام قليلة كانوا يتخاصمون على الغلبة والتملك قد اتصلوا بهذه الحال الى التماس الصدقة لان الكونته فلاندرا شوهد يطوف في طرقات انطاكيه ملتمساً بالصدقة مهما كان يمكن ان يناله من القوت ولو مهما كان من المواد الخشنة وكثرة من الجنود باعوا جميع ما كان باقي عندهم لاجل قوتهم يوماً واحداً واما غودافروا ده بوليون المتصف دايماً بالسخا والغيرة على اسعاف الغير ولو فى اشد ضيقته فقد وزع جميع موجوداته الباقية عنده بالمساواه فيما بين ارفاقه وصار كواحد منهم حتى انهُ اخيراً ذبح حصانه الوحيد الذي كان عزيزاً عليه ومفيداً له فى مواقع الحرب واكل لحمانه هو وارفاقه واتصل هو الى فقرٍ مطلق نظير ساير المساكين ✿

غير انهُ يوماً كان كثيرون من الصليبيين يهربون سراً من تلك المدينة التي اضحت مشهداً للموت بسيف الجوع فبعضهم كانوا بمنسقات عديمة الوصف ينفدون هرباً في طرقات مخيفة مخطرة الى ان يدركوا من بين الجبال الشقة البحرية وغيرهم لكى ينالوا ما بهِ يحفظون حياتهم قد هربوا بدون اسلحة الى معسكر العدو نفسه حيث كثرة الخبز كانت نتكلف عليهم استماعهم شتايم اسم يسوع المسيح بتجاديف لا نطيق الاذان استماعها والجنود الصليبية الذين كانوا يهربون فى ظلام الليالى اما بطرحهم ذواتهم من علو الاسوار الى اسفل حيثما كانوا يوملون عدم موتهم بالوقوع

واما بربطهم ذواتهم بحبال اخرها مقيدة فى شرافات البرج او بانواع اخر فكانوا يسمعون من اخوتهم الجنود الثابتين على حفظ القسم بعدم الفرار من المعسكر ولو ماتوا شتايم ندالتهم واهانة جبانتهم فى ان يموتون مشرفين فى المعسكر احري من ان يحفظوا حياتهم فى الهرب وكانوا يطلبون ان يحل عليهم غضب الله وان اسمايهم تمحى الى الدهر (بل ان المورخ غويليوم الصوري لم يرد ان يذكر اسماهم فى تاريخه لانه يقول) ان الذين محيت اسماءهم من سفر الحيوة لا ينبغى ان تحفظ مدونة فى كتابى ☆

ثم ان قلة الشجاعة وضعف الرجا قد تزايد فى جماعة الصليبيين عندما بلغهم خبر رجوع الملك اليكسيوس الى القسطنطنيه بعد ان كان هو ابياً لمعونتهم على ان هذا الملك بعد ان جاء بعساكر ليست جزئية وبلغ الى فيلوميليا فهناك سمع من بعض الصليبيين الهاربين اخبار ما كان حادثاً لهم وضدهم قد خاف ولم يعد يريد ان يداوم مسيره نحو انطاكيه بل رجع الى محله فاذاً كل الامال والمعونات انقطعت عن الجيوش الغربية والجوع كان مشتداً بزيادة فى المدينة المذكورة والذين كانوا يومياً يموتون به من الجنود لم يكن عددهم قليلاً لان اخوتهم الاحيا ما عادوا من قبل ضعفهم يقدرون ان يساعدوهم ولم يكن عندهم ما يقيتونهم به لينقذوهم من الموت ومن ثم الابراج ومتاريسات الاسوار حصلت كانها فارغة من الجنود المحاربين وباطلاً كان بوهيموند الذي تسلم الولاية يتعب بكل جهد بواسطة تحريضانه ونموذجه فى ان ينهض شجاعة العساكر التى وهت حتى ان اصواته ما عادت تسمع منهم بل اذ كان يستدعيهم كانوا يلبثون مطروحين فى البيوت غير ملتفتين الى اوامره فلما استوعب من عصاوتهم غضباً هذا القايد واراد ان يلزمهم غصباً بالرجوع الى طاعته

قد سلم عدة محلات واسعة من عمارات انطاكيـة الشهيرة الى غضبية لهيب النار فاحالتها الى دثار ورماد فالمورخ راول ده كان يندب ههنا بابيات قصيدة مرثية حريق بعض امكنة قديمة جليلة فريدة فى نوعها قد كانت مشيدة باخشاب جبل لبنان الشامخ وبمرمر بلاط الاطلس وببلور صور وبنحاس تبرص وبرصاص اماتهوفنتا وبالحديد الانكليزى فحالما وضعت نار الحريق فى الاسطحة (يتبع المورخ المذكور قوله بكلامه) فاوليك الذين كانوا مرتاحين فى البيوت خرجوا راكضين الى الاسوار التى كانت المضارب منصوبة حولها غير ان هذا الدوا الذي استعمله بوهيموند لشفا تكاسل الجنود قد امتد الى ما لم يكن هو يريد امتداده لان قوة لهيب النار اكلت بامتدادها عمارات شامخة وقصوراً مفتخمة وكنايس شايعة الصيت حيث كانت توجد التصاوير اليونانية القديمة المزهلة مشاهديها والعمارات المزينة بغناء مذهبة بصنعة العرب فى سكب ذهبها وببراعة الانكليز فى ترخيمها ✿

فقد كان مضي منذ بداية الحصار خمسة عشر يوماً فيها الجوع بلغ مفاعيله القاسية فى تلك الجيوش الصليبيـة المضنوكين كفى سكجنٍ داخل اسوار انطاكيه وكان قطع الرجـا من الخلاص دنا من حدوده وحينيذٍ الجيوش الاسلامية من خارج شددوا الحصار بغضبٍ وحشي غير مرتابين بانتصارهم ففى هذه الحال التعيسة قوة عجيبة فايقـة الطبيعة وحدهـا كانت قادرة على خلاص الصليبيين لان العلاجات البشرية عجزت باجمعها عن انقاذهم فاذاً هم فازوا بهذه القوة على الصورة الاتى شرحها وبهـا هم جددوا شجاعتهم ومارسوا بها ما كان ياول لخلاصهم ✿

على انه حينما يبان ان انواع الرجا كلها من جهـة الارض انقطعت تماماً فالانسان الذي لا يمكن ان يقطع رجاه بالكلية

يتحول وتتيذ بالحاظه الى السما من حيث ياتي عونه وبهذه الصورة يتحدث متواترا ان تاملاته العقلية ترتفع واحيانا يغيب عن حواسه من شدة اشواقه بحسن ديانته نحو نوال ابتغاه ويتخال في توهمه ان يسمع صوتا سماويا يبشره بسرعة زوال بأسه ونهاية مصيبته الشديدة فهكذا فى تلك الايام التى فيها الجوع كان سيدا فى انطاكيه يميت الناس بسيفه التاسى قد كان يوميا يشتهر فيها بين المسيحيين الخبر عن جليانات ومناظر سماوية ونبوات وعجايب منها ان القديس امبروسيوس ظهر بالرويا الى احد روسا الكنايسيين المشهور بحسن العبادة وسبق مخبرا اياه بان هولاء الجيوش المسيحية انفسهم مزمعون ان يدخلوا الى اورشليم منتصرين وهناك اعمالهم واتعابهم تحصل اخيرا على مكافاتها ثم ان واحدا من الكنايسيين من طايفة اللومبارديين قد اخذه النوم فى احدي كنايس انطاكيه وقد شاهد فوق راسه يسوع المسيح مرافقا من مريم البتول ومن هامة الرسل القديس بطرس وان مريم الكلية العذوبة جثت امام ابنها متوسلة اليه بان يشفق على الصليبيين المساكين وان تضرعاتها ودموعها اخيرا بلغت مفعولها بانه تعالى وعدها بخلاصهم قريبا وكذلك اثنان من الجنود الهاربين من العسكر رجعا واخبرا بانهما حينما كانا يفتشان على طريقة بها يبتعدان عن ارفاقهما بالهرب قد تيدا حالا عن السير ممسوكين احدهما من يسوع المسيح نفسه وثانيهما من اخيهما الذى كان معهما في الحرب وقتل شهيدا فالمخلص وعد احدهما بانه عن قرب يمنح التايد والنجاة للجيوش المسيحية وذاك وعد اخاه بانه نال من الله بان يقوم من قبره هو وجميع المقتولين من المسيحيين ويحاربوا السراكسة منتقمين منهم عن دماهم ☆

فهولاء المدعيين بالنبوات قد تعظموا وعظموا اقوالهم بنوع من الجنون وكانوا يدعون بان يثبتوا حقايق اقوالهم بانواع كلية من الامتحان وبان يتكبدوا اشد القصاصات اذ لم تصدق كلماتهم ☆

ثم ان كاهناً اسمه اسطفانوس بعد ان اخبر عن خطابٍ سمعه من فم سيدنا يسوع المسيح اورد بانه تحقيقاً لصدق هذه الرويا هو مستعد لان يلقي ذاته من اعلى ما يكون من الابراج الى الارض غير مرتاب بانه لا ينالهُ ادنى ضرر بل يلبث سالماً شهادةً لحقيقة ما اخبر بهِ وكذلك احد الشرفا الزمانديين قد اوضح انه حصل على رويا سماوية منها قد اقتنع بهذا المقدار فى انه كان قريباً مزمعاً ان تفوز الجيوش الصليبية بعون الهى فايق الطبيعة حتى انه ان كان ذلك لا يتم حقاً فهو يرتضى عقاباً عن كذبه بان يطرح هو وزوجته وابوه مع اولاده الاتين معه الى اسيا فى اتون نار متقدة او يصلبوا على اخشاب ☆

ولكن الامر الاعظم جداً من كل هذه الحوادث التى بالحقيقة انعشت فى المعسكر قلوب الناس وجددت فيهم الشجاعة واملتهم تعزية بالرجا انما كان ذاك الذى اتى بهِ الى ديوان مشورة القواد شابٌ كاهنٌ من اهل مرسيليا اسمه بطرس برتولوني مخبراً اياهم برؤياه على ان تصور هذا الصليبى الذي كان انعش فيه حدة الارواح تحت جو اقليم مرسيليا الجيد قد جدد ذلك فيه تحت جو اقليم انطاكيه الاجود بنوع انه قد اقنع ذاته بحقيقة ما توهمه وشرع يوكده للغير ويقنعهم بهِ بحسب رؤياه وهو قوله ان القديس اندراوس الرسول ظهر له فى الحلم ثلاث مرات وهو نايم نومةً واحدة : قايلاً له : اذهب الى كنيسة اخى بطرس التى في انطاكيه وهناك بقرب الهيكل الملوكى انت تجد مدفونةً الحربة الحديد التى بها طعن جنب مخلص البشر فهذا الحديد

المقدس اذا حُمل امام الجيوش الصليبية يفعل بنوع عجيب خلاص المسيحيين مما هم به *

فخبرية هذه الرويا قد انتشرت حالاً في المدينة كلها والصليبيون لاقتناعهم التام بانه على القدرة الالهية لا شي يفوق وليس امر يفوق الامكان وانه تعالى لكي يخلّص جنوده المحاربين عن كرامة اسمه من تلك الحال التي هم كانوا فيها ملتزمٌ يفعل عجيبة كافية لانقاذهم فقد امنوا مصدقين بالاعجوبة التي اخبروا بحدوثها القريب ولم يعودوا من ثم مفتكرين في شي اخر سوى بان يصيروا ذواتهم مستحقين امامه عز وجل ان يصنعها معهم ولهذا قد تهيئوا اجمعين بصوم عام مدة ثلاثة ايام مع صلوات حارّة وتضرعات متصلة لغاية ان ينجدوا الحربة المقدسة التي انذروا بها *

فاذاً حالما بلغوا الى اليوم الثالث قد انتخبوا اثنى عشر شخصاً من اخص الاكليركيين الذين في العسكر ومن الاشراف الاجلّ اعتباراً انتخاباً تاماً لهذا العدد الموافق عدد الرسل الاثني عشر ليكونوا شهوداً على حقيقة الاية وهولاء توجهوا الي الكنيسة المعينة في الرويا بموجب ما قيل لهم وهناك شرعوا يحفرون الارض حول الهيكل الملوكي ويفتشون بتدقيق الى حد المساء بعملٍ متصل خلواً من مللٍ ولكن من دون ان يجدوا شياً اصلاً واما الجماهير المسيحية الملتئمين عند باب الكنيسة الى حد ذاك الوقت فقد قلّ صبرهم وبداء بعضهم يرتابون في حقيقة قول الكاهن الذي من مرسيليا مفتكرين بان كلامه كان ذا خباثةٍ فالليل دنى من الاثنى عشر شخصاً المارسين العمل ضمن الكنيسة ولم يكفوا عن الحفر والفحص والابواب مغلقة عليهم وهم وقتيذٍ شرعوا يتوسلون لله بحرارةٍ ودموعٍ حول الخندق الذي حفروه

فى دايرة الهيكل واذا بالكاهن بطرس برتولومى المذكور قد تكردس واقعاً في الخندق نفسه برهة ثم خرج منه ضابطاً فى يده حربة حديد حسب الوحى *

* حاشية *

والمورخون الذين كتبوا اخبار الحرب المقدس اتفقوا براي واحد على ان هذا الحادث كان اعجوبة الهية خلواً من ان احد يرتاب فيها ادنى ارتياب واخص هولاء الموردين خبريتها باتفاق تام وباعتقاد صحيح هم رايموند ده اجيلاس والبارتوس الاكسى وغوليلموس الصورى وغوبارتوس وغيرهم كثيرون الا ان بعضاً اخرين قليلى الاعتقاد بالعجايب نظير فوشار ده كارتراس قد احتسبوها مصنّعة في ذاك الحادث اما نحن المورخون فانما نورد ما كتبته المورخون القدما المعاصرون ايراداً بسيطاً ما هو به ولكننا نقول هذا فقط وهو ان كان البارى تعالى قد صنع هذه الاعجوبة بقدرته الضابطة الكل واسطة لخلاص تلك الجيوش والعدد العظيم من المسيحيين الحاصلين فى تلك الحال فلا يكون صنع شياً اخر سوى انه اضاف الى الايات والعجايب الاخر الكثيرة والعظيمة التى صنعها قبلاً بما لا ريب يشوبها بتة لثباتها براى العالم اجمع وتسجيلها فى الكتب الالهية العديمة الخلل *

فحالاً هتافات الفرح واصوات الابتهاجات خرجت من افواه الاثنى عشر الموجودين فى الكنيسة وترافقت وتعاظمت من السن الجموع المزدحمة عند ابوابها الذين جثوا اجمعين راكعين على الارض وقدموا الشكر للعزة الالهية وقد تجدد الرجا الوثيق فى قلوبهم كافة متاكدين بدون شك مطلقاً ان الله انعم عليهم بارادته ان يعضدهم ويخلصهم وقد شعروا كلهم باطناً بانه اتاهم

روح حيوة جديدة وهكذا امتلأوا شجاعةً ليس الاقويا فقط بل الاشد ضعفاً وجزعاً ايضاً (فيقول برندوس الخازن) انهم اضحوا وفتيةٍ باجمعهم فاقدي الصبر نحو النصرة وكلهم كانوا يصرخون بطلب الخروج للحرب حالفين بالاقسام الرهيبة على تلك الحربة المقدسة بانه اذا الرب منحهم الظفر باعدايهم فلا احد منهم يمكن ان ينتزح من ارفاقه المجاهدين ان لم يخلصوا اورشليم من العبودية منقذين من الاسر تلك المدينة المقدسة التى فيها يسوع المسيح مات مالماً لكى يخلص شعبه ✿

فقواد الجيش اغتنموا فرصة حمية الجنود والشعوب هذه وحرارة شجاعتهم واتفاق عزايمهم وهكذا اعتمدوا ان يرسلوا قصاداً الى قايد جيوش الاسلام العام مخبرين اياه بطلبهم منه المصافقة للمعركة خارج المدينة وبطرس الناسك معهم راساً عليهم فهذا الرسول الاول فى اعمال الحرب الصليبى اذ تجددت فيه الغيرة السابقة وتشدد بالشجاعة وانرجا قد خرج من المدينة مع ارفاقه القصاد الى معسكر السراكسة حيث استقبلته منهم الشتايم والمسبات والاستهزاء بهٍ باهانة متنوعة ولكن هذا الراهب الشجاع بوقوفه امام قايد الاسلام العام سلطان الموصل كربوغا الشرس الزاير كالاسد ما تكلم معه بنفس اوطى من نفسه العالى ولا بالفاظٍ اقل احتداد من المناظرة محرضاً اياه باسم المسيح وباسم القديس بطرس على الابتعاد عن اراضى انطاكيه او اقلما يكون بالاَّ يرفض المصافقة للمعركة مع الصليبيين حسب طلب قوادهم فسلطان الموصل هذا قد حدق نظره فى بطرس شزراً بنوع مرعب مجاوباً اياه بصوتٍ مرتجف غضباً هكذا اننى ساكسر ارقاب طايفتك وادفع جثثكم طعاماً للكلاب والاسود فاذهب مبلغاً اللاتينيين هذا الجواب اغرب من ههنا اننى اضحك من بطرسك ومسيحك

(ثم اردف قوله بكلامه) فان كانوا هم يعترفون بمحمد فربما حينيذٍ انا اهمل هذه المدينة الداثرة بالجوع التى هى صايرة تحت سلطانى وتملكى لان كتاب القرءان يرسم علينا ان نغفر للذين يخضعون لشريعته فقل لارفاقك ان يغتنموا حالاً عواطف حلمى فى هذا النهار والأ فنهار غد هم لا يخرجون من انطاكيه الأ مقطعين بالسيوف وحينيذٍ يعرفون ان كان الههم الذي ما قدر ولا ان يخلص نفسه من الصلب يقدر ان يخلصهم مما هو معد لهم ام لا ❊

فبطرس السايح اراد ان يكرر الكلام على هذا السلطان الا ان السلطان لم يعطهِ مهلةً بل وضع يده على سيفه صارخاً اطردوا من لامامى هذا الشحاد التعيس الذي بعماء قلبه اتصل الى الخسارة ومن ثم بطرس رجع الى انطاكيه واخيراً الامراء والاشراف المجتمعين معاً بحقايق رسالته واما هم فحالاً قد تاهبوا وتهيوا للمعركة التى عينوها فى اليوم المقبل وبالكاد انهم صيروا الجيوش عن ارادتهم الخروج فى ذاك اليوم عينه ❊

فاذاً العساكر الصليبية الذين اضحوا وقتيذٍ بنوع بليغ طايعين لتحريضات الاساقفة والكهنة بان يحاربوا بشجاعةٍ وثقةٍ مظهرين ذواتهم بالحق انهم جنود جياد ليسوع المسيح فقد اجتازوا تلك الليلة بالصلوات وباعمال الديانة والعبادة باجمعهم حتى ان كنايس انطاكيه كلها امتلاءت من الجيوش الذين بافعال توبةٍ حقيقية كانوا منطرحين بوجوههم على الحضيض طالبين من الاساقفة والكهنة الحل من زلاتهم ونقايصهم عموماً وخصوصاً وقد استخدموا الخبز والخمر القليلين الباقيين فى المدينة لتقديس سر الافخاريستيا المسجود لهُ وقرب الصباح ماية الف صليبى تقدموا الى منبر سر التوبة فاعترفوا ونالوا الحل وبعد ذلك تناولوا

القربان المقدس مقتبلين فى الباههم بهذا السر الالهى ذاك الرب نفسه الذى هم من اجله ازمعوا ان يخرجوا الى الحرب مع اعدايه مبيحين دماهم حباً به تعالى ✩

ثم اخيراً اشرق ضياء نهار التاسع والعشرين من شهر حزيران الذى هو عيد القديسين بطرس وبولس الرسولين والجيوش المسيحية خرجوا من اسوار المدينة مقسومين الى اثنى عشر طغمةً تكريماً لذكر الاثنى عشر رسولاً تحت رياسة ستة من القواد وهم هوكاز الكبير وغودافروا ده بوليون وروبارتوس ده نورماندیا وادهمار ده مونتيل ونانكريد وبوهيموند ثم ان رايموند ده اجيلاس (الذي هو احد مورخى حرب الصليب) قد حمل الحربة المقدسة التى صادفوها بالاعجوبة المقدم شرحها واظهرها مرتفعة امام الجميع فلما شاهدتها الجيوش قد تضاعفت شجاعتهم ورجاهم وبجانب رايموند مشى ادهمار الاسقف الفاضل الذي كلماته نحو الجنود كانت تزيدهم حرارة وثقةً وكذلك عدد وافر من الكهنة مشوا مع العساكر مرتلين المزامير الداودية خاصةً الاستيخن وهو يقوم الرب وتتبدد جميع اعدايه واما باقى الكهنة فقد لبثوا ضمن انطاكيه صحبة النساء البنات والاولاد واقفين فوق الاسوار مباركين الجيوش المسيحية وهكذا اصوات العساكر ارتفعت معاً بالصراخ العظيم „ الله يريد هذا „ الله يريد هذا „ وقد رنت فى الجبال القريبة وارعدت حول نهر العاصى بارتجاج ففيما بين هذه الهتافات والتراتيل والصلوات اجواقٌ من الجنود كانوا يسيرون فى الارض السهل بجرأةٍ فطحلية كانهم طايرين على اخذ الغنايم بالنصر غير مبالين باعدايهم ✩

فمشهد خيالة هذا العسكر وقتيذٍ لم يكن يعطى املاً وافراً باثمار مرجلتهم لان الخيل كانت بادت من عندهم الا ما قلّ

جداً جداً ولذلك القواد والمتقدمون كان البعض منهم راكبين الاتن وغيرهم الجمال وباقي الاشراف ماشين على ارجلهم واما العظيم غودافروا البطل الصنديد فقد استعار فرساً من عند الكونته ده طولوزا وعدد وافر من العساكر كانوا ماشين نصف عراة كما ان كثيرين من الجنود كانوا يسيرون جرّاً من قلّة قواهم وضعفهم من الجوع ما عدا الذين معتريهم المرض الغير الثقيل جداً ولذلك بصعوبة وعناء كانوا ينتصبون ذواتهم على المشى وبالاجمال كان منظر هذه الجيوش الا القليلين كان يظهر كانهم ماضيين نحو الضر احري مما نحو الغلبة نظراً الى حالهم الظاهرة لا نظراً لعزايمهم الباطنة غير ان الموضوع الذى كان يشجع الجميع ويشدد قواهم انما هو الرجا العظيم فى حقيقة انصر او اذا كان الامر بالخلاف فيموتون من اجل المسيح فان انهم اماتوا ارواحهم بهذا الندا الروحى فقد علوا فوق الصعوبات الماضية ومنتعشين بالرجا فى نوال الغلبة من قبله تعالى الذي اعطاهم بنوع عجيب دلايل الانتصار ✿

واما العساكر الاسلام المقسومون الى خمسة عشر طغمة فكانوا ممتدين فى السهول والحقول التى حول انطاكيه وعند ما شاهد قايدهم الاعلى السلطان كاربوغا اجواق الصليبيين اتيين نحو معسكره قد ظنهم جا ئين يلتمسون منه الرحمة والحلم ولذلك لبث فى خيمته العظيمة هادياً متنعماً فى تخته ولكن (يقول المورخون) انه لما نظر الى جهة القلعة التى داخل المدينة وشاهد فى اعلى برجها منصوباً السنجق الاسود فقد انتبه من غلط ظنه وعرف من هذه الاشارة ان الصليبيين كانوا قادمين اليه ليحاربوه الامر الذي اوعبه انذهالاً غير انه فيما كان يفكر هل ان ذلك كان حقيقياً ام لا واذا بكثيرين من جماعته يركضون مرتعشين ويخبرونه

بان المايتى الف عسكري الذي هو كان مفرقهم حول انطاكيه ليحافظوها بالحصار قد ولوا هاربين وادبروا من امام النصاري متبددين ❊

على ان الجنود الصليبية اصطفوا مرتبين للمعركة من جهة الغرب عند ديل الجبال حيثما كانت التلال قريبة من نهر العاصى وكانوا محميين بنصف دايرة من الصخور الكبار وعند بداية الحرب بغتةً قد امتدوا فى السهل مسافة ثلاثة اميال من المدينة وكان كلٌ من القواد يدبر العساكر فى محلات مختلفة فى الوقت الذي فيه كان بوهيموند صحبة طغمةً من الجنود يتجول على كل المحلات حيثما كانت الضرورة تجذبه الى المساعدة ❊

اما كاربوغا فقد رسم حينيذٍ على سلاطين نيتيه وحلب والشام بان يديروا من وراء الجبل وبان يستمكنوا من المحلات التى فيها بين العساكر الصليبية وبين اسوار انطاكيه بالعساكر التى معهم محافظين تلك الجهة وحالاً هو رتب الجنود الذين معهُ صفوفاً للمعركة ووضع ذاته على تلٍ قريب لكى يشاهد حركات عساكره كلها الا انه فى الوقت الذي فيه بلغ ان يشتبك القتال فهذا السلطان الشرس قد ابتداء ان يرتعش خايفاً ويرتجف مهتزاً بنوع غير طبيعى وارسل يقول لروساء العساكر الصليبية ان يتجنبوا المقاتلة العمومية معتمدين على معركة بعض قوادهم فقط مع عدد معلوم من العساكر الاسلام والنصر يكون لمن يفوز بهِ من الفريقين خلواً من معركة عمومية بين الجيشين غير ان طلبهُ هذا صودف متاخراً جداً ولم يكن بالصواب مقبولاً من القواد المسيحيين لانهم كانوا مع عساكرهم يريدون ان يحاربوهم بانتصار اكيد خالٍ من الريب وجيوشهم اضحت عديمة الاصطبار عن اخذ الغلبة التامة التى كانوا يلاحظونها بعيدة عن ادنى خطر نظراً الى الدلايل السماوية التى فازوا بها وكذلك لاحظوا كوكباً يمر في فضا السموات

ومطراً خفيفاً جداً كان يرطب حرارة ذاك اليوم الصيفي وريحاً شديداً من ناحيتهم ضد اعدايهم كانت تساعده حذف نبالهم وحرابهم على الاسلام وهذه ايضاً اعتبروها كلها اشاير لمعاضدتهم من يد الله ومن ثم القواد ما ارادوا ان يخمدوا شدة حرارة عساكرهم بل ردوا الجواب الى كاربوغا ان الامر الذى يفصل القضية معهم انما هو معركة عمومية حسب طرايق الحرب *

فالاسلام حالما شاهدوا علامة الحرب انتشرت شرعوا بدفعةٍ قوية بديهية يقاتلون وكتقرير احد المورخين انهم ضربوا الصليبيين بكمية هكذا عظيمة من النبال نظير المطر حتى ان ضياء النهار اكمد نوعاً كمحجوب بالغمام من كثرة النشاب وبعد ذلك هجموا جميعاً عليهم بقوةٍ وبصراخات مهيلة باصوات مقلوبة مخيفة غير ان المسيحيين بجلادةٍ عجيبة صادموهم وحاشروهم بارتدادهم عليهم حتى انهم بددوا جنح مصافهم اليمين وقد اشتد القتال بين الفريقين برجزٍ وبطشٍ متجددين. فثلثة الاف خيال من السراكسة متسلحون بالزروخة والدروعة الحديد هجموا بقوةٍ منذرين محاربيهم بالموت وملقين الهلع فى كل ناحية ومن ثم اضمحت عديمة الفاعلية جلادة غودافروا وتنكريد وهوكار الكبير وبوهيموند ولين كانوا يحاربون بشجاعةٍ عجيبة لانهم لم يعودوا يقدروا ان يدافعوا هجامات السراكسة العجيبة العظيمة القوة والكثرة بشراسةٍ وحشية بها حصدوا صفاً من الصليبيين الشجعان ثم ان كيلدج ارسلان سلطان نيقيه الغيور بحرارة على اخذ طارة عن انكساره بخجلٍ كلى مراتٍ سابقة من الجيوش المسيحيين قد كان يغازي بالحقيقة كاسدٍ على روس عساكره ويضاف الى ذلك ان الاسلام الغضوبين حينما شاهدوا شدة المعركة قد حذفوا جزات مشافة ملتهبة فى الاراضى بين الاشواك والاعشاب

اليابسة فاضطرم الحريق في المحلات الارضية واصعد دخاناً نظير الضباب الحالك حتى انه اظلم نور النهار والجيوش المسيحية كادت تباد بلهيب تلك النيران الواسعة وتختنق بشدة الدخاخين وفي هذه الحال من شدة البلبلة ما عادوا يسمعون اصوات روساهم او ينظرون اشارات ارشاداتهم الحربية وهكذا الاجواق التي كانت وراء تلك الدخاخين والنيران محجوبين بها كانوا من برهة الى اخرى في خطر اخذهم ممن لا يرونهم قبل الهجوم عليهم وبالتالي ان جماهير الصليبية شعرت بعلة القوة والشجاعة ولاحظوا كانه عاد عديم الفايدة قتالهم وهكذا في ذاك الوقت اضحى الانتصار عن قرب هارباً من بين ايديهم الى اعدائهم ❊

ففيما هم في هذه الحال واذا بمشهدٍ عجيب وغريب بغتةً ظهر (كما يقرر عنه المورخون) وهو ان على الفور قد شوهدت طغمة عظيمة من العساكر المدججة بالاسلحة منحدرين بقوة عظيمة من اعلى الجبال وثلاثة قواد خيالة بملابس بيضاء حاملون بيارق وحراب لهبية سايرون على روس اوليك العساكر وجاذبونهم باسراعٍ عجيب الى السهل فالصليبيون عندما لاحظوا هذا المنظر الفايق الطبيعة امتلأوا سروراً وشجاعةً واثقين وعجوا باصواتهم صارخين حالاً هوذا القوات السماوية والجنود الملايكية انحدروا لانقاذ عساكر يسوع المسيح وللمحاربة معهم لنوال الغلبة وهذا صار معلوماً وقتيذٍ عند الجميع والاسقف ادهمار شرع يوكد حقيقته بهتافاته صارخاً هكذا هوذا العون الذي انتم وُعدتم به فاذاً السموات اعلنت ذاتها محامية عن الصليبيين هوذا الثلاثة القديسون جاورجيوس وديمتريوس وماوريسيوس روسا العساكر السماوية جاؤوا ليحاربوا معنا : قال هذا : والجيوش المسيحية صرخت باصوات عامة „ الله يريد هذا „ الله يريد هذا „ وحالاً استحوذ

على الجنود الصليبية نوع من الشجاعة بما شوهد مثله قط والكهنة باصوات التراتيل الشكرية طفقوا يمجدون العزة الالهية كما ان النساء والاولاد وباقي الاكليروس الذين كانوا فوق اسوار المدينة املأوا الفضاء من عجيج اصوات البهجة والتسابيح وهكذا الجيوش المسيحية اذ تحققوا نوال النصر والظفر هجموا كافةً على جيوش العدوِ بقوة غريبة ✿

فالاسلام الذين كانت النصرة بين ايديهم فحينما شاهدوا الانقلاب بانقضاض النصاري عليهم كالاسود ارتعشت مفاصلهم بهذه المباغتة العجيبة وملكهم القلق والخوف مع بلبلة صفوفهم من كل ناحية فاخذوا بالرجوع الى الوراء متبددين امام محاربيهم الذين اذ توكدوا ان القوات السماوية كانت تعضدهم فاضحوا غير ممكن ان يُغلبوا ومن ثم تحققت الاسلام عدم مقدرتهم مصادمة هذه القوة العجيبة ثم ان الكونته ده فارماندواس قد جاء بعساكره من وراهم وشدد عليهم القتال ففرقهم في جهات مختلفة ولاجل انحصارهم عن المهرب بواسطة نهر العاصي طرحوا ذواتهم فيهِ فغرق منهم ضمن هديره العميق عددٌ غير محصى ووقتئذٍ شوهدت ارياف النهر والحراش والجبال والسهول مملوة من السراكسة الهاربين ومن القتلى والمجروحين والعساكر الصليبية في ظهورهم ثم ان القايد الاعلى كربوغا سلطان الموصل نفسه المتعجرف قد ادبر هارباً مع عدد قليل من جماعته موعباً خجلاً وحزناً في طريق الشول الى نواحي نهر الفراة ✿

فمن تراه ممكناً له ان يشرح بكفايةٍ استحقاق اعمال روسا الجيوش الصليبية التي مارسوها في هذا اليوم الاكثر شهرةً في تاريخ الحروب المقدسة (فيقول احد المورخين المعاصرين روبارتوس) انه لاجل ايضاح افعال غودافروا وبوهيموند والعساكر المسيحية

المصنوعة منهم فى اليوم المذكور لا تكفى لا لغة ولا الفاظ" ولا
ايدي للكتابة ولا قرطاس قليل على ان اخوتهم اجمعين كانوا
مجدين على العمل والخوف ما وجد لذاته حتى ولا عند واحد
فقط منهم مقرا" وبمقدار ما كانوا يقتلون من اعدايهم فبمقدار
ذلك كانت عزايم قواهم تنموا متشددة وكانوا يظهرون كالجواتى
الغموس المتولدة على الفور. فيا لها من قوة الهية قادرة على كل
شي تلالات منك ايها الرب رب الجنود فعساكرك الضعفا جدا"
من قبل الجوع المديد يهجمون على جيوش شباعى اقويا شديدي
الباس موعبى البطون باطعمة وقوت مخصب وهولاء الذين ادبروا
من امامهم ما عادوا التفتوا الى ورايهم لينظروا موجوداتهم الغنية
جدا" الذين تركوهم فى معسكرهم قهرا" عن ارادتهم وكذلك قطعان
حيواناتهم صارت غنيمة والعساكر المسيحية وجدت من القوت
والخبز ما كانوا يطلبونه وخيول الهاربين شمصت فى السهل ومن
جريها كانت تعج الاغبار حتى اظلمت الجو واما الجيوش المسيحية
فلمعوا مشرقين كالصبح بعد ظلام الليل ولين كان كثيرون منهم
نصف عراة ☆

ثم ان البطل الصنديد تانكريد وغيره من الاشراف الشجعان
قد ركبوا خيول الاسلام المغلوبين وسعوا جريا" فى اثر سلطان حلب
وسلطان دمشق وامير اورشليم الى حين غروب الشمس مع من
كان هاربا" معهم من الروسا والعساكر السراكسة المبددين واخيرا"
رجعوا الى انطاكيه مجتازين بين تلول من جثث الاسلام المقتولين
وفرحين باثمار انتصارهم ☆

فتبعا" لاقوال المورخين المعاصرين ان الاسلام خسروا فى معركة
اليوم المذكور مائة الف خيال بقوا مطروحين قتلا فى الاراضي
واما من العساكر المشاة فقتل عدد" هكذا عظيم منهم حتى ان

المريدين معرفة هذا العدد كلوا منه فاهملوه لكثرته الكلية واما العساكر الصليبية فقد ندبوا خسران اربعة الالف شخص منهم في النهار المذكور جميعه وقد اعتبروا في عدد الشهدا ☆

ثم في اليوم الثاني (الذي هو ٣٠ حزيران) المسيحيون اخذوا يتاملون بانذهال كثرة الموجودات والخزاين والغناء العظيم الذي هو ثمرة ظفرهم لان معسكر الاسلام كان حاصلاً على اعظم غناء الشرق من الملابس الفاخرة ومن الذخاير الغير المحصاة مع خمسة عشر الف جمل وعدد كلي جداً من الخيول فهذه كلها صارت غنيمة للصليبيين وبالاجمال في يومٍ واحد القواد والجنود اضحوا اكثر غناءً من حال مولدهم على انهم حينما سافروا من بلادهم قد كانوا مصطحبين معهم موضوعات ثمينة مصنوعة بقيمة الارزاق التي باعوها من عيلاتهم ولكن حينما هذه الجيوش انفسهم خرجوا من انطاكيه صودفوا فقرا اكثرهم .نصف عراة فلما الان رجعوا داخلين الى انطاكيه وجدوا لابسين البرفير والارجوان المزينين بالذهب وكانوا مثقلين بالاموال والموجودات الغنية جداً التي اكتسبوها غنيمةً من الفرس الاعجام ومن الاتراك ومن العرب ثم في حال مسيرهم من المعسكر الى داخل انطاكيه كانت الطبول كلها تضرب والابواق تصرخ والات الطرب ترن تكرمةً لفرح الانتصار والاكليروس بدلوا صلوات النوبة بتسابيح الابتهاج وكانوا يلقون في الاراضي تحت اقدام الجيوش الاغصان والزهور احتفالاً لغلبتهم ☆

اما قواد الجيوش مع الاكليروس فقد كان اهتمامهم الاول بعد رواقت احوال المعسكر في ان يوطدوا الديانة المسيحية في مدينة انطاكيه هذه راس اقليم سوريا في بلاد المشرق وبهذه العناية صودف روح الشريعة الانجيلية وتعليم الديانة المسيحية الارتودكسية

مشتهرين فى جوف هذه المدينة بحسن عبادة وتقوي والكنايس القديمة التى كانت الاسلام احالتها الى جوامع فمن دون تاخير ارجعت الى احوالها الاصلية ثم تخصص جانب كبير من الكسب والغنايم الماخوذة من معسكر الاسلام لتصاليح الكنايس وزينتها وفيما بين اجتماعات الصليبيين فى الكنايس لاداء الشكر لله باتفاق واحد من اللاتينيين والروم كانوا يتجددون عزايمهم واقسامهم الرهيبة بالاعتماد سريعاً على السفر نحو اورشليم لاجل استنقاذها وبالا يرجع احد منهم الى وطنه قبل تمام هذا العمل المقدس الذي هو الغاية الاخص لمجيهم من المغرب الى المشرق ☆

فمعركة الحرب المذكورة والانتصار الذي فاز به الصليبيون كان ينسب مجده الى اعجوبة حقيقية مصنوعة بالقوة الالهية والجميع اعتبروه هكذا حتى الاسلام انفسهم واشخاص كثيرون منهم لشدة اندهالهم من هذا العجب المثبت حق الديانة المسيحية قد تركوا مذهب محمد وتنصروا ☆

واما اوليك الجنود الذين لحد ذاك الوقت محاصرين فى قلعة انطاكيه فهولاء حالما انتهت معركة اليوم المقدم شرحه بانقراض اخوتهم الاسلام وانتصار المسيحيين العجيب قد رضوا لسلاحتهم خلواً من توقف وسلموا القلعة وثلاثماية شخص منهم صرخوا ان اله المسيحيين هو الاله الحقيقي فرفضوا ديانة محمد واعتنقوا الايمان بالمسيح ☆

ثم انه بعد ذلك بمدة ما من الزمان كثرة من حكام بلاد سوريا عند ما تحققوا الانتصارات التى فاز بها الصليبيون امتلاوا خوفاً مويسين من ذواتهم فارسلوا الى معسكر المسيحيين قصاداً مع هدايا وجزية العبودية ملتمسين منهم الحماية ومقدمين لهم الخضوع راغبين ان يكونوا فى دوام الصلح معهم وقد حدث بالقرب

من مدينة اورشليم حادث جديد قد ضاعف في الجيوش الصليبية اشواقهم نحو اتمام مقصدهم الاول وكان يظهر انه لا شي من الاشيا ممكنٌ انه يوخر انطلاقهم الى هناك ادنى تاخير ولكن لماذا يلزمنا ان ننظر دايماً عساكرنا الشجعان متهاونين عن اقتطاف اثمار انتصاراتهم فى اوقاتها ومتكردسين جبناً بعد حينٍ فى هوتات الشدايد التى بمنزلة سلسلة تتتابع الاّ من قِبل تهاملهم فى السير او من قِبل انقساماتهم بالاراء وغيرها ☆

على انهُ غبَّ الحرب الانطاكية هذه بقليل من الزمان قد اقبلت من بلاد المغرب عساكر لمعونة الصليبيين ولذلك هم استحلفوا قوادهم بان يسيروا بهم عاجلاً نحو اورشليم وهذا الطلب العادل قد فُحص في ديوان مشورة الروساء ولكن فى هذا الفحص وجدت الاراء منقسمةً على ان البعض من الامراء والاشراف اذ كانوا من الجهة الواحدة يلاحظون ما قاسوه في المدة الاخيرة من انضناء والشدايد والاتعاب الكلية ومن الجهة الاخرى جودة المحل والمناخ والفصل والظروف الاخر كانت تجذبهم الى رغبة التمتع بها فهولاء رغبوا المهلة عن السفر مدةً ما من الزمن لامتلاك عدالة صحتهم وترتيب احوالهم (وهذه المهلة كانت لاسباب يوردونها ببراهين لها صورة ظاهرة غير حقايق باطنها) فمن ثم قر الراى على ان الجيوش الصليبية قد كانوا بعد مضنوكين من الشدايد القاسية التى تكبدوها قبلاً بانواع مختلفة ومن اعمال انتصاراتهم عينها وان الوقت كان فى شدة فصل الصيف الحار وان الطريق المزمع سفرهم فيها هى ذات مناخ اوفر حرارةً من انطاكيه والمياه قليلة فى مسافتها فهذه كلها ظروف توجب تاخير العساكر عن السفر نحو القدس ليلا تصادفهم مصايب جديدة تضاعف اضرارهم المتقدم حدوثها فاذاً الفطنة توجب انتظار

العساكر الاخر الاتيين من المغرب وعلى دخول فصل الشتا كل شي يكون تهيى لاجل التوجه الى اورشليم وامتلاكها الذي هو امر ساهل ☆

فهذا الراى قد قبل واشهر على الجميع من ديوان المشورة ولكن بعد ذلك من دون اعاقة حصل الندم من الاعتماد عليه لانه بعد ايامٍ قليلة توجدت امراض ردية فيما بين الصليبيين خاصةً الحمى الوبائية فاماتت منهم عدداً وافراً جداً وفقد جملة اشخاص من الروسا والاشراف المعتبرين فى صفاتهم واعمالهم والاخص من الجميع هو السيد ادهمار ده مونتيل اسقف بوي المعظم الذى كان اباً روحياً وراغباً لجميع هولاء الجيوش واحد قوادهم وكان لاجل فضايل صفاته الحميدة محبوباً مكرماً محترماً من الكل وقد ندبوا وفاته بحزنٍ عامٍ على فقدهم اياه وقد حدث له ما جري لموسى قايد شعب الله الذي مات بدون ان يصل الى اورشليم وقد دفن جسده باحتفال ودموع وافرة فى كنيسة القديس بطرس في انطاكيه فى المكان نفسه الذي فيه وجدت الحربة المقدسة ☆

وقد اضيف الى ضرر الامراض المذكورة ضررٌ اخر فى المعسكر ناتج عن الخصومات التى حدثت فيما بين بعض القواد والروسا المبتليين بداء محبة التقدم و بمرض المغايرة لان رايموند ده طولوزا وامير تارنتنا بوهيموند كانا يتخاصمان على امتلاك قلعة انطاكيه حتى انهما عدة امرار كانا بحدة غيظهما وشراسة طبعهما يمتدان بالفاظ اثيمة ويبقى شي قليل الى المضاربة بينهما وذلك امام اخوتهما الشاهدين على احوالهما هذه المكروه سماعها وبالتالى ان البلبلة وخراب النظام كان يومياً يزداد فى معسكرهم ما بين الاشراف لان البعض اذ تناسوا الغاية والموضوع الذي من اجله

خرجوا من بلادهم واتوا الى المشرق ولم يعودوا يفكرون باهتمامٍ سوى فى ان يوسعوا ولايتهم على الامكنة التى امتلكوها وحصلوا اسياداً عليها وغيرهم لاجل مشاهدتهم ذواتهم خايبين من السعادة الزمنية المشوق اليها منهم فكانوا يجتهدون فى ان يغنوا نصيبهم غناءً وافراً باكتساب امكنة واشياء خصوصية لهم فى بلاد سوريا ثم ان عدداً ليس بقليل من الصليبيين حينما رأوا ان سفرهم نحو اورشليم مع اخوتهم الجيوش كان راسم بتاخيره الى اوايل الشتا قد توجهوا عن انطاكيه بعلم روساهم الى البلاد التى صارت قبلاً تحت ولاية المسيحيين ليزوروا ارفاقهم ومعارفهم المتوطدين هناك وبعد ذلك يرجعوا الى انطاكيه وكثيرون من هولاء قد اتحدوا مع بودوين سلطان الرها وبقوا عنده يحاربون معه السراكسة العصاة عليه فى بلاد بين النهرين وما يليها ❁

غير انه فيما بين هذه الانقسامات التى فرقت الصليبيين فى جملة بلاد والخصومات الناتجة عن ذلك والمعاملات الظالمة التى تكبدوها والشدايد القاسية التى المت بهم والتغييرات الكلية التى صادفتهم فلم يزالوا هم مملوين من الشجاعة والرجولية محتملين بصبرٍ تام وبتسليم ارادة كامل وبجلادة الجوع والعطش والتعب وحر الاقليم الوافر مع ساير البلايا والاضرار الاخر التى كانت تحل بهم على ان المورخين القدما يصورون لدينا هذه الحروب المقدسة مرافقةً دايماً من الافعال الجهادية موعبةً من المواقع والمعركات متصفةً على الدوام بحوادث غريبة وبقوة عجيبة مستخدمين شجاعتهم كالابطال فى الجبال والصحارى والحراش ليس ضد البشر اعداهم فقط بل احياناً ضد الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة الكواسر ايضاً فاحدهم فرنساوى المولد اسمه غويشار قد شاع ذكره لاجل انه غلب اسداً غليظ الجسم

جداً وقتله . وواحد اخر من الاشراف اسمه جاوفروا ده لاطور ان تاه هو يوماً في حرش قد صادف هناك اسداً ملتفة على عنقه افعى طويلة معذبة إياه بنوع ان عجيجه من قبلها كان يرعد في الفضاء فهجم هو على الافعى وقتلها بسيفه خلواً من ادنى خشية وخلص الاسد الذي حسب تقرير احد المورخين لم يعد يريد مفارقة جاوفروا منقذه بل استمر تابعاً اياه طول زمن وجوده في الاسيا نظير كلب عند صاحبه ومرات كثيرة كان يخدمه بافادة سوي كان في اوقات الصيد او في حين الحرب ثم عندما اراد جاوفروا بعد اخذ مدينة اورشليم ان يرجع الى الاوروبا بحراً ورئيس المركب لم يرد ان ياخذ هذا الاسد صحبة الركاب الذين كانوا برفقته فحينئذ جاوفروا اهمله عند الشط وصعد الى المركب غير ان هذا الحيوان الحافظ الود والعارف جميل المحسن عليه ما اراد ان يفارق مخلصه بل نزل في البحر يعوم ورا المركب المسافر الى ان كلّ من التعب فاختنق (هذا ما اورده المورخ البالجيكي الكبير) وهنا يقول مابورك لارشاد غريب عن الطبيعة يجعل البشر في الخجالة عند انفسهم حينما يرشدهم الى كيف ان هذه الطبيعة صنعت اكثر من مرة واحدة ان الاسد تكون المعلمة لنا في واجبات معرفة الجميل نحو المحسن الينا *

فالامراء الصليبيون الملتهون برجوعهم في انطاكية قد رتبوا العساكر للحرب وخرجوا الى البلاد القريبة مخضعين لولايتهم عدة بلدات من اقليم سوريا العليا فالامر الاكثر ايجاب في التخبير عنه من هذه الجهة هو حصار مدينة المعري الكائنة فيما بين حماه وحلب ولكن نحن ههنا نوفر عن القارين صورة الحال المحزنة التي المت بالصليبيين في الحصار المذكور من المصايب والبلايا

والشدايد المتكردسة عليهم جديداً بنوع يصمي الفواد كدراً ثم ان نعدل عن شرح حوادث انتصارهم اخيراً على المدينة المذكورة نضرب صمتاً ايضاً عن انواع القساوة الخارجة عن الحدود التى مارسوها فى نصرتهم المهيل تاملها والانقسام الردي بينهم الذى اخمد رونق مجدهم فنتقدم الى شرح صورة احوالهم المسببة اقل حزناً لقاريها فى سفرهم من هناك متوجهين نحو مدينة اورشليم لانه آن الاوان الذي فيه نوجه افكارنا بالذهاب معهم الى انقاذ اورشليم من مرائى احزانها وبالدنو من ذاك القبر المقدس الامر الذي كان هو الغاية الاخص لاعمالهم الصليبية والموضوع الاعظم لارواء ظماء اشواقهم التقوية اذ ان الغاية هى دايماً افضل من الوسايط لان جميع ما يمارس للبلوغ الى مقصدٍ ما فانما هو افل اعتباراً من المقصد نفسه ✲

الفصل السابع

فى مسير الصليبيين من انطاكيه نحو بلاد فلسطين وفى حصار مدينة اركاس وجبله وطرطوز وفى بلوغهم الى حد اسوار اورشليم وفيما اظهروه هناك من روح الابتهاج التقوى

فقد كان مضى زمانٌ ينيف عن ستة اشهر من حين امتلاك انطاكيه ولم يكن البعض من امراء الصليبيين يفتكرون اصلاً فى ان يرتبوا للجيوش امورهم للمسير نحو اورشليم غير ان رايموند قد كان فى دخول فصل الخريف اشهر ستحجق السفر وكل الاشراف خاصته مع جنوده قد فرحوا بذلك واهتموا بتدبير امورهم للتوجه كما ان تانكريد والدوكا ده نورمانديا قد اضافوا عساكرهم الى

تلك التي تحت اوامر الكونته ده طولوزه وهكذا اذ تسلمت الجهة الكبيرة من الجيوش الصليبية الى رياسة هولاء الثلاثة القواد قد سافروا من انطاكيه الى جهة بلاد سوريا العليى واجتازوا مقاطعة قيساريه وحماه وحمص وكان مسير هذه الجيوش الصليبية بصورة انتصار حقيقي ومن كل الجهات النصارى والاسلام كانوا يتقاطرون الى ملاقاتهم فالمسيحيون لكي يلتمسوا اغاثتهم ومعونتهم والاسلام لكي يستمدوا حلمهم ورافتهم عليهم وهكذا هذا المعسكر الصليبى فى مسافة سفرهم كانوا يفوزون من اهالى البلاد بذخاير وافرة جداً مما يخص القوت وبمبالغ غنية من الاموال على جهة الجزية والعبودية ثم ان الامراء الاسلام كانوا يستحلفون قواد الجيوش المسيحية بان يسمحوا لهم فى ان ينصبوا البيارق الصليبية فوق اسوار مدنهم لاجل حمايتها من النهب وغيره واوليك المسيحيين الذين كانوا مسجونين تحت حكومة الموت قد ارسلوهم الى المدن القريبة وبالاجمال ان الخوف الذى وقع في قلوب الجميع من مجى العساكر الصليبية نحوهم قد صيرهم ان يسلموهم المدن والقرى من دون حرب او ممانعة بتة فهذا الانتصار السلامى بمقدار ما كان يسهل للامرا المسيحيين وجنودهم سرعة السير خلواً من مانع نحو المدينة المقدسة فبمقدار ذلك الفرح كان ينمو فى قلوبهم ويزداد رجاهم ثقةً فى انهم كانوا عاجلاً مزمعين ان يتمتعوا بالظفر التام والنصر الاخير بمشاهدتهم ذواتهم فوق اسوار المدينة الامر الذي هو ختام اتعابهم ونهاية ما تكبدوه قبلاً ❊

الآن ان مدينة اركاس الكاينة عند ذيل جبل لبنان بعيدة من البحر نحو ستة اميال اذ ان سكانها رفضوا تسليمها والتزمت الجيوش الصليبية بان يحاصروها فهذا الحصار قد اعاق مسيرهم

الانتصاري فى اراضى المدينة المذكورة المخصبة فى كل نوع فعندما دبر رايموند العساكر فى كيفية حصار هذا الحصن فالقواد الاخرون الذين اخذوا كمال العساكر وسافروا بهم من انطاكيه فى اول فصل الربيع (وهولاء كانوا من طوايف فلاندرا وهولاندا وانكلترا مع قوادهم) فكانوا يتقدمون بحسن ترتيب فى بلاد فينيكيا الغنية واما بوهيموند الذي رافق هولاء القواد والعساكر الى حد اللادقيه فمن هناك ودعهم ورجع الى انطاكيه ولايته موعداً اياهم بان يتبعهم فيما بعد ويدركهم عند اسوار اورشليم ثم فى الوقت نفسه جانب اخر غفير من الجنود الصليبية تحت رياسة غودافروا واوسطاكيوس وغيرهما من الامراء الشجعان قد جاؤا الى مدينة جبله التي على شط البحر غير بعيدة جداً من مدينة اللادقيه وحاصروها بقوة . غير ان عدم اتفاق الروسا وبالحري انقسامهم قد افقدهم مجداً جديداً كان يمكنهم ان يضيفوه الى مجد الانتصارات السابقة ومن ثم بسعادة الحوادث قد توجت باجود اعمال انتصار العساكر الذين حاصروا مدينة طرطوز تحت رياسة رايموند ده طورات على ان هذا القايد الذى لم يكن معه من الجنود ما يبلغ عن الف محارب قد عوض عن نقص الكثرة بما صنعه من الاحتيال بالفطنة وهو ان القايد المذكور بعد ان مد العساكر التي معه امام اسوار طرطوز عن بعد محتمل قد صير فى تلك الليلة ان توقد مصابيح مع نيران جزئية فى محلات مختلفة فى حرش قريب اليهم فسكان المدينة عند مشاهدتهم ذلك من على الاسوار ظنوا ان العساكر الصليبية باجمعهم اتوا الى ذاك الحرش وهذا الظن اوعبهم خوفاً فاهملوا المدينة وهربوا الى الجبال لانها اوفق لحفظ حياتهم ففى الصباح التالى الجيوش القليلة مع رايموند اتوا الى المدينة ودخلوها خلواً من ان يحتاجوا الى

ضرب نبل واحد واذ لم يروا فيها احداً من اهلها قد نهبوها واضرموا النيران فابادوها بالحريق ورجعوا الى معسكرهم مثقلين بغناء الغنيمة ✿

اما مدينة اركاس والقلعة التي ضمنها فقد كانتا محصّنتين بقوة عظيمة من الاسلام ولذلك رايموند وعساكره ما استطاعوا امتلاكها ولئن كانوا مارسوا ضدهما حصاراً شديداً وجهاداً وافراً ومن حيث ان الزمان حال عليهم فنقصت ذخايرهم جداً ومات منهم كثيرين بامراض مختلفة من القلة والضناء والاتعاب „ وقد حفظ لنا التاريخ اسم اثنين من هولاء " وهما انسلموس ده ريباموند كونته ده بوشين وبونسوس ده بالازو الرجلان الشريفان والبطلان الشجعان والاخير منهما مشهور بجودة العقل وقد كتب تاريخ الحرب الصليبية من بدايتها الى حين وفاته في حصار اركاس جملةً مع رايموند اجيلس ✿

فغي زمان الحصار المذكور قد وجد البعض من الصليبيين ارتابوا بحقيقة وجود الحربة المقدسة في كنيسة انطاكيه بنوع فايق الطبيعة وبحقايق عجايبها ولكن العساكر كلهم الذين كانوا وقتيذٍ في هذا الحصار اختبروا بشهادة عيانية الامتحان الغريب الذي تم بهذا الشان ونحن حسب عادتنا نختصر ايراد الحوادث التي المورخون كتبوا عنها باسهاب ✿

فالكاهن ارنولد خادم كنيسة الدوكا ده نورماند يا قد كان هو الاخص في الذين قاوموا حقيقة اعجوبة الحربة المقدسة ومن حيث ان التقدمات والنذور التي كانت تُعطى تكريماً لهذه الذخيرة المقدسة لحفظها بايدي المعينين كانت تتوزع على الفقرا فهولاء خوفاً من قلتها عنهم بسبب تكلم المضادين حقيقتها شرعوا ينفوهون ضد الكاهن المذكور بتهمة ثقيلة مهيلة له وكانوا

يقولون ان الضرر والشدة والاضامات التي احاقت بالصليبيين مدة حصار اركاس فانما داهمتهم من قبل قلة ايمان هذا الكاهن والذين من حزبه بعجايب الحربة الخلاصية واما الموافقون راي ارنولد القس المذكور الذين يوميا" كانوا يزدادون عددا" فشرعوا يحامون عن ذواتهم بقولهم ان تلك البلايا انما اصابت المعسكر من قبل الانقسامات التي صارت بين الروسا والقواد ومن عدم اتفاقهم لان هذا هو ينبوع الشر وجرثومة الضرر ومن ثم كل" من الفريقين كان يحامي عن رايه بحدة الامر الذي كان حينا" فحينا" يحمي الارواح بحرارة متزايدة ويضاعف الانقسام فيما بين المسيحيين ☆

فوقتيذٍ برتولومي الكاهن الذي من مرسيليا الموجد بنبوته هذه الحربة المقدسة اراد ان ينهي الجدال بين الجهتين ويخمد البلبلة بتقدمته ذاته الى امتحان حقيقة الامر بواسطة النار فنحن ههنا نحرر الالفاظ ذاتها التي كتبها المورخ رايموند ده اجيلاس الشاهد العياني والمتقدم على الاخرين في تدبير الاعمال الصليبية حيث يقول هكذا * ان القس بطرس برتولومي اذ تحقق ان كثيرين ما كانوا يصدقونه بما صنع فقد احتد بالحرارة وقال حسبما هو كان انسانا" بسيطا" عارفا" حق المعرفة بصدق الحادث هاتفا" انني اريد بل اتوسل بان توقد نيران عظيمة جدا" باتساعٍ مضطرمة في غايتها وانا احمل هذه الحربة المقدسة بيدي واجتاز في باطن تلك النيران فان كانت هي بالحقيقة الحربة التي بها طعن جنب مخلصنا يسوع المسيح فانا اخرج من قلب النار بها سالما" خلوا" من اذيةٍ والا فانا احترق في جوفها لانني اشاهد ان البعض لا يصدقون لا الاعجوبة في ايجادها ولا الشهود الذين حققوا الاعجوبة ☆

فهذا الكلام قد ظهر لدينا مقبولاً وبعد ان فُرض صومٌ على بطرس برتولومى ونحن عينّا عمل النار العظيمة ان يكون في يوم الجمعة المقدسة الذي فيهِ مخلصنا احتمل الالام ومات على الصليب لان عيد الفصح كان واقعاً بعده بيومين ففى الوقت المعين قد تحضرت كيمات من الحطب وبعد نصف النهار التيمت الامرا وساير الاشراف مع جميع العساكر وكان عددهم اربعين الف شخص وكذلك الكهنة جاءوا لابسين الاثواب الكهنوتية بارجل حافية وعندما القوا النار فى الحطب فالتهب مضطرماً „ فانا رايموند اجيلاس قد تفوهت بهذه الكلمات امام الجموع الملتيمة قايلا " ان كان الله القادر على كل شى قد كلم هذا الانسان بطرس برتولومى وجهاً بازاء وجهٍ وان كان التديس اندراوس الرسول قد اوضح لهُ المكان الذي كانت فيه الحربة المقدسة التى طُعن بها مخلصنا وهو اخرجها منه فالحاضرون يشاهدونه مجتازاً فى النار وخارجاً منها سالماً خلواً من اذية او ان كان الامر يحدث بالخلاف ولا يتحقق صدق كلامه وفعله فليكن هو والحربة التى فى يده محروقاً فى قلب هذه النيران فبعد ان قلت هذه الكلمات الجميع جثوا على ركبهم وحينيذٍ بطرس برتولومى جاء لابساً ثوباً واحداً كنايسياً وركع امام الاسقف ده الباريا حالفاً بان الله يكون شاهداً على صدق قوله بانه شاهد يسوع المسيح على الصليب وجهاً بازاء وجهٍ وبانه سمع من فم المخلص ذينه ومن فم الرسولين بطرس واندراوس تلك الكلمات التى هو بعد ذلك اخبر بها الامراء ثم عقيب هذا الحلف قد دفع الاسقف بيده الحربة وهو رسم ذاته باشارة الصليب المقدس ومشى على ركبتيه واقترب من لهيب النار المتقد خلواً من ادنى جزعٍ ودخل فى باطنها ماكثاً هناك برهةً ثم خرج

منها بنعمة الله سالماً وكان قبل ان يجتاز هو في النار جاء طير يحوم فوق راسه وبعد ذلك رمى ذاته في قلب اللهيب اما الشعوب الحاضرة هذا المشهد فلما نظروا برتولومى خارجاً من النار سالماً من كل اذية قد دنوا من النيران وشرعوا يتخاطفون فحمها وفضلاتها حتى رمادها بمنزلة ذخاير مقدسة باجتهاد كذا نشيط حتى انه في برهة ما تركوا في الارض شياً من آثارها ثم ان برتولومى في خروجه من النار سالماً قد شوهد ان ثوبه وبالغ من ذلك المنديل الرفيع جداً التي كانت الحربة المقدسة مغطاة به خاليين من ادنى شياط او علامةً ما تدل على دخان النار لمسه فيها ومن ثم عند خروجه من النار بارك الشعوب بالحربة رسم صليب صارخاً يا الله اعنّى فالشعوب الموعبون انذهالاً تواثبوا اليه باحترام وكانوا يلمسونه بايديهم ليتحققوا ان كان هو هو الذي خرج من النار ومن حيث انهم بحسن عبادة خارجة عن الحدود اراد كل منهم ان يفوز منه لذاته بشيء ما ذخيرة له وشرعوا ينتفون ثوبه مقطعين والبعض اتصلوا الى ان يجرحوا رجليه وياخذوا لحمانه لياخذوا من دمه ومن لحمه ايضاً بعض اجزاء بنوع لا يمكن وصفه ولولا ان رايموند بالالط ياخذ حالاً معه جملةً من الجنود ويهجم على الجموع مبدداً اياهم لكان برتولومى صار ضحيةً لعبادتهم الرعنة ومات بين ايديهم : انتهى كلام رايموند ده اجيلاس : اما بطرس برتولومى الذى تخلص من ايديهم على الصورة المذكورة مجرحاً بكل جسمه فلم يعد يعيش الا مدةً وجيزة لان الجراحات المثخنة في جسمه قد سببت له الموت بعد ايام ليس بكثيرة ✲

✲ حاشية ✲

ان الحربة المقدسة التى تكرمت بعبادة كلية من الصليبيين

ومن الجميع في دوام مدة الحرب الصليبية الاولى قد نقلت اخيراً الى روميه هدية للحبر الاعظم والان هي موجودة في كنيسة القديس بطرس الفاتيكانية حيث وضعت هذه الحربة المقدسة فوق الركن الموجود فيه شخص القديسة فارونيكا المجسم الغير بعيد من شخص القديس اونجينوس الجندي الذي طعن بهذه الحربة عينها جنب المسيح الاله مخلص العالم الجندي الذي بعد ذلك اعترف بلاهوته تعالى وبقوة اعجوبة النعمة قد اضحى فيما بعد شهيداً مجيداً بسفك دمه عن حقيقة الايمان المسيحي ✿

ثم حينما كان الصليبيون امام حصن اركاس قد جاءت اليهم قصاداً من قبل الملك اليكسيوس الرومي مظهرين لهم ان هذا الملك بكل حرارة ونية يريد الاتفاق مع اللاتينيين ويوعدهم وعداً اكيداً بان ياتي هو نفسه ليرافقهم الى اورشليم بعساكره ان كانوا يعطونه زماناً كافياً لتمام تجهيزها غير ان الامراء الصليبية الذين بعد حصارهم مدينة نيقيه وما حدث لهم من ملك القسطنطينيه هذا ما عادوا يعتبرونه بشي بل احتقروه وبغضوا تصرفه فقد قبلوا هولاء قصاده ببرود وجهٍ ولم يصدقوا مواعيده هذه لاجل ما اختبروا في ذواتهم تقلباته السابقة عن امثالها لاجل غيرته الغير المهذبة ولاجل محبته الفخفخة والمجد الباطل ✿

فبعد ان سافرت من هناك هولاء القصاد بدون ثمرةٍ من رسائلهم قد جاء الى المعسكر غب ايامٍ ليست بكثيرة قصاداً اخر من قبل خليفة المتولي في مصر الذي كان منذ مدة اشهرٍ قبلاً استولى على مدينة اورشليم ممن كانوا مالكينها من الاسلام على ان هذا الوالي لخوفه من فقدان المدينة المذكورة من يده قد ارسل الى الامراء الصليبية معتمدين من قبله ومعهم هدايا وتقدمات متخرة كلية الثمن معتذراً لديهم عما صنعه ومريداً

الصلح معهم فهولاء القصاد بعد ان اوردوا للامراء على اسم مرسلهم الخليفة التقريرات الودية وحقيقة ارادته ان يوطد الصلح التام فيما بينه وبينهم قد اختتموا كلامهم اعلانا باسم الخليفة بان مدينة اورشليم لا تفتح ابوابها الا للمسيحيين الذين يدخلونها بدون اسلحة اما الامراء الصليبية فغب ان سمعوا من هولاء القصاد خطابهم قد رذلوه محتقرين هذه الشروط التى كانوا ارذلوها من حينما وجدوا امام اسوار انطاكيه ثم تهددوا القصاد بانهم مزمعون ان يمشوا بعساكرهم ضد الخليفة حتى يبلغوا الى شط نهر النيل ☆

اما العساكر المسيحية فبمقدار ما طال عليهم حصار مدينة اركاس فبمقدار ذلك قلّ صبرهم واحتمالهم من شدة غمهم على ابتعادهم لحد ذاك الوقت عن المشي نحو اسوار اورشليم فمن ثم الامراء فى اواخر شهر ايار جمعوا اناسهم المفرقين واستمكنوا من اللوازم واخذوا بالمسير الى جهة بلاد فلسطين فامير مدينة طرابلس الشام صادمهم بعساكره ولكنهم حاربوه برجولية فكسروه وابادوا قوة عساكره الاسلام وداوموا مسيرهم غالبين وغير مفتكرين فى محاربة بلدان اخر بل قصدوا تتويج انتصاراتهم بامتلاك اورشليم غاية اسفارهم هذه ☆

فالمورخون المعاصرون قد كتبوا باسهاب اخبار مسير هذه الجيوش فى اراضى فينيكيا مصورين اجتيازهم هذا بالوان حية دالة على فرح الجميع به ودلايل ابتهاجهم ووفور انذهالهم من جودة تلك الاراضى الكاينة فيما بين البحر وبين سلسلة جبل لبنان الشايع الصيت بكلام الانبيا عنه وملاحظتهم خصب الامكنة وبهاء رونقها وكثرة اشجارها واثمارها التى صادفوا منها انواعاً ليست فى المغرب وقتيذٍ لاسيما قصب السكر الذي شاهدوا كثرته فى جهة طرابلس خاصةً لانه لم يكن اذ ذاك معروفاً

فى اوروبا ولا الكيفية التى بها الشرقيون بحداقة اخترعوا اخراج
السكر من مياه هذا القصب غب عصيره وفيها بعد اخذوا من
بزره وزرعوه فى ايطاليا وفى جزيرة سيشيليا كما ان الشعرا قد
قرظوا بقصايدهم المعتبرة كيفية سفر هولاء الجيوش في تلك الجهات
عبرات قلبية. وافراح عمومية كانهم منطلقون الى عرس بهج
خلواً من مانع عن عزايمهم التقوية نحوه ❋

غير ان الافراح التى قلوب الصليبيين كانت موعبة منها
بتقدمهم الى غاية سفرهم كانت تتكدر من قبل افكارهم فى
ذواتهم بذنه ترى ماذا احاق باوايك الجيوش العظيمة العدد الذين
حملوا الصلبان واثقين بانهم يشاهدون جماهيرهم كلها ضمن تلك
المدينة المقدسة اواه ان ما ينيف عن مايتى الف منهم قد
كانت حصدت بمنجل الموت وذلك من قبل المعركات الشديدة
التى حاربتهم بها الاعدا ومن قبل الامراض المختلفة التى
اعترتهم ثم من قبل الجوع والعطش وبقية الشدايد التى المت
بهم كما ان كثرةً منهم لسبب قلة شجاعتهم او لنقص صبرهم
وضعف رجايهم فى انهم ينالون بغيتهم بالبلوغ الى مقر اشواقهم
قد اهملوا المعسكر وعادوا الى اوطانهم وغير هولاء قد اختاروا لذواتهم
التمكن فى بلاد اخر من الاسيا وعددهم ليس بقليل نظير الذين
سكنوا مدينة الرها وما يحوطها والذين استقروا فى مدينة
انطاكيه وفي البلاد الاخر التى امتلكوها . وبالتالى الباقيين من
جيوش الصليبيين كلهم المزمعين عما قليل ان ينصبوا سنجق
الانتصار فوق اسوار اورشليم لم يكونوا وقتيذ اكثر من خمسين
الف مقاتل فقط . الا ان هذا الجمهور الجزي كانت اشخاصه
نظير المنتخبين كالذهب في الكور المتشددين بعد ان اختبروا
فى نيران المحن والبلايا وخرجوا منها سالمين اصحا جبابرة بعد

ان طحنوا سيوف المعاندين وبطشوا بجبابرة الاسلام بشجاعة غير مغلوبة وحينيذٍ الاتحاد الاوفر كمالاً كان متملكاً فيما بينهم وقد كانت حرارة جهادهم فافت على الموانع كلها لا الحربية فقط بل الطبيعية ايضاً بنوع ان خطواتهم السريعة في طريق اورشليم ما عادت تعرف توقياً او مصادمةً مهما كانت عسرة في ذاتها او في ظروفها لانه تري ماذا كان يهمهم التزامهم بان يسلكوا في طرق ضيقة وفي جبال عالية وفي وديان عميقة في حراش مخطرة في انهر قوية وامثال ذلك اورشليم عزيزة على قلوبهم اورشليم اضحت قريبة منهم فاذاً كل شي صار عندهم سهلاً لانه اذا غاب عن منظرهم سهل يوصلهم الى جبلٍ فافكارهم كانت تريهم ان اورشليم وراه واذا السحاب حجبت عنهم السما فاوهامهم كانت تتعالى بالمناظر كانهم يشاهدون بيارقهم متموجة في ابراج المدينة المقدسة فمن وماذا كان يمكنه ان يصد عواطفهم التقوية وتغزلات اشواقهم الديانية والحال انهم ما كانوا يرتضون بان يعطوا ذواتهم راحةً في دوام المسير فالنهار ما كان يكفي لسرعة مشيهم بل كانوا في الليل ايضاً يتسابقون ولين كانت اوامر القواد تمنعهم عن ذلك لان ابتغاهم ان ينظروا قبر المخلص بانتقص وقت لم يكن يعرف موانعاً او اتعاباً او مشقاتاً بتةً فهذه حالهم واستعدادهم وهواجس قلوبهم عند مسيرهم من طرابلوس الشام نحو بلاد فلسطين ☆

فقد كانوا يمشون على شط البحر وكانت المراكب البيزاوية والجانوية انتهم بذخاير ورجال وافرة كما ان الرهبان والحبسا كانوا يخرجون من مناسكهم التي في الجبال القريبة وياتون اليهم ببهجة مسلمين عليهم ومقدمين لهم من الماكولات والمشروبات قدر استطاعتهم واحياناً كانوا يدلونهم علي الطرقات في تيههم

عنها مرافقينهم الى المسالك الحقيقية وهكذا هولاء الجيوش بعد اجتيازهم المتعب صعوداً ونزولاً في طرقات عسرة ومخطرة قد اجتازوا سهل مدينة بيروت ومنها الى مقاطعة صور وصيدا *

ثم ان امتحاناً اخر كان منتظراً جنود المسيح هولاء عند النهر المدعو الوكطيرا لانه هناك في ذلك السهل وثبت عليهم حيات كثيرة العدد تسمى تارنيطا التي لسعتها تسبب الموت بالم شديدة ثم في السهل المذكور احاق بهم عطش مذيب وعظم الحر كان فايق الاحتمال حتى صير حرابهم كأنها محماة في اتون النار ولكنهم انتصروا على هذه الصعوبات كلها وهكذا وصلوا الى امام مدينة عكة المدعوة بطولوماوس فالامير الذي كان حاكماً في هذه المدينة من قبل الخليفة والي مصر قال لقواد الجيوش الصليبية انهم لا يحتاجون الى محاربته لانه مستعد ان يسلم المدينة لولايتهم حالما هم يملكوا اورشليم غير ان كلامه هذا كان غشاً وخداعاً قاصداً به ان يبعدهم عن حدود حكومته خوفاً منهم فالعساكر بمسيرهم من سهل عكة واجتيازهم فيما بين البحر وبين جبل الكرمل قد حلوا مساءً بالقرب من مدينة قيسارية فيلبس فهناك طير حمام ماخوذ صيداً من احد الطيور الكواسر قد سقط في معسكرهم ميتاً فاسقف ابت اذ رفعه من الارض وجد تحت جلده مربوطاً مكتوباً مرسلاً من امير عكة الى امير قيسارية به يخبره بمرور العساكر المسيحية من عليه واقبالهم نحو قيسارية ويحرضه بحرارة على ان ينبه روسا البلدان القريبة منه وكلهم يحاربون هولاء الاعدا العموميين فهذا المكتوب تلي على سماع العساكر الذين عوضاً عن الخوف امتلاوا فرحاً وبدي احدهم يقول للاخر اهل اننا الان نرتاب في ان الله يحمي جماعتنا واعمالنا بعد انه اسقط علينا الطير من الفضا لكي يكشف لنا اسرار الغير المومنين

فاذاً بعد ان استوعبوا ثقةً مضاعفة داوموا مسيرهم ولكنهم ابتعدوا عن شط البحر وتركوا من عن يمينهم مدن انتيباتريدا وجابّه وساروا نحو الشرق صاعدين الى جبل افرام وامتلكوا مدينة لدّ التي في القديم كان اسمها ديوسبوليس ثم مدينة الرامه الشهيرة التي مكان مولد النبي صاموئيل *

فقد كان باقياً فيما بين معسكر الصليبية وبين اسوار اورشليم ستة عشر ميلاً فقط فقلة صبرهم كانت تزداد لكي يبلغوا قبل ساعةٍ الى الارض التي فيها صارت عجايب الافتدا واما القواد فاذ لم يكونوا يعتبرون مرمرة الشعب الواطي بشي فكانوا يسيرون بهم مغتاظين من كثرة كلامهم فلما بلغت الجيوش الى مدينة عمواس القديمة (التي الان اضحت قريةً) وتسمى نيكوبوليس ايضاً فهناك اتى الى القواد البعض من اهل بيت لحم يستمدون غوثهم ومعونتهم فاذ تحركت في القايد الشجاع تنكريد غيرة الاشفاق عليهم اخذ معه ثلث مائة محارب وانطلق في الليل نفسه نحو بيت لحم التي في وصوله اليها قد امتلكها مبتهجاً بانه فاز بالمدينة التي هي سريرٌ لابن الله المولود فيها بالجسد وقد نصب هو فوق اسوارها سنجق الصليب في ساعة نصف الليل الساعة فيها مخلص العالم ولد هناك لاجل فداء الجنس البشري *

فهذه الليلة لزم ان تكون اخر اسفار الصليبيين المستطيلة جداً لانهم في اليوم الثاني الذي هو العاشر من شهر حزيران سنة ١٠٩٩ عند اشراق الشمس قد جاز معسكرهم الى التلال العالية وراء مدينة عمواس وحينيذٍ جميعاً شاهدوا المدينة المقدسة عن بعدٍ وكلهم صرخوا يا اورشليم يا اورشليم اواه هوذا مدينة الله وهؤلاء الخمسون الفاً جميعاً هتفوا „ الله يريد هذا „ الله يريد هذا " بنوع ان اصواتهم قد رنت الى حد جبل صهيون ورعدت

الى فوق جبل الزيتون ففى تلك الساعة امتلأوا كلهم مسرات وتعزيات روحية لا يمكن وصفها فالمتقدمون نظروا المدينة والمتاخرون توائبوا بازدحام الى ان شاهدوها باندهال وعبادة ثم ان الخيالة بروح التقوي نزلوا عن خيولهم الى الارض ماشيين باقدام حافية وساير الاجواق ركعوا جاثيين فوق الحضيض فالبعض رفعوا اعينهم نحو السما عند ملاحظتهم هذه المدينة التى بكى عليها المسيح وهم اذرفوا الدموع السخينة تيرات وغيرهم طفقوا يقبلون الارض التى اجتازها وقتاً ما مخلص العالم واخرون شرعوا يسبحون الله ويشكرونه على انهم بعنايته دنوا من حد مسيرهم وغيرهم اخذوا يندبون خطاياهم نايبدين عنها واخرون شرعوا يبكون على حال اورشليم وما تكبدوه المسيحيون قبلاً فيها وكلهم وقتيذٍ جددوا الحلف على الجهاد فى انتقاذها من ايدي اعدا الايمان المسيحى ☆

فالمورخون اجمعون يتفقون على شرح ما اظهره الصليبيون فى ذاك اليوم من الفرح والتهليل وروح الديانة وهذه هى الفاظ احدهم روبارتوس الراهب بقوله اواه يا يسوع الصالح ان جماهير عبيدك الصليبيين عندما شاهدوا ارضك واسوار هذه المدينة اورشليم الارضية فكم من الدموع الحارة انسكبت من اعينهم بغزارةٍ فهم حالاً امتلأوا مسرات وخشوعاً وانحنوا الى الارض راكعين وحيوا بالسلام والاحترام عن بعد قبرك المقدس الذي مكثت فيه ثلاثة ايام ثم سجدوا لك انت الجالس الان من عن يمين الله ابيك ويلزم ان تاتى يوماً ما لتدين الاحيا والاموات وامرٌ واضحٌ هو انك حينيذٍ نزعت منهم القلوب الصخرية واعطيتهم قلوباً لحمية ☆

ثم يقول البرتوس الاكسى انه حينما المومنون الصليبيين سمعوا

ذكر اسم مدينة اورشليم امامهم فدموع الفرح والتهليل انحدرت
من عيونهم اجمعين على ان هولاء لما بلغوا الى محل هكذا مقدس
ومبتغى من شهوة قلوبهم ومن اجله هم كانوا يتكبدوا من
المشقات امرها ومن الاتعاب اشدها ومن الخساير اعظمها ومن
البلايا اثقلها ومن المحاربات اقواها ومن سفك الدما اغزرها
ولكنهم عند نظرهم اورشليم قد نسيوا تلك الاشياء كلها واسرعوا
باقدام البهجة نحو هذه المدينة المقدسة فحينيذٍ جموعهم التيمت
معاً مولفين مع تابعيهم ستين الفاً من الناس وكلهم مشيوا معاً
باسراعٍ مرتلين المزامير والتسابيح الى حينما بلغوا اجمعين الى
تحت اسوار المدينة المقدسة ☆

الفصل الثامن

☆ فى حصار مدينة اورشليم من الجيوش الصليبية وامتلاكها ☆

فمدينة اورشليم حينما الصليبيون بلغوا اليها لم تكن باقية
كما وجدت وقتاً ما بصفتها الاولى العجيبة الجميلة الاوفر مجداً
واشراقاً وشهرةً وكرامةً من ساير مدن المشرق بل كانت فاقدة
قوتها وسطوتها وامتداد ولايتها كثيراً جداً وجبل صهيون لم يكن
مرتفعاً في وسطها بل اضحت هي سيدة على اربعة تلال ففى
ناحيتها الشرقية كان يوجد الموريا او جامع الامام عمر مشيد
فى مكان هيكل سليمان وفى جهتيها القبلية والغربية كان الاركا
وفى واجهتها الشمالية البازاتاه او المدينة الجديدة وفيما بين الشرق
والشمال كاين جبل الجلجلة وفوقه هى مشيدة كنيسة القيامة
ولكن كانت وقتيذٍ اورشليم ساقطة من مجدها فمع ذلك لم
توجد خالية من بواقى عظمتها الماضية والاسلام كانوا يعتبرونها جداً
بتفضيلٍ على ما سواها ومن حيث انها فى زمان ولاية هولاء

السراكسة قد تحاربت هى مرات مختلفة فهم قد حصونها بكل عناية مشددين قوة اسوارها وكانت منذ مدة بعض اشهر وقعت هى تحت ولاية الخليفة حاكم مصر وقد وجدت هى وقتيذٍ مجهزة بكل نوع من الذخاير الوافرة وحاصلة باهتمام وآليها الجديد على تحصينات منيعة تباشرت منه غب امتلاكه اياها ❊

فاذاً لم يكن اخذها ساهلاً على الصليبيين كما كانوا يظنون متهاونين بها ومتوجهين انها خلواً من قوةٍ شديدة راغبين بامتلاكها ان يتوجوا اعمالهم المتقدمة لاسيما لان الوالى الموجود فيها من قبل الخليفة المسمى افتخار الدولة قد كان منذ استماعه بسفر الصليبيين نحو هذه المدينة قد زادها تمكيناً باهتمام كلى قاصداً حمايتها القائمة من جهاتها كلها والعساكر الاسلام الذين ضمنها كانوا اربعين الفاً ما عدا عشرين الفاً اخر من السكان كانوا حاضرين لمساعدتهم متسلحين نظيرهم وكان هذا الوالى الشرس قبل قدوم الصليبيين خرب الحقول التى حول المدينة وصير الاراضى المقدسة بدما مخلصنا ذات منظر محزن داثرة مضمحلة خالية من كل افادة للمسيحيين الذين كانوا مؤملين ان يجدوا فيها راحتهم بعد المشقات التى تكبدوها لحد ذلك الوقت لا بل انه ردم الابيار والجباب ايضاً التى فى بر المدينة لانقطاع الماء عنهم من النصارى ❊

ولكن الحادث الاول الذي كان مبشراً بانتصارٍ ثانى قد صنعته شجاعة تنكريد الفريدة على ان هذا البطل بعد ان كان ملك بندر بيت لحم ورجع منها نحو العسكر منتصراً قد صادف فى طريقه جوقاً من عساكر الاسلام كانوا خرجوا من اورشليم ليتجسوا اعمال الصليبيين فهجم عليهم كالاسد مع جماعته وقد اسرع الى معونته بودوين ده بورغ فكسروهم واذ هربوا مدبرين

قد حصلوهم الى حد باب المدينة ومن حيث انهم بهذا الهرب ابتعدوا عن ارفاقهم فالصليبيون ادركوا الطريق متقدمين فيه نحو جبل الزيتون فالجيوش المسيحية كانت وقتيذٍ على جبل عمواس فلاحظوا عن بعدٍ تقدم تنكريد والذين معه وحالاً ساروا ركداً بالنزول في طريق المدينة فالجنود كانت تصرخ والرجال تجري نحو المعركة والنسا ترلغط والكهنة يستدعون العون الالهى وهكذا الاصوات كانت ترند فى كل الجهات مع ازدحام الكثرة ومصادمة الاسلحة بعضها ببعض وصهيل الخيل اما تنكريد فان رفع نظره وشاهد جبل الجلجلة وكنيسة القبر المقدس قد تنهد والحنى الى الارض باحترامٍ ونذر نذراً حاراً بان يذهب حالاً الى هذا الجبل المقدس ويقبل الارض التى وطاها برجليه مخلص العالم فواحد من السواح من طايفة النورمانديين قد اتى الى ملاقاته عند جبل الزيتون واقتبله بكا وقار ثم اشار اليه باصبعه عن الامكنة المقدسة التى فى جهات المدينة ولكن عواطف عبادته من تلك المشاهدة قد اضطربت من قبل خمسة اشخاص من عسكر الاسلام هجموا عليه فهو رجع ضدهم كشبل الاسد وقتل منهم ثلاثة وهزم الاثنين الى المدينة وبعد هذا النجاح الذى هو فاز بهِ قد وصلت الجيوش كلهم الاتون ركداً خلواً من ترتيب مقادين بمجد غيرتهم وشغف قلوبهم بانحدارهم من جبل عمواس مرتلين هذه الكلمات المقولة من النبى اشعيا وهى: ارفعى يا اورشليم الحاظك لان هوذا مخلصك الذي اتى ليكسر قيودك وينقذك من اسرك ✿

فاذاً الجيوش الصليبية ثانى يوم بلوغهم امام اسوار اورشليم باشروا حصارها فالدوكا ده نورمانديا والكونته ده فلاندرا وتنكريد قد وطدوا معسكرهم فى شمالى المدينة من حد باب هيرودس

الى حد باب القديس اسطفانوس او المسمى الجيدار وغودافروا واسطاكيوس وبودوين ده بورغ قد رتبوا مضاربهم حول جبل الجلجلة فيما بين باب دمشق وبين باب يافا ثم ان الكونته ده طولوزا مع ريمبود ده اورانج وغوليلموم ده مونت بيلير وغاسطون ده بيران قد انزلوا خيامهم وجماعتهم من جهة يمين غودافروا فيما بين قبلي المدينة ومغربها ومدوا مضاربهم على جبل صهيون المكان الذي فيه كانت العلية او الغرفة التي فيها مخلصنا اكل الفصح مع تلاميذه راسماً سر الافخرستيا المقدس واما باقي الاشراف مع جماعاتهم فنزلوا في جهات اخر مختلفة وقد تركوا جهة المدينة المصاقبة القبلي لانها محماه بوادي سلوان كما اهملوا جهتها الشرقية الممنوعة بوادي يوشافاط *

فالحرارة والغيرة وروح العبادة لم تفتر اصلاً في الجيوش الصليبية مدة الايام الاولى التي فيها رتبوا واجبات الحصار وتمكينهم في دايرة المدينة التي مشاهدتها باعينهم كانت تضرم قلوبهم احتراماً نحوها لا بل كانت عبادتهم وحرارة ديانتهم تنموا متزايدة على ممر الاوقات بملاحظاتهم واكتشافهم على الامكنة التي فيها تمارست اسرار الفدا البشري واعمال خلاص العالم وتأسيس الايمان المسيحي وكانت تاملاتهم بنوع خاص تتجه نحو مدينة اورشليم عينها اواه ان هذه المدينة المقدسة التي وقتاً ما كانت مزهرة جليلة جميلة فقد شوهدت وقتيذٍ كانها مدفونة تحت رديمها فبيوتها مربعة خلواً من شبابيك وسقوفها اسطحة متساوية وهم كانوا يشاهدونها شبيهة بحقلٍ يحوا ضمنه كثرةً من القبور او نظير مجموع عظيم من الحجارة ملقى داخل سلسلة من الصخور ثم كان موجوداً داخل بعض احراش عددٌ من اشجار السرو وغيرها او ماذنة في حارة الاسلام ثم ان الحقول والمزارع والاراضي التي بالمقرب

من المدينة المشهور خصبها القديم لم تكن وقتيئذٍ سوي اراضى مقحلة عقيمة ما عدا بعض امكنة حاوية اشجار زيتون مختنفة فيها بين الشوك والقرطب وكذلك الجبال المحيطة قد كانت محروقة بحرارة الشمس محزنة المنظر وبالاجمال ان الموضوعات كلها عن المدينة وما يليها كانت مشهداً كأيباً محققاً البلايا والخراب التى كانت الانبيا تنبئوا وانذروا بحدوثها غير ان العساكر الصليبية شرعوا فى ذواتهم يعزون اورشليم بان زمان سبيها قد انتهى وايام الانتقام ازمعت الانجاز وقد قرب من هذه المدينة صدق النبوات الاخر المقولة عن تعميرها بعد دثارها وعن تجديدها غب انهدامها واثقين ببداية ازهارها ورجوع رونقها القديم ✿

ثم ان الاسلام داخل المدينة قد سلبوا من النصاري خيراتهم وطردوهم خارجاً اناساً بعد اناسٍ ولذلك الصليبيون كانوا يومياً يصادفون هولاء المساكين اتين اليهم ليجدوا لذواتهم فيما بينهم ملجاً وقوتاً واذ كانوا يخبرون عن المظالم التى تكبدونها من الاسلام وعن المعاملات البربرية الوحشية التى عوملوا بها منهم وكانت الدموع تذرف من عيونهم عند هذه الايرادات المحزنة المقترنة مع توسلاتهم نحو الصليبيين بان يرحموهم ويعينوهم فالجيوش المسيحية كانوا يشعرون بشدة الاشتاق عليهم ويرثون لاحوالهم ثم ان واحداً من السواح الذى كان ناسكاً فوق جبل الزيتون قد نزل الى معسكر المسيحيين وتوسل اليهم باسم يسوع المسيح فى انهم يجتهدون جميعاً باتفاقٍ على صنيع هجمة واحدة عمومية ضد المدينة فالجيوش من كلامه وتحريضه وتوسله استوعبوا حرارةً وصمموا العزم على هدم الاسوار التى كانت لاورشليم القديمة فاصلةً بينها وبين اورشليم الجديدة واثقين بمواعد هذا السايح فى ان الله يعينهم فاذاً حينما القواد رفعوا اشاير الحرب فالعساكر

هربوا على جهات المدينة بشجاعة ورجاء حي موقنين خلواً
من ريب في انهم يفوزون باحد هذين الامرين اي اما ان
جسارتهم وسيوفهم تهدم من اسوار المدينة المحاميين عنها واما
ان الله يصنع معهم ما صنعه وقتاً ما مع الشعب الاسرائيلي
باهدام اسوار اريحا من ذاتها مكردساً اسوار اورشليم كذلك
فهذه المحاربة الاولى قد كانت شديدة جسورة قد طالت على
ان العساكر حموا ذواتهم بالاتراس والخوذ والذرق والرماح وهجموا
على الاسوار الاولى قاصدين هدمها بالمعاول والقداديم والاكحال
وفي الوقت الذي فيه عددٌ وافر من الجنود وقفوا من ورايهم
ممتدين صفوفاً يرشقون بنبالهم التقوية الاسلام الذين فوق الاسوار
ليمنعوهم عن العساكر التي عند السور القديم فالاسلام من دون
فايدة لهم شرعوا يقذفون فوق هولاء المارسين هدم السور اخشاباً
متقدة بالنار زيوتاً مغلية كبايس مشعولة صخوراً كبيرة لكن
المسيحيين الشجعان لم يبالوا من هذه كلها ولم ينفكوا عن
السور الاول الى ان هدموه ودخلوا منه الى السور الثاني غير ان
قوتهم ضعفت وعنايتهم كلت عن دثار كل من هذه الاسوار
القوية فمن ثم اعتمدوا على حذف السلالم فوق السور والصعود
من عليها فقد كانت عندهم من هذه السلالم الجلد والحبال
الطويلة كمية فرشقوها على شرافات السور وبشجاعة غريبة تعلقوا
بها صاعدين عليها فبلغوا الى اعلى السور وهناك اشتدت المعركة
فيها بينهم وبين الاسلام جسماً بجسم ولقد كان الصليبيون فازوا
بنصرة تامة نهائية في هذا اليوم عينه لو كانت الات الحرب
الاخر من المنجانيقات والكبوش وغيرها تساعد الذين صعدوا
فوق السور ولكن هذه الشجاعة العجيبة اضحت خالية من
نماء النصر ومن حيث ان الابطال الذين عاركوا اعداهم فوق

السور ما استطاعوا الثبات امام كثرة الاعدا فهم التزموا بالنزول راجعين ومعهم البقية الى المعسكر نادبين قلة فطنتهم فيما عملوه وزيادة اعتقادهم الخارج عن الصواب فيما مارسوه ❊

فمن حيث انهم تعلموا من هذا الحادث ما ينبغي صنيعه بطريقة الحرب قد افتكروا قبل كل شي فى ان يهيئوا لانفسهم الات حربية لازمة لحصار مثل هذا كونهم وجدوا خالين منها ولكن ترى في هذه البرارى المقفره وبين صخورها اليابسة اين كانوا يجدون الاخشاب الضرورية لعمل هذه الالات على انهم في تفتيشهم الحقول والجبال القريبة بالكاد انهم وجدوا بعض اخشاب ضعيفة غير ملايمة لذلك فمن ثم التزموا بان يهدموا البيوت الخارجة فى القرى والمزارع القريبة التى كان والى القدس قبلاً نهبها وتركها فارغة فهم نقضوا عمارتها وسحبوا اخشابها وباشروا بها اعمال الالات ولكن هذه الاستعدادات المستلزمة طولة الزمان لم تكن محتملة من قلة صبر العساكر فلم تكن هذه المهمات نجزت واذا بمصيبة ردية مهيلة قد حلت بالعسكر وضامتهم جداً بتكبيدهم اياها بمرارة غب احتمالهم ما كان اصابهم من الضنا قبلاً وكانوا يوملون فى اورشليم راحتهم (فالمورخون ليس باقل من الشعرا قد صوروا حال هذه المصيبة الجديدة بالوان حية) ❊

على ان وجود الصليبيين امام اسوار اورشليم كان فى الايام الاشد حرارةً لفصل الصيف فالشمس فى تلك الاراضى كانت اشعتها كلهيب النار والهوا القبلى العنيف الحار يعصف معه الارمال والاغبار المحماة كانها فى اتون ويحدفها على المعسكر والنباتات يبست والحيوانات بادت تحت سما كانه من نحاس خالٍ من كل رطوبة بل تحت فضى ملتهب فيما بين حقول يابسة متقدة بشدة الحرارة فالانهر الشتوية جافة مطلقاً وغيرها انهر

جارية لا توجد فى تلك الاراضى والجباب مع الابيار اما انها مردومة او مسمومة لا يمكن الشرب منها فالجيوش الصليبية وجدت حينيذٍ لغوبة من العطش المزيب خائبة من الحصول على ما تبرد بهِ غليل ظماها القتال وعين سلوان التى مجراها قليل جداً فى ذاك الفصل ولم تكن تعطى الماء دايماً بل اياماً دون ايامٍ فهذه معونتها لهم كانت ضعيفة جداً حتى انه بعض الاحيان هذه المعونة كانت تصير لهم علة الضرر (فيقول المورخ رايموند دة اجيلاس) ان نبع عين سلوان حينما كان بعد توقفه يجري في حينه كان المسيحيون يلقون ذواتهم باندفاعٍ وازدحامٍ كلى على المياه النابعة ويشربون مع مواشيهم بغير وعى فيتفق احياناً لكثيرين ان يموتوا حالاً مع المواشي واجسادهم تسقط فى بحرة العين مع اجساد الحيوانات ومن ذلك تتسبب امراض ردية للاحيا ثم من العطش كثيرون لم يكونوا يقدروا ان يتكلموا او يرفعوا صوتهم لان السنتهم يابسة فى حلوقهم فقط حينما يمر احد عليهم بقليل من الماء فهم كانوا يفتحون افواههم واما الحيوانات من الخيل والبغال والبقر وباقى المواشى فى العسكر فلم تكن تقدر تسير بعض خطوات من شدة العطش وكانت تسقط على الارض مايتة فى مواضعها الواقفة هى فيها زماناً طويلاً ❊

(ويضيف الى ذلك روبرتوس الراهب بقوله) ففى تلك الحال من الضر الخارج عن الحدود . عساكرنا المساكين كانوا فى شدة الحر ولغب عطشهم المذيب يحفرون الارض بروس سيوفهم ويضعون افواههم فى الحفير لكى يرطبوا السنتهم قليلاً بذاك النداء الذى في زمان الليل ينحدر على اليابسة ثم ان الجنود الاشد قوةً فيما بين العساكر كانوا يوجدون فى مضاربهم مطروحين عديمى الحركة وبالكاد يجمعون قواهم الى التوسل لاله اسراييل بان يصنع معهم

والمعدة من عجايبه كما كان صنع لشعب اسرائيل باخراج الماء من الصخرة في البرية ثم ان النساء والاولاد كانوا يطوفون الحقول والكروم لعلهم يتجدون ما به يرطبون حرارة ظماهم او فيا يلتجون في ظله من حرارة الشمس فلم يجدوا ذلك وقد كان يباع زق الماء الردي المفسود الذي كانوا ياتون به من مسافة تسعة اميال بقطعتين كبيرتين من الفضة ومرات كثيرة كان يحدث الخصام الشديد فيما بينهم على قليل من الماء فالى هذا الحد اوصلتهم مصيبة اليبس والحر والعطش بنوع فايق الاحتمال حتى كان يبان لهم انه لم يحدث في كون العالم قط مثلها (كما يقول الانبا غويبارتوس) انه لم يكن حدث اصلاً لاحد ان يحتمل مصيبة مثل هذه ولا لاجل اكتساب خيرات الارض كلها (وقال راون ده كاآن) ان هذه الحالة كانت مشهدا يرثى له بحزن في الغاية وهو ان يسمع من افواه الصليبيين كلام ذو تكره كلي من الحيوة واشتها الموت برغبة وكثيرون منهم كانوا يعتنقون حجارة اسوار المدينة وكانهم يخاطبونها قايلين اننا فانفلك قبل ان نموت هذه هي اورشليم التي تمنينا باشتياق كلي ان نشاهدها ❊

ففي تلك الظروف المحزنة قد استحوذت قلة الشجاعة على كثيرين من العساكر وقد كان تذكرهم اوطانهم يزيد شدايدهم اوجاعاً واشخاص ليس بقليلين اذ قطعوا رجاهم من المواعيد السماوية قد اهملوا المعسكر هاربين من دون ان احداً يطردهم وذهبوا الى مين سوريا لكي يسافروا بحراً نحو اوطانهم ❊

فاذاً قد كان يظهر ان المعسكر الصليبي قد دنر حينما بغتةً جاء ما قد انعش رجاهم وشدد شجاعتهم وهو انه تورد اليهم الخبر بان مراكب عديدة جيناوية قد بلغت المينا المسماة جوبة

موسوقة ذخاير من كلي وجزئي فالقواد ارسلوا جوقاً من العساكر لملاقات هولاء الاتين فلما وصلوا اليهم شاهدوا ان مراكب الاسلام داهمت تلك المراكب وحرقتها غير ان الحريق حدث بعد اخراج كل ما كان فيها ومن ثم نقلوا تلك الذخاير مع الآلات الحرب التي كان برفقتها كثيرون من المعلمين في هندسة الحرب وجميعاً جاؤوا الى المعسكر امام اسوار اورشليم *

ثم بعد ذلك بايام قلايل واحداً من اهالي سوريا قد دلّ الصليبيين على حرش بعيد من اورشليم مسافة ثلاثين ميلاً في جبل كاين ما بين وادي شكيم ووادي السامريا او السامرة فانطلق منهم عدد كلي الى هناك وقطعوا اشجار الحرش وحملوها على عرابانات وجروها بواسطة البقر واتوا بها بهيبونة الى المعسكر الصليبي *

فاذ قد فازوا علي هذه الصورة بالمواد الضرورية للحرب قد انتعش فيهم الرجا والشجاعة وتجددت عزايمهم وحينيذٍ مارسوا واجبات الحصار بجهادٍ قريب من التصديق وقد ركبوا الآلات قوية كبيرة شديدة الفاعلية قد اوعبت قلوب الاسلام الذين داخل المدينة رهبةً وافرة والابلغ من ذلك هو انهم شيدوا من الاشجار التي اتوا بها من الحرش ثلثة ابراج كبيرة جداً عالية ثلث طبقات بصنعة هندسة جديدة حتى صارت اعلى من اسوار اورشليم وقد ترتب من فوقها جسرٌ امين يمكن للعساكر ان تمر من فوقه الى السور عينه *

فهكذا الامل الذي حصل بتاكيد النصرة المزمعة وحرارة الديانة التي تجددت فيهم قد شددت قواهم على الاتعاب والجهاد والكهنة من كل جهة رفعوا اصواتهم بالوعظ على التوبة وعلى اتحاد القلوب بالشجاعة ووقتيذٍ انسايم الذي في جبل الزيتون

قد باشر ثانيةً تضرعاته والصراخ نحوهم بالوعد السماوي بمعونتهم لانه هتف نحوهم قايلاً يا ايها الذين اقبلتم من اقاليم المغرب الى هاهنا لكي تسجدوا لرب الجيوش حبوا بعضكم بعضاً بمنزلة اخوة وقدسوا ذواتكم بواسطة التوبة والندامة والاعمال الصالحة فان كنتم تطيعون شرايع الرب وهو تعالى يصيركم اولياء على هذه المدينة المقدسة بنصرةٍ جليلة واما ان كنتم تعصون شرايعه فغضبهُ باسره يحل عليكم ☆

فجميع الصليبيين بسهولةٍ قبلوا كلام هذا الناسك الفاضل واحنوا اعناقهم امام الرب اله الجيوش وكما صنع وقتاً ما شعب اسرائيل بدورانهِ حول مدينة اريحا كذلك المعسكر الصليبي شرع يدور حول مدينة اورشليم ويطلبون من الله الرحمة والغفران والمساعدة * فمشهدٌ سامٍ خشوعي تقوي قد كان امام اهل السما والارض حينيذٍ منظر المعسكر الصليبي فوق ذاك الحضيض عينه الذي عليهِ قبلاً شوهدت بدايع ايات ومعجزات عظيمة كثيرة جداً ذات ذكرٍ مخلد اذهلت الملايكة والبشر والجيوش المسيحية كلهم قد صاموا ثلثة ايام صوماً صارماً وهولاء الذين هم فضلة اي عشر جميع العساكر الغربية الفايقة الاحصا الذين انقرضوا بالحرب والبلايا المختلفة الانواع قد خرجوا بعد الثلاثة ايام من مضاربهم مدججين باسلحتهم لكنهم حقاً مكشوفين الروس واستداروا حول اسوار المدينة المقدسة فالكهنة متردون باثواب بيضاء حاملون بايديهم ايقونات القديسين سايرين امام الجيوش بتراتيل المزامير والتسابيح والنشايد والسناجق مرتفعة مرافقة من الطبول والدفوف والابواق فتري من يمكنه يصف حال الجنود الموعبين قلبياً من الرجا والشجاعة وروح العبادة عند اجتيازهم من على محلات قد كملت فيها اسرار هكذا عظيمة مقدسة فقد خرجوا من وادي

رفوايم الكاين مقابلة لجبل الجلجلة وتوجهوا الى ناحية شمالي المدينة ومن جهة وادي يوشافاط قد احنوا اعناقهم مسلمين على قبر والدة الاله الذي في الجسمانية وعلى قبر القديس اسطفانوس وعلى قبور مختاري الله الاولين واذ كانوا غير بعيدين من جبل الزيتون قد تاموا بعبادة ذاك المكان الذي فيه مخلصنا عرق دماً وقبلاً منه بكى على اورشليم ثم صعدوا الى قمة الجبل الذي منه مخلصنا صعد الى السما ملكوته الابدي وهناك صنع الكهنة مواعظهم للشعب الصليبي ووقتيذٍ ارنولد كاهن الدوكا ده نورمانديا تفوه بخطبةٍ جليلة قد حركت قلوب الجيوش كافةً الى العبادة وحرارة الغيرة والشجاعة معاً وغب تحريضه اياهم على المحبة والاتفاق فكلهم حلفوا على حقيقة تركهم وسماعهم عن جميع ما صدر في حقهم من الاهانات باى نوعٍ كانت وعلى انهم يحبون اخوتهم بالتبادل وهناك تانكريد وريموند تناسيا جميع ما كان حدث بينهما وعانق احدهما الآخر امام كل الحاضرين وكذلك الروسا والاشراف الاخر مع الجنود اتبعوا نموذجهما وكان كلٌ منهم يحرض الاخر على الجهاد المجيد بدون مبالاة من الاتعاب والاخطار لكي يكللوا اعمالهم بنهاية سعيدة وبمكافاة غنية *

فاما اشبع الصليبيون انفسهم من هذه المناظر البهجة اذ شاهدوا من فوق جبل الزيتون الاماكن المقدسة التي داخل اورشليم ونمت فيهم شدة العزايم على النصرة ضد اعداهم فوقتيذٍ الاسلام الذين في المدينة تقاطروا فوق اسوارها ووعبوا الفضاء من صراخاتهم وكلماتهم التجديفية ضد الصليب والديانة المسيحية فحينيذٍ بطرس السايح اذ لم يعد يمكنه ان يمسك حرارته عندٌ سماعه هذه التجاديف قد اتجه نحو الجيوش الصليبية وخاطبهم بالفاظ هكذا

فعالة نفذت فى البابهم حتى انهم اضطرموا باطناً بنيران غيرة آكلة وبها انحدروا حالاً من جبل الزيتون واجتازوا من ناحية قبر داود النبى ومن جهة بركة سيلوحا وعن بعد نظروا قصر يهوذا المهدوم وسروا قرب غياب الشمس الى مضاربهم وكلهم من روسا وجنود وتابعين اصرفوا تلك الليلة بالصلوات طالبين من الكهنة الحل عن زلاتهم معترفين بخطاياهم وقرب الصباح اقاتوا نفوسهم بالخبز السماوي متناولين القربان المقدس المانح الحيوة الغير البايتة ☆

ثم ان الروسا والقواد صنعوا جمعية المشورة لاجل تعيين يوم الحرب العام وكيفيته ولكن الاعدا داخل المدينة قد كانوا لاحظوا تدبير المدينة فاجتهدوا فى تحصين جهة المدينة التى منها كان عليهم الخطر اقوي ومن ثم القواد فى الجمعية المرقومة غيروا ترتيبهم الاول وفى مدة الليل بنفسه باتعاب وقوة غير مصدقة قد نقلوا البرج الخشبى المركب على دواليب مع ساير الالات والاعمال التى كان الدوكا ده لورين نصبها فى محلاتها نقلاً غريباً الى جهة شرقى المدينة عند باب سيدار ثم ان تانكريد ورويارتوس الاثنان بهذا الاسم قوموا نصب المجانيقات والاكباش والات الحرب الاخر ما بين باب دمشق والبرج المقرن الذى دعى فيما بعد برج تانكريد واخيراً نهار الخميس الذى هو الرابع عشر من شهر تموز سنة ١٠٩٩ عينها عند اشراق الشمس جميع الروسا نشروا فى المعسكر اشارات الحرب العمومى من كل جهات المدينة والصليبيون تناولوا حالاً اسلحتهم والالات المهيات اخذت بالعملية ومعاً فى وقت واحد الجميع حذفوا بالالات ومن الابراج الثلثة وبالمقاليع على الاعدا كانت رشقات الحجارة نظير البرد وحينيذ الجنود المحميين بالابراج والالات تقدموا

وبلغوا الى السور وبشجاعة غريبة خلواً من مبالاة باي ضرر كان حذفوا السلالم الى شرفات السور من الجهة التى لاحظوا بالصواب انها لا تحتمل ممانعة شديدة من الاعدا وهكذا فيما بين هتافات المحاربين وصراخات الاخرين ورنة الاسلحة وضرب النبال ورشق الحجار كانت الثلاثة الابراج الخشبية المركبة على دواليب تكر من ناحية الى اخري امام الاسوار مملوة من المقاتلين الشجعان متقدمة نحو حيطان المدينة ففوق البرج الاعلى منها كان موجوداً غودافروا واخوه اوستاكيوس وبودوين ده بورغ ومن اعلى هذا البرج كانوا يشجعون جماعتهم بالاصوات وبالارشادات ومن حيث انهم فوق هذا البرج قربوا من الاعدا المنظورين منهم جيداً على السور فنشابهم ما كانت تخل بل جميع نبالهم كانت صيابة قتالة للاسلام ثم ان رايموند وتنكريد والدوكا ده نورمانديا والكونته ده فلاندرا مع باقى الروسا كانوا فيما بين عساكرهم يحاربون كابطال جبابرة وجميعهم موهبون حرارةً وقوةً وشجاعةً غير مغلوبة ☆

فحرب هذا اليوم الغريب فى شدتها من الصليبيين لم تملكهم بغيتهم بتمام النصر على امتلاك المدينة لان المصادمة التى بها الاعدا من داخل فى كل جهة من الاسوار اظهروها كانت قوية جداً غير مغلوبة لان ما عدا المواد الملتهبة والكباير المشتعلة بالزيت والنشاب القوية وغير ذلك ما استعملته الاعدا قد كان عندهم اربعة عشر آلة حربية كلية الكهر والفعلية مركبة على الاسوار وبالاجمال ان الاسلام كانوا مستحضرين على جميع انواع آلات الحرب باشد قوة وابلغ فاعلية وكلها استعملت منهم فى اليوم المذكور بمصادمة غريبة ضد الصليبيين فاذاً دوام المعركة بشدتها كان مدة اثنتى عشرة ساعة بدون حصول النصر لفريق

ما من الفريقين ومن ثم ظلام الليل هو الذي كفّ المعركة والمسيحيون برجزٍ وصرير اسنانٍ رجعوا الى مضاربهم والقواد والروسا شملهم الحزن من قبيل ان الله ما وجدهم بعد مستاهلين ان يدخلوا مدينته المقدسة ويزوروا قبر ابنه الالهي ✿

ثم ان الصباح المقبل المنتظر من الجميع بقلة صبر قد دنى وانتشرت اشاير المعركة الجديدة المقتضى ان تكون مهيلة اشد ومخيفة ابلغ وقوية اكثر من اليوم الماضي غير ان الصليبيين غب ساعاتٍ حربية عظيمة قد استوعبوا غضباً من قوة مصادمة اعدايهم وشرعوا يحاربون برجزٍ وشراسةٍ وحشية ولكن الاسلام ايضاً المطمانون بقدوم عساكر جديدة لمعونتهم من مصر وكانت قريبة من اسوار المدينة فقد دافعوا عن انفسهم بشجاعةٍ غريبة بدون ان يوفروا عن ذواتهم شياً من التعب والجهاد وبنوع اخص وجهوا قوتهم ضد البرج الكاين فيه غودافروا وفوقه منصوب صليب من ذهب مسبب في قلوب الاعدا شدة المحاربة ضده ثم ان الدوكا ده لورين الذي شوهد حامل سلاحه واقعاً بين رجليه ميتاً وعدداً وافراً من جماعته قتلوا فلم تقل شجاعته بذلك بل لبث فوق كومةٍ من القتلى والمجرحين يصادم قوة اسلحة الاسلام بنوع غير مصدق من الرجولية ورايموند من ناحية المدينة القبلية قد كان مع جماعته يباشرون اعمالهم الحربية بالالات الجافية القوية بصورة عديمة الوصف من الجهاد في الوقت نفسه الذى فيه كان تنكريد وروبارتوس الاثنان فوق الابراج الخشبية من جهة شمال المدينة يحاربون مع ناسهم اعداهم محاربة فطحلية وجهاً بازاء وجهٍ وجسماً بجسمٍ بوسطة الحراب والارماح والسيوف ✿

فبحسب تقرير احد المورخين انه حينما كان الجهتان يوازنان القوة وكلٌ منهما يحارب بشجاعةٍ فريدة فالنصرة استبانت

وقتيئذٍ لجهة الاسلام المتحالفين على ابادة النصاري مساعدين
من العناصر ومن قوات الجحيم ولكن هولاء لم يكونوا وقتيئذٍ
يلجون من عاصف شديد من الحجارة ومن رخمةٍ من النبال
طبقت عليهم بغتةً من ناحية الصليبيين فاحتماوها ايضاً بمصادمةٍ
ودام هذا الجهاد من الجهتين الى قرب نصف النهار بذاك الروح
خلواً من ان الصليبيين يشاهدون ذواتهم متوجين بالغلبة لا
بل انهم راوا ذواتهم فى خطر مبين تحت الانغلاب لان الات
الحرب الخشبية التى عندهم قد ابادتها النيران المندفعة عليهم
من الاسوار بانواع مختلفة وقد وجدوا فاقدين الماء للشرب وابلغ
من ذلك معدومين وجود الخل الضروري استعماله فى تبريد
الحراب والارماح ليقدروا ان يتناولوها بايديهم ثم كانوا يشاهدون
تناقصهم متزايداً بسقوط الكثيرين منهم قتلى او مجرحين بالسهام
او محروقين بالمواد الملتهبة المحدوفة عليهم من الاعدا كما ان
عدداً وافراً منهم صادفوا الموت عند شرافات الاسوار وهم الباقون
احيا كانوا موعبين من الدما التى من الغير ومغرقين بعرقهم
المنسكب ومتلوثين بالارمال والغبار المتصاعدة من الارض وقواهم
كلت من الجهاد وهذه كلها اضعفت شجاعتهم وبالخلاف الاسلام
عند مشاهدتهم نجاح امورهم كانت اصواتهم ترعد بانهم فازوا بالغلبة
ولكن فيما كان الصليبيون فى تلك الحال وهوذا مشهدٌ اخر
حدث بغتةً فقلب الامور بالضد بنوعٍ عجيب *

على انه قد شوهد وقتيئذٍ على البدية خيالٌ فوق جبل
الزيتون في يده رمح كان يخيل ويظهر للصليبيين الطريق المفتوحة
الى باب المدينة فمن تراه كان ذاك الخيال فيجيب رايموند
ده اجيلاس المورخ : بانه غير ممكن ان يُعرف : واما غودافروا
والكونته ده طولوزا اللذان شاهداه قبل الجميع فصرخا هوذا القديس

جاورجيوس ظهر ليحامى عن الصليبيين فهذا الصراخ الذى طار من فم الى فم وحالاً اتصل الى المعسكر جميعه قد انعش فى كل منهم شجاعة جديدة غير مظنونة على ان هذه العلامة التى ظهرت بنوع فايق الطبيعة قد اكدت للمسيحيين ان العون الالهى اتاهم فى الوقت الذى هم فيه بلغوا الى الاياس من النصرة وفكروا بان الله اهملهم ومن ثم تشددت عزايمهم بنوع غريب وشعروا بانفسهم انهم لبسوا قوةً من العلا فهجموا على مقدم البرج الكبير وشدوا بدثاره وهوذا به اندك من فوق الى اسفل الامر الذى من مشاهدته من الاسلام مهدوماً بغتةً قد رجفت قلوبهم وقطعت اوصالهم رعباً وحينيذ على الفور الدوكا ده لورين قد اجتاز من فوق الردم ونفذ من الوان الملتهبة من كل جهة وادرك السور وغوادفروا قد رسم على الجنود بان يمدوا الجسر المرتفع فاصبحت الاسلام بدونه حجاب وهوذا النبالى من الصليبيين ملتهبة حرارةً ارتشقت عليهم نظير المطر مع السهام النارية فعلقت الحريق فى الات الحرب الخشبية ومن حيث ان الهوا نفخ النيران فقد امتد الحريق كالعاصف واملى اجواق العساكر الاسلامية شهباً ودخاناً نظير السحاب فاضطروا الى الهرب متبددين وحينيذ ثلثة من الصليبيين قد حفظ لنا التاريخ اسمايهم وهم الاخوان الشقيقان لاتهالدا والجلبارت ده طورنه قد انحدفوا وراء الهاربين تابعينهم وقبل الجميع دخلوا الى اورشليم وغودافروا قد اجتاز من فوق الجسر المرتفع واتبعهم مرافقاً معه بودوين ده بورغ واوسطاكيوس ورامبودكريطون وغويشار وبرنردوس ده سان فالة وارمينوس ده البارتوس وبعد هولاء اجتازوا على الجسر نفسه وراهم جميع الجنود الذين كانوا ضمن الابراج الخشبية وفوقها وكافةً نزلوا من الاسوار الى طرقات اورشليم وكانوا يلقون

فى الارض مقتولين بسيوفهم كل الذين كانوا يعارضونهم ❊

ثم ان اعجوبةً واحدة انذرت باعجوبةٍ اخري وهى انه فيما كان قبلاً ببرهةٍ يتحقق ان خيالاً سماوياً ظهر للصليبيين نيدلهم على طريق الانتصار فقد دار التواتر فيما بينهم حالاً بان الاسقف ادهمار المتوفى قد ظهر فوق راس العساكر المسيحية ودخل معهم من فوق السور وكان مرافقاً من اشخاص المسيحيين الذين ماتوا فى مدة الحصار وقد علقوا سنجق الصليب فوق ابراج اورشليم واذ قد تضاعفت بهذه المعونة شجاعة تنكريد قد اسرعوا تابعين ريسيم الذي كان برفقته روبرتوس واظهروا افعالاً غير مصدقة بل كانها عجايب لانهم دخلوا ساحة المدينة وتبعهم هوكوز ده سان بولس وجيرار ده روسيلون ولويس ده موسون وكونون ولمبرتوس ده مونتة غو وغوستون ده بيارن وهكذا قد ضايقوا الاسلام من كل الجهات والصراخ « الله يريد هذا » « الله يريد هذا » قد املى المدينة كلها ثم ان عساكر تنكريد مع عساكر غودافروا قد خلعوا باب القديس لسطفانوس بضرب الفوس والمعاول وبهذه الصورة مدخل المدينة قد انفتح ومنه دخلت بواقى جماهير الصليبيين بازدحام كلى واما رايموند فقد انمى شجاعة جماعته واندفع بهم على السور وضايق الاسلام الذين كانوا هربوا الى برج داود فبددهم اجمعين وحينيذٍ المسيحيون كلهم الذين كانوا خارج اورشليم قد دخلوا مرتلين نشايد الانتصار وتسابيح الشكر لله فى ذلك اليوم العظيم الذى صنعه الرب اي اليوم الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٠٩٩ يوم الانتصار التام ❊

فها هوذا النهار الدايم الذكر قد بلغ اخيراً وهو الذي جميع الصليبيين كانوا يتوقعون حضوره باشواقٍ لا تكيَّف وقد كان هذا اليوم يوم جمعة الساعة الثالثة بعد نصف النهار نظير اليوم والساعة

اللذان فيهما سيدنا يسوع المسيح هناك مات على خشبة الصليب من اجل خلاص العالم في ذاك المكان الذى فيه الجيوش نصبوا بيرق الصليب افهل انهم حينيذٍ بافتكارهم فى انه على جبل الجلجلة هذا الهٌ متانس حباً بالبشر سفك دمه ومات من اجلهم ما كانوا قلبياً يتخشعون ويبكون اوآه ان الجنود الصليبية فى المكان عينه الذي فيه مخلصنا غفر لصالبيه, هم لم يغفروا للاسلام على ان اورشليم التى خلصت من العبودية حالاً قد استوعبت دماً وزيتاً ودموعاً لان الجيوش هولاء ما وفروا احداً عن سيوفهم لا من جنس الرجال ولا من جنس النساء لا من الشبان ولا من الشيوخ ولا من الاولاد ولا من العجايز بل ان المذبحة اضحت عامة وسنجق الصليب الذى هو تمثال الصلح والمحبة ما ارتفع فى هذه الحروب الا فوق اسوار المدن التى فتحت بسواقى الدما التى سيوف الصليبيين سفكتها بحصد ارقاب الاسلام ☆

على انه باطلاً كان الاسلام فى اورشليم فى اليوم المذكور يجدون مفتشين على مهربٍ يحموت بهِ حياتهم لان هذه المدينة خلت من ملجاء لهم فعدد كلي منهم قد هربوا الى جامع الامام عمر ظانين انهم هناك يحمون ذواتهم من الموت ولكن ظنهم قد خاب اذ ان الصليبيين خيالة ومشاة مختلطين قد دخلوا الجامع المذكور واباد وا بحد السيف كل الموجودين هناك فالمورخون بنوع خاص ذموا قساوة هولاء الجنود البربرية عن هذا الفعل وحسب تقرير رايموند ده اجيلاس قد طاف الجامع من الدما حتى انه تحت القناطر التى عند بابه احتقن الدم وعلي الى حد الركب بل الى حد لجم الخيل وقال روبارتوس الراهب ان هيكل سليمان (جامع عمر) قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر

ممزوج وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية ارقاب الاسلام ☆

واما نحن فنحول نظر تاملنا فى هذا المشهد البربري المكروه منتقلين الى النظر نحو مسيحيين اورشليم فهولاء كانوا يسيرون امام الصليبيين بدلايل الاحترام والوقار نحوهم مرتلين معهم نشايد الخلاص من الاسر ثم تري كيف مسراً منظر بطرس السايح وكم كان عظيماً ابتهاجه بعد انهُ كان منذ مدة خمسة سنوات يتجول فى اوروبا وينذر ويتوسل ويحرض المومنين على انقاذ اخوتهم من سلاسل الاسر فى اورشليم لانه بعد اتعابه الفايقة التصديق قد شاهد اخيراً مواعيده تمت ومرغوباته كملت ونذوراته قُبلت اذ انه نحوه وبواسطة اعماله كان يلاحظ هو المنقذ الاول وكان يحق لهُ من المديح اخصه ومن معرفة الجميل اعظمه والجميع كانوا يتاملون كيف ان الاله الكلى الاقتدار قد استخدم انساناً شديد الضعف لكى يمارس بواسطته العظايم العجيبة ☆

ثم ان مشهداً اخر خشوعياً قد صير اشراق هذا اليوم الذايع الصيت والدايم الذكر اوفر لميعاً وهو انه فى الساعات التى كانت فيها الجيوش تشفى غليل رجزها من سفك دما اعدايها المغلوبين قد شوهد واحدٌ من السواح الابرار قد حول نظره عن ذاك الفتك الدموي مرتجفاً من زيادة تكرهه وهرب من هناك سايراً فى طريق اخري فيها راى ثلثة من الصليبيين ماشين بدون اسلحة حافيين متوجهين نحو كنيسة قبر المسيح وكان احدهم الرجل التقى نموذج الفضايل غودافروا القايد العظيم تمثال الكمال المسيحى فهذا المعظم فى الانتصار حالما فاز هو والعساكر بالغلبة داخلاً فى اورشليم نبّه على عساكره مذكراً اياهم بانهم انما جاؤوا الى اورشليم المدينة المقدسة لكى يسجدوا لقبر مخلص

العالم وحينيذٍ الجميع ضموا اسلحتهم الى غمادها وكفوا عن القتل لا بل انهم خلعوا عن ذواتهم اثوابهم المغموسة بالدما وساروا نحو كنيسة القبر المقدس تابعين اياه ببكاء وشهيقٍ بارجل حافية فجبل الجلجلة اضحى وقتيذٍ منظراً كلي الخشوع فظلام الليل ابتدي ان يغطي الجبل المقدس هذا وهدوءٌ مع صمتٍ عميق تملك في الجميع فهناك الجيوش الصليبية كلهم وجدوا راكعين على ركبهم مقبلين الارض المخضبة بدما الاله المتجسد متذمين صلواتهم بحرارة العبادة طالبين من الاب الازلي غفران خطاياهم وبدموع سخينة مرتلين تسبحة التوبة فهولاء الذين ايديهم كلت من سفك الدما شوهدوا هناك نظير اناس خارجين من رياضة روحية مستطيلة بتاملات عقليه عميقة (فهنا يقول المورخ برنردوس الخازن) ان هذا لامر تقوي يستحق المشاهدة كيف ان العسكر الصليبي بفرحٍ وحسن ديانةٍ ينظرون شابكين الايادي ركوعاً امام القبر المقدس بخشوع واحترام كانّ كل واحدٍ منهم كان يشاهد جسد سيدنا يسوع المسيح موضوعاً في ذات الضريح ميتاً ☼

غير ان هذه العبادة الحارة في اولئك المسيحيين ما صنعت شيأً اخر الا كفاف استعمال الاسلحة والفتك بسفك الدما على ان تدبيراً مدنياً مكروهاً قد سبب ان اورشليم تعود مشهداً لملحمة بشرية جديدة وهو ان ديوان المشورة العسكرية التيم وضع حكماً مرهباً وهو ان يمات كل مسلمٍ باقٍ داخل المدينة المقدسة فهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل ومن ثم كان بالباطل وخلواً من ثمرةٍ البعض من الصليبيين يجتهدون في توقيف جري هذه الحكومة ضد شراسة الغالبين الاشدا وبالتالي القساوة البربرية اخذت سيافها حتى ان النبيل تانكريد اذ اراد ان يخلص قلما يكون ثلاثماية شخص كانوا هربوا الى حد

امكنة جامع عمر فارسل اليهم بيرقه ليحتموا تحته من فورة رجز الغالبين فلم ينل مرغوبه لانهم لم يحترموا بيرقه بشي الامر الذي اغمه جداً اذ انهم هناك ذبحوا ثلثماية مسلم عن اخرهم وبالاجمال لم يسلم من سيوفهم الا بعض اسلام قليل احتموا في برج داود وريموند اقتبل حمايتهم واخرجهم احيا بموجب شرطٍ خصوصي فهذه الملحمة دامت مدة سبّت كاملة والمورخون يتفقون على ان الاسلام الذين ذبحوا داخل اورشليم بلغوا الى سبعين الفا ً ثم ان اليهود قد كانوا داخلين في عدد المحكوم لان النفاظ الحكم كانت بالموت ضد الغير المومنين بدون تمييز المسلم عن اليهودي فهولاء العبرانيون قد هربوا الى كنيسهم محاصرين فيه الا ان الصليبيين اضرموا النار في جهات الكنيس فاباده واياهم جملةً بالحريق ولم يبقَ من معبدهم هذا الا بعض فضلاته الدالة على قديمته * فبالحقيقة ان الهواجس تقلق مستكرهة التفكر بما فعله الصليبيون بعد امتلاكهم اورشليم لان اعمالهم هذه هدمت شريعة الحكم والوداعة المتلألية في تعليم الانجيل المقدس فلقد شابهوا الامم الغريبة الاولين الذين كانوا بلا ديانة حقيقية وخلواً من اداب واشفاقٍ ولذلك كانوا يبيدون بالموت من يُغلبون بسيوفهم ومن ثم يحق قلبياً ندب هذا الصنيع ونكره تذكره معتبرينه مضاداً للانسانية ولحق شريعة الطبيعة ولقد كنا نتمنى ان نغسل بدموعنا هذا الدم الذي الصليبيون غرقوا بهِ اراضي المدينة المقدسة التي المسيح ما سفك بها دمه الا لاجل خلاص العالم * اما الصليبيون فبعد ان تمموا تلك المقتلة قد فكروا في ان يتمموا بسلامٍ باثمار انتصارهم فقد كانوا قبل امتلاكهم اورشليم اتفقوا على رابطة برضاء جميعهم وهو انهم بعد استيلاهم على هذه المدينة يسكن كل واحد منهم بحريته التامة في

البيت الذى هو يدخله المرة الاولى غب الانتصار وان الصليب او الرمح او الحربة او اي نوع اخر كان من الاسلحة يكون لكلٍ منهم صفة كاملة لتملكه ذاك البيت وان حق الاختصاص لكل واحدٍ مما يملكه من الموجودات يكون محترماً من الجميع خلواً من تعدي احد على الاخر فعلى هذه الصورة حالاً قد توطد فى المدينة ترتيب وحسن تهذيب عمومى ومنظر اورشليم استحال بغتةً الى مشهد جديد لانها فى ايام قليلة هى انقلبت من ديانةٍ الى اخرى ومن شرايع الى غيرها ومن مراسيم وعوايد الى اخرى ومن سكان الى غيرهم فالغالبون اضحوا اغنيا بالغنايم التى امتلكوها بين ايديهم وجاذب كبير من تلك الغنايم قد تخصص لاسعاف الفقرا والايتام والارامل ولاجل زينة معابد الاله الحى الحقيقى فالقايد تنكريد قد امتلك جميع الغنى الذي وجد فى جامع الامام عمر وهذه قد كانت عظيمة المقدار والقيمة حتى انهُ حسب تقرير احد المورخين لم تكفيها ست عرابانات كبيرة لنقلها وانه قد استمر هو مدة يومين مباشراً اخراجها من ذاك الجامع غير ان هذا القايد الكريم قد وزع منها جانباً وافراً على عساكره الخصوصيين كما انه فرق منها جانباً اخر صدقةً والكهنة اللاتينيون فازوا منه بحصةٍ وافرة بها استطاعوا ان يهتموا بزينة الكنايس وباعمال اخر تقوية ❊

ففيما بين الاشيا الغنية المفتخرة والكنوز التى فاز بها الصليبيون بانتصارهم هذا وامتلكوها لذواتهم قد كان الكنز الاعظم الفايق كل ثمن الذين هم اعتبروه باستحقاق اكثر اعتباراً من كنوز الارض جميعها وهو عود الصليب الكريم المقدس الحقيقى الذي عليه صلب مخلص العالم لان هذا الصليب المسجود لهُ كان اخذه الى مملكة العجم سلطانها كسروا وكان الملك هِرقّل رجعه

الى اورشليم وبقى فى كنيستها الى ذات الوقت محفوظاً بحراسة المسيحيين القاطنين هذه المدينة المقدسة مخفيا بحرس عن اعين الاسلام فالجيوش لما شاهدوا هذا العود الخلاصى ما عادوا يقدرون ان يمسكوا ذواتهم عن الدموع ذات الفرح والتهليل وحسن العبادة : فيقول المورخون المتقدما : ان المسيحيين عند نظرهم هذه الخشبة المقدسة كانوا بايمان حى يتصورون كانهم مشاهدون جسد مخلصنا نفسه معلقاً عليها على ان علامة افتدايانا هذه التى كانت مخباة قد اظهرتها العساكر الصليبية باحتفال عظيم وزيحوها في طرقات اورشليم بديانة حارة وتكريمات محققة ووضعوها بوقار فى كنيسة القيامة ☆

ثم ان القواد والمسيحيين والجيوش الاخرين بعد امتلاكهم اورشليم بعشرة ايام فكروا بان ينتخبوا سلطاناً خصوصياً لهذه المدينة المقدسة ليملك عليها بمجد ويكون ذا حكمة وبلاغة بالكفاية مستحقاً ان يجلس فى تخت داود عرش سليمان ولهذه الغاية قد التيم مجمع الامرا والقواد والاشراف وفيه اول من فتح الخطاب قد كان روبارتوس كونته ده فلاندرا الذى صنع خطبة جليلة مبرهنة عن ضرورة الاهتمام فى هذا الانتخاب الذى اعتمدوا صنعه مبيناً تلك الصفات الواجب وجودها فى من هو عتيد ان يزين هامته بتاج ملك عسر توطيده ثم توسل الى ارباب الاجتماع بان ينتخبوا ذاك الشخص الذي بفضايله وحداقة عقله وكريم صفاته يكون هو الموضوع الاكثر قابلية والاوفر كفاية لحفظ مملكة يسوع المسيح ونموها امتداداً المتعلقة بها وعليها امجاد واختصاصات هكذا عظيمة ☆

فالاكثرون من الملتئمين اذ اعتبروا سمو حكمة هذا الكونته نفسه وعظم شجاعته وتدابيره العالية وحسن صفاته الجليلات فقد

ظهر لديهم انهُ هو كان الاكثر لياقةً لهذه السلطنة وارادوا انتخابه غير ان روبارتوس نفسه قد رفض ذلك رفضاً مطلقاً مقرراً اكتفاه بالصفة التي امتلكها وهي ان يدعى ابن القديس جاورجيوس الذي ايده بتلك الانتصارات وانه لم يكن هو تايقاً الى شي اخر سوى نحو الوقت الذي فيه يمكنه النزول في البحر مسافراً الى الاوروبا راجعاً الى وطنه فاذاً حينيذٍ لحاظ المنتخبين قد اتجهت الى امير اخر قد كان في عدد الانام الاولين الراغبين دوام اقامتهم في سوريا او بالحري من كان يمكنه ان يزيّن هذا المقام باستحقاقٍ سلطاناً على اورشليم فاصوات الانتخاب كانت تدور وترجع مقسومةً فيما بين هولاء الاربعة امراء وهم غودافروا ورايموند ودوكا ده نورماندیا ونانكريد بدون ان تجتمع الاصوات الاكثر من النصف على واحد من الاربعة القواد المذكورين فلكي يمكن للجمهور المنتخبين ان ينهوا هذه القضية بسلامٍ قد اتفقوا اخيراً على ان يفوضوا الحكم النهائي لمراي عشرة اشخاص هم يختارون من هم الاوفر حكمةً واحدق تمييزاً فيما بين الاكليروس وروسا العساكر ولاجل حصول هولاء العشرة على ابراز حكم صايب عادل منزه عن كل شايبة غب فحصهم المدقق عن احوال هولاء الاربعة روسا وعن صفاتهم وعن اعتمادهم الباطنة وافكارهم السرية نحو هذا التخت الملوكي بدون زيغان بل بمعونة الانوار السماوية قد باشر المسيحيون الصلوات والتضرعات والصوم واعطاء الصدقة ملتمسين من الرب ان يرشد هولاء العشرة الاشخاص الى جودة الانتخاب وسعادة نهايته ✲

فبعد ذلك قد اجتمعت اكثر الاصوات على شخص غودافروا ده بولیون لان كلٌ من العال والدون كان يقدم الشهادة الاوفر لمیعاً عن فطنته وشجاعته وعذوبته وانسانيته خاصةً عن فضايله

وحسن ديانته لا بل ان الصليبيين كانوا يقولون ان اهل السماوات انفسهم اوضحوا ذواتهم على اشيا صالحة اذ ان المعسكر كان يقرر مؤكداً عدد العجايب التي صنعها الله في الحوادث المختلفة لاجل حمايته ونجاح اعماله (وكما يقول ابارنوس الاكسي) انه قبل الحروب الصليبية بسنين عديدة احد الجنود اسمه هيزيلون كينتفريل قد كان شمله النوم في احد الاحراش وانتقل بالحلم الى فوق جبل سينا وهناك شاهد غودافروا مترشحاً بمجد عظيم فيما بين رسولين سماويين اسرعا وشيكاً ليبشراه بان الله قد انتخبه نظير موسى اخر قايداً ورييساً مسلطاً على شعبه ☆

ثم ان محارباً اخر قد شاهد قبلاً بانرويا امير بريون هذا الجليل جالساً على عرش فوق الشمس وحوله قد اجتمع عدد عظيم من الطيور جاءت اليه من كل دايرة السما فالصليبيون قالوا تري ما هي هذه الشمس الا مدينة اورشليم وطيور السما ما هي سوي الصليبيين الملتهبين حول هذا القايد من كل جهات العالم ليروا مجد انتصاراته واعماله ☆

فاذاً العشرة المنتخبون بعد فحص دقيق اياماً متواردة قد اعلنوا اخيراً انتخابهم بصوت متفق على شخص غودافروا ده بوليون دوكا ده لورين والصليبيون اقتبلوا هذا الانتخاب بدلايل المسرة والابتهاج وحالاً حملوا هذا الامير العظيم وادخلوه بعلامة الظفر والتفخيم الى كنيسة القبر المقدس حيث ابرز القسم على حفظ شرايع العدل والشرف واذ ارادوا تتويجه فهذا القايد المتصف دايماً بالاتضاع رفض هذا المجد بقوله انه لا يمكن يقبل ان يضع على هامته تاجاً من ذهب بحجارة كريمة في مدينة قد تتوج فيها ملك الملوك باكليل من شوك لا بل رفض ايضاً تسمية سلطاناً رفضاً صارماً واكتفى بتسمية محامٍ عن

قبر المسيح او بارون كنيسة القبر المقدس ولكن ولين كان هو رفض هذا اللقب المحق له اي سلطان اورشليم لقد كان المورخون وعموم الشعب المسيحي اعطوه التابا ً سامية كما كان يستحق لولا ان الموت خطفه من بين الاحيا غب زمانٍ قليل بعد انه باستحقاق وعدل قد ورث تخت داود الملك وصار مختصاً به ٭

الفصل التاسع

في المعركة التي حدثت في اسكالون وفي نهاية الحرب الصليبية الاولى ثم في رجوع الاشراف العربيين الى اوطانهم

ان سلطنة جديدة لاورشليم قد توطدت علي ان هذه الارض المقدسة التي تدنست مدة ازمنة مستطيلة جداً قد رجعت اخيراً تحت ولاية الصليبيين وميراث محبوب قد تثبت لتلاميذ يسوع المسيح وجانب مبارك من مجموع عيلة المسيحيين قد تركن هناك ثم ان الاكليروس قد باشروا اهتمامهم في تكريس الكنايس وفي تسمية اساقفة جدد للبلدان التي حصلت في تملك المسيحيين وفي ترتيب خدام لنفوس الرعايا ٭

فاخبار الانتصارات التي فاز بها الصليبيون بامتلاكهم هذه البلاد قد انتشرت بسرعةٍ في الجهات القريبة اليها ومنها الى بلاد الشرق الاخر وهكذا شوهد المسيحيون متقاطرين جموعاً غفيرة الى اورشليم من انطاكيه ومن الرها ومن ترسوس ومن كبادوكيا ومن كيليكيا ومن بين النهرين ومن ساير اقاليم سوريا فالبعض من هولاء الغربا قد وطدوا سكناهم الدايمة في اورشليم وما يحوطها وغيرهم كانوا يزورون الاراضي المقدسة ويعودون الى بلادهم والجميع حاصلون على فرح عام غير فاترين عن تقدمة الشكر لله والتقريظات

لشجاعة الصليبيين وانتصاراتهم كجنود محقين ليسوع المسيح الذين اخيراً انقذوا قبر ابن الله مخلص العالم من ايدي الغير المومنين ✿

ثم بالخلاف كانت احوال الاسلام وعساكرهم بالكآبة والحزن والبكا وعند جميع ملتهم حصل اليأس بعدم الرجا في قيامهم جديداً من سقطتهم حتى ان شعراهم وفصحاهم كانوا يندبون بالمراثي شقي اولاد نبيهم وتعاستهم المرة بقصايد ونحيب (فيقول المورخ العربي) ان الاسلام كانوا يتفاوضون فيما بينهم قايلين اوآه ما هذه البلايا التي أُلمت بنا وما هذه المحن التي حلت بالمومنين المحقين ان النساء الترمن بان يخبين وجوههن حزناً ولم يعد باقياً لاخوتنا الذين منذ انف كانوا سلاطين سوريا الا ظهور الابل او احشاء النسور ✿

على انه بالحقيقة قد صارت انتصارات الصليبيين ضربةً قتالةً للاسلام بددت مملكتهم فالانقسامات فيما بينهم والمخاوف التي رافقتها دايماً قد زعزعت سلطنتهم خاصةً لما انضافت اليهم كسراتهم واخيراً فقدانها مدينة اورشليم قد هدم الركن الاعظم لقومهم ولكن مع ذلك حينما بلغتهم اخبار ما حدث لاسلام هذه المدينة قد خمد عنهم روح الانقسام وعساكرهم المتبددة قد وافقوا اجتماعهم معاً حتى اما انهم يبكون جملةً نادبين تعاستهم او اذا امكنهم فينتقمون لذواتهم من المنتصرين عليهم وياخذون ثار الاهانة التي المت بمذهبهم وبنبيهم فاسلام سوريا ودمشق وبغداد وضعوا رجاهم الوحيد على عساكر الخليفة وآلي مصر وتواردوا من كل الجهات لملاقات جيوش هذا الخليفة الذين اقبلوا الى سهول اسكالون ذايبين رجزاً ضد الصليبيين يصرون اسنانهم كالمؤيسين ✿

فسلطان اورشليم حالما بلغه مجي هذه العساكر الجديدة قد

جمع جيوشه ومشى لملاقاتهم ومحاربتهم وكان برفقته تانكريد والكونته ده فلاندرا وغيرهما كثيرون من الاشراف الروسا يزينون موكبه بلميع شجاعتهم واما قايد جيوش الاسلام فكان الامير افدهال نفسه الذي قبل بمدةٍ كان امتلك اورشليم وقد كان انضاف الى العساكر الاتى هو بها من مصر عددٌ غير محصى من الاسلام المنقاطرين اليه من جهات كثيرة وقد كان برز من فمه قسمٌ به حلف امام الخليفة بان يبيد الصليبيين من اقاليم الاسيا كلها دافناً اياهم تحت رديم جبل الجلجلة وتحت حجارة المعابد التي نصاري المغرب شيدوها ☆

فمعسكر المسيحيين كان يسير الى ما قدام بحسن نظام ضد هولاء الاعدا الهايلين وروبارتوس ده نورماندِيا ورايموند ده طولوزا قد جاءوا بعساكرهما منضافين الى غودافروا وبطريرك اورشليم الجديد ارنول قد حمل صليب مخلصنا المقدس وخرج مع هذه الجيوش الذين بمجرد نظرهم هذا العود الخلاصي مرتفعاً فيما بينهم كان يتجدد فيهم حرارة الايمان مضاعفاً رجوليتهم والمدينة المقدسة فرغت من جميع العساكر ولم يبقى داخل اسوارها الا النساء والاولاد والمرضا وجانب من الاكليروس وهولاء جميعاً لم يكن لهم اهتمام اخر سوي انهم نهاراً وليلاً مداومون التضرعات والصلوات الحارة بالدموع لدي الله من اجل انتصار اخوتهم المسيحيين وانكسار اعداهم واعدايه تعالى هذه المرة الاخيرة ايضاً ☆

فالجيوش المسيحية بعد ان اجتازوا الاراضي المرملة قد نصبوا مضاربهم على شط نهر صوارك في سهل صافيا فيما بين جوبّا واسكالون فهذا السهل الواسع هو محاط من ناحية المشرق بتلول عالية وممتد من ناحية المغرب الى حد البحر المالح وفي تلك الجهة هي اسكالون وابراجها وموازنها وتحت اسوارها كانت العساكر

المصرية ضاربة خيامها وكانت كراديس هولاء الاسلام وجماهيرهم
مغطية بعددهم الفايق الاحصى مساحةً غير محدودة من الاراضي
فيقول المورخ فوشار ان هولاء كانوا مادين اجنحة صفوفهم ليحيقوا
بها المسيحيين بنظير الايل الماد قرنيه حمايةً عن جسمه فمن
ثم الجيوش الصليبية كانوا يسيرون على خطين فالكونته ده
طولوزا كان قايداً لجيش خط اليمين وغودافروا كان على راس خط
الشمال واما تانكريد وروبارتوس الاثنان بهذا الاسم فكانوا يدبرون
جماعتهم لعساكر الشجعان التى فى الوسط ☆

فذلك اليوم كان برامون عيد السيده فى ١٤ شهر اب فحالما
اشرق ضياء الصبح بطريرك اورشليم بارك الخيالة ورفع عود الصليب
الكريم الذي شاهدته الجيوش واتخذوا ظهوره علامةً كلية التاكيد
برجا انتصارهم وهكذا انتعشت فيهم حرارة وشجاعة كليتان غير
انهم حسب تقرير المورخين لم يكونوا جميعاً اكثر من خمسة
عشر الف من المشاة وخمسة الاف من الخيالة وهذا العدد القليل
لم كان يلزمه ان يحارب عساكر الاسلام الفايقة الاحصا الا ان
رجاهم الوثيق قد كان بالاله القوى الذي مراراً عديدة اظهر
نحوهم معاضدة علانيةً ولهذا لم يكونوا يرتابون بتةً فى انه تعالى
يصنع معهم اعجوبةً جديدة من عجايبه على صالحهم فعلى
هذه الصورة اذ هم موعبون من الرجا بتاكيد النصر مشوا ضد
اعداهم كانهم منطلقون الى فرح عيد (كما يقول البارتوس الاكسى)
وكان الترتيل بالنشايد مع آلات الطرب ورنة الاسلحة ترعد
في ذلك السهل مع هتافات جنود المسيح هولاء الابطال المسرعين
بامل النصرة الاخيرة الموطدة امتلاكهم مدينة اورشليم المقدسة ☆

فالجيوش من الفريقين صارت منظورة عن قرب والصليبيون
جثوا على الارض راكعين ملتمسين هذه المرة ايضاً العون الالهي

ثم نهضوا حالاً ممتليين من حرارة جديدة وطاروا ضد اعداهم المشاة رشقوا اسهامهم كسحابةٍ في وجوه الاسلام فى الوقت الذي فيهِ الخيالة انقضت عليهم كالصواعق والدوكا ده نورماندیا مع الكونته ده فلاندرا وتانكريد بجماعتهم قد ضربوا وسط معسكر الاسلام القطبي فردوه الى الورا بنوع ان الدوكا المذكور فى اندفاعه الشديد عليهم اجتارهم مستقيماً حتى بلغ الى الامير افدهال وبيدٍ جسورة اخذ منهم سنجقهم الكبير ورجع بهِ فمن ثم وقعت البلبلة والجزع فى معسكر الاسلام ولذلك الصليبيون المشاة رموا قوسهم وسهامهم واستلوا سيوفهم وحرابهم وطبقوا على الاسلام جسماً بجسمٍ مختلطين بينهم وطرحوا منهم على الارض قتلى كثيرين جداً الامر الذي صير المصريين ان يدبروا جميعاً هاربين مبددين بكسرةٍ مهيلة ☆

فسلطان اورشليم غودافروا اذ استرهر على المصريين والحبشة بالغلبة قد علق انصرب بالاخرين والكونته ده طولوزا بفوزه بالنصر على اهالى سوريا والعرب جرى فى اثر الهاربين منهم والانكسار اضحى عمومياً فى جميع العساكر الاسلامية ووقعوا تحت سيوف الصليبيين بمقتلة كلية والاحيا الذين هربوا الى الجهة البحرية ادركتهم الخيالة فصار البحر مدفنهم والذين ادبروا وراء قايدهم العام افدهال قصدوا البلوغ الى داخل اسكالون محشورين من الغزاة فتساقطوا فى النهر وغرق منهم نحو الفين فى اجتيازهم من على الجسر وهكذا من جميع هولاء الاسلام الغير محصى عددهم الاتين ليملكوا البلاد الشرقية الذين البارى تعالى وحده يعرف كمية جموعهم قد بادوا جميعاً ما عدا القليلين الذين بالكاد نفذوا معدومين كل قوة وواسطة لقيامهم من امكنة هربهم وعلى هذه الصورة قد انقطع الرجاء عند الاسلام من خلاصهم لان افدهال

بعد ان خلص ودخل اسكالون وصعد على سورها وتامل هذه الكسرة العظيمة لجميع عساكره والعساكر الاخرين الذين تبعوه هدرت الدموع من عينيه بتخجل كاي اغم وبدي يشتم نبيه الذي اهمل الامينيين نحوه يموتون هكذا بعار لا يحتمل بايدي النصاري وكان يندب اورشليم التى كان يومل ان يروها ❊

فتبعاً لما اكده المورخان غويليوم الصوري وروبارتوس الراهب ان الصليبيين فى هذه المعركة المخلدة الذكر ما خسروا من خيالتهم ولا واحداً ولكن عدم اتفاق الراى وقتيذٍ فيما بين القواد افقدهم امتلاكهم اسكالون نفسها التى لكان اخذها صار تكميلاً لمجد الانتصار فاخيراً الانقسام ذال حينما غودافروا بدموع منسكبة استحلف الجيوش بان يتذكروا انهم انقذوا اورشليم والقبر الخلاصى وبانه يلزمهم ان يهجعوا عن الخصام ويعيشوا بالاتحاد والحب لكى يمكنهم ان يحموا هذه المدينة المقدسة فعند سماعهم كلام هذا السلطان الموقر قد تسالموا وسكن روحهم واتحدوا بالمحبة ثم لما نُصبت اشاير السفر اخذت العساكر المنتصرة بالرجوع الى اورشليم مملوين من البهجة والفرح على فوزهم بهذه الغلبة العظيمة ❊

فدخولهم الى هذه المدينة بعد المعركة الاسكالونية قد كان بالحقيقة دخولاً مجيداً بتمام الظفر لانهم عند دنوهم من اسوارها نشروا بيارقهم ودقت طبولهم وضربت ابواقهم ورنت اصواتهم حولها وهذي كلها بشرت الناس الذين ضمنها بحقايق النصر فخرجوا جميعاً الى ملاقاتهم واضافوا تراتيلهم ونشايدهم الى هتافات الغالبين وهذا كان مشهداً جليلاً ملوكياً موعباً سروراً لدي الافاق واذ اقبلوا نحو كنيسة القيامة ودخلوها بحسن عبادةٍ علقوا على عامود قبة القبر المقدس سنجق السلطان المصري الكبير والمومنون اجمعوت حذا هذا المكان المقدس الذى اندهال كان

حلف بان يهدمه وهناك قدموا لله ضحية النشايد وتقدمة الشكر الاختفالية على هذه الغلبة السنية التى فازت بها جنوده الصليبية فبالحقيقة ان الظفر الذى نالته الجيوش المسيحية في سهل اسكالون قد توج اعمالهم السابقة وانتصاراتهم المتقدمة بتاج حى دايم الذكر وهذه المعركة كانت هي الاخيرة من معركات الحرب الصليبى الاولى التى استدامت من بدايتها الى ذاك الوقت مدة اربعة سنوات ذات محاربات شديدة واتعاب كلية واخطار مبينة التى بها اخيراً الامرا المسيحيون استخلصوا القبر المقدس من العبودية ومن حيث انهم بهذه الصورة وفوا نذورهم ونمموا قصدهم فقد فكروا فى ان يرجعوا الى اوطانهم فاذاً هولاء الانام الشرفا الذين اهالى اوروبا كانوا ودعوهم بدلايل حسن العبادة قد شوهدوا مسافرين بالانتزاح عن اسوار اورشليم وكلٌ منهم اخذ طريقه راجعاً نحو حكومته ومقاطعته ومن ثم لم يعد باقياً لمحافظة المدينة المقدسة الا ثلاثماية خيال فقط مع السلطان غودافروا الملوا حكمةً وتانكريد القايد الموعب رجوليةً فريدةً الذين اعتمدوا على اتخاذ الاسيا وطناً لهما عوض الاوروبا كي ينهيا فيها باقى ايام حياتهما ☆

فالتاريخ الدنى القديم يوضح عن الامراء الروم انهم بعد امتلاكهم مدينة نرويا قد انتزحوا عن الاراضى اليونانية ونزلوا فى البحر راجعين الى وطنهم ولكن القليلون جداً منهم قد بلغ الى المينا سالماً مصحوباً بنوعٍ ما من السعادة غير ان الامراء الصليبيين بسعادةٍ كلية بعد امتلاكهم مدينة داود العظيمة اورشليم المقدسة قد شوهدوا راجعين الى قصورهم وامرياتهم وبلغوا اليها سالمين مكللين بالمجد وقد اعتبر هذا الرجوع انه من اعظم العجيبة المذهلة فى مراكبهم العديدة جداً التى ما كانوا يومـلون ان يروها

وفي عودتهم هذه كانت اياديهم حاملة اغصان الغلبة ورايات الانتصار وفي جميع امكنة اجتيازهم كانوا يقتبلون من السكان نشايد المديح وقصايد التقريظات الانتصارية اذ ان الشعوب من كل جهة كانوا يتقاطرون لملاقاتهم موعبين من الفرح التقي ومن التغزلات الروحية نحو هولاء الزوار والمخلصين معاً وكل منهم برغبة قلبية كان يسال ويستمع اخبار اعمالهم السنية الجهبزية من افواههم المكرسة بتقبلة قبر المسيح ولكن بدموع غزيرة كانوا يفهمون ايضاً منهم كم من الوف من جيوشهم سفكوا دماهم في تلك الامكنة ودفنت اجسادهم في الاسيا حباً به تعالى لانه نادراً وجدت بعض عيلات لم تندب فقد واحد او اكثر من اقربايها الصايبية الشجعان غير ان تعزية اهالي القتلى كانت وافرة عند تذكرهم انهم فازوا من انسابهم بعدد عظيم من شهدا المسيح الجدد الذين نالوا الكليل المجد السماوي ❁

ثم انه في مسافة رجوع هولاء الاشراف الابطال طفحت قلوبهم فرحاً الى حضن ولاياتهم وحكوماتهم واراضيهم متمتعين بمسرات اهاليهم وبتكريمات اعمالهم الجهادية الغالبة فمنظر احد هولاء الزوار الراجعين من الاراضي المقدسة قد جذب الى ذاته ملاحظات الشعوب قاطبة وهو قد كان ماشياً على رجليه وحده نحو الدير الذي كان هو شيده على شط النهر المسمى موزا فترى من هو هذا انه هو المنذر الاول بحرب الصليب وهو بطرس السايح هذا الذي بفصاحة لسانه الغريبة قد زعزع سكان المغرب وامرا الاوروبا وجذبهم الى ان يتكردسوا في الاسيا فقد رجع الى ديره تحت صمت النسك الجديد المتضع الذي اختاره قبلاً لينهي فيه ايام حياته فهذا الانسان العجيب قد عاش بعد عودته من اتمام رسالته في اورشليم قاطناً في منسكه مدة ستة عشر

سنةً بسيرة العبادة والاماتة والتقشفات واخيراً حينما دنت الساعة الاخيرة من حياته قد رقد بالرب فيها بين مصاف الرهبان الذين هو كان عمرهم بنموذجات فضايله فلا ريب فى ان نفس هذا البار قد انتقلت بانفصالها من جسده الى اورشليم السماوية التى فيها اشتركت هى بالمجد الالهى بعد ان كان هو بمساعيه واعماله السامية اضحى مخلصاً لاورشليم الارضية المادية مشتركاً بالاتعاب والانصاب والجهادات مدة سنوات متواصلة مع اخوته اهالى المغرب ☆

الفصل العاشر

☆ فى الصليبيين الجدد وفى الجمعيات الرهبانية الحربية ☆

ان رجوع الامرا الغربيين الى اوطانهم من اورشليم بسمات المجد والشرف الانتصارية قد تحرك من اجله فى ممالك الاوروبا عمل جديد مسبب عن اشواق الجميع نحو الاقتدا بنموذجهم على ان جموعاً وافرة من اوليك المسيحيين الذين ما اشتركوا مع الصليبيين الاولين بالسفر صحبتهم قد اتقدوا بحرارة المغايرة التقوية ومحبة التمثل بهم ورغبة الفوز نظيرهم بالمجد الذي نالوه وقد اعتمدوا السفر الى المشرق فالبعض منهم بمجرد الشوق نحو زيارة الاماكن المقدسة اذ ان البلوغ الى اورشليم بعد اعمال الصليبيين الاولين اضحى سهلاً حراً مكرماً وغيرهم بقصد توطيد التملك الذي اكتسبته اخوتهم وزيادة حمايته بامنٍ فاذاً هولا جميعاً حملوا الصلبان واستعدوا الى المسير بالتوجه الى اورشليم وحينيذٍ قد شوهد فى بلاد المغرب معتنقاً ذاك التعليم الذي ابتدي بهِ قبلاً مجمع كلارمونت فتمارست انذارات جديدة لهذه

الحرب الصليبية الثانية وهذه الانذارات قد اشارت بحدوث عجايب اخر والذين من العساكر الاولين كانوا رجعوا قبل امتلاك اورشليم الى بلادهم صاروا موضوعاً للهزو والسخرية بهم لا بل اضحوا تحت تهديد السقوط فى حرم الكنيسة ومن ثم كثيرون من الامرا والاشراف الذين عادوا الى اوطانهم من الحرب المقدسة الاولى وجدوا مضطرين الى نقل الاسلحة من جديد والى السفر على روس العساكر من اوروبا نحو الاسيا نظير شقيق سلطان فرانسا واستفانوس كونته ده بولوزا وغيرهما ثم ان الاخرين الذين لم يكونوا قبلاً اشتركوا بشى ملاحظ لحرب الاولى قد أعتبروا مذنبين تحت طايلة الجناية فالتزموا بان يصنعوا غفارةً عن خطاياهم باشتراكهم فيما يخص هذه الحرب الصليبية الثانية ✿

فالجموع العديدة التى التهت للسفر فى هذه الحرب ُسلموا الى رياسة غويليوم التاسع كونته ده بواتير الذي هو من الامرا الاشد اقتداراً فيما بين النبلا العظما الخاضعين لولاية سلطان فرانسا واما فى ايطاليا فالكونته ده بلاندراس البارتوس وانسلموس ريس اساقفة مديولان قد صارا قايدين لجمهور غير محصى من صليبيى تلك الاقاليم في الوقت الذى فيه من مملكة النمسا شوهد مسافراً الكونته كونراد قايد جيوش الملك انريكوس وفولف الرابع دوكا ده بافيريا والامير ايضه ومارغراف ده اوستريا وغيرهم امرا كثيرون واشراف ابطال مع جموع غفيرة نحو الاسيا ومن ثم فى زمان وجيز وجدت هذه القواد والعساكر مجتمعين من كل الجهات تحت اسوار القسطنطينيه مولفين معسكر ينيف عن مايتى الف شخص فملك الروم اذ خشي جداً من غوايل هذا المعسكر قد استدعى الى معونته رايموند الشيخ امير طولوزا الذي كان وقتيذٍ موجوداً ضمن حكمة فى مدينة اللادقيه ✿

* حاشية *

ان كونته ده طولوزا المذكور لاجل انه كان حلف بان لا يعود راجعاً الى اوروبا فقد انفرد فى ذاته راجعاً الى انقسطنطينيه حيث الملك اليكسيوس اقتبله باكرام كلى ووهبه مدينة اللادقيه فقد جاء هذا التايد المتجاسر الجايل وهدي ارواح تلك انعساكر واوعدهم بانه يكون هو مقدامهم فى طريق بلاد اسيا الصغرى كلها غير ان هذه الجموع المبلبلة الخالية من التهذيب والعديمة الرسوم الجهادية والمشابهة فى احوالها للجموع الاولى الذين كانوا اتوا برفقة بطرس السايح فلم تكن قادرة فى ظروفها تلك ان تنجوا من الغوايل نفسها التى آلمت باوليك الاولين *

فهولاء الجيوش انقسموا الى ثلثة اقسام فالقسم الاول كان يعد فيها بين قواده رايموند ده سان جيلاس واندوكا ده بورغونيا والكونته ده شارتراس ورئيس اساقفة مديولان والكونته ده بلاندراس فرئيس اساقفة مديولان كان حاملاً الذخيرة المقدسة التى هى ذراع القديس امبروسيوس التى اصحبها معه الى اسيا وكان يعطى الشعوب البركة منها واما رايموند فكان آخذاً معه الحربة المقدسة التى وجدت فى كنيسة انطاكيه وانقا بان يشاهد بواسطتها تجديد العجايب المصنوعة منها تحت اسوار المدينة المذكورة *

فهذه الجيوش ذات القسم الاول بعد ان دخلوا فى اسيا وامتلكوا مدينة انكوريه قد جاءوا فحاصروا مدينة غانكراس ولكن كيلدج ارسلان سلطان نيقية الذى كان هرب من امام مدينة انطاكيه الى ايقونيه جملة مع كربوغا سلطان الموصل قد كانا جمعا الباقين من عساكرهما المتبددة وتشددوا بحرارة مؤملين ان ياخذوا ثار خجلهما وانكسارهما المهيل بالانتقام من هولاء الصليبيين الثانيين فاذاً قد جاءوا بعساكرهما ضد معسكر المسيحيين واشتبكت المعركة

بين الجهتين في اراضي هاليس ففي هذا النهار التعيس قد فاز الاتراك بالنصرة الاولى على هولاء الصليبيين الذين انكسروا باجمعهم وتبددوا مقطعين فرايموند ده سان جيلاس ودوكا بورغونيا والكونته ده بلواز وروسا اخرون كثيرون بعد جولانهم هاربين في مواضع مختلفة قد اجتمعوا اخيراً في مدينة سينوبيا حيث قدروا بالجهد ان يلموا حولهم بعض فضلات من المائة الف عسكري الذين كانوا تحت رياستهم وبيارقهم ❁

اما القسم الثاني من المجموع الكلي الذين دخلوا الاسيا تحت رياسة القايد الكونته ده نافار فقد كانوا تقدموا بالمسير الى حد مدينة انكوريه مقومين خطواتهم نحو مدينة هراكليا فهناك صادفتهم عساكر الاتراك المنتصرة فعلقوا المعركة معهم وكسروهم هم ايضاً ❁

ثم اخيراً القسم الثالث من المجموع الكلي المزداد عدداً من المضافين اليه حتى انه حسب تقرير بعض المورخين قد بلغ عدد هذا القسم الى ما ينيف عن مائة وخمسين الف محارب قد سافروا الى القسطنطينية تحت رياسة الكونته ده بواتير والدوكا ده بافيرا وهوكوز ده فارماندوس وبعد ان امتلكوا مدينتي فيلوميليوم وسامائيا قد مشوا نحو مدينة ستانكون مجتهدين في ان يتحدوا مع معسكر الكونته ده نافار ❁

غير ان هذه الجيوش ما توخرت عن ان تمتحن في ذاتها نصيب القسمين الاولين اللذان تقدماها لان عساكر كيليدج ارسلان قد ادركوهم بالقرب من هراكليا جملةً مع عساكر كربوغا وهناك بمعركة مخوفة بددوهم اجمعين ثم ضربوا بهم بالسيف حتى انه بالكاد بقي منهم بالحيوة الف شخص نجوا من الموت ومن الاسر والكونته ده فارماندوس ضرب بعدة نبال اصابته فهرب الى

ترسوس ومات هناك من قبل جراحاته ✿

اما الدوكا ده بافيرا والكونتة ده بواتيير فتاها هاربين من مكان الى اخر حتى دخلا انطاكيه نصف عاريين حيثما كان قبلهما وصل الي هذه المدينة ملتجياً في هربه الكونتة ده نافار كما انه هناك التيمت تلك البقايا المتبددة من جميع العساكر الصليبية المكسورين بسيوف الاسلام وبعد ذلك هولاء انتقلوا الى اورشليم وكان عددهم نحو عشرة الاف فقط الذين هم صافي جميع الجيوش الصليبية الذين في السنة الماضية خرجوا من اوروبا في الحرب الثانية ولكن هذا العسكر الصغير قد صادف في بلاد فلسطين اعدا اخرين لانه قرب مدينة الرملة الكونتة ده نافار والدوكا ده بافيرا وغويليوم ده بواتسير والكونتة ده بلاندراس اذ انكسروا بالحرب من ايدي الاسلام وفي هذه المعركة قتل الدوكا ده بورغونيا والكونتة ده بلواز فقد رجعوا الى اوروبا مع بقايا قليلة من العساكر فضالة تلك الجموع الغفيرة المقسومة الى ثلاثة اقسام عظيمة التي تبعاً لنموذج الصليبيين الاولين الجهابزة قد كانوا اتوا الى سوريا ليمجدوا لذواتهم نظيرهم رايات غلبة مجيدة ✿

واما نحن فيلزم ان نحول نظرنا عن ملاحظة هولاء الجيوش المتبددة بنوع يحزن القلب ويكدر الفكر بما اصابهم بفقدانهم المر ونتامل في انه تحت اسوار اورشليم المقدسة قد تكوّن طغمةٌ من الجنود الرهبنية مولفة من اناس اتقيا اشراف حيث كانت تشاهد فيها صفة محاربين شجعان خاليين من الخوف ومن الخطر ومن الملامة متحدين تحت صورة النسك والمذهب الرهباني افما انها لم تكن هي بالحقيقة الا جمعية من تلك الاجمل والاكمل فيما بين الجمعيات المقدسة المخترعة في الاجيال المتوسطة بعناية الانام المسيحيين ذوي العقول والحداقة والروح الانجيلي

على انه لا الروم ولا اللاتينيون ما فهموا قبلاً هذه الجمعية كما انه لم يكن يظن عند الامم الغريبة انه يمكن وجود نوع من العبادة هذه صفته قد اذهل في مشهده المسيحيين انفسهم فى الزمان الذى فيه الايمان المقدس قد كان عجيباً فى صفاته ☆

ففى بلاد فلسطين اذاً ترتبت هذه الطغمة واعقبها اخري واتبعتها ثالثة وكلٌ منها تخصص بتسمية متميزة فالاولى دُعيت جمعية ضياف الغربا والثانية تلقبت بالهيكليين والثالثة سميت جمعية الطوتونيكيين او جمعية القديسة مريم الاورشليمية ☆

فالاولى ضياف الغربا قد كانت موسسة فى اورشليم قبل الحرب الصليبية بزمان وجيز لان مكاناً تقوياً بمنزلة انطوش قد اقيم هناك تحت اسم القديس يوحنا من الزوار الاتين الى هذه المدينة المقدسة موسساً بروح محبة القريب مضيفةً لاوليك المسيحيين الذين كانوا يقبلون لاجل زيارة قبر المسيح الخلاصى ثم بعد ان كان الصليبيون امتلكوا اورشليم فالبعض من رفقا غودافروا الذين وطدوا سكناهم في اقليم فلسطين قد تحركوا من روح العبادة مشتركين باخوية الانطوش المرقوم ذوي المحبة للقريب مكتتبين تحت تسمية ضياف الغربا ووجهوا اهتمامهم الاخص بالاعتنا فى علاج المجرحين والمرضى فهذا هو اساس الجمعية المذكورة الشايعة الصيت التى فيما بعد اتصل تاسيس امثالها فى الممالك المسيحية كلها تحت اسم بيمارستانات فكثيرون من الشباب الشرفا قد تنزلوا عن مواريثهم واوطانهم واكتتبوا فى عدد اهل هذه الاخوية وفيما بين هولاء يذكر التاريخ اسما المتميزين برتبة الشرف نظير رايموند ده بوي ودودون ده كومباس الذي من دوفينه وغسطون الذي من مدينة بارد واس وكونون ده مونتةفهو الذى من مدينة اوفرنيا ثم بعناية الرجل العابد جيرارد الذي من

جزيرة مارقيلك فى اقليم بروفانص قد شوهدت حالاً مشيدة في اورشليم كنيسة جليلة على اسم القديس يوحنا المعمدان كما انها تعمرت مراكز عظيمة نظير فنادق ومنازل بعضها لاجل قبول المرضى والمجرحين ومداواتهم فيها والاخر لاجل سكنا الاخوة الشرفا المكتتبين بهذه الاخوية لخدمة هولاء المساكين فهولاء الذين درج عليهم اسم رهبات القديس يوحنا قد باشروا انواع اعتنايهم وخدمتهم المرضى والمجرحين بغيرة فاضلة ومحبة متقدمة قد امتدت بهم الى الاجتهاد في اسعاف جميع الصنوكين الكاينين في حال الفقر والاحتياج خلواً من انهم يستنكفون حال كونهم شرفا من ان يغسلوا اقدام الزوار الاتيين الى اورشليم النازلين مجاناً في محلاتهم ومن انهم يضمدون جراحاتهم وبالتالى ان الغربا الاتيين الى بلاد فلسطين والاكثرين منهم الى زيارة اورشليم المتعوبين جداً من مشقات الاسفار والحاصلين فى حال الضنا والجوع والعرى وامثال ذلك من الشدايد كانوا يجدون فى منازل هولاء الاخوة الشرفا راحتهم وخدمتهم وقوتهم وعلاج امراضهم وسد احتياجاتهم وغسل اقدامهم وملابسهم ونومهم في سراير لينة وبالاجمال اذ كانوا ينذهلون من انواع هذه الخدم ومن دلايل محبة الاخوة وبذلك كانوا ينسون اوجاعهم واتعابهم ومشقاتهم وضناتهم موعبين تعزيةً وسروراً فلم يعد عليهم شى اخر سوي ان يزوروا قبر السيد المسيح والامكنة المقدسة بعبادةٍ وهدوٍ وراحةٍ في دوام مكثهم في اورشليم ❊

فالفرايض الاساسية لهذه الاخوية انما كانت متوقفة على الاعتنا بالمرضى وبالمجرحين بنوع اخص وكان الاخوة يبرزون نذورهم الثلاثة الفقر والعفة والطاعة على هذا الاساس ولكن محبتهم الى القريب قد امتدت الى الاعتنا بالغربا الزوار الغير

مرضى ولا جرحى ايضاً والى معاعدة الاخوة المحتاجين فمن ثم فرايض هذه الجمعية قد تهذبت بحدود معينة نحو سنة ١١٠٤ تحت رياسة المعلم الاكبر رايموند بوي وفي هذا الزمان قد اضيف الى رسومهم الالتزام بالخدمة العسكرية ايضاً وكل من اعضاء هذه الجمعية كان يبرز النذر بانه ايضاً يحارب ضد الغير المومنين فقد شوهد حالاً وتقليد التزام وظيفة المحاربة التقوية مضافاً الى تلك الخدم الاولى ذات محبة القريب المتضعة مع انهم بصفة محاربين كانت ملابسهم واسلحتهم لامعة نظير مكابيين جدد في مدينة داود بنوع ان المورخين كانوا في الوقت ذاته يعطونهم القاب الاسود والخراف معاً فالاسود لحال كونهم ابطال شجعان في الحروب مدججين بالاسلحة البراقة وخراف لحال كونهم خادمين الغربا وديعين في غسل اقدامهم صبورين في تضميم جراحاتهم ثم انهم كانوا يحلفون على ان لا يهربوا من امام اعدا الايمان في الحرب فاحدهم كان يهدد الفاً من الغير المومنين واثنان منهم يحاربان في اثر عشرة الاف حتى ان عساكر الاسلام اضحت كل مرة تشاهد عن بعد منجق هولاء الاخوة المولف من شقتين بيضاء وسوداء فكانوا يرتعدون فرقاً ويستوعبون جزعاً لمعرفتهم كم كانت شديدة محاربة هولاء الخيالة الرهبان ونحن بعد حين متاخر مزمعون في التاريخ ان نراهم منتصرين على سودان مصر وعلى سلطان دمشق بل ان السلطان صلاح الدين نفسه سيشاهدهم فوق اسوار اورشليم وفي ابراجها حينما هو كان عتيد ان يحاصرها بقوة جيوشه ليمتلكها لذاته *

ولكن هولاء الشرفا الابطال كانوا بعد محارباتهم القوية ومعاركتهم الاعدا يرجعون باثوابهم المغموسة بالدما والمكتسية بالغبار الى خدمة المرضى متناسيين اتعابهم وجهاداتهم محتقرين الغنايم التي تكون

حصلت فى حوزتهم غير مفكرين في سمو وظايفهم الحربية يباشرون ادنى الخدم معتنيين بالغربا والضعفا مسمينهم اسيادهم حيث كان يُشاهَد هولاء العساكر الجسورة الشرسة فى الحرب متواضعين عند اقدام الزوار خادمينهم بمحبةٍ وعذوبةٍ معزينهم بلطافةٍ ودعةٍ معتنيين بهم غاية الاعتنا الوديع غب ان كانوا قبل برهةٍ من الزمان يضربون بالسيوف يخيلون بالرماح يرشقون بنبالهم عن قسيهم كالبرق يحامون بغيرة جهبزية عن المومنين ضد اعدايهم فالاشراف رهبان القديس يوحنا هولاء قد امتلكوا اسماً شايعاً فى الافاق وقد اقتبلوا مدايح المسيحيين وتقريظاتهم واعترافهم لهم بالمنة وقد فازوا بالاعتبار والثنا عند الجميع وقد تخصصوا بانعامات وتكريمات وتسميات الفخر والاختصاصات السامية من الملوك ومن الاحبار الرومانيين فامتدت قوتهم وسما اقتدارهم جداً حتى انهم فى بلاد اوروبا نفسها قد شيدوا امكنة على اسم جمعيتهم كاديرة مبتديين لقبول الذين كانوا يريدون الدخول فى جمعيتهم ولكن الاراضى المقدسة بالوجه الاول والاخص كانت موضوع اهتمامهم وركن اعمالهم وغاية عنايتهم وقد ترتب من جماعتهم اخوة يتجولون فى ممالك اوروبا لكى يجمعوا صدقات المومنين لاجل القيام بمصاريف جمعيتهم والتزاماتها كما كانوا يجمعون المداخيل من املاكهم الغنية وهذه وتلك كانت وسايط لانمام احتياجات الحرب واسعاف البيمارستانات والزوار ٭

ثم ان هولاء الضياف الغربا وخدام المرضى رهبان القديس يوحنا الراسخين فى وظايفهم والحافظين شرف اسمهم اذ التزموا بان يتركوا مدينة اورشليم غب ان تسلمها السلطان صلاح الدين فقد ذهبوا الى مدينة عكه بطولوماوس القديمة وتحصنوا داخل اسوارها ولكن لما استولت الاسلام على مدينة عكه نفسها سنة ١٢٩١

قد اهملوها بعد جهادهم العظيم وانطلقوا الى جزيرة قبرص وهناك وطدوا مشيختهم هذه الرهبانية وحينيذٍ انقلب ما كان دخل عند البعض منهم من الخباثة والاحتشاد والرذايل الى روح اخر من صرامة التهذيب واعمال النسك الاسد صرامة والى اعمال الفضايل الاوفر سمواً ومن حيث انهم ما عادوا من هناك يقدرون ان يتموا نذرهم بمحاربة الغير مومنين فى اراضى سوريا فقد وجهوا عناية حربهم ضدهم فى البحر وكانت مراكبهم الحربية تسافر من مين قبرص مغازية بحربٍ شديد كل مركبٍ تصادفه خاصة الاسلام ومرات كثيرة كانوا يرجعون الى قبرص سايقين امامهم مراكب سودان مصر وعمارات السلطان ابن عثمان بجملتها اسارى تحت سيوفهم ☆

غير ان اقامة هذا المصاف الرجولى لم تثبت فى محلٍ واحدٍ بل كانت تنتقل من جزيرة الى جزيرة ولكنهم دايماً وجدوا رعشةً للاسلام وخوفاً يوعب قلوبهم منهم رجزاً ولم تزل عظيمةً اشاعة اسمهم وامجاد انتصاراتهم وشدة محاماتهم عن اخوتهم المسيحيين على انهم اذ التزموا بان يخرجوا من جزيرة قبرص من المخايلة وعدم الاركان بهم من قبل سلطانها قد ذهبوا الى جزيرة روضوس فامتلكوها حرة لولايتهم وهناك داموا على اعمال حروبهم البحرية ضد الاسلام بشجاعةٍ غير مغلوبة فسلاطين بيت عثمان اورقان وبايزيد ومحمد وسليمان قد ارسلوا ضدهم عمارات مراكب حربية قوية جداً ولكن عنايتهم ذهبت سدي لان هذا المصاف الجهادي كان يحمي جيداً مدينة روضوس ويعجز محاصرينها واخيراً كانت توجد قواد الاسلام مع عساكرهم مدفونين فى خنادق اسوارها ☆

ثم بعد ذلك بمدةٍ السلطان سليمان الثاني اتى ضدهم بعمارةٍ كلية محتوية على مايتين وثمانين مركباً وثلاثماية الف مقاتل

وبالاخر حصاراً على مدينة رودس شهيراً جداً في تاريخ سنة ١٥٢٢ فهولاء الشرفا الابطال حاموا عن ذواتهم بانواعٍ عجيبة من الجلادة والشجاعة ولكنهم اخيراً من قبل خيانة اثيمة غير مظنونة التزموا بان يخرجوا من هذه الجزيرة بمراكبهم ومن حيث ان فيليبار الذي من جزيرة ادام كان هو المعلم العظيم او الريس الاعلى لهذه الجمعية فقد نزل في مركبه تابعاً الباقين في الحيوة من هولاء الجنود الفاضل وقد انه جال فيهم كفايةٍ من مملكةٍ الى اخري زماناً طويلاً قد توطن بهم ومعهم اخيراً في جزيرة مالطه التي وهبهم اياها كارلوس الخامس سلطان فرانسا بمنزلة مملكة خصوصية لهم وذلك سنة ١٥٣٠ وبعد ذلك بمدة خمسة وثلاثين سنة قد انحدرت مجتمعة قوات المملكة العثمانية ضدهم لكي يرفعوهم من هذا الملجاء الاخير الذي تمكنوا فيه ولكن المصادمة التي بها هولاء الاشراف دافعوا بها عن ذواتهم في حصارٍ شديد ضدهم مدة اربعة اشهر قد تدونت في تاريخ جهادهم باوصاف غير مصدقة والعساكر الاتراك الذين بقيوا في قيد الحيوة بعد انغلابهم ثمانين الف مقاتل التزموا بالرجوع عن مالطه موعبين حزناً من قوة رجولية الريس العظيم يوحنا ده لافاليت ومن شجاعة رهبانه واعوانه وذلك سنة ١٥٦٥ *

ولكن لما كانت الحروب الصليبية كفت وكل الامال في اكتساب اورشليم من جديد فقدت فحينيذٍ مصاف هولاء الشرفا قد غلب فرايض جمعيتهم وتصدروا الى المحاماة في البحر عن المراكب المسيحية ضد القرصان البر الذين كانوا يبلبلون بحر نصف الارض وبواسطة هذه المحاماة اضحت المراكب التجارية امينة من كافة الغوايل البحرية وامور المتجر فازت بالنجاح *

فالجمعية القديمة المذكورة التي بتسمية القديس يوحنا في

اورشليم او ضياف الغربا لم تغب من الارض تماماً التي سكانها ازمنة مديدة اختبروا حقايق اعمال اعضاء هذه الجمعية المجيدة فاشراف مشيخة مالطه الوارثون اسم اوليك الرهبان الكريم قد اوصلوا الى حد زماننا بالتقليد اعمالهم ذات المديح فمجرد ذكر اسمهم الان ايضاً يجدد تذكارات صفاتهم وكرامة جمعيتهم التي ركنها الاساسي كان المحبة الحارة نحو القريب والاحسان فى اسعافات الفقرا والمحتاجين وساير افعال فضايلهم التى لم يزل صيتها يرن فيها بين كل المسيحيين ☆

اما المصاف الثانى الذي هو جمعية الهيكليين فتوسست سنة ١١١٨ من تسعة اشخاص من الشرفا الفرنساويين الذين تبعوا غودافروا ده بويون الى اورشليم فهولاء قد رتبوا اخويتهم على هذا الاساس وهو ان يحموا من معارضات الاسلام وظلمهم الزوار المسيحيين الاتيين لاجل زيارة القبر المقدس فى اورشليم فعديد وافر من النبلا قد اقتفوا نموذجهم وانضافوا اليهم مكتتبين فى مصافهم بهذه الجمعية المقدسة اذ تايدت من الامرا والملوك وتخصصت بانعامات سامية من الاحبار الرومانيين قد نمت وتكاثرت في زمان قليل وصارت تمارس حروباً مجيدة ضد الاسلام ☆

وهكذا قد تصورت هي اخوية رهبانية وعسكرية معاً تحت تسمية اشراف الهيكل او هيكليين وانما لقبوا بهذه التسمية من قبيل ان السلطان بودوين الثانى شيد لجمعيتهم مسكناً ميشاعاً بمنزلة دير فوق دثار هيكل سليمان في اورشليم وقد كانت نذورهم الرهبانية نظير نذورات جمعية ضياف الغربا الثلثية اى الفقير والعفة والطاعة ثم المحاماة عن الارض المقدسة ضد الغير المومنين وكان سنجقهم يسمى بوصرانت او الفر الجميل مكتوب عليه هذه الالفاظ الداودية وهى « لا لنا يارب » لا لنا « لكن لاسمك

اعطِ المعهد " فالقديس برنردوس ريس دير كلارفوكس الريس العام المنذر العظيم بالحرب الصايبية الثانية قد كتب عن جمعية الهيكليين قايلاً « انهم يعيشون خلواً من انهم يملكوا شياً خصوصياً حتى ولا ارادتهم وملابسهم بسيطة موعبة من الغبار ووجوههم محترقة سواداً من حرارة الاشعة الشمسية ومناظرهم شرسة صارمة وفى دنوهم من معركة الحرب هم متسلحون بالايمان من داخل وبالحديد من خارج وهذه الاسلحة الحديدية هى زينتهم الوحيدة وهم يستخدمونها بشجاعةٍ قوية فى اعظم المخاطر بدون ان يخافوا لا من القوة ولا من الكثرة فى البر ورجاهم كله متوطد فى اله الجنود وفى محاربتهم من اجله تعالى يعتمدون باجتهاد اما على نوال غلبة اكيدة واما على ميتة مقدسة مجيدة فيا لهم من انام فى حيوة ينتظر فيها الموت خلواً من خوفٍ بل يشتهى بمسرةٍ ويقتبل بطمانينة »

فهولاء الهيكليون طول ازمنة الحروب الصليبية قد حفظوا صيت اسمهم مشعشعاً فى الافطار بمديحٍ سامٍ وخدموا المسيحيين بفوايد عديمة الوصف ولكن حينما الحروب المقدسة كفت قد رجعوا الى الغرب واقتبلوا تكريمات اعمالهم بتقريظات فخيمة غير انه بعد ذلك بطالتهم من الاعمال وكثرة غناهم قد ارخت عنانهم واظلمت ضياء سمعتهم وافسدت مجدهم السابق لان سعت اموالهم صيرتهم متكبرين محبين المجد الباطل ومن دون تاخير تقدمت الشكاوات بالخيانات والتعصبات وبمآثم فظيعة وبذنوب اخر شنيعة وهكذا صار الاعتماد على ملاشات جمعيتهم وهذه الملاشات وضعت بالعمل تحت ولاية سلطان فرانسا فيلبس الجميل وبحكم البابا اكليمندوس الخامس في مجمع عام التيم في مدينة فيننا من مملكة فرانسا من اقاليم دوفينه سنة ١٣١٢ ❊

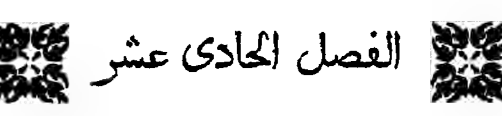
فكل العالم عرف نهاية هولاء الهيكليين المنحوسة وموتهم محرقين في كيمات الحطب المتقدة بالنار فمهما كانت ذنوبهم لا ريب في ان اعداهم بالغوا في شناعتها وبان التهم والحسد والغيرة قد فارت بمسك البغضة ونتج عنه الحكم الدموي الذي صار اشارة في زمان تملك ابن العديس لويس سلطان فرانسا ☆

واما جمعية المصاف الثالث المسماة طوتونيكيين التي قد اعطت بلاد المانيا تكرمة وافرة فقد اتخذت تاسيسها من قبل حسن تقوى بعض العساكر المسيحيين الذين من مدن بريما ولوبك حينما كان الصليبيون سنة ١١٩٠ قد عسكروا زمانا ليس بوجيز في محاصرة مدينة عكه في فلسطين على ان البعض من الجنود الشفوقين اذ قد تحركوا من عواطف محبة القريب والرافة على شفاء المجرحين والمرضى اخوتهم وارفاقهم فقد صيروا مضاربهم نظير بيمارستانات مغطاة من كل جهاتها جيدا بقلوع المراكب وكانوا ياخذون اليها هولاء المجرحين والمرضى ويعتنون بعلاجاتهم وخدمهم باهتمام بليغ بملحية قلبية فتصرفهم هذا الحميد قد اكسبهم ميل سلطان اورشليم وبطريركها نحوهم باعتبار ليس باقل مما احترمهم به ساير الامرا والاشراف ومن ثم اربعون رجلا من اشراف بلاد المانيا من الرعايا النمساويين قد اختاروا لذواتهم الدخول في هذه الاخوية كما تم وبذلك اقتبلوا اختصاصات من الامرا كافة الذين كانوا في الحرب الصليبية كما انه بعد مدة اذ عرف الحبر الروماني سليستينوس الثالث حال هذه الجمعية قد اثبتها ومنحها انعامات عظيمة فهولاء الرهبان الاشراف ولين كانوا متاخرين في الزمان عن رهبان القديس يوحنا المعمدان وعن الرهبان الهيكليين فمع ذلك في زمان وجيز غايروا هولاء واوليك في جودة التصرف واعمال الرحمة الجسدية حتى لا نقول

فاقوهم وحازوا من جميع المسيحية بالاكرام والاعتبار السامى فبعد ان خدموا زوار بلاد فلسطين خدمةً لا مزيد عليها من الصلاح واظهروا من النجاحات فى الحروب ما اكسبهم مجداً وصيتاً عظيمين قد دُعوا الى بلاد اوروبا الشمالية لانهم أُعتبروا اكفى من الجميع لحماية تلك البلاد من هجمات العساكر البروسية عليها واذ توجهوا الى هناك قد اخضعوا لسطوتهم وشرايعهم بلاد بروسيا وليفونيا و يوميرانيا ولكى يحفظوا هذه المحلات التى ملكوها قد شيدوا على حدود البالتيك حصوناً منيعة وابراجاً قوية فظير قلعة البنيك، وماريبورك وطهورن ورانتسيك وكانيبورك *

ثم ان هذه الجمعية الرهبانية قد اتخذت تسمية رهبنة القديسة مريم النمساوية او القديسة مريم الاورشليمية فيقول بعض المورخين ان الاسم المذكور لزمهم من قبيل البيمارستانات والكنيسة التي تشيدت لجمعيتهم فى اورشليم تحت اسم البتول مريم والدة الاله خاصةً الطايفة النمساوية لاجل مرضاها فالداهية الاعظم والمصيبة الامر من كل ما احاق بهذه الرهبنة مما اكمد بهاء رونق اسمها قد كانت خروج بعض المتقدمين فيها عن الطريق الى العصاوة خاصةً رئيسها العالم البارتوس ده براندابورك فهذا الامير ابن ابن السلطان البارتوس اكيلا (احد سلاطين المقرنة الشمالية الصغار) لما انتخب سنة ١٥١١ الى وظيفة ريس عام هذه الجمعية قد اهمل ذاته بتعاسة ان يتبع تعاليم الاراتيكى لوتاروس رافضاً الايمان الكاثوليكى خاينا فى حق الجمعية التى اختارته لهذه الوظيفة ثم انه انضاف بعد ذلك الى الاتحاد مع سيجيزموندوس الاول سلطان بولونيا خاله وختم سنة ١٥٢٥ على صك به التزم ذاته بان بروسيا تخضع لخاله هذا وتاديه الجزية مع ان هذه المقاطعة العظيمة كانت ملكه الحر ميراثاً غير قابل الايهاب والانقسام

صفةً دوكية لعيلته الرهبانية لتقوم من مداخيلها باثقالها فتبعاً لذلك اضاعت هذه الرهبنة حقها هذا الكلي الغناء ولم يعد لها امتلاك سوي في بلاد النمسا فرتبت كرسيها في مارجانتيم داخل فرانكونيا وهناك سنة ١٥٢٦ انتخبت لها ريس عام جديد وهو الانبا فانته ده كرونبورك ثم بعد ذلك سقطت هذه الجمعية من مجدها وصيتها وغناها وقد تناسى اعضاوها التزاماتهم الموسسة على فرايضهم الاصلية ولم يعودوا يحتفظوا من رسومهم الا بعض اشيا ضرورية لدوام بقاهم في اعين الامرا مكرمين نوعاً من حيث ان اوليك الامرا الفخام كانوا لهم سنداً قوياً وهم كانوا متداخلين في امورهم كثيراً ولاجل ذلك امكنهم ان يستمروا متمتعين في المداخيل الباقية لهم الى حين نهاية هذه الجمعية فيما بعد ✿



الفصل الحادى عشر

في سلطنة اورشليم وفي تملك غودافروا ده بولون سلطانها الاول وفي حصار ارسور وفي مجلس قضاة اورشليم ثم في سلطنة بودوين الاول

انه لمشهدٌ جديد يستحضر لدينا ويستحق ملاحظتنا ليس باقل مما سبقه على ان عدداً قليلاً من الخيالة الشرفا الشجعان قد توطدوا اسياداً في ارضٍ اي نعم انهم اكتسبوها ولكنها لم تزل مملوة من اعدا اشدة كثيرين جداً مما لا يحصى عددهم وبعد باقين اوليا احراراً على الاقليم باسره فعساكر جديدة قد اقبلت من الاوروبا الى الاسيا لكي يساعدوا اخوتهم الاولين في اثبات ما ملكوه وتاييده في ولايتهم وهذا هو صورة جديدة لمنظرنا تعطى القاري سبباً لان يتبعنا في قراة تاريخ سلطنة اورشليم الموسسة

بالحرب الصليبية الاولى والمسلمة لعناية التايد العظيم الذى الان تشاهد من جديد قوة اعماله *

فسلطنة اورشليم لم تكن وقتيذٍ تحتوى على شى خارج عن هذه المدينة سوى نحو عشرين قرية قريبة اليها فى دايرتها لكنها منفصلة بمحلات اخر من البلدان التى لم تزل سناجق الاسلام منصوبة فيها كما ان مدن صور وصيدا وعكه وقيسارية وارسور وساير الشطوط التى فى شمالى نهر الاردن كانت باقية فى تملك الغير المومنين ومن ثم المسيحيون كانوا محاطين بالاخطار خلواً من كنافٍ وكانوا يحامون عن موجوداتهم واعيالهم تعسفاً بجهاد متصل فلكى تتشدد الاشخاص الصليبية على المحاماة عن ذواتهم وعن ارزاقهم بمحبةٍ قد صدر الامر بان من منهم كان يقطن فى بيتٍ او فى ارض يهتم فى فلاحتها مدة سنة واحدة ويوم فوضع يده فى هذه المدة يصير له صنة تملك اختصاصى شرعى ثابت مطلقاً كما ان من كان يغيب عن بيته او ارضه مدة سنة ويوم فكان يعدم حقه على ملكه مهما كان *

واما السلطان غودافروا فلكى يمكنه ان يحمى حدود اورشليم التى سُلمت لحراسته فكان يلتزم على الدوام بان يغزى على الاعدا الذين لم يكونوا يهجعون عنه فى الوقت الذي فيه القايد تانكريد كان عند شطوط بحيرة جانيصارية يمتلك طباريه ومحلات اخر من اقليم الجليل كما ان سلطان اورشليم المذكور قد رتب جزية معينة على الاسلام الامرا الذين كانوا ممتلكين قيسارية وعكه واسكالون وكذلك صد قوة العرب عن حدود شمالى شط الاردن وبعد هذا قد حاصر مدينة ارسور لان اهالى هذه المدينة بعد ان قدموا الطاعة للصليبيين بمدة وجيزة قد نقضوا بالعداوة فلما هم تضايقوا من طول مدة الحصار وشدته التجاوا الى واسطة .

غريبة وبربرية معاً في محاماتهم عن ذواتهم دفعةً اخيرةً وهي ان احد الشرفا الصليبيين جيرارد ده افاسناس قد كان اهل ارسور اخذوه اسيراً وابقوه عندهم في الحيوة فاخيراً اخرجوه من الحبس وربطوه بحبلٍ ودلوه من على السور حيث كان مفعول الحصار اشد قوةً فيقول البارنوس الاكسى ان جيرارد عند نظره ذاته فلا بد مقتولاً خايباً من ميتة مجيدة قد صرخ بتوجعٍ مستحلفاً صديقه غودافروا بان يحفظ له الحيوة بواسطة رجوع اختياري عن المدينة فهذا المنظر والحادث الغريب قد مزق احشاء السلطان غودافروا ولكنه لم يحل عزمه بل اذ كان هو قريباً من جيرارد اخذ يشجعه على ان يسلم ذاته للموت شهيداً ثم صرخ بهِ قايلاً انا لا اقدر ان اخلصك حتى لو كان شقيقي اسطاكيوس موضعك لما كنت اخلصه من الموت فاذاً انت مُت شريفاً في الحرب كاحد النبلا اقرانك وكمسيحي مجاهد مت لاجل خلاص اخوتك الذين في العبودية ولاجل مجد يسوع المسيح فهذه الكلمات قد شجعت جيرارد وقوته على اقتبال الموت ثم توسل الى ارفاقه بان يقدموا فرسه وسلاحه نذراً لقبر المسيح وبان يتوسلوا لله من اجل راحة نفسه قال هذا ومن دون اعاقة قتل في رشقة عظيمة من المواد المدفوعة بالات الحرب على السور والجميع اعطوه تسمية شهيد غير ان بعض المورخين اكدوا ان جيرارد لم يمت بل ان الحبل انقطع بهِ من الهرب فسقط ووجد طريقة لخلاصه حياً واخيراً اتى الى اورشليم كمنتصر وانه مكافاةً له عن فداه دمهُ تقدمةً قد اعطى له ملكاً قلعة القديس ابراهيم في جبل يهوذا ❊

اما غودافروا فداوم الحرب بقوة ضد ارسور وحينيذٍ ورد اليه قصاد امرا سامرة الذين نزلوا من الجبل الى المعسكر اتين اليهِ

بهدايا وتقدمات غنية دليلاً على طاعتهم ولكن هولاء القصاد قد اندهلوا من مشاهدتهم سلطان اورشليم جالساً في خيمته على التبن خلواً من عسكر حراس واقفاً خارجاً وبدون فخرة وزينة ملوكية بثوب اعتيادي الا ان السلطان اذ لحظ اندهالهم اجابهم قايلاً : لما انذهلتم : افهل الارض لا تكون لنا مجلساً مدة حياتنا مع انها ضرورة هي تكون مسكننا الخاص بعد موتنا ولكن هولاء الاسلام المتعجبون من صفاته وكلامه قد ازدادوا انذهالاً من قوته ايضاً لانه بحضورهم اتفق له انه انتضى سيفه وضرب به راس جمل فقطعه نصفين بضربة واحدة فمن ثم عند رجوعهم الى بلادهم كانوا يذيعون بما عاينوا وسمعوا مفتخمين اخلاق قايد النصاري وشجاعته وحكمته وقوته ✿

ثم ان اخيراً آلات الحرب الخشبية والبرج المكون من الاحجار ضد اسوار ارسوز كلها قد احترقت من المواد النارية التي اندفعت عليها من داخل وغودافروا قطع الامل من امتلاك المدينة فرفع عنها الحصار ورجع الى اورشليم حيث بلغه خبر مجي عساكر غريبة جدد الامر الذي اسرّ قلبه لان هذه المعونات العسكرية كانت مشتهاة منه لزيادة بلاده اتساعاً ومجداً وراحةً للمومنين ✿

ففي عيد الميلاد كان وصل الى اورشليم عدد عظيم من الزوار الايطاليانيين خاصةً من اهل بيزا وجينوى برفقة رييس اساقفة بيزا دايبارتوس والاسقف اريانوس فدايبارتوس اتي الى اورشليم بصفة نايب باباوي قد امكنه ان يسيّر الامور على صالحه بانه اقيم بطريركاً على اورشليم عوض بطريركها المتوفى ارنولد ثم اتى الى هذه المدينة المقدسة بوهيموند امير انطاكيه وبودوين امير الرها ورايموند ده طولوزا وتانكريد وكثيرون من القواد والروسا واما غودافروا فخرج الى ملتقاة هولاء الزوار الشرفا مرافقاً من

الاكليروس الى حد بيت لحم ومشى معهم رجوعاً الى اورشليم فيقول احد المورخين ان السلطان غودافروا قد قام باحتفالات عظيمة لهولاء الضيوف الاجلا وعالهم مدة فصل الشتاء بانواع تليق به وبهم من الفخرة والاكرام واعياد الفرح مسروراً بنوع خاص بمشاهدة شقيقه بودوين سلطان الرها ❋

ثم ان سلطان الرها هذا وسلطان انطاكيه بوهيموند اتبعا نموذج سلطان اورشليم يقبولهما ان يلبسا خلعة التملك من قبل الحبر الروماني على البلاد التي امتلكوها قبلاً (كان الحرب المقدسة صارت من قبل قداسته) وهكذا غودافروا المحسن التقوي بعد ان اوضع ذاته تحت طاعة الكرسي الروماني فكر بان يوطد سلطنة اورشليم على اساس متين بابرازه شرايع ذات حكمة شانها ان تضبط كلاً في حدوده وتحفظ العدل والمساواة بين شعب كان لم يزل متبلبلاً بسبب الحروب فقد اغتنم اذاً هو فرصة وجود الامرا المذكورين عنده فعقد جمعية احتفالية في قصره الذي في جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح حيث التيم معه سلطان انطاكيه وسلطان الرها والامرا والقواد وساير الاشراف والنبلا ومتقدمي الشعب ايضاً وهناك اوضع لهم رسوم الشرايع التي كان رتب اصولها فيها موضبة بفطنة وقسط حقوق السلطان وحقوق ذوي الوظايف والاشراف والرعية كلاً بما يخصه وبما يلزمه. وبما يومر به نظير شرايع الممالك الاخر حسب الظروف الزمانية والمكانية والشخصية ❋

على انه في حال كون سلطنة اورشليم ممتلكة بنوعها ومحاطة من اعدا كثيرين اقويا في غيرة ديانتهم فموضوع الشرايع وتقييده كان ضرورياً ان يلاحظ الحرب في الرتبة الاولى فاذاً اوليك الذين كانوا ينقلون الاسلحة للمحاربة قد وجدوا الاوفر استحقاقاً

في الفلك والاختصاص وكلهم اعلنوا ذوى حق على التمتع بالحقوق الدنية كابنا المولد من اي قبيلة كانوا واما نظراً الى الفلاحين واهالى القري والموجودين في الاسر وامثالهم الذين بنوع ما يعدون فيها بين الملاكة فقد وضع الترتيب بما يلاحظهم فى جودة الاعمال ولكن من حيث ان الديانة السماوية بالانعامات نحو الفقرا توجب الاعتنا الخاص بالمحتاجين فمن ثم تعينت ثلثة دواوين سلطانية لاجراء تلك الشرايع المدنية بالعمل تحت ابراز القسم على السلوك بموجبها فالديوان الاول كان يترأس عليه السلطان واعضاوه مولفة من الاشراف وهذا يقضى ويبرز الاحكام الملاحظة الرعايا المتقدمين بانوظايف وغيرها والديوان الثاني اربابه مولفة من كبار المدن كل واحد من مدينة والمترأس عليه هو القيمقام فى اورشليم ويخصه الاهتمام بالمداخيل والمصاريف والحقوق والتدابير المدنية واما الديوان الثالث فهو ديوان القضا للشرقيين فى امورهم ودعاويهم المدنية مترأس عليه قاض من اهل البلاد ليجري بموجب كتاب الشرايع حقوقهم وعوايدهم ويهتم باتمام واجباتهم فعلى هذه الصورة كل اهالى البلاد كانوا يتحاكمون من اناس مثلهم وطناً ولغةً مساوٍ لهم ولكن من حيث ان صفات اهالي اوروبا ذوى الفخر والدم الحار بالحرية لم يكونوا يقدرون ان يتحاكموا او يدبروا بروح العدل المهلى فهكذا شوهد ادخال عوايد بربرية فى كتاب الشرايع الجديدة ملاحظة اهالى بلاد الشمال فى اوروبا كالامتحان بالماء والنار والمعركة الا انه مهما كانت شرايع الاجيال المتوسطة خشنةً فمع ذلك كانت توجد فيها مراسيم وقوانين واحكام تشير بكفاية الى سمو حكمة اوليك المتشرعين ونحن يلزمنا ان نقدم جزية معرفة الجميل نحو ديانة المسيح الذي احيانا كثيرة بواسطة شريعة انجيله المقدسة

كشف للحق لاوليا الامور مرشداً عقولهم البشرية الى العدل والاستقامة والانسانية الامر الذي حصل لسلطان اورشليم بمجاورته قبر المسيح لانهُ عادلٌ هو ان الشرايع المولفة في وطن الاله والانسان تحتوي على ما من شانه ان يكون عذباً ملاحظاً الرحمة نحو المساكين بالطبيعة البشرية فهذه الشرايع التى فيها بعد عاشت في الممالك المسيحية قد كانت ملايمة للاراضى المقدسة بل احياناً وجدت هى نموذجاً لبعض ممالك اوروبا التى وقتيذٍ كانت لم تزل بربرية ثم بعد ان انتهت تلك الجمعية الحافلة بالقرار الاخير على كتاب الشرايع المشار اليها قد نُقل الكتاب الاصلي ووضع باكرامٍ فى كنيسة القيامة وسمى مجلسُ اورشليم القضائى ☆

وبعد ذلك كلٌ من السلاطين والامرا رجع الى حكمه كما ان تانكريد قد توطد فى امريته الجديدة طبارية فلما عرف السلطان غودافروا الخطر المبين الذي الم بتانكريد اخذ صحبته جانباً من العساكر واسرع الى معونته والاثنان بشجاعةٍ غير مغلوبة مع عساكرهما فاذا بالغلبة على تلك الجيوش الاسلام الذين حفظوا حيوة الباقيين منهم بالهرب الى الجبال والاحراش ناحية جبل لبنان وهكذا اوليك العساكر الكثيرة جداً الذين فكروا بان يبيدوا من شط الاردن بيارق الصليب بالكاد بقى منهم القليلون الذين رجعوا الى دمشق يتخبرون بالويل الذى حل بهم ☆

فسلطان اورشليم الملو من الفخر بالغلبة قصد ان يخضع لولايته باقى بلاد فلسطين ولكن مُنية الموت داهمت هذا الذي كان موضوع حب الصليبيين العزيز وعمدة رجاهم على ان هذا السلطان المعظم اعتري من مرضٍ خطر عرف هو فى سرعة زوال حياته فتجمع حوله القواد والشرفا وحرضهم على اتمام واجباتهم

واخذ الحلف منهم على دوام المحاماة الشديدة مدة حياتهم عن البلاد التي امتلكوها واوصاهم وصايا ابوية تليق به وغب ايام قليلة في ٢٨ تموز سنة ١١٠٠ رقد هو يالرب رقود الابرار بميتة مقدسة فالجميع من روسا ومروسين حتى البعض من المسلمين الذين اختبروا حقايق عدالته قد بكوا عليه بكاء مراً بتيرات دموع من اعينهم ونشدوا اوصافه بمراثي وقصايد وحزنوا على فقده كحزن كل احد على موت ابيه وعلى فقد سنده ❊

فلقد كان هذا السلطان صنع اعمالاً كثيرة عظيمة واحصي في عدد السلاطين الاكثر شهرةً في العالم لو انهُ فاز بمدة طويلة من الزمان في تخت اورشليم ولكن مع ذلك هو كلل هامته بتاج مثلث الصفات الملوك العظما وهي الشجاعة الصنديدية الغريبة والحكمة السامية والفضايل المسيحية وقد يبان ان ازمنتنا هذه السعيدة نفسها لا تقدم اسماً اكثر من اسمه مجداً ويمكن لتاريخنا هذا ان يقول عنه ما قاله الكتاب المقدس عن يهوذا المكابي وهو ان هذا هو ذاك الذي ضاعف مجد شعبه مشابهاً لاحد الجبابرة الذي يتقلد باسلحته في المعركة وسيفه كان يحمي المعسكر جميعه ثم ان جسد هذا السلطان الاول من اللاتينيين الفرنساويين لاورشليم قد دفن باكرام حذا جبل الجلجلة في كنيسة القيامة غير بعيد من قبر المسيح والى الان الزوار اللاتينيون حيثما يوجدون هناك يفتخرون بان يضعوا ايديهم على ضريحه كعلى سلاح غير مقهور الذي انقذ قبر مخلص العالم من ايدي الغير مومنين وبملامستهم اياه يشعرون في ذواتهم باتقاد نار الشجاعة كما اذا مست الاسلحة النفية تحمي رونقها لزيادة مفعولها ❊

ومن حيث ان موت هذا السلطان سبب في معسكر المسيحيين بلبلة وافرة لانهُ بقي جسماً بلا هامة فبطريرك اورشليم دايبارتوس

جمع القواد والروسا والاشراف لاجل الاهتمام بانتخاب الخليفة لهذا التخت متقدماً ذاته في الاول اليه غير ان الاسياد المذكورين رفضوا ادعاه او طلبه هذا فهو كتب الى بوهيموند سلطان انطاكيه مستدعياً اياه لكي يساعده على مرغوبه ولكن هذا الشريف الذي وفتيئذٍ كان مخاطاً من الاسلام قد احتقر المطلوب غير موافق لرايي هذا البطريرك المحب الرفعة العالية واما الاسياد اصحاب اصوات الانتخاب فقد اتفق رايهم على تسليم هذا التخت المقلد باعراق حياتهم الى من هو في الامرا اكثر قوة واستحقاقاً من الجميع وهو بودوين سلطان الرها شقيق غودافروا ومن ثم انتخبوه كلهم الى هذا المقام فهذا الامير خلسواً من غير فضل تخت اورشليم على مملكته وبين كانت اغنى واوسع متنزلاً عنها الى ابن عمه بودوين ده بورغ وحالاً سافر هو من الرها اتياً الى بلاد فلسطين لياخذ التملك على سلطنة جديدة التي كرسيها مدينة اورشليم وقد اصحب معه اربعماية خيال والف ماشٍ من العساكر وقد تصادم من الاسلام في مسيرة بعيده عن بيروت تسعة اميال من امير دمشق وامير حمص بعساكرهما ولكنه بشجاعة وجهاد الذين معه قد ضربهم وبددهم هاربين وغب ايام قليلة وصل الى اورشليم ودخلها احتفالياً بابتهاج شعوبها الذين كانوا يفتخرون غودافروا في شخص اخيه بودوين سلطانهم الجديد واثقين بان الله اختاره راساً على المسيحيين وموطداً للبلاد المتملكة حديثاً ☆

فسكان هذه المدينة ما انشغبوا في انتخابهم هذا الخليفة لان المورخ غويليوم الصوري يصفه بكونه انساناً مستعداً فعالاً جليلاً شجيعاً نبيهاً حكيماً في تدابير الامور الحربية وريساً اميناً لكل الصفات الحميدة المختصة بعيلته الشريفة وقد كان وضع حداً

لما كان عنده من محبة الرفعة ونفخة الكبريا ولم يعد فيه ما كنا لاحظناه من البغضة والمغايرة لتانكريد لانه بحسب كونه شريفاً شهماً وضع فى قلبه بدلاً من تلك الشوايب كمالات مسيحية تليق بمولده وقد كان فى مدة ولايته على الرها اظهر حقايق جودته وحلمه وسخاه وغب ان حصل سلطاناً فى كرسى داود القديم ما ظهر منه الا صفات سلطان عظيم وزمن تملكه عليه صار مجيداً ومن حيث انه اتبع نموذجات اخيه وسالفه غوادافروا فقد استحق نظيره ان يكون تمثالاً حياً للامرا اللاتينيين وارثاً اقتداره وصفاته *

فقد عرف هو جيداً ان سلطنة اورشليم كان يلزم ان توجد تحت حروب متصلة وهذا الافتكار دام معه طول زمان تملكه فى مدة ثمانية عشر سنةً فيها لم يكف فى الاهتمام بامتداد ولايته او في المحاماة الشديدة عن بلاده من هجمات الاسلام ضده لانه فى كل سنةٍ كانت سكان اورشليم تسمع قرع الناقوس الكبير انذاراً بقرب عساكر الاسلام اليهم وكان هو فى معركات الحرب بحسن ايمانه ورجاه يفوز بعجايب عظيمة من عود الصليب الكريم الذى ما كان يهمله موضوعاً فى الكنيسة لعبادة الشعب الا فى ايام الراحة من الحرب ، على انه عندما جلس هو على التخت الملوكى ما توخر عن ان يمشى على راس جيش قليل ضد مدينة اسكالون واذ لم يمكنه ان يمتلكها قد خرّب الضيع التى حولها ورجع ثم بعد ذلك اتجه نحو مدينة حبرون (اي الخليل) واعتمد ان يدخل الي البلاد العربية " فالمورخ فولشارده شارتراس الذي كان برفقته قد حرر هكذا متحركاً من عبارات الكتاب المقدس التى هو يذكرها قايلاً اننا قد اجتزنا الجبال القريبة من مدفن روسا الابا الذي فيه مستريحة بمجدٍ اعضاء جسد

ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وساره ورفقه „ ثم جينا الى الوادى او السهل الذي كانت فيه مدن صادوم وعامورة المحلات الاثيمة التى حركت ضدها غضب الله بالانتقام منها ومن سكانها حيثما توجد الان بحيرة لوط المسماة اسفالتيت" ونحن دايماً مواصلون مسيرنا فبلغنا الى وادٍ مملو من الاشجار المثمرة المكان الذي فيه موسى النبى بقوة العون الالهى ضرب بعصاه تلك الصخرة الصلدة فتجرت منها المياه وفاضت الاودية فنبع الماء المذكور الى الان تخرج منه مياه غزيرة وانا نفسى استقيت منها فرسى ومن معي ثم اننا بعد ذلك صعدنا الى جبلٍ عالٍ وهناك كان يوجد مشيد على اسم القديس هارون فى المكان الذي فيه ظهر الله لموسى ولخليفته يشوع بن نون فمشاهدتنا هذه المواضع المقدسة كلها التى الى حد الوقت الحاضر ما كنا عرفناها قد اوعبتنا تعزيةً ومسرةً *

ثم ان المعسكر رجع الى اورشليم فى اوايل شهر كانون الاول من طريق بيت لحم حيث هو قبر راحيل وبعد ايامٍ اذ راى بودوين البطريرك دايمبارتوس حاصلاً على استعدادات جيدة نحوه فقد ارتضى بان يقتبل من يده المسحة الملوكية وان يتوج هامته باكليل ملوك يهوذا ولكن هذه الاحتفالات بتكريسه وتتويجه لم تكمل فى اورشليم امام جبل الجلجلة بل في بيت لحم على ان بودوين قد تذكر من الجهة الواحدة بان اخاه غودافروا ما امكن بان يرتضى ان يوضع على راسه تاجاً فى المدينة القاتلة الاله المتجسد الذي فيها تكلل باكليل من شوك ومن الجهة الثانية الاشراف والمتقدمون كانوا يطلبون اليهِ بلجاجةٍ ان يقبل هو تاج الملك بحسب كونه وريثاً تخت ملوك يهوذا فمن ثم هو دبر ان يصير هذا الاحتفال فى بيت لحم فى مدينة

داود الذي فيها المسيح ولد بالجسد واقتبل سجود الرعاة وهدايا ملوك الفرس ☼

فبعد ان تردى بودوين بالبرفير الملوكي ظهر اعظم واشهم واسخى مما كان هو قبلاً غير ان تانكريد الذي لم يكن تناسى بالكلية الظلم الذي صنعه بودوين ضده تحت اسوار طرسوس وما حدث منه هناك قد رفض ان يقبل سلطنته على اورشليم واما بودوين فقد كان يرغب جداً ان يضع حداً نهائياً لهذه الخصومة القديمة ولكن صفة كونه سلطاناً لا تسمح له بالنوطى الى التضرع في طلب الصلح من الامير السيشيلياني المذكور المغتاظ منه غير ان المصالحة تمت في مصادفة بها وجد بودوين وتانكريد معاً في ميئا حيفا حيث عانق احدهما الاخر وقد توطدت حالاً بينهما صداقة ومحبة متبادلتين من الجهتين ومن حيث ان الامير بوهيموند قد كان سقط اسيراً في ايدي الاسلام وبقى مدة مستطيلة مقطوع الامل من رجوعه الى انطاكية التي اضحت خالية من والٍ عليها فتانكريد قد اختير سلطاناً لها وهو توجه الى هناك اخذاً التملك على هذه السلطنة تاركاً امريته على طبارية والجليل التي كانت اعطيت له من السلطات غودافروا مكافاةً عن اتعابه السابقة في الحروب ☼

واما سلطان اورشليم فداوم اهتمامه في الحروب واجتاز بعساكره نهر الاردن وبدد قبايل العرب المتوطنين هناك واغتنم موجوداتهم الغنية جداً ثم ان اجتهاد هذا السلطان العديم الملل الغريب عن العادة قد كان يجذبه خلواً من كفاف الى التقدم جيداً بحروب اخر ومع ان عساكره كانت قليلة العدد فمع ذلك كانت انتصاراته بهم عجيبة بشدة عنايته وشجاعته وقد يمكننا ان نقول انه يومياً كانت احد القلع او احد البلدات او احد الضيع مهما

كانت تسقط تحت ولايته وقد كانت من ممالك اوروبا باتصال
ناتي جماهير من المسيحيين الى اورشليم من قبل سماعهم حريتها
وعن امتلاك البلاد التى حولها بايدى العساكر الغالبة ومن حيث
ان عدداً وافراً من المسيحيين جاءوا من مشيخة جينوا بعمارة
مراكب فالسلطان بودوين غد اشهر لهم اعتماده بان يرافقهم فى
محاربتهم الاسلام موعداً اياهم بان يعطيهم ثلث الغنايم التى
ياخذوها من الاسلام وبانه كل بلدة يمتلكها معهم يشهر هو
فيها طريقاً مسمى باسم اهالى جينوا فاذ كان استعان هو بهولاء
العساكر المسيحية قد مشى معهم فامتلك مدينة ارسور كان سنة ١١٠١
المدينة التى قبلاً نبتت غير مغلوبة من غودافروا ثم انتصر على
مدينتى اوباتريدا وقيسارية اللتين كان هيرودس الملك شيدهما
تكرمة لافغسطوس قيصر واخضعها لولايته ومن حيث ان اسلام
مدينة اسكالون توجهوا ضد مدينة الرملة فبودوين قد مشى على
رأس ثلثماية خيال وتسعماية ماشى لمحاربة هولاء الجيوش المصرية
الذين كانوا اثنى عشر الفاً محارباً ولما حصلوا فى خطر مبين
من سيوف الاسلام اخذ بودوين يشجع جنوده هولاء بقوله لهم
انهم انما يحاربون لاجل مجد يسوع المسيح صارخاً بهم هكذا
تذكروا جيداً بانه بالهرب لا يوجد خلاص بتة فمملكة فرانسا
هى بعيدة جداً من المشرق الذي ليس فيه مكان ملجاء يحتمى
فيه الهاربون فاذ تحركوا بهذا النوع من كلمات سلطانهم وشاهدوا
نموذج شجاعته فقد اظهروا افعالاً عجيبة من الغيرة. والحمية غير
مبالين من ان سهول الرملة واسكالون اضحت مدفناً لكثيرين
منهم لانهم اخيراً صاروا شهوداً على انغلاب لعدايهم امامهم
بكثرة مهيلة لان الاسلام قد انطحنت قوتهم فادبروا بالهرب
تاركين مضاربهم وموجوداتهم ومن ثم بودوين قد جرى فى اثرهم

ودخل مدينة يافا منتصراً صحبة عساكره الابطال واقتسم الغنايم الغنية التي امتلكوها خارجاً وداخلاً من الاسلام ☆

ثم ان التاريخ بايراده نجاحات السلطان بودوين يشرح في مديحه عن حادث شريف جليل ليس اقل انتصاراً ومجداً له من غلبة عظيمة لو كان فاز بها على معسكر كامل من الاعداء وهو انه اذ كان هو سايراً بحرارة متقدة وراء الاسلام المذكورين قد طرق سماعه صراخ بنحيب يهتف وراه فتوقف عن المسير ليفهم ما هو ذلك الصراخ فشاهد امرأة مسلمة تصيح من وجع الطلق ولم تقدر ان تهرب من هجوم العساكر الاتية في اثره فقد شملته الرافة عليها وحالاً امر بفرش حرام لها ورمى فوقها ثوبه الى ان وضعت ثم صيرها ان تُحمل فوق جمل مع زوادة لها من الخبز والماء وغيرهما واطلقها تسير بحرية الى حيثما شاءت التوجه مع طفلها موكلاً بها بعض النساء في ان يقدمنها الى رجلها الذي كان من المتقدمين في الاسلام وكان قطع الامل من ان يشاهدها حيث الا ان فرحه لم يكن ان يوصف حينما راها مقبلة اليه مخدومة محملة ذخيرة وملبوساً وبدموع سخينة حينئذ حلف بانه مدة حياته كلها ما عاد ينسى الجميل الذي صنعه معه ومع زوجته سلطان النصارى ☆

ثم في السنة التابعة سنة ١١٠٢ حينما عرف بودوين ان جيوشاً مصرية التموا من جديد في اسكالون وخرجوا منها اتين ضد معسكر المسيحيين فقد اهتم هو في ان يخرج الى مصادمتهم فعساكره قد كانوا عرفوا ما حدث لتلك الجيوش العديدة التي كانت جاءت من اوروبا الى الاسيا وكيف انهم كانوا مقسومين ثلثة اقسام وكان على روسهم قواد وامراء شهيرين ومع ذلك بددتهم الاسلام عساكر سلطان نيقيه والموصل في الاسيا الصغرى كما تقدم

شرح ذلك في الفصل العاشر من هذا المجلد ولاحظوا ان العساكر المصرية الذين خرجوا من اسكالون كانوا عشرين الفاً فمع انهم كانوا اقل عدداً منهم لم يستنكفوا من محاربتهم وكان فيما بين هولاء الصليبيين جاذب من الباقين من الثلثة الاقسام الاتية من الاسا الصغري مع عدة اشخاص من اشرفا لاسيما فولف الرابع دوكا ده بافيرا وغوليليوم انتاسع كونته ده بواتسير وجفروا ده باندوم وهوكوزده لويزينان واوداس دوكا ده برغونيا واستفانوس كونته ده بلواز واربين كونته ده باري . فاذاً قد تعلق الحرب فيما بين هولاء و بين العساكر المصرية بمعركة مهولة واستفانوس كونته ده بلواز واوداس دوكا ده برغونيا قتلا في الحرب والكونته ده باري وقع اسيراً بايدي الاسلام وبعده مات اسيراً والسلطان بودوين نفسه بعد اعمال غريبة من الشجاعة كاد عما قليل ان يصير طعام الموت لولا يختفي ذاته بين الاعشاب بدون ان يعرفوا لان النباتات البرية في ذلك السهل كانت تناظر الحرش ولكن من حيث ان الاسلام اضرموا النيران في تلك النباتات اليابسة فعند حصل بودوين في خطر الحريق والاختناق بالدخان واللهيب فالتزم بان يخرج من هناك بقوة شديدة مدافعاً عن نفسه ضد الاسلام الى ان فاز ناجياً بهربه الى مدينة الرملة في ظلام الليل غير ان هذه المدينة في اليوم الثاني اضحت محاصرة من الاعداء وكانت هي وقتيئذٍ خالية من كل الوسايط اللازمة لحمايتها فمن ثم بودوين حصل على كابة عظيمة وقلقٍ كلي وكان امامه في مشهدٍ مخيف مهيل مهيبي الاسر او الموت واذا باميرٍ من الاسلام على البديهة حضر امامه قايلاً ايها السلطان ان معرفة الجميل تادتني اليك فانت اظهرت عنايتك وسخاك نحو زوجتي العزيزة لديّ وقد حفظت لها حياتها وانا جيت الان لاحفظ حياتك فانت

الان محاط من اعدا اقويا من كل جهاتك والمدينة التى انت الان مهتم فيها نهار غدا توخذ ولا يقدر احداً من سكانها ان يهرب من الموت ولهذا اتيتك بمشورةٍ رواسطةٍ اقدمها بين يديك للخلاص وهى انى اعرف طريقاً سالكة غير محصنة من المحاصرين فلتسرع اليها لان الزمان جاز فاعتقد على كلامى واثقاً بى وانا احلف لك بانه قبل اشراق الفجر انت تصل الى محل الامان ☼

فلما سمع بودوين هذا الكلام حصل باطناً مسروراً بطريقة النجاة ولكن صعب عليه جداً ان يترك عساكره وقوادهم ويسافر غير ان البعض من ارفاقه انشرفا شرعوا يتوسلون اليه بان يقبل المشورة لان لا فايدة لهم من بقاية معهم سوي ان يُقتل نظيرهم فمن ثم اعتمد الراي وودع اوليك بدموعٍ منسكبة من الجهتين وسلم ذاته ليلاً لامانة ذلك المسلم الامير وكان برفقته اناس خيالة قليلون قد خرجوا كل من مكان خارج السور في ضباب العتم وصاروا الى ما قدام فى الطريق التى اقادهم فيها المسلم الى ان صاروا بعيدين عن الخطر وحينيذٍ ذلك الامير فارقهم راجعاً ليس من دون هطل دموع المودة واذ وصل الى معسكر الاسلام كان بودوين اقبل نحو مدينة ارسور ليحتمى بها من الخطر ☼

غير ان هذا البطل الصنديد وجد من جديد علي روس باقى عساكره التى التهمت هناك فمشى بها ضد العدو فاى نعم ان الاسلام ملكوا مدينة الرمله بعد ان كان خرج هو منها ولكنه هجم عليهم وعلق معهم معركة مرعبة وضرب هو وعساكره بالسيف فيقتلوا امير اسكالون مع اربعة الف مسلم وبددوهم بنصرة قوية عليهم وهكذا رجع بودوين بعساكره الى اورشليم ودخلها غالباً في الوقت الذي فيه المسيحيون كانوا ينوحون على موته الذى

تقاهم خبره فكم كان انتقالهم من الحزن الى الفرح عظيماً بمشاهدتهم اياه راجعاً الى تخته حياً منتصراً فهذا كل احد يقدر ان يتصوره بفكره ☆

واما بوهيموند وآلى انطاكيه فبعد ان بقي اسيراً بايدي الاسلام مدة سنتين ونصف قد تخلص منهم سنة ١١٠٣ ورجع الى انطاكيه التي تانكريد كان حصنها جيداً ومن حيث ان البيزاويين والجينوانيين ساعدوه فهذا الامير نفسه الذي كان يرفض ان يعرف ذاته خاضعاً لسلطان اورشليم فقد حارب الملك اليكسيوس عدة حرابات براً وبحراً ولكن هذه المعركات بينهما كانت تارةً لهذا وتارةً لذاك موازنة بين الغلبة والانغلاب فنحو الزمان عينه صودف هذا الامير بوهيموند متحداً مع بودوين ده بورغ امير ائرها ومع جوسالين ده كورتاناي ثم مع تانكريد لكي يحاربوا مدينة كاران الغنية جداً في مدن بين النهرين فقد بلغ هولاء الامرا الابطال مع عساكرهم الى الوقت الذى فيه كادوا يملكوا هذه المدينة المعتبرة الحصينة بشدة بأسهم وشجاعتهم وفي الوقت عينه وقع الاختلاف فيما بينهم لان كلاً من الامرا كان يريد امتلاكها باسمه خاص حتى اتصلوا الى ان يحارب بعضهم بعضاً ففيما هم في تلك الحال واذا بعساكر اسلام كثيرين جداً اتين من الموصل ومن ماردين بقوةٍ شديدة فضربوا منطقة عليهم من كل الجهات بغتةً وشدوا ضدهم معركةً مخيفة ازمعوا بها ان يبيدوهم بحد السيف غير انه يقال بالتاريخ انه حينيذٍ شوهد خيالٌ واحد يرمح بمفرده في عساكر الاسلام المنتصرة ويضرب بهم يميناً وشمالاً وكان يصرخ هاتفاً ان من يريد ان يتعشى معي في الفردوس فليتبعني ولكنه حالاً قد خمد من خرارقه وفقد كما ان بودوين ده بورغ وقع اسيراً في ايدي الاسلام ومثله

اخذ حياً بايديهم جوسالين ده كارتانادى واما بوهيموند وتانكريد ففرا من الموت هاربين حتى بلغ انطاكيه مع القليلين الذين نجوا من فم السيف بتخيونهم *

غير ان بوهيموند اذ لم يعد يقدر ان يحمى ذاته من الروم ومن الاسلام معاً كلٍ من جهةٍ فقد اضطر الى الهرب راجعاً الى اوروبا خلواً من احدٍ متحد معه وبدون ان يوجد صحبته لا عساكر ولا اموال فهذا الامير المتعوس قصد ان يحرك اهل المغرب الى معونته غير انه لكى يخفى عن اعدايه هذا التدبير الذى اضمر هو عليهم به ويقدر ان ينفذ من انطاكيه الى اوروبا قد صير ان يشيع عنه الخبر بانه مات ثم اختفى فى مكان مجهول وبعد ذلك نزل فى مركب لابساً اثواب حزنٍ وناشراً علامات محزنة وهكذا مرّ من بين مراكب الملك اليكسيوس سنة ١١٠٤ فالروم سلموا عليه بصراخٍ وبلعنات وشتايم لاجل علامات الحزن ثم وصل الى مدينة كورفو وخرج اليها من المركب ممتلواً رجزاً وارسل يقول الى القايد الرومى ان يخبر ملكه اليكسيوس بان بوهيموند قام من الموت وبانه قريباً يظهر فى المعركة ثم بلغ الى ايطاليا وانطرح على اقدام الحبر الرومانى فقبل هو فى روميه باكرام واحترام بمنزلة محامٍ عظيم عن الايمان المسيحى لا بل بمنزلة شهيد شجاع فالبابا باسكواله الثانى قد سلمه بيده سنجق القديس بطرس الرسول مع الوعد باسعاف قوي له ثم توجه من هناك الى فرانسا فصادف فى البلاط الملوكى استقبالاً كريماً كما حصل هو على ذلك فى روميه لان النواظر كلها لاحظته بمنزلة اعظم الامرا المسيحيين الجهابزة ومن ثم اوعبه المتقدمون من دلايل الوقار والتشريف كما ان سلطان فرانسا فيلبس الاول قد ازوجه بابنته قسطانسا سنة ١١٠٦ وقد كانت تحريضاته فى

موضوع مطلوبه تضرم الحرارة فى قلوب سامعيه ومن دون تاخير عددٌ عظيم من الناس نقلوا الاسلحة ليسافروا معه وهو توجه بهم قايداً عليهم ثم اجتاز اقليم بيرينيا وحصل على عساكر جديدة من بلاد اصبانيا وقدْ اتى الى ايطاليا حيث كثيرون من الاشراف انضافوا اليه وبعد ان فاز بهذه الكثرة من العساكر نزل فى المراكب من مدينة باري (فى اقليم بوليا من مملكة نابولي) وخرج الى الارض من اقليم الليرْيا الذي كان فى تملك الروم تحت ولاية اليكسيوس وحالاً حاصر مدينة دورالسيوس سنة ١١١١ واما جوسلين ونسيبه بودوين ده بورغ اللذان اخذتهما الاسلام اسيرين فى معركة حصار مدينة كاران فقد اقيدوا الى مدينة الموصل ووضعا فى السجن ثم نقلا الى بغداد حيث بقيا فى الاسر مدة خمسة سنوات وبعدها صار تدبير لاطلاقهما فرجعا الى ولايتهما مجتهدين في ان يصلحا الخراب الذى حدث فى بلادهما مدة اسرهما ☆

فلنرجعنّ الى التكلم عن السلطان بودوين الذي تركناه فى اورشليم مهتماً فى تدبير حروب جديدة يوسع بها مملكته خاصةً بلاد فلسطين التى على شط البحر لان امتلاكه هذه المدن كان امراً كلى الافادة للمسيحيين رعاياه لانه على نوع ما اسعافه باسره هو بواسطة هذه المين التى منها يصير اليه الالتصاق من ممالك الغرب على ان المراكب البيزاوية والجينواوية التى بعد الحرب الصليبية الاولى صارت تدخل الى مين سوريا قد اضحت معونة كلية للصليبيين وقد كانت منذ مدة قريبة جاءت مراكب اخر جينواوية الى جهة المشرق فمن ثم السلطان بودوين مشى بعساكره من اورشليم نحو مدينة عكه وحاصرها سنة ١١٠٤ والامرا الذين كان اتفق معهم على ان يعطيهم ثلث الغنايم التى تكتسب

فى الحرب قد جاءوا بمراكبهم سبعين قطعة كبار وحاصروا المدينة بالبحر من جهة المينا فالاسلم الذين ضمن المدينة حاموا عن ذواتهم مدة عشرين يوماً بجلادةٍ غريبة ثم التزموا بعد ذلك بان يسلموها مع انفسهم لهذا السلطان مستميحين حلمه نحوهم وقد رموا له مفاتيح المدينة من على الاسوار اخذين الامان بان يخرجوا منها بموجوداتهم فاما العساكر الذين فى المراكب فاذ تاملوا عظم الغنا الذى فيها كان الاسلام يستحضرونه ليسافروا به فلم يعتبروا الامان الذى اعطى لهم بل هجموا على شعوبٍ كانوا رموا اسلحتهم وعدموا كل واسطةٍ للمحاماة عن ذواتهم فقتلوا منهم كل من صادفوه امامهم وقد ذهبت سدي عناية بودوين فى ان يرد عنهم هولاء الزايرين كالاسد بغضبٍ شديد اذ ان توسلاته وتحريضاته حتى تهديداته اضحت عديمة السماع خائبة من كل افادةٍ فتصرف الغالبين هذا البربري قد صير الاسلام كافةً ان يقوموا ضد المسيحيين فى المدن الاخر ☆

ثم بعد اخذ مدينة عكه هذه التى كانت ولم تزل مفتاح لبلاد سوريا لم تتاخر زماناً طويلاً عن ان تسقط تحت ولاية الاشراف الصليبيين ومدينة طرابلس الشام ايضاً فرايموند كونته ده طولوزا كان قبل ذلك بمدة ثلاث سنوات حاصر هذه المدينة ولكن الموت الذي خطفه من الحيوة الحاضرة تحت اسوارها قد جعلها باقية فى يد الاسلام ولين كان غوليلموم جوردين نسيبه واصل بعد وفاته الحصار فمع ذلك ارتفع عنها فيما بعد ☆

فاذاً قد بقى محفوظاً الى بارتراند ابن رايموند المجد في ان يحاصرها بشدة ويمتلكها بعد ان كانت فى مدة سبع سنوات حامت عن ذاتها بجلادةٍ غير مغلوبة على ان هذا الامير الشاب بارتراند اتي من اوروبا بعمارة مراكب قوية وافتتح اخيراً المدينة

المذكورة المعتبرة وصارت هي واراضيها المخصبة ميراثاً له ولعيلته سنة ١١٠٩ وعلى هذه الصورة رايموند اكتسب ولو بعد موته جانباً من اراضي المشرق غنياً جداً مكافاةً عن جهاداته ✿

على ان هذا الامير رايموند الذي ترك املاكه واحكامه الواسعة في مملكة فرانسا وانبع تصيب الصليبيين قد خلّف الى سلالته ميراثاً جديداً مصبوغاً بدمه وبقي لهم تذكاراً لشجاعته وشهامته وجهاداته السنية الشايعة الصيت في جيله والدايمة الذكر بعده ✿

ثم ان مدناً اخر ذات مينٍ على بحر سوريا نظير مدينة بيبلوس ومدينة سارابتا ومدينة بيروت قد سقطت تحت ولاية الاشراف المسيحيين البيزاويين والجينواويين وقد اضيفت هذه المدن بالتتابع الى سلطنة اورشليم ولكن بعد امتلاك المدن المذكورة قد رجعت الى اوروبا عمارة مراكب بيزا وجينوا واقادت ضمنها العساكر الذين كانوا حاربوا مع بودوين سلطان اورشليم الذي من ثم اذ اضحى خالياً من تلك العساكر فبسهرٍ وصعوباتٍ وجهاداتٍ وافرة كان يصادم وثبات الاسلام المتواصلة ضده الذين قبل برهةٍ اتصلوا الى ان ينصبوا بيارقهم فوق جبل صهيون نفسه ولكن في هذا الاثني تواردت اليه عساكر مسيحية جديدة فاسعفت قوته ✿

على ان صيت الانتصارات الصليبية قد شاعت في كل مكان حتى في البلاد الشمالية الباردة التي في اقاليم نورفيج وجموعاً كثيرة اتوا الى الاراضي المقدسة عددهم عشرة الاف نورفيجي تحت رياسة قايدهم وسلطانهم سيفور ابن ماينوس الثالث ضمن عمارة مولفة من ستين مركباً كبيراً التي بعد ان استمرت تايهة في البحر المحيط ثلاث سنوات قد بلغت اخيراً الى مدينة يافا سنة ١١١٠ وبودوين حالما عرف وصولهم ذهب لملاقاتهم

واستحلفهم بان يجاهدوا من اجل مملكة يسوع المسيح الامر الذي صار مقبولاً عند سيفور سلطانهم باستجابته توسل سلطان اورشليم هذا ولم يطلب منه مكافاةً اخري عن جهاده معه مجاناً بشهامةٍ سوي قطعة من صليب مخلصنا الحقيقي وحينيذٍ سيفور مشى مع عساكره ودخل اورشليم منتصراً دخلةً مبهجة قد اندهل بها سكانها من قوة عساكر مثل هذه جاءت بعتةً بخيولٍ عظيمة قوية بلون اشقر وبخيالة رجال ذوي قاماتٍ عالية واجسامٍ حسنة نظير الجبابرة ماد قد فاز بودوين بهولاء الاصحاب الاجلا الاقويا مشى بهم الى مدينة صيدا وحاصرها مدة ستة اسابيع بمصادمة كلية الى ان افتتحها وفي هذا الانتصار الجيوش اظهروا الانسانية التي هي دايماً مرافقة من الشجاعة الحقيقية فالسلطان سيفور وعساكره استوعبوا فرحاً وتهليلاً من هذه الغلبة والمسيحيون في بلاد فلسطين املاؤهم من التقريظات والمدايح الواجبة ومع انهم ما طلبوا تعويضاً اخر عن جهادهم الا جزءاً من خشبة الصليب المقدس فمع ذلك بودوين اقتسم فيها بينه وبينهم الغنايم التي اخذوها من مدينة صيدا فقد رجع اداً السلطان سيفور الى بلاده متعزياً مبتهجاً بذخيرة العود الكريم التي اخذها من اورشليم اشد ابتهاجاً من جانب الغنا الجسيم الذي اصحبه معه من مدينة صيدا لان الذخيرة المقدسة المذكورة كانت تُحفظ في بلاده الملوكية تذكرةً دايمةً لزيارته الاراضى المقدسة ثم عند بلوغه الي تخته قد وضع هذا العود الكريم في كنيسة دورتيم حيث استمر عدة اجيال موضوع عبادة المومنين العظيم التقوى ☆

فسلطنة اورشليم على هذه الصورة كانت يوماً فيوماً تتعظم وتمتد حدودها ولكن التهليل الحادث من جري الانتصارات

الاخيرة قد تكدر بالحزن لانه حالما رجع السلطان بودوين الى تخته طرق مسامعه خبرٌ مغمٌ وهو ان جيرفيز كونته ده طيباريا قد وقع اسيراً في ايدي الاسلام فهذا الشريف كان هو احد رفقا السلطان غودافروا وحبيبه الخاص ولذلك شمل الحزن قلب بودوين من خبر كذا لانه هو ايضاً كان يحب هذا الكونته محبة عظيمة فبعد ذلك اتى الى بودوين رسلٌ من قبل الاسلام طالبين منه فديةً عن الكونته المذكور حبيبه لكي يطلقوه لهُ وهذه الفدية هي ان يرد اليهم مدن عكه ويافا وغيرهما (لانهم افتخروا جداً في اخذهم اسيراً قايداً مثل هذا جليل الشان وكلي الافادة لسلطنة اورشليم) اما بودوين فرد لهم الجواب بقوله انني بكل طيبة خاطر ارتضي بان استفك الكونته جيرفيز بمبلغ عظيم من المال ادفعه لكم واما نظراً الى المدن التي انتم تطلبونها فامضوا قولوا لاسيادكم اني لا يمكن ان اعطيها ولا فديةً عن شقيقي نفسه حتى ولا لاجل استفكاك الامراء المسيحيين اجمعين اذا كانوا في الاسر فهذا الجواب صار غايلةً ردية للكونته جيرفيز وللخيالة الذين كانوا صحبته في الحبوس لانه بعد ان رجع المرسلون الى دمشق واخبروا اسيادهم بجواب سلطان اورشليم المقدم ايراده فاسيادهم حينيذٍ اخرجوا هولاء الاسرا من الحبس وصفوهم في احدى ساحات مدينة دمشق واماتوهم برشق السهام ☆

ثم ان خسارة اخرى موجعة اشد وجعاً قد افعمت قلوب المسيحيين بعد ذلك سرعةً وهي ان تانكريد القايد العظيم والبطل الصنديد فخر الامرا وشرف النبلا الفريد في الصفات الحميدة والامين بالمحاماة عن المسيحيين العديم الانغلاب في الحروب قد فقدته بلاد سوريا التي كان هو سندها الاشد ومعضدها الاعظم الذي كان قد اقاد من الاوروبا الى المشرق الفضايل المسيحية

الأسمى جلياً لانه قط لم يكن يغلب من محبة الذات او من المجد الباطل كما ان الضعف والشهايد والنوايب الاشد ثقلاً والاوفر موازرة لم تكن تذهب خايبة عند الحاصلين متى طلبوا نجدته وعونه وقد اختبرت امانته الدايمة كالذهب في الكور وكانه لم يوجد شي غير ممكن لشجاعته ان تنتصر عليه وان تسلم الولاية على انطاكيه عوض بوهموند قد عرف ان يحمي هذه المدينة من وثبات اعدايه الاشدا وان يوطد الترغيب وحسن النظام في سكانها ولما اتاه مرسلون الملك اليكسيوس طالبين منه ان يرد اليهم تلك الاقليم المغتصب اجابهم قايلاً اذهبوا اعلموا مليككم باني لا يمكن ان اترك المدينة التي سلمت لاماقتي ولو اني لحمت رجيه اسوارها اكيلاً شهيداً بكثرة عساكر عظيمة من فارس فاخيراً هذا الامير الجهبزي قد مات سنة ١١١٢ في معركة نوجه بها اقابلة عساكر الاسلام فموته قد اوعب قلوب المسيحيين اجمعين حزناً عديم التعزية في كل البلاد الشرقية وقد اعتبروه بمنزلة هايل ردي جداً ضد حظهم لانهم فقدوا من المدينة سيدة المشرق هذا النجم بمقام السلطاني الذي كان وضعه فيها بوجار السيشلياني وكيل بوهموند والوصي على ابنه وريث التخت ✲

فسلطنة اورشليم بفقدانها هولاء الامراء الابطال المسعفين لها والمحامين عنها وجدت بعد تأييدها وفرجها في خطر وغوايل مكروهة ممكن ان تخسف مجدها وهوذا اجواق فايقة الاحصاء من الاسلام تواردوا من البلاد التي حول نهري الفراة والدجلة وادثروا بلاد اقليم الجليل كما ان الاتراك من اسكالون ومن صور قد خربوا المحلات التي حول مدينة نابلس واستولوا عليها فالتزم بودوين بان يمشي ضد معسكر عظيم كان متراسياً عايماً سلطان دمشق وسلطان الموصل وضربهم حدود جبل لبنان فهولاء ان

بلغهم خبر مجى عساكر جديدة من بلاد اوروبا ثم خافوا ورجعوا الى الورا مبتعدين ولكن مصيبة هايلة فى اثر داهية عظمى قد احاقت بالبلاد اى ان ضباباً لهيباً اتى من ناحية العربية فيبس غلات الحقول والاراضى وصدر عن ذلك قحط ومجاعة مهيلة ثم زلازل قوية حدثت من حدود البلاد الشمالية فضربت عدة مدن وبلاد من اقليم كيليكيا كهات رديم دائرة والهلاكة عشر برجاً التى حول اسوار مدينة الرها ومثلها فاعة مدينة حلب قد اندكت مهدومة باندفاع مخيف ومدينة انطاكيه الجميلة قد انضربت اكثر مما سواها من هذه الزلازل انهابطة (بعد ان كانت اهالى امريات الرها وانطاكيه هنوا من المجاعة المتقدمة على هذه الزلازل) على ان برج الباب الشمالى فى انطاكيه مع عدة كنايس وعمارات شاهقة قد تهدمت من اساساتها وهكذا قد استبان ان غضب الرب حل على اوليك المساكين الصليبيين من كل جهة لاحكام يعلمها هو تعالى ولكنهم بمواظبتهم على الصلوات وهطل الدموع واعمال التوبة الاخر قد استعطفوا المراحم الالهية نحوهم لان البارى تعالى اجابة لصراخاتهم كف عنهم الزلازل والمصايب الاخر الامر الذى من اجله صنعوا عيداً عمومياً به قدموا لله الشكر والتسابيح الواجبة معترفين بالمنة لرافته عليهم ✽

وهكذا بودوين سلطان اورشليم اذ لاحظ راحته من هجوم الاسلام على بلده من جهة بغداد وبلاد سوريا فوجه حينيذ اهتمامه ضد العساكر المصرية التى مرات كثيرة تطلعت بسيوف عساكره فيقول البارنوس الاكسى ان العساكر الغير المومنين قد امتلاءوا بهذا المقدار خوفاً من هذا السلطان العظيم حتى انهم ما عادوا يقدرون لا ان يصادموه ولا ان يبقوا فى الحيوة امام وجهه فهو قد اجتاز السهول الغير المسلوكة على روس عساكره المنتخبين

واوقع الرعدة فى قلوب الاسلام الى حد شط النيل لانه اتصل الى انه ملك مدينة فاراميا الكاينة على حد البحر غير بعيدة عن مدينة بيلوزا ثم رجع الى اورشليم فايزاً بالظفر موعباً من الامل فى انه يوماً ما كان يمكنه ان يشاهد ممنكلة مصر كلها طايعة لشرايعه غير انه فى تلك المدة قد اعتراه مرض ثقيل حيث توجه الى عريش مصر فى الحدود التى تتصل مملكة سوريا من المملكة المصرية وقد اشتد عليه المرض عاجلاً حتى انه حصل فى اليأس من حياته فالقواد والمتقدمون رفقا لانتصاره التيموا حول فراشه يدرفون الدموع ويندبون بحزن شديد هذه المصيبة واما هو فمن دون خوف او انزعاج على ساير الاوجاع شرع يشجعهم ويعضهم ويرشدهم بالفاظ عذبة فعالة اذالت قلق نفوسهم ثم استحلفهم اخيراً بان لا يهملوا جسده بعد موته مدفوناً فى ارض غريبة تصير فيما بعد كما كانت فى ايدى الغير المومنين بل ينقلوه الى اورشليم ويدفنوه بحذا جسد اخيه غودافروا ثم اعطى التدابير فى كيفية دفنه لخدامه وان ان احد الاشراف ساله عن من يريد هو ان يكون خليفته فى تخت اورشليم فهو اجابه بانه قد ترك هذا التخت لشقيقه استاكيوس ان كان هذا الشقيق يريد ان يرجع الى بلاد فلسطين والا فليكن خليفته بودوين ده بورغ امير الرها او غيره من الامراء ذوي الكفاية للمحاماة عن شعب الله والقلوب الغير خاضعة لا للخوف ولا للفساد وبعد ان تكلم بهذه الالفاظ يتول البارتوس الاكسى قد سلم نفسه هذا الجندي العظيم لله بيده تعالى سنة ١١١٨ مخلفاً الحزن الشديد عليه فى قلوب جميع المسيحيين ✿

فهكذا سلطان اورشليم الثانى من اللاتينيين مات فى ارض غريبة فاي نعم ان هذا النبيل قد كان فى السنين الاولى من

الحرب الاولى الصليبية صير ذاته مكروهاً من كثيرين لاجل
محبته الغير مرتبة نحو الرفعة والمجد الباطل ولاجل صفة كبرياه
ولكن بعد ما اضحى راسه مزيناً باكليل مملكة داود قد اوضح
ذاته مستحقاً ان يكون خليفة اخيه غودافروا بالصفات الحميدة
نظيره على ان اتعابه الفعالة الفايقة التصديق وعنايته وفطنته
وحكمته فى حال عظمته الملوكية ما وجدت فى احد الامرا الذين
بعده تولوا على السلطنة لا بنوع اجود منه ولا بامانة اشد منه
لان المحاربات والانتصارات التى فازوها قد مجدت هذا التخت
الاورشليمي وبعجايب مذهلة قد حماه هو من هجمات اعدايه
الاقويا الذين مراتاً كثيرة اوقعوه تحت الخطر المبين ولكن سيفه
وصولجانه الذي هو رمحه قد كان حصناً لهذه المدينة المقدسة فلما
بلغ خبر وفاته البلاد فمسيحيوا المشرق كلهم ندبوه بدموع سخينة
وعلى موجب تخبير البارتوس الاكسى ان بطريرك اورشليم
دايمبارتوس قد شمله حزن شديد بهذا المقدار حتى انه ما عاد
قدر ان يعيش بعد بل انه اتبع الى القبر ذاك السلطان الذى
بسيفه كان وطد فى بلاد فلسطين هياكل الاله الحى ✲

ثم ان غويليوم الصورى قد شرح فى الكتاب العاشر من تاريخه
صورة جسم السلطان المذكور بقوله عنه ان بودوين كان ذا قامة
اكثر ارتفاعاً من شقيقه غودافروا نظير الملك شاوول الذي كان
اطول من روس جميع الرجال الذين كانوا ذوي قامة معتدلة
اعتيادية وكان شعر لحيته وراسه احمر وقد وجد فيها بينه قليل
من الشعر الابيض وانفه محنياً نوعاً وشفته الفوقية ذات ارتفاع
قليل واسنانه الداخلية قليلاً مدفوعة الى جوا خلواً من انها
تظهر ذات خلل وقد كان مشيه ثقيلاً بالرصانة وجبهته عقدة
نوعاً ووشاحه النازل دايماً من على كتفيه نحو الارض كان

وبهيبة شبيهاً بالاساقفة وكان في ركوبه الخيول ذا اعتدال مهيب لاسيما لما يكون متقلد اسلحته الاعتيادية *

الفصل الثاني عشر

وهو الاخير من هذا المجلد

في تملك بودوين الثاني سلطاناً على اورشليم وفي حصار مدينة صور وفي حالة الصليبيين القاطنين ضمن بلاد المشرق وفي شيخ الجبل وفي قوانين سلطان اورشليم وفي سلطنة بودوين الثالث على اورشليم ثم في اخذ مدينة الرها بيد الاسلام

فالاشراف مع الروسا الكنايسيين لحسن امانتهم فيما اظهر به ارادته قبل وفاته بودوين الاول سلطان اورشليم في ان خليفته في هذا التخت يكون بودوين ده بورغ قد اجتهدوا في وضع ذلك بالعمل ومن ثم بودوين ده بورغ تنزل عن امريته على الرها الى جوسالين ده كورتاناي او سرفا السلطنة وهو جاء من هنالك الى اورشليم وجلس على تختها الذي شرفه في كل نوع سالفه وهكذا هو صار سلطاناً على اورشليم تحت اسم بودوين الثاني فزمن سلطنة هذا الوالي الجديد قد كان نظير زمان سالفه موعباً من الحروب والقلق والجهاد والانتصارات فالاهتمامة اتجه نحو مدينة انطاكيه المداهمة من خطر مبين على ان روجار ده سيسيليا الذي في زمان حداثة ابن بوهيموند وريث امرية انطاكيه قد ساسها هو قد حصل في مضايقة كلية من قبل العساكر الاسلام القوية جداً الواردة ضده من بلاد العجم ومن بلاد بين النهرين ومن اقاليم سوريا وكان قايداً على روسهم الغازي امير التركمان

الذي كان تحت سلجقة ما ينيف عن عشرين الف محارب فلما نظر روجار من اعالي اسوار انطاكيه ان الحقول والمحلات التي حولها تحت امرة قد صارت فعلة في سطوة الاسلام فلم يعد يمكنه احتمال هذا التعدي بل خرج من انطاكيه ضد مشورة الروسا الذين عنده ومشى ضد الاعدا وطلب معركة الحرب ولكن جميع العساكر التي كانت عنده لم يزد عددها عن سبعماية خيال وثلاثة الاف ماشي ومن ثم مهما جاهدوا بشجاعة فقد غلبتهم كثرة اعدايهم الذين قطعوهم اربا وروجار نفسه وقع في ايديهم وصار ضحية لجسارته العديمة الفطنة ☆

فالاعدا الظافرون اذ كانوا يفتخرون في انتصارهم هذا واذا بغتة شاهدوا ذواتهم محاطين بعساكر مسيحية ثايرة كالاسد لتنتقم منهم من دما المقتولين فهولاء الجيوش كانوا تحت رياسة سلطان اورشليم بودوين الثاني نفسه واميري الرها وطرابلس الذين كان روجار المنكود الحظ استدعاهم لمعونته قبل ان يقتل فحالما العساكر اسلام ومسيحيون صاروا موجهة طبق الفريقان بعضهم على بعض بمعركة مهولة مستطيلة دموية لان كل من الجهتين كانوا يحاربون بشجاعة وقوة غير مغلوبتين الا ان بودوين مع خيالته هجموا على الجمهور الاشد والاوفر الخادا ففرقوه بضرب السيف والمسيحيون تقوت عزايمهم بنموذج سلطانهم فسعوا في الطريق التي فتحها واذ فضوا فوق اقسام العدو التي تفرقت واذ عجزت الاسلام عن قوة المصادمة التزموا بالادبار هربا مخجلا وهكذا بودوين فاز في هذا اليوم بانتصار عظيم جدا سنة ١١٢٠ والعساكر النصارى الذين صلبانهم على صدورهم تمتعوا بمجد الغلبة على الاسلام خاصة طغمة الرهبان الاورشليمية الذين من جمعية القديس يوحنا المعمدان المدعوين ضياف الغربا الذين منذ زمان قليل كانت

جميعهم توسست في اورشليم وهذه المعركة كانت الاولى فيما بين اعمالهم الحربية حيث اظهروا بها رجوليتهم امام سلطانهم كما ان افعالهم المتاخرة قد جعلت اسمهم شايع الصيت في العالم فلما رجع بودوين الى اورشليم وكان يظن انه ممكن له ان يرتاح مدة من الزمان من تعب تلك الحروب واذا باخبار وردت اليه منبية عن الاسلام انهم حاربوا جوسالين امير الرها ونسيبه غاليران وانتصروا عليهما واخذوهما مكبلين بالحديد وحبسوهما في قلعة من بلاد بين النهرين فمن ثم بودوين حالاً اخذ عساكر وسري بهم سرعة لاجل استنقاذهما فوصل الى الرها وعزي سكانها واهتم بطريقة بها يكسر قيود الماسورين ولكن زيادة طمعه في رجوليته وشدة حرارته في سرعة العمل قد اوقعتاه ضحيةً في الخطر المبين الذي ما عاد امكنه القرار منه ومن ثم قوة اعداه انتصرت عليه فاخذ هو ايضاً اسيراً واضحى رفيقاً لذنيك الاميرين في السجن وذلك في سنة ١١٢٣ ☆

ففي تلك الحال التي من الجهة الواحدة كانت فيها نيران الحروب متقدة من كل ناحية ومن الجهة الاخري المصايب المتنوعة الانحاء كانت فيها ملمة بالصليبيين في الامكنة الشرقية حيث توطنوا قد حدث امرٌ عجيب في نوعه وفريد في ظروفه وهو ان خمسين رجلاً ابطالاً من الارمن قد تحالفوا وابرزوا القسم اما يموتون او يخلصوا الثلاثة الاشخاص الملوكية من الاسر الحاصل لهم بحزن شديد عند رعاياهم المتعلقين بحبهم والمكبلين جداً تحت ثقل الكوارث من جراء ما هم به فهولاء بعد ان استدعوا معونة الله القادر على كل شي قد غيروا ملابسهم وتداخلوا ناساً بعد ناس في قلعة كارة بيار وهناك اظهروا اسلحتهم الخفية وهجموا بها على العساكر الاسلام المحافظين القلعة بغتة هجمة واحدة

فقتلوهم اجمعين وحالاً كسروا قيود الامرا المحبوسين هناك ونصبوا
بيرق الصليب غير ان القلعة من دون تاخير تحاصرت من
الاسلام اما جوسالين امير الرها قد امكنه الهرب مسرعاً الى بين
النصاري واشرافهم مستدعياً اياهم الى المعونة وحلف لا يمر الموس
على وجهه بحلاقةٍ ولا يشرب خمراً ان لم يتمم زيارته اورشليم
واما الخمسون ارمنياً فقد مارسوا شجاعتهم بانواع مختلفة لكي
يخلصوا سلطان اورشليم باخراجه من القلعة فلم يفوزوا بهِ بل
انهم سقطوا بايدي الاسلام وكلهم اميتوا تحت العذابات ولم يستوفوا
عن جهادهم (يقول المورخ) الا اكليل الاستشهاد فى انسما حسنية
عملهم فالعلامة اورداريس فيتال المورخ اذ يخبر عن سفر امير الرها
وجفروا رفيقه فى تلك الظروف التميسة قد اورد حادثاً بسيطاً
لكنه يستحق الذكر قايلاً ان الشخصين المذكورين اذ اتخذا طرقات
الرجوع واجتازا فى المحلات القاطن فيها البرابرة وبلغا الى سبيل
الاعتياد قد وجدا رجلاً من اهل البلاد راكباً مع زوجتهِ على
اتان مسافراً من بلاد بين النهرين الى سوريا فمن حيث
انهما سارا صحبته فى المحجة فهذا الرجل قد عرف جوسالين
وناداه فوقف وقال لهُ ليس هو من دعاه جوسالين الا ان الرجل
المسلم اجابه لا تنكر اصلاً انك ما انت هو جوسالين لانى
عرفتك انك انت هو مولاي جوسالين اذ انى خدمتك مراتٍ
عديدة وتنعمت فى منزلك وانت اعطيتنى الملبوس والقوت
وبعد مدة سنوات اقرباي الاسلام طلبونى اليهم فذهبت ولكنى
الان راجع اقطن فيما بين المسيحيين لانى اختبرت بعيشتى السابقة
معهم سعادةً وراحةً بما لم اجده فيما بين اهل وطني فهذا
الكلام قد اسر جداً جوسالين ورفيقه وهكذا هو سار امامهم وهما
وراه بملبوس متغير مثل خدامين ولكنه سلك معهما كانه انٍ

الملاقاتهم الا انهما باطناً كانا يطلبان من الله من اجل كتمانهما عند الاخرين لخلاصهما من الخطر وكانا تارةً فتارةً كل منهما يحمل على ذراعيه ابنة الرجل التى كانت ذات ستة سنوات ويلاعبها وهكذا اجتازا البلاد والقري غير معروفين من السكان ✿

فجوسالين بعد ان كان على هذه الصورة نفد من ايدي الاسلام وقطع نهر الفراة واجتاز بلاد سوريا كلها و بلغ الى اورشليم وهناك بعد ان زار القبر المقدس ووضع فى كنيستة القيود الحديد التى كان هو مغللاً بها قد اخبر اهل المدينة بالمصايب المرة الحادثة واستدعاهم لمعونة سلطانهم الباقى فى الاسر الامر الذي اضرم فى قلوبهم نار الغيرة والشجاعة وحينيئذٍ عدد عظيم منهم مع كثرة الخيالة والاشراف حالاً سافروا من اورشليم مع امير الرها هذا نحو تلك الجهات لاجل الجهاد فى تخليص سلطانهم من الخطر المحيق بهِ ✿

فسلطان اورشليم هذا مع الذين صحبته ضمن قلعة كارت بيار كانوا يجاهدون فى حماية ذواتهم داخل الحصن المذكور المحاصر من الاسلام ولكن من حيث ان هولاء الاعدا حفروا اساسات القلعة وهدموا جانباً عظيماً من اسوارها بالاكحال والمعاول فاضحى المحاصرون ضمنها كانهم فيما بين كيمان من الرديم وهكذا الاسلام قبضوا على السلطان بودوين واقادوه الى قلعة شاران واماتوا ارفاقه فيما بين العذابات وقد بلغت اخبار هذه الحوادث الى معسكر جوسالين الاتين نحو تلك البلاد فاوعبتهم حزناً شديداً خاصةً على ابادة حيوة الخمسين ارمنياً الذين قدموا ذواتهم ضحيةً لاجل خلاص الامرا من الاسر ✿

واما ارباب الدولة المصرية فلما سمعوا خبر سقوط سلطان اورشليم اسيراً فى ايدى الاسلام قد فكروا بان ذلك هو فرصةً

كلية الافادة لهم فى ان يسترجعوا بلاد فلسطين تحت ولايتهم ملاشيين منها السلطنة المسيحية ومن ثم حالاً اغتنموا هذه الفرصة فوجهوا عساكر قوية مقسومة الى قسمين وجاءوا فحاصروا مدينة يافا من البحر ومن البر وضبطوا دايرة اراضى يبالين الامر الذى املاء قلوب سكان اورشليم مرارةً ورعدةً وحزناً من حدوث هذه البلايا التى لكى يهدوا غضب العدل الالهى السامح بها قصاصاً او لاحكامٍ يعلمها هو تعالى قد مارسوا فرض صومٍ صارم بهذا المقدار حتى ان الامهات منعن رضاعة اللبن عن اطفالهنّ الذين فى الاسرة طول ايام هذا الصيام باعمال التوبة كما ان الحيوانات مُنعت عن المراعى والقوت كما فعل اهل نينوي فلما بلغ خبر مجى هذه العساكر المصرية وما فعلوه قد تجرد ضدهم بجيشٍ غير قوي اوسطاكيوس ده اغرين والى صيدا الذي كان سُمّي وكيلاً لسلطات اورشليم فى حال اسره ومشى من صيدا على الاعدا بالجيش المذكور الذي كان ثلاثة الاف شخصٍ لا غير كما ان غواريموند بطريرك اورشليم خرج من هذه المدينة المقدسة حاملاً خشبة الصليب المقدس متبوعاً من الانبا بونس رئيس دير كلونى الحامل للحربة المقدسة كما ان اسقف مدينة بيت لحم تبعهما حاملاً بيده وعاء عجايبى كان حسب التقليد يقال انه حاوٍ اثر حليب مريم البتول والدة الاله ☆

فقد التهمت جموع المسيحيين مقابل اعداهم فى سهل ايبالين فعساكر الاسلام الذين كانوا اربعين الفاً قد ضربوا منطقة العساكر النصاري واحاطوا بهم من كل ناحيةٍ بنوع ان ابادتهم التامة اضحت عديمة الريب ففيما هم بهذه الحال يقول المورخون واذا باشراق ضياء ناري عظيم نظير الصاعقة قد اضطرم في الهوا وانقض فوق عساكر الاسلام الذين استوعبوا منه رعدةً واندهالاً فانقطعت

قواهم والخوف طرحهم تحت ارجل الصليبيين الذين ابادوا منهم بحد السيف اثني عشر الفاً والباقون ادبروا امامهم بالرهبة هاربين كما ان المراكب فى البحر اضطربت من العواصف والعساكر التى ضمنها عرفوا انكسار الجيوش الاسلامية فابتعدوا عن يافا وكلٌ سافر فى البحر من ناحية متبددين وهكذا العساكر المسيحيـة اغتنمت موجودات المغلوبين ورجعوا بهـا الى اورشليم اغنيـاء منتصرين واوعبوا الفضاء من اصوات التراتيل الشكرية والتسابيح الظفرية وذلك سنة ١١٢٤ ❊

اما مدينتا صور واسكالون المعتبرتان فى مدن وثمين سوريا فلم يزالا فى حوزة الاسلام لانه ومهما كان شديـداً بأس المسيحيين وغريبة شجاعتهم فقلـة عددهم لم تكن تسمح لهم بمحاصـرة هاتين المدينتين الكبيرتين بل محتاجين فى ذلك الى عساكر تاتيهم من بلاد اوروبا فهذه حينيذٍ وردت اليهم من مشيخـة البندقية وما حولها وهم استقبلوها كانها عضدٌ سمـاوي منـذراً مبشراً اياهم بغلبات جديدة ازمعت ان تكلل اعمالهم ❊

على ان مشيخـة البندقية الخصم القوي لمشيختى بيزا وجينوا لم تكن الى ذاك الحين اشتركت باعمال الحرب الصليبية وحوادثها الا بشى جزئى جداً وكانت سكان البندقية منذ بعض اجيال معتمدة على المتاجر مع البلاد الشرقية غير انهم كانوا مفتشين على ارباح اخرى مما على الديانـة والعبادة نحـو الاماكن المقدسـة ولذلك لم يهتموا فى ان يماثلوا عنايـة الصليبيين وغيرتهم بـل بروح فطنة باردة لبثوا منتظرين اثمار هذه الحـرب الصليبيـة والانتصارات حتى انهم وقتيذٍ ينشرون سلجقهم و ياتون الى المشرق خلواً من خطر فاذاً حينما هم تحققوا امتلاك مدينة اورشليم بأيدي الصليبيين وتوكدوا الفوايـد التى حصلت عليهـا اهالى

مشيختي بيزا وجينوا من قبل اصحابهم واتحادهم مع الصليبيين قد اخذتهم روح المغايرة وايقظتهم من توانيهم واحبوا ان يستغنوا بالغناء من خزاين الاسلام فشدوا عزايمهم وجهزوا واحد وعشرين مركباً وسافروا بها نحو بلاد المشرق وبعد ان بددوا في مسيرهم عدة مراكب مصرية عارضتهم قد بلغوا اخيراً شط مدينة عكه ومن هناك الدوجا مخايبيل مقدام مشيخة البندقية الذي اقاد صحبته هذه العمارة الحربية قد خرج بملاقات الاشراف امامه واتى الي اورشليم بدخلة احتفالية كلية ثم قدم ذاته الى الاتحاد مع اللاتينيين وهم بابتهاج قلبي صادقوا على قبوله معهم وهكذا حالاً استعدوا جميعاً الى اعمال حربية جديدة ضد الاسلام ☆

ففي ديوان المشورة الملتيم وقتيذٍ بحضور الدوجا مخايبيل المذكور وغويليلموم ده باراس كونته ده طيباريا معضد سلطنة اورشليم وغيرهم من الاشراف والامرا المسيحيين صار الاعتماد على حصار مدينة صور او مدينة اسكالون ولكن الاراء انقسمت في هل ان يوضع الحصار على هذه او تلك او بالعكس على تلك قبل هذه فحسب تقرير المورخين اهل الديوان المذكور ارادوا نهاية الخلف بهذه الطريقة الغريبة الموضحة بساطة المسيحيين في الجيل الثاني عشر وسذاجة ديانتهم وهي انهم ارادوا ان يسالوا الله نفسه عن حقيقة ارادته وكما يجاوبهم يسلكون حسب مشيته ومن ثم حرروا اسم مدينة اسكالون في ورقة وكتبوا اسم مدينة صور في قطعة ورقة ثانية ودرجوهما ووضعوهما في الهيكل فوق اقبر المسيح وابتعدوا جميعاً عنه ثم اتوا بفتى صغير يتيم وقدموه الى قرب الهيكل وطلبوا منه ان يمد يده وياخذ واحدة من الورقتين المذكورتين بحضور الجميع ويرجع بها واذ تم ذلك فوجد الانتخاب واقعاً على مدينة صور المحرر اسمها في قطعة الورق التي اخذها الفتى

من على الهيكل وهكذا تباشر حالاً التجهيز الالزم لمحاصرة هذه المدينة وبعد ان كان الدوجا مخاييل رتب مع الامرا الشروط العايدة الى صالحه وصالح عساكره ونجاح متاجر اهل البندقية في المشرق قدم ذاته الى الذهاب معهم في الحرب براً ومراكبه بحراً ☆

فمدينة صور كما قلنا في محل اخر كانت سلطانة البحر شهيرة الاسم في التواريخ القديمة المقدسة والمدينة كانت في وسط امواج البحر حاصلة على شقة اراضي مخصبة مبهجة المنظر وقد كانت حاصرت تارةً من بوكورونوصور وتارةً من اسكندر العظيم الذي استمر بقوته مدة سبعة اشهر امام اسوارها فقد كانت في زمن هذه الحروب الصليبية لم تزل حاصلة على جانب من رونقها القديم ومن حيث انها قبلاً كانت محصنة بركنين من جانبيها ممتدين الى باطن البحر بعماد متين جداً بعلوٍ كافٍ لمنع عواصف البحر والهوا عن ميناها تلبث المراكب امينة من الخطر فكذلك كانت من الجهة الاخرى الارضية محصنة بثلاثة اسوار الواحد داخل الاخر باحجار قوية كبيرة منحوتة وبالاجمال براً وبحراً كان حصنها عظيماً كانه عديم الانغلاب ☆

فاذاً العمارة البندقية حاصرت هذه المدينة من البحر بالمراكب والعساكر الصليبية حاصرتها من جهة البر وكان على روس هذه العساكر البرية غويليوم معضد السلطنة وبطريرك اورشليم ويونس امير طرابلوس الشام واما الاسلام مع المصريين المحاصرين ضمن المدينة فقد اظهروا جهاداً قوياً في محاماتهم عن ذواتهم وعنها غير ان الانقسام الذي كان عندهم حادثاً بين اهل المدينة والمصريين قد وافق صالح المسيحيين المحاربين اياهم ☆

غير انه مع ذلك قد مضى على الصليبيين زمان خمسة اشهر بدون بلوغهم النصر الاخير ولكن بعد ذلك الان الحرب امكنها

ان تهدم اسوار المدينة من الجهة الواحدة كما ان اهل المدينة تضايقوا جداً من عدم ابقى شى عندهم من ذخاير القوت ومن ثم حدثت عندهم المداولة في التسليم فى الوقت الذى فيه انقسمت اراء روسا الصليبيين الامر الذي لاخر امتلاكهم المدينة بمجدٍ على ان عساكر اورشليم تشكوا بمرارةٍ من انهم وحدهم يكابدون الشقا والخطر والاتعاب الكلية فى الوقت الذي فيه العساكر البنادقة كانوا يوجدون مستريحين فى مضاربهم غير مهتمين في مشاركتهم بالجهاد ونظير ذلك كانت طايفة الملاحين فى المراكب كانهم متفرجين فاذاً هم ايضاً اهملوا اعمال الحرب والاسلام داخلاً اغتنموا فرصة هذا الانقسام وابطال الحرب ضدهم مدة ايام غير انه اخيراً الدوجا مخايل اجتمع بالامرا اللاتينيين واوضح لهم انه قد اشهر ذاته الى اظهار شجاعته وحقيقة مفعول جهاده الامر الذى حينئذٍ اغلق افواه المتكلمين ضده واضرم حالاً حرارة المغايرة فى قلوب الجميع وبمقدار ما بداءت اعمال البنادقة تعلن شجاعتهم وجهادهم فباكثر من ذلك الصليبيون كانوا يجتهدون في ان يفوقوهم بالمغايرة وهكذا فى ايام قليلة الاسلام داخلاً ايسوا من المعونة والخلاص فاعتمدوا ان يسلموا المدينة وعلى الفور شوهدت بيارق الصليب منتشرة فوق اسوارها والمسيحيون دخلوها بسمات الغلبة والظفر وتقدمت البشاير الى اورشليم بالانتصار الامر الذي املى قلوب المسيحيين افراحاً ومسراتاً عديمة الوصف وبضرب النواقيس واصوات التراتيل احتفلوا بتذكار الغلبة وهذه المدينة المقدسة الفاقدة سلطانها والمتردية بالحزن على مصيبته قد اراد سكانها ان يبدلوا قلما يكون وقتياً الحزن بالفرح فزينوا المدينة باغصان الزيتون وبالزهور وبالاقمشة الغنية وصنعوا عيداً مبهجاً لهذا الظفر المأتمل سنة ١١٢٤ ✿

واما بودوين الثاني سلطان اورشليم فاذ بلغه وهو محبوس فى قلعة شارات خبر هذا الانتصار قد نسى اكداره من زيادة فرحه به وانما كان يندب سوء حظه فى انه لم يكن مشتركاً مع الغالبين بهذا الظفر المجيد فقد كان مرّ زمان سنة ونصف على هذا المسكين وهو مثقل بقيود حديد بين ايدى الاسلام الا انه اخيراً اغتنم الانقسام الذى وقع بين الاسلام من جري خسرانهم مدينة صور واحتسابهم من الغوايل المقبلة فتعاطى معهم امر اطلاقه بفدية مبلغ عظيم من المال يوصله اليهم بامن فرضوا معه بذلك واطلقوه فجاء الى بين المسيحيين ولكنه قبل ان ياتى الى تخت سلطنة اورشليم اراد ان يبدد من الافكار امر انغلابه السابق وسقوطه اسيراً كل تلك المدة فجمع جانباً من العساكر واتى بهم على مدينة حلب الشهبا غير ان هذا الامتحان لم يثمر له افادةً لاجل زيادة تحصين هذه المدينة ولكنه اذ اهملها واتى على انطاكيه فقد فاز بمبتغاه لانه ملك امنيّة هذه المدينة وخلصها من الاعدا الذين كانوا ادثروا احوالها ومن حيث ان هذا السلطان باعماله هذه تجددت فيه الرجولية فلم يانف من ان يقتحم طوغتاكيس امير دمشق على معركة حربية فضربه وكسره وجرى فى اثره الى حد اسوار دمشق وكذلك حاصر مدينة رافا الحصينة فى مقاطعة طرابلس الشام ففتحها بانتصار غريب ومن هناك اذ تصادف مع جيوش الاسلام الاتين ضده قد علق معهم معركة الحرب فغلبهم واخذ منهم عدداً هكذا عظيماً من الاساري حتى انه بمجرد الاموال التى اخذها من الاسلام لاجل استفكاك هولاء من الاسر امكنه ان يفى جميع الاموال التى الزم ذاته بها لاجل اطلاقه مع الفداية عن كل المستاسرين لحد ذلك الوقت من المسيحيين بايدى الاسلام محبى المال وهذه

الانتصارات العجيبة فاز بها هذا السلطان المجيد فى تمام سنة ١١٢٤ وفى سنة ١١٢٥ ☆

على ان الجيوش الرهبانية الذين من جمعية القديس يوحنا المعمدان ومن غيرها (التى تقدم لنا التخبير عنهما قبلاً) قد اتبعت بودوين السلطان المعظم فى الحروب كلها واظهرت حقايق مفاعيل الرجوليه حتى انهم اضحوا شايعين الصيت فى العالم ومفتخمين بمجد الغلبة كما ان الرجل الجليل فولك كونته ده الينو السامى فى الحسب والنسب المشهور باعمال الفضايل والتقوي ليس باقل من افعال الشجاعة الجهبزية فهذا الذي هو ابن فولك ريشين بارتراد ده مونت‌فورت قد حارب مع المسيحيين فى المواقع بانواع فايقة الوصف على ان هذا الرجل الشريف كان اتى الى اورشليم من فرانسا بقصد العبادة بزيارة الاماكن المقدسة ففى اقامته فى مدينة اورشليم مدة سنة كاملة قد اعال بمصروفه في هذه المدة مائة رجل محارب وكان يغزو معهم فى الحرب ضد الاعدا بانتصار غريب فمن ثم بودوين الثانى سلطان اورشليم اذ اختبر فى هذا الشاب كل الصفات السامية اللايقة بمن يملك على الشعوب قد اختاره ان يكون خليفةً له فى تخت سلطنة اورشليم لان هذا السلطان لم يكن له ابن ذكر فمن ثم ازوج فولك بابنته ميليسيندا موعداً اياه بان صولجان سلطنة اورشليم هو محفوظ لاستلامه من بعده الامر الذي اوعب قلب هذا الشاب الشريف ابتهاجاً بنصيب هكذا لامع به اضحى هو سهراً لبودوين وخليفته فى تخت اورشليم ☆

فمجموع الصليبيين او المسيحيين اللاتينيين الموجودين وقتيئذٍ فى المشرق من جهات اوروبا كانوا مولفين اربعة امريات محتوية على مقاطعات وبلاد واسعة جداً وغنية فى كل نوع وهى امرية

مدينة الرها وما يحوطها التي بدايتها قلعة مارقيه وممتدة من جهة المشرق الى حد قاطع نهر الفراة وامرية مدينة انطاكيه وما يليها المتسعة من الناحية الواحدة الى حد مدينة طرسوس ومن الجهة الاخري الى حد قلعة مرغات وحصن ميراكله وامرية طرابلوس الشام المحتوية على الشطوط البحرية من حد قلعة مرغات الى حد النهر الجاري فيها بين بيبلوس وبيروت ثم سلطنة اورشليم الممتدة من حدود امرية طرابلوس الشام الى حد الجول المقفر المقارب مدينة مصر من وراء قلعة داروت ✡

ثم ان سلطنة اورشليم هذه قد كان لها الاتحاد والمساعدة مع جميع المسيحيين الكاينين فى المشرق ولكن اسعافها الحقيقى كان ياتيها من بلاد المغرب معونة لجميع اللاتينيين الكاينين فى المشرق لان ممالك الاوروبا كان اربابها يبتهجون فرحين عند ملاحظتهم ابناهم موطدين السلطنة الجديدة حيث هو قبر فادى العالم وكانت قلوبهم مستحرة في اسعافهم لدوام حفظها مفتخرين بمجد هذا العمل على انه يومياً كان يصل الى بلاد سوريا من اوروبا زوار بروح العبادة وبقصد ان يشاهدوا اخوتهم او اقاربهم او معارفهم اللاتينيين المتوطنين فى المشرق وحينما كانوا يتاملون مدينة اورشليم المقدسة قد تجددت فوق رديم عمارتها القديمة كانوا يتحركون بالغيرة التقوية نحو حمايتها ويتناولون الاسلحة محاربين اعداها وفي تلك الازمنة كانت رهبان القديس يوحنا المعمدان وجمعية الهيكليين مزهرين بالرجولية والاعمال الحربية العجيبة حسب نذورهم وبموجب روح فرايضهم وكانوا لمدينة اورشليم بمنزلة قلعة عيئة وحصن شريف منيع كاين على الدوام تجاهها مناضلاً عنها ضد اعدايها كما انهم فى الوقت ذاته كانوا بمنزلة حراب حادة وسيوف مرهفة لحماية جميع الزوار فى جبال يهوذا

او فى سهول سارون التى هى طرقات متعبة مخطرة للزوار عند نهاية اسفارهم الشاسعة من بلادهم الى الاماكن المقدسة على ان هولاء الزوار بعد الضنا والمشقات من اسفارهم حينما كانوا يشاهدون ثوب رهبان القديس يوحنا ذا اللون الاحمر المزين بالاسلحة او ثوب الرهبان الهيكليين الابيض المقلد عليه سيف المحاميين كانت قلوبهم تستوعب ابتهاجاً وطمانينة وكانهم يلاحظونهم كنجوم سماوية تهديهم الى بيت لحم او كحراس ملايكة تقودهم الى القبر الخلاصي بامان واعانة بمحبة اخوية ❀

فالمورخون القدما فى تحاريرهم يظهرون اندهالهم من شدة المحبة المسيحية التي كانت متملكة فى تلك البلاد تحت ولاية الامراء الصليبيين (فيقول احدهم يعقوب ده فيتري هكذا) انه فى ذاك الوقت الكنيسة الشرقية ابتداءت ان تورق وتزهر وقد شوهد ان يكمل فيها ما كتب في سفر نشيد الانشاد ان الشتاء قد زال والامطار كفت وشوهدت الازهار منتشية فى ارضها وقد جاء زمان قطف الاثمار من على الاشجار لانه من جهات مختلفة من الارض ومن كل الطوايف ومن ساير القبايل التى تحت السما اناس كثيرون عابدون لله حسنوا الديانة كانوا يقبلون الى بلاد فلسطين اجواقاً وافواجاً مجذوبين من رايحة عرف المدينة المقدسة اورشليم التى عبق نشر طيبها فى الافاق كلها فالكنايس القديمة الداثرة ترممت وتزينت وكنايس غيرها جديدة تشيدت واديرة كثيرة توطدت وغيرها تعمرت من سخاء الامرا وصدقات المومنين ولم يكن يظهر عن خدام الانجيل احتياج الى شى بل كانوا مكتفيين من كل نوع وكثرة من الرجال اذ كانوا يهجرون العالم فكلٌ منهم حسب حالة وصفته يختار لذاته الملايمة لحسن عبادته فبعض كان يختار العيشة النسكية حول نهر الاردن الذي فيه

اعتمد مخلصنا او في القفر الذي ضمن قاطع الاردن حيث فادينا صام اربعين يوماً فيها بين الوحوش وغيرهم اقتداءً بالنبي ايليا كانوا ينسكون في جبل الكرمل قاطنين في ارض صغيرة فيما بين الصخور ونظير نحل حقيقي يولفون في افواههم عسل الخشوع الروحي المملو عذوبةً ثم ان هذا المورخ نفسه اذ يتكلم بعد ذلك عن اوليك الكثيرين من الغربيين المقبلين الى بلاد فلسطين كي يوطدوا فيها سكنايهم الدايمة فهو يورد في شانهم صورةً اخرى قايلاً ان الارض المقدسة قد ازهرت نظير فردوس ارضي ذي تنعمات مادة مشابهة الورد والزنبق والبنفسج فهي كانت تبعث الى الاماكن البعيدة نفسها عطر ذي رايحةٍ عذبة على القلوب لان السماوات قد سكبت عليها بركاتها وهكذا الاراضي الحقلة والبرية الغير مسلوكة اضحت حقولاً وجناين مخصبة ثم ان كهات الحجارة حيث كان ماوي للحيات والتنانين قد شيلت من محلاتها وتعمرت والرب الذى كان قبلاً اهمل هذه الارض فبرحمته الغير المتناهية قد جمع بواسطة الصليبيين فيها ابناه المتفرقين اذ ان البشر الذين بالهامه تعالى اقبلوا الي هناك من اوطانهم ووطدوا سكناهم قد ضاعفوا عدد القاطنين فيها لانه كان يتقاطر من البلاد التي وراء البحور الى هذه الارض جموعٌ كثيرة خاصةً من بلاد المانيا ومن مشيخات البندقية وجينوا وبيزا غير ان العدد الاكثر والاقوا والاغنى قد كان يتوارد بنوع اخص من مملكة فرانسا ✿

اما سلطنة مصر ملك الخليفة فمن حيث انها ضعفت جداً من كثرة الخساير والكسرات التي المت بعساكرها في موقعات عديدة فالمسيحيون ما عادوا يهابونها كما كانت في المبادي مخيفة اياهم وبالتالي من حيث ان العساكر المصرية صمدت اخيراً

على الموجودين فى مدينة اسكالون وحدها لاجل المحاماة عنها فلم يعد ممكناً لهم ان يبتعدوا عنها ويقلقوا الصليبيين الذين من جهةٍ اخرى لم يعد عندهم الخوف الا من كثرة عساكر الخليفة الذي كان فى بغداد مع عساكر امراء الموصل وحلب والشام لان الشعوب الاسلامية الواطية لاملها بالنهب واخذ الغنايم الغنية من المسيحيين كانوا فى كل سنةٍ يقبلون نحو هولاء الامراء من قاطع جبل القوقز ومن سكان جبل طاوروس ومن خوراسان ومن شطوط نهر الدجلة من قبايل الاكراد والتركمان وامثالهم الذين كانوا ياتون الى سوريا ويقاتلون مع الاسلام وفيما بين هولاء القبايل الذين كانوا يحاربون الصليبيين ويصدونهم عن التقدم فى امتلاك البلاد لا ينبغى ان يُهمل ذكر قبيلة الاسماعيليين او اللصوص الحشيشيين (من قِبل استعمالهم الحشيش الذي هو نوع من النباتات يستخرج منه سمّ) فاصل هولاء هو من الفرس على ان هذه الطاينة الغير المومنة كانت فى اواخر الجيل الحادي عشر انتزحت من بلاد العجم وافرادها جاءُوا الى جبل لبنان وتوطدوا فى مقاطعته من حد طرابلوس الشام الى حد طرطوز وكان عليهم راساً وحاكماً رجلاً يسمى الشيخ او سيد الجبل فالتاريخ حفظ لنا عن هولاء شرحاً خصوصياً بمنزلة نموذج منه يُعرف الى كم يتصل حد الشعب الذى بعناية عقل وصلابة قلب يعتقد ان الديانة تتوقف على السلطة الدنية معتبراً ان زوال هذه السلطة انما هو زوال الديانة فراس هذه القبيلة الصغيرة المعتبر عندها بمنزلة سلطانها وهو شيخ العرب لم تكن سلطنة تحتوى سوى على نحو عشرين حصن او قرية محصنة وبالكاد عدد اشخاص سكانها محصل الستين الف نسمة ولكنه بخباثته وحيله ومظاهرته الصنّعة كان يلقى الخوف على القبايل

الاخر ومتسلطاً على هذه الطايفة حراً كانه اقوي سلاطين المشرق بنوع خباثته وخداعه احرى مما بقوته ثم ان من قبيل ولايته العنيفة ذات الصلف قد صور لذاته ولرعيته شيعةً خصوصيةً من المذهب والاعتقاد وباستعانته بالمواعيد الكاذبة وبالحيل الخدّاعة قد جذب الى التعلق به عسكره والمحافظين اياه بنوع ان ارادته واوامره اضحت عندهم كانها الهية حتى ان مجرد اشاراته لهم بالاصبع كانت تجعل هولاء الجنود الشبان غير مبالين ولا باعظم اخطار الموت في تتميم مشيئته اذ انهم سواء كان في الجبل او في السهل وسواء كان عاجلاً او متاخراً لا بد لهم من انهم يكونون تمموا المرسلة التي يكون شيخ الجبل امرهم بها بان يقضوها خلواً من توفير حياتهم عن تكميلها وكل من حلت به الداهية بان يهجم عليه واحد من هولاء فلا خلاص منه الا بقتله لان كلٌ منهم متى هجم اما قاتل واما مقتول ولذلك كثيرون منهم كانوا يصيرون ضحيةً لجسارتهم هذه بموتهم قتلاً ولكن تري ماذا كان يهمهم ان يموتوا فيما بين العذابات اذ كان الموت عندهم ربحاً عظيماً من حيث ان اعتقادهم هو انهم بالموت يفوزون بجنات النعيم تحت مضارب من ارجوان في بساتين تجري بين اشجارها المخصبة بالاثمار الفردوسية سواقي لبن وعسل مع باقي الملذات الجسدية بتمامها مع الحواريات ومن ثم كانوا يهجمون على اخطار الموت بلا افتكار بخوف لا بل كانوا يوجدون فيما بين ايدي اعداهم اذا سقطوا تحتها بوجوه باشّة ويتقبلون منهم العذابات والموت خلواً من مبالاة كي يذهبوا حالاً الى جنان النعيم ثم حينما كانت الامراء المجاورون ولاية شيخ الجبل يمتلون رجزاً من اعمال هولاء اللصوص الحشيشيين ومن غزواتهم المضرة جداً يرسلون معتمدين من قبلهم الى هذا الشيخ متشكيين من

اعمال عساكره المسايين فيدا٘يس المحافظين اياه ويتهددونه بالحرب ضده ان لم يكفهم عن الغزوات فكان هو يجمع حوله جوقاً من هولاء الفيدا٘يس ويعطى لواحد منهم اشارةً ما فحالاً هذا يصعد الى اعلى احد الابراج ويطرح ذاته الى اسفل فيموت ولغيره اشارةً اخرى وهذا حالاً يقتل ذاته بسلاحه عينه ثم كان الشيخ يلتفت نحو المعتمدين قايلاً لهم اذهبوا اخبروا سيدكم مرسلكم بما شاهدتم وافهموه انه عندي مثل هولاء من الخدام الوف كثيرون وكلهم يطيعونى حتى الموت كما نظرتم ❊

ثم ان المسيحيين فى بحر سنة ١١٣١ قد ندبوا بحزنٍ شديد فقدانهم محاميهم الاشد وسندهم الاعظم وهو جوساليم ده كورتاناى امير الرها المتقدم فى السن الذي دام ازمنةً مديدةً موعباً قلوب الاسلام الذين فى قاطع شطوط الفراة خوفاً ورعدةً من باْس وقوة اعمالهِ الحربية على ان هذا البطل الصنديد حينما كان محاصراً احد القلاع التى بالقرب من مدينة حلب قد هدم احد ابراجهم فاصابه من حجارة الرديم ما اضامه جداً فرجع الى الرها وهناك بلغه مسعود امير مدينة ايقونيه اتى بعساكره وحاصر احد الحصون التى تحت ولاية الرها فهو استدعى اليهِ ابنهُ وامره بان ياخذ العساكر ويذهب يحارب هذا العدو اما ابنه فاجابه مظهراً كم كان يوجد من التباين فيما بين عدد عساكره القليلة وبين عدد عساكر العدو الكثيرة جداً فعند سماعه هذا الكلام قد غضب ووبخ ابنه على نذالته (لانه هو ما كان اعتاد اصلاً ان يخاف من الكثرة) وقد اراد ان يعطى بذاته الى اخر حياته نموذجات الشجاعة والرجولية فامر بان يحملوه على عربانة وسار بها على روس عساكره ولكن قبل ان يصل الى المدينة المحاصرة قد اتاه الخبر بان مسعود امير ايقونيه لما سمع بمجيه قد رفع عنها الحصار

ورجع بعساكره الى محله فصينيذٍ هو اي جوساليم امر بتوقيف العربانة عن المسير ورفع عينيه الى السما وسلم روحه بيد الله مايتاً بين ايدي عساكره ☆

فجسم هذا الامير الجليل قد نقل من هناك الى مدينة الرها ومسير العساكر بهِ طول شطوط نهر الفراة قد كان منظراً محزناً في الغاية لان الجنود طول هذه المسافة كانوا يندبون قايدهم واباهم والسكان كانوا يشاركونهم بالبكا على اميرهم الشجاع والجميع لاسيما اهالي مدينة الرها قد خرجوا الى ملاقاته مرافقين احتفال دخلته بالقصايد المحزنة والمراثي والندب والعويل وهولاء واوليك اجمعون في حال شدة مراير قلوبهم على فقدهم سيدهم وسندهم كانوا يمزجون الحزن مع زيفات التكريم له كانهم صانعون عيد انتصاره الاخير الذي فيه انتقل من هذه الحيوة غير مغلوب بل غالب اعداه ☆

ثم انه في هذه السنة عينها سنة ١١٣١ بودوين الثاني سلطان اورشليم باين الارض والسلطنة معاً فهذا الامير الحسن العبادة حينما لاحظ دنو الساعة الاخيرة من حياته صير ان ينقلوه الى حذاء قبر مخلص العالم وهناك اسلم روحه بيد الله بين ذراعي ابنته ميليسيده وصهره زوجها فولك ده انجو الذي اقتبل منه الوصية الاخيرة في ان يحفظ مجد التخت الذي هو خلفه له فخبر وفاته اقام حزناً عاماً عند الصليبيين اجمعين الذين كانوا يكرمون في شخصهِ الرفيق الاخير من الامرا الذين اتوا من المغرب صحبة غودافروا فهذا السلطان كان ملك على امرية الرها مدة ثمانية عشر سنة وجلس في تخت سلطنة اورشليم اثنى عشر سنة وقد كان هو مزيناً بروح الاستقامة وبنفس شجاعة عالية وبتصرف عذب عديم التقلب وكانت له عناية وافرة

جداً فى تهذيب امور السلطنة الداخلة فضلاً عن الخارجة وكان يلاحظ احوال الشعب العتيدة ويسبق ويدبر احتياجاتهم قبل حينها ومن ثم الغلات من كل الانواع كانت تتوجد بكثرة فى اورشليم من حيث انه كان خطاً سمح للروم والارمن وسكان سورية حتى الاسلام انفسهم بان ينقلوا الى هذه المدينة المقدسة الحنطة وساير انواع الحبوب والخمر وساير اجناس الماكل والمشارب خلواً من ان يفوا شيأً عليها من اموال ميرية بتة ثم نظراً الى شجاعته فى الحروب فقد تقدم عنها الشرح بكفاية فى الموقعات التى هو بها حارب اعداه لا بل ان زيادة هذه الشجاعة احياناً ما اوقعته فى الخسران لانه مرتين سقط في ايدي اعدايه اسيراً وفى مدة السبع سنوات التى هو فيها ابتعد عن رفقاه الصليبيين ما اخذ سيف المحاربة الا احياناً قليلاً بمجد الامرية حسب الاحتياج (فيقول المورخ غوليليوم الصوري) عن هذا السلطان الذى لقب باكيلوت اي مهازهاد قد كان حسن الديانة مملواً من خوف الله وقد صير ذاته معروفاً بحفظ الامانة فى كل ما كان يعد به ويتفق عليه خلواً من رجوع عنه او خيانة به وكان جزيل الكفاية في صنعة الحرب وتدبير العساكر فقد وجد هو ذو قامة مرتفعة وذو صورة جميلة محبوبة وقد ازيع فخر مديحه فى حلمه ورافته وانسانيته المشفقة وكانت عادته الجثو الدايم ركوعاً حين صلواته وحضوره فى الاحتفالات الكنايسية حتى ان جلد ركبتيه قد صار كالدمل اليابس وحينما تقدم فى السن قد استمر حاراً جداً فى ممارسة الاعمال السلطانية كل مرة وفي كل شى متعلق بوظيفته ❊

فعب وفاة هذا السلطان الجليل صهره فولك ده انجيو المعين منه خليفة له قد تتوج سلطاناً على اورشليم وغوليليوم الصوري

نفسه يشرح عنه بانه كان عذبا" بشوشا" صالحا" وقد تميز عن الاموا الاخرين بجودة عبادته التقوية وبسخاء يده الوافر وقد كان فايق الكفاية فى الامور الحربية التى اصابه بها كانت عديمة الملل والوبل فهذا السلطان الجديد قد كان تقدم فى السن حين جلوسه فى تخت اورشليم والسلطنه التى سُلّمت لامانة محافظته قد كانت وقتيئذٍ قوية جدا" غير ان هذا الامير الشيخ قد تهاون احيانا" في الاهتمام الحار وفى العملية الفعالة الضرورية لحفظها مزهرة" وصودق فى زمان ولايته روح الانام الاشراف حاصلا" بالانقسام وفى مدة الاربع عشر سنة التى هو استمر حيا" بعد استلامه صولجان الملك فالصليبيون بتعاسةٍ مالوا الى الهبوط *

على انه غب صعوده الى كرسى داود قد مشى على راس جانب من العساكر نحو انطاكيه لكى يدبر امور هذه الامرية الكائنة حينيذٍ فى حالٍ يُرثى اليها من البلبلة الشديدة من حيث ان رايموند الشاب الذى من بعد وفاة ابيهِ اقبل من بلاد المغرب الى انطاكيه ليتسلم هذه الوراثة قد قُتل فى معركةٍ حاربته بها الاعدا فى اراضى كيليكيا وزوجته اليزا ابنة بودوين الثانى اذ ترملت منه لم تتاخر عن ان تشهر ذاتها وريثة" له غير تاركة حقها عن هذه الامرية ولذلك استدعت الى معونتها المسيحيين المتوطنين فى المشرق اجمعين ومن جهةٍ اخري روجاو دوق سيسيليا كان مجهزا" العساكر الى احزاب مختلفة فلما كان سلطان اورشليم ذاهبا" نحو انطاكيه فامير ترابلس الشام بونس الذي كان محزبا" مع الاميرة اليزا اراد ان يحجز هذا السلطان عن المسير الى ما قدام وهكذا سهل بلاد فينيكيا اضحى مشهدا" لمعركة الحرب فيها بين اميرين مسيحيين ومن حيث ان سلطان اورشليم انتصر على بونس قد لاشى بعد ذلك الانقسامات باعطايه عربسا"

لاسطنسا الشابة ابنة بوهيموند وليزا الرجل الشريف رايموند ده بواتيار اخي غويليوم ده اكيدان وهذا النبيل قد كُلِّف الى ان يقبل نحو سورية فترك فرانسا مع بيارق الصليب واتى ليملك في باب المشرق مع عروسته ابنة بوهيموند ✿

غير انه في الوقت الذي فيه سلطان اورشليم بدد الانقسام من بين الخارجين عن حدود سلطانه قد دخل الانقسام ضمن سلطنته عينها على ان مصادفة وجود الملك يوحنا كومنينوس ابن الملك اليكسيوس وخليفته في مملكة الروم هناك قد اصدرت بلبلة جديدة ومعركة حربية فلو ان الروم واللاتينيون وقتيئذٍ كانوا يتحدون بالصلح والمحبة وتصير الجهانات واحدة ضد الاسلام لكانوا ابادوهم لا محالة من تلك الجهات ولكن اختلاف الاراء وتباين الارواح المضر قد وجد دايماً بالانقسام المر فيما بين هاتين الطايفتين لان الافرنج لم يريدوا اصلاً ان يزيحوا من قلوبهم عدم الثقة ونقص الاركان ضد شعبٍ قد اظهر بعمليته حقايق روحه المحب المخاتلة والخداع والغش ✿

اما الحادث الاكثر شهرةً من غيره من الحوادث التي مجدت اسم سلطان اورشليم في زمان ولايته فقد كان امتلاكه مدينة بانياس التي تحت زيل جبل لبنان غير بعيدة جداً عن نبع نهر الاردن حاصرها مدة ايام وافتتحها مستولياً عليها وهذه المدينة كانت حينيذٍ معتبرة في نوعها والموقعة الحربية المذكورة كانت هي الاخيرة من حروب هذا السلطان الشيخ الذي مات بعد ذلك بايامٍ ليست كثيرة في سهل مدينة عكة بسقوطه من على ظهر حصانه الذي شمص فيه غايراً واحدث ميتته سنة ١١٤٢ فقد ترك بوفاته ابنيه مع زوجته ميليسيده امهما فالاكبر فيهما اسمه بودوين وبالتالي كان الملك محقاً للاكبر

بودوين فهذا الوريث لسلطنة اورشليم الذي دُعي بودوين الثالث لم يكن له من العمر حين جلوسه في التخت المذكور سوى ثلثة عشر سنة (فيقول غوينيوم الصوري) ان هذا الامير قد كان ذا طبع جليل موطداً فيه امل عظيم عند من عرفه وقد تفاضل على الامرا الاخرين لجمال صورته وبمواهب الطبيعة الجسدية وبجودة عقله وحرارة لبه ونباهته وفصاحة كلامه قد كانت مجموعة في اقنومه كل الصفات السامية اللايقة بسلطان عظيم وقد كان لطيفاً عذباً انيساً راوفاً سخياً وقط ما تعدى على احد لا من الكنايسيين ولا من الرعايا وكان دارساً بارعاً اكثر جداً من اخيه اموري وكان بهذا المقدار مرتشداً جيداً بمعرفة احوال المملكة وعوايدها وحسن تدبيرها حتى ان الانام المتقدمين جداً في السن كانوا يستمدون مشورته في اتمام واجبات وظايفهم ✫

ثم ان والدته السلطانة ميليسيده قد افهمت عايه وصياً ووكلية في السلطنة الى حين السن المعين بالشرايع للملك ولكن في هذا الزمان قد نوطد الانقسام فيما بين الاحذاب المصادة وازمع ان توجد السلطنة في خطر مبين طول مدة وكالة السلطانة غير انه حالما بلغ بودوين الثالث الى سن حرية الرجولية اى تمام الاربعة عشر سنة صير ان ينادي به سلطاناً واد وضع على راسه تاج ابيه وتقلد بسيفه اخذ عساكره ومشى بها وقد اظهر شجاعته الغريبة في موقعة حربية ضد اعدايه في قاطع عبر الاردن بها امتلك المحل المسمى وادي موسى الا ان قلة صبر هذا الامير الشاب عن التقدم الى ما قدام بالفروسية واكتساب الغلبة كما ان عدم سقوطه في مكروه يتعلم منه الفطنة الواجبة في معاطات الحروب قد جذباه الى ان يظهر حرباً غير عادلة

ضد امير دمشق الذي كان اتخذ قبلاً بالصلح مع امير المسيحيين على انه في هذا الزمن رجل ارمني من ذوي القتال كان متولياً حكومة مدينة 'يسري راس بلاد حوران من قبل الاسلام قد جاء الى اورشليم موعداً سلطانها بان يملكه هذه المدينة 'يسري فكثيرون من الاشراف وارباب ديوان المشورة لم يريدوا الاعتماد على هذا الراي والتوجه الى بلاد مجهولة منهم سنداً على كلام رجل خاين في حق سلطانه او ربما انه عدو قاصد جذبهم الى بلاد لم يكونوا يعرفوها ولكن الرغبة في الاشراف الاخرين في ان يشاهدوا اراضي وبلداناً جديدة كان ذلك الارمني يعشقهم الى ما بها من المذهلات والطمع في امتلاك محلات اخر خاصةً اشواق الشاب بودوين الثالث نحو اتساع ملكه قد جذبتهم الى الاعتماد على اخذ 'يسري وما حولها وهكذا العساكر والقواد مع سلطانهم مملوين املاً وفخفخة قد خرجوا من اورشليم متجهين نحو بلاد حوران ✿

فاما اجتازوا الجبال المتصلة بلبنان ونزلوا الى سهول حوران ابتدوا يشعرون بالاضامة والمشقات واضحى مسيرهم عديم الامكان بالاسراع ومملواً من الاخطار فحرارة الشمس في تلك الاراضي المقحلة كانت محرقةً في سهول خالية من المياه النقية الممكنة ان تبرد غليل ظماهم وكانوا محاطين من اصقاع الاعدا ومرات كثيرة نبال الاسلام كانت تُرشق عليهم من كل جهةٍ بنوع انهم لا نهاراً ولا ليلاً كان ممكناً لهم ان يجدوا قليلاً من الراحة واخيراً بعد سيرٍ مستطيل ومخطر وموعب من الشدايد العديمة الوصف قد شاهدوا عن بعدٍ مدينة 'يسري الغنية التي كان املهم بالدخول اليها يعدهم بان يوجدوا فيها الراحة وتعويض الاضرار التي اصابتهم ولكن فيما كانوا يدنون من هذه المدينة واذا

بغضب مذهل وتحيرت معاً على الفور شاع في المعسكر واوعبهم كدراً لا مزيد عليه وهو ان زوجة الحاكم حينما عرفت خيانة رجلها في حق سيده بانقياده العساكر الصليبية ليسلمهم المدينة قد المقت الصوت على جميع الرجال الذين فيها ونفلتهم الاسلحة وسكروا باب المدينة وباشروا المحاماة عنها بقوة شديدة فالاشراف والروسا حينما تحققوا ذلك ولاحظوا الخطر العظيم الذي سقطوا فيه شرعوا يتوسلون الى بودوين ويستحلفونه بان يبتعد عنهم آخذاً صحبته جانب من الخيالة مع الصليب المقدس وراجعاً الى اورشليم ليفوز بنفسه ويحتمي مدينته غير ان هذا السلطان النسهم الروح ما اراد ان يفارق احباءه وجنوده بل ارتضى بان يشاركهم في الاخطار والالام المضنكة حينما لم يكن ممكناً ان يشاركهم في مجد امتلاك البلاد فبقى معهم وجميعاً التزموا بالرجوع بمشقات جديدة اشد من الاولى الى نحو اورشليم خايبين من املهم ولكن في هذا الرجوع اتخذوا التدابير الضرورية لحفظهم وتدرعوا بالشجاعة للمحاماة عن ذواتهم موطدين اجوافهم بصفوف متحدة حافظين الصمت والهدو عن القعقعة ضابطين السيوف بايديهم مستلة حاملين معهم امواتهم ومجاريحهم بدون ان يهملوا احداً في الارض فالاعدا اضرموا النار في تلك السهول وادركوا الصليبيين برمى السهام واما هولاء الشجعان فلم يبالوا لا من النار ولا من الدخان الحالك ولا من شي اخر بل كانوا يسيرون في تلك الطرقات بجد وترتيب واتحاد حتى اضحوا كالحبش من سواد النار والدخان رافعين اعينهم نحو السما ملتمسين خلاصهم بمعونة الهية اما الاسلام الساعون في اثرهم بدون ان يجدوا منهم احداً لا مفترقاً عنهم ولا ميتاً في الطريق ولا مجروحاً متاخراً عن الجري مع انهم هم انفسهم كانوا من

التعب ومن النار والدخان فشرعوا يقولون اننا انما نسعى فى اثر بشر لا من لحوم بل من حديد ولكن حينما الصليبيون وجدوا كانهم فى اخر جهادهم من شدايد الحال التى المت بهم فوقتئذٍ اسقف الناصرة الحامل صليب المسيح الحقيقى رفع صوته نحو السما صارخاً بدموع يارب ارحم عبيدك واشفق برافتك ضرهم (فيقول المورخ غويليوم الصوري) انه عند ذلك حالاً النار والدخان بقوة ريح شديدة منعا عن المسيحيين وضر بالاسلام وهكذا جميعاً ساروا بدون اعدا تلحقهم وخلوا من مانع حتى وصلوا الى اورشليم سالمين ☆

فلنعودنَّ نحو بلاد الرها التى نشاهدها تحت عاصف زوبعة مهلكة على ان اميرها جوسالين الذي سلم هذه الامرية لابنه غب ان صنع له عظة شريفة وانما سلمها لمن لم يكن يماثله لا بالقوة ولا بالشجاعة ولا بحسن التدابير وبالحقيقة ان هذه الامرية التى كانت هى الاولى الموطدة من الصليبيين فى الاسيا قد وجدت كل تلك المدة سنداً عظيماً لمسيحى المشرق وكانت مزهرة فى كل نوع فاذاً حينما كان سكان الرها محزونين على موت اميرهم وابيهم جوسالين الشيخ غير مفتكرين سوي بمصيبة فقده واذا على الفور شاهدوا زانكوي امير الموصل وحلب اتياً عليهم بعساكر قوية وعديدة جداً ☆

على ان هذا الامير المسلم زانكوي الموسس دولة الاطابكيين الماهر فى صنعة الحرب والعظيم فى التدابير المدنية قد كان فى مدة وجيزة من الزمان استولى على البلاد من الموصل الى حدود امرية دمشق وجهاده لم يكن يعرف تعباً او مللاً وقد قرظته التواريخ العربية بنعوت سامية الى السحاب بصفاته وجودة عقله ونجح افتصاره وقد كان هذا المجد ينمو فيه دايماً بالغلبات

المتواصلة التى كان هو يفوز بها ويوسع مملكته ومنذ زمن سابق قد كان مضمراً على ملاشاة تملك اللاتينيين من المشرق ولكن بنوع اخص كان حبه المجد الباطل يجذبه الى امتلاك مدينة الرها ولذلك وجه قبل كل شي قوة بطشه ضد هذه المدينة فمشى نحوها وبلغ الى حذاء اسوارها واما اميرها الجديد جوسالين الثانى فاذ لم يكن مفتكراً بالتزامه فى ان يحافظ عليها من احد ظناً منه بالا ياتى ضدها عدو مثل هذا فقد كان ابتعد هو عنها الى حصن طورباسال مع الاكثرين من المحاربين ابناء جنسه واما زانكوى فاذ كان اجتهاده حاراً فى ان يمتلك هذه المدينة قبل ان يرجع اليها العساكر مع جوسالين فقد شدد الحصار ضدها بقوة غريبة مدة ثمانية عشر يوماً سنة ١١٤٤ ☆

فنظراً الى المدينة المذكورة قد كانت محصنة جداً بسور عالٍ يحوطها وبعدد وافر من الابراج وبقلعة متينة فى وسطها غير انه كان ينقصها وجود قايد حكيم يعرف ان يستخدم شجاعة سكانها فى المحاماة عنها على ان رجال هذه المدينة مع اكليروسها ورهبانها قد تمكنوا فوق اسوارها والنساء والاولاد طفقوا ينقلون اليهم لوازم الحرب والقوت والماء ومن حيث ان املهم اجمعين كان فى انهم بدون اعاقة مزمعون ان يفوزوا بالمعونة من خارج فهذا الرجا كان يشدد شجاعتهم ولكن هذه المعونة لم تاتهم فى حينها بل ان مجى اميرهم جوسالين لمعاضدة كرسيه هذا اذ توخر جداً فاضحى عديم الفايدة لهم لان زانكوي قد ضاعف قوة الحصار بنوع غريب بواسطة الالات الحربية القوية جداً التى اصحبها معه من مدينة حلب ومن جملتها ابراج خشب قوية اعلى من اسوار الرها ومن ثم بهذه الالات العظيمة كان هدم الى الارض عدةً من ابراجها الى حد اساساتها ومن حيث ان عساكر الاسلام

على هذه الصورة هيأوا لذواتهم مدخلاً واسعاً اليها ليدخلوا منه الى باطنها في الوقت الذى فيه على البديـة زانكـوي اعطى اشارة عدم الحرب وحتم على السكان بان يسلموا ذواتهم لعبوديته ولكن لما اجابوا كلهم بانهم بالاحري يفضلون الموت على التسليم فهذا القايد المملوا رجزاً رسم على عساكره بهدم البرج الذي كانوا حوطوا نقض اساساته وهوذا البرج اندك مهدوماً بزلزلة من شدة سقوطه والاسلام دخلوا المدينـة بسيوفهم المجردة بايديهم وفتكوا بالمسيحيين بمقتلة مهولة واهانة عظيمة ونفاقات جسيمة ضد الكنايس وهكذا شعب المسيح الذين نجوا من ضرب السيف أخذوا اسارى وأبيعوا في الاسواق نظير البهايم (فهنا يقول احد الكتبة العربيين) اواه ترى اى فم لا ينبكم واية يد لا ترتجف اذا اريد ان يخبر او يكتب ما حدث من الضر في مدة الثلث ساعات التى فيها امتلكت مدينـة الرها فسيوف الاسـلام قـد غاصت في دما الشبان والشيوخ والنسا والكهنة والرهبان والبتولات والعرايس فيا لتعاسة الحظ البشري فالابا تجرعوا عدم الرافـة على قتل اولادهم والابنا على فقد ابايهم والامهات اضحين عديمات الحس والشفقة على اثمار احشاهن لان كل احد ترك اعز ما كان عنده من الاقربا وهرب الى الجبل المشيدة عليه قلعة المدينة والكهنة الشيوخ ذوي الشعور البيضا اذ كانوا حاملين ذخاير الشهدا حينما شاهدوا هذه الحال وتحققوا انه يوم الغضب قد وقفوا في محلهم خلواً من ان يكفوا عن رفع اصواتهم بالتضرعات لله الى ان ضربوا بسيوف الاسلام وفيما بعـد وجـدت جثثهم المترديـة بالاثواب الكهنوتية مغموسة بدمايهم وقد صودف البعض من النسا محتضنات اولادهن حولهن نظير الدجاجة التى تجمع افراخهـا تحت جناحيها وكنّ منتظرات سيوف الاسلام بالوصول اليهن

ويقتلوهنَّ جملةً مع اولادهنَّ او قلما يكون يفزن بالن يوخذنَ بالجهوة مع الاولاد الى السوق المشاع ليُبعنَ او يقدنَ اساري ❊

فحالما شاعت اخبار امتلاك الرها فالعالم المحمدي امتلى فرحاً لا يوصف وابتهاجاً لا يُنعت لانهم اعتبروا اخذ هذه المدينة بقوة باس زانكوي وشدة بطشه تقهقراً بليغاً للامراء اللاتينيين واعتدوا ذلك علامةً للانتصارات العظيمة ازمعت ان تكون على النصارى لابادة تملكهم الكاملة من اراضي الاسيا واما زانكوي فبعد ما صنعه في الرها قد ترك فيها جانباً من عساكره لاجل محافظتها وابتعد عنها وبباقي جيوشه غايراً على الفوز بانتصارات جديدة ولكن حينما حاصر هو قلعة جيابار الغير بعيدة من نهر الفراة قد وثب عليه هناك عبيده فقتلوه فيها بين امجاده حيث قال عنه احد المورخين العرب ان الموت قد امدده على التراب والترب اعطاه السكنى في ذاته ثم ان النصاري عند سماعهم خبر موت هذا الاسد الذي اضحى سنداً عظيماً للاسلام ولمذهبهم قد استوعبوا تعزيةً بذوالة عن مصرتهم غير ان داهيةً جديدةً ازمعت ان تحل بهم على ان نور الدين الذي هو الابن الثاني لزانكوي قد تقلد بسيف ابيه ومشى على روس عساكره بنوع ان المسيحيين حينما راوه قد لاحظوا ان المنتصر على الرها ما نزل الى القبر تماماً بل عاش بابنه هذا ❊

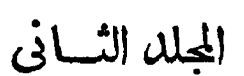
فزانكوي بعد اخذه الرها اذ اندهش من جمال عمارتها وزيناتها اراد بالاحرى عمارها باجود نوع ولذلك جميع الاسارى الذين كان اخذهم من اهلها قد اطلقهم فرجعوا اليها ولكن هولاء مع باقي سكانها النصاري غب موت زانكوى ارادوا ان يطرحوا من اعدهم نير الاسلام وجوسلين اخذ عساكره الباقية واقبل نحو هذه المدينة ودخلها في ظلام الليل بواسطة سلالم من

حبال قلب بها هو وجماعته من على السور وبغتةً ساروا ضمن ساحاتها واباادوا بحد السيف كل عساكر الاسلام الذين تركهم فيها زانكوي لمحافظتها وحالاً جوسالين كتب الى كافة الامراء الصليبيين الذين فى اقاليم سورية متوسلاً اليهم ومستحلفاً اياهم بان ياتوا الي معونته ليخلصوا من ايادي الاعدا هذه الامرية الجميلة التى كانت هى الاولى للمسيحيين في الاسيا فسكان الرها الذين حاصروا ضمنها متوقعين قدوم الاسعافات من الامرا المذكورين واذا بهم من على الاسوار شاهدوا عن بعدٍ معسكراً عظيماً تلمع اسلحته فى الاشعة الشمسية اتياً نحو مدينتهم ولكن ظنهم بهذه العساكر انها من اصحابهم واخواتهم قد خاب حالاً لانهم تحققوا ان نور الدين زانكوي هو القادم بها للانتقام منهم *

فلما زال امنهم بنقيضه وشاهدوا ذواتهم معدومين الوسايط الضرورية لحماية انفسهم من هذا الامير المخيف فجوسالين والاشراف الذين معه قد فازوا بذواتهم هاربين من المدينة ليلاً ولكن حينما اشرق ضياء النهار وعساكر نور الدين عرفوا امر هربهم قد اسرعوا فى اثرهم فادركوهم عن قربٍ واوثروا فيهم راشيقنهم بسحابةٍ من النبال (فهنا المورخ ابو الفرج يصرخ من شدة اضامته هاتفاً) يا لها من سحابة رجزٍ ويا له من يوم غضبٍ ويا لها من ليلة الموت ويا لاركون الجحيم على الارض ويا ليوم موعب تعاسةً على المساكين سكان الرها المدينة التى قبل هنيئةٍ كانت مستحقة الحيوة العديمة الموت لان جماهير اهلها وقعوا فى ايدي اعدايهم وهولاء ابادوهم بالسيف كما ان النار تبيد التبن ثم بعد ان الاسلام كلوا من المقتلة جمعوا الباقيين من اهل الرها فى الحيوة وربطوهم فى الحبال وجروهم وراء خيولهم مشاة رجالاً ونساءً فثلاثون الفاً من الرها قتلوا فى المرتين الاولى والثانية

اللتين بها الاسلام استولوا على المدينة المذكورة وستة عشر الف
منهم قد اخذوا اسارى والمدينة اضحت غريقة بالدما الجارية من
ابنايها خالية من السكان النصارى وموعبة من جثث المقتولين
وهذا حدث سنة ١١٤٥ فعلى هذه الصورة رجعت الى تملك
ايدى الاسلام امرية انرها الجميلة التى كان يودوين اسسها فى
اراضى الاسيا برجوليته وضرباته وبطشه وهو الخليفة بعد ذلك
لاخيه الدايم الذكر غودافروا فى سلطنة اورشليم فاخبار هذه الحوادث
قد احزنت قلوب جميع الصليبيين المتوطنين فى المشرق واقلقت
ارواحهم وازعجت افكارهم ومزقت احشاهم مرارةً وقد لاحظوا
تعاسة الامور العتيدة كانها غيوم حالكة موعبة امطار الشدايد القاسية
والاخطار المهيلة المزمعة ان تهبط فوق روسهم ومن ثم بادت
منهم شجاعتهم واعتراهم الخوف والرعدة لانه استبان لهم زوال
هذه الامرية الغنية من ايديهم ان السما قصدت لمحاربتهم وان
الصاعقة تهيات لان تنقضّ فوق جبل صهيون وعلى كنيسة
القيامة ثم لقد ظهر النجم ابو ذنب بصورة مخيفة امام اعينهم
وهذه العلامة حسب قول الصليبيين كانت عندهم دليل لحوادث
تعيسة ردية جداً عتيدة ان تلم بهم فاذاً لحاظهم قد انخفضت
نحو الارض بافيدة مملوة حزناً وغماً وقلوبهم خفقت بابادة
كل نوع من الشجاعة منها وكل صفة من الرجا فيها بكآبةٍ
مرة جداً ثم ان هذه الاخبار المكدرة فى الغاية قد بلغت الى
ممالك الاوروبا واوقعت التالم والحزن فى الباب الجميع وجعلتهم
فى حال الانذهال والبوس معاً وحركت غيرتهم واشفاقهم الى
ان يتناولوا الاسلحة بعدد وافر منهم ويسرعوا لاعانة اخوتهم
وانقاذهم من الخطر المبين ✿

* تم المجلد الاول *



المجلد الثـــانى

من تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب

المؤلف بموجب تاريخ الازمنة المعاصرة

مرتبًا من العلامة مكسيموس مونروند

المطبوع فرنساوياً سنة ١٨٤٠ فى مدينة باريس وليون

وقد استخرجه عن اصله الفرنساوي الى اللغة العربية

قدس السيد كيريو كيريو

مكسيموس مظلوم

البطريرك الانطاكى والاسكندري والاورشليمى

وساير المشرق الروم الملكى الكاثوليكى الكلى

الطوبى فى شهر ايارسنة ١٨٤١ حينما كان

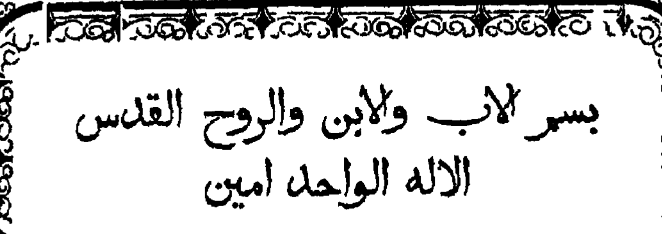
غبطته موجوداً فى مدينة باريس

طُبع  باورشليم

فى دير الرهبان الفرنسيسكانيين سنة ١٨٦٥

فهرس





نبتدى بعون الله تعالى وحسن توفيقه بكتابة المجلد الثانى من تاريخ
الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب المولف بموجب
تاريخ الازمنة المعاصرة مرتباً من العلامة مكسيموس مونت روند
ضمن مجلدين المطبوع اصله الفرنساوى سنة ١٨٤٠
فى مدينة باريس وليون محتوٍ هذا المجلد الثانى
على مقدمة وثلاثة عشر فصلاً وخاتمة

المقدمة

☆ فى شان مدينة اورشليم والحروب المقدسة من اجلها ☆

انه عند اواخر حدود اراضى سوريه فى اقليمٍ كان مملواً من الخصب واما الان فهو حضيض مقحل عديم اثمر توجد مدينة مشيدة فوق تلالٍ مختلفة فمجرد ذكر اسم هذه المدينة ينعش فى قلوب المسيحيين عواطف تقوية لانه منذ ثمانية عشر جيلاً الى الان عددٌ وافر من بلاد العالم جميعه يتقاطرون بصفة زوار الى هذه المدينة المقدسة بنوع انهم حالما يشاهدون عن بعدٍ اسوارها تنحدر دموع الخشوع من اعينهم بابتهاج قلوبهم وبهذا المنظر يتناسون اتعاب اسفارهم الشاقة واضطهاداتها فى المسافات

الشاسعة وعند دخولهم اياها يجدون ذاك الضريح المقدس الذي هو غاية زيارتهم ومقصد اسفارهم فيتقدمون لديه صلواتهم وتضرعاتهم فايزين بتعزيةٍ قلبية عديمة الوصف واذ يتمون على هذه الصورة زيارتهم المقدسة ياخذون بالرجوع الى اوطانهم ولكنهم لا ينسون اصلاً يوم زيارتهم هذا السعيد بل ان الابا يخبرون بهِ ابناءهم معتبرينه كانه سعادة ابدية في مدة حياتهم على الارض وتفكرهم اياه يفيض كانه في مجاري ايامهم الباقية من الحيوة نوعٌ من السلام الباطن العذب وتنبعث عنه رايحة طيب الرجا السماوي ❊

فهذه المدينة القديمة انما هى المقدسة في المدن سلطانة يهوذا الاصلية مسكن الانبيا الارض التى وطاها المسيح بقدميه اي مدينة اورشليم وفيها كاينٌ ذاك الضريح الخلاصي قبر ابن الله الاله المتجسد الذي بسفك دمه ضمن اسوار هذه المدينة قد افتدي الطبيعة البشرية ❊

فذكر اسم اورشليم وحده كم ينعش في قلوب سامعيه من الموضوعات لان الحوادث العامة التى جرت فيها تُستَحضر بازاء اعيننا وتارةً فتارةً تتجدد في مخيلتنا وافكارنا تلك البدايع التى صنعها الاله الازلى هناك بعدله واحكامه الرهيبة ثم نتصور ذواتنا كاننا حاضرون ومشاهدون الاعمال العجيبة التى اوضحها في تلك الجهات قدرة رب الجيوش وامجاده ومحبته للبشر الغير المتناهية العديمة الوصف واستقامة عدله ❊

ثم يحضر امام ذهننا تاريخ متسلسل ملجذب عن مدينة داود وسليمان هذه القديمة عما اراد الله حدوثه حيناً فحيناً نحو مدينةٍ قد تلالاء ذكر اسمها المتجيد بنوع لا شبيه له اصلاً في التواريخ الملاحظة العالم وشعوبه اجمعين ❊

فمدينة اورشليم قد تاسست سنة ٢٠٢٣ للخليقة من الكاهن العظيم ملشيصاداق وقد سماها هو مدينة ساليم اى سلام فبعد تشييدها بمدة نصف جيل قد امتلكها الجيبوسيانيين او اليابوسيين النازلون من جيبوس او يابوس بن كنعان وهولاء وسعوا اسوارها وعمروا فوق جبل صهيون قلعة ولقبوها بتسمية جيبوس او يابوس ابيهم وحينئذٍ المدينة دعيت اورشليم اي رويا السلام ✫

ثم ان يشوع بن نون احد قضاة اسرائيل اذ انتصر على السلطات دونيصاداق في يوم غاباون قد استولى على مدينة اورشليم الواطية غير ان اليابوسيين استمروا مستولين على مدينة اورشليم العالية ومتملكين قلعة يابوس ولم يطردهم عنها الا داود الملك بعد ان كانوا تملكوا المدينة والقلعة مدة ٨٢٤ سنة بالتسلسل عقب ملشيصاداق موسس اورشليم ✫

فالقديس النبي والملك داود قد اختار اورشليم تختاً لمملكة يهوذا وراساً لجميع مدن هذه السلطنة وقد ضاعف عمارات قلعة يابوس واعطاها اسمه نفسه ثم شيد قصراً ملوكياً ومظلةً فوق جبل صهيون لكي يضع هناك تابوت العهد ✫ .

ثم ان سليمان بن داود قد وسّع عمارات اورشليم المدينة المقدسة وزينها مصيراً اياها الاجمل والابهى من ساير مدن المشرق واقام فيها ذاك الهيكل العظيم المعبد الذي الكتاب المقدس ويوسيفوس المورخ يفحصان عن عماراته العجيبة ✫

الا انه سنة ٣٠٣٣ للخليقة سقطت اورشليم تحت ولاية سيساك سلطان مصر في زمان الملك روباعام خليفة سليمان ولكن سلطان مصر الذي ملكها منتصراً قد صودف حليماً قنوعاً لانه اكتفى باخذ الخزاين التي كانت في بيت الملك وانثنى راجعاً غير انهُ بعد مدة ماية وخمسين سنة في عهد اماسيا قد استولى على

هذه المدينة يواس ملك اسراييل ونهبها مطلقاً ✫

كما ان هذه المدينة اُخذت بالغلبة من الاسيريين فى عهد ملكها منسى الذي أُفيد اسيراً الى بابل وقد تعمرت فيها بعد اسوارها في ازمنة ملوكها يواكيم ويوخانيا وصادوقيا ثلث مرات بعد ان كان بُختنَصَّر هدمها ثلث مرات قبلاً ولكن هذا الامير المنافق قد كان فى المرة الثالثة الاخيرة هدم المدينة المقدسة ونقضها حتى اساساتها وحرق هيكل سليمان وضرب سكانها بحد السيف والذين منهم بقيوا احيا قد استاقهم الى بابل ليتكبدوا مراير ذاك السبى الشهير ✫

الا ان هذا الشعب الاسرائيلي بعد احتماله الاسر مدة سبعين سنة قد رجعوا الى اورشليم بانعام الملك قورش وهكذا المدينة والهيكل المذكوران قد تشيدا جديداً سنة ٣٤٦٨ للخليقة ولكن اورشليم بعد ذلك بسنين ليست كثيرة قد سقطت تحت ولاية الملك انتيوخوس سلطان سورية المدعو ابيفانيوس ايضاً الذي بانتصاره عليها قد اباد بسيوف عساكره من سكانها ثمانين الف شخصاً واقاد الباقيين فى الحيرة اساري ثم وضع هذا السلطان المنافق فى هيكل اورشليم صنم جوبيتار او ليهبيات ✫

غير ان المكابيين الشجعان قد انقذوا بلادهم من السبى وحرروها من الاسر بمعركات الحروب الشديدة التى مارسوها ضد سلاطين الاسيا ✫

ولكن الانقسام والمغايرة التى حدثت فيها بين الاخوين هيركان وارسطوبول قد جذبت اخيراً العساكر الرومانيين الى تحت اسوار اورشليم لان بومبيو الكبير بعد ان انتصر على ميتريادة قد جاد بعساكره ضد المدينة المقدسة وحاصرها شديداً وامتلك هيكلها كما ان كراسوس قايداً اخر رومانياً بعد ذلك لم يتاخر

عن ان ياخذ من اورشليم الاشيا المقدسة المعتبرة الذى كان بومبيّو اعفى ذاته عن نهبها ✿

ثم ان هيركان تحت حماية الملك الرومانى قيصر قد فاز بالولاية على اورشليم تحت شرط اهمال صفة تسمية سلطاناً بل والياً فقط. حافظاً لقباً وهى المضحّى الاعظم الا ان انتيغونا ابن المتوفى ارسطوبول قد استدعى الى معونته البارتيين واشهر الحرب ضد عمه هيركان ومن ثم جاء البارتيون الى اليهودية وحاصروا اورشليم وامتلكوها وقيدوا هيركان بالسلاسل واخذوه اسيراً ✿

ولكن هيرودس الكبير الذي فى ايامه ولد مخلص العالم فى بيت لحم قد حصل مستوليا على اليهودية باستناده على الرومانيين ونواله منهم المعونة والحماية الزمنية ✿

فهيرودس حاصر اورشليم وسكانها بعد ان حاموا عنها بجلادة قوية مدة خمسة اشهر قد سقطوا اخيراً تحت سيفه وانتقامه منهم بنفاق مهيل وقساوة بربرية مارسها ضمن المدينة بانتصاره هذا ✿

وعلى هذه الصورة المدينة قاتلة الانبيا وراجمة المرسلين اليها ابتدات ان تختبر فى ذاتها امتداد يد الاله الازلى عليها بالانتقام لاظهار عدله بقصاصات ظاهرة ليرد بها شعبه الى طريق الخلاص بواسطة التوبة لنوال النعمة ولكن الشعب اليهودي القاسى القلب لم يستفد من عناية الله ومن وسايط الخلاص لانهم كما لم يقبلوا المرسلين المتقدمين امام وجه المسيح ليسهلوا طريق الرب كذلك لم يقبلوا المسيح نفسه لا بل انهم اضافوا الى ماآثمهم السابقة اثماً اعظم منها بما لا يحد وهو قتلهم المسيح عينه الاله المتانس ✿

على ان ابن الله اذ قد ولد بالجسد بعد خلقته العالم باربعة الاف سنة موعداً بمجيه مخلصاً فى بيت لحم المدينة الصغيرة

في يهوذا التي تشرفت بهذا الولد العظيم • فمدينة اورشليم قد افتخرت بعد ذلك بابلغ نوع بحضوره الالهي فيها مرات عديدة متخطراً ضمن اسوارها معلماً داخل هيكلها منذراً في باطن جدرانها نظير باقي الامكنة التي فيها اشهر شريعة النعمة للخلاص ثم ان هذا الفادي كان يحب اورشليم وكان يرغب ان يتوفر عنها القصاص المعد لها ولذلك كان ينبهها هاتفاً : يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبيا وراجمة المرسلين اليها كم من مرة اردت ان اجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة افراخها تحت جناحيها فلم تريدي : ومرةً اخري اذ رمق تعالى هذه المدينة بعواطف رأفة قد بكى عليها بتنبيه عن خرابها صارخاً : آواه لو انك تعلمين قلما يكون في هذا اليوم ما لك فيه من السلام ولكن هذا جميعه قد خفي عن عينيك لانه سياتي عليك ذاك اليوم التعيس الذي فيه تستدير اعداوك حولك ويضيقون عليك من كل ناحية ويهدمونك تماماً انت وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر لانك لم تعرفي مراعيةً زمن افتقادك هذا الذي انا فيه زرتك ❊

فهذه النبوات الالهية قد كملت لان اورشليم الاثيمة بقتل الاله المتأنس قد اضحت فيما بعد المشهد الاعظم شهرةً لانتقام يد الله الضابطة الكل وهوذا النوع الذي به وضع بالعمل تهديد انه اسرائيل المتقدم الايعاذ به ضد هذه المدينة ❊

على ان بلاد اليهودية قد صارت كانها مقاطعة من مملكة الرومانيين فاليهود اذ شعروا بثقل ولاية الحكام الذين كانوا يرسلون اليهم من رومية وبمفاعيل تصرفاتهم البربرية قد ارادوا ان يطرحوا من اعناقهم نير السلطة الرومانية فتناولوا الاسلحة ونشروا بيرق العصاوة وهكذا خرابهم قد دنى لان فسباسيانوس قيصر وابنه تيطس

قد تقدما الى الانتقام من العداوة واذ حاصر تيطس اورشليم قد امتلئها غير ان التواريخ بايرادها اخبار محاصرات عديدة عن مدن كثيرات جداً وعن دثار شعوبها بشدايد واضامات مختلفة الانواع قط لم تكن محتوية على اخبار تشابه ما اورده يوسيفوس اليهودى المورخ عن حصار اورشليم هذا المخيف وعن توابعه المهيلة وعن ظروفه المرجفة المفاصل لان مايتي الف يهودي ماتوا ضمن اورشليم فى مسافة مدة هذا الحصار من شدة الجوع اي انه منذ ١٤ نيسان الى اول تموز سنة ٧١ للمسيح قد أخرج من باب واحد من ابواب مدينة اورشليم ماية وخمسة عشر الفاً وثمانماية وثمانون جثةً من جثث هولاء الموتى ثم ان كل ما يمكن للتصور البشرى ان يتامله من الامور المحزنة وكل ما يستطيع يتخيله العقل من الحوادث المهيلة قد صودف فى هذا الحصار بانواع اشد رهبةً وكرهاً لان الجوع فيه قد اوصل السكان الى الخروج عن حدود الطبيعة حتى ان احدى النساء هناك ذبحت ابنها واكلت لحمانه والباقون فى الحيوة اذ ارادوا ان ينفدوا من المدينة بوعدهم للعساكر الرومانية باعطا كميات من الذهب فهولاء العساكر اخذوها منهم كمواعيد اضطرابية وذبحوهم وشققوا احشاهم لعلهم يجدون كميات اخر مبتلعة من هذا المعدن المحبوب منهم وهكذا احد عشر ماية الف من اليهود بادوا داخل اورشليم بالسيف والرديم وتسعة وتسعون الفاً اقيدوا احيا اسارى ماخوذين بالسلاسل الى مدينة رومية علامة لانتصار تيطس قيصر وصاروا مشهداً فى مكان المتفرجات لتنزه الشعب الرومانى واما نساء هولاء اليهود واولادهم فقد أبيعوا فى الاسواق بالمزاد باثمانٍ دنية جداً (لعدم وجود من يشتري) حتى انه أبيع منهم كل ثلاثين شخصاً بدينار واحد من الفضة فى هذه المدينة

التى فيها قبل ذلك بمدة ثمانى وثلاثين سنة ً قد ابيع ثمن دم المثمن الزكى بثلاثين من الفضة والشعب اليهودي فى ذالك الوقت بروح البغضة والحسد صرخ امام بيلاطس ضد المسيح قايلين دمه علينا وعلى اولادنا فالاله الازلى على هذه الصورة اقتبل النذر المذكور من ذاك الشعب الذي خرج عن الحدود الانسانية عينها ولكن نذرهم هذا ان وضع بالعمل فنواظر الاحيا منهم رمقت وطنهم فاذا به مدكوكاً مهدوماً خالياً منهم وقد اختار الله له شعباً جديداً ليسكن فيه ويسجد لعزته الالهية عوضاً عنهم ☼

فبواقى طايفة اليهود فى بلاد فلسطين استمروا دايماً فى عبودية الرومانيين غير ان عداوة جديدة ظهرت منهم فيها بعد فاجتذبت ضدهم الجيوش الرومانية تحت ولاية ادريانوس قيصر الذي وقتيذٍ اعتمد ان يبيد من الوجود اوليك اليهود الذين كان تيطس تركهم فى بلدان اليهودية على ان هولاء الجيوش الرومانية انتصروا على اليهود واضرموا النيران فى بلادهم بنوع هكذا مهيل وشديد حتى ان تسعماية وخمسة وثمانين كفراً وضيعةً ومزرعةً مع خمسين حصناً وقلعةً قد احالتها لهايب النيران الى رماد وتلول تراب ورديم ونحو ستماية الف من اليهود قد محتهم من الحيوة سيوف هولاء العساكر المنتصرة عليهم وعدد وافر من الباقيين منهم قد استيقوا اسارى ومدينة اورشليم التى قد كانت بعد حصارها من تيطس ابتدات قليلاً ان تقوم من دثارها قد خسرت فى هذه الحرب الثانية اسمها القديم ولُقبت باسم الامير ايليا كابوطولينا وادريانوس قيصر نصب فوق جبل الجلجلة صنم الظهرة وفوق جبل الزيتون مكان صعود المسيح من القبر صنم المشتري ووضع فوق باب المدينة المودي الى بيت لحم حجراً

من الرخام منقوشة فيه اوامره ثم حرم على اليهود الدخول الى المدينة المقدسة تحت قصاص الموت لا بل تحرم عليهم ان ينظروا اليها ولو عن بعدٍ واذا كان غب ذلك سمح لهم بالتبعيض الدخول اليها مرةً واحدة فقط فى السنة بقوة المال والذهب المدفوع منهم على تلك المرة فكانوا يغرقون الارض ضمن اسوارها بالدموع المنسكبة من عيونهم على فقدانهم اياها فمدينة ايليا هذه قد اضحت مسكن عباد الاصنام واستمرت هكذا الى جيل الكنيسة الرابع الذى فيه ظهرت هى وطناً لعباد الاله الحقيقى وذلك تحت ولاية الملك قسطنطين الكبير الحسن الديانة واهتمام والدته القديسة هيلانه لانه بايدي المسيحيين قد انسحقت الاصنام من الاماكنة المقدسة وتشيد عوضها عند قبر المسيح كنيسة القيامة الشهيرة بغناء ملوكى كما تشاهدها الزوار لحد الان باعين تقوية وحينيذٍ هذه المدينة المقدسة اخذت من جديد تسميتها القديمة اورشليم ومن جميع اقاصى الارض. شرعت تتوارد اليها ابناء الايمان المسيحى يمرغون جباههم بالدموع من الفرح عند قبر مخلص العالم بتحسن عبادتهم ٭

فاي نعم ان الملك يوليانوس العاصى بعزمه المنافق اجتهد فى ان يكذب النبوة الالهية القايلة عن هيكل سليمان انه يهدم ولا يعمر ابداً ومن ثم هذا الجاحد ابذل كل اقتداره فى تشييد الهيكل المذكور من جديد ولكن معلومٌ هو فى التواريخ الصادقة كم من العجايب الالهية صنعها الله لملاشاة قوة هذا العمل الاثيم وكيف ان كرات نارية خرجت من اساسات هيكل سليمان بعد نقضها وحرقت مواد البناء وبددت الفعلة والمتاعين على العمار بخزى عظيم لهم وهكذا قد بطل ما شرعوا به وبقى الهيكل منقوضاً حتى اساساته ٭

فمنذ ذات الحين الى عهد الملك هرقل مدينة اورشليم اعتزت بالاكثر في اعين المسيحيين وقد تمتعت بسلام سعيد وبحرية كاملة والمومنون في تلك المدة لم يفتروا عن التقاطر من كل جهة الى بلاد فلسطين لزيارة قبر المسيح بعدد متوافر جداً عن ذي قبل حتى ان البعض من علما الكنيسة وابايها قد اعلنوا تشكيهم من هذه الزيارة الخارجة عن الصواب التي اتصلت الى الاضرار ولكن من دون فايدة لانه لم يكن شي من الاشيا قادراً ان يحد حرارة المسيحيين وغيرتهم في هذا الشان اذ انهم كانوا يظنون نوعاً من قلة الايمان وفتور المحبة نحو الله التاخير عن زيارة الاماكن المقدسة فالقديس ايرونيموس الذي كان منفرداً بالنسك في مغارة بيت لحم وكان يشاهد مارّين من امامه اجواق الزوار قد ترك لنا في احدي رسايله كيف ان حول القبر الخلاصي كان يسمع من افواه الجموع الغفيرة تراتيل التسابيح الالهية بلغات مختلفة ككثرة اختلاف اشخاص الطوايف المتنوعين هناك ثم ان توارد الزوار الى اورشليم لم يتناقص حينما بعد ذلك احاق البلاء بالمملكة الرومانية التي ادثرتها الشعوب البربر الستونيون والاونيون والفنداليون لا بل انه عندما مدينة رومية سيدة العالم سقطت مضنوكةً الى التلف بايدي هولاء الشعوب البرابرة فعيّنت سامية بالشرف حين هربهم من وطنهم الروماني الداثر قد جاءوا معتمدين لذواتهم على مقر امين حول قبر المسيح وقد كان وقتيذٍ منظراً جميلاً مشاهدة تلاميذ الرب المطرودين بسبب زوبعة الشدايد والحروب متبادرين الى اورشليم لكي يتضمنوا داخل اسوارها كانهم تحت سنجق مقدس ساكنين بهدوٍ تام فيها بين ضغطات العالم لانهم كانوا فيها فقط يجدون نوعاً من ذات السلام الذي ابن الله مات بالجسد في هذه

المدينة ليهبه للعالم اذ هو اله السلام ✿

غير انه نحو سنة ٦١٣ فى زمان ولاية الملك هرقل قد قلق سلام اورشليم التى حاربها وملكها جوزروا سلطان العجم الذي نقل الى بلاد فارس ثروة المسيحيين وخزاين اورشليم واوانيها المقدسة خاصةً صليب المسيح الحقيقى المقدس الذي كان محفوظاً فى كنيسة القيامة ✿

ولكن حينما الملك هرقل فاز بالانتصار العجيب على سلطان العجم المذكور سنة ٦٢٧ قد استرجع عود الصليب الكريم واتي به الى اورشليم ونصبه حيثما كان قبلاً بتوفير يليق بهذه الخشبة المقدسة التى عليها مخلص العالم مات متكبداً الالام الاخيرة ✿

الا انه بعد ذلك بمدة تسعة سنوات فقط جاء ضد اورشليم الامام عُمر احد خلفاء محمد بن عبد الله وحاصرها مدة اربعة اشهر وامتلكها ونظير هذه المدينة المقدسة بلاد فلسطين واقاليم سوريه والبر المصرى قد سقطت تحت ولاية الاسلام ✿

ومنذ تلك الاوقات الى حد نهاية جيل الكنيسة الحادي عشر مدينة اورشليم وابناء الايمان بالمسيح بوجوه متجهة نحو الارض بذلٍ واهانةٍ كانوا يانوا تحت نير العبودية الاشد قساوةً متكبدين الشقا والضر والفقر والعذابات والاتعاب خاصةً بسبب الانقسامات والاحزاب الاسلامية والحروب فيما بينهم من قبيل كثرة المدعّيين بالخلافة المحمدية الذين كان احدهم يحارب الاخر وتنتقل الولاية من منتصرٍ الى منتصر عليه وهكذا مدينة اورشليم وجدت مرات كثيرة محاصرة ومأخوذة ومنهوبة ومسترجعة باختلاف الولاة عليها من دون اختلاف دوامها تحت رق العبودية والنير الاسلامي الحديدي الذي لم يزل مطوقاً عنقها والمسيحيون قاطنوها كانوا فى احوال يرثى لها من الظلم والتعدي والافترا والاهانة والذل

العديمة ان توصف وكانوا يمزجون دموعهم مع دموع الزوار الاتين الى اورشليم بحجارة كلية حسب تقليداتهم القديمة وهذه البلايا استدامت تحت ولاية الخلفا الفاطميين ايضاً وهكذا المومنون فى اقاليم سوريه استمروا يختبرون فى ذواتهم اثمار هذه الاضطهادات والامور الردية والعبودية المرة ازمنةً مستطيلة الى قرب نهاية الجيل الحادى عشر الذي فيه الباري تعالى انعطف بالرحمة نحو قبول تضرعاتهم وارسل اليهم العساكر الصليبية لاسعافهم وانقاذهم وتخليص الاراضي المقدسة من نفاقات الامم الغريبة ☆

فنحن عند ملاحظتنا الانتقام والقصاصات الملمة بمدينة اورشليم بالانواع المشار اليها اجيالاً عديدة باتصالٍ يلزمنا ان نسجد لاحكام الله العادلة بصمتٍ وخضوع متاملين فى ان ذنب سكان هذه المدينة الاسرائيليين العديمى الشبه بقتلهم الاله المتانس لم يكن الانتقام المذكور كافياً لاستيفا العدل الالهى ☆

فاى نعم ان الامر الذي اتخذ الصليبيون معاطاته فى انقاذ هذه المدينة من العبودية قد كان غريباً بالشجاعة شديداً بالحب شهماً بالمروّة قوياً بالوسايط ولكن الروح تحزن والقلب يكتيب عند التفكر بان هذا الانقاذ الذى تكلف من اجله الصليبيون الى سفك دماء هكذا وافرة والى ضحية اموالٍ غزيرة فايقة الاحصاء والى تكبد مشقاتٍ كلية عظيمة (كما قد شاهدنا في المجلد السابق من هذا التاريخ) لم يكن مستمراً ازمنة اطول من مدة جهاداتهم وتجديد عساكرهم وبالتالى لم تكن ثمرته سواء اذاعة مجد رجوليتهم وفخر انتصاراتهم الوقتية فقد كانت ايام توليهم فى بلاد فلسطين الممزوجة بافراح واحزانٍ ومسراتٍ وشدايد كانها كوكب سحري منذر بمجي شمس النهار الدايم بالراحة والحرية من العبودية ولكن قد غشّي على هذا الكوكب

سريعاً ضباب مظلم مشير الى غيوم حالكة تعقبها عواصف غرق شديد اذ انه بالكاد قد مرّت على ابناء الايمان عدة من السنين بها شاهدوا ارض المقدس حرةً من الاسر والعبادة للمسيح معتوقة من الاضطهاد والظلم والانام الاتقيا متقاطرين من قواصي الارض بامان وحرية لزيارة الامكنة المقدسة لان مدة جيلين فقط مرت من ذاك اليوم الذى فيه ابناء يافث قد جلسوا فوق حظ سيم منتصرين ضاربين فيه خيامهم واذا بهم فى حال يرثى لها التزموا بقلع مضاربهم وطويها وبالابتعاد عن اسوار اورشليم وهكذا رذالة الخراب قد رجعت داخلةً في المكان المقدس وكفت تراتيل البهجة والانتقام الالهى اخذ مجراه جديداً كما كان قبلاً *

وهذا الانتقام استدام الى يومنا هذا بنوع فايق على طور الطبيعة والبكاء المر الناتج من التقوى مع دموع الخشوع دايماً تغرق حجر قبر المسيح ومدينة اورشليم التى اخذت مراتٍ واسترجعت دفعاتٍ وانتهبت سبعة عشر نهبةً ما عادت تقدم لمنظر الغربا عوضاً عن خصبها القديم الا حقولاً مهملةً وارضاً يابسة مقحلة ومن ثم ارميا اخر يمكنه ان يجلس فوق رديم عماراتها الشاهقة بحزنٍ قلبى وكما صنع ارميا الاول يندبها بمراثى جديدة *

غير ان مجد عساكرنا الصليبية الشجعان لا يمكن ان ينقص عن ان يكون عظيماً دايماً وافعالهم سامية سرمداً وذكرهم عدم الموت فى الاحقاب اي نعم ان تذكارهم يستحق ان يحيي الى الابد فى حروبهم المقدسة التى مارسوها بقوةٍ طبيعية وروحية امكنها ان تعطف البارى عزّ وجلّ الى ان يردّ قوة سهام غضبه عن تلك المدينة الاثيمة ويمسك اجراء حكومته الرهيبة فلما

يكون مدة بعض اجيال عن الانتقام من ذنب مستحق الرذل الدايم بالقصاعات المتصلة فمن يعلم ان كانت هذه الحكومة الصارمة تترك من المراحم الالهية تركاً دايماً بصفحٍ تام بقوة اعمال العبادة والمحرقات وهكذا السنين التى فيها منح الله الراحة وحرية الديانة لابناء بيعته تحت ولاية الاشراف الصليبيين الفرنساويين تمتد من جديد وتثبت لو انهم كانوا يحافظون الامانة بالمواظبة على حفظ الوصايا الالهية وواجبات دعوتهم وكانوا بقيوا الى الان تحت سلطانهم المنتصب فوق اسوار اورشليم بقوة ذات القادر على كل شي الذى كان يلهمهم الى ذلك ويساعدهم على اتمامه ثم من يعلم ان كانت اورشليم فى هذه الازمنة ايضاً تفوز بالحرية وترفع راسها المنحنى مدة اجيالٍ والمسيحيون يستطيعون بامنيةٍ وحرية ان يجتازوا البحور لكى يذهبوا يسجدوا مع اخواتهم لقبر السيد اواه انه وقتيذٍ خلواً من ريبٍ ذكرٌ اخر ذو تعزيةٍ اعظم يندرج فى تواريخ الحرب المقدسة ويجعل اوفر مجداً واشد فخرةً راية الغلبة التى اكتسبتها لذواتهم في اراضى سورية انسباونا الاشراف الفرنساويون القدما فى حروبهم السابقة ❊

فعلى هذا النوع الاجيال المتاخرة عنا تتامل ابناوها باندهال شهامة الروح واعمال الرجولية وعبادة القلب التى حركت سكان بلادنا الى وضع عزايمهم الصالحة بالعمل وصيروا المنونية لهم وطيدة عند اهالى الاحقاب المقبلة على ان التاريخ قد حوا ضمنه بكل تكريم ذكر الاعمال الجيدة التى مارستها جنود المسيح فى الحروب الصليبية السابقة لان تلاوة اخبار معركاتهم واجتهادهم وسهرهم وعنايتهم وامتلاكهم البلاد تبهج السماع جيلاً بعد جيلٍ وفى ايامنا هذه نفسها يجب ان تكرر قراءة اعمالهم هذه الدايمة

الذكر فى تواريخنا القديمة التى نحن نسر بتلاوتها فى اصلها البسيطة المعانى الغير رفيع المبانى بل بسداجة النص نجد حقيقة الفتحوة ☆

فقديمة الاخبار الوثنية تظهر لنا الانواع التى كانت الشعرا اليونانيون يتفاخرون بقصايدهم التى كانت ترتل من مدينة الى مدينة بعد امتلاك البلاد اليونانية بالغلبة ودثار المملكة البرياميّة فهكذا بعد اكتساب مدينة اورشليم بالانتصار فى ازمنة الاجيال المتوسطة قد حرر تاريخ امتلاكها بالحرب الصليبية كثيرون الذين كانوا شهوداً عيانيين وشركا المعركة الذين عند عودتهم الى اوطانهم قد ارادوا ان يدونوا بالخط لاهالى بلادهم اخبار اعمال اشرافنا الصليبيين وانتصاراتهم فمن هولاء المورخين هم روبارتوس الراهب وريموند ده اجيلاس وفوشير ده شارتراس والبارتوس الذي من اكسى وغويليوم الصوري وغويبارتوس وراول ده كاآن وبرنردوس الخازن وغيرهم كثيرون جداً وكلٌ منهم بحسب لهجته قد كتب حوادث اجدادنا كما ان اناساً كثيرين من الشعرا انشوا فى امجاد هولاء الاشراف قصايد المديح والتفخيم ونشايد النعوت الفاضلة مما اخذوا عن المورخين المومى اليهم وترنمت من هذه القصايد عدة مختلفة فى مديح استخلاص قبر المسيح اي ان حذاقة خطبا الطاسيين قد نشدت امجاد الصليبيين بمدايح دايمة الذي كما ان حزاقة خطبا الهوميريين توجت بانتقريضات المنتصرين على هاكطور المتلكين مدينة طرويا ☆

فحينما هولاء المورخون والشعرا الذين من اهالى الاجيال المتوسطة قد اوعبوا تاليفاتهم بحسب تصوراتهم عن اعمال الصليبيين السعيدة لاجل ارشاد اهالى الاجيال المستقبلة ذكراً دايماً لهم قد فكروا فى ان يبرروا لدى اعين الاحقاب العتيدة انواع

الغايات بسفرهم من بلادهم الى المشرق التى ظهرت لروح بساطتهم المسيحية انها اعمال تستحق ان تكون مشهداً دايم الذكر امام اهالي الأرض والسماء وهذا قد حفظ طول الازمنة السابقة الى يومنا هذا وكل من الناس فى جيله كان يقراء بروح التقوي هذه الاخبار عما صنعه اباونا وبالتقليد ارباب العيلات كانوا يشرحون لابنايهم حوادث تلك الحروب كانها فخرة ومجد مُخلف لهم عن اجدادهم الشرفا ويتذكرون بسمات التعزية اسما اوليك الذين من اجل المسيح سفكوا دماهم او ماتوا بحادث اخر تحت بيارق الصايب فى تلك الحروب المقدسة ✿

غير انه لما ظهر الجيل الثامن عشر وفيه ظهرت الكتبة الفلاسفة المحدثون الذين استكنفوا من ان تكون اراءهم مشابهة لاراء عموم الناس فهولاء وجدوا الاولين فى ان يصوروا امام الاعين الحروب الصليبية بصورة مبغوضة على ان شمس الايمان التى كانت تنير هذه الحرب المقدسة قد اتعبت بصايرهم الضعيفة وجعلتهم ممنوعين عن ان يشاهدوا بضياها الحى ماذا كانت المبادى وما هى الاثمار التى نتجت عنها فمعلوم هو ما هى الاحكام الضالة والخسيفة المبانى الذي كثرة من اشخاص الجيل الماضى المومنين اليابسى الحذقة والقليلى الفطنة الذين كتب احدهم عن الاخر ضد الصليبيين كما انه معلوم ايضاً ما هى الاحكام التى اعطاها منذ سنين قلايل فى جيلنا الحاضر الانام العلما عن هذه الحروب الصليبية التقوية ومن ثم باطلاً اضحت بالكلية البراهين التى بعض من الارواح السامية فى المعرفة التى هم يدعون بها قد اوردوها فى تبرير المنتقدين بروح الصلف اذ ان هذه البراهين ظهرت عديمة الثمر على ان سمات المجد التى التحفت بها هذه الحرب المقدسة من كل ناحية قد امكنها ان تمحو الشايبة

التى لطخها بها الفلاسفة المحدثون لان نابوليون بونابارته نفسه كان يحارب فى مصر وفى سوريه بمديح مملكة فرانسا بكلها التى حتى الان تعظم اسم غودافروا ده بولبون ورايموند ده طولوزه وتانكريده ولويس الشاب وقديسنا العظيم السلطان لويس وهم فى قبورهم ✿

فالسيد ده بونالد كان يقول وقتيذٍ هكذا ان الاعين المسقومة بداء البغضة لا يمكنها ان تمتد بالنظر الى اتساع صورة تلك الحروب ورسومها بل انما حدقت الملاحظة فى بعض حوادث خصوصية فقط واقفةً عندها لان الروح الصغيرة اعنى روح الامور الجزئية انما هى صفات الفلاسفة الجدد فالويل للزمن وللشعوب الذين فيما بينهم تتحارب بالمناقضة تلك الاسباب التى تحرك المومنين الى اعتناق الحرب الصليبية او تشوه صورتها الجميلة بالضد بواسطة اقيسة سفسطية ✿

غير اننا نشكر الله على ان زمان هولاء المناقضين عبر وجيلنا الحاضر فى هذه القضية وفى غيرها مما لا يحصى عدداً قد فاز بالانام الذين عرفوا فى ان ينفضوا فى هواء تعاليمهم الصحيحة غبار التحفظات الباطلة التى تمسك بها سلفاوهم ولذلك الان فى مملكة فرانسا تذكارات الصليبيين انما هى سمات الشرف لها الاشد جمالاً لدي سكانها وازمنة تلك الحروب المقدسة السامية فى الكرامة هى التى الفرنساويون اضحوا بها شرسين بعدلٍ وحقٍ فمملكة فرانسا التى منذ سنين قليلة قد حيّت بالسلام خلاص بلاد الروم من نير العبودية وقرظته باصوات البهجة وبقلوبٍ سخية قد اجتهدت فى امر راحة سكان بلاد الله المساكين فهى الان تلاحظ عن بعدٍ بتاملات عطوفة ذات حبٍ ومديح بل ذات معرفة الجميل اعمال الصليبيين القدما الجيدة المصنوعة من ابائنا لانها قد عرفت اخيراً ان تكشف بالروح ماذا كان حرك

رجال ذلك الدهر الى تناول الاسلحة والسفر بها من المغرب الى المشرق وفهمت نيتهم الشهمة فى خير الانسانية وصالح اخوتهم وزكنت ظهورات الادلة الاحتفالية تحت صورة الاعمال كما انه قد عرفت جيدا تحت رسوم الجمعيات الرهبانية الحربية صورة اخري تقوية لاسعاف الغربا والاعتنا بالارامل والايتام وانقاذ كل من هو بهذه الحيوة ضمن تلك الاقاليم حاصل على اضامة او ضر او ظلم ❊

فاذ انا لا ادخل فى دوري بالمحامات عن الصليبيين وتبريرهم مما قد لطخهم به السفسطيين بعد ان فصاحة شاطوبريان ده بونالد قد تلالات فيها كتبه محاميا عنهم ومثله كتبة اخرون اجلة قد اظهروا فى تاليفاتهم هذا التبرير العادل ولكننا نروم ان نوضح بتامل وجيز لاوليك الذين لحد الان يرتابون بحقايق الفوايد العظيمة التى فاز بها الصليبيون وبعد الة المبادى التى من اجلها هم باستقامة وحق مارسوا تلك الحروب المقدسة ان ريبهم هو باطل ❊

فسكان بلاد فلسطين واسيا الصغري وسوريه ومصر قد كانوا بوجه العموم مسيحيين وشرايع الانجيل المقدس هى كانت شرايع تلك الاقاليم في الوقت الذي فيه العرب بتغلباتهم الضلمة اتوا الى هذه البلاد الجليلة المخصبة واختطفوها ونصبوا فيها بيارق المدعي منهم نبيهم فوق هياكل عباد الاله الحقيقى المكرسة باسمه وحينيذ دماء المومنين كانت تجرى كسواقى بسيوف هولاء الشعوب ❊

فان كان فى مدة اربعة اجيال منذ حدوث هذا الظلم الى حين بلوغ الصليبيين الاولين بلاد المشرق قد فاز المسيحيون فى تلك الاقاليم ببعض انواع من الراحة الوقتية فنير العبودية القاسى المملو مرارة لم يكن خف عن ان يطوق اعناقهم بثقل

غير محتمل ثم ان الزوار الذين كانوا من امكنة شاسعة ياتون ليسجدوا لقبر المسيح قد كانوا خاضعين الى الوف انواع من المخاطر والتعدى والظلم والاهانة والازدرا والاضرار والذين منهم كانوا يحتملون ذلك جميعه فى اسفارهم ويبلغون اخيرًا الى الاراضى المقدسة كانوا يجدون ذواتهم مثقلين بشرور جديدة من قبل اليهود العتاة البرابرة وكانوا يغسلون بدموعهم حجر قبر المسيح المهان بفناقات شنيعة ويمزجونها مع دموع المسيحيين المهملين بشراسة اوليائهم الظلمة خلوًا من محامٍ عنهم والموضوعين لمفاعيل قساوة اعدايهم هولاء الشقاوة فاذًا عند رجوع اوليك الزوار اللاتينيين الى بلاد المغرب من اسفارهم هذه وتخبيرهم اهالى اوطانهم بتلك الاحوال قد كان السامعون يلتهبون بحرارة الغيرة وبهذه الصورة وامثالها تجهزت الاستعدادات الى الحرب الصليبية ✿

ثم ان هذه الحالة المحزنة لم تكن وقتيذٍ شاملةً شعوب المشرق البعيدين وحدهم بل ان شعوب بلاد اوروبا ايضاً كانوا تحت خطر مبين من ان يصيروا مثلهم حينما الصليبيون حملوا الاسلحة وتوجهوا بها نحو الاسيا على ان الاسلام بعد ان كانوا اختطفوا جانبًا واسعًا من اقاليم الاسيا واستعبدوا سكانها المسيحيين قد كانوا امتدوا الى بلاد اصبانيا ايضًا ومن جهةٍ اخري صاروا قريبين الى ابواب القسطنطينية ومدوا نظرهم الى حدود البلاد اليونانية والايطاليانية ايضًا الجميلة باعين غدارة غير قابلة الشبع من النهب والسبى قاصدين اتساع ولايتهم الى ممالك اوروبا الاخر افهل اذاً كان لازماً ان يتركوا على تلك الحال من سرعة الامتداد ولا يصير الاهتمام في وضع حدٍ منيع لمصادمة عزايمهم وغزواتهم ولمنع اضرارهم ولحفظ الاوروبا من خطر دثار هكذا عظيم او ليس بالاحري كان ضروريًا اتخاذ جماهير من كل طوايف

للغرب تحت سنجق الصليب لصادمة هولاء البربر اذا لم تكن حينيئذٍ طايفة واحدة بمفردها من طوايف الاوروبا قادرة على صد جري سيوفهم : فيقول السيد شاطوبريان : ان كان رعايا الامام عمر وتابعوه بعد اخذهم اورشليم قد استولوا على بلاد افريقيه ثم انحدفوا بقوتهم على سيشيليا وعلى اسبانيا لا بل على فرانسا نفسها فى عهد سلطانها كارلوس مارتال الذي افناهم من حدودها فلماذا رعايا فيلبس الاول بخروجهم من فرانسا لا ينحدفون بقوتهم الى الاسيا لكى ينتصروا على خلفا الامام عمر الى حد مدينة اورشليم فمشهدٌ عظيمٌ بلا ريب ان هذين العسكرين اللذين من اوروبا ومن اسيا يسيران براي مضاد حول بحر نصف الدنيا وكلٌ منهما تحت سنجق ديانته يحارب محمد والمسيح فيما بين عبادها فلا يوجد عند الصليبيين شي اخر سوي زوار متسلحين الذين يتجرون لكى يستخلصوا فى بلاد فلسطين قبر المسيح الامر المشروح فى تاريخ الحرب المقدسة والحال ان ذكر هذه القضية وحدها يبان انه امر جزئي ولكن الحقيقة على انهم لم يكونوا يهتموا فى استخلاص القبر المقدس وحده بل ان الشي العظيم لكى يعرف هل انه يلزم ان تستولى على بلاد اوروبا المسيحية وعلى باقى البلاد المتمدنة وتملك على الارض تلك الملة الاعجمية مع ديانتها المستجدة التى لم تكن متصفة بخواصل اخر الا بالقوة الاغتصابية فهذا الاغتصاب قد صير مسيحيى المغرب ان ينتبهوا من غفلتهم ويسرعوا باسلحتهم للمحاماة عن ذواتهم ضد هذا الامتداد الغريب فمن تراه يتجراء بعد ذلك على ان يقول ان الحرب الصليبية المقدسة لم تكن حاصلة على اسباب عادلة مستقيمة واجبة او انها حرب غير عادلة ✩

على ان الصليبيين بحروبهم قد اضعفوا قوة الاسلام ضمن

اقاليم اسيا نفسها ومنعوهم بذلك عن انهم يقدرون ان يمتدوا ضد فرانسا وضد غيرها من طوايف الاوروبا التي لولا هذه الحروب لكانت هي في خطر مبين بان تسقط تحت سيوف العرب والاتراك ثم ان الحرب المقدسة قد خلصت بلاد اوروبا من داهية اخري وهي الانقسامات والمحاربات الجنسية التي كانت حادثة فيما بين كثيرين من الامرا والاشراف الغربيين اذ ان الصليبيين باهتمامهم في الحرب الشرقية كفوا عن ان يحارب بعضهم بعضاً ثم ان الحرب الصليبية قد لاشت رق العبودية عن شعوب كثيرين كانوا مستخدمين من امرايهم كاساري بقوة المراسيم الملوكية التي هولاء الامرا كانوا ذاتوها على مقاطعات كانت ملكاً حراً لبعض السلاطين فاوهبوهم اياها وبهذا الايهاب اضحى سكان تلك المقاطعات خاضعين لهم بدون واسطة كالى اسياد حقيقيين فهذه مع اختصاصات اخر سلطانية ومراسيم مهيلة جعلت اوليك المساكين الفلاحين وغيرهم مستاسرين تحت ولاية اسيادهم فبواسطة الحرب المقدسة هم نجوا من تلك العبودية وكذلك الحرب الصليبية قد فتحت لاهالى الاجيال المتوسطة الذين ارواحهم كانت ماسورة لمحبة الخصومات والمحاربات والفخر بالانتصارات الجنسية سبيلاً لاعمال حربية عادلة شريفة ذات ذكر مخلد بالاديم وبالنوع نفسه ان اوليك الاشخاص البطالين من الاعمال اما لاستغنايهم واما برذيلة البطالة قرمة الشرور الذين بمحبة الفضول او برغبة تحصيل المعاش بدون كدّ قد كانوا مرات كثيرة علة للبلبلات وسبباً لاضرار مختلفة فحينما أشهرت الحرب المقدسة اندرجوا فيها بكل سهولة وارتاحت محلاتهم من اعمالهم المبلبلة وهكذا بلادات كثيرة غب سفر العساكر الصليبية منها حصلت على حرية وسلام وراحة من حوادث

كثيرة مضرة ناتجة من الذين سافروا منها مع الصليبيين ❊

واما نظراً الى الفوايد الاخر الحاصلة من الحروب المقدسة فاهالي جيلنا الحاضر قد عرفوا جيداً ان الحرب الصليبية قد اضحت مفيدة جداً للعلوم ايضاً وللمتاجر وللتهذيب الانساني عينه على ان هذه الحرب قد اعطت بلاد اوروبا معرفة اشيا كثيرة عمومية وادابية قد كانت محتاجة اليها اذ صيرتهم ان يتخذوا العناية باعمال اشد قوةً واعلى سمواً وقد ايقظتهم من غفلة الجهل ومن ظلمة الاوهام وجعلتهم ان يفتحوا اعينهم نحو المشرق الذي كانت مزهرة فيه العلوم والصنايع فمن مزاحمة جهتي العالم الغربية بالشرقية كمزاحمة الصوان مع الحديد المسقى قد صدرت شرارات المغايرة الحارة التي لمعت في عقول ذوي المغرب وسخنت فتورهم وعن ذلك نتجت اختراعات عديدة جديدة مفيدة وقد شوهدت بعد ايام الحروب الصليبية انواع المتاجر البحرية مزهرة والاسفار الملاحية متواصلة بمراكب متكاثرة وصنعة الهندسة ناجحة وهكذا اللغات الشرقية وجدت ممتدة في المغرب بوفور معشوقة من كثيرين كما ان العلوم والصنايع الاخر صودفت في الاوروبا بنجاح كلي وكذلك العوايد والتهذيبات واصطلاحات الشعوب قد ازاحت من شعوب كثيرين خشونتهم السابقة بفوايد وافرة ❊

واما ان كان الان احدٌ يعترضنا ببعض حوادث جرت من الصليبيين نظير انقسامات وجدت فيما بين البعض من روسايهم وكبعض امور ذات قساوة تليق بالبربر وامثال ذلك مما فال شرفهم وشوه جمال سمعتهم وان هذه الحروب تكلفت على المسيحيين سفك دما الوف وربوات وكرات عديدة منهم بنوع ان مجرد التفكر في خسرانهم يحرك الى البكا كما ان مدناً وبلداناً وحقولاً

قد دثرت فاقدة ثرواتها الغاية بالنهب والحرق مع امور اخر من الشرور التي حدثت منهم وبسببهم فنحن عن هذه نجيب باننا نفديها كما ذديها المقدموت الذين كانوا العلة الفعالة للحرب المتدسة التي نتجت عنها امورٌ كذا اعتياديتة ان تحدث في حروب قوية ومستطيلة مثل هذه جارية من شعوب طوايف مختلفة وفيما بين شعوب ممالك متعددة ثم اننا مع الكنيسة ومع المعترضين ومع البشر اجمعين نستجب تصرف الصليبيين في الاشيا المناقضة الغاية المتدسة التي هم من اجلها تناولوا الاسلحة ونلوم بمرارة ما صنع احياناً منهم بالقساوة الغير مفيدة وبالانقسامات التي صدرت بعض الاوقات وبلبلة معسكرهم ولكن حيثما يوجد ذلك بمقابلة الى الامور المجيدة والنتايج الثمينة الكلية الفوايد لشعوب وطوايف عديدة من الارباح الادبية والعلمية والتهذيبية وغيرها افهل يليق بنا ان نحدق نظرنا نحو الشرور فقط التي الت بكثيرين فيما بين تلك الحروب وكان حدوثها ليس بغريب من اناس استولى على قلوبهم روح الصلف ومحبة التعاب ولا نميل لحظنا نحو الخيرات الفايقة الاحصاء والغير ممكن ان تثمن قيمتها التي نتجت لممالك اوروبا مع الامجاد ذات الذكر المخلد الى الاحقاب تلبا من اعمال الصليبيين المجيدة ✻

فهذه هي الملاحظات التي قدتنا الى التكلم عنها في هذه المقدمة في الوقت الذي فيه اتخذنا صفة مورخ حقير كي نخبر في دورنا تبعاً للمورخين الاقدمين عن اعمال ابايناء اللامعة بالمجد الذين ساروا بمنزلة زوار متسلحين لاجل استنقاذ قبر مخلص العالم من ايدي الامم ومن حيث ان تاريخنا هذا انما هو الاخير فيما بين تواريخ الحروب الصليبية فانما نحن اغتنما به اثواب المتقدمين عنا واتخذناه عن اوليك الكتبة الذين بقي

ذكرهم عندنا ولقبهم فيما بيننا بمورخي الصليبيين ولكن يلزم ان نسميه مغسوشاً ذاك الذي يظن ان تاريخنا هذا انما هو مختصر بسيط ماخوذ من مجرد المعلم ميشو والحال اننا باتصال عقد تدوينا التاريخ الحاضر قد سعينا نحو الينابيع الاصلية والدليل على ذلك هو اننا مرات كثيرة دكرنا اسماء المورخين القدماء واحياناً الفاظهم نفسها لكي نستخدم بافضل نوع الالوان الاصلية التي بها اوليك قدموا لنا صور الحوادث التاريخية ففي الحقل الكلي الاتساع المحتوي على اخبار الصليبيين كلها توجد امكنة مختلفة لاعمال مشكلة الانحا والاخيرة من هذا التاريخ انما نسير خلواً من تعلق بغيرها وامرٌ اكيدٌ هو انه دايماً تصادف عند كل خزاين جديدة من الاقوال الصادقة ✲

ثم ان ملاحظة اخرى قد صيرتنا مجتهدين باهتمام وبثبات عزم في عملنا هذا وهي اننا في درس منذ ايام قريبة بمكتبة في حوادث تلك الازمنة المجيدة المختصة بتاريخنا حيث ان محلاً عديم ان يغلب قد كان يضيف الى التقوي قلوب اناس شجعان مقداراً عظيماً من الجرأة والرجولية فقد استبنت لنا ان تخبيراً بسيطاً عن مجرد سفر ابايينا نحو بلاد المشرق كحكاية عارية من كل اضافة ذاتية للمعنى انما يظهر ايراداً خارجاً عن المرغوب او ما يهم قليلاً التاريخين ان يتلوه ولا يلايم مقصود النظر المسيحي فنكون بان نوافق طريقة كتبة دهرنا الحاضر وبان نعطي شبان زماننا ارشادات خلاصية وتعاليم ثمينة انقية فمن ثم لاجلهم بنوع اخص قد اقتطفنا عن الاصول تاريخنا الحاضر لانه تري اي شي من التذكرات الجميلة يمكننا ان نقدم لشبان بلاد فرانسا اجود من اعمال ابايهم واجدادنا السامية بالمجد الملقبة من الانبا غويبارتوس بتسمية اعمال الله المكتملة في

الارض بواسطة الفرنساويين واية نموذجات فاضلة نضع امام اعينهم اعظم من شجاعة غودافروا ده بوليون ومن استقامة تانكريد ومن قوة رايموند او فيلبس افغسطوس العديمة الانغلاب ومن قداسة الجليل فى القديسين برنردوس وفصاحته السامية ومن حكمة سلطاننا القديس لويس وتقواه وفضايله وشرف روحه فالنفس طبيعياً تبتهج جداً عند ملاحظتها اعمالاً كذا جليلة مجيدة خاصةً من اعالى جيلنا هذا ذوى شهامة الروح الذين يشاهدون امراً حميداً متقبولاً بلا ريب ان يعتنقوا الفخر الحقيقى والعبادة الشهمة انتى اعمال نبلاينا الاجلا ذوي الاجيال المتوسطة قد اعطتنا النموذجات فى ان نقتفيها ونغايرهم بها فاذاً يستطيع بسهولةٍ احد الشبان الذي يتلو هذا التاريخ ان يذهب بروحه نحو بلاد المشرق ويستوعب تاملة من الافتخار العادل عند ملاحظته العقلية اجتياز اجدادنا الفرنساويين فى تلك الاراضى وهكذا تتقد فى قلبه بعض شرارات من شرارات لهيب اعمالهم التى ولدت الفضايل وحينيذٍ يمكنه معنا ان يعلم بكم من الوقار يتخيل فى فكرنا فعل زيارة الامكنة المقدسة بروح التقوي والعبادة وباعظم احترام للايمان المقدس مع الحب الشديد نحو المسيح ابن الله الذى مات فى تلك الارض لاجل فداء العالم حيث ابآونا ماتوا من اجل استنقاذهم قبره الخلاصى من ايدي الامم الغريبة ☆



الفصل الاول

في الحرب الصليبية الثانية وفى شان القديس برنردوس وفيما يلاحظ السلطان لويس السابع وبخصوص الملك كونراد وفى الجمعية الملتمة ضمن فيزالاى ثم فى سفر العساكر الصليبية المجدد

ان ابناء اولئك الجيوش الصليبية الذين اخلوا اوطانهم وسافروا نحو الاراضى المقدسة قد اتقدوا بحرارة غيرة ابايهم وافتتنوا بنموذجاتهم بالاعتماد على السفر الى هناك وذلك بعد ان كانت مضت مدة خمسة واربعين سنةً منذ امتلاك اورشليم من غوذافروا وارفاقه بتخليصهم قبر المسيح من عبودية الامم على انه حينما بلغ الى بلاد اوروبا الاخبار المحزنة عما حدث للمسيحيين في اقاليم الاسيا قد تحركت فى قلوب الغربيين حرارة الغيرة التقوية وتشددت عزايمهم على تجهيز عساكر جديدة مرةً اخرى لاسعاف اخوتهم وهكذا من كل جهات اوروبا صار الاعتماد على هذا السفر فصورة الحرب الصليبية الجديدة المذكورة فى تاريخها تستحضر امامنا اناساً غير اعتياديين ذوى اختصاصات عالية الذى انْ فازوا من الله بانوار سماوية قد استطاعوا قدراً ان يستولوا على دهرهم وان يتخذوه تحت شريعتهم بواسطة سمو حذاقتهم او بقوة فصاحة كلامهم ❊

ففيما بين الرجال الاجلا الذين وجدوا فى مدة الاجيال المتوسطة ومارسوا نحو اهالى تلك الفسحة من الازمنة مفاعيل اعمالهم واستمالة الشعوب نحوهم وانارتهم اياهم بضياء التعاليم وازالتهم منهم الجهل الفظيع قد كان القديس برنردوس فى اول رتبة منهم

متقدماً بذلك عليهم لانه ان كان في التواريخ البعيدة يُفحص عن انسان ذي براعة كلية في التاملات وذى تعمق عظيم في النص عن انسان يقدمه التاريخ ككنز فايق الثمن ذى المهن وكموضوع بليغ السمو في الانشاء للشعرا والناشدين فلا يلزمنا ان نذهب مفتشين على مثل هذا في الاجيال القديمة جداً او في اقاليم بعيدة عنا بل ان برنردوس الناسك في دير كلارفوكس هو وحده يقدم للمفتشين معدناً واسعاً من نفس حارة جداً وروح خشوعية وحذاقة شفافة وفصاحة زايدة وقد يمكن امراً سهلاً ان نتنعم ههنا برشف اخبار اخص ما يلاحظه بوجيز من الايراد ☆

فالقديس برنردوس ولد سنة ١٠٩١ في حصن فونطان حدا ريتجون فابوه سيشليوت هو من اصل عيلة كاتيلون. وامه الكسى ابنة برنردوس سيد مونت بارد كانت نسيبة دوكا بورغونيا فالتواريخ ترشدنا الى انه في ظهور اناس عظما في الارض الذي هم مزمعون ان يوعبوها من الامور الكلية بابراعة اسمايهم فيها او بسمو احساناتهم اليها فمرات كثيرة تظهر عنهم قبلاً علامات فايقة الطبيعة فهكذا صار حين مولد برنردوس فوالدته قبل ان تلده بمدة من الزمن قد شاهدت في الرويا انها حاملة في احشايها كلب صغير ينبح باتصال مدة دوام الرويا. واذ اخبرت بذلك احد الرجال العباد اجابها قايلاً افرحي بهذا لان الطفل العتيد ان يتلد منك سيكون اميناً على حراسة بيت الرب وسيتكلم بشجاعة قوية بالمحاماة عن الكنيسة ضد اعداء الايمان فاذ وثقت هي بهذا الكلام فبعد ان ولدت برنردوس اهتمت جداً في حسن تربيته وتعليمه بما يوافق تتميم الوظيفة العتيد ان يتقلدها ☆

ثم ان الطبيعة اعطته من مواهبها ما جعله في جميع تصرفاته ان يكون محبوباً بل معشوقاً من كل المعاشرين اياه والمتعاطين

معه الامور غير انه لقد ظهر عليه منذ حداثته كره من محبة المجد الباطل ومن المدايح فى تقريظ ذاته وصفاته وقد كان يشعر هو فى ذاته بانجذاب باطن يدعوه الى ارض غريبة عن روح العالم ومرات كثيرة هذا الوريث لخيرات نصيب عيلته الغنية كان يذهب منفرداً فى القفر القريب للحصن المختص بوالده وهناك كان يواظب تلاوة الكتاب المقدس غايصاً بالتأملات فى اسراره العميقة التى وجدت هى الموضوع الاخص لرياضة جودة عقله ولنسيان العالم بالكلية وحينما اخوته او اخواته كانوا يخاطبونه بخصوص افراح العالم وملذاته وتنعماته فهو بوجه باش كان يرشدهم بالخلاف الى انه فى هذه الارض لا يوجد من ذلك شى حقيقى ثابت ☆

فحينما بلغ برنردوس الى السنة التاسعة عشر من عمره قد فقد والدته الطوباوية الكسى من هذه الحيوة اذ ان البارى تعالى اراد ان يتوج فضايلها السامية باكاليل المجد السماوى وهو حصل محاطاً من اخطار مختلفة ضد عزايمه التقوية ومن ثم اجتهد عاجلاً فى انفراده عن العالم ليتحد بالله باوفر سكينة وانسهي سلام باطن ☆

فقد كان هو فايزاً بفضيلة الطهارة بنوع سامى ولذلك كان غيوراً جداً على حفظ زهرة زنبقها خالية من الانثلام فيما بين التجارب التى العدو الجهنمى كان يحاربه بها بشدة الامر الذي اعتاد هذا العدو ان يقتنص به الشبان الغير حريصين على ذواتهم غير ان هذا الاركون الخبيث الذي كان حارب بتجارب مثل هذه ضد الطهارة للقديس انطونيوس فى قفار تيبايس وللقديس ايرونيموس فى مغارة بيت لحم قد خرج مرات مترادفة فى معركته بها مع برنردوس خايباً لان هذا الشاب

الطاهر قد انتصر عليه تماماً بقوة الرب بجهاد عنيف فلنتاملن الان برنردوس خارجاً عن العالم لينسك عن العالم منفرداً بالهدو الرهباني حسب تمام مرغوباته التي لم يستطيع لا اقرباه ولا معارفه بكل اجتهادهم ان يغيروا عزمه عنها فيا لسمو فصاحة هذا الشاب التي بها اقنع الجميع بمبتغاه وكان عتيداً يوماً ما ان يستخدمها في اعمال عجيبة لانه بها غلب المحاربين واقنع المتعنتين ومن ثم كل اوليك الذين كانوا يستمعون اقواله ومواعظه وارشاداته كانوا يستحلفونه بان يقودهم معه الى القفر واما هو فقد طاف بلاد بروغونيا وشامبانيا معاماً طريق الرب بنوع انه قد كتب عنه احد المورخين المعاصرين قايلاً * انه في حين اجتياز برنردوس من تلك الجهات فالامهات كانت تخفي اولادهن والنسا يحتجزن رجالهن والاصدقا يردون اصدقاوهم عن مواجهته واستماع كلامه ليلا يهجروا العالم لاحقينه الى المناسك ففي مدة وجيزة من الزمن صوت برنردوس قد جذب حوله عدداً وافراً من سامعيه والمرتشدين منه والعاشقين اقواله كالتيام الخراف حول راعيها ولكن قبل ان يذهب بهم الى العيشة الرهبانية قد حول نظره المرة الاخيرة نحو العالم. فقد رجع الى فونطان عند والده الشيخ لكي يستمد بركته ولكن من ذا الذي يمكنه يشرح صورة هذا المشهد الخشوعي والسامي بالفضيلة الملاحظ هذا الاب في وداع ابنه فهوذا الشيخ الجليل حضر ليشاهد ابناً محبوباً منه جداً ويودعه ليس وحده بل يودع معه ثمانية اولاده الاخرين الذين بدون تزعزع ثبتوا عزايمهم على الذهاب مع اخيهم لاعتناق السيرة الملايكية وهكذا ذرية هذا الاب على نوع ما كلها قد خرجت عن العالم ما عدا الابن الاصغر فقط المدعو نيفارد الذي بقي عنده باكياً على فراق اخوته واذ قال

له اخوه الاكبر فيهم غوي لا تندب يا اخي بل سر فى اذننا جميعنا قد نزلنا لك عن مواريثنا وصار غنا بيت ابينا كله لك فهو اجابه متمهداً بقوله اواه انتم تاخذون لذواتكم ملك السموات وما تركتم لي سيا سوى الارض ويقال ان هذا الشاب بعد سفر اخوته قد ترك منزل ابيه ولحقهم ليشترك بميراثهم السماوي وان الاب اذ بقي وحده فتوجه اخيراً فى الطريق الموديه الى الدير الذي فيه اولاده فى وادي ابسينتا ويباركهم المرة الاخيرة قبل رحيله من هذه الحيوة كما قد تم ذلك ✻

اما برنردوس واخوته ومن معهم فبعد ان انفردوا فى منسكهم الاول المدعو سيطو قد انتقلوا الى وادي كرينو المسماة وقتيئذ ابسينتا ومن حيث انهم وجدوا ذلك المحل مطابقاً لمرغوبهم بالهدو والسكينة لبثوا فيه وتلك الارض العقيمة والمحل المكروه المنظر الذي بواسطة تعب ايديهم اضحى مخصباً ملايماً لماواهم وهناك رجل الله برنردوس بعيشة مضنكة لكنها عذبة لدي قلبه كان يمارس تاملاته ذات الاتحاد بالله التي جعلته عديم الحس فى امور العالم موجهاً عواطفه كلها نحو المدينة السماوية ✻

ولكن اضطرابات العالم الارضي قد اقلقت بعد ذلك سكينة هذا البار من كل ناحية لان انسدادات وخصومات ثقيلة وتعدي على الحقوق كانت تزعج الكنيسة والمسيحيين الذين فى بلاد فلسطين اذ سقطوا من جديد تحت نير الاسلام استدعوا اخوتهم الغربيين الى معونتهم والحرب المقدسة نباشرت اهتماماتها فحينئذ اختار الله لذاته رجلاً يجري فيما بين جموع الشعوب ليشترك فى اتعابهم واحزانهم ويمزج امورا ما سماوية باشيا ارضية فالمختار لذلك هو برنردوس الذي خضع لصوت الله وخرج من وادي نسكه العميق وجاء مبتدياً بمسيره هذا الجديد حيث الامور

العجيبة كانت مزمعة ان ترافق خطواته ☆

على ان اخبار سقوط مدينة الرها وما يحوطها تحت سيوف الاسلام قد احزنت قلوب المسيحيين اجمعين لاسيما عندما عرف جيداً ان الشاب الصنديد نور الدين امير المسلمين كان يزار كالاسد قاصداً ابادة اللاتينيين من المشرق جميعه لانه بعد انتصاره الغريب على امرية الرها كان عازماً على ترجيع احوال ابناء ملته الى ما كانت عليه قبلاً باستعباد المسيحيين بقساوتهم البربرية وهذه كلها صيرت المومنين في اقاليم اسيا ان يهتفوا ولو عن بعدٍ بواسطة رسايلهم مع معتمدين من قبلهم الى الحبر الروماني مستعينين بعنايته الابوية ملتمسين المعونة في انقاذهم من هذا الخطر المبين فقد كان وقتيذٍ جالساً في السدة الرومانية البابا اوجانيوس الثالث الذي كان قبلاً تلميذاً للقديس برنردوس راهباً في جمعيته حينما كانت في سيطو فقد كان هذا الحبر في مدينة فيتاربو حينما بلغ اليه المرسلون من مسيحيي سوريه وعند وقوفه على الحقايق لم يقدر ان يمسك ذاته عن البكاء المر ثم تذكر بما كان صنعه سالفه البابا اوربانوس الثاني من الغيرة الرسولية وبما فاز به من ثمرة الاعمال التي مارسها فحالاً شرع هو يفتش على الطريقة التي بها كان يمكنه ان يحفظ الاماكن المقدسة من دثار عظيم قريب الحدوث فقد وجّه برسايل الى ملوك اوروبا مملوة من التحريض والمناشد والاستحثاث بان ينهضوا غيرتهم لاجل نجدة اخوتهم المسيحيين الذين في المشرق ☆

ففي تلك الازمنة كانت الحروب الجنسية تدثر اقاليم بلاد المانيا وانكلتيرا واما مملكة فرانسا فكانت مزهرة جداً تحت ولاية سلطانها الجليل لويس السابع ابن لويس السمين وخليفته في التخت الملوكي وكان يلقب بلويس فلوروس او بالجميل

لاجل بهاء جمال خلقته ولكن اعتياديا ً قد سمي في التاريخ لويس الشاب لويس الجديد وقد كان بواسطة زواجه بالاميرة اليونوره ابنة غويليوم التاسع اضاف الى غنى تاجه الملوكي الامرية الغنية جداً الدعوة اكيتينا المختصة بعروسته هذه وكان هو متمتعاً ببهجة راحة رعاياه ونجاحاتهم وجمال مملكته واذا بها على الفور مضطربة بنشر بيارق صليبية لحرب جديدة ضد الاسلام ٭

فلويس السابع في بداية توليته على فرانسا قد حدث فيما بينه وبين البلاط الرسولي الروماني نوع من المغايظة ومن حيث انه عرف ان تيبود كونته ده شامبانيا قد كان العلة في ذلك من قبل مداخلاته به فهذا السلطان الذي بالكاد وقتئذ بلغ سن العشرين سنة ذو دم حار وغيظ شبوبي اراد ان ينتقم لذاته مع اخذ الثار من الكونته المذكور احد رعاياه فجمع عساكره ومشى بها ضد مقاطعة هذا الكونته فادثرها ودخل مدينة ڤيتري بعساكره بسيوف مجردة واذ غشي على عقله فخر انتصاره فلم يعف يميناً ويساراً عن شي مما صادفته اسلحته الامر الذي صير عدداً وافراً من السكان ان يهربوا الى الكنايس ودخلوا الى احدهم جميعاً مؤملين ان يجدوا فيها الامان على حياتهم مع رجزه ففي فورة هذا الغضب هو لم يرد ان يسمع الا صوت كبرياه وحمية غيظه فاجتاز في وسط عساكره بصرخات القتل بدون اعتناء حتى بلغ تلك الكنيسة وصير ان تضرم النار في كل جهاتها فافنتها اللهيب جملة مع ما ينيف عن الف وثلثماية شخص كانوا ضمنها وهكذا هو موعباً من رجز انتصاره رجع الى مدينة باريس ٭

ولكن في هذه المدينة كان ينتظره عدو من جنس اخر وهو انه حينما هذا السلطان راق من بخار نصرته وصحى من

سكرة محبته الذاتية وبردت فيه حرارة رجزه قد اخذه الندم المر واستحوذ عليه قلق الضمير وجرحته اشواك نخز الذمة فانطرح عليلاً بخطر الموت من كثرة حزنه وتاسفه على ما صدر منه وقد عرف ان رعاياه قد بغضته مما صنع ولم يعد يعلم ماذا يقدم عناوةً عن اثمه فلحينيذٍ ذوي المشورة خاطبوه في شان الحرب الصليبية موردين له ان الخطاة بذنوب ثقيلة قد صادفوا الغفران بسفرهم الى بلاد فلسطين محاربين من اجل الرب مضيفين الى ذلك هذه الالفاظ وهي * ان هذه الواسطة هي الاشد فعلية في ان يهدي عنك الغضب الالهي ويكف عنك صراخ الدما الزكية التي اذت سفكتها ظلماً فهذا الخطاب اقنع روح السلطانٍ الذي من حين جلوسه في تخت المملكة كان افتكر بان يزور الاماكن المقدسة فمن ثم حالاً اعتمد على تجهيز العساكر الصليبية لاجل الحرب المقدسة *

ففي ذاك الحين ظهر القديس برنردوس ريس دير كلارفوكس كامبروسيوس ثانٍ وحرر رسالةً الى السلطان المذكور بها بفصاحةٍ خشوعية اباك له اهانة الديانة الحادثة ودثار الانسانية المستعمل مصوراً لديه كيف ان اورشليم موجودة في خطر كلي بان تسقط تحت سيوف الاسلام وان كنيسة المسيح محتقرة ذايلة ولكنها قايمة مع جموعها على اقدام الحرب ثم اضاف الى ذلك كلامه بقوله اما انا فاني احارب من اجل الكنيسة الى الموت واما رمحي واسلحتي فانما هي تضرعاتي ودموعي امام الله فلويس السابع اذ تخشع جداً من هذه الرسالة قد عقد جمعيةً من الروسا الكنايسيين ومن اشراف المملكة في مدينة بورغاس واشهر لهم بعزمٍ ملوكي اعتقاده للحرب المقدسة ثم انه بمشورة القديس برنردوس ارسل من قبله معتمدين الى رومية فالبابا اقتبلهم بمسرةٍ ودعى للسلطان بالنصر وارسل منشوراً رسولياً الى المومنين

بالمسيح اجمعين به حرضهم على هذه الحرب ومنحهم الانعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سالفه اوربانوس الثاني للصليبيين الاولين وقد كان هذا الحبر اوجانيوس يشتهي ان يجتاز الجبال الالبية ويحضر الى اراضي فرانسا السعيدة كما كان صنع سالفه اوربانوس ليشدد بكلام فمه غيرة الفرنساويين الذين في هذه المرة ايضاً صودفوا الاولين في نصب بيارق الحرب المقدسة ولكن من حيث انهُ التزم بدوام الاقامة في رومية للمحاماة عن ولايته الحاصلة في خطر فقد وجّه نظره الى من ينوب عنه وهو برنردوس ريسه القديم ومعلمه وصديقه الخاص فاقامه راساً للجيوش الصليبية رسولياً وفوضه الانذار بهذه الحروب المقدسة على جميع طوايف المسيحيين ✲

فالسلطان لويس السابع من ثم عقد جمعية اخري سنة ١١٤٦ في فيتزلاي المدينة الصغيرة من اقليم بورغونيا والقديس برنردوس اسرع بالحضور فيها فاسم هذا الانبا الشايع الصيت قد جمع حوله عدداً عظيماً من الاكليروس والاشراف والرجال من كل سن ورتبة ونوع وهذه الجموع الغفيرة كلهم التهوا يوم احد الشعانين فوق ديرة تل واسع امام باب المدينة المذكورة وهناك ظهر السلطان المذكور بالزينة الملوكية وبرنردوس بثوبه الرهباني المحتشم فيها بين هتافات الشعوب وجلسا فوق تخت منصوب لهذه الغاية ثم ان برنردوس نهض قايماً وقراء بمسمع الجموع المنشور البابوي السابق ذكره وبعد ذلك اخبر الشعوب بحوادث سقوط امرية الرها تحت ولاية الاسلام بانواعها وبغزوات هولاء البربر وانتصاراتهم وان كانت هذه التلاوة والاخبار وحدها حركت الجموع الى الاعتماد على تناول الاسلحة فالبار برنردوس لكي يوطدهم في هذا العزم ويصدم حرارة قلوبهم بابلغ نوع في اسعاف

اخوتهم مسيحيين المشرق اضاف الى ما تقدم ذكره خطاباً بفصاحته العجيبة مما لا مزيد عليه من البراهين والتحريضات والنموذجات والغوايل والنتايج وما حدث لمومني الرها والاخطار المحيقة باورشليم والاهانة الحادثة للديانة وللكنيسة وصفات الشعوب الاسلامية والشكوك الحاصلة من جرى ذلك فى الاوروبا والغضب الالهى المشتد من قبل اعمال عبيده فى المشرق تحت سيوف الاعدا بايمانه وتحت رق عبوديتهم ثم صرخ اخيراً هاتفاً اواه ايها السامعون اقوالى لا تلتمسوا بعد الان بالتنهد والدموع صلاح الله التماساً باطلاً ولا عدتم تلبسون المسوح بل تدرعوا بالاسلحة العديمة ان تغلب فقعقعة الات الحرب واضامات السفر والمشقات والاضرار الزمنية ومعركات الحرب انما هى اعمال التوبة التى يرسمها الله عليكم فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار واستخلاصكم الاماكن المقدسة بتوطيده من الاخطار الملمة بها هى ثمن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم فلو اتاكم مخبرٌ قايلاً لكم ان الاعدا قد استولوا على مدينتكم او حصونكم او اراضيكم واختطفوا نساكم وبناتكم للسبى ودنسوا معابدكم فمن منكم عند هذا السماع لا يركض متناولاً اسلحته للمحاربة فهوذا الاشيا المذكورة كلها قد احاقت باخوتكم وشرور اعظم منها مزمعة ان تحل على الاخرين ايضاً من اخوتكم عيلة يسوع المسيح التى هى عيلتكم فاي شى اذاً انتم تنتظرون لكى تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ولكى تنتقموا عن اهانات مثل هذه كلية الانواع فحينما الرب يستدعيكم الي حماية ميراثه افهل تظنون ان ذراعه الالهى اضحى الان اقل قوةً من ذى قبل واضعف اقتداراً مما سلف او هل انه تعالى لا يستطيع ان يرسل اثنى عشر طغمةً من المليكة او يقول كلمةً واحدة بها يكردس اعداه الى

القراب وانتم ايها النبلا الكلي شرفهم المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات ابايكم الذين استنقذوا اورشليم من العبودية واسماوهم هي مكتوبة في السما فاهملوا نظيرهم الخيرات البايدة لكي تاخذوا رايات الغلبة العديمة الفساد وتكتسبوا ملكاً عديم النهاية ☆

فصراخات الشعوب بقولهم الله يريد هذا : الله يريد هذا : كانت مرات عديدة تقطع خطاب الانبا برنردوس ونظير ما اثمر خطاب البابا اوربانوس الثاني في مجمع كلارمونت في قلوب سامعيه كذلك كلام القديس برنردوس صنع في الباب هولاء الشعوب تاثيراً فعالاً من الغيرة والحرارة والخشوع وعند ما فرغ هو من خطابه فالسلطان لويس السابع انطرح على قدميه ملتمساً منه صليب الحرب واذ نهض متردياً بملابسه الملوكية المكرسة قد حرّض هو ايضاً رعاياه الفرنساويين على ان يتبعوه نحو المشرق ثم ان زوجته السلطانة اليونوره هي ايضاً قد تسلمت من يد هذا القديس صليب الحرب فنموذج عظمتها الملوكية قد تُبع جالاً من عدد وافر من الاشخاص الاشراف والنبلا والمتقدمين في ولاة الشعب الفرنساوي وقد تلألا فيما بين هولاء الفونسوس كونته ده سان جيلاس وطولوزه ثم انريكوس بن طيبو كونتـه ده شامبانيا وتياوّي كونتـه ده فيلاندره وغويليوم ده نافار ورانود كونته ده طونارة وايناس كونته ده سواسون وارشامبود ده بوربون وهوكوز ده لويزيناب ثم الكونته ده دروكس اخو السلطان والكونته ده يوريان عمه وكذلك اساقفة نويون ولانكراس واراس وليزيو واخرين كثيرين من الروسا الكنايسيين قد حلفوا على ان يحاربوا الغير المومنين وهكذا الانبا القديس كان يزرع احرى مما يعطي صلبان الحرب المقدسة واذ لم توجد كافية للتوزيع

تلك الكمية الوافرة العدد التي احضرها صحبته من الصلبان قد قص انوابه الرهبانية كصلبان واعطاها لاوليك الباقيين المتوسلين اليه باخذها من يده ❊

فلجمعية فيزلاي قد انحلت وبرنردوس موعبا من ابتهاج الغلبة قد طاف في اقاليم عديدة من ممالك فرانسا مضرما في قلوب الجميع نيران الغيرة للذهاب الى الحرب الصليبي ونظير بطرس السايح وجد محاطا من جماهير غفيرة الذين كانوا يبرزون القسم على ان يتبعوه الى بلاد فلسطين ثم ان بلاد فرانسا قد ارتجت بعدة ايات ومعجزات حدثت فيها منذرة باثبات وجوب هذه الحرب المقدسة ففي جمعية مولفة من نبلا المملكة ملتيمة في مدينة شارترايس جميع الاشراف طلبوا ان يكونوا مع العساكر تحت رياسة الانبا برنردوس كقايد عام غير ان هذا القديس اذ تفكر بما كان حدث لبطرس السايح قد رفض مطلقا ان يتقلد هو ايضا بالسيف ثم لخوفه من الالزام اسرع بتحرير رسالة الى الحبر الاعظم بها يناشده بان يعفيه من ذلك فاتاه الجواب حسب مرغوبه ثم ان هذا الانسان الغير اعتيادي الذي قبل ايام قليلة كان متقدا بنار تلك الغيرة جايلا في الاقاليم محاطا من الجموع الغفيرة منذرا محرضا مباشرا الاهتمامات بالحرب قد عرف ان يمسك ذاته عن التوجه معهم الى الحرب عالما كم هي مخطرة على العايشين في النسك والانفراد اسفار كهذا شاسعة فمواعظه قد اشعلت في افيدة المومنين لهيب المغايرة ومحبة التغريب حتى انه افقر البلاد الذين اتجهوا الى الحرب كما كتب هو للبابا اوجانيوس بقوله ان المدن والحصن اضحت قفارا من الناس المحاربين ولم يعد فيها الا الارامل اللواتي رجالهن احيا في المعسكر والايتام الذين اباوهم فيها بين الصليبيين ذاهبون الى الحرب ❊

ثم ان هذا القديس قد سافر من بلاد فرانسا الى مملكة النمسا فلما بلغ الى هناك رسم على الراهب المدعو رودولف حتماً بالصمت من حيث ان هذا الراهب كان يعظ الشعوب ويحرضهم على ان يبيدوا من الوجود فيقول المورخ ادون ده دويل: ان الانبا برنردوس داخل جسمٍ ضعيف كانه مدنف على الموت كان حاوياً نفس شجاعة قوية حارة وكان يجول فى كل اقليم كارزاً بالحرب الصليبية ومضاعفاً عدد الزوار المتسلحين: ثم مضى الى سبيرا حيث كان ملتيماً مجمع المملكة العام هناك بامر الملك كونراد الثالث فهذا الملك لحد ذاك الوقت كان قاوم مرغوبات الانبا برنردوس ورسالاته المتكررة التى كان بها يحرض على الاشتراك بالحرب المقدسة فيوماً ما دخل القديس الى الكنيسة الموجود بها الملك وعظما دولته وشرع بتقدمة الذبيحة الالهية ولكنه على البدية فى وسط القداس التفت نحو المحضر وابتدا بعظةٍ جليلة على الدينونة الاخيرة وصوّر المسيح حاضراً والصليب فى يده مخاطباً الملك كونراد بتوبيخٍ صارمٍ على فتوره وقلة معروفه فالملك حالاً استوعب من الخجل والخشوع العميق وبدموع غزيرة ابرز القسم على ان يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب المقدسة وكذلك اشراف المملكة الحاضرون اذ اخذتهم الرعدة والحرارة معاً قد ابرزوا هم ايضاً الحلف بان يتناولوا الاسلحة ويحاربوا بامانة من اجل القضية المختصة بيسوع المسيح وتبعاً لما اورده المورخ البلجيكى ان الشعوب اذ تقاطرت بازدحام لاستماع كلام برنردوس بنوعٍ غريب حتى ان الملك شاهد الانبا المذكور ادنف على الاختناق بعدم التنفس فقام من تخته واخذ القديس محمولاً الى خارج الكنيسة لئلا يموت ❊

ثم بعد ذلك بمدة وجيزة من الزمان التيمت جمعيت فى

مدينة راتيسيبون من روسا كنايسيين ونبلا علمانيين وفيها قبلت رسايل الانبا برنردوس المحررة لهم تحريضاً على الحرب المقدسة وكلهم اكتتبوا فى مدرجها وقد تلالات فيما بين هولاء اساقفة باصاف وراتيسبون وفريز يحجان ومن العظما لاديسلاس دوكا ده بوهوميا واوداكره اميرستيريا ورانارد كونته ده كارينتينا وفريداريكوس نسيب الملك كونراد الذي كان شاباً محبوباً جداً من ابيه الدوكا الذى اذ لم يكن يحتمل مفارقة ابنه الشديد العزم على الحرب ولم تقدر زيارة القديس برنردوس بمواعظه على تعزيته فقد فارق الحيوة فى كبر سنه قبل سفر ابنه ✿

فعلى هذه الصورة من كل الجهات كانت الناس تكتتب فى عدد الصليبيين ثم ان الانبا برنردوس رجع من المانيا الى فرانسا وبحضوره هذا تجددت الحرارة فى القلوب ومن حيث ان الملك كونراد باشر مهمات السفر فالمسير ما عاد يحتمل تاخيراً ولذلك السلطان لويس السابع قد اهتم بالتيام جمعية المملكة العامة فى اتامبيس في شهر اشباط سنة ١١٤٧. مولفة من روسا كنايسيين ومن عظماء الدولة لاجل انتخاب قيمقام ملوكى يدبر المملكة في غيابه فقد وجد فيها بين العظما امرا بلواز والجارس وفلاندرا ونافار والجميع كانوا يفتكرون مفتشين على انسان يستحق هذه الوظيفة ويقوم بواجباتها فى مدة غياب سلطانهم ففى هذه الجمعية كان موجوداً الانبا سوجار ريس كنيسة القديس ديونيسيوس الرجل الطاعن فى السن المملو من الفضايل والحكمة وحسن التدبير الذى نبلا المملكة ومتقدموا الطايفة الفرنساوية والسلطان لويس السابع نفسه اختبروا فى حوادث كثيرة قيمة تصرفاته وحذاقته وفطنته فهو قد وجد فى الجمعية منعزلاً ناحيةً باحتشامه وتواضعه فاصوات الجميع اتجهت نحوه وباتفاق راس عام انتخبوه وكيلاً

ملوكياً ليدبر السلطنة مدة ابتعاد سلطانها عنهم وحالاً هذا الانتخاب تثبت من لويس السابع اما سوجار العارف ثقل هذه الوظيفة فقد رفض قبولها مطلقاً ولكن الطاعة للاوامر البابا وية والملوكية الزمته اخيراً بعد الممانعات الكلية بان ينحني دفعة لقبولها ✿

ثم انه اتي جمعية اتامبيس قصاد مختلفون من امرا وحكام من جملة اقاليم مقدمين عن السنة مواليهم المعونة للحرب المقدسة وفيما بين هولاء كانت رسل روجار سلطان بوليا وسيشيليا موعدين بان يرسلوا الى الصليبيين مراكب بحرية مع ذخاير للقوت والحرب والسلطان المذكور قرر بواسطة رسله بان ابنه نفسه يسافر معهم في المراكب الى الاراضي المقدسة وحينيذٍ في تلك الجمعية سنداً على مواعيد السلطان روجار حصل الاعتماد على الطريق التي مزمع الصليبيون ان يسيروا فيها فسفر البحر كان يظهر للجميع انه الاقرب والاسهل والاقل خطراً ولكن مع ذلك قر الاعتماد على السفر في البرّ فهذا الاعتماد القليل الفطنة قد كان دليلاً على اتعاب وشرور مزمعة ان تلم بالصليبيين ✿

ففي مدة تجهيزات هذه الحروب كانت مواعظ القديس برنردوس ترسل الى تحت سناجق الصليب جماهير من المحاربين لانه في البلدان التي لم يكن السفر اليها كانت رسايله متواردة نحوها وكانت تُعلّق على الحيطان وتتلى فوق المنابر وكان سماع عباراتها الفصيحة وبراهينها القوية يجذب القلوب خلواً من ممانعة الى اعتناق ارادته: ثم ان المورخين يوردون عن كاهن فلاماندي اسمه ارنول قد اضاف ذاته الى الانذار مع برنردوس وكان يتجول بلاد فرانسا والنمسا وكان يجذب الناس الي الاندهال منه والي اكرامه نظراً الى نوع ملبوسه الخصوصي ونظراً الى

تتشفات معاشه الغريبة فقد كان برفقته فى كل محل ترجمان اسمه لاماريتوس الذى كان يفسر بلغة اهل البلد مواعظ الكاهن المذكور ❊

ثم ان اقاليم ايطاليا وانكليترا قد وجدت متقنية بنموذجات فرنسا والنمسا فامير مونته فارا والكونته ده موريانا خال لويس السابع قد جمعا العساكر الصليبية واجتازا بهم الجبال الالبية وحدود رونا ولومبارديا وبيومونته كما ان الصليبيين الانكليز قد نزلوا فى المراكب من مينا ماديكا وساروا نحو اصبانيا للسفر الى المشرق ❊

فالمكان المعين لاجتماع العساكر النمساوية كان مدينة راتيسبون واما العساكر الفرنساوية فكان ترتب اهم الاديام فى مدينة ماطنس ففى مدة اشهر الطرقات المودية الى المدينتين المذكورتين وجدت دايما مملوة من القوافل والجموع والبهايم النافذة الذخاير: فيقول المورخ اوطون ده فريزنيان: انه حينما زالت صرامة الطقس الشتوى وطراوة الفصل الربيعى ولدت فى الاراضى الاعشاب وفى الاشجار الازهار واكست الحقول بجمال المشهد وابهجت قلوب المسافرين فالملك كونراد قد نزل فى المراكب النهرية مجتازاً نهر دانوبيوس ذاهباً الى مدينة راتيسبون ❊

فهذا الملك قد اتجه الى هناك لكى يتوج ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك الاهتمام بتدبير المملكة فى غيابه الى عناية الرجل الحكيم الانبا كوربى آخذاً صحبته طعماناً عديدة من عساكره فى الوقت الذي فيه جانب اخر وفير من جنوده كانوا يسيرون فى البرّ وفيما بين هذه الطغمات كانت واحدة منها رجالها لابسون فى روسهم الخوذات مزينة بريش النعام والزرديات بالحديد اللامع ومزينون بالاسلحة الذهبية الامر الذي اعطاهم اللقب بتسمية سيدات بارجل ذهب وقد كان عدد مجموع

العساكر الصليبيين وافراً بهذا المقدار حتى ان المورخ اوطون نفسه يقول ان الانهر وشطوطها بالكاد كانت تكفي لاجتيازهم والسهول اعوزت الى محلات غيرها لنزولهم ☆

واما السلطان لويس السابع فكان يهيّي مسيره باستعدادات الصلوات والاعمال الصالحة وكان يزور البيمارستانات مفتقداً المرضى والبايسين موزعاً عليهم الصدقات بسخاء ملوكي وقبل سفره بايام قليلة توجه احتفالياً مع والدته وقرينته وعظما بلاطه الى كنيسة القديس ديونيسيوس ليتسلم سنجق ارايه الشايع الصيت الذي سلاطين فرانسا كانوا يسيرونه مرفوعاً امامهم في ذهابهم الى الحروب فالبابا اوجانيوس الثالث قد كان جاء الى فرانسا وفي اليوم المذكور حضر باحتفال في الدير الملوكي الذي فيه الكنيسة المذكورة وبيده سلم السلطان لويس السنجق القديم المذكور مع دبوس وغدارة علامةً لسفره في الحرب المقدسة فتري بكم من العواطف وحركات المغايرة وحرارة العزايم تامل هولاء العظما مع سلطانهم في دايرة خوروص تلك الكنيسة مرسومة بالوان حيّة وصنعة متقنة صور غودافروا ده بوليون ورايموند وتانكريد مع صور المعركات التي هم فيها فازوا بالانتصار في دوريله وانطاكيه واسكالون واخيراً يوم سفر السلطان لويس من باريس قد تعين وهذا المعظم في الملوك قد عانق الانبا سوجار بدموع مودعاً اياه فيما كان هذا الانبا مغرقاً وجنتيه بدموع اغزر وبعد ذلك اخذ قرينته السلطانة اليونوره وجانباً من متقدمي بلاطه وسافر من باريس متوجهاً نحو مدينة ماطس فمعسكر الجنود الفرنساوية كان مولفاً من ماية الف مقاتل المجتمع في المدينة المذكورة قد سافر منها مجتازاً بلاد المانيا ذاهباً نحو مدينة القسطنطينية المحل المعين لالتيام الصليبيين اجمعين فيه تحت سناجق الحرب المقدسة لينطلقوا منه الى

مصادفة الاخطار العظيمة بامل اكتساب انتصارات جديدة ☆

الفصل الثانى

فيما يلاحظ ملك الروم عمانوييل كومننوس وفيما حدث من تبديد
عساكر الملك كونراد وفى معركة الحرب التى حدثت عند حدود
مياندرا وفى حصار مدينة دمشق وفى رجوع الامرا
الصليبيين الى المغرب * ثم فى نهاية هذه الحرب
الصليبية الثانية

فقد كان جالساً فى ذلك الزمان على تخت مملكة الروم ملكٌ شاب الذي فى ظواهره كان رجلاً محبوباً جذاب الميل القلبى نحوه وفى باطنه كان خبيثاً مكاراً موعباً من الخداعات والحيل وهو عمانوييل كومنينوس الابن الصغير للملك اليكسيوس الاول فقوة العساكر الصليبية وشجاعتهم قد صورت فى قلب عمانوييل فى حال ضعف مملكته انواعاً من المخايلة والخوف فاذاً هو ليس من دون قلق وانزعاج باطنين شاهد تقاطر العساكر الغربية جديداً الى مملكته ولكن لم تكن لديه اسباب ثقيلة لممانعة هؤلاء الصليبيين كما كان حدث لسالفه لان بعد انتصارات غودافروا على الاسلام فالاتراك ما عادوا تهددوا القسطنطينية كالسابق فمن ثم هو لعدم خوفه من هذا القبيل ما اهتم جداً فى ان يخفى حقايق باطنه لان قلبه كان مملواً من المرارة ضد مسيحى الغرب الذى حسبما كان الراي العام الدارج على افواه الناس يظن بهم ان مرادهم امتلاك القسطنطينية ☆

فعساكر الملك كونراد حالما دخلوا فى حدود مملكة الروم قد

شعروا جيداً بخيانة الملك عمانوئيل فبالحقيقة انه كان مشهداً عظيماً هو اجتماع الملكين كونراد واويس الوارثين المملكة الرومانية القديمة بقوة عساكرهما تحت سناجق الصليب علامة الغلبة والظفر المرتفعة امام اسوار مدينة القسطنطينية رومية الجديدة ولكن مشهداً اخر يتقدم ههنا امام اعيننا تصرف عمانوئيل على انه اذ كان جالساً في تخت قسطنطين الكبير هذا الملك المحتال النبيه الموعب من قلة الاركان فقد اضمر في لبه مهتماً بايجاد الطريقة التي بها يدمر العساكر الصليبية هولاء الجدد ومن الجهة الاخرى الملك كونراد خليفة القياصرة قد احتد بالغضب من خداعات عمانوئيل وتصرفاته ذات البغضة قد قاومها هو ايضاً تعسناً بالمناقضة العنيفة وهكذا مدينتا نيكوبولي وادريانوبولي وما يحوطهما كانت المشهد المحزن القتال للعساكر النمساوية على ان المراسلات حصلت فيما بين كونراد وعمانوئيل بواسطة معتمدين من الجهتين ولكن الخوف وقلة الاركان والخباثة وعدم الاستقامة جعلت تلك المراسلات خالية من ثمرة لان بغضة الروم لم تكف من اضطهاد النمساويين في مسيرهم ضمن حدود مملكة عمانوئيل فقد خلطوا الروم الدقيق المطحون ليباع الى الصليبيين هولاء لعمل الخبز بكمية ليست بقليلة من الكلس الابيض الحاصل نظير الدقيق (فهذا كم من المضرة العظيمة سبب في تلف صحة النمساويين الكلية) والملك عمانوئيل ضرب معاملة كاذبة مشبهة بالذهب والفضة وصير ان يشتري بها من عساكر كونراد الموضوعات جميعها التي كانوا يبيعونها للروم ولما كانوا يريدون ان يشتروا من الروم بتلك الدراهم موضوعات لوازمهم فالروم ما كانوا يقبلونها منهم (كما يورد المورخ اوطون ده دويل) وقد يضاف الى هذه وامثالها ما حدث من النكبات الاخر للنمساويين

كما يقرر بعض المورخين ومن جملتها انه حينما كانت هذه العساكر في سهول ساليفريا غير بعيدين جداً من القسطنطينية ناصبين خيامهم قد حدث عواصف اهوية شديدة وامطار غزيرة جداً قد اضرت المعسكر بانواع مهيلة والمياه القوية التى انحدرت من الجبال بوفورٍ غريب الى النهر الصغير الجارى فى تلك السهول قد نفخته بعزمٍ شديد فخرج عن حدوده وغمر تلك السهول كطوفان عام حتى ان هولاء العساكر صودفوا غُرقى يعومون كانهم فى بحرٍ وعلى هذه الصورة جيوش كونراد دثرت احوالهم بخساير كلية من الناس والموجودات قبل ان يحاربوا اعداهم وهكذا بصعوباتٍ فايقة الوصف وبتلف عظيم امكنهم ان يبلغوا الى حدود الاسيا الصغرى ويدخلوا واما العساكر الفرنساويين الذين بعد ذلك بمدة ايام بلغوا الى نواحى القسطنطينية فقد اظهروا فى مسيرهم لطفاً وقناعةً وفطنةً وافرة ومن ثم حين مرورهم فى بلاد هونكريا قد اقتبلتهم سكانها بمنزلة اخوةٍ لهم ثم انه اذ كانت وقتيذٍ بلاد هونكريا متعوبة جداً بالانقسامات فكثيرون منهم جاوا الى مضرب السلطان لويس السابع مستمدين حمايته من ظلمهم فهذا السلطان الشاب اجابهم قايلاً كونوا في امان لان مسكن السلطان هو نظير كنيسة ورجليه نظير هيكل فيا لها من كلماتٍ عجيبة لايقة استحقاقاً بمن هو جدّ القديس لويس *

فقصاد الملك عمانويل اقبلوا لملاقات السلطان لويس السابع الى ابواب مدينة القسطنطينية ليوقروا قدومه وكانوا من المتقدمين فى البلاط الملوكى الذين انحنوا باتضاع امام عزته مفرطين اياه بالمدايح ولكن الحرارة الفرنساوية قد اتقدت فى قلوب كثيرين منهم ضد هذه المرايات الدنية التى ظاهرها هو غير باطنها

مطلقاً على ان عمانوئيل الخبيث كان في باطن قصره الملوكي يرتجف ممزقاً واما السلطان لويس المملو من الاستقامة وصفاوة القلب فقد اخر مسير عساكره وتوجه من غير ان 'يحاط بنبلا دولته وبقواد جيوشه الى القصر الملوكي فى القسطنطينية وبعد ذلك الاشراف الفرنساوية تبعوه الى هذه المدينة التى مدة ايام اقامتهم فيها كانت اعياد فرح متصلة وقد شوهدوا محاطين من عظما البلاط الملوكي بفخفخةٍ شرقية والملك عمانوئيل الامين فى اتباع نموذجات اجداده للخداعة كان كل يوم يجدد امام الصليبيين دلايل مديح واشواق الخاد، مع اعمالهم الحربية من اجل المسيح (فى الوقت الذي هو فيه، كان يدرس الطرايق التى بها يمكنه ان يدثرهم) ولكن مخاتلته واكاذيبه قد انكشفت لانه قد 'عرف ان هذا الملك كان ممارساً المكاتبة لسلطان ايقونية المسلم ضدهم مبيناً له' حقايق عزايمهم واعمالهم وما امكنه ان يفهمه عن اسرارهم فحينيذٍ كل ما كانت قلوب الاشراف الفرنساويين لذاك الوقت حافظته بالصمت والاحتمال من تصرفات الروم وملكهم قد انفجر بديهاً برجزٍ قوي منهم وفى ديوان مشورتهم 'بعيداً عن انهم يعدون عمانوئيل بان يهبوه المدن المزمعة التى تقع تحت ولايتهم من الداخلة فى حدود مملكته القديمة قد عول رايهم على ان يمتلكوا القسطنطينية نفسها كما ان اسقف لانكراس فى هذه الفرصة تكلم فى الجمعية قايلاً انه لقد آن الاوان لالقاء الضربة الاخيرة ولافتتاح طريق حرّة رحبة الى الاسيا فالروم الذين ما عرفوا ان يحموا قبر المسيح من ايدي الاسلام فلا يحامون باجود من ذلك عن راس مملكتهم هذه بل ان ضعفهم الدنى العديم الشهامة يفتح يوماً ما للاسلام طريقاً سهلة الى بلاد الغرب فلماذا الفرنساويون اذاً

لا يخضعون لولايتهم واقتدارهم مدينةً مثل هذه التى يبان ان الله نفسه يريد يسلمها بايديهم: الاّ انهُ ضداً لهذه اللغة ذات البرودة فى حفظ الرسوم المدنية قد جاءت لغة روح الديانة المستقيمة بما تفوه بهِ بعض الاشراف المتقدمين في هذه الجمعية قايلاً ان الصليبيين ما تسلموا صليب الحرب المقدس بايديهم لكى يمتلكوا لذواتهم مدينة القسطنطينية بل لكى يحاموا عن مدينة اورشليم فان كان الله قد رسم على صدورهم العلامة الخلاصية المقدسة فلم يضع فى ايديهم سيف عدله فهذا الخطاب قد كان نظيره بالفحوي تلى من الحميد الذكر غودافروا ده بوليون فى فرصة مشابهة لهذه حين مرور الصليبيين الاولين من على القسطنطينية فاذاً هذه المرة ايضاً الخطاب المرقوم بلغ مفعوله فى السامعين والاشراف الفرنساويون اجهدوا حرارتهم بقوة استقامتهم واهملوا اخذ بيزانصيا هذه القديمة المشرفة باسم قسطنطين الكبير فى حريتها ☆

واما عمانوئيل المحتال المرتجف خوفاً من الفرنساويين فقد صير ان يشيع فى المدينة اخبار متواترة من كل جهة عن ان النمساويين قد انتصروا على الاسلام بظفر غريب ومشوا ضد مدينة ايقونية مع ملكهم كونراد فتبعاً لهذه الاشاعة عساكر فرانسا ما عادت تحتمل ان يصدها شي عن السفر من جهة القسطنطينية وشرعوا يلومون سلطانهم على طولة اقامته هناك متمرمرين من عدم اعطايه اياهم الاذن بسرعة المسير الامر الذي صير لويس السابع ان يرسم بسفرهم ☆

فتوجه اذاً هذا السلطان بجيوشه الفرنساوية من ناحية البوصفور ودخلوا الى اقليم البتينية واذ جدوا بالمسير قد بلغوا الى ان ينصبوا مضاربهم على شط بحيرة اسكانوس بالقرب من مدينة نيقية

ومن حيث انه فى وجودهم هناك حدث انكساف الشمس فهولاء العساكر اتخذوه علامة ردية عليهم فتكدرت من ثم قلوبهم بمرارة وقد اتفق ان خوفهم هذا يصادف بالعمل وهو ان خبراً محزناً قد ازيع فى معسكرهم جميعه بغتة فى ان الملك كونراد مع عساكره النمساوية قد انكسروا امام الاسلام الذين انتصروا على معسكرهم بمقتلة عظيمة جداً ☆

على ان الملك كونراد مع جيوشه ان سلموا ذواتهم (لجهلهم الطرقات) لامانة الاشخاص الروم الذين ارسلهم اليهم الملك عمانويل ليسيروا امامهم ويدلوهم على السبيل المستقيمة فالمرسلون قد مشيوا قدامهم واخرجوهم من مدينة نيقية كى يبلغوهم الى مدينة ايقونية كانه فى مسافة غير بعيدة ولذلك هم اخذوا لذواتهم ذخاير قوت قليلاً سايرين نحو راس مدن ليكاونيا فقد استمروا مدة ثمانية ايام فى هذه الطرقات وبها نفدت من معسكرهم ذخاير المأكل خلواً من ان يبلغوا الى الاراضى المخصبة السايرة اقدامهم نحوها باسراع وامل وانق وحينيذ عرفوا خيانة الدالولين الخبيثة الذين مكروا بهم واخذوهم من سبيل بعيدة المجال غير مسلوكة عسرة وعرة عديمة السكان والموجودات فقد زافوا بمسيرهم بها مرايرا الوت خاصةً الجوع القتال والعطش المهلك ولكن معرفتهم هذه الخيانة متاخراً عندما الدواليل غابوا عنهم مهملينهم عند جبل طاوروس ما عادت تفيدهم شيأً فمشوا ثلاثة ايام اخر فيما بين اقسام ذاك الجبل بحال يرثى اليها من التعب والمشقات وعدم الاكل والشرب حتى بلغوا الى ابواب المنون فى الوقت الذى فيه الخاين عمانوييل كان اخبر الاسلام سراً بتدبير هذه الطريقة فكمنوا لهم فيما بين تلك الجبال وغفلةً استظهروا عليهم بالوف عديدة من المحاربين فوق

قمة احد الجبال حينما هم كانوا فى الوطا وانقضّوا فوقهم كالصواعق
من كل ناحيةٍ فهولاء النمساويون المساكين الحاصلون فى الضعف
الشديد من الجوع والاتعاب والضناء ما استطاعوا ان يقاوموا هذه
القوة العنيفة (فيقول المورخ اوطون ده دويل) ان العساكر النمساوية
ما عاد ممكناً لهم لا ان يتقدموا الى ما قدام ولا ان يرجعوا
الى الوراء فامامهم موجودة الاعدا والجوع وسلسلة الجبال المجهولة
منهم وورايهم كان الجوع نفسه وخجالة الهرب فاي نعم انه من
الجهة الواحدة كان يمكن لهم ان يجدوا طريقةً منها يؤمل
نوع من خلاصهم الا انه استبان ان لله احكاماً ازلية فى غشاوة
قلوبهم عنها ومن الجهة الاخري حصلوا منتظرين موتاً لا مهرب
منه من غير فايدة لمجد الله ✿

ففى هذه الحال المحزنة هم اعتمدوا على الهرب الى الوراء
بسرعةٍ نحو مدينة نيقيه ولكن الاسلام قد سعوا فى اثرهم فابادوا
منهم بحد السيف العدد الاعظم وذلك في معركات متكاثرة
مدة عدة ايام الى ان امكن القول ان المعسكر النمساوي دثر
بجملته وحسب تقرير بعض المورخين انه من السبعين الف
مقاتلاً المدججين بالاسلحة الفاخرة الذين كانوا برفقة ملكهم
كونراد من اخص عساكر مملكته بالكاد بقى منهم سبعة الاف
فقط ومن جماهير الصليبية الاخرين الفايقى الاحصاء الذى
تبعوه ما سلم منهم الا العشر لا غير والملك كونراد نفسه قد
انجرح بسهمين وفى هربه كان يمر من على تلول من القتلى
مجتازاً فى مجاري الدما وبعجوبةٍ سماوية امكنه ان يفوز بالحيوة
واخيراً بلغ الى مدينة نيقية مرافقاً من عدد قليل من الاشراف
المجرحين ومن العساكر الجزئية المضنوكين من الجوع والشقا كانهم
مدنفون على الموت ودخولهم المدينة المذكورة بهذه الصورة صير

اعين الناس ان تسمع الدموع تيرات من البكاء المر ٭

فاخبار هذه الكسرة التي بلغت الى معسكر الفرنساويين جرحت فوادهم والقت فى قلوبهم القلق والانزعاج ولويس السابع اسرع نحو نيقية ليشاهد شريك المقام الملوكي ويبكي معه على هذه المصيبة العظمى فبلغ اليه (وكقول اوطون المورخ) قد عانق احدهما الاخر بذرف الدموع السخينة التي غرقت وجناتهما واما كونراد فلم ينسب حدوث هذا الشر المهيل الاّ لذنبه هو ولخطايا عساكره قايلاً ان الله هو عادل ونحن هم المذنبون ٭

ثم ان هذين الملكين قد جددا القسم بان يذهبا معاً الى بلاد فلسطين ولكن من حيث ان كونراد حصل مقفراً من الموجودات وعساكره اضحت قليلة العدد جداً فقد ميز ذاته منقسماً مدةً عن معسكر السلطان لويس حيث رجع الى القسطنطينية وهناك الملك الخبيث قد اقتبله بدلايل الفرح على سلامته بعد ان شاهده متضعاً مغلوباً مقهوراً ولم يعد عنده خوفاً على ذاته من بطش هذا الملك السابق ٭

واما لويس السابع الاقل مصاباً فقد اجتاز بعساكره الجهة البحرية وتقدم بمشقات الى عبوره فى مقاطعة فريجيا القديمة فيما بين تلول مقلحلة وطرقات معوجة وعرة تاركاً وراء ظهره بحر مرمرا واليسبون وهكذا الصليبيون الفرنساويون بلغوا الى اراضي برغاما وازمير فمكثوا فى سهول مدينة افسس اياماً حيث تواردت الى لويس السابع قصاد الملك عمانوئيل ولكن سلطان فرانسا هذا اذ لم يلتفت الى مواعيد عمانوئيل كما انه لم يبالي من تهديداته سار بعساكره نحو المشرق وجاء فضرب خيام معسكره فى وادٍ بالقرب من كابسترا (الوادي المدعو الان وادي الغزلان) ففي سهول هذا الوادي الموصوف بمدايح الشعرا جداً عساكرنا

الفرنساوية نصبت مضاربها طولاً وعرضاً وبعد ان احتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح بحسن عبادةٍ قد ساروا بطريق المدينة اللادقية وشددو خطواتهم باسراع حتى بلغوا حدود مياندرا عند فم النهر المنحدر الى ابحر الفم المدعو ليكوس ☆

فهنا يستحضر امام اعيننا مشهدٌ مجيد عن اعمال هولاء الصليبيين الثانين فالاسلام الذين بددوا العساكر النمساوية قد تهياءوا لكى يقاوموا العساكر الفرنساوية عند اجتيازهم هذا النهر والسهول القريبة منه وجبال ترالاس المدعوة الان باللغة التركية (كوزيل حصار) المستولية على تلك المقاطعة فالسلطان لويس اذ استدرك الخطر المبين قد شجع عساكره باقواله ونموذجاته ورتبهم حسناً واستعد للمعركة العظيمة ومشى بالجيوش نحو المحلات المنوطدة فيها الاسلام من دون مبالات لا بصراخات هولاء البربر ولا بالسهام التى كانوا كالمطر يرشقونها على عساكره ☆

فشطوط نهر مياندرا الجميلة صارت شهوداً على الغلبة المجيدة التي فاز بها الصليبيون هناك على اعداء الايمان (فيقول اوطون ده دويل) ان الجيوش الفرنساوية اذ صادفت اخيراً محلاً فيه اجتياز النهر كان سهلاً فقد دفعوا ذواتهم منه تحت رياسة الكونته انريكوس وتاودوريكوس ابن الكونته ده فيلاندرا فعبروا النهر تحت ضرب النشاب المنحدرة عليهم من الاعدا بقوة شديدة وبلغوا باندفاع كلى الى وسط جيوش الاسلام وكذلك السلطان لويس اجتاز النهر وهجم على الاعدا بنوع انه فى كل محلٍ اما ان الاسلام كانوا يهربون من امامه وامام الجنود الشجعان الذين برفقته واما انهم يسقطون تحت ارماحهم وسيوفهم وهكذا الصليبيون من كل جهةٍ زرعوا الاراضى بجثث الاسلام القتلا حتى بلغوا الى سلسلة الجبل ☆

على انه حالما الروسا والخيالة انجزوا اجتياز العساكر النهر المتعالية امواهه من الامطار وضربوا اوايل العساكر الاسلامية بالنوع المقدم شرحه فقد شملت قلوب الاسلام الملتيمين فى تلك الجهات رعدة قوية وجزع الى الموت ولم يعد فيهم نوع من الجراءة والامل بالخلاص الا اوليك الذين امكنهم الهرب من سيوف الفرنساويين وهكذا تبدد معسكرهم بالقتل والادبار مفتشين على حفظ حيوة الباقيين منهم ركضاً نحو الجبال فانتصار الصليبيين فى هذه المعركة الدايمة الذكر قد صار كاملاً وقد شوهدت شطوط نهر مياندرا مغطات من جثث الاسلام المقتولين وحدهم لانه حسب تقرير احد المورخين المعاصرين لم يوجد فيما بين تلك الالوف العديدة المطروحة اجسامهم موتى فى المحلات المذكورة ولا جسم واحد موجود على اثوابه علامة الصليب الا رجل واحد من الشرفا وهو ميلون ده نوجانة الذي فى هذه المحاربة قد قُتل لكن لا بسيف الاسلام بل بمياه النهر حين اجتيازه فيه ثم ان الصليبيين قد سعوا في اثر الاسلام الهاربين بنوع انهم ما تركوهم ان يفوزوا بملتجاء بل اضحوا متبددين فى نواحى مختلفة بعيدة وكثيرون منهم ادركوا مدينة انطاكية وبالاجمال ان هذه الغلبة التامة على الاسلام قوّت قلوب الصليبيين كافةً واعطتهم اموالاً باثمان جديدة مجيدة لاعمالهم العتيدة فى هذه الحرب المقدسة ❁

فاخبار هذا الانتصار قد شاعت فى الامصار واوقعت الخوف الشديد في قلوب الاسلام خاصةً سكان مدينة اللادقية القريبة منهم الذين من زيادة جزعهم اخلوا المدينة وهربوا تاركينها للصليبيين مقفرةً فهولاء الجيوش الفرنساوية ارادوا دوام مسيرهم الغالب خلواً من تاخير ومن ثم انجهوا نحو ساطاليا مجتازين

فى طرقات جبل كادموس العسرة المجال مع الجبال الاخر المخيفة علواً ووديانا ً (كما يقول المورخ اوطون عنها) انها جبال اللعنة فهناك كان معداً للجنود المسيحية خطرٌ مبين لانه ترى كيف كان يمكنهم يحموا ذواتهم فى مسافة طرقات معوجة محاطة بصخور عظيمة وبوديان عميقة (قد وصفها المورخ اوطون نفسه بقوله) ان قمم تلك الجبال يظهر انها تمس السحاب والانهار الجارية الى وديانها يبان كانها منحدرة الى الجحيم ☆

فالعساكر الاسلامية قد ظهروا من نواحى دايرة الجبال القريبة وكان استعدادهم ان يندفعوا على الصليبيين من جهات مختلفة فالسلطان لويس عند ملاحظته هذه الصعوبات المهلكة ارسل امام العساكر بجانب وافر منها عمه الكونته ده موريانا مع جوفروا ده رانكون امير تيلامبورك ولكن هولاء عوضاً عن ان يسيروا بموجب ما رسمه عليهم السلطان وينتظروا وصول باقى العساكر اليهم تحت امر القايدين المذكورين قد مروا من دايرة الطرقات بين الجبال وحرروا الملك من الاعدا وضربوا خيامهم على حد النهر القاطع عن الجبال فانقسام الجيوش بهذا النوع الى قسمين متوسط فيما بينهما الجبال صار علة لخسرانهم لان الاسلام اغتنموا فرصة هذه القسمة فانقضوا على الباقين فى الجبل بصرخاتٍ مهيلة راميهم بالنبال نظير البرد فالمساكين فى هذه الحال التجاوا الى حماية قمة جبلٍ تحتها وادٍ كلى العمق الا ان الاسلام ومعهم النصاري الروم قد ضايقوهم من كل ناحية ولذلك فى كل برهة كان يتكردس من عساكرهم فى ذاك الوادي امتعة وبهايم ورجال ايضاً وكل خطوةٍ من مسيرهم فى الجبل كانت غير خالية من مضرةٍ لفقد اناسٍ منهم (فيقول المورخ المذكور عينه) ان مسيرهم كان بالبكاء الدايم على فقدان ارفاقهم

وهكذا ازهار اعمال الصليبيين هولاء قد سقطت قبل ان تعقد اثماراً فانا نظراً الى ذاتي اقول انني كدت اختنق من البكاء عند كتابتي شرح هذا الحادث وصرت اندب تحت انين تفكري به ولكني تعزيت عند تاملي ان تاج الاستشهاد هو مكافاة شديدة الحلاوة معدة لاستحقاق هولاء الصليبيين السعيدي الحظ ✱

واما السلطان لويس ففي هذا اليوم التعيس قد اظهر شجاعته العجيبة وسمو فضيلة تقواه كونه تناسى حياته الخصوصية لكي يسعف شعبه في ذاك الخطر لانه هجم على جماهير الاعدا في وسطهم وبقوة غريبة فرق جموعهم وبذلك اعطى النسلحة لعساكره بان يهربوا مخلصاً كثرتهم اخيراً بهذه الطريقة الا ان هولاء الصليبيين قد فازوا بانفسهم وتركوا سلطانهم مع الخيالة الاشراف لقساوة الاعدا واما غفر العساكر الاخير فقد استحقت به خساير في كل برهة وجوق العسكر الذي كان مع السلطان قد باد جميعه الا من فاز منهم بالهرب والسلطان نفسه لم يتخلص من الموت الا من شدة رجوليته النافذة الانغلاب لانه اذ كان محاطاً من الاعدا الكثيرين ومن جثث جماعته الاعزا جداً على قلبه قد حفظ شجاعةً لا يمكن وصفها مجاهداً محارباً بعزمٍ غريب فقد سلم ذاته للموت ولكن اراد ان لا يبيع حياته بثمن قليل ومن ثم كان يعارك اعداه كاسدٍ كاسر الى حد نهاية النهار ودخول الليل واخيراً بقي هو كانه وحده فصعد الى شجرةٍ ومنها الى صخرةٍ كبيرة جداً ولما لحقته الاسلام الى هناك فهو قاوم قوتهم الشديدة ساعاتٍ متحصناً بتلك الصخرة كانها برجٌ محمياً ذاته مستتراً بترسه من رشق نبال الاعدا وبسيفه كان يضرب الصاعدين الى الصخرة فالاسلام استوعبوا انذهالاً من صمودية هذا الانسان بشجاعةٍ لا شاهدوا ولا سمعوا عن مثلها

فاخيراً تركوه ليسعوا وراء غنيمة اكثر سهولة فبعد ذهابهم نزل السلطان من تلك الصخرة وركب فرساً سايبة لا صاحب لها وسار تايهاً مدة ساعات غير عارف سبيل وغب ذلك وجد طريقاً مبلغة الى معسكره فاتبعها ولكن كم كان فرح الصليبيين عظيماً عند مشاهدتهم سلطانهم الذي كانوا اعتدوه مقتولاً مع الاخرين او قلما يكون اسيراً بايدي الاعدا فهذا الفرح انساهم وقتيذٍ ما اصابهم ☆

فهولاء العساكر الذين فقدوا اخص الرجال الجهابذة وعدموا ذخاير القوت وخسروا الجانب الاكبر من موجوداتهم قد اخذوا مسيرهم معارضةً في البلاد الجبلية المتصلة المقفرة ومع ذلك كانت الاسلام حيناً بعد حين يظهرون عليهم وهم كانوا يلتزمون بالمحاربة عن ذواتهم ما عدا صرامة الطقس الشتوي ونقص القوت من عندهم غير انه في هذه الحال قد فازوا اكثر من مرةٍ واحدة بالغلبة على الاسلام واخيراً بعد مسيرهم مدة اثنى عشر يوماً بالاتعاب والمشقات والجوع والموانع الخطرة والمحاربات قد بلغوا الى اسوار مدينة ساطاليا الكاينة في جهة بامفيليا عند فم نهر جاستينوس فالصليبيون عند مشاهدتهم هذه المدينة ظنوا انهم بلغوا الى ما فيه يجدون راحتهم عند اخر مضراتهم غير ان والي المدينة الرومي الحاكم هناك باسم عمانوييل قد رفض ان يفتح لهم ابوابها فهولاء المساكين الذين كانت تظهر عليهم صورة الموت من الجوع والعري والاضامات الاخر قد نظروا ذواتهم ملتزمين بان يستمروا في البراري في حالهم الحاضرة غير ان الوالي اذ فهم شدة التمرمر الصاير ضده وخشي بالصواب من ان هذه العساكر المويسين يضربوا المدينة فقد ارسل يعد السلطان لويس بان يهيي هو له مراكب لينزل فيها عساكره وهي تنقلهم الى

مدينة انطاكية ولما قبل منه ذلك هم انتظروا مجي المراكب بخمس سبات ولكن من حيث ان المراكب وجدت غير كافية لاخذ جميع الصليبيين فاضيف الى مصايبهم الثقيلة هذه ايضاً وهي التزامهم بان ينقسموا مفترقين ضرورةً فيما بين البر والبحر قسمين فالقسم الواحد نزل في المراكب والاخر بقى على الارض مع السلطان على ان هذا الملك الملو حنواً قد انزل في المراكب جميع المرضى والفقرا قايلاً نحو الاشراف انه نظراً الينا فلنحن نضاعف في ذواتنا الشجاعة ونسير في الارض التي سلكها قبلنا اباؤنا الذين ملكوا انطاكية واورشليم فطالما يوجد باقياً عندي شي من المال والموجودات فانا اقسمه بيني وبين ارفاقي وحينها اصير فارغاً من كل شي فمن تراه منكم لا يحتمل نظيري ومعي الفقر والاضامة ❊

الا انه اخيراً هو اجابةً لتوسلات الاشراف المتقدمين ارتضى بان ينزل مع الذين في المراكب وكما انه قبلاً كان وزع اخص خزنته على العساكر المعوزين كذلك في سفر البحر لم يكف عن اجتهاده في ان يعزي المضنوكين ويشجع الضعفا ويفرج ضيق المحتاجين الى الفضة وقد اقام الكونته ده فلاندرا تياري مع ارشامبود ده بوربون ريسيين على العساكر الذين ساروا في البر نحو انطاكية ثم انه دفع الى حاكم مدينة ساطاليا خمسين وزنة من الفضة لكي يهتم في المرضى والمجروحين ويبلغ عساكر البر الى طرسوس من طرقات كيليكيا وهكذا هو سافر في البحر مع قرينته السلطانة وخواص دولته ليس من دون ان يردف الدموع لاجل مفارقته العساكر المتعوبين السايرين في البر على شط البحر ❊

غير ان دواهي اخر كانت معدة لهولاء العساكر البرية من

جهة الروم على ان حاكم ساطاليا الملتزم كمواعيده واخذه الاموال من السلطان لويس بان يهتم فى سفرهم مرافقين بجماعة من قبله وفى تقديم الذخاير اللازمة لمعاشهم فقد خان العهد والذمة واهملهم ان يسيروا هكذا معدومين الوسايط معوزين من القوت كما ان الاكثرين من المرضى والمجروحين قد ماتوا تحت اسوار المدينة وفى طرقاتها ثم ان جانباً من العساكر قد ارادوا ان يموتوا بشهامةٍ ومجدٍ فهجموا على معسكر الاسلام الضارب خيامه بالقرب من تلك الجهة وحاربوهم كمويسين فصادفوا فى المعركة ميتةً اشرف ممن يموتوا فى الطرقات (وقد اوضح تاريخ هذا الحرب ان الروم ذاقوا اجرة قساوتهم من دون تاخير) على ان الهواء قد فسد من نتانة الجثث التى انزرعت من المساكين الموتى الصليبيين حول مدينة ساطاليا فسبب امراضاً وبايئة قد افنت عدداً وافراً من سكانها واوعبتهم قلقاً وضراً عظيمين (فيقول المورخ اوطون) ان الله قد لعن مدينة ساطاليا وكردس اهلها بالموت عاجلاً حتى ان عدداً كلياً من بيوتها اضحت فارغة من انسكان والذين منهم بقوا فى الحيوة اذ اخذتهم الرعدة والجزع ونجوا من ذاك الحادث اهملوا المدينة ذاهبين الى محلات اخر *

ثم بعد مدة عشرين يوماً بسفرٍ بحرى متعب جداً بلغت المراكب الحاملة السلطان ومن معه الى فم نهر العاصى الداخل فى البحر بالقرب من انطاكية الى حد اسوارها فامير انطاكية رايموند ده بواتيارس قد اقتبل سلطان فرانسا هذا باحتفالات واحترام وفرح كلى وصنع عيداً ملوكياً بالمسرات والابتهاج وقد تلالات فى ايام ذاك العيد صفات السلطان بما يليق بهِ وتفخمت محاضر السلطانة قرينته مع نساء اخر شريفات ذايعات الصيت حسناً ومعنى بالصفات الطبيعية والادبية وفيها بينهنَّ قد كانت

بنوع اخص زوجة الدوكا ده بوليون اما الامير رايموند ده بواتيارس فاذ كان غيوراً بان يتحد مع الفرنساويين ويحاربوا الاسلام جهة نهري الدجلة والفراة فقدم الراي للسلطان لويس بان يحاصروا جملةً مدينتي حلب وكيسارية من حيث ان امتلاك هاتين المدينتين العظيمتين كان يوكد الامان والراحة والنجاحات للغربيين المتوطنين في المشرق الى ازمنة مديدة جداً ويقطع عنهم خطر حروب جديدة ويضعف قوة نور الدين امير الاسلام غير ان نبلاء الفرنساويين قليلاً اعتبروا براهين رايموند كما ان سلطانهم التقى اضحى قليل الصبر عن سرعة سفره الى اورشليم لاتمام زيارته ذات العبادة وذلك اراد هو قبل كل شي ان يسافر نحو بلاد فلسطين ويزور الاماكن المقدسة ويستعطف الحنو الالهي نحوه بتقبوله منه ايضاً نذره امام قبر المسيح المقدس ❊

فاذاً لويس السابع غب اقامته في انطاكية اياماً قليلة قد اجهد مسيره نحو اورشليم وعندما قرب منها تقدمت الى ملاقاته اجواقٌ من الاكليروس والامرا والاشراف والشعوب حاملين اغصان الزيتون هاتفين باصواتٍ بهجة : اوصانا مبارك الاتي باسم الرب : وهكذا سلطان فرانسا هذا دخل المدينة المقدسة فيما بين هتافات المسرة واستقبالهم من المسيحيين اجمعين في كل خطوةٍ وذلك سنة ١١٤٧ (وكقول احد المورخين) ان الفرح اوعب قلوب الجميع وهذا السلطان استقبل كانه ملاك الله في هذه المدينة المقدسة التي يوماً ما دخلها احتفالياً سلطان السلاطين فتصرف الشعوب هذا الاحترامي التقوي قد انسى في ذلك الحين لويس السابع اقامات اسفاره والشدايد والخساير التي هو تكبدها وافكارٌ عذبة لذيذة حينيذٍ استحضرت امام مخيلته وكان هو الاول من سلاطين فرانسا الذي بلغ حتى اورشليم افهل انه

كان ممكناً ان الاله الازلى لا يبارك معسكر سلطان قد اجتاز البرور والبحور فى مسافة هكذا شاسعة تحت اخطار واهوال واضرار لا توصف بكفاية كما حدث لهذا الشاب الحسن الديانة ❁

ثم انه نحو الزمن عينه قد اقبل الى اورشليم ملك اخر من ملوك الاوروبا بصورة زاير بسيط وهو الملك كونراد المصاب بالمحن مرافقاً من بعض انفار من الشرفا فضلة معسكره العظيم لانه قد كان سافر من القسطنطينية فى بعض مراكب هياها له الملك عمانوييل فهذان الملكان كونراد ولويس اجتمعا هناك بعد كلما الم بهما باكياً كل منهما مع الاخر عدا احاق برعاياهما الصليبيين وبهما فى هذه المسافة ثم توجها معاً الى كنيسة القيامة وسجدا باتضاع عميق وحسن ديانة لعود الصليب الكريم محنيين عنقيهما امام ذاك الذى بيده نصيب الملوك والشعوب ❁

فسلطان اورشليم بودوين الثالث غب ما كان قدمه من الاكرام ودلايل المسرة بقدوم هذين الملكين الى سلطنته . قد كان شديد الرغبة فى ان يبتدى بحروب جديدة ضد الاسلام ومن ثم قد صار الاهتمام بعمل جمعية احتفالية فى مدينة عكا . وفيها حضر الملك كونراد والسلطان لويس والسلطان بودوين واشراف ونبلا وروسا كنايسيون كثيرون وهناك تم الاعتماد على انهم يحاصرون مدينة دمشق الشام . لانه اذا فاز الصليبيون بان يستولوا على هذه المدينة الغنية وايلتها المخصبة فلم يعد عليهم خوف من حروب جديدة تتعبهم بها الاسلام وهكذا مدينة اورشليم تعود هادية مرتاحة تنمو نصارتها مزهرة بدون قلق اذ تصير محمية بهذا الحصن المنيع الذى يضحى فاصلاً فيما بينها وبين غزوات اعدايها الاسلام فمن ثم فى هذه الجمعية رسم ترتيب الامور وتجهيز الذخاير

واللوازم لهذا السفر الحربى . وفى شهر ايار سنة ١١٤٨ نفسها مشى هولاء الثلثة سلاطين بالعساكر المسيحية متقدماً امامهم البطريرك حاملاً الصليب الخلاصى الحقيقى حيث اجتمعوا كافةً فى مدينة طبارية كما ان الرهبان الهيكليين مع رهبان القديس يوحنا المعمدان المحاربين قد جهزوا هم ايضاً ذواتهم وساروا مضافين الى هذا المعسكر ثم تقدموا الى بانياس واجتازوا جبل الشيخ المحادد جبل لبنان واخيراً وصلوا الى سهل دمشق ✽

فهذه المدينة الكاينة وراء زيل جبل لبنان فيما بين قرى وحقول مخصبة بعيدة عن اورشليم مسافة خمسة واربعين ليكه قد كانت وقتيذٍ الاغنى والاوسع والاجمل فيما بين مدن المشرق وكان لها الرياسة على قبايل الاسلام كلها التى فى سوريا وكانت هى محصنة جداً حسب الاقتضاء لانه ما عدا اسوارها المنيعة المشيدة من ناحيتى المشرق والقبلى قد كانت محاطة ببساتين وجناين ذات حيطان مرتفعة فاصلة بطرقاتٍ بعيدها عن اسوارها ومستخدمة لزيادة تحصينها وحمايتها وقد كان وقتيذٍ المتولى حكم هذه المدينة راساً على عساكرها امير الاسلام ايوب المحارب الصنديد مقدام الدولة الايوبية واصلها وكان لهُ ابنٌ شاب اسمه صلاح الدين محارباً تحت تدبيره ولم يكن يوجد اشد بغضةً واقوى مغازياً ضد المسيحيين من هذا الشاب بين امرا الاسلام كلهم ✽

فالاسلام حينما تحققوا قدوم العساكر الصليبية الى قرب مدينتهم هذه قد تمكنوا حالاً بدايرة اسوارها وحيطانها وبساتينها ما عدا العساكر التى ضربت خيامها فى الجناين وبين الحصون وهكذا من الابراج والحيطان العالية مع الاسوار طفقت نبالهم ترشق كالمطر ضد الصليبيين من حيث ان منافذ الاسوار والحيطان على طول الطرقات قد كانت تعطى ميداناً سهلاً لرمى نشاب اهل

المدينة على محاصريها فى الوقت الذي فيهِ هم مصانون بالحيطان والمرامى فيصيبون بدون ان يصابون ولكن مع وجود هذه الموانع العظيمة كلها الجيوش المسيحيون ما ضعفت شجاعتهم بل بالخلاف قد ضاعفوا شجاعتهم وجهادهم وهدموا السياجات وبعض حيطان البساتين والزموا الاسلام بالهرب منها لان نمونجات الرجولية التى تمارست من لويس السابع ومن كونراد قد جذبت العساكر كلها لاقتفايها لان هذين الملكين قد ضربا وبددا طغمةً من خيالة الاسلام قد كانوا خرجوا من المدينة بقوةٍ شديدة ليمنعوا عساكر النصاري عن ان ينصبوا متاريسهم فى جهة المدينة الغربية مقابل السور الغربى فكسراهم والزماهم بالهرب راجعين داخل المدينة ثم بعد ذلك الملك كونراد فى الحادث الحاضر جدد ما كان تم في احدى حرابات العساكر الصليبية الاولين اي انه اذ كان احد المقاتلين الاسلام من داخل دمشق معتزاً بذاته وقوته وكبر جسمه كانه احد الجبابرة طلب ان ينزل فى حومة الميدان ويعارك من يختاره قايد النصاري فنزل امامه الملك كونراد نفسه وعاركه فضربه بسيفه ضربةً واحدةً قسمه بها قطعتين مجندلتين فى الارض الامر الذي اوقع الخوف والجزع العظيمين فى قلوب الاسلام باندهالٍ كلى من شجاعة الصليبيين وقوة باسهم الغريبة وهكذا الجيوش المسيحية الغالبون توطدوا ضمن البساتين والحقول بكل راحةٍ مضايقين الحصار عنيفاً ❊

فالصليبيون في هذه الحال اعتدوا انتصارهم اكيد والمدينة كانها اضحت تحت حوزتهم بدون تاخير لانه من ناحية المغرب ما عاد للمدينة حماية الا ما ضعف جداً واستبان انه على اول مضايقة جديدة كان يحصل تسليم المدينة لاسيما لان الخوف قطع قلوب سكانها والاسلام التجوا فى الجامع الكبير يطلبون من

الله الرحمة ولكن دمشق لم تكن وقعت تحت الجهاد الاخير لافتتاحها بل ان خلاصها اتٍ من قبل الانقسام الذي صدر فيها بين الصليبيين لان مخاصمة شديدة كحرب جنسية تولدت فيها بين روسا العساكر اللاتينيين بخصوص اخذ التملك على هذه المدينة المحسوبة ساقطة بايديهم اى تحت ولاية من منهم تكون ففي دوام هذه المناقضات على الفور صار الاعتماد على راي غريب وهو نقل العسكر الى ناحية المدينة الشرقية المحل القحل العديم الافادة ومقابل جهة المدينة الاشد حمايةً والاقوي حصناً بابراج عالية وباسوار متينة فقد قيل ان انتقال العسكر الى هناك قد صار بمشورة احد الاشراف الذين من سورية تبعاً لاتفاق سري بالبرطيل الامر الذى اتلف اعمال الصليبيين الاولى المتقدم شرحها النكاية الفاعلية واضحي للاسلام دليلاً لخلاصهم ✫

ثم من جهةٍ اخري قد جاء عشرون الف محارباً من الاكراد والتركمان داخلةً الى المدينة وتحت اسوارها مع التاكيد بان امير حلب وامير الموصل كانا قادمين بعساكر قوية لاسعاف اهل دمشق فهذه الاخبار اضعفت شجاعة الصليبيين جداً الذين ضيعوا الايام السابقة بخصوماتهم الردية وانقسامهم الكلى الضرر وما عاد فى اياديهم رجوع تلك الفرصة التى بها خلواً من شك لكانوا ملكوا المدينة فبعد ان مارسوا بعض امتحانات اخر ولكن من دون اتحاد بالقوة وبالعمل بل كلٌ من عظماً اوروبا ومن امراء سورية كان يحارب مع جماعته فى وقت فقد اعتمدوا اخيراً على ترك الحصار والرجوع عن دمشق كما قد تم ✫

ففي ديوان المشورة البعض من المتقدمين ارتاوا بان نحاصر مدينة اسكالون ولكن تدبير هذه الحرب الجديدة ما قبل من الجمعية لان الاتعاب والاختلافات ازالت من قلوب الصليبيين

عزايم الرجولية وكلٌ منهم ما عاد يفتكر سوى فى ان يرجع الى محله فالملك كونراد سافر عايداً الى الاوروبا وهذا الملك الذي لم يكن ذا حداقةٍ رفيعة قد ادثر ذاته من قبل ضعف رويته وعدم كفايته فى التدابير السامية ومن علة اعتداده الزايد فى ذاته . واما السلطان لويس السابع المملوا من القسط وصفاوة القلب والنباهة والصفات الحميدة فقد اظهر غيظه العادل من تصرفات العظما المسيحيين امام اسوار مدينة دمشق واذ ان هذا السلطان الشاب الذى قد كان حقق بالعملية فى احوال مصايبه المحزنة وتسليم ذاته بشجاعةٍ للاستشهاد مع رجوليته العديمة الانغلاب فى معركات الحرب قد وجه اخيراً نظره نحو وطنه الذي تغرب هو عنه ممتحناً فى نفسه المكره من الحوادث والمراير من الظروف فهكذا سافر نحو بلاد فرنسا غب اقامته فى اقليم فلسطين مدة نحو سنةٍ خاصةً لان رسايل وكيله الملوكى الانبا سوجار كانت متواصلة اليه بطلب رجوعه الى تخت سلطنته ✿

فلما وصل هذا الملك الى باريس اظهر المديح والنعوت المجيدة لامانة وكيله وفضايله وحسن اخلاقه وملاحظة الامور قبل حينها وحفظه فى غيابه المملكة من الاشراك التى نصبها لها اعداوها وقد ابتهج قلبه عند تاملة وجود الامان والصلح والنجاحات وحسن الترتيب الذي اوجده فيها هذا الوكيل الموعب تواضعاً وحكمةً الذي حينيذٍ هو ونبلا فرانسا انطرحوا على قدمى سلطانهم هذا الجليل معترفين بافضاله عليهم ومسمين اياه بلقبٍ مجيد وهو . اب عام الوطن والطايفة ✿

ولكن عندما مملكة فرانسا فتخمت بالتقريظات المجيدة تصرف الانبا سوجار الذي هو وحده كان مضاداً دايماً قضية الحرب المقدسة فترى كيف اضحى حال الانبا برنردوس المنذر

العظيم بها اوآه ان هذا الاب البار قد كان خجلاً كأيباً موعباً مرارةً مما حدث فى هذه الحرب ومن التمرمر والتقريعات والملامات التى اتجهت ضده من كل قطر ومن ثم هو بكل اتضاعٍ عميق وتضرعات حارة مع سكب الدموع كان يلتمس من الله ان يمن عليهِ بكشف غوامض احكامه التى من اجلها احاق بالصليبيين هذه المرة الدثار فضلاً عن عدم الحصول على الغاية التى سافروا لاجلها فالباري تعالى اظهر له العلة وهى الماءثم التى ارتكبها الحاملون على صدورهم الصلبان المقدسة فى مسيرهم نحو بلاد فلسطين (خاصةً الامور المضادة الطهارة التى المورخون انفسهم قرروا بها الشهادة) فهذا القديس نفسه فى احدى الرسايل التى كتبها تبريراً لذاته يبين ما كان محيقاً به مراير الغم والكآيبة وما اوعب قلبه خوفاً من احكام الله الغامضة ضد الخطاة قايلاً هكذا „ونحن نعلم ان احكام العدل الالهى هى عديمة الادراك منا وهذا هو امرٌ كلى العمق ومغبوطٌ هو الانسان الذي عند تامله اياه لا يجتنى لذاته منه شكاً „

ثم بعد ذلك اذ ياتى هو بذكر الماءثم التى دنس بها الصليبيون ذواتهم قال بحرارة ايمانه هذه الالفاظ وهى „ان الرب قد غضب مسخطاً وقد مسك رحمته جانباً متنحيةً لكيلا يسمع الا صوت عدله فقط بالانتقام لانه هو هكذا اعلن مكتوباً عن العبرانيين الذينَ موسى كان من قبل الله انذرهم مبشراً بان يدخلهم الى الارض التى وعدهم بان يملكهم اياها انهم جميعاً قد بادوا فى مسافة سفرهم من مصر اليها ولم يدخلوها لان ذنوبهم قد اهانت الله اسرائيل „ *

الفصل الثالث

في حصار مدينة اسكالون وفي اموري الوريث وفي بودوين الرابع سلطان اورشليم وفيما يلاحظ امير الاسلام صلاح الدين وفي الحرب الحادثة عند طارية ثم في سقوط مدينة اورشليم تحت ولاية صلاح الدين

انه عند ما رجع الى اوروبا كونراد والسلطان لويس السابع بقيت الاراضي المقدسة موكولة على حماية المسيحيين المتوطنين في المشرق خلواً من محامٍ اخر غيرهم ومن ثم الاخطار التي كانت تتهددهم بالسقوط فيها اضحت يوماً فيوماً متعاظمة وقريبة لان الاسلام في كل جهةٍ ومن كل قبيلةٍ كانوا يمارسون اهتماماتهم في ان يلاشوا من المشرق تملك المسيحيين ولكن فيما بين امرايهم وروسايهم لم يكن يوجد رجل مخيف مهيل شديد الباس بغيض النصارى بمقدار ما كان الامير نور الدين ابن زانكوي الذي كان ملك امرية الرها بالانواع الموردة في محلاتها فهذا الامير ورث عن ابيه جودة العقل السامية والشجاعة الفريدة وكان هو من اعظم الرجال المولودين في الديانة المحمدية ومن حيث انه اهتم في نجاح العلوم والبراعة في الفقه والامور المروضة العقول واجتهد بنوع اخص في ان تزهر داخل حدود ولايته الاستقامة والعدل والامنية فمن ثم رعاياه كانوا كانهم عابدونه لاسيما لاجل حلمه وشهامة نفسه وقناعته وسخايه وبنوع اخص لاجل ملاحظة الاسلام فيهِ الغيرة المتقدة بالمحاماة عن ديانتهم التي هي ديانته وبالمحاربة الشديدة لكل من

هم خارجون عنها كما ان النصاري انفسهم كانوا يطنبون المديح بشجاعته الجهبزية وبالتالى كان هو يوميا" يزداد نموا" فى امتداد ولايته وبطشا" فى قوته وكانت ملاشات نملك المسيحيين من الاسيا تبان انها مزمعة ان تصير هى قيمة عنايته وثمرة اقتداره ✿

ثم ان اهتمامات الحبر الرومانى فى تحريكه غيرة المومنين الغربيين جديدا" نحو مساعدة اخوتهم الذين فى المشرق قد ذهبت سدىً لان ذكر الدثار الذي اكتنف الصليبيين فى الحرب المقدسة الثانية المقدم شرحها كان لم يزل حيا" فى عقول الجميع ومن كون الاكليرس والاشراف كانوا بعد يانون تحت ثقل الاضرار التى اصابتهم من مصاريف الحرب الاخيرة المذكورة فلم يريدوا ان يطوحوا فى اخطار الابادة جماهير جديدة من صليبيين اخرين عاجزين عن القيام بانقالهم وكذلك القديس برنردوس كان رجع الى سيرته الرهبانية بالنسك ضمن ديره وهكذا صوته العظيم الذي قبل زمان غير بعيد كان جذب الى مقصد انذاره قلوب الشعوب قد خُفى وقتيذٍ في سكوت القانون الرهبانى ✿

فلنعودنَّ نحو بودوين الثالث سلطان اورشليم المزين بالشجاعة الصنديد فى الحروب فهذا من قبل ملاحظته امتداد سطوة الامير نور الدين وتعاظم قوته قد اجتهد هو فى ان يضعفه بمواصلة محاربته اياه وقد كانت عساكر المسيحيين فى تلك المحاربات تارة" تنجح وتارة" تخسر فاخيرا" اعتمد هذا السلطان على امتلاك مدينة اسكالون الغنية التى قبلا" حوصرت مراتٍ ولبثت حرة" بايدي الاسلام حصنا" منيعا" لهم من جهة البر المصري ضد بلاد سوريه ولهذا قد جمع هو قوة عساكره من كل البلاد الخاضعة لولايته والجميع من الاشراف والمتقدمين كما من الاكليروس قد طاعوا صوته والتيموا تحت سنجقه بقوة شديدة وبطريرك

اورشليم حمل صليب الرب وسار امام العسكر فامتلاك هذه المدينة الذي في تاريخ الحروب المقدسة لهُ اسم عظيم جداً قد صور امام تلك العساكر المسيحية صعوبات كلية شانها ان تبدد الشجاعة الرجولية الاشد فعلاً على ان مدينة اسكالون هي مشيدة باستدارة في سهل واسع على شط البحر المالح محصنة بابراج عالية وباسوار متينة جداً وقد كانت فايزة بالذخاير وبجميع المعونات والوسايط القوية لحمايتها وحفظها وكان جميع سكانها محاربين اقويا ساهرين غير موفرين شي عما هو مفيد لزيادة وقايتها من مصادمات الاعدا وعنايتهم موازية شجاعتهم ثم لكيلا يحدث لهم ان يباغتوا من كمين في ظلام الليل قد كانوا في اعلى كل من الابراج معلقين عدداً وافراً من المصابيح داخل منارات من زجاج الا ان العساكر المسيحية من جهتهم قد اجتهدوا في ان يجعلوا هذه الاستحضارات كلها خايبة من افادة للاسلام ثم ان معسكر السلطان بودوين كان متبوعاً من خمسة عشر مركباً حربياً اتية الى جهة اسكالون البحرية تحت رياسة جيراد ده صيدون والعساكر البرية ركبوا الات حرب فويه امام اسوار المدينة المذكورة من كبوش ومنجنيقات وبراج خشبية وفيها بينهما كان برج مركب على دواليب بعلو شاهق جداً سهل النقل من مكان الى اخر بحذا الاسوار ذو كبر عظيم كان يظهر كانه قلعة غليظة جداً مهيلة وقد أُضيف الى ذلك ان عدداً وافراً من جموع صليبية تواردوا من المغرب بحراً الى مُين عكه وحيفا ويافا اتين مقدمين ذواتهم لمسعفة عساكر اورشليم كما ان مراكب اخر اقبلت من اوروبا وانضافت الى العمارة الحربية التي كان تدبيرها بيد جيراد ده صيدون ✿

ولكن تحصينات مدينة اسكالون الكلية صيرت جهادات الصليبيين

محصورها مدة خمسة اشهر باتعاب شاقة ان تمضي خلواً من ان يشتلحوها غير انه فى الوقت الذي فيه سكانها حصلوا مويسين من انهم يقدرون ان يثبتوا ازمنةً اخر بالمناضلة العديمة الفايدة عنها لحال ضعفهم بعد المدة المذكورة ولشدة قوة المحاربين النصاري براً وبحراً ففية نفسه اقبلت الى شطهم العمارة المصرية مولفة من سبعين مركب فالاسلام عند مشاهدتهم اياها من داخل اسوار المدينة قد رجعت ارواحهم اليهم وتضاعفت شجاعتهم التى كانت تلاشت ولكن هذه القوة الجديدة التى ابهجتهم ما اثرت فى قلوب الصليبيين ادنى نوع من الخوف ولا اوهت عزايمهم الرجولية بل انهم من البرج النقال المقدم ذكره وبواسطة الات حربية اخر كانوا يرمون اهل المدينة بمواد ثقيلة مضرة اياهم فى الغاية فلما الاسلام استوعبوا رجزاً من مضايقتهم ومن الخساير التى آلمت بهم درسوا الامتحان الاخير فى دثار الجيوش المسيحية الذين كان فى معسكرهم فى محل موجودة فيه كمية عظيمة المقدار من الاخشاب والحطب فالاعداء ولفوا اجزاء كثيرة من المواد المحرقة واضرموا فيها النار والقوها من فوق الاسوار باندفاع شديد كلها معاً فوق تلك الكميات والالات الخشبية فاتقد فيها الحريق المهول جداً الذي استدام مدة اربعة وعشرين ساعة (ولكن يقول المورخون) انه بعناية من الله تغير الهوا وقتيئذٍ منقلباً بضد ما كان بنوع ان لهيب النار المرتفع جداً عوضاً عن ان يتجه ضد البرج الخشبي العظيم وضد غيره من الات الحرب قد اتجه بانقلاب ضد المدينة بقوة الهوا وهكذا شقة واسعة من سورها فوخرت احجارها كالجير من شدة النار فاندكت مهدومة بالتمام الى اسفل واعطت ميداناً واسعاً لدخول الصليبيين منها الى المدينة ولقد كانت العساكر امتلكتها فى ذاك النهار

عينه لولا يوخر الفوز بالغلبة حدوث مغايرة قوية فى المعسكر المسيحى وهى ان الخيالة الذين من جمعية الهيكليين اذ قد كانوا فى مدة هذا الحصار مارسوا اعمالاً سامية فعالة من الرجولية الصنديدية فقد ارادوا ان يدخلوا وحدهم الى المدينة ليس فقط بالفوز باسم الانتصار لذواتهم بل ايضاً لاكتساب الغنايم الغنية بالنهب فعند دخلتهم شاهدت الاسلام عدم كثرتهم فانقضوا عليهم كمايسين وضربوا البعض منهم طارحينهم فى الارض والزموا الاخرين بالهرب خارج السور المهدوم فتصرف هولاء الخيالة الردي سبب انكسارهم الذى اوقع فى قلوب المعسكر المسيحى كله الجزع وزوال الشجاعة ✿

فهذا الخوف والكدر اللذان الّما بالصليبيين صيّر البعض من المتقدمين ان يرتاي برفع الحصار وبالرجوع عن المدينة غير ان الروسا مع البطريرك رفضوا هذا الراي واتفق صوت ديوان المشورة على تجديد الحرب فاذاً في اليوم الثانى وجدت الجيوش المسيحية فى المتاريسات والابراج الخشبية بشجاعة جديدة مشددين الحصار وقوة الحرب بنوع ان الاسلام اختبروا فى ذواتهم ذاك اليوم مضراتٍ عظيمة وخسايراً باهظة فالتمسوا من النصاري مهلةً بها يقدرون ان يدفنوا موتاهم القتلا فنالوها ولكن قلوبهم خفقت جزعاً وصاروا مويسين من الخلاص ومن حيث ان الاضرار التى احاقت بهم الى ذاك الحين بانواع كلية والاضرار العتيد حدوثها لهم فى الايام المقبلة قد استحضرت امام عيونهم مع الظروف الاخر التى اقنعتهم بان الله حكم بتسليم هذه المدينة لايدى النصاري فقد اعتمدوا اخيراً على ان يخلوها لهم مبتعدين عنها فايزين بحفظ حياتهم وليلا يدفنوا هم ايضاً نظير ارفاقهم القتلا ضمن جدرانها فمن ثم ارسلوا قصاداً من قبلهم الى المعسكر المسيحى لكى يرتبوا الشروط على تسليم المدينة

فالصليبيون اقتبلوا القصاد بكل فرحٍ وارتضوا معهم بمنحهم اياهم مهلة ثلثة ايام فقط بها يخرجون من المدينة بحريةٍ واماناخذين صحبتهم موجوداتهم خلواً من معارضة كما قد تم وفي اليوم الرابع حالاً انتصب بيرق الصليب فوق اسوار اسكالون والجيوش المسيحية دخلوا امنيين بزياحٍ احتفالي معترفين بان امتلاكهم اياها كان هبةً خصوصية من الله لا من قبل اعمالهم وقبل كل شي كرسوا الجامع الكبير كنيسةً للاله الحي على اسم القديس بولس الرسول مقدمين الشكر للعزة الالهية وذلك سنة ١١٥٣ ☆

فامتلاك مدينة اسكالون هذه كان يقدم للصليبيين فوايد سامية لانه فتح لهم طريقاً رحباً الى الاقليم المصري واغلق في وجه المصريين كل مجالٍ نحو بلاد فلسطين واوجد الامان للمسيحيين من هذه الجهة التي كانت تقلقهم بانواع مختلفة ☆

اما السلطان بودوين الغالب فقد رجع بالعساكر ووجهها ضد الامير نور الدين الذي سيفه الغدار كان دايماً مستلاً ضد المسيحيين فتاريخ الحرب المقدسة يوضح لنا ان هذا السلطان العديم الملل من الاتعاب قد اغتصب الاسلام دفعاتٍ مختلفة بالهرب من امام مدينة بانياس التي هم كانوا يحاصرونها وان طردهم اخيراً بدنارٍ قد مشى ضد مدينة قيسارية سوريه وحاصرها وفاز بالغلبة على الامير نور الدين في معركة حدثت امام المغر الملقب بتسمية بوطاها كما انه يخبرنا عن عنايته الفعالة في ايجاب الصلح وحسن الترتيب في امرية انطاكية المتعوبة قبلاً باتصالٍ من قبل الانقسامات الجنسية واخيراً يظهر لنا انه وطد الصلح والاتحاد فيما بينه وبين ملك الروم عمانوئيل كومنينوس اذ تزوج بابنة اخي هذا الملك سنة ١١٥٥ وبهذه الزيجة قد جلب هو الى سلطنته الغفيرة جانباً من الغنا الكلي ☆

ثم فيما بعد قد وجد السلطان بودوين هذا فى مدينة انطاكية حينما اعتراه المرض الذي ازمع ان يقوده الي القبر (فالبعض من المورخين) قد نسبوا علة مرضه الى شراب سموم قد سقاه اياه احد اطبا بلاد سوريه فقد ذابت حيوة هذا السلطان من قبل حمى دقية غير شديدة متصلة فهو صير ان ينقلوه الى مدينة طرابلس ومنها بعد ذلك الى مدينة بيروت وهناك هو فارق هذه الحيوة سنة ١١٦٢ فنقل جسمه الى اورشليم لكى يدفن تحت جبل الجلجلة والمسيحيون فى كل المدن والقرى التى حملوا هذا الجسم الملوكى اجتازوا بها برفقة النبلا * والعساكر كانوا يقيمون المناحة ويدرفون الدموع الحسية السخينة على فقدهم هذا السلطان الجليل الذي وفاته ندبت بالاحزان فى كل مكان حتى على ما قيل ان الامير نور الدين نفسه قد حزن مع الفرنساويين ولكنه اغتنم هو هذه الفرصة لكى يتغلب على بلاد فلسطين وهو نفسه قال هذه الالفاظ وهى ان الله هكذا ارتضى بان اذهب أقلق شعوباً محزونين بعدلٍ وباكين باستيهالٍ على سلطان مثل هذا جليل وبانى اختار انا الوقت الحاضر لكى اخذ غفلةً سلطنةً لا خوف علىّ منها بالكلية *

فقد توفى بودوين الثالث خلواً من ولدٍ يرث تحت سلطنته ومن ثم اخوه اموري كونتته ده اسكالون ويافا اضحى وريثه فتتوج سلطاناً على اورشليم غير انه قبل انتخابه لهذا المقام حدثت بعض منافضات له لان اموري هذا لم تكن موجودة فيه الصفات الكريمة التى كانت فى شخص اخيه لان البعض من الاشراف كانوا اختبروا فى اموري رذيلة البخل الردية ضد الشعب مع رذيلة محبة المجد الباطل والاعتداد بالذات المضرة للسلطنة لا سيما شراسة كبرياه وجهاً بازاء وجهٍ

امام الاشراف الفرنساويين ونبلا البلاط الملوكي و بالحقيقة ان ملاحظتهم هذه التي سبقوا واستدركوها ما توخرت زماناً مديداً عن ان تكمل فعلاً ☆

فعالما جلس هذا السلطان في التخت الاورشليمي حول افكاره نحو امتلاك اراضي مصر والحال انه الى حد هذا الوقت حروب المسيحيين ما تمارست الا في اراضي سوريا وبلاد فلسطين وان كان اتفق لهم بعض احيان ان يخرجوا من هذه الحدود فانما كان ذلك لاجل المساعدة بالحماية لامرية الرها وما امتلكوه فيما بين النهرين ولما سقطت هذه الامرية الغنية تحت ولاية الاسلام فالصليبيون الفرنساويون اكتفوا بان يستعوضوا عنها بمدينة اسكالون فاذاً رغبتهم في ان يزيدوا امنية سلطنتهم وان يضعوا تحت امانٍ اوكد حال تملكهم الاراضي المقدسة قد اعتمدوا ان يدوسوا اراضي بعيدة حيثما اتجهت اميالهم الى توسيع مجد رفعتهم باكتساب بلاد جديدة فاذاً حيثما الخليفة في مصر رفض ان يفي الجزية المرتبة من جهة مدينة اسكالون عند ما المنتصرون اباحوا لسكانها حرية الخروج منها بموجوداتهم فالسلطان اموري مشى بعساكره ضده مجتازاً سهول البراري المقفرة وصير رعدة مسيره ان تخيف السكان حتى الى شط النيل وبعد ان الزم المصريين بقبول الشروط صالحهم ورجع الى تخته وبعد ذلك بمدةٍ متاخرة هذا السلطان قلق بسبب الانقسامات الجنسية التي تواجدت بين روسا بلاده وكان يسعف احزاب الملتجيين اليه ☆

ثم انهُ جدد فيه روح محبة المجد الباطل بعدم فطنة رغبته في ان يمتلك اراضي مصر في الوقت الذي فيهِ الامير نور الدين كان في بلاد سوريه ينتقل من انتصارٍ الى انتصار ضد الامرا الغربيين باطشاً كالاسد المخيف ومدثراً اياهم يوماً

فيوماً . فقد مارس هو اذاً الحرب ضد المصريين فى بلادهم الواسطة الغير محتاج هو اليها وكانت اعمال حروبه معهم تارةً تُقضى بصالحه وتارةً بخسارته خلواً من نجاز نهايي ولكن قد شوهد متصالحاً مع الخليفة والى مصر ومجاهداً معهُ ضد القايد كيركوت الذى من قبل الامير نور الدين وباسمه ازعج البر المصري ولما انتصر الخليفة على هذا القايد قد الزم ذاته بان يفى لخزنة السلطان اموري فى كل سنة ماية الف سكوت ذهب مرتضياً بان يقبل عنده فى مصر طغمةً مقيمة من عسكر اموري الذي فى رجوعه الى اورشليم قد تزوج بابنة اخى الملك عمانوييل وحينيذٍ اذ قد اضحى هو متغطرساً باسناده على عضد الملك المذكور قد اشهر علانيةً اعتماده على امتلاك البر المصري الذى هو قد كان شاهد غناه وخصب اراضيه ففى ديوان المشورة الملتيم منه فى اورشليم لهذه الغاية الانام الاحدق عقلاً والاوفر فطنةً خاصةً ريس عام الهيكليين قد اجتهدوا بكل استطاعتهم فى ان يغيروا عزمه عن هذا الحرب الواضحة لديهم انها غير عادلة وعديمة الفطنة ولكن من دون فايدة كانوا يبرهنون له عن ذلك مذكرينه بصلحه الوطيد مع الخليفة المصرى وبجودة تصرف هذا الامير نحو خير المسيحيين وما اشبه ذلك لانه سكر بمحبة الاتساع فى الملك وهكذا اخذ معه الكثيرين الذين تبعوه من الاشراف وسار على راس عساكره فى سبيل مبتغاه المضر مسرعاً نحو البلوغ اليه وذلك سنة ١١٦٨ والحال انه وقتيذٍ الخصم الالذ له وهو الامير نور الدين المخيف قد كان المعتمد على امتلاك الولاية المصرية غير ان السلطان اموري قد سبق عساكر هذا الامير الى هناك داخلاً فى البلاد وقد حاصر مدينة بلبيس التى عن يمين نهر النيل وافتتحها وامر بضرب السيف فى سكانها وبعد ذلك مملواً

رجعوا سلز ضد مدينة مصر ولكن من حيث انه وُعد بان ياتوه بخزاينها فهو اعطى مهلةً متوقفاً عن التقدم اليها الا ان هذه الخزاين ما أُرسلت اليه اصلاً بل عوضاً عن هذه الاموال الغنية التي هو كان ينتظرها قد شاهد كيركون بعساكر الامير نور الدين اتياً ضده من حيث ان الخليفة فى مصر قد كان استدعاه الى معونته فاذ لاحظ ذاته اموري عديم الكفاية لمقاومته هذه القوة الشديدة المندفعة عليه قد رجع حالاً الى الورى بخزي وخجل عظيمين كانه هارب الي اورشليم التى غب اقامته فيها مدةً من الزمن قد جدد العزم على محاربته المصريين موطداً امله بعمارة المراكب التى ارسلها له.ذ.نه الملك عمانوييل فسيرها هو من عكه نحو دمياط وهو مشى بعساكره من البر وحاصر مدينة دمياط براً وبحراً غير ان هذا السلطان المنحوس فقد تحت اسوار هذه المدينة نحو نصف عساكره الذين تضوروا جوعاً وهلكوا بسيوف الاعدا كما ان عمارة المراكب بادت بالنار وبعواصف البحر ومن ثم بعد خمسين يوماً من ذاك الحصار اضطر السلطان المذكور بان يرجع مع الباقيين من عساكره الى اورشليم وحينيذٍ رفض من فكره اعتماده الجسور متندماً على سوء رايه به ✿

فلنعودنَّ الان الى السياق الاعتيادى بالتكلم عن الحوادث التى يرسمها لنا التاريخ فطول مدة حرب السلطان اموري ضد المصريين قد صودفت سهول سوريه ايضاً مشهداً لعدة موقعات حربية جرت فيها لان اسلحة الامير نور الدين قد كانت دايماً متجهة ضد اقاليم انطاكية وطرابلوس الشام والمسيحيون الذين فيها لم يكونوا يكفوا عن ان يلتمسوا من اهالى بلاد الغرب المعونة والاسعاف ففي قرب ذاك الحين قد بلغت الى بلاد فلسطين جماهير جديدة صليبيون صحبة تيآرى كونته ده فلاندرا

الذي مجيه هذا كان مرةً رابعة باجتيازه البحور وقدومه محارباً مع الجيوش المسيحية وكذلك اقبل الى البلاد المذكورة هوكوز الاسمر وصفروا اخو دوكا ده انكوليم وتحت سلجق هولاء الامرا .قد كان عدة اشخاص من الاشراف الابطال الذين من بلاد بواطو واكيتينيا وكان فيما بين مصافهم يلاحظ بنوع خاص ابنا هوكوز الاسمر الشابان الشجعان ☆

ثم جفروا ده لوزلينيانا الشاب الشهير الاسم في الحروب ومثله غوي ده لويزينيانا الذي يوماً ما كان عتيداً ان يلمع فوق صدغه تاج سلطنة اورشليم فالمسيحيون في سوريه اذ استعانوا جداً بهذه الجيوش الجديدة قد عول رايهم على محاربة السلطان نور الدين بالقرب من مدينة طرابلوس فنتيجة حربهم في هذه المرة قد وجدت ثمناً لشجاعتهم الفطحلية غير ان سلطان دمشق الشام نور الدين نفسه بعد انكساره ففي معركةٍ اخرى قد فاز هو ايضاً بالانتصار في جهة هاران وجملة اشخاص من الامرا والاشرافٍ سقطوا في يديه ماسورين وفيما بين هولاء صودف رايموند كونته طرابلوس الذي الاسلام كانوا يلقبونه بشيطان الافرنج ومعه ايضاً بوهيموند الثالث امير انطاكيه (الذي كان جلس في كرسي انطاكية بعد الامير رانود ده شاتيليون خليفة رايموند ده بواتيارس اذ ان رانود هذا كان تزوج بقسطانسا ارملة رايموند المذكور متملكاً على انطاكية ولكن رانود المسكين كان أُخذ اسيراً فطرح في السجن في مدينة حلب مدة طويلة جداً من الازمنة والى هناك اقيد ماسوراً بوهيموند الذي تولي على انطاكية بعده) ☆

ولكن الموت الذي اختطف من هذا العالم.حيوة السلطان نور الدين الشجاع المحامي الصنديد عن الديانة المحمدية وعضد

السلطان صلاح الدين العظيم المخوف الذي بمقدار ما صار هو شديد للباس وكلي الاقتدار فبمقدار ذلك كان هو العدو القتال ضد المسيحيين بنوع انه قط ما وجد فيها بين امرا الاسلام احداً مثله مجاهداً في خراب الامرا الغربيين الكاينين في المشرق ☆

فهذا الغالب الجديد اذ توشح على اسم نبي الاسلام محمد بسلطان الولاية العليي عليهم اجمعين فقد اتبع اثر نمونجات زانكوس ونور الدين في طريقهما بابلغ نوع ولكن حروبه الاولى التي مارسها لم يفوز هو فيها بالانتصار غير انه حينما لاحظ هو ان قوة عساكر الفرنساويين كانت اتجهت من الاراضي المقدسة نحو امرية انطاكية فقد مشى هو بعساكره من مصر ضد بلاد فلسطين واذ شاع خبر قدومه الى جهاتها فالسلطان بودوين الرابع اخذ صحبته عسكراً قليلاً من اورشليم ومضى الى مدينة اسكالون ليصادمه فصلاح الدين هذا نصب مضارب معسكره بالقرب من اراضي المدينة المذكورة وصير جنوده الوحشي الشراسة ان تطوف الصحاري والقري وتدثرها كما صنعوا بخرابها الى حد مدينة الرملة وجسارتهم الوقحة وروح تصرفهم الردى قد تهدد اشراف الصليبيين بالضر والوبال محتقرين اياهم بالافترا فهولاء الاشراف قد استوعبوا شجاعة غريبة ضد معسكر العدو وعزموا على معركة جديدة نظير ما كان في تلك الارض عينها غودافروا ده بوليون فاز بانتصار عجيب فقد اخذوا طريق شط البحر واخفوا مسيرهم السريع بكيمان الرمل التي هم مروا من ورايها وغفلةً طبقوا على معسكر صلاح الدين الذي قد انذهل جداً من هذه المباغتة الغير مظنونة منه ولم يمكنه ان يثبت امام هجمة الفرنساويين هذه الشديدة فقد اباح كل ما عنده من شجاعة عساكره الحاضرين التي وهت ولكن من دون فايدة كانت ابواق الحرب تصرخ

مستدعية العساكر الاخرين المتفرقين من جنوده في الحقول والمزارع البعيدة فالاسلام مع سلطانهم هذا غلبوا تماماً وجثث المقتولين منهم بسيوف الصليبيين قد غطت اراضي اسكالون وصلاح الدين نفسه ركب احد الجمال وهرب مديراً مع القليلين الباقين من جيشه ركضاً تايهين في قفار تلك السهول حتى بلغ مدينة مصر على نوعٍ ما لاعناً ذاك اليوم الذي فيه (حسب اصطلاح الفاظ الاسلام) انكشف مجد كوكبه مقرراً ان تعاسة هذه الكسرة لا يمكن اصلاً ان يمحى ذكرها من روحه وهذا حدث سنة ١١٨٢ ☆

ثم ان هذا السلطان بعد ذلك جهز عساكر جديدة بقوةٍ وتوجه بها الى بلاد سوريه وفاز ضد المسيحيين بما كان يفوز به قبلاً من ضرهم فتلك البلاد كانت وقتيئذٍ تحت اضامة كلية من شدة الغلا والقحط ومهلة رفع السلاح عن الحروب التى كان حصل عليها الاتفاق فيها بين الاسلام والنصاري الى مدة سنتين فقد فسخها الامير رانود ده شاتيليون الذي كان قبلاً متولياً على انطاكية لان هذا الشريف ذا الدم الحار الذي كان حينيئذٍ سيداً على الكرك وجبل رتال قد كان يظهر متلاعباً بكل العهود ولانه كان ذايباً شوقاً لمحو الارتفاع فقد مشى بجماعته خلواً من توقفٍ نحو اراضي مصر حيث كان مومّلاً ان يروي ظماء عطشه بالاستغنا بالثروة فقد شوهد هو مراتٍ ضارباً قوافل الحجاج الاسلام المحملة نساءً واولاداً وموجوداتٍ قاتلاً رجالها المحاربين ومستولياً على غنايمهم وقد اتصل هذا المغازي الجسور الى ان يسير بعساكره خلواً من خوفٍ الى المدينتين المقدستين عند الاسلام وهما مكه والمدينة فتصرفه هذا المحتوي نقض العهود بانواعٍ داس هو بها حقوق الاسلام العزيزة لديهم قد اوعبتهم

ضده رجزاً مهلكاً وجذبت السلطان صلاح الدين الى ان يمشى ضده بعساكره الوافرة فادركه واقام عليه المعركة الشديدة التى بها غلبه ظافراً به وكل ارفاقه الذين ما امكنهم الهرب معه بل سقطوا فى يدي السلطان المذكور قد حكم هذا بقتلهم كمذنبين فاميتوا بايدين ✿

واما احوال السلطنة الاورشليمية فى ازمنة هذه الحوادث فقد كانت محزنة ردية لان هذه البلاد الموسسة بحكمة سلطانها الاول غودافروا والمرطدة بقوة سيف بودوين اخيه لم تعد على ما كانت عليه قبلاً لان ما اثمرته اسلحة هذين الاخوين السلطانين العظيمين قد تبدد جميعه كون اولادهما قد ضيعوا امجادهما وهكذا شوهدت مملكة اللاتينيين فى المشرق مايلة نحو سقوطها الكائيب ومن كل الجهات المت بها المصايب والاضرار والدثار والموت ✿

فبلاط سلطنة بودوين الرابع صودف فى ذاك الوقت مهشماً بانقسامات دنية لان شهوة اغتنام الاموال ورغبة المجد الباطل اثمرت ضعف قوة السلطان وعدم ثباته فالمملكة صارت مملوة من البغضات ومن المغايرات ومن عدم الاركان واسم السلطان لم يعد مهاباً وولايته اضحت صورة خايبة من جوهر وهو فيما بين الاحزاب المتفرقة التى خربت بلاده ما عاد قادراً لا على ان يعاقب المفتريين على عزته الملوكية ولا على ان يبدد التحزبات وكان يشاهد كثيرين من حكام المدن المكتسبة محتقرين ولاية هذا السلطان يحاربون الاعدا او يصالحوهم على هواهم ضد ارادة سلطانهم ويتلاعبون بشروط الصلح المختومة فيما بينه وبين السلطان صلاح الدين ثم عقيب ذلك اذ كان السلطان اموري العديم الفطنة عود عساكره على الذهاب الى البر المصرى فكثيرون من الاشراف والعظما صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة

سهنة صنلحية لاحتشاد الاموال الغنية ولم يعد يوجد فيها بين العساكر الصليبيين ذلك الروح القديم بالشجاعة ضد المخاطر وبلحقال الضناء فى احيات الشدايد بل ان التعطش نحو اخذ الغنايم وحده كان يجذب الجيش الى المحاربة وكان يبان عليهم فى حوادث الحرب تناسيهم شهامة الشرف ومحبة المجد الحقيقى والغاية المقدسة المختصة بقضية يسوع المسيح *

ثم ان المسكين السلطان بودوين الرابع اخيراً فقد بصرة وصار كفيفاً من العينين ومن ثم قد ارتضى بات يسلم ولايته بين يدي الشريف غوى ده لوزنيانا زوج اخته سيسبيلا الثانى. فهذا الوكيل الملوكى الجديد ظهر ضعيفاً عديم النفوذ حينما ركب على راس عشرة الاف مقاتل ضد عساكر السلطان صلاح الدين الذين كانوا يدثرون اقليم الجليل فلقد كان يمكنه ان يفوز بالغلبة على هولاء العساكر الناصبة وتتبذر مضاربها فيما بين جبل جلبناع وبين مدينة شيطبولى القديمة لو حاربهم هناك. ومن حيث ان تصرفه هذا انهض ضده الغيظ العام فى كل مكان فالسلطان بودوين عزله من الوكالة وفوض هذه الوظيفة الى رايموند كونتة طرابلوس وفى الزمان عينه هذا السلطان تنزل عن التخت الى ابن اخته سيبيلا المولود لها من رجلها الاول غويليوم ده مونفة فرأنا وتوجه بدلاً منه مع انه لم يكن له من العمر سوى خمس سنوات فهذا الفتى صعد على كرسى سلطنة اورشليم سنة ١١٨٣ تحت تسمية بودوين الخامس وبعد سنتين توفى بودوين الرابع التعيس الحظ فيها بين الاحزاب المقاتلين على اخذ الولاية وعقب ذلك بايام قليلة لحقه الى القبر ابن اخته بودوين الخامس السند الضعيف جداً والعديم الرجا لخير السلطنة المسيحية وحالما دُفن هذا السلطان الفتى عند جبل الجلجلة قد تتوج باحتفال

على كرسي الملك في كنيسة القبر المقدس غوني ده لوزنيانا مع زوجته سيبيلا وتسلما تدبير السلطنة ومن حيث ان رايموند كونته طرابلوس منع من الوكالة الملوكية التي فرغت عنه فقد ذهب الى ولايته الخصوصية مدينة طبارية نادباً تعس هذه السلطنة التي تحت تدبير من ليس هو كفواً لذلك اخذت بالهبوط والخراب الاكيدين ✮

ففيما كانت احوال سلطنة اورشليم على هذا المنوال ذي الحزن الاليم سنة ١١٨٧ واذا بالسلطان صلاح الدين على راس جيوشه القوية جداً آتٍ كاسدٍ ضدها لكي يلاشي فضلة مناصبيه فشجاعة العساكر المسيحية في ايام هذه الحرب التعيسة اظهرت نوعاً ما من المجد الذي كان يشرق في الصليبيين الاولين ففي بداية شهر ايار سنة ١١٨٧ نفسها بعض ميات من الخيالة الهيكليين وضيافة الغربا قد علقوا الحرب في اقليم الجليل ضد سبعة الاف خيال من عساكر الاسلام تحت رياسة ابن السلطان صلاح الدين الامير الافضل ففي هذه المعركة العديمة المساواه فيما بين عدد المحاربين في الفريقين قد مارسة الخيالة الصليبية انواعاً عجيبة غير مصدقة من الرجولية الفريدة والشجاعة الغريبة فاحد هولاء الذي هو يعقوب ده مالي بوظيفة قايد في جمعية الهيكليين قد ركب حصاناً ابيض ونزل في حومة الميدان وفتك بالاعدا بنوعٍ متفاضل عن الجميع فلما شاهدت عساكر الاسلام منه هذه الاعمال المذهلة ما توخروا عن ان يعتقدونه في الاول بانه كان هو القديس جاورجيوس البطل المخيف الذي كانوا سمعوا عنه من الصليبيين مرات كثيرة انه نزل بعض احيان من الجنة وحارب معهم وكسر اعداهم ولكن اخيراً (كالمثل الدارج ان الكثرة تغلب المرجلة) قد سقط هذا الخيال الفطحل

مقتولاً ومعه تنكردست ارفاقه الشجعان اناساً بعد اناسٍ فيما بين جهاد عظيم حتى قتلوا جميعاً بدون ان يبقى منهم احد سوي ريسهم العام الهيكلى مع اثنين فقط من خيالته الذين نجوا من الموت ☆

ثم ان اراضى الجليل هذه صارت مشهداً بعد ذلك لخساير اخر مهيلة لان السلطان صلاح الدين نفسه اقبل اليها متراساً على معسكر مخيف مولف من ثمانين الف محارب من الاسلام وبلغ الى مدينة طبارية فالمسيحيون عند ملاحظتهم حال الخطر المبين المحيق بالبلاد الفلسطينية كلها بنوع ردي جداً قد حملوا الاسلحة اجمعين والتيموا تحت سنجق السلطان غوي ده لوزينيانا ففى ديوان المشورة الذي عُقد فى اورشليم قد تحدد للمسيحيين كافةً ان يجتمعوا فى سهل صيفورة وهناك من دون تاخير قد التيم خمسون الف مقاتل فالسلطان صلاح الدين كان امتلك مدينة طبارية وحاصر قلعتها التى استمرة بعد سقوطها في يده مقاتلةً اياه بشدةٍ وقتية فالروسا المسيحيون حينيندٍ صنعوا جمعيةً وفيها كلٌ منهم قدم رايه فرايموند كونته ده طرابلوس اذ نكلم هو اخر الكل قال انهُ لامرٌ ذو حماقةٍ ضد الفطنة ان يخاطروا بعساكرهم بمعارضةٍ مهيلة امام جيوش صلاح الدين فى ارضٍ قفرة وانه هو بشهامةٍ تنحى عن مدينة طبارية مهملاً اياها للعدو لكى يحمى مع الروسا مدينة اورشليم غير ان هذا الراى المملو حكمةً ما قُبل من الروسا الاخرين بل أُعطى الامر للعساكر بان تمشى وشكا ضد الاسلام ☆

ففى اليوم المقبل صباحاً وهو اليوم الثالث من شهر حزيران سنة ١١٨٧ عينها خرج معسكر المسيحيين من سهل صيفورة ماشياً الى ما قدام واما السلطان صلاح الدين فلما تحقق قرب هذه

العساكر اليه قد ابتهج قلبياً لايقانه بان الغلبة له عليهم اضحت اكيدة فالجيوش المسيحية اتجهوا نحو طبارية : كقول احد المورخين العرب : (نظير جبال متحركة او شبه امواج البحر المزبدة). فالكونته ده طرابلوس مع عساكره كان سايراً امام العسكر وسلطان اورشليم مع الخيالة الهيكليين وضياف الغربا كانوا وراء الجيوش بمنزلة الغفر الاخير وفي الوسط كان جمهور عظيم من اعيان العساكر الابطال مع عود الصليب الكريم المقدس الحقيقي حاملاً اياه مطران عكه فبعد سيرهم حصة من الزمان وصلوا جميعاً الى ضيعة ماراسكالجا البعيدة ثلاثة اميال عن طبارية وهناك تقابلوا مع الغفر الاول من عساكر صلاح الدين وتعلق معهم الحرب حينما اشتدت حرارة النهار وشغبت احشاوهم من الظمى وشرعت هكذا شجاعتهم تتناقص وبالخلاف الاسلام المتوقعون بقلة اصطبار الساعة التى فيها يعلقون المحاربة ضد النصاري (كقول احد المورخين العربيين) قد اجتازوا الليلة السابعة ذاك النهار ساهرين يقول احدهم للاخر بمسرة ها هوذا نسم علينا طيب الهوا المنذر بانتصارنا ❊

فاخيراً اشرق ضياء اليوم الرابع من حزيران نهار السبت الذي فيه المعركة العظيمة ازمعت ان تصير وعليها كان متوقفاً نصيب مدينة اورشليم باحد الوجهين فالغفر الاخير اسرع بالمسير ليدرك بحيرة الجليل الا انه على البدية قد تعلق ضده الحرب من الاسلام من كل ناحية وكانت نبال العدو مرشوقة عليهم كالسحاب من الجهات كلها وحينيذٍ سلطان اورشليم دخل مضربه فى حال الخوف وكتب اننا مايتون اجمعون والسلطنة الاورشليمية ضاعت فالمصادمة الحربية اشتدت جداً بنوع مهيل والعساكر المحيطون بالسلطان غوي صاروا فى حالٍ يرثى لها ومن حيث ان الارض فى ذاك السهل كانت مكتسية بنباتات قضبان

الخلنج وباعشاب قوية كلها يابسة فى ذاك الفصل الصيفي فالاسلام
القوا النيران فى الهيش وسببوا حريقاً واسعاً مخوفاً وهكذا
العساكر المسيحية المساكين فى الوقت نفسه وجدوا تحت مصايب
لهيب النيران ودخانها الحالك وشدة حرارة النهار والجوع
والعطش وانقضاض نشاب الاسلام عليهم كالمطر حتى المساء وقد
اجتازوا طول الليل فى حال الحزن والغيم والضر الى الصباح
الذي فيه هم اخذوا بالمسير عرضاً فى التلول العالية العسرة
المجال المقاربة بحيرة الجليل واذا بالسلطان صلاح الدين قد
خرج بجيوشه من طبارية واتى ضدهم ورتب عساكره فوق
احد التلول الواسع بنوع انه فى اول اشارةٍ كان هو مزمعاً ان
يعطيهموها كانوا مزمعين ان ينقضوا فوق المسيحيين بدفعةٍ واحدة
فالصليبيون عند ملاحظتهم هذا التهيى العظيم والقوة الصلاح دينية
الباطشة ثم مشاهدتهم ذواتهم محاطين بالاعدا من ساير النواحى
بعزم شديد قد شملهم الخوف واكتنفتهم الرعدة واخذتهم الباغتة
فسلطان الاسلام حالاً القى الصوت ببداية المعركة وعساكره اندفعت
من كل جهةٍ بصراخات مرعشة المفاصل. فوقتيذٍ (يقول مورخ
اخر من الاسلام) ابناء الجنة واولاد النار قد شاهدوا قتالهم بحالةٍ
رهيبة فالنبال متطايرة فى الهوا نظير طيران العصافير محرقة بحرارتها
وماء السيوف (اي الدما) جامدٌ فى وسط المعركة ومغطي الارض
كمياه المطر فالمسيحيون قد حاموا عن ذواتهم زماناً طويلاً برجولية
وخيالة الهيكليين وضياف الغربا ثلثة مرات هجموا على صفوف
الاسلام المتقدمة فبددوهم وظفروا الى وسط معسكرهم ضاربين
بالسيوف ثم رجعوا الى محلاتهم مكدودين من قوة العساكر الاسلامية
التى صادمتهم عنيفاً وازعجتهم جداً ولكن البلبلة وخراب
الترتيب تكاثر عند الجيوش الصليبية ممتداً الى كل جهةٍ

فلهذا جمعوا ذواتهم وقواهم الى محلٍ واحد ملتهبين بعدم نظام حول الصليب المقدس مقاتلين بمقدار استطاعتهم بحمايتهم اياه او بالموت حذاه غير ان جهادهم هذا اضحى خايباً من افادةٍ لانه اخيراً على الفور اواه من ذلك قد اخذ عود الصليب الكريم بايدى الاسلام العود الذي مرات عديدة كان قايداً للمسيحيين الى الانتصارات قد سقط تحت ولاية الغير المومنين مغرقاً بدما الاساقفة الذين كانوا حاملينه فيما بين العساكر فعند ذلك صراخٌ عظيم حدث من جميع الصليبيين فبعضهم كانوا يلقون ذواتهم فوق اسلحة الاسلام وغيرهم كانوا يطرحون اسلحتهم فى الارض منتظرين القتل فالكونتة رايموند اد ايس من الخلاص هجم على الاسلام بسينه ففتح له مجالاً منه هرب الى نواحى طرابلوس صحبة البافيين معه من عساكره الغفر المتقدم وحينيذٍ ملحمة سفك الدما صارت مهولة ثم ان الاسلام صعدوا الى التل المنصوب فوقه سنجق سلطان اورشليم فجندلوه وقبضوا على كل من كان هناك من الامراء والاشراف وقيدوهم بالحديد *

فهنا يقول احد المورخين العرب هكذا ان الذى كان يشاهد كثرة عدد المقتولين لم يكن يظن انه يوجد غيرهم ماسورين والذي كان ينظر توافر عدد الماخوذين اساري لم يكن يخال له انه موجود اخرون قتلى فالافرنج من حينما بلغوا بلاد فلسطين للمرة الاولى الى حد هذه الموقعة الحربية قط لم اصابهم انكسارٌ مثل هذا فانا نفسي فى اجتيازى فى حقل هذا الحرب بعد سنةٍ واحدة من حدوثها قد شاهدت عظام موتاهم كيماناً وفى جهاتٍ اخر من الحقل رايت الجثث اليابسة عن اللحام مبددت فى كل ناحيةٍ هذا ما عدا تلك الجثث والعظام التى سحبتها الوحوش والحيوانات المفترسة الى الجبال وما خلا

تلك التى ساقتها الانهر الشتوية الى الوديان (هذا ما كتبه المورخ ابن الاثير) وقد حرر عن هذه المعركة مورخ اخر مسلم: وهو عماد الدين قايلاً ☆

ان حبال الخيم باسرها لم تكف لربط الذين أُخذوا من الصليبيين اساري لانى شاهدت بعينى ثلاثين او اربعين واحداً من خيالتهم مربوطين بحبلٍ واحد كما انى نظرت تارةً ماية وتارةً مايتين منهم مجموعين فى محلٍ واحد تحت حراسة جندي واحد فقط من الاسلام بعد ان كانت هولاء العساكر قبل ذلك بقليل من الزمان يظهرون بطشاً وافتداراً عظيمين فالان روسهم واطية واجسامهم لا تشير الا الى حال رجال صعاليك رذلين والمسيحيون الذين في بداية المعركة كانوا نظير الاسد فعند نهايتها صودفوا كاغنام مبددة ومن الوفهم الكثيرة جداً ما بقى الا عدد قليل فازوا بالحيوة وحقل المعركة الواسع وجد مغطى من القتلى ومن المجرحين الدنفين على الموت فانا عينىَّ قد اجتزت فى جبل هيتين الذى كشف لى مشهداً هايلاً لانى رايت روساً مقطعةً وعيوناً مقلعة واجساداً مغوسة بالتراب واعضاءً مفصلة ودرعانات مجذومة وجماجم مهروسة: فيا لهُ من طيب زكى الرايحة عبق نشره عن هذا الانتصار المخوف ☆

فالمعركة الاخص فى الحرب التعيسة المذكورة حدثت فوق جبل هيتين فهذا الجبل نفسه ذُكر فى الانجيل المقدس بتسمية جبل التطويبات فيا له من عدم تقريبه للمعنى ويا له من تناقض معاً فيه محزن ففوق هذا الجبل عينه ابن الله مملواً من التواضع والوداعة قد انذر البشر بديانةٍ ذات صلحٍ وسلامةٍ ومحبةٍ افهل ان الجبل المذكور في يوم الموقعة المذكورة يتدنس بسفك دماءٍ هكذا غزيرة بملحمةٍ اواه ان رنت صوت الكلام

الذي خرج من الفم الالهي في المحل المذكور ما رنّ بدلاً منه هاتف في يوم هذه المعركة المنكودة الحظ الا اصوات المساكين الاخيرة عند قتلهم بالاسلحة المهيلة ☆

فسلطان اورشليم غوي مع متقدمي بلاطه اذ وقعوا في ايدي الاسلام مسبيين قد نقلهم السلطان صلاح الدين الى خيامه نفسها وقد عامل سلطان اللاتينيين هذا بجودةٍ ولطافةٍ وافرتين واجلسه بجانبه ومن حيث غوي كان مضاماً من شدة العطش واظهر ذلك فحالاً صلاح الدين امر فاتوا اليه بمشروب لذيذ مبرّد على الثلج فبعد ان شرب منه بكفايةٍ دفع المشربية الى الامير رانود ده شاتيليون الذي كان واقفاً ليشرب هو ايضاً منها غير ان صلاح الدين منعه عن ذلك حالاً قايلاً انه لا يلزم ان هذا الشقي يشرب امامي (١) ☆

على ان صلاح الدين كان بالحقيقة قبلاً مرتين نذر حالفاً بان يبيد حيوة رانود ده شاتيليون اذا وقع في يده فاذاً حينيذٍ هو وجه خطابه ضد هذا الامير الاسير موبخاً اياه شديداً بصوت مرعب على فسخه العهود السلطانية وعلى امتحانه النفاقي (الذي به كان فتك بالحجاج واقلق مكة والمدينة) ثم تهدده بالموت ان كان لا يعتنق الديانة المحمدية الا ان رانود اذ لم يرهب من هذا التهديد بل رد عليه الجواب بشجاعةٍ مسيحية فحالاً صلاح الدين تقدم اليه وضربه بسيفه واعطى اشارةً للواقفين بازايه فقطعوا راسه وطرحوه تحت قدمي سلطانهم المملو

(١) حاشية انها لعادة كانت جارية عند العرب قديماً وهي كانها امر دياني بانهم لا يميتون احداً اصلاً من محابيسهم متى كانوا قبلاً اعطوه مشروباً او ماكولاً ☆

رجزاً في ذاك الوقت ولكنه التفت نحو سلطان اورشليم مكرراً له التطمين وموعداً اياه بان يحترم ايام حياته ☆

فهكذا مات راتود ده شاتيليون كشهيد حقيقي للصليب المقدس كما ان عدداً ليس بقليل من الاشراف والخيالة الصليبيين قد اشتركوا معه بنوال اكليل الاستشهاد لان السلطان صلاح الدين جلس فوق عرشه وامر بان يؤتى بالنبلا من الهيكليين وضياف الغربا وكما تقرر انه حينما الاسلام مروا بهم قدامه صرخ قايلاً انني اريد ان اطهر الارض من جنسي هولاء الانجاس ثم بعد ذلك خيّرهم اما ان يصيروا مسلمين كمعتقد الايمان المحمدي واما ان يهيوا ذواتهم للموت فهولاء المحاربون الحسنوا الديانة الحافظون ما حلفوا عليه قد اجابوه بانهم يفضلون الموت مسيحيين شهدا الحق فايزين بتاج الاستشهاد على كلما سواه : فيا لها من غيرة حقيقية على الايمان ويا لها من انفس شهمة نقية ☆

(يقول احد المورخين القدما) ان عدداً وافراً من الصليبيين الاعزا الغير مختصين اصلاً بالجمعيتين الهيكلية وضياف الغربا حالما سمعوا خطاب صلاح الدين بالتخبير باحد النوعين المذكورين وشاهدوا قتل الخيالة ذوي الجمعيتين المذكورتين لحقوهم باسراع امام الجنود الاسلام معترفين نظيرهم وبفرح انتظروا موتهم بضرب السيف ثم بعد ذلك في مدة الثلث ليالي التي فيها استمرت جثث هولاء الشهدا مطروحين في الارض (يضيف المورخ جفروا كلامه الى قوله) قد كانت تظهر واضحاً علانيةً اشعة نورانية منحدرة من السما فوق تلك الاجساد لامعةً جداً ☆

فانتصار صلاح الدين في سهل طبارية المذكور قد فتح له باباً واسعاً نحو المدن المعتبرة التي كانت في نملك اللاتينيين لان الخوف والهلع اللذان اوعبا امام مسير جيوشه قلوب الجميع قد

اخضعا لولايته مدن عكة ونابلوس واريحا والرملة وقيسارية فيلبس وارسور ويافا وبيروت ولم يعد باقياً من المدن التى على شط البحر غير داخلة وقتيذٍ فى تملكه الا صور وطرابلوس واسكالون التى لبثت تحت سلطة الافرنج فمدينة اسكالون اذ حاصرها السلطان صلاح الدين صمدت زماناً طويلاً تحت جهاد سكانها الغريب ولكن اخيراً سلموه اياها بحرية تحت شرط ان يطلق من الاسر سلطانهم غوي *

ولكن اواه ان الساعة المزمع ان يحدث فيها انكساف عظيم ودثار جسيم قد قاربت ان تقرع نافوسها فنحن نلاحظ اليوم الذى فيه توجد هذه الساعة التعيسة محضراً لدي اعيننا الصورة التى مراةً كثيرة اشار اليها الانبيا بان شعباً تاماً يغرب مبتعداً عن المدينة المقدسة التى اضحت للمسيحيين وطناً عزيزاً كريماً فالسلطان صلاح الدين الساير من مدينة الى مدينة فايزاً بالانتصارات المتواصلة قد بلغ اخيراً بجيوشه الى اسوار اورشليم فى سنة ١١٨٧ نفسها فهذه المدينة المترملة من الجهة الكبرى من عساكرها القديمة لم تكن حينيذٍ محتوية الا على عدد جزئى من الجنود الموجودين فيها لاجل محافظتها وكانت سيدة المدن هذه باكية على اولادها المقتولين فى سهل طبارية الذين لم تعد تشاهد منهم الا بعض انفار هاربين وعدداً قليلاً من الزوار الاتين من المغرب فهذا هو النفر جميعه الذى وقتيذٍ كان يحامى عن قبر المسيح فصلاح الدين باقترابه من اورشليم ارسل قاصداً من قبله الى المتقدمين فى سكان المدينة المذكورة برسالةٍ قايلاً لهم بها هكذا * اننى انا نظيركم ايضاً اعرف ان اورشليم هى بيت الله فانا لست اتياً لكى ادنس قداستها بسفك الدما فانتم اهملوها لى وانا اخصكم بقسمٍ من خزاينى واعطيكم

اراضي بمقدار ما انتم تستطيعون ان تقوموا باعمالها ✿

فسكان المدينة ردوا له الجواب بقولهم إننا لا نقدر ان نسلمك مدينةً قد مات فيها الاهنا بالجسد وباكثر من ذلك نحن لا نقدر ان نبيعها فعند ذلك كل من الفريقين قد تهيا للحرب فاهل اورشليم قد اختاروا وقتيذٍ راساً للعساكر باليان ده ايبالين الرجل التقي المجرب في الحروب الموقر لاجل فضايله ونباهته ونموذجات اعماله وكان اهتمام هذا القايد في انه قبل كل شي يحصن المدينة بما كان يلزمها وفي ان يأهب العساكر على الثبات بالمحاماة الاشد شجاعةً ولكي يمكنه ان يقوم بمصاريف الحرب الكلية قد اخذ زينة الكنايس والذهب والفضة المجملة بهما دايرة قبر المسيح المقدس بغناءٍ وافر وضربها معاملة للاخذ والعطا وهكذا شرعوا الجنود والسكان بالمحاماة القوية جداً عن المدينة ضد العدو وعدة مراتٍ خرجوا اليهِ بالحراب والسيوف بايديهم وطرحوا من عساكره قتلى عدداً ليس بقليل (وكما يقول المورخون) انهم هم ايضاً في المرات التي بها خرجوا اليه قد فقدوا كثيرين منهم تحت اسوار اورشليم وارواح هولاء الشهدا صعدت الى اورشليم السماوية ✿

اما صلاح الدين فبعد ان كان نصب مضارب معسكره في جهة المدينة الغربي حيثما كان رايموند ده طولوزا قبل ذلك بمدة قرب ماية سنة انزل عساكره فوق هذا التل الغربي فقد غير محله وانتقل فوطد نزوله في ناحية المدينة الشمالي في الارض التي كان مارس جهاده فيها الجليل غودافروا ده بوليون وصير ان ينقب وجه السور من حد باب يوشافاط الى حد باب القديس استفانوس فاذاً كان متوقفاً هدم السور في تلك الجهة على اول اشارة كانت تعطى من هذا السلطان فسكان اورشليم انزعجوا

خوفاً وارتاعوا جزعاً من ذلك والاكليروس شرعوا يدورون في طرقات المدينة بزيحات متبوعين من الشعب بالصلوات والتضرعات وسكب الدموع بحزن عام طالبين الرحمة من الله والشفقة على احوالهم هذه المرة ☆

ثم انه حدث وقتيذٍ امر اخر قد اضعف رجاء الصليبيين بنوال الخلاص من يد السلطان صلاح الدين وهو قد انكشف لهم ان الروم القاطنين في اورشليم (الذين من اهل سوريه) اذ كانوا غير محتملين مشاهدتهم اللاتينيين فايزين بالولاية قد اضمروا الخيانة عليهم مطابقين على المدينة ان تفقد ومن ثم لم يعد للغربيين سلاح اخر للمناضلة ضد هذا الخطر المبين سوي سلاح البكا والابتهال الى الرب بنوال حمايته لحفظ حياتهم ولذلك اعتمدوا على التسليم تحت شروطٍ يفوزون بها من صلاح الدين وهكذا المتقدمون في المدينة مع باليان ده ايبالين خرجوا بدون اسلحة الى مواجهة السلطان المذكور وقدموا لهُ الطاعة تحت التي كان هو نفسه قدمها لهم قبل بداية الحرب غير ان صلاح الدين مملواً رجزاً قد اجابهم قايلاً اني اصنع بكم ما صنعه المسيحيون بالاسلام حينما امتلكوا اورشليم فانا افني الرجال بحد السيف واقيد البقية مسبيين تحت الاسر ☆

فلما رجعوا جميعاً الى المدينة باليان ده ايبالين مارس كل ما امكنه مع هذا السلطان بخروجه اليه عدة امرار. لكي يقيده الى الارتضا بالتسليم على تلك الشروط الا ان هذا المقتدر لبث غير منثني عن عزمه في اخذ المدينة بالسيف فاخيراً اذ اشتدت في القايد باليان حرارة الغيرة خاطب صلاح الدين قايلاً اعلم ايها السلطان انه لم ينقص عن اورشليم محامون فان كنا نحن لا نقدر ان ننال منك رحمةً ما بالكلية وان كان

لا بد لنا من الموت فلحن حينيذٍ نعتمد على امر مخيف وأيسنا يملاكم اجمعين من الرعدة فهذا المعبد وهذا القصر الملوكي اللذان تريد انت امتلاكهما ستراهما مهدومين حتى الاساسات وجميع الخزاين والموجودات الغنية التى تشتهى انت احتشادها ستكون قبل دخولك بادت بالحريق ثم اننا نهدم جامع عمر مع الصخرة العجيبة اليعقوبية اللذان هما موضوع ديانتك ونحيلهما الى تراب ٍ ومن حيث ان اورشليم هي محتوية على خمسة الاف محبوس ماخوذة فى الحروب وكلهم اسلام فهولاء باسرهم يهلكون بسيوفنا قبل ان تراهم وبعد ذلك نحن انفسنا ندبح بايدينا نسانا واولادنا لكى نوفر عنهم العار بوقوعهم فى ايديكم مسبيين تحت العبودية لكم ثم حينما نعود هذه المدينة المقدسة كياناً من الرديم ومدفناً واسعاً نحن نخرج منها بالاسلحة وبالنيران فى ايدينا متبوعين من ارواح اقربائنا واصدقائنا المملوة رجزاً ووقتيذٍ ولا واحد منا بموته قتلاً يصعد الى الجنة قبل ان يرسل الى جهنم عشرةً من الاسلام وهكذا نحن ننال نهايةً مجيدة باكليلٍ لا يضمر ولكن موتنا يستدعى عليكم لعنةً من الله ولعنة اورشليم قال هذا ورجع الى المدينة ❊

فالسلطان صلاح الدين امتلى خشيةً واندهالاً من هذا الخطاب وجمع الامرا والعلما لياخذ منسورتهم وهولاء اذ اوضحوا لهُ ان يجوز لهُ خلواً من ان يخالف النذر الذى كان ابرزه والقسم الموضوع منه ضد النصاري ان يقبل الشروط المقدمة لهُ منهم وبموجبها ياخذ اورشليم بالتسليم والامان لا بالسيف فهو حالاً امضى اسمه بقبول الشروط وذلك فى شهر تشرين اول سنة ١١٨٧ عينها وتحرر بها الصك عهدةً متبادلةً نسختين من الجهتين بان لورشليم تسلم بيد السلطان صلاح الدين بالحال الكاينة هي

عليها وبان سكانها الذين اصلهم من اللاتينيين يمكنهم ان يخرجوا منها في مهلة اربعة ايام. وبان حياتهم التي حفظت من الموت تكون حرةً معما يخصهم بدون ادنى تغلب ضدهم وبان تعطى عن كل واحدٍ من الرجال الصليبيين عشر ريالات ذهباً واما الذين لا يقدرون على دفع هذه لفدية ذواتهم ليخرجوا احراراً بموجوداتهم فيبتون في اورشليم تحت العبودية ثم بان المحاربين اجمعين الموجودين ضمن المدينة تكون لهم الحرية والاذن بان يسافروا منها بالامان الى مدينة صور او الى مدينة طرابلس وبان مسموح للروم ولكل الذين هم من بلاد سوريه ان يستمروا سكاناً في اورشليم بالامان ✲

فعلى هذه الصورة والشروط فتحت ابواب اورشليم للسلطان صلاح الدين وعساكره وانتشرت بيارق الاسلام فوق اسوارها وقد كان مضى زمان تسعة وثمانين سنة من حينما غودافروا وارفاقه امتلكوا هذه المدينة المقدسة فاولادهم هولاء اخذوا خيامهم وخرجوا بحزنٍ وانغلاب منها مبتعدين عنها بدون امل بالرجوع الى هذا الوطن الذي اقتنوه فيا لهُ من مشهدٍ يفتت الاكباد غماً وتأسفاً وهو ان المسيحيين المملوين من الايمان وحسن الديانة يودعون هذا الوداع الاخير قبر المسيح الخلاصي وجبل الجلجلة وداعاً موبداً اوآه ان التفكر في هذا الامر يوجب في القلب مرارةً علقمية افهل انهم يفارقون ارضاً قد كانوا اكتسبوها بثمن دماهم ودما ابايهم واجدادهم ويهملون امكنة مقدسةً مرسومة بمشي اقدام يسوع المسيح ومخضبة بسفك دمه ويبتعدون عن كنيسة القيامة التي كانوا يقدمون فيها عبادتهم وصلواتهم واحسرتاه تراهم يريدون قبل خروجهم من اورشليم ان يقبلوا الارض مرةً اخري متذكرين تكريسها بدم فادي العالم ويشتهون ان يزوروا

القبر الالهى مرةً اخيرة فتعساً لهذا اليوم الذى فيه هم اضطروا بالانتزاح عن مسكنهم هذا العزيز فى الغاية لانه اذا فرض ان اورشليم قبلاً لم تكن لديهم بهذا المقدار محبوبة موقرة جداً ففى يوم هذا التغرب عنها كانت هى امامهم فايقة بالحب والقيمة والاعتبار على كل ما سواها ✫

فقد بلغ اخيراً اليوم الرابع التعيس الذى فيه الصليبيون كان يلزمهم الخروج من اورشليم فلجميع ابواب هذه المدينة أغلقت الا باباً واحداً وهو باب داود وحصر الى هناك السلطان صلاح الدين وجلس فوق العرش المرتفع المهيأ له وصير ان يجوز امامه الجموع كلها التى ذراعه المنتصر طردهم بعيداً عن وطنهم الكريم لديهم فقد خرج بطريرك اللاتينيين الاورشليمى ايراكلوس قبل الكل متبوعاً من الاكليروس الآخذين صحبتهم الاوانى المقدسة مع خزنة كنيسة قبر المسيح وساير زينتها ثم اجتازت بعدهم السلطانة سيبيلا محتاطة من نبلا اشراف الغربيين متبوعةً من عدد وافر من النساء الشريفات الآخذات اطفالهن معهن نادبات بدموع هذا الخروج المكروه ثم ان هولاء النساء انحنين امام السلطان صلاح الدين متوسلات لدي قدميه بخشوع بان ينعم عليهن لاجل الله بان يرد اليهن اولادهن ورجالهن المحبوسين بامرة ماسورين قبلاً فى الحروب المتقدمة على اخذ اورشليم فهذا السلطان انعطف باشفاق كلى نحوهن مستجيباً التماسهن وصير ان تُعطى هذه اكثر ونلك اقل حسبما كنّ يطلبن ثم فيما بين الناس الذين خرجوا منفيين من اورشليم عدد وافر من المسيحيين الذين عوضاً عن ان يحملوا امتعتهم قيمةً ويسافروا بها قد اهملوها وحملوا على ظهورهم بدلاً منها اقاربهم الطاعنين في السن عاجزين واصدقاهم الموهين والمرضى فهذا المشهد المحزن

حرك حنو للسلطان صلاح الدين فشفق على هولاء المساكين وسمح للرهبان ضياف الغربا بان يستمروا باقيين في اورشليم ويتمموا ولجبات رسومهم بالاعتنا في جميع الذين من المسيحيين لم يكونوا قادرين على السفر مع ارفاقهم فالمنّة لاهتمام للنبيل باليات ده ايبالين الذى سبق ولحظ الظروف ودبر نوع هذا التسليم وكذلك الفضل لشهامة مالك آدل اخي السلطان صلاح الدين واشفاقه الذي به ساعد هولاء: ثم الحمد لرافة هذا السلطان نفسه عما ترافف به عليهم وقد بقى عددٌ قليل من المسيحيين المأسورين ☼

فاذاً اورشليم وجدت من جديد تحت ولاية الاسلام وتنكس الصليب المقدس الذى كان مالكاً فوق هذه الامكنة المسيحية والديانة المحمدية توطدت ثانيةً داخل اسوار المدينة المقدسة عوضاً عن الديانة التى ليسوع المسيح وكنايسها تحولت الى جوامع اسلامية ما عدا كنيسة القبر الخلاصي وجامع الامام عمر بامر السلطان المذكور قد فتح واصلح وغُسل بماء الورد وفى نهار الجمعة الاول بعد استلام المدينة قد التيم العساكر مع السلطان في باطن هذا الجامع المتسع وقدموا لله التسبيح ورفعوا اصواتهم ملقبين صلاح الدين بتسمية راس الايمان لان الله اعطاه النصر والغلبة ☼

ثم في دوام تلك الايام المسيحيون المنفون طرداً من اورشليم وجدوا سايرين فى اراضى سوريه كتايهين يلتمسون لذواتهم ملجاً ما ومرات كثيرة لم يكن يُعطى لهم ماوي لا بل انهم فى امكنة كثيرة قد طردوا من اخوتهم المسيحيين اعينهم بتوبيخات مرة وتقريعات مهينة لاجل عدم معرفتهم ان يحاموا جيداً عن قبر المسيح بدون ان يسلموه للخارجين عن الايمان ومدينة طرابلوس قد اغلقت ابوابها فى وجههم وقد توجه اناس من

هولاء المساكين الى البر المصرى حيث احوالهم المرثى اليها حركت قلوب الاسلام لتفسهم الى الشفقة نحوهم وغير هولاء اناس اخرون سافروا بحراً الى الاوروبا وباعين ذارفة الدموع اخبروا سكان المغرب بالخبر المحزن الذي هو سقوط اورشليم جديداً تحت نير ولاية الاسلام فى رق العبودية ✿

الفصل الرابع

عن الحرب الصليبية الثالثة المقدسة

فى الانذار بالحرب الثالثة وعن ريكارد ذى القلب الاسدى وفيما يلاحظ السلطان وفلبس اغسطوس ثم فى الجيوش التى ارسلها فى هذه الحرب الملك فريداريكوس الاول الملقب بذى اللحية الحمراء

انه اذ كان سقوط مدينة الرها قبلاً فى ايدي الاسلام الذين اختطفوها من ايدي المسيحيين قد سبب فى ممالك اوروبا حزناً شديداً وتوجعاً الیماً قد اضرما فى قلوب سكانها نيران الحرب المقدسة وجذبا العساكر الصليبية فى الحرب الثانية الى ان يتقاطروا مدججين بالاسلحة الى اراضي الاسيا فترى ماذا كانت مرائر البابهم شديدة علقمية واحزان افيدتهم مفتتة الاكباد عندما رنّ فى مسامعهم تلفظ هذه الكلمات ان اورشليم ملكتها الاسلام والصليب الذهب تكردس ساقطاً من فوق قبة كنيسة القيامة الى الارض والمسيحيين طردوا من المدينة المقدسة فمع انه فى تلك الازمنة كان يستبين للمسيحيين ان حفظ الايمان سالماً وان مجد الله نفسه كانا متعلقين على حفظ مدينة اورشليم تحت ولاية المومنين بالمسيح فاذاً الخبر الوارد الى الاوروبا بان

السلطان صلاح الدين قد امتلك لذاته مدينة اورشليم قد انهض شغفاً وقلقاً وحزناً وندباً وغموماً عظيمة عمومية عند سكانها فكثيرون من السلاطين والامرا لبسوا اثواب الحزن ودروا الرماد فوق روسهم واما البابا اوربانوس الثالث الذى كان قبلاً موجوداً فى مدينة البندقية مشدداً التحريض على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة وارسالها الى بلاد فلسطين اسعافاً للصليبيين قد سقط طريح الفراش مريضاً ثم انتقل الى مدينة فرارا ومات هناك محزوناً فالشعوب اذ امتلاءوا من الكدر والغموم صرخوا باصوات مؤيسة متشكيين مما حدث من التعاسة لاورشليم معتبرينه كانه انتقام الهى واضحت ضمايرهم من ثم توبخهم عنيفاً الامر الذى افضى بهم لاصلاح انفسهم وهكذا عدد فايق الاحصاء من المومنين شرعوا يمارسون افعال توبة شاقة جداً من الاماتات والاعمال الوفائية لكى يهدوا غضب الله المتسلط ونتج عن ذلك اثمار كاية الخصب من التهذيب الروحى الذي تلالا متجدداً فى السيرة المسيحية ☆

ثم ان المرائر والاحزان قد تضاعفت بتكاثر عند شعوب الاوروبا حينما غويليوم الصورى اي رئيس اساقفة صور اللاتينى الشاهد العيانى على حال اخوته المسيحية التعيسة الذين كانوا باقين فى المشرق قد حضر بذاته الى المغرب واخبرهم لساناً عن تلك الاحوال المحزنة وعن الاخطار القوية الملمة بهم وهكذا بتوسلاته وتحريضاته اجتهد فى جذب السلاطين والامراء الى اعانتهم على ان البابا الجديد غرغوريوس الثامن عند ما بلغه خبر سقوط اورشليم فى ايدي الاسلام (بعد امتلاكهم اياها بمدة سبعة وعشرين يوماً فقط) قد كان من ذاك الوقت اصدر حالاً منشوراً عاماً لسكان المغرب فيه اوضح لهم عظم الحزن وانجراح الفواد الذين

الّا به حينما بلغه علم هذا الحادث المهيل والداهية العظمى وقد كتب لهم من جملة اقواله هكذا انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه تستخدم خزاين الارض وكنوزها لاجل اكتساب البلاد جديدا التى فيها يسوع المسيح مات لكى يكتسب لنا بموته خزاين السما وكنوزها والاوان الذي فيه تباح الخيرات الزايلة لاجل امتلاك الخيرات العديمة الزوال ☆

ثم ان هذا الحبر الاعظم اختتم منشورة المذكور بقوله نحوهم الالفاظ التابعة وهى ☆

غير انكم لا تسيروا الى هذه الحروب الصليبية باثواب فاخرة وملابس ثمينة اخذين صحبتكم الطيور البواشق والكلاب للصيد بل تجنبوا كل ما يلاحظ السعة ولا يفيد سوي البذخ والمجد الباطل واحتشموا ادبا فى محاميلكم احرى مما انكم تهتمون فيما يرجع الى الفخفخة والصلف ثم اظهروا باعمالكم حقايق روح التوبة والخشوع ☆

غير ان هذا البابا قبل ان يتم الوسايط التى هو ابتدي بممارستها لاجل هذه الحرب الصليبية الثالثة قد رقد بالرب فى مدينة بيزا وانتقل تدبير الحرب المذكورة الى يد خليفته البابا اكليمنضوس الثالث ☆

فقد فوض الحبر الاعظم المذكور الانذار بهذه الحرب المقدسة لريس اساقفة صور غوليليوم نفسه وهذا المطران التقى الغيور غب ان اسمع اصوات انذاره للقاطنين فى اقاليم ايطاليا قد اسرع الى بلاد فرانسا منهضا غيرتهم الشهيرة ثم حضر فى الجمعية الملتيمة باوامر فيلبس افغوسطوس سلطان فرانسا وانريكوس الثانى سلطان الانكليز لان هذين السلطانين اللذان كانا يتحاربان بينهما احدهما ضد الاخر من اجل تملك بلد فاكسين قد تصالحا بمساعى

المطران المشار اليه واعظم شرفا المملكتين قد حضروا في هذه الجمعية معهما لكي تصير فيها التدابير الحتمية في شان صالح بلاد فلسطين فالسيد غوليليوم المذكور الذي لستقبله لرباب هذا الاجتماع الاحتفالي باكرام وشدة حرارة الغيرة قد تلى على مسامعهم اجمعين ما كان حررة تاريخيا عن كيفية سقوط مدينة اورشليم في ايدي الاسلام فتلاوته هذه الخبرية المتعيسة المحزنة القلوب صيرت الدموع منسكبة من اعين الحاضرين تيارات وحينيذٍ هذا الريس الكنايسي اخذ يحرض المومنين على اخذ الصليب والتوجه الى الحروب شارحاً لهم شقاوة حال اورشليم المسكونة وقتيذٍ جديداً من شعبٍ بربري منافق بالالهيات وكيف ان سيدة الطوايف وراس اقاليم عديدة هيَ اضحت تفى الخراج والجزية تحت رق العبودية وابوابها مغلقة تحت الظالم وسكانها المسيحيون ومثلهم الصليبيون هنالك مسافون كالغنم الى بلاد الاسلام يباعون في الاسواق كالعبيد الارقا قايلاً لهم باتباع خطابه هكذا ان امريات المشرق المسيحيه بقيت صامدة على ثلثة مدن فقط وهى انطاكية وطرابلوس وصور لا غير ونحن قد شاهدنا باعيننا ما كان تفوه بهِ قايلاً اشعيا النبى بقوله ان الرب قد مد يده وضرباته بالقروح من حد نهر الفراة الى حد نيل مصر لان سكان اربعين مدينه قد طُردوا من مساكنهم وفقدوا خيراتهم وموجوداتهم المختطفة منهم وساروا تايهين مع لعيالهم بالشقا والضنا فيما بين شعوب اسيا خلواً من ان يجدوا لذواتهم حجراً يسندوا اليهِ روسهم ❊

فخطاب المطران المذكور وانواع تحريضاته فعلت كما كانت اثمرت قبلاً مواعظ سابقيه بطرس السايح والقديس برنردوسّ جاذبة قلوب سامعيه الى الغيرة والحرارة المتقدة اجمعين كما ان السلطانين فيلبس اغوسطوس وانريكوس الثاني اللذان قبلاً

كانا متعاديين بعداوة قتالة احدهما ضد الاخر قد عانق بعضهما بعضاً في الجمعية المرقومة بهطل الدموع من اعينهما وتقدما قبل الجميع وتسلما صليب الحرب المقدسة وحالاً تبعهما ويكارد دوكا ده غونيانا بن السلطان انريكوس ثم فيلبس كونته ده فلاندرا وهوكوز دوكا ده بورغونيا وانريكوس كونته ده شامبانيا وقليبوت كونته ده بنواز ومثلهم فعلت امراء سواسون ونافار وبار وفاندوم كما ان الاخوين يوسالين ومنى ده موعورانسى قد ابرزا القسم على تخليص اورشليم من ايدى الاسلام ثم ان اعضاء هذه الجمعية كلهم قد صرخوا بهتافات مترادفة: هلموا نحو الصليب: فلنذهبن ورا الصليب: فالمناداة باصوات هذا الحرب قد رنّ في اقاليم مملكة فرانسا جميعها وفي البلدان الغريبة اليها وهكذا في كل الجهات قد تباشرت الاهتمامات والتجاهيز الى المسير في هذه الحرب الصليبية الجديدة ❊

فيقول احد المورخين المعاصرين ان الغيرة بالسفر في هذه الحرب قد كانت عظيمة بهذا المقدار حتى انه ما عاد يقع السوال عمن تناولوا الصلبات والاشخاص الذين رفضوا ان ياخذوا سلاحاً ما ليسافروا مع العسكر قد كان يرسل اليهم ركة ومغزل دليلاً على تخجيلهم من نذالتهم لا بل ان الامهات كنّ يحرضن اولادهن والعروسات عرسانهن على الذهاب في هذه الحرب وحزنهن كافة قد كان صادراً من قبيل عدم مقدرتهن على المسير معهم ثم ان اتقاد حرارة الغيرة النقوية قد امتد الى الاديرة والمناسك فاخرج منها عدداً وافراً من الرهبان والمتوحدين الذين رفعوا عن روسهم قلانس رسومهم الرهبانية ولبسوا عوضها خوذات الحديد للحرب ❊

غير ان الاموال الضرورية لحرب مثل هذا وجدت قليلة ومن ثم في ديوان المشورة الملوكية أُعطي الحكم من السلطانين ومن الامرا والاشراف بان كل من لم يكن يرد او يمكنه السفر

فى العسكر هو ملتزم بان يدفع في المصاريف عشر مداخيله وارباحه مع عشر ثمن موجوداته المنتقلة (لا الثابتة) فهذه الفريضة قد لُقبت بتسمية العشور الصلاحدينية وذلك لكى تذكر الناس بالروح الاثيم المذكور الذي جذب السلطان صلاح الدين الى محاربة المسيحيين والانتصار عليهم وقد برز بالسلطات الكنايسى الحرم الكبير مرشوقاً ضد كل من لم يقبل هذه الفريضة رافضاً ايفاها بنوع انهُ ما اُعفى احد من وضعها بالعمل ولا من الاكليروس العلمانى ولا من الاديرة الرهبانية فى اكثرها اذ ان الرهبان السكونديين الذين فى شيطو وفى فونطافلورت مع بيمارستانات البرص وحدها قد فازت بالتفسيح من ايتاء هذه العشورُ التى اقيم لها اناسٌ يجمعونها بصرامةٍ كلية غير ان الاموال المجموعة من هذه العشور الصلاحدينيه لم توجد كافية لمصاريف الحرب فلذلك اتجه وقتيذٍ النظر نحو اليهود الذي فى تلك الازمنة كانوا متمتعين بغنى كلى وسعة غير محدودة فسلطان فرانسا بالخصوص الزمهم بان يدفعوا الى جهة الخزنة المشاعة مبلغ خمسة الاف وزنة فضة (كل وزنة منها هى نحو ماية درهم) ففيها كانت استعدادات هذه الحرب تمارس قد مات انريكوس الثانى سلطان الانكليز ممتحناً بالحزن مما كان سببه لهُ ابنه ريكارد المتمرد عليه بتناوله الاسلحة ضده منضافاً الى حزب السلطان فيلبس افغوسطوس حينما كان يحاربه فهذا الابن ريكارد الملقب بتسمية قلب الاسد من قبيل شجاعته الفريدة اذ قد ورث تاج ابيه خليفةً لهُ فى التخت الملوكى متهوماً بانه قد عجل موت ابيه بعصاوته المتقدمة عليه فقد وجه هو حينيذٍ اهتمامه باسره فى شان الحرب ضد الاسلام فى بلاد فاسطين لانه اذ كان هو فى حيوة والده نفسه حينما بلغه اول خبر عن سقوط مدينة اورشليم

فى ايدي الغير المومنين قد نشر بيرق الصليب فى بلاد امريتة ليذهب الى الحرب ضدهم فلما جلس هو سلطاناً بعد ابيه صنع حالاً جمعيةً فى نورنتهامبطون من الروسا الكنايسين ومن اشراف المملكة فيها أعطى امر الانذار بالحرب المقدسة مفوضاً بيد بودوين ريس اساقفة كانطوربارى ❊

ثم ان هذا السلطان المحتد بالغيرة فى هذه القضية لم يكتفِ بانه يجمع اموالاً غير محصاة من مدخول العشور الصلاحدينية وبما اخذه من اليهود مبالغ وافرة بل انه باع الولايات الملوكية التى هى ملك التاج السلطانى الحر ووضع تحت المزاد المقامات العظمى قايلاً انى لقد كنت ابيع مدينة لوندرا عينها لكى اصرف ثمنها فى تجهيز العساكر وارسالها الى الاراضي المقدسة لو كنت اجد احداً يشتريها منى باموالٍ ❊

فقد صودف شخصا ريكارد قلب الاسد وفيلبس افغسطوس زينةً اولى جليلة جداً فى صدر معسكر هذه الحروب الصليبية الثالثة الامر الذي يوجب فينا ان نتكلم هاهنا عنهما خصوصياً ببعض ما يليق بهما فالسلطان ريكارد فى حال قوة صبوته كانت تصرفاته شريفة مهذبة مرتبة ولكن حمى سرية قد كانت دايماً تزيد حرارة دمه وتشعشع فى عينيه الموعبتين ناراً فنحن اذا اعتمدنا على مورخى سيرة حياته فهولاء وصفوه بانه جمع في ذاته شجاعة هاكطور الشهيرة ورجولية اكيلا الصنديدية ولم ينقصه شي عن مماثلة اسكندر ولا عن مساهمة الشديد في الابطال رولاند حاوياً فضيلة سخاء تيطوس قيصر وفصاحة نيسطور وفطنة اوليسو وفى ساير الاشيا الاخر وجد هو سامياً على الانام الاخرين ولكن هو بعد سن الصبوة تورط فى ذنوب مختلفة اكمدت اشراق ضياء صفاته اللامعة لانه اذ اضحى متغطرساً بالكبريا محباً للتامر

مسلماً ذاته لهوا عزايم غير مروضة فلم يعد يعرف شياً غير مستطاع لديه ولا مانعاً عديم ان يغلب لسطوته فنظراً الى رجوليته الغريبة وشجاعته الفريدة لولا تكون مقررة من مورخين صادقين خاليين من التغرض لكانت تلاوة اخبارها تظن اختراعات حكايا وهمية لا حقيقية ثم ان محبته المجد الدنياوي والرفعة العديمة اللجام قد صيرته ان يقلق بيت ابيه عينه بالتمرد على والده الذي مات موجوعاً من الاحزان التى هو سببها له غير ان الدموع التى ادرفها من مقلتيه هذا الابن المملو من الصلف قد استبانت باستيهال غفارة ملايمة لذنبه وطايفة الانكليز المغواة بصفات غيرته وسهره على اتمام الواجبات قد اقتبلوه بابتهاج سلطاناً عليهم وابرزوا له القسم بحفظ امانة الطاعة التى ثبتوا بها دايماً حتى فى ازمنة الشرور الاشد قساوة التي حدثت له ❁

واما فيليبس افغوسطوس الذي جلس سلطاناً في تخت مملكة فرانسا ببعض سنوات قبل ولاية ريكارد على تخت مملكة الانكليز كان متحداً معه بالصلح فلم يوجد قبله احداً ممن جلس فى كرسى الملك سلطاناً على فرانسا بعد كارلوس الكبير مماثلاً له فى العظمة وفاعلية الاعمال والشجاعة والسخاء والفطنة ومحبة العدل والاستقامة مملواً من الفضايل والاحترام نحو الديانة جامعاً فى ذاته الصفات الجليلة كلها اللايقة بالسعادة الحقيقية فقبله الانام الذين جلسوا فى تخت مملكة فرانسا ما فازوا بسنى اخر اصلاً خارجاً عن تسميتهم سلاطين فرانسا وحدها واما هو اي فيليبس افغوسطوس فاذ صودف اشد قوة واوفر دراية من جميعهم فقد صير اكتسابه من جديد اقاليم نورمانديا والمقاطعات الاخر التى كانت الانكليز اختطفوها قيمة لرجوليته وبطنته

بدخولها تحت ولاية فرانسا كما انه بحكمته ودرايته جعل ايالات افارنيا وارطواز وبيكارديا وولايات اخر ان تضاف الى سلطنة فرانسا خلواً من محاربة او سفك دم ومن ثم فى تواريخنا الفرنساوية قد صوّر هذا الجليل فى الملوك جد القديس لويس بصفات اضحى هو الاعظم بها فيها بين سلاطيننا الفرنساويين ولقد كان هو ظهر فى التواريخ المتاخرة عنه ذا اسم اعظم ومجد افخم لو امكن للمورخين ان يتناسوا ما حصل من الاضامات والاضرار الظالمة من السلطانة فيجالبورج الامر الذي التطخ به في اخبار خيانة هذا السلطان عيباً مكروهاً بمقامه ودايماً سيكون علةً لاكمداد اشراق مجده واخماد ازاعة اسمه بالمديح الذى وطنه ومملكته تغرظت به باستحقاق معترفةً بجميل غيرته واعماله العظيمة نحو خيرها *

اما السلطان ريكارد الذي بحسب كونه ممتلكاً اراضى نورماندريا كذوي الاملاك فى املاكهم اضحى بعد ان اخضعها فيلبس افغوسطوس لولايته السلطانية كاحد مروسيه ذوي المقاطعات بدون فرق فلم يمكن لشراسة حميته واحتداد طبعه العديم ان يطيق رياسةً ما فوق راسه ان يطيع مثل هذه الطاعة لفيلبس الغيور الطالب اداء الجزية وايفاء الحقوق العادلة بصرامة من كل الذين اخضعهم الى ولايته واقتداره فمن ثم ظهر حالاً عدم الاتفاق وسمات الغيظ ما بين هذين السلطانين الشابين الحاري الدم الشهيرين فى الرجولية الكبيرين فى البطش اللذان كلٌ منهما لم يكن يتغافل عن استلال سيفه من غمده لياخذ به الثار عن الاهانة الصادرة فى حقه ولين كانا قبلاً صودقا مرات مترادفة متحدين بالصلح وريكارد فى حيوة والده قد تصرف في ظروف كثيرة كمروس حقيقى لفيلبس ولو انه كان وقتيذ

ايضاً نمو عالي الشرف ابناً وريثاً لسلطات الانكليز ❊

ففي حادث الحرب الصليبية قد اجتمعا هذات السلطانان فيلبس وريكارد في نورماندیا نفسها وبغيرتهما الشديدة على صرامة التهذيب في العساكر التي هما كانا مهتمين في ارسالهم الى المشرق وفي ابعاد كل الرذايل من بينهم قد رتبا شريعةً ذات اوامر سلطانية شديدة في هذا الشان ملايمة الغاية المذكورة ومن جملة ذلك قد تحرم على النساء مطلقاً ان يسافرن مع هذه العساكر الى الاراضي المقدسة لان وجودهن السابق في الحربين الصليبيتين المتقدمتين قد سبب البلبلة وهدم النظام بنوع ردى جداً وكذلك قد تحرم كل نوع من لعب القمار ذي الخطر باعراضه واعطيت الرسوم اللايقة في حفظ القناعة الواجبة نظراً الى المعاش ونظراً الى الملابس وترتبت فرايض اخر كثيرة في هذا الموضوع بنوع انه لم يصر ادنى تهاون في استعمال كل الوسايط التي تقود الجيوش الصليبية الى البساطة المسيحية والى حفظ الشرايع الانجيلية والفضايل الادبية ❊

فاذاً فيلبس افغوسطوس وريكارد اذ كانا متحدين معاً بالصلح تحت سنجق الصليب قد جمعا بيارق عساكرهما معاً للمسير جملةً الى اراضي سوريه وقد انهى كلٌ من هذين السلطانين اشغاله الخصوصية والتقيا معاً في مدينة ماسالاي الصغيرة التي تشعشعت بحضور القديس برنردوس فيها وهناك تحالفا على اتحاد موبد بينهما بالصلح والاتفاق ثم تفارقا من ثم موعب كلٌ منهما نحو الاخر بالاحترام والاعتبار المتبادلين فريكارد ذهب الى مرسيليا كي ينزل في المراكب مسافراً نحو المشرق وفيلبس بعض ان فوض تدبير المملكة الى والدته اديل والى عمه كردينال شامبانيا قد ترك الصولجان الملوكي وتسلم عوضه من كنيسة

القديس ديونيسيوس اسلحة السفر الى الحرب المقدسة ثم سافر الى جينوا وكان الاتفاق على ان السلطانين فيلبس وريكارد يجتمعان بالمراكب فى بحر ماسينا حذا جزيرة سيشيليا ✿

ثم ان ملكاً ثالثاً قد انجذب من مواعظ غويليوم ريس اساقفة صور فتسلم هو ايضاً الصليب ليسافر به فى هذه الحرب الثالثة المقدسة وهو فريداريكوس الاول ملك النمسا الملقب باللحية الحمراء فهذا القيصر الشجاع المتحنة رجوليته قبلاً فى اربعين معركةٍ حربية قد كان حادثاً فيما بينه وبين الكرسى الرومانى نوعٌ من المغايظة فهذه الحرب الصليبية قد كانت طبيعياً تقدم لهُ واسطة للرجوع الى الالفة مع الحبر الاعظم والقبول لديه فقد كان اسم هذا الملك جليلاً شريفاً فى مدة ولايته المستطيلة بسعادةٍ على مملكة النمسا ولكن اذ كانت جميع الاشراف حكموا بان مجده كان ناقصاً غير كاملٍ بمقدار ما انه توخر عن ان يسعف الحرب المقدسة بمعونته فهو فى جمعيةٍ امر بصيرورتها فى مايانص قد لبس اذاً الاثواب المكرسة المختصة بهذه الحرب ومثله اقتداءً بموذجه اعظم امرا مملكته قد جهزوا ذواتهم اليها كما ان كنايس المانيا كلها اذ تحركت بالغيرة من مواعظ هذا الرسول الثالث غويليوم الصورى المبعوث اليهم من بلاد فلسطين قد انذرت بنيها وحرضتهم على تناول الاسلحة والسفر الى المشرق لاعانة اخوتهم الباقيين هناك بالاحوال المحزنة التى اخبرهم عنها غويليوم شفاهاً ولكى ينتقموا عن الاهانات الصادرة فى حق ديانة يسوع المسيح ✿

فالملك فريداريكوس قد كان فى الحرب الصليبية الثانية قبلاً ذهب برفقة عمه الملك كونراد وكان شاهداً عيانياً على الدثار التعيس الذى احاق بتلك المرسلة المنحوسة ومن ثم هو قد

عولس بحكمته ان يسبق ويلاحظ منع شرور جديدة ففى جمعية عقلائها فى نورامبارك ورسم بعمل امثالها فى مدن اخر مختلفة قد تولفت فرايض مفيدة جداً لغايته وتمارست جميع الوسايط الضرورية لحفظ عساكره العديدة بصرامة التهذيب من حدوث قلة النظام او الضيم ولم يكن بموجبها يُقبَل ولا واحد من المحاربين تحت رايته الملوكية فى هذا الحرب ما لم يكن موجوداً معه قلما يكون ثلثة وزنات من النضة (اى نحو ثلثماية درهم من فضة) فبهذه الطريقة امتنع من ان يسافر مع الصليبيين اوليك الناس الباطولية مع الدوارين بالفضول والعديمى التهذيب الذين فى الحروب الصليبية السابقة مرات سببوا باعمالهم ورذايلهم الاضرار لقضية المسيحيين ❁

ثم ان الملك فريداريكوس بعد ان وكل عوضاً عنه فى تدبير المملكة مدة غيابه عنها ابنه انريكوس قد سافر من راتيسبونا على راس معسكر اللامع المولف من ماية الف محارب سنة ١١٨٩ مجتازاً بلاد هونكريا نظير الصليبيين الاولين ثم بولغاريا التى فى اقليمها العساكر النمساوية تكبدوا موانع واهانات من سكانها (فيقول المورخ المعاصر الرفيق فراداريكى) الا ان الذين كانوا يقعون فى ايدينا من هولاء الناس فى طول مدة اجتيازنا فى اراضيهم كنا نربطهم معلقين على الاشجار منكسين روسهم الى اسفل نظير كلاب دنسة او نظير دياب خاطفة ❁

ثم ان الملك فريداريكوس قد ارسل امامه قصاداً الى اوليا الامور المسيحية والاسلام الذين كان هو عتيداً ان يمر بعساكره فى اراضيهم وقد كان انريكوس كونته ده اولاندا مضى الى السلطان صلاح الدين واخبره من قبل الملك المذكور بسفره من بلاده وقدومه اليه وبان شعوب المملكة الرومانية كلها ياتون ضده ان

كان لا يرجع اورشليم للمسيحيين ويرد اليهم خشبة الصليب التي مات المسيح عليها فصلاح الدين اجابه معدداً له قواته واقتداره قايلاً اننا بالارادة الالهية نحن امتلكنا اورشليم وكل البلاد المتعلقة بها ولم يعد باقياً في تملك النصارى سوى ثلاثة مدن وهم صور وطرابلوس وانطاكية وهذه المدن لا يمكنها ان تلبث زماناً طويلاً بل سريعاً تخضع لشرايعنا وان كنتم انتم تشتهون الصلح اعطوا الاوامر للقواد الذين في المدن المذكورة بان يسلموا اياها خلواً من مقاومةٍ بعد وحينيذٍ نحن نرد اليكم خشبة الصليب وفي ذاك الوقت ايضاً نطلق المحابيس النصاري الموجودين تحت الاسر وهكذا نعود متصالحين معكم ☆

فالعسكر النمساوي مع ملكهم قد بلغوا اراضي المملكة الرومية قبل ان السلطانين فيلبس وريكارد كانا نزلا في المراكب للسفر الى بلاد فلسطين وقد كان حينيذٍ جالساً في تخت القسطنطينية الملك اسحق الملاك وقد كان هو بالخباثة والحيل الوارثها عن سلفايه حالما بلغه مشي الجيوش النمساوية نحو بلاده اسرع وعقد الصلح مع السلطان صلاح الدين وكان اعطى الاوامر لعساكره بان تتهيأ لمحاربة اللاتينيين فلما وصل الملك فريداريكوس الى مدينة فيلبوبولى قد تحقق ان قصاده مطروحين تحت السجن في القسطنطينية ووقتيذٍ عرف يقيناً انه عدوٌ الذ له ذاك الذي هو كان يعتقده صديقاً معهُ متحداً بالصلح فغضب جداً من تصرفه هذا وعساكره شرعت تدثر بلاد الروم مدة عدة اشهر ومدن ادريانوبولى وديديموتيك وسيليفريا وغاليبولى وساير السهول التى من جهة شط بوربونديا اليمينى مع هاليسبونت قد سقطت في ايديهم تحت ولايتهم والمدينة القسطنطينية بيزانصيا القديمة كادت تقع في ايدي هولاء الجيوش النمساوية

في الوقت الذى فيه العساكر المقبلة من البندقية ومن انكونا ومن جينوا بمراكب عديدة عند ما فهموا عداوة الملك اسحاق قد استوعبوا ضده رجزاً واستعدوا الى ضرب مدينة القسطنطينية من جهة البحر فحينئذٍ اسحاق امتلى خوفاً ورعدةً من قوة هذه الجيوش العظيمة المدبرة من ثلاثة ملوك على روسها فقد خمدت كبرياه وواضع وجهه خجلاً امام هولاء القوات النمساوية والفرنساوية والانكليزية وعرف احتياجه الى ان يضع البحر فيما بينه وبينهم فاطلق المحابيس وقدم الذخاير الوافرة للصليبيين وهياء لهم الف وخمسماية مركب وستة وعشرين غلياطة لتنزل العساكر النمساوية فيها وتنقلها الي مين الاسيا ☆

واذ وضع ذلك بالعمل فالعساكر النمساوية قطعت الى اراضى اسيا الصغري وساروا فى البر بعناءٍ واضامةٍ لكنهما ليسا بمقدار ما كانت تكبدته عساكر الملك كونراد فى المرة السابقة وهكذا ملكهم فريداريكوس على روسهم قد اجتازوا من لامباسكا ومروا على غرانيكا وبلغوا الى ما بين جبل اوليمبوس وجبل ايبا نحو مدينة فيلاديلفيا وكانت هذه المدينة وقتيذٍ على حدود البلاد التى فى ايدى الاسلام ولذلك سكانها رفضوا ان يقدموا لهولاء العساكر المسيحية ذخاير القوت الامر الذي اشعل فيهم نيران الغضب وحدث فيما بين الجهتين مضاربة دموية ثم ان العساكر النمساوية اجتازوا من ميسوسيس وبعد نزولهم فى محلات ردايم تريبوليس وجيروبوليس مروا فى ليكوس التى هى مياندرا الصغيرة ودخلوا مدينة لاوديسيا حيث وجدوا ذخاير ماكولات وافرة جداً وهناك مكثوا بعض ايام ليرتاحوا من اتعابهم التى اضعفت قواهم ☆

ولما اخذوا بالسفر من هناك مداومين مسيرهم مجتازين كوطايا

وسط بحيرة صالينس بلاداً قفرة واراضى وحقولاً قحلة ففى طول هذه المسافة صادفوا فى عدة امكنة عساكر اسلامية وجموعاً هاربة الى الجبال من بلادهم عند سماعهم خبر مجى الصليبيين اليهم ولكن الملك فريداريكوس قد كان حرم على جميع عساكره النهب مطلقاً ولو باي نوعٍ كان ومن اي جنسٍ كان وهذا المنع احترم من الجميع وحفظ بتدقيق الامر الذي اعطى نموذجاً صالحاً فى كل مكان على القناعة وحسن التهذيب ثم انه من حد شط بحيرة صالينس الى فيلوميليوس مدة عشرين يوماً من سفرٍ شاقٍ مضيمٍ قد توالبت على هذه العساكر النمساوية الاسلام بتواصلٍ ايناً فايناً بنوع ان الصليبيين وجدوا فى هذه المسافة كلها كانهم فى معركة دايمة ضد اعدايهم خاصةً بالقرب من هذه المدينة فيلوميليوس حيث العساكر الاسلام هجموا على النمساويين بشدة عنيفة ولكنهم اختبروا فى ذواتهم حقيقة شجاعة هولاء الجيوش المسيحية الذين بددوهم مدثرين واما اليوم التابع تلك المعركة الذي هو يوم عيد العنصرة فقد اضحى هو يوماً شايع الذكر للعساكر النمساوية لان قايد جيوش سلطان ايقونية جاء ضدهم بمعسكر محتوي حسب تقرير بعض المورخين، على ثلثماية الف مقاتل وهكذا القايد مالك المذكور عقد الحرب معهم فى اليوم المذكور فهولاء الحاملون الصلبان اذ وطدوا رجاهم بالله رب الجنود ما توخروا عن ان يهجموا طغماناً على باطن صفوف الاسلام ضاربين بالرماح والسيوف والحراب يميناً وشمالاً بشجاعة مجندلين الاسلام فى الاراضى جموعاً مبددين مصافاتهم ببلبلةٍ شديدة الامر الذي افضى بالغير المومنين الى الادبار هاربين تايهين اجمعين والمسيحيون فازوا بتمام الغلبة عليهم فبعد نهاية المعركة كما قرر المورخون واحدٌ من الاشراف قد ابرز القسم

على ايمان سفرة هذا نحو اورشليم بانه حين المعركة شاهد طغمةً سماوية باثواب بيضاء مع القديس جاورجيوس يحاربون الاسلام عضداً للصليبيين الى ان فازوا عليهم بالانتصار ✿

ثم ان الجيوش المسيحية واصلوا مسيرهم نحو راس مدن اقاليم ليكاونيا وهناك كان معداً لهم نوع من الشقا على ان الدالول الخاين الذي كان ماشياً امامهم ليريهم الطريق قد اخذهم في سبيل مبلغة الى قفار غير مسلوكة واراضي عديمة الماء فالعساكر كلمعي من التعب في مسافة مستطيلة وشدة حرارة الشمس قد ضاعفت فيهم اللغب والظماء القتال من قوة العطش (فيقول المورخ فراداريكجي) ان البعض منهم كانوا ينطرحون فوق بعض جيف للخيل الساقطة في الطريق مايتة من العطش مفتشين في احشايها ولو على قليل من الدم الذي يمكنه ان يرطب في افواههم حرارة الظما المذيب فاذ شاهدهم الملك يصنعون هكذا فقد اخذته الشفقة فقال لهم ايها الجنود الشجعان امسكن ذواتكم عن هذا الفعل اوآه ان هولاء المساكين لا يفتكرون في شي اخر الا في الموت فنحن انما جينا لمعونة اخوتنا لكيما يعدموا بايدين فلا ندع ذواتنا نصير مذبحة للعدو الساعي في اثرنا ✿

فالعساكر اذاً حلوا في ارض عقيمة خالية من المرعى والبتول وقد صار الاهتمام في ان المضارب تنصب بحبالٍ قليلة ليلا يباغتهم العدو وهناك هم اجتازوا ساعات الليل ولكن يا لها من ليلةٍ تعيسة (يتبع المورخ المذكور قوله بكلامه) لانه عوضاً عن الحصول على راحة النوم ما وجد ولا صودف الا التعب والاضامة الموجعة بالعطش والجوع ولم يكن يسمع فيها الا البكا والندب والانين والبعض كانوا يفتشون على ان يخرجوا الدم من عروق خيولهم ليمصوها ويبردوا به لهيب السنتهم وغيرهم كانوا

يمضغون باسنانهم بعض اخشاب ناشفة لعلهم يجدون فيها نوعاً من الطراوة وكان يبان ان عذاب عطشهم قد انساهم عذاب جوعهم الشديد ❊

ففي اليوم الثاني قاموا من هناك سايرين في الطريق تاركين في الارض الخيول والبهايم ذات التحميل التي ما عادت قادرة على المشي وان شاهدوا عن بعد اراضي منداة بمياه قد تكردسوا ركضاً اليها بفرح كشوق الايل الى ينابيع المياه بعد اضاعته من شدة الجري مطروداً من الصيادين وقد صادفوا الماء المستقر هناك موحلاً منتناً ولكنهم شربوا منه مستشعرينه أحلى من ماء الزلال ❊

فلما كانوا هناك اتاهم من قبل سلطان ايقونية قصاداً يقولون عن لسانه انه كان يسمح لهم بالعبور في اراضيه وبان يسيروا فيها ويخرجوا منها بتمام الحرية والامان وبان يحصلوا على ذخاير القوت خلواً من مانع بشرط ان يدفعوا اليه ثلثماية سكوت من ذهب اما الملك فريداريكوس فاذ سمع كلامهم هذا اجابهم قايلاً . انه ليس من عادتنا ان نشتري طريق مسيرنا بقيمة الذهب بل نحن نعرف ان نفتح لنا سبيلاً بقوة حديد اسلحتنا بعد قوة معونتنا من سيدنا يسوع المسيح الذي انما نحن جنوده فالقصاد اغتاظوا من هذا الجواب ورجعوا الى الورا قايلين كونوا باجمعكم متاكدين انه نهار غدا صباحاً سلطاننا يعلق الحرب ضدكم بكل قوته ❊

فالجيوش المسيحيه اخيراً بلغوا الى مقابل اسوار ايقونيا مضنوكين جداً من الاتعاب والشقا ثم ان تهديدات الاسلام المتوافرة قد اوقعت فيها بينهم كآبة قوية الا ان الاساقفة (يقول طاجانون المورخ) قد حرضوا الصليبيين قايلين لهم استغيثوا بحماية القديسين جاورجيوس وفيقطر اللذان مرات شوهدا فيها بين اجواق الملايكة

المرافقة ايانا والمحامية عنا فى معركات الحرب فلنستدعى اذاً لمعونتنا القوة الالهية والجنود السماوية بواسطة الصلوات والتسابيح والصوم والبكاء ☆

فالعساكر من ثم انقسموا الى قسمين فالدوكا ده صوابه ابن الملك نفسه تُسلم تدبير القسم الواحد فى محاربة المدينة المذكورة فى الوقت الذي فيه كان الملك نفسه على راس القسم الاخر فى الرافعة ضد الاسلام الخارج المدينة فالمورخون النمساوية هنا يشرحون باسهاب وتفصيل جميع ظروف القتال التى تمارست بعناية الملك وابنه فى الجهتين والشجاعة الغريبة التى ظهرت من جيوشهما (فيقول الواحد من الاثنين بين المورخين الشاهدين عياناً) انه ولين كانت عساكر الإسلام هناك من الخيالة وحدهم نحو مايتى الف خيال فمع ذلك الملك قد بددهم والزمهم بالهرب مدبرين بقوة الاله العلى فهذا الفعل ليس هو عديم الاستحقاق بان يتدون فى سجل التاريخ لدوام ذكره لان مدينة ايقونية هى مساهمة ذلك بالعظمة ☆

ثم يقول مورخ اخر (وهو طاجانون) ان الملك الغير مغلوب ولو انه صار وقتيذٍ منهوكاً من شدة التعب والنصب فليس لاجل هذا يستمر هو مجاهداً بشجاعة مضاهية رجولية المكابى العظيم الشريفة لانه ادار راس حصانه ضد العدو وتبعته فرسانه الغزاة فهجم على الاسلام كالاسد واذ انهم امتلاوا منه جزعاً ورهبةً قد ولوا من امامه هاربين خلواً من ان يجسر احداً منهم ان يرفع ذراعه للقتال وسقط منهم تحت سيوف الصليبيين نحو عشرة الاف مقتولين فبعد هذا الانتصار دخل الملك المدينة حيث لاقاه ابنه الذى كان دخلها قبله بملافات الغلبة والظفر وهكذا الغنايم التى وجدوها هناك من ذخاير القوت والموجودات

قد ازالت عنهم الجوع والعطش ونحن لجمعون فى اليوم المقبل احتفلنا باداء واجبات الشكر لله على نعمته هذه العظيمة (انتهى كلام المورخ المذكور) ثم ان العساكر النمساوية اذ اتبعوا مسيرهم من ايقونية بلغوا الى لاندرا المدعوة الان قرامانية المدينة البعيدة عن ايقونية مسافة نحو ماية وخمسة اميال ولكن (يقول المورخ) ان الاضامات والشدايد التى تكبدتها فى هذه المسافة ليس فقط اللسان البشري بل الملايكي ايضاً لم يكن كافياً لشرحها ثم ان زلزلة عظيمة حدثت وفى هدو الليل غفلة شعروا بقعقعة الاسلحة وصهيف الخيل كان جيوشاً باعتنهم بها عدد كلى من العساكر الخيالة فانقطعت قلوبهم خوفاً ورعبةً الا انهم لم يروا احداً فكان احدهم يسال الاخر عن ذلك وعن علته فلم يوجد احد يعلم الحقيقة (غير ان المورخ يقول) ان الحكما فيهم قد استدلوا منه متاكدين انه كان هذا علامةً منذرةً بحادث مهول قريب وقوعهم فيه ولكن الملك وجيوشه قد وصلوا اخيراً الى حدود الاراضى التى كانت تحت ولاية الامرا المسيحيين وهناك اتتهم قصادٌ من قبل امراء بلاد ارمينية يقولون للملك فريداريكوس من قبلهم انهم مستعدين الى ان يقدموا له كل المعونات التى كان هو محتاجاً اليها فاي نعم ان الصليبيين حينيذٍ نبذوا عن ذواتهم الخوف من الاسلام الا ان مسافة مرورهم فى خطوط جبل طاوروس العسرة المجال ذات العذاب المر كانت منتظرة امتحان صبرهم (قال المورخ) ان الاساقفة المرضي كانوا محمولين على تخوت والسياس الحاملين اسيادهم قد كلوا من المشقة والتعب ثم فى محلاتٍ من هذا الجبل المجال ضيق معوج وعر بنوع ان المتقدمين فى الاكليروس والامرا والاشراف انفسهم اضطروا الى المشى بارجلهم واحياناً علي اياديهم وارجلهم معاً نظير الحيوانات ذوات الاربع

فيها كان يوجد من عن يمينهم وشمالهم اودية عميقة جداً
والسقوط فيها يصادف الموت لا محالة ولكنهم تكبدوا هذه المرائر
والاخطار كلها بصبر وفرح لان محبتهم للمسيح كانت تسند شجاعتهم *

فاخيراً الاضرار الاعظم والمشقات الامرّ قد جازت منتهيةً
والتمتع بمجدٍ قريب قد فتح اعين العساكر جنود المسيح في
الوقت الذي فيهِ حادثٌ مهيل وعرضٌ محزنٌ داهم بغتةً
هذه الجيوش وانهى مرسلتهم غفلةً بنوع مرعب فى الغاية بعد
ان كان صيتهم رن فى الافاق والقى الخوف في قلوب سكان الاسيا
كافةً وهنا كتبة ذاك العصر ومورخوه عند تكلمهم عن هذا الحادث
كانت تاخذهم الرجفة من غوامض احكام الله الغير المدروكة
فالعساكر المسيحية كانوا مشاة على شط النهر المسمى سالاف وهو
نهر غير كبير بداية نبعه بالقرب من مدينة لاراندا ونهايته فى
بحر كيليكيا فالملك فريداريكوس اما رغبةً منه فى ان يرطب
جسمه بمياه ذاك النهر المتموجة امامه قصد ان يستحم فيها
واما شهوةً منه فى ان يجتاز النهر سابحاً الى الشط الاخر
قد طلّع اثوابه ونزل فى المياه ولكن على الفور حالاً اعترته قشعرةٌ
شديدة وطلب الاغاثة وحالاً بسرعة الخدام اختطفوه من النهر
منزعجاً منازعاً وبعد دقايق قليلة مات *

فيا ايها البحر . ايتها الارض . يا سما السماوات (هنا يصرخ
من شدة حزنه العلامة غوتير فينصيبون) : ها هوذا مهذب المملكة
الرومانية ها الملك الذي وجد دايماً افغوسطوسياً عظيماً انهل
يباد مختنقاً بالمياه مع ان ارفاقه بنوع عجيب حالاً انتشلوه
واهتموا بهِ فى شدة حزنهم : فيا ايها الرب ان احكامك هى عمقٌ
لا قرار لهُ فمن قراه يجسر ان يغوص في بحر مراسيم عظمتك
العديمة ان تدرك فانت مخيف جداً فى ديوان مشورتك فيها

يلاحظ بني البشر (هكذا هتف المورخ انريكوس هانسيك بعد ايراده خبرية الحادث المقدم ذكره) *

فوفاة الملك فريداريكوس بهذا النوع قد صارت اعظم ضرورة لجيوشه من انهم كانوا يخسرون معركة في الحرب بانكسارهم فالنمساويون اجمعون ادرفوا من عيونهم سواقي الدموع على قايدهم الشجاع الذي كان اضحى مرعباً للاسلام وقد عرف ان يجعل عساكره مرات عديدة فايزة بالغلبة على الاعدا فالحزن العظيم والتوجع الاليم اللذان استحوذا على قلوب هولاء الصليبيين قد اباد منهم الشجاعة وادخلا في العسكر البلبلة والقلق والتبديد فقد كان في هذا العسكر (يضيف غوتيير كلامه الى قوله المتقدم) عدة عيلات وافربا لهذا الملك مع ابنه نفسه ولكن لم يكن يتميز حزن هولاء الشديد وتوجعهم القلبي المر عن احزان ومراير الجميع لان البكا كان عاماً والندب طاماً وتفتيت الاكباد بالحزن تاماً على فقد ملكهم وقايدهم وسيدهم وابيهم فالبعض منهم ما احتملوا ثقل هذه المصيبة فما امكنهم ان يعيشوا زماناً طويلاً وغيرهم اذ سلموا ذواتهم لليأس قاطعين رجاهم من بلوغ المقصود العمومي قد اهملوا سنجق الصايب وخرجوا من العسكر والبقية حملوا معهم جسم ملكهم وساروا به رويداً رويداً عديمين من التعزية في بحر من الغموم مقسومين جملة اجواق مختلفة فبعض هذه الجموع دخلوا مدينة انطاكية ولكن هناك تلف اكثرهم موتى بامراض وبايية بددتهم وغيرهم كثيرون ساروا نحو مدينة حلب الا ان العساكر الاسلام ادركتهم وما نفذ منهم سوي القلايل وبالاجمال هذه المائة الف عسكري التي منذ مدة وجيزة كانت خرجت من بلاد النمسا مشرقةً ببهاء الصيت والقوة وحسن النظام بالكاد وصل منهم الى بلاد فلسطين خمسة

الاف فقط فهنا الحكمة البشرية تخجل من ذاتها وعجزها لانه يسال بخوف ورعدة تري ما الفايدة اذاً من استعدادات الملك فريداريكوس وملاحظته الامور العتيدة واستدراكه المحزورات واستخدامه كل الوسايط ذات الفطنة لكى يبلغ بها اكيداً الى غاية الاعمال التى باشرها فالجواب هو ما يقوله حسناً المورخ غوتيير نفسه (الذي نحن منه اخذنا خبرية هذا الحادث التعيس مع ما قبله عما يلاحظ الملك المذكور وعساكره) ان الانسان يرتفع الى تاملات عالية ويدخل ان امكنه الى اسرار الله الخفية وفحص احكامه تعالى التى هى اعماق غير مدرك قرارها وهناك يجد هو مرات ما يجعله ان يندهل ويقلق منزعجاً ولكنه يعرفه عزّ وجلّ دايماً انه هو علة الاشيا كلها وهو مبدع الامور باسرها ❁

الفصل الخامس

فى الحروب المصنوعة من السلطان صلاح الدين وفى حصار مدينة عكه ثم فى وجود السلطانين فيلبس وريكارد فى بلاد فلسطين

فالسلطان صلاح الدين المتملك بالانتصارات طبارية واورشليم وما يحوطها قد مشى بعساكره الى اراضى سوريه واوقع الرعدة والجزع فى قلوب جميع المسيحيين المتجه هو ضدهم والامور كلها مع الناس كانت تخضع امام اقتداره الا مدينة واحدة فقط قد ثبتت راسخة فى ذاتها مقاومة قوة هذا السلطان التى جمعها كلها وتنفيذ ضدها وهى مدينة صور سيدة البحر القديمة على ان سكانها اذ تشجعوا من اقوال كونراد ابن امير مونفرات المغنعة قد ابرزوا القسم بانهم كانوا بالحرى يموتون كلهم من

انهم يسلمون ذواتهم لولاية الاسلام فهذا الشاب السعيد الذى يبان ان الله ارسله اليهم ليكون مخلصاً لمدينتهم قد تسلم هو نفسه تدبير الحرب ريساً على المقاتلين وذلك سنة ١١٨٩ فوسع خنادق اسوار المدينة وعمقها وشيد الامكنة المهدومة وحصنها وعلم اهل صور كيف يناضلون عنها ضد قوة العدو *

اما صلاح الدين فبعد محاصرته هذه المدينة شديداً ومشاهدته قوة مناضلة سكانها عنها بنوع غريب قد استوعب رجزاً وفكر بان يستعمل ضدهم واسطة خارجية فقد كان الامير كونراد الشيخ ابو الشاب كونراد المذكور اسيراً منذ سنين عديدة مطروحاً فى حبس مدينة دمشق يتكبد السفا المرّ ويانّ تحت قيود العبودية فصلاح الدين ارسل فاحضره اليه من دمشق ثم بعث يقول لابنه الشاب الفاقد ان يغلب هذه الالفاظ وهى ها هوذا ابوك الذي انا مستعد لان ارده اليك وما عدا ذلك اعدك بان اعطيك مقاطعة غنية في سوريه ملكاً لك ان كنت تفتح لى ابواب المدينة ولكن اذا انت صررت مداوماً علي المحاربة فاعلم انني اصير ان يوضع والدك الشيخ امام صفوف الاسلام ليميتوه عن المحاصرين ان ينظروه فالشاب كونراد قد رد له الجواب بقوله انني احتقر مشاهدة الغير المومنين فاي نعم ان حيوة والدي هى عزيزة لدي خلواً من ريبٍ ولكن قضية المسيحيين هى ايضاً عندي اعز واكرم فان كان السلطان صلاح الدين هو بربرى بالقساوة الكافية لان يميت انساناً طاعناً بالسن موعباً من الاضامات فانى افتخر جداً حينئذٍ بكونى مولوداً من ابٍ شهيد *

فعندما سمع صلاح الدين هذا الجواب واندهل منه كثيراً قد تناسى تهديده المذكور وصير جيوشه ان تشدد الحصار والضرب

الا ان الصوريين استداموا على قوة المناضلة عن المدينة برجولية سامية وقد تلالا فيما بينهم الاشخاص الموجودين عندهم من جمعيتي الهيكليين وضياف الغربا بشجاعة فايقة الوصف اذ انهم كانوا اتوهم من خارج جريا ليحاموا معهم عن مدينتهم ✻

واحد هولاء الذي عرف في التاريخ تحت تسمية : فارت الشريف: قد تفاضل عن الجميع باعمال جهبزية عجيبة من المروة والشجاعة فلما قطع رجاه صلاح الدين من انه يقدر ان يجعل ذاته سيداً على مدينة صور هذه قد رفع اخيراً الحصار عنها وانطلق بعساكره وحاصر مدينة طرابلس ولكنه هناك ايضاً صادف ما راه حذاء صور فعجز من امتلاك طرابلس ايضاً وانثنى راجعاً ليس من دون خجالة ✻

ثم ان تاريخ الحروب الصليبية يوضح لنا انه في الزمان المومى اليه اذ كان المسكين غوى سلطان اورشليم سابق أطلق من الاسر قد شرع مجتهداً في ان يرجع ولاية المدينة المقدسة الى حقها الذي له حيثما ظروف الحظ الموافقة ساعدته علي امتلاك قصده برهة ما فهو قد جمع تحت سنجقه تسعة الاف محارب وجاء بها ناصباً معسكره امام اسوار مدينة عكة سنة ١١٨٩ عينها فهنا يستحضر امام اعيننا حادث هو الاكثر شهرة والادوم تذكرة فيما بين حوادث هذه الحرب الصليبية الثالثة فالحصار ضد مدينة عكة هذا قد اضحى فرصة لمعركات كثيرة مشرقة بالمجد والاعمال لامعة بالمديح مما جري في معسكر الصليبيين تارة من المصايب الشديدة التي احتملوها بصبر وتارة من الانتصارات التي فازوا بها على اعدايهم وفيما بين هذه وتلك نحن نصادف صورة مضاهية لما كان حدث من الامور في ازمنة الحرب الصليبية الاولى بالحصارين اللذين تما حذا اسوار انطاكية واورشليم ✻

على ان مدينة عكة بطولوماوس القديمة هي مشيدة بصورة مثلثة الزوايا عند شط البحر في اخر سهول واسعة حصينة اكثر من ساير مدن المشرق باسوار عالية وخنادق عميقة وبابراج شاهقة قوية جداً لحمايتها من ناحية البر خاصة احد هذه الابراج المسمى البرج الملعون الذي انما لقب هكذا (كتقرير المورخ غوتير) لاجل انه تعمر اخيراً ضمن جدران المدينة وبه توطدت الخيانة ضد اليهود سابقاً ثم بسد من حجر مصون ميناها المحمي بحصن برج كقلعة مبنى فوق صخرة عظيمة جزيرية في وسط المياه البحرية فاذ كانت اذاً هذه المدينة المحصنة على الصورة المشروحة ساقطة قبلاً بايدي المسلمين المعتبرينها جداً فلا ريب في ان محاماتهم ضمنها وعنها ضد الصليبيين محاصريها يلزم ان تكون شديدة جداً فحصارها من البحر قد تم بواسطة مراكب ليست عديدة جداً من اهل بيزا الذين قطعوا عنها الوارد تماماً من الجهة البحرية والسلطان غوى ضرب خيام عسكره على قلعة تسمى تل طورون ومارس الحرب ضدها من جهة البر مدة ثلاثة ايام بقوة ورجولية عظيمتين الا انه لم تنتج عن ذلك فايدة من قبل اشاعة الخبر في المعسكر بان السلطان صلاح الدين كان قادماً عليهم الامر الذي اوقع الرعب في قلوبهم ولكن هذا الخوف زال عنهم بالمعونة التى اتتهم بغتة من اثنى عشر الف مقاتل بلغوا اليهم من طايفتى الفريزيين والدانيين ما عدا غيرهم من الصليبيين الانكليز والفلامانديين الذين جميعاً وصلوا بحراً الى عكة وخرجوا الى البر متحدين مع عساكر غوي وهولاء كانوا مقادين من ريس اساقفة كانطورباري ومن الرجل الشريف يعقوب ده افسناس الفلامانديي الذى المورخ غوتير يمثله بحكمة نيسطور وبشجاعة ابن بيلايا وبامانة ريغولوس وحسن ديانته

فهذا السيد بين النبلا قد نصب مضارب عساكره امام البرج الملعون المقدم ذكره كما ان مراكب البندقية وبيزا وجينوا كانت يوميا" تتوارد الى شط عكة وتخرج العساكر التى ضمنها اسعافا" للمحاصرين هذه المدينة فالمسيحيون اذ امتلاءوا مسرة" وشجاعة من هذه المعونات التى اتتهم قد نبذوا عنهم الخوف من قوة صلاح الدين المهيلة الذي اقبل جريا" بجيوشه ليزيح الحصار عن عكة مملوا" من الرجز ضد المسيحيين ولما دنا بالقرب منهم نصب خيام عساكره على تل كيزان وحول الصليبيين بكثرة وافرة قد غطت تلك الاراضي باسرها وعلق معهم الحرب فبعد معركات قوية ومختلفة قد صودفت فيها القوة متعادلة من الجهتين بمحاربات خصوصية فقد عول راي صلاح الدين على معركة عمومية بها ضاعف قوته وشدد عزايم عساكره بغيرة ديانية واضرم نيران هذه الحرب العامة نهار الجمعة فى الساعة التى تلتئم بها الاسلام فى الجوامع مقدمين الدعا لله من اجل انتصار سلطانهم وجيوشه ففى هذا اليوم عساكر صلاح الدين ضايقت الجيوش المسيحية جدا" وازاحوهم عن المحلات التى كانت بايديهم ناحية البحر وهم بلغوا الى تحت اسوار المدينة وبعد ان وطد صلاح الدين اخص اعيان عساكره ضمن المدينة رجع الى تل كيزان ولبث هناك بعساكره *

غير ان عددا" وافرا" جدا" من العساكر الفرنساوية والايطاليانية والنمساوية والانكليزية قد تواصلوا ورودا" من البحر واتحدوا مع الصليبيين الاخرين فزادوهم كثرة" واقتدارا" وكان يوجد فيما بين هولاء العساكر الجديدة اساقفة وامرا وروسا اخر كنايسيون ودوكات وكونتيه واشراف اخرون نظير الكونته ده فرارا وانسلموس امير المؤنته رآله وفيس كوذنته ده شاطالاروتل وحاكم برغاس مع ريس

اساقفة بيزا والكونته ريكارد ده لابويلا والجلادات ده فينا ثم طيبولت ده بار والكونته يوحنا ده سياز مع ارملة سلطان دانيمرك المصحبة معها اربعماية محارب من البلاد الشمالية وراء فرانسا كما ان غوي ده دامبيارا واسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية فهولاء الامرا والاشراف كافةً قد اضافوا بيارقهم الى بيارق المسيحيين الواضعين الحصار على عكة التى امام اسوارها اضحى معسكر الصليبيين مولفاً مما ينيف عن ماية الف محارب محيطةً بها من كل جانب بمشهد مخيف وهكذا شرعوا بمداومة الحرب بنوع انهم مرات عديدة خرجوا من حدود متاريسهم وضايقوا الاسلام الذين داخل المدينة وعاركوا جيوش صلاح الدين فى بعض موقعات خصوصية ثم ان المسيحيين جميعاً فى اليوم الرابع من شهر تشرين الاول بعد محاصرتهم المدينة مدة اربعين يوماً قد نزلوا الى السهل ورتبوا صورة معركة منتظمة فسلطان اورشليم السابق غوي تقدم على روس العساكر الفرنساوية وعلى الخيالة ذوي جمعية ضياف الغريب مسبوقاً امامه باربعة خيالة حاملين اربع بشاير الانجيل المقدس والشاب الجليل كونراد محامى مدينة صور مشى ريساً على الجنود الذين من البندقية ومن لومبارديا ومن اهالى صور انفسهم كما ان لاندغرافا ده طوريلجيا قد تسلم تدبير العساكر النمساوية والبيزاوية والانكليزية فى وسط خطوط ميدان الحرب ثم ان الخيالة الهيكليين والدوكا ده غوالدرا مع عساكره قد ولفوا طغمة الغفر الحارس وراء المعسكر واما الرعاة روسا كنايس رافينا وبيزا وبيزانصون وكانطورباري وبوفيس وغاميراي وعكة والناصرة وبيت لحم فهم ايضاً تسلحوا بالخوذ والزرديات والارماح ونزلوا فى حومة الميدان فمشهد هذا المعسكر قد كان مرهباً وترتيبه عظيماً حتى ان احد الخيالة قد تغزل بالغرام

وبحملة روح الصلف فاقاده الى الخروج عن المعقول فصرخ كاحمق ان الله الان يتجرد عن الجهتين والظفر هو لنا فالحرب تعلق بقوة وحالاً في اول هجمة من الصليبيين على الاسلام فسخوا جماهيرهم ومعسكر صلاح الدين عدم شجاعته وانقطعت اوصال فوته من الخوف وعدد عظيم من عساكره اعطوا ظهرهم مدبرين هاربين برعشة الى انه دخلوا طبارية ولكن انتصار المسيحيين هذا الاول كان مزمعاً ان يعقبه حادث مهول على ان الصليبيين اذ استولوا بالغلبة على معسكر الاسلام وامتلكوا غنايمه فرجعوا بها الى مضاربهم وجلسوا يقتسمونها واذا بالاسلام الذين طاعة لصوت سلطانهم رجعوا ملتهبين بحرارة شديدة قد اندفعوا بغتة على معسكر الصليبيين الملتهيين بتقسيم الكسب واحاطوهم بقوة هايلة بنوع ان الخوف نزع منهم كل شجاعة فاهملوا سلاحهم الذي اخذته الاسلام وفروا متبددين ولكن سيوف العدو ادركتهم والمقتلة بهم صارت دموية جداً وعدد وافر من الخيالة الاشراف الصناديد بعد مجاهدتهم عن ذواتهم برجولية فريدة سقطوا اخيراً قتلى باسلحة الاسلام وغير هولا من الامرا والنبلا نظير امير صور ويعقوب ده افسناس ما فازوا بالحيوة الا من قبيل امانة ارفاقهم الذين جاهدوا عنهم حتى الموت وكذلك الخيالة الهيكليين بعد ما انهم مدة واسعة من الزمن باطعوا وحدهم بجهاد غريب ضد الاسلام الا صلاح الدين فامر بقتلهم ضمن خيمته السلطانية نفسها ثم في نهار ملحمة الغير مومنين هذه رجع الصليبيون المتبددون الى مضاربهم نادبين فقد اوليك الرجال الجهابزة ولكنهم لم يعدموا عزايم شجاعتهم بل جدوا بها على اتصال محاصرة عكة ❋

ففي اقتراب فصل الشتاء انسحبت عساكر الاسلام الى جبل

صاروت وبقيت الجيوش المسيحية فى السهل وحدهم ومدوا مضاربهم الى جميع التلول المحيطة بمدينة عكة وهناك حفروا خنادق واقاموا حولها طابيات كطيطان ثم اهتموا بعمل ثلاثة ابراج من اخشاب عالية نقالة على دواليب بنوع انها اضحت راسمي علواً من اسوار المدينة وبها اوقعوا الرعدة والجزع في قلوب المحاصرين وهكذا معسكرهم الذي يوماً فيوماً كان يزيد ترتيباً وتحصيناً قد صار منظره كمدينة قوية حتى انهُ على قول احد المورخين العرب بالكاد طيور السما كان يمكنها النفوذ اليهِ واما صلاح الدين ففي اول فصل الربيع اخذ عساكره وانحدر بها من الجبال المقدم ذكرها الى السهل وقد كانت اتت اليهِ من بلاد بين النهرين ومن اقاليم سوريه عدة من امراء الاسلام بعساكرهم وانضافوا الى جيوشه ☆

كما انه قد جاءهُ (يقول المورخ غوتير) عددٌ وافرٌ من نواحي شطوط الفراة والدجلة ومن سواحل بحر نصف الارض ومن ساير جهات افريقية واسيا من الاسلام المحاربين حتى انه بعد اجتماع هذه المعونات الجديدة قد اضحى معسكره اكثر عدداً مما كان وقتاً ما الملك داريوس جمع من العساكر ومن ثم صار الاعتماد حينيذٍ على موقعات قتال جديدة ففي احدي المعركات العمومية التى حدثت فى هذا الغضون قد ندب الصليبيون خسارتهم الثلثة الابراج الخشبية النقالة التى افناها لهيب النار واحالها الى رماد من قبل ما اخترعه احد الاسلام الدمشقيين من الطابات النارية التى رُشقت من معسكر الاسلام على هذه الابراج كما انهُ لم يكن يُعطى للمسيحيين ولا قليل من الراحة بسبب هجمات الاسلام المتواصلة ضدهم ثم ان الحرب قد تعلق فى البحر ايضاً امام شط عكة فيها بين المراكب

المغربية وفيها بين مراكب السلطان صلاح الدين وهكذا موقعات القتال بين الاسلام والنصاري براً وبحراً صارت عديدة بدون نهاية في محلات عديدة واوقات متواصلة متوازية بالقوة فتارةً كانت تفوز بالنجاحات والمسرات وخصب الموجودات من القوت وغيره وتارةً يحدث التقهقر والاكدار والعوز والجوع بالتبادل بين الفريقين وقد كان في عسكر الصليبيين مصنوعاً برج رفيع العلو بمنزلة عمود متوجاً ببيرق ابيض في راسه صليب مركباً هذا العامود على دواليب علامةً للانتصار فحين فوزهم بالغلبة كانوا يدورونه بين جيوشهم بسمات الفرح واما العساكر الفرنساوية الذين هم اكثر شجاعةً واشد تهذيباً فقد شوهدوا في حوادث كثيرة مختبرين بحقيقة ابتعادهم عن مشابهة الاخرين بروح محبة الاستغنام بعيدين عن التعطش الى اخذ الغنايم وبالخلاف اذ ان سطوة روسا الطوايف الاخر عند جماعاتهم عدمت الاحترام فما عادوا الا بصعوبات كثيرة يقدرون ان يضبطوا عساكرهم ضمن الحدود الواجبة مع ان الاسلام انفسهم تحت رياسة صلاح الدين عليهم من كل قبيلةٍ كانوا يحترمون اوامره جداً وبذلك هو عرف ان يهيجهم وان يكبحهم وان يقدمهم وان يوخرهم حسب درجات الاحتياج والظروف وهذا السلطان الملو رجزاً كان يستغنم فرصة بلبلة المعسكر الصليبيين بعدم الاتفاق والانقياد ويباغتهم بجيوشه ظافراً بهم بجسارةٍ وهم كانوا يخسرون *

ثم ان المورخون يقررون بان يوم عيد القديس يعقوب قد صار عند الجيوش المسيحية يوم ويلٍ وعويلٍ بالبكاء على ان الاخبار التي كانت شايعة عن قدوم الملك فريداريكوس بعساكره النمساوية نحو المشرق قد اوعبت وقتيذٍ قلب السلطان صلاح الدين خشيةً وارتجافاً وحالاً اعجل هو بارسال جانب من

عساكره لمقاومة تقدم النمساويين فى اراضى سوريه وكذلك عدة امرا اسلام عند سماعهم تلك الاخبار ابتعدوا عن اسوار عكة باسراع نحو امرياتهم لكى يحموها من قوة بطش الملك المذكور فالصليبيون العساكر لا الروسا جزموا بان ينشروا فى المعسكر علامة معركة عمومية لكى يضربوا معسكر السلطان صلاح الدين الضربة الاخيرة فى الظرف الموافق لهم وربما قصدوا بهذه العجلة ان ينهوا اخذ عكة قبل ان يصل اليهم الملك فريداريكوس ويشاركهم فى فخر افتتاحها فمن ثم صرخوا بانتشار اشارة الحرب صرخات مترادفة فالروسا اهتموا فى اخماد حرارتهم هذه العديمة الفطنة ولكن عنايتهم بذلك ذهبت سدي . لان رجزهم (يقول العلامة غوتير) قد استولى على الفطنة وجسارتهم سمت على عقولهم وكثرتهم فاقت على ولاية روسايهم وشرعوا ينسبون قوادهم للنذالة وكان يطلب القتال ضد الاسلام بشغب وتعصبات واخيرا الجماهير اجتمعوا معاً كانه بعصاوة وكسروا باب حاجز المعسكر ودفعوا ذواتهم الى السهل وطبقوا على معسكر صلاح الدين من كل الجهات فالاسلام اذ انبغتوا وشملهم الخوف قد رجعوا الى الوراء متبلبلين بدون ترتيب هاربين ولكن فيما كان الصليبيون دخلوا مضارب الاسلام منشغلين فى نهب الموجودات المهملة هناك من العدو الهارب وفى تحميل ذخاير القوت المتروكة فالاسلام جمعوا قواهم وهجموا على هولاء الغالبين المشغولين فى اغتنام الخزاين الغنية الكاينة في مضارب مالك ادل شقيق صلاح الدين ☆

فمقتلة مهيلة كانت هى الغفارة عن ذنوب اوليك الصليبيين العاصيين روساهم والمسقومين بداء الاحتشاد (فيقول المورخون العرب) ان اعداء الله النصاري قد تجاسروا بالدخول فى معسكر اسود الديانة المحمدية غير انهم اختبروا فى ذواتهم مفعول الغضب

الالهي المخوف لانهم وقعوا تحت اسلحة الاسلام كما تقع اوراق الاشجار في زمان الخريف بعواصف الارياح لان تسع طغمات قتلى منهم غطت جثثهم الارض الكاينة فيما بين التل والبحر وكل طغمة كانت مولفة من الف محارب ولكن كم كان اعظم من ذلك جداً حزن الصليبيين الذين نجوا من المقتلة المذكورة هاربين الى مضاربهم فوجدوها منهوبة من الاسلام الذين خرجوا من مدينة عكة بعد ذهابهم ذي العصاوة واختطفوا كلما وجدوه في خيامهم وقيدوا النساء والاولاد لانهم تركوا بدون حماية واخذوهم اساري وارتدوا الى ضمن المدينة ثم ان هذا الحزن الاليم قد استحال سريعاً الى الاياس وقطع الرجا بالخبر المملو كابة الذي بلغ اليهم عن موت الملك فريداريكوس وعن تبديد الجيوش النمساوية التي كانت برفقته فروسا العساكر المتقدمون اذ لم يعد باقياً فيهم امل بالانتصار فلم يكونوا بعد يفتكرون في شي اخر سوى في امر رجوعهم الى اوطانهم في اوروبا الا انه على البدية اقبلت الى هناك عمارة مراكب بعدد وافر من الصليبيين فتجددت رجاهم ✻

فتلك المراكب اخرجت الى شط عكة جماهير عساكر عظيمة فرنساويين وانكليز وايطاليانيين تحت رياسة قايدهم انريكوس كونته ده شمبانيا فصلاح الدين اعترته الرعدة من هذه القوة الغريبة الجديدة فسحب عساكره وصعد بها ثانية الى جبال صارون فالاسلام الذين داخل عكة اذ فقدوا من الجهة الواحدة اقتدار سلطانهم الذي كان محامياً عنهم من خارج ومن الجهة الاخري اشتدت عليهم كثرة المحاربين الاتين بحرارة ومعهم آلات حرب جديدة قوية فلم يعد يمكنهم ان يدوموا مناضلين عن المدينة وعن ذواتهم لان هجمات الصليبيين على الاسوار نفسها تواترت

والانتصار الكامل لهم دنيٌ نواله غير ان هولاء الاسلام جاهدوا كمائيسين وعدة امرار خرجوا من باب المدينة حادفين ذواتهم ضد اعدايهم فارجعوهم الي الوراء كما انهم بالنيران التي رشقوها من فوق الاسوار فازوا بان يحرقوا آلات الحرب الخشبية ❁

ثم ان تاريخ هذا الحصار المحتوي باتساعٍ واسهاب على اخبار حوادثٍ مفصلة بجميع ظروفها ياتي بايراد قضيةٍ تستحق ذكراً خصوصياً من دلايل الشجاعة والغيرة الدينية وهي ان امراةً مسيحية قد كانت مختلطةً فيما بين الصليبيين المقاتلين وبغيرة شديدة فايقة الملل من التعب المتصل كانت تنقل المواد من تراب وحجارة لاجل تمام طم خندق سور عكة فاحد الاسلام الذي كان مترقباً اياها من احد شرافات السور قد استحكم برشقه اياها بسهم قتال القاها بهِ في الارض بجرح مميت فهي في حال نزاعها من اوجاع الجرح جمعت قواها وصرخت نحو رجلها مستدعية اياه لاغاثتها فاسرع اليها رجلها صحبة رجال اخرين مسيحيين الذين عند مشاهدتهم اياها في تلك الحال ندبوا مصيبتها حزناً عليها اما هي فقد حفظت لحد انفصال نفسها من جسدها شجاعةً غريبة فاقدة القلق ووجهت خطابها نحو المحيطين بها قايلةً لهم ايها الرفقا الاعزا اقتفي التمس منكم اتمام الالتزام الاخير بدفني متوسلةً اليكم ان ترموا جثتي في خندق السور عينه حتى ان بعد موتي ايضاً اكون مفيدةً في عمل حصار هذه المدينة ❁

ولكن الاسلام ضمن عكة قد حصلوا على اسعاف من قبل مراكب صلاح الدين التي اتت اليهم بمعونةٍ من البحر فمن ثم الصليبيون لكي يقطعوا عن المُحاصَرين اتصال الاشيا اليهم بحراً قد اجتهدوا بقوةٍ عظيمة في ان يمتلكوا برج الدبان المحامي

عن الميناء غير ان شجاعة ليوبولدوس دوكا ده اوطريش المتراس
على المحاربين هذا البرج مع العساكر البيزاوية المساعدين اياهم
ببراعةٍ في مهنة الحرب ما امكنهم ان يبلغوا الى امتلاك البرج
المرقوم كما ان عساكر البر في تلك الفرصة مارسوا العناية الكلية
بهجمات مخطرة على الاسوار بدون فايدة بل التزموا بالرجوع
الى مضاربهم لكي يحموها من الحريق والنهب المصنوعين من
عساكر صلاح الدين الذي في ذاك الحين رجع بجيوشه نحو اسوار
عكة ثم ان فريداريكوس دوكا ده سوابا اذ بلغ وقتيذٍ الى بلاد
فلسطين مع العساكر الباقيين صحبته من تلك الجيوش الجميلة
التي كان ابوه ملك النمسا قبل وفاته احضرها الى المشرق فانضاف
هذا الامير الجبار الشديد الباس الى الصليبيين المحاصرين عكة
وهناك مع عساكره اظهر اعمالاً عجيبة من الشجاعة والدرابة
والقوة ولكنها جميعها ذهبت عقيمةً من الثمر ثم اضيف الى
ذلك الاضامة التي احاقت المعسكر في ذلك الحين من قلة
القوت واشتداد الجوع حتى شوهد اناسٌ كثيرون من الخيالة
يقتاتون من لحوم خيولهم وعددٌ وافر من الاشراف المعتادين
على تنعم العيشة كانوا يفتشون على النباتات وشلوش الحشايش
لكي يغتذوا بها ومن دون اعاقةٍ قد انفسد الهوا في سهل عكة
من قبل جيف الحيوانات وجثث الموتى من الجوع فسبب
في المعسكر امراضاً قتالة ومن ثم احوال الاحزان وقطع الرجا
استحوذت على الصليبيين اجمعين وحينيذٍ امام اسوار هذه المدينة
شوهدت صورة ما كان حدث لعساكر الحرب المقدسة الاولين
امام اسوار مدينتي انطاكية واورشليم واناسٌ من الشرفا اللامعين
في روسا الجيوش قد ماتوا بالامراض الوبائية ومن جملتهم
كان الدوكا ده سوابا ابن مالك النمسا المقدم ذكره ومع كل هذه

المصايب قد قام فى المعسكر للخصام على حق ميراث سلطنة اورشليم لمن كان يحق لانه ولين كان بقى اسم هذه السلطنة صفةً لا غير ولقباً محضاً خايباً من حقيقةٍ فمع ذلك كثيرون من الامرا والاشراف بمحبة المجد الباطل كانوا يرغبونه لذواتهم ✿

فهذه كانت احوال معسكر الصليبيين امام اسوار عكة حينما كان على الفور وصلتهم الاخبار بان سلطان فرانسا فيلبس افغوسطوس وسلطان الانكليز ريكارد كانا قريبين من البلوغ اليهم اذ انهما غب اجتماعهما معاً فى مدينة مسينا (حسب الاتفاق السابق بينهما) قد انعاقا عن السير فى جزيرة سيشيليا التملك عليها وقتيذٍ تانكريد الذي كان ماسكاً عنده اسيرةً اخت السلطان ريكارد الشابة ارملة غويليوم الثانى السلطان الاخير على سيشيليا على ان هذه الشابة انسطاسيا وريثة غويليوم الثانى قد كانت تزوجت مع انريكوس الرابع سلطان الرومانيين ووكلته بان يحامى عن ميراثها هذا الا ان تانكريد المحبوب من الشعب ومن نبلا السلطنة قد نصب ذاته فى تخت الملك سلطاناً على سيشيليا واحمى فعله هذا بقوة العساكر (واضعاً قسطانسا فى السجن) ✿

فالسلطان ريكارد اذ احتمى غضباً من قبل التعدي والاهانة المصنوعة ضد اخته فقد علق الحرب على اهالى سيشيليا ونصب سنجقه فوق اسوار مسّينا غير ان السلطان فيلبس افغوسطوس الموجود فى ذاك الوقت ضمن مسّينا قد اغتاظ من ان احد مروسيه كما كان ريكارد ينصب سنجقه فوق راسه فامر جنوده بان يرفعوا ذاك السنجق من على السور اما ريكارد ذو الدم الحار فلم يعد يعرف لا سيداً ولا متحداً معه بالصلح بل شوهد مستعداً الى ان يحول قوة عساكره ضد سلطان فرانسا واما فيلبس الاكبر سناً والاوفر حكمةً منه فقد عرف ان ينتصر على ذاته

ولم يرد اصلاً ان يوجه ضد اخوته المسيحيين الاسلحة التى نقلها ليحارب بها الغير مومنين بل انه نزل بعساكره فى المراكب سابقاً رفيقه المضطرب الى نواحى المشرق ٭

فاذاً قد بلغ هذا السلطان المجيد فيلبس افغوسطوس الى شط عكة حيث اقتبله الصليبيون كانه ملاك الرب وزالت عنهم احزان اليأس والضنا عند مشاهدتهم السنجق والبيرقين التي كان هذا السلطان تسلمها من كنيسة القديس ديونسيوس فى باريس ولم يعد عندهم ارتياب حسب معتقد تلك الازمنة بان هذه الرايات المكرسة كانت مزمعة ان توقع الرعدة والجزع فى قلوب اعدا الايمان المسيحى ومن حيث انهم استوعبوا حرارةً ورجاءً فقد طلبوا بصراخات عجاجة ان تصير الهجمة على عكة فسلطان فرانسا غيرةً منه فى ان يغتنم اتقاد نيران شجاعتهم هذه التى اظهروها قد وافق مشتهاهم وامر بضرب ابواق الحرب فى كل المعسكرِ وحينيذٍ الصليبيون اجمعون علقوا القتال بشدةٍ غريبة ضد المحاصرين فجهاداتهم الرجولية فى هذه المرة ما ذهبت سدىً وهوذا السور قد انتقب وفتح لهم طريقاً بالدخول الى المدينة ولكن على الفور خطر في فكر السلطان فيلبس انه كان وعد رفيقه السلطان ريكارد بان يكون له شريكاً فى مجد الانتصار فى بلاد فلسطين ومقاسماً اياه فى التملك فلاجل امانته على حفظ كلمته باستقامةٍ زايدة عنه وبشهامةٍ غريبة قد اراد ان ينتظر قدوم هذا الرفيق فمنع العساكر عن الدخول للمدينة صاداً شدة حرارتهم ومع انهم كانوا نظروا باعينهم من ذاك النقب الذى اندفعوا اليهِ طرقات المدينة داخلاً وفارت دماهم من اعمال رجوليتهم هذه فمع ذلك ارادة السلطان المقتدرة قد مسكتهم عن العبور داخلاً ٭

فهذه الشهامة الكلية من السلطان فيلبس المحركة فيه من روح الشرف فقط احرى مما بروح حكمةٍ مدنية قد كانت مضادة صالح معسكره لان الاسلام فى مدة توقيف الحرب عنهم قد اصلحوا ما هدم وحصلوا على معونات من جهة البحر وتجاسروا بالشجاعة ضد المسيحيين ظانين عدم الحرب منهم صادراً عن ضعفٍ وعن قلة رجوليةٍ فمن ثم هم باشروا المحاماة عن ذواتهم ومدينتهم بقوةٍ جديدة ☆

اما السلطان ريكارد فغب ان تصالح مع خصمه تانكريد قد نزل بعساكره فى المراكب متجهاً نحو بلاد سوريه ولكن مراكبه بعد خروجها من مينا مسينا قد تبددت مفترقةً فى جهات من شدة عواصف بحرية داهمتها وثلاثة منها قد غرقت فى نواحي جزيرة قبرص والمساكين الذين من العساكر سلموا من الموت الى الارض قد تكبدوا من القبرصيين اهانات وشروراً كثيرةً والمركب الذي كان حاملاً بيرانجار امير نافرا وجوآنا سلطانة سيشيليا قد شوهد مطروداً عن الدخول الى مينا ليميسون فى قبرص فالسلطان ريكارد هناك قد غضب هو نفسه والعساكر التي معه فى المراكب الباقية من عمارته ضد هذه الارض العديمة ان تقبل الغربا والمظلومة وقتيذٍ من اسحاق كومنينوس ملك الروم واذ تهدده حاكم الجزيرة الظالم فسلطان الانكليز ريكارد الحافظ فيما بين الصخور عينها جسارة مقتدر فى الحروب قد خرج الي البر بعساكره ومشى ضد عدوه فادركه وقتله بالسلاسل ثم اخضع لولايته واسلحة عساكره كل مدن هذه الجزيرة قبرص واذ اضحى هو على هذه الصورة موسساً سلطنة جديدة مزمعة ان تدوم مدة ثلثماية سنة تحت سلطنة اللاتينيين قد نزل هو ثانيةً مع جيوشه فى المراكب وبلغ الى تحت اسوار عكة بكل

علامات الافتخار التي لمنتصر شرقي ☆

فالصليبيون قد انبهروا من ظواهر مجد سلطان انكليزي هذه صفته وقد استقبلوه بكل انواع الابتهاج والفرح في معسكرهم تحت مضاربهم وكانت اذاعة صيت هذه المرسلة الحربية قد صارت عزيزة على قلوب الجيوش المتحدة ثم ان خزاين سلطنة سيشيليا وولاية قبرص التي كان هذا السلطان يوزعها بسخاءٍ بيديه المفتوحتين للعطا بسعةٍ على عساكره قد جذبت الى تحت بيارقه جنود روسا اخرين واما صلاح الدين فحالما تحقق مجي هذين السلطانين المقتدرين بين ملوك الاوروبا انفذ رسلاً الى امرا الاسلام اجمعين طالباً اعانتهم اياه وفي جوامعهم كانت الصلوات متواصلة من اجل نصرة سلطانهم وايمام كل جامعٍ كان يحرض الاسلام مناشداً على التوجه الى الحرب ضد اعدا محمد وهولاء الغير مومنين اذ تحركوا بالغيرة من قبل خُطَب علمايهم وروسا جوامعهم قد اقبلوا اجوافاً من كل جهات الاسيا الى معسكر صلاح الدين بعددٍ كلي ☆

فقد آن الاوان بان السلطانين الاعظمين بين سلاطين الاوروبا ينشران بيارقهما ويوجهان معاً قوة حربهما ضد مدينةٍ قد صمدت ازمنةً مديدة مصرةً مناغلةً عن ذاتها مقابل معركات وهجمات وجهادات جيوش عديدة ولكن قبل ذلك مشهداً جديد من انواع الرجولية والمجد يظهر لدى اعيننا على انه بعد حادث المغايظة التي حصلت ما بين فيلبس وريكارد في مدينة مسينا فالمعاطات المتبادلة من احدهما مع الاخر اخذت نوعاً من عدم الاركان وقلة الثقة ومن المغايرة ايضاً التي استحوذت بسهولة عليهما وحركت فيهما ابخرة الكبريا وسيمات الغضب ثم ان عدد عساكر ريكارد كان اوفر جداً من عدد

عساكر فيلبس وخزاينه اغنى وشجاعته ليس لها مساو فخضوعه اذاً كمروس لسلطان كان ثقيلاً على روح هذا الملقب بلقب الاسد كانهُ وزنة لا يطاق حملها ثم من جهة اخري كبرياه اذ اتسعت امام عيناه سيده سلطان فرانسا من قبل اعمال انتصاراته ومن حيثية مداخلاته الزايدة ثم من قبيل خداعاته الممارسة منه لكي يتخذ الرياسة العليا على تدبير العسكر جميعه فقد اغاظت هذا السلطان لاسيما لانه من دون فايدة كان يذكره بانه تبعاً للعهد المصنوع بينهما في مدينة فيزلاى كان ينبغى ان يكون لهُ الحق على تملك نصف جزيرة قبرص التى امتلكها هو اي ريكارد الذي موه عن هذا الطلب مخالفاً براهينه كما انه احتقر تهديدات فيلبس فاذاً هذه الاسباب المختلفة ذات الخصومات كونت فيها بين السلطانين حنقاً ونفوراً شديدين واضر اعمال حصار عكة وسببا تاخير افتتاحها ✿

ثم فى الزمان نفسه فيلبس وريكارد قد انطرحا مريضين غب وصولهما الى بلاد فلسطين وشوهدا محكومين بان يهملا شجاعتهما مسجونة تحت الخيم ثم فى بحر هذه المدة قد مارسا مع السلطان صلاح الدين مراسلات مملوة من التهذيب المدنى ومن الشجاعة ولما ملكا صحتهما قد جمعا قواهما باتحاد مسيحى لكى يحاربا العدو العمومى بافادة ولكن فى زمان المهلة السابقة التعيسة كانت الاسلام حصنت مدينة عكة وهياءُوا وسايط جديدة للمقاومة ومن ثم حينما تقدمت الجيوش الصليبية نحو الاسوار قد اختبروا فى ذواتهم شدة حرب اعدايهم بما لم يكونوا ظانينها فحينيذ صار الابتدا من جديد باعمال الحصار العظيمة بهجمات ومحاربات دموية فسهل عكة وتل النبى ومجرى النهر الشتوى المسمى بيلوس اليابس وقتيذ قد وجدت مرات مترادفة مصبوغة بدما

الانام الاعظم بين العيلات الشريفة لان روطروا وتيبود ده شامبانيا والكونته ده بلواز واستفانوس ده صانسارّا وغوي ده شاتيلون وجفروا ده اومالا وفيس كونته ده شاتالارولت وفلورانت ده انجارس وراول ده كوزي قد قتلوا كافةً وسيوفهم بايديهم ثم قتل ايضاً الشاب الشريف البطل الصنديد الباريك كلامات الذى التاريخ اخبر عنه اموراً عجيبة على ان هذا الشجاع عند ما شاهد بتالم فوادهِ الجنود الفرنساوية كانوا يجاهدون برجولية ليملكوا الدخول الى المدينة ولم يقدروا فهو صرخ هاتفاً انى انا اموت فى هذا اليوم او انى بنعمة الله ادخل مدينة عكة قال هذا وحينيذٍ تعلق على سلمٍ حتى بلغ اعلى السور وطرح بسيفه تحت ارجله عدةً من الاسلام قتلى اما المحاربون الاخرون الذين ارادوا اتباعه فقد تكردسوا من على السلم الامر الذى من اجله الاسلام هتفوا باصوات الفرح فلما بقى الباريك وحده فوق السور تكاثرت عليه الاسلام فقتلوه فمعسكر الصليبيين كله قد ندب فقد هذا الشاب الشريف الفريد فى الرجولية الذي باعماله السامية السابقة قد اكتسب عند الجميع اسماً ذايع الصيت باستحقاقات فضايله ☆

فغير ان الغيرة وحرارة الشجاعة كانت من الفريقين شديدة حتى ان النسا انفسهنّ يومياً كنّ يوجدنَ مختلطات فى المعركات يساعدنَ بما هو فى استطاعتهنّ كما ان اولاد الاسلام كانوا يخرجون من المدينة ويتعاركون مع اولاد النصاري بمشاهدة عساكر الجهتين (ثم على موجب تقرير احد المورخين العرب) ان النصاري فكروا بان ينقلوا جبلاً قريباً من تلك الارض الى امام اسوار عكة كي يبلغوا بهِ الى اعلى اسوار عكة ويدخلوها وباشروا هذا العمل بنقل ترابه وحجارته بقوةٍ متداومة ولكن الاسلام من

داخل حينما رأوا هذا التل يعلو يوماً فيوماً اليهم قد اخترعوا طريقة جديدة بها كانوا يزيحون التراب والحجارة من العلو الى اسفل فالصليبيون خلواً من ملل كانوا يحاربون فى البر عساكر صلاح الدين المارسين الجهاد ضدهم ومعاً يحاربون المحاصرين ففى احد اعمالهم الحربية قد املأوا خندق السور من جيف الخيل الميتة ومن جثث ارفاقهم المقتولين ولم يكن يخمد حرارة شجاعتهم لا مشهد الموت ولا الموانع القوية ولا عظم التعب والكد بل فى كل يوم كانوا يجرون وراء واسطة جديدة تفيدهم البلوغ الى فوق الاسوار او الى انهدام جانب منه ثم ان العساكر الفرنساوية فيما بين جميع الطوايف الاخر الموجودة فى المعسكر قد تميزوا عن الكل باتقاد غيرتهم وبشدة شجاعتهم وقد كانوا موجهين جهادهم الاخص ضد البرج الملعون. واما الاسلام فقد كانوا يدرسون ويستنبطون اموراً خارجية غير اعتيادية لغاية ايصالهم المسيحيين الى فقدان الصبر على ان المورخين يوردون عنهم انهم صيروا ان يوتى اليهم من بلاد افريقية بوحوش كواسر مفترسة وكانوا يدفعونها الى معسكر النصاري مع حيات ذوات مناظر مريعة قاصدين بهذه الاشيا ان يضعفوا شجاعتهم ومرات كثيرة كانوا يحرقون المتابيس الصليبية فى اوقات المعركات ولكن فيما بين امور هذه المعركات الحرب المهيلة ياتينا التاريخ بخبر حادث يعلن لنا كيف ان الانسانية قد وجدت دايماً ببعض صفاتها عند البشر الاشد شراسةً بالغضب وهو ان عدداً قليلاً من الاشخاص الفرنساويين قد امكنهم نقب البرج الملعون والدخول اليه فلما صاروا ضمنه وجدوا هناك عدداً قليلاً ايضاً من الاسلام فانذهل الفريقان من هذه المصادفة وكلٌ من الجهتين طرح اسلحته فى الارض وهكذا تعاهدوا على الصلح وعدم المحاربة

فيما بينهم تاركين امر نهاية القضية الى الفريقين المتحاربين لمن يكون النصر ❊

فسور المدينة من ناحية المشرق ابتدى ان ينهدم وطريق انفتحت للدخول فيها وقد كانت عساكر الاسلام داخلاً ضعفوا جداً من الجوع ومن الامراض فسقطوا من جرائتهم وحينيذٍ الوالي المتسلم الرياسة على العساكر والمدينة طلب ان تعمل شروط على تسليمها فتقدم الى السلطان فيلبس افغوسطوس تقريره بان يدفع اليه مفاتيح المدينة ان كان يرتضي معه بان الاسلام يخرجون منها امنين على حياتهم ويختارون لذواتهم مقراً يذهبون اليه بحريتهم فهذه هي نفس الشروط التي بموجبها المسيحيون سلموا الاسلام المدينة المذكورة قبل ذلك بمدة اربعة سنوات اما السلطان فيلبس فبعد ان تداول عن هذا الطلب في ديوان مشورته رد الجواب بان الاسلام لا يفوزون بحفظ حياتهم احراراً الا بشرط ان يرجعوا الى ولاية المسيحيين مدينة اورشليم والبلدان الاخر التي اختطفوها منهم الاسلام بعد حرابة سهل طبارية الحادث في اليوم الرابع من شهر حزيران سنة ١١٨٧ ❊

فالاسلام عند سماعهم هذا الجواب قد غضبوا في الاول واعتمدوا على ان يحاربوا الى حد ما يندفنوا تحت رديم المدينة غير ان نظرهم امتد بعد ذلك الى ملاحظة الامور المهولة العتيدة ان تلم بهم وبالسكان كلهم نساءً واولاداً عموماً وخصوصاً وينهب الموجودات وباقي الظروف فمن ثم تعاطوا التسليم بشروط جديدة وهي انهم اوعدوا اولاً بان يردوا الى الافرنج خشبة الصليب التي مات عليها المسيح : ثانياً بان يسلموهم الف وستماية اسير مسيحي كانوا عندهم عبيداً ارقا محبوسين : ثالثاً الزموا ذواتهم بان يدفعوا للصليبيين مايتين الف ريال من ذهب لكي

يشترووا بها حيوة الاسلام الذين ضمن عكة وحريتهم : رابعاً بان الشعوب الكاينة فى المدينة يبقون مسترهنين تحت اقتدار الصليبيين الى ان توضع بالعمل الثلاثة الشروط المتقدم ذكرها فهذه المعاطاة والشروط قد اقبلت من السلطان فيلبس ومن الاخرين . وبعد ما ينيف عن مدة سنتين حصار ضد هذه المدينة باتعاب وشدايد واعمال كلية وحروب شديدة قد دخلها المسيحيون امنين فى اليوم الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ونشروا بيارق الصليب فوق اسوارها : فهذه كانت نهاية حصار عكة الذايع الصيت الذي فيه سفكت دموم عظيمة المقدار والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذى رتبة من الانام الشجعان ضمن نحو ماية معركة حربية خصوصية وتسع حرابات عمومية عظيمة حدثت امام اسوار هذه المدينة بعساكر كانت اجواقها تحضر وتبتدي بالحرب بعد ان تكون العساكر التى قبلها قد تلاشت اما تماماً او فى اكثر اجزايها غب توصل المراكب العديدة التى كانت تتوارد من جميع مدن بلاد المغرب حاملة طغمات من المقاتلين الذين كانوا يتقاطرون مندكين نزولاً حول تل طورون وفوق ارمال بيلوس وبالاجمال انه فى مدة هذا الحصار سيوف الاسلام وانواع الامراض الردية قد حصدت من الصليبيين نحو ماية الف مقاتل وغيره ✿

ثم ان امتلاك مدينة عكة تستحضر بازاء اعيننا بعض امور معتبرة بها تميَّز هذا الاكتساب من الاعمال الاخر التى قبلاً مارسها الصليبيون فى حصارات اخر ملاحظة هذا الموضع وهى ان سلطاناً هارباً كان يفتش على طريقة بها يمكنه ان يرجع الى تخته فولف ما استطاع به ان يحاصر مدينة من اقاليم فلسطين وحالاً تواردت اليه من جميع الممالك المسيحية عساكر قوية اتية لكى ترجع مدينة اورشليم الى ولاية ابناء الديانة

منقذة ً اياها من عبودية الاسلام فالتيموا تحت اسوار عكة . ثم فى مدة سنتين اوروبا واسيا مقسومتان الى عسكرين عامين يتحاربان في بقعة ارض واحدة حيث الافكار والعقول والشجاعة كانت تمارس مفعولاتها واختراعاتها بمقتضى الام اهالى المغرب وشراسة امة محمد وفيها انواع جديدة مما يخص الحروب قد خرجت من العدم الى الوجود كما ان الانواع القديمة أتقنت والمراكب البحرية التى كانت تنقل الذخاير والعساكر الى الصليبيين قد عُرفت انها اقوي واصنع من مراكب الاسلام واكثر من مرةٍ واحدة قد صارت هذه المراكب المسيحية علةً لخلاص المقاتلين وفى حادث هذا الحرب ما ظهر ولا نوع من الجليلات والمناظر العجيبة التى شوهدت فى الحروب السابقة ومع ذلك شجاعة اهل المغرب ورجولية المحاربين ابناء اوروبا ما نقصت عن المحاربين الاولين ثم ان روسا عساكر الاسلام مع اشراف الصليبيين كانوا احياناً يطلقون افرادهم الى معركات خصوصية ونظير الشجعان المنعوتين من الشعرا كان يوعب بعضهم بعضاً من الاهانات كما انه بعض الاوقات شدة حرارة المعركة افضت الى ما يلايم الصلح والمعسكران اذ كانا فى برهةٍ من الزمان يتناسيان البغضة .والعداوة من كل منهما ضد الاخر فكانا يمارسان اعياد الافتخار بالفرح والمسرة ثم في حقلٍ مخضب بدماء الرجال اللامعين بالشرف قد التيم المحاربون الاعظم شهرةً من الجنسين المسيحى والاسلامى المتعاديين وفى الاعياد العسكرية قد شوهدت احياناً عساكر الافرنج يرقصون على ضرب الات الطرب العربية وعساكر الاسلام كذلك يرقصون عند سماعهم الات الطرب الغربية ثم ان معسكر الصليبيين الذى اضحى كانه حصن مشابه احدي مدن الاوروبا امام مدينة عكة كان حاصلاً على اسواقه ومتاجره المشتهرة والمواد

اللازمة له والصنايع الملاحظة الات الحرب كما انه هناك ارباب العلوم والمهن مارسوا بكل حرية معاطات امورهم ومع ذلك جميعه من الاعمال اليومية فالشدايد والمصايب مع نتايجها الردية قد توجدت عدة امرار تحت خيام المسيحيين وكذلك شوهدت هناك الرذايل التي دايماً ترافق الجموع الكثيرة ومشهد الفساد المكروه قد اختلط احياناً ليست نادرة في الحوادث المختلفة الملاحظة المعسكر ❊

غير انه يلزمنا ان ننهي صورة هذا الحصار ببعض رسوم اكثر تعزيةً وهي انه تحت اسوار عكة تمارست اعمال انسانية ادبية قد شرفت الجهتين والمحبة نفسها ابنة السما مرات كثيرة انحدرت من مسكنها الالهي الى هذا الحقل الدموي لكي تنشف من اعين البعض دموعهم وتخلي للبعض مراير اوجاعهم وهذه المحبة قد ولفت بعض اخويات من الانام الذي تفرغوا باهتمامهم في اعانة المتنازعين وفي دفن الموتى كما انها في مدة هذا الحصار الاخويات المذكورة قد مارست العناية والسخاء والمعونات الوافرة للعساكر الشمالية المساكين واعطت اساساً لقيام الجمعية التي تلقبت باخوية الطوتونيكيين (المشروح عنها الخطاب المحرر في اخر الفصل العاشر من المجلد الاول من هذا التاريخ) وفي الزمن عينه سببت هي عينها تاسيس الرهبنة الجليلة السامية في محبة القريب المدعوة رهبنة الثالوث التي غاية قانونها هي جمع الاحسان لاجل افتدا الاساري واستفكاك الذين في رق العبودية بكل نوع من العناية والسعي في خلاص المسيحيين من ايدي الغير مومنين وفي كل جهة من العالم الامر الشهير عن هذه الرهبنة المكرمة ❊

الفصل السادس

في سفر سلطان فرانسا راجعاً الى مملكته وفي سير سلطان الانكليز ضمن بلاد فلسطين وفي حرابة مدينة ارسور وفي رجوع ريكارد السلطان المذكور الى اوروبا ثم في الامور التعيسة التي حدثت له وسقوطه في الاسر

انه لما دخل السلطان فيلبس افغوسطوس والسلطان ريكارد الى مدينة عكة مستوليين عليها قد اقتسما بينهما خزاين القوت وذخاير الحرب والموجودات الغنية جداً التي تركتها الاسلام هناك وفازوا بحياتهم ثم ان سلطان فرانسا قد استعمل حقوق الغلبة والظفر بعذوبة وحسن تدبير وبالخلاف سلطان الانكليز المتصف دايماً بالحنق واحتداد الطبع قد صودف هو موعباً من الشراسة والرجز ضد المسيحيين انفسهم ليس باقل مما ضد الاسلام ثم ان ليوبولدوس دوكا ده اوطريش المحارب الشجاع الذى اعماله الرجولية السامية قد تلالات في معركات عديدة في حصار عكة قد نصب بيرقه فوق احد ابراج هذه المدينة فريكارد غضب من ذلك وامر برفعها من هناك وطرحها في خندق السور كما تم ذلك اما ليوبولدوس الذي تالم باطناً بشدة من هذه الاهانة فقد كتمها في قلبه وحرّم على عساكره ان يستخدموا اسلحتهم في الانتقام عنها قايلاً ان اخذ الثار المحق لها ولو توخر زماناً ما لا يكون في وقته اقل صرامة ثم ان الجليل كونراد محامي مدينة صور لما اختبر في ذاته ما جعله ان يشكو جداً مما كان يدعى به ريكارد فقد انسحب من عكة راجعاً الى صور وهكذا سلطان فرانسا اذ اعتراه عاجلاً مرض ضيق الصدر

ولم يعد يحتمل روح خصمه الباطن وصاحبه الخارج سلطان الانكليز الشرس قد انذر حالاً بارادته الرجوع الى مملكته واما ريكارد فليس فقط لم يهتم فى ان يقنع فيلبس افغوسطوس بالاقامة مدة اخرى فى بلاد فلسطين بل ايضاً امتلا هو فرحاً من ان يبتعد عنه سلطان مثل هذا يضاد امياله المنحرفة وقد اكتفى بان يلتمس وينال منه الوعد بانه فى رجوعه الى مملكة فرانسا لا يمارس شياً ضد مقاطعات حكم الانكليز فى غيابه فاذاً سلطان فرانسا سافر من عكة بحراً الى مدينة صور سنة ١١٩١ عينها وترك من جيوشه الفرنساوية عشرة الاف محارب فقط تحت رياسة الدوكا ده بورغونيا فى بلاد فلسطين فلم يكن الخوف النذلى اصلاً علة سفر سلطان فرانسا من الاسيا بل فقط لانه شعر بالصواب انه من المحال كان يمكنه ان يستمر هو والسلطان ريكارد بالمسالمة خلواً من حدوث مخاصمة شديدة تقضى بضرر المسيحيين وبالقاء الشكوك ما بينهم امام الاعدا وقد عرف انه فى ظروفٍ كذا المعسكر الصليبى لا يورث له مجداً لايقاً باسمه فمن ثم باشر السفر نحو الاوروبا بعد ان اقتبل من السلطان صلاح الدين هدايا كلية القيمة والاعتبار لان سلطان الاسلام هذا قد انبهر من الصفات الجليلة والفضايل السامية المزين بها اقنوم فيلبس افغوسطوس وقد اعلن جهاراً ضمن مدينة صور ان سلطان فرانسا هذا هو الاول والاعظم في سلاطين المغرب فبلغ فيلبس الى مدينة رومية وزار قبور الشهدا بحسن عبادةٍ واقتبل باحتفالات عظيمة اغصان الغلبة الملاحظة انتصاره واذ تمم على هذه الصورة سفره الصليبى المجيد راجعاً الى فرانسا قد دخل مدينة باريس باحتفالٍ ملوكى فيها بين هتافات الفرح من افواه رعاياه ✡

فلنتاملن الان السلطان ريكارد فايزاً بمسرات قلبه معتجرفاً بكبرياه ثايراً باكثر حرية على امتلاك محلات جديدة من حيث ان ابتعاد السلطان فيلبس عنه بالسفر قد ترك بلاد فلسطين كلها لشهوة ارتفاعه المستحرة بحدية طبعه فاى نعم ان المسيحيين بعد جهادات واتعاب ومشقات واضامات مستطيلة كانوا تمتعوا بمرغوباتهم المجيدة منتصرين ولكن غب زمان وجيز اجتازوه بالراحة والرخا والتعزية قد نشر علامة التوجع الى الحرب السلطان ريكارد العديم الاصطبار عن رغبته اكتسابات جديدة ففي اليوم المعين للسفر الذي هو صباح عيد القديس برتولوماوس . ريكارد مشى على راس ماية الف صليبي الى الحرب فاجتازوا رملة بيلوس على شط مينة حيفا وقد كان سنجق الحرب الصليبية المقدسة مرتفع الوضع فوق راس سارية موطدة اسفلاً مركبة على اربعة دواليب مكسية بالحديد والجنود المرضى والجرحى كانوا محمولين حول هذه المركبة لان مشاهدة هذه العلامة المقدسة هي تعزية للعساكر المسيحية ثم بعد ستة ايام بسفر متعب قد وصل المعسكر الى مدينة قيسارية فيلبس لان سير هذه الجيوش كان ذا مهل رويداً رويداً بنوع انهم فى كل يوم كانوا يمشون مسافة تسعة اميال فقط علي الكثير وكان حرصهم شديداً من ان تباغتهم الاعدا وكانوا فى كل مرحلة يضربون خيامهم ولكن قبل ساعة رقادهم ليلاً كان الجندي المنادى يصرخ فى المعسكر جميعه ثلاث مرات باعلى صوته هاتفاً (يارب ساعد القبر المقدس) وكانت الجيوش اجمعون يكررون هذه الالفاظ ثلث مرات بصراخ رافعين ايديهم واعينهم نحو السما وكل يوم عند اشراق ضيا الصبح كانت المركبة الحاملة سنجق الصليب تجذب بالمسير صحبة الجيوش الذين كانوا يرتلون الصلوات

والتسابيح التي كانوا الكهنة يبتديون عبادةً لله ✿

ثم ان المورخين قد عينوا اسماء المحلات التي اجتازوها العساكر الصليبية في مدة الستة الايام المذكورة بمسيرهم الي قرية كفرناحوم ومنها السبيل هي بين جبلين مشغولة بضرب البيك فالجيوش بعد مرورهم من نهر التماسيح الملقب ايضاً بنهر كوكا قد بلغوا اخيراً الى مدينة قيسارية التي الان هي مهدومة تماماً خالية من السكان ولكن من دايرة اسوارها يبان مكان مقرها على شط البحر وغب ان مكثوا مدة ايام قليلة في المحلات القريبة من المدينة المذكورة قاموا جديداً للسفر غير انهُ كان خطرٌ عظيمٌ ينتظرهم على ان البلاد التي هم كانوا مزمعين ان يسيروا فيها قد كان العدو نهبها تماماً والاراضي السهل التي على شط البحر كانت مكسية بنباتات عالية مشوكة، مصيرة المجال عديم. ان يُسلك من قبل غرق الارض ايضاً واما السلطان صلاح الدين فاذ كان متقداً بنار الرجز من قول خسارته مدينة عكة فقد جمع قوة عساكره كلها بامل ان ياخذ الثار فوجدت تحت اوامره ماية الف محارب قد ضربت خيامها في الجبال والسهل بالقريب من مدينة ارسور على شط نهر روكاطاليا الا ان السلطان ريكارد ما اعتراه الخوف اصلاً عند وصوله الى هناك ومشاهدته هذا المعسكر المرعب بل رتب الجيوش الصليبية الاقل عدداً جداً جداً من عساكر العدو ترتيباً ملايماً للحرب واعتمد على عمل معركة كلية البطش بهذا العدو وذلك شهر ايلول سنة ١١٩١ عينها فالعساكر المسيحية انقسمت خمسة اقسام وكلٌ منها كانت رجاله متحدة شديداً بعضهم ببعض حتى انه (كقول احد المورخين) لو حذف فوقهم شي من الاثمار فلم يكن يدرك الارض خلواً من ان يمس احد المشاة او احد الخيالة ✿

فعلى الفور فى الساعة الثالثة من النهار جمهور عظيم من العساكر الاسلام هجموا بقوةٍ عظيمة على الصليبيين صارخين باصواتٍ منقلبة مرعشة وراشقين المسيحيين بسهام وغيرها كالمطر وبرهةً فبرهةً كانت جماهيرهم تتكاثر وتصور منطقةً حول معسكر النصاري (كما يقول المورخ العربى) كاستدارة الحاجب حول العين وحسب الفاظ افينيصوف اضحت اقسام الصليبيين كقطعان الغنم المهياة لتبديدها من الدياب الخاطفة حتى لو انهم ارادوا الهرب لما امكنهم ان يجدوا له سبيلاً بل فى حال استدارة الاعدا حولهم هكذا ما عاد امامهم الا السماء فوقاً والاسلام اسفلاً فالنشاب محدوفة عليهم من القسى والهوا يهب بعزمٍ وضياء الشمس اكمد والخيول كانت تتساقط من شدة الحراب فى السهام المرشوقة بكثرةٍ هكذا وافرة (حتى انه كتقرير المورخ) لو امكن لاحد ان يمد يده لكى يجمعها طايرةً لكان فى فتلة يدٍ واحدة يجمع منها عشرين سهماً فلخيالة جمعية ضياف الغربا قد جاهدوا بشجاعةٍ سامية ضد قوة الاسلام هذه العظيمة واما الجيوش المسيحية كلهم فقد كان السلطان ريكارد رسم عليهم بان يستمروا واقفين فى امكنتهم ممارسين الحماية فقط عن ذواتهم خلواً من ان يسيروا الى ما قدام باندفاعٍ الا بعد ان يسمعوا ضرب ستة ابواق الحرب معاً تصرخ فالاسلام بكل قوتهم وجهادهم ما قدروا ان يفسخوا الجيوش الصليبية عن التحامها الشديد ولذلك طفقوا يسمونهم قبيلةً من حديد . غير ان الاسلام اخيراً اهملوا قسيهم ونشابهم واستلوا سيوفهم ودفعوا ذواتهم على المسيحيين فالخيالة ضياف الغربا كانوا يسقطون بتكاثر تحت ضرب السيف فاحدهم عند موته صرخ يا ايها القديس جاورجيوس البطل اهكذا انت اهملتنا ان الصليبيين قد كادوا ان يبادون اذ

انهم لم يستطيعوا ان يثبتوا امام هذه الطايفة الشرسة المفترسة ☆

غير ان بعضاً من الخيالة الاشراف اذ عدم صبرهم من التوقف عن الهجمة على العدو فقد خرجوا من مصافهم وانقضوا كالصاعقة على الاسلام خلواً من انتظار ضرب الستة ابواق المعينة من ريكارد فنموذجهم هذا قد جذب الى اتباعه طغمات الجيوش الاخر وهكذا صارت المعركة عمومية وحينيذٍ من حد تل مدينة ارسور الى سهل مدينة الرملة ومن البحر الى الجبال قد تغطت الاراضى من المقاتلين فالفضا كان يرن كرعدٍ من اصوات رشق السهام ومن مزاحمة الاسلحة وضرب الحراب والسيوف المخوفة بجهادٍ مهيل من الفريقين والحقول صارت مفروشة من بيارق واقعة ومن خوذات ساقطة ومن سيوف مرماة من ايدي القتلى ومن ارماح مكسرة ثم بموجب تقرير شاهد عيانى ان عشرين عربانة كبيرة لم تكن تكفى لتحميل السهام المرشوقة فى الاراضى لو اراد احد ان يجمعها ☆

ففى ميدان هذه المعركة الدموية السلطان ريكارد تسامى عن الجميع بافعال حربية عجيبة فايقة التصديق من الشجاعة الفريدة والرجولية الجهبزية فهو كان يظهر جايلاً الى كل موضعٍ محتاج الى معونة بطشه وقوة ذراعه وفى اى محلٍ شوهد هو كانت الاسلام تفر من امامه ادباراً برعشةٍ حال اقترابه منهم اذ كان هو لهم كالحصاد بالنسبة الى السنبل (كقول المورخ) لانه كان بسيفه يرمى تحت رجلين حصانه جموعاً بجملتها من الاسلام مبددين هاجماً فى وسط جيوشهم مرات وفى كل هجمةٍ كان يلقى على الارض يميناً وشمالاً عدداً وافراً من الجنود المشاة ومن الخيالة انفسهم وفى احدي هجماته قد زاحم السلطان صلاح الدين نفسه فاوقعه على الحضيض وبالاجمال اينما كان هو

يرمح كالصاعقة قد كان يزرع الارض حوله اجساماً مدماة ففى معسكر الاسلام الذى اجتازه هذا السلطان مرات فى هجماته قد شوهدت بعد نهاية المعركة عدة الوف قتلى من الاسلام مع اثنين وعشرين اميراً من قوادهم ❁

فاذاً من حيث انهُ لم يعد مستطاعاً لجيوش صلاح الدين ان يثبتوا اكثر امام قوة العساكر الصليبية فقد ادبروا هاربين يدوس بعضهم بعضاً واما الجيوش المسيحية فقد انبهروا من نوع انتصارهم هذا العجيب وصاروا كساهين فى محلاتهم واذا بصلاح الدين راجعاً عليهم بعشرين الف مقاتل جمعها من عساكره المتبددة منقضاً بها ضدهم بحرارة جديدة فالسلطان ريكارد جري الى معونة جيوشه صارخاً مرات يا الله اسعف القبر المقدس فنموذج هذا السلطان البطل جدد فى عساكره حرارة الشجاعة التى كانت وهت وهكذا فازوا بالانتصار فالاسلام ثلث مرات غاروا بشدة باس متقدة حرارتهم من حضور سلطانهم فيها بينهم وصراخاته فى تشجيعهم وكادوا يختطفون الظفر على المسيحيين ولكن فى المرات الثلاث عينها ريكارد وجنوده ردوهم الى الورا مجندلين وبددوا الباقيين منهم اخذين الغلبة عليهم بهتافاتهم المتكررة الوف مرات يا الله اسعف القبر المقدس ❁

ففى معركة ارسور هذه الشايعة الصيت في تواريخ الحروب المقدسة اكثر من ساير المعركات الاخر قد قتل من الاسلام ما ينيف عن ثمانية الاف محارب مع اثنين وثلاثين اميراً من قوادهم ولقد كان معسكر هولا الغير المومنين تطحن بجملته بايداً لولا حصن مدينة ارسور يقتبل ضمن اسواره القريبة اليهم كل الهاربين منهم محتمين فيه واما المسيحيين فندبوا فقد الف مقاتل من معسكرهم وفيها بين هولاء المقتولين قد شوهد بحزن

شديد جسم البطل الصنديد يعقوب ده افسناس الذي اذ كان في المعركة محاطاً من اناسه وارفاقه المنهوكين قتلاً من اسلحة الاسلام فلم يكن يرمي سيفه من يده محارباً برجولية عجيبة حتى وبعد ان كان فقد ذراعه ورجله واخيراً عندما هو سقط في الارض في انفاسه الاخيرة صرخ هاتفاً يا ريكارد المنتقم من الاعدا عن موتي فجسم هذا المحامي الشجاع عن الصليب قد نقل بعد ذلك ودفن في كنيسة مريم البتول الكلية القداسة ضمن مدينة ارسور والصليبيون حول قبره غرقوا الارض بهطل دموعهم حزناً عليه ☆

فالحرابة المذكورة امام ارسور التي وجد فيها الانام الاكثر قوةً والاشد شجاعةً من طايفتي النصاري والاسلام اي من الاوروبا واسيا قد كانت وتكون هي العمل الاعظم لمعاً فيما بين جميع اعمال الصليبيين الاخر الاشراف لانه لو كان السلطان صلاح الدين في هذه المعركة يفوز بالظفر لكان انتصاره هذا انهى فقدان الولايات المسيحية كلها الباقية في المشرق ولكان الصليب المقدس لم يعد يُشاهد مرتفعاً ولا في محل واحد من بلاد سوريه خلواً من اعاقةٍ غير ان السلطان ريكارد الذى كان شجيعاً اكثر مما كان ذا كنايةٍ للتدابير المدنية بالحكمة فما عرف اصلاً ان يغتنم اثمار انتصاره لانه لو كان يداوم على اعمال جهاده لكان اخذ من ايدي الاسلام جميع ما كان تحت ولايتهم في سوريه ومصر ولكن يبان انه اراد يوفر الاخطار وسفك دما الغير مومنين لانه عوضاً عن ان يسير بعد انتصاره نحو اورشليم التي كانت ابوابها أغلقت من قبل اشاعة ظفره المخيف ولقد كانت هذه الابواب فُتحت لهُ عند دنوه منها فهو بالخلاف وجّه اهتمامه في تعمير البلاد المهدومة ثم ان سكان مدن يافا واسكالون

وغزه قد شاهدوه مرات داخل اسوارها متوقفاً عن مواصلة الاعمال الحربية اللازمة ☆

وقد حدث في مدة اقامة العساكر الصليبية في يافا ان هذا السلطان يقع في خطر فُقد حياته بسيف الاسلام ولم يسلم من هذا الخطر المبين الا بحسن امانة احد خيالته الاشراف ذي الشهامة السامية على ان السلطان المذكور في احدي المرات التي هو خرج بها الى البر متنزهاً بالصيد قد اجتاز بين حقول صارون وجلس تحت شجرةٍ فنام ولكنه بغتةً استفاق على صراخ ارفاقه وشاهد جوقاً من عساكر الاسلام هاجمين عليه فهو حالاً ركب فرسه وانتضى سيفه وتهياء للمعركة فهولاء الجنود الاقويا دنوا منه واستداروا حوله مضايقينه بشدةٍ (خلواً من ان يعرفوا ان كان هو السلطان ام لا) واذ لم يمكنه مقاومة هذه الكثرة لقد اضحى بلا ريب ساقطاً في ايديهم مقتولاً لولا ان احد رفقاه وهو غويليوم ده براترالاس المولود في اقليم بروفانص في فرانسا يصرخ بلغة الاسلام العربية قايلاً اواه يا شجعان احفظوا لي حيوتي انا هو السلطان فعلى هذا الصراخ الخيالة الاسلام هجموا عليه فكتفوه واخذوه اسيراً فالسلطان ريكارد نجا منهم بهذه الطريقة التي بها خلصه من القتل احد اشراف الفرنساويين فهرب الى يافا سالماً اما الخيالة الاسلام فقادوا غويليوم الى دمشق وسلموه بيد سلطانهم صلاح الدين واما ريكارد فلكي يكرم امانة خادمه هذا الجليل فقد اشتري لهُ حريته من صلاح الدين مستفكاً اياه من الاسر بعشرة اشخاص من امراء الاسلام كانوا ماسورين عنده فارسلهم الى دمشق احراراً بدلاً من غويليوم ☆

غير ان الكآبة والضجر والتشكي كان يوماً فيوماً يتزايد في معسكر السلطان ريكارد لان الجيوش الصليبيين قل حربهم من

عدم ذهابهم لامتلاك اورشليم وشرعوا ينسبون هذا السلطان الى الخيانة بتماهله عن قضية الديانة والصليب هذا ما عدا شكايات اخر انزلوا بها على عنقه فارملة غوليوم سلطان سيشيليا السابق السلطانة جواتا قد اعرضت على الزواج مع الامير مالك ادل اخي السلطان صلاح الدين تحت ضمانة السلطانين ريكارد وصلاح الدين نفسه بان مالك ادل وجوانا القرينين يكونان بالولاية على اورشليم مطلقين اي مالك ادل سلطاناً على سكانها الاسلام وجوانا سلطانة على اهلها النصاري غير ان هذه المعاطاة الاعتمادية بالقبول بين المذكورين قد رفضت بمقاومة حارة من الاساقفة ولكن ريكارد الذى كما قيل قد كان هو فصلهم على هذا الملبوس لما شاهد ذاته مبغوضاً من الصليبيين فلغيرته بان يكسب رضاهم الضروري له فى اتمام مرغوبه المتجه نحو امتلاك بلدان اخر بواسطتهم قد اظهر شراسته ضد الاسلام فقتل جميع المحابيس الذين كانوا تحت حوزته من جنودهم الماخوذين اسري فى الحرب ثم اعلن جهراً اعتماده على تخليص اورشليم من عبوديتهم وهكذا الرجا عند الجيوش المسيحية فى انهم قريباً كانوا مزمعين ان يشاهدوا كنيسة المسيح ومدينته هذه قد شدد ارواحهم وجدد فيهم الشجاعة كلها الا انه بعد ذلك على البدية قد شملهم من جديد ضعف القلب العميق وعدم الشجاعة حينما اشهر لديهم ما جزم به ديوان المشورة الملوكية بانهم عوضاً عن سفرهم نحو اورشليم كان يلزم ان يذهبوا الى مدينة اسكالون ويشتغلون ب تعمير اسوارها التى قبلاً كان صلاح الدين هدمها الى الارض نلير ما صنع بغيرها من المدن فمن ثم نهض فى جميع العسكر صت الندب وعويل البكا وصراخ قطع الرجا وحالاً الدوكا ده بورونيا مع جيوشه الفرنساوية قد خرجوا من تحت سنجق

السلطان ريكارد غير انه توجهت اليهم قصاداً الذين بواسطة توسلاتهم الحارة اليهم قد ارجعوهم الى تحت بيرق الصليب ☆

ولكن لما ذهب العسكر الى اسكالون فلم يشاهدوا هناك الا كيمان الحجارة وبقايا الخراب التام فشرعوا فى بنيانها وكان ريكارد دايماً دايراً حولهم منهضاً شجاعتهم وهو نفسه كان يساعد فى نقل الحجارة والمونة غير ان التمرمر والنميمة كانت محيطة به من كل جانب ثم ان عدداً وافراً من الاشراف قد علوا الصراخ قايلين انهم ما اتوا من بلادهم الى الاسيا لكى يعمروا مدينة بل لكى يتملكوا اورشليم من ايدي الامم وكذلك الامير ليوبولدوس ده اوطريش الماكث بطالاً مع عساكره النمساوية قد اجاب وقال لريكارد : انى لست انا لا حداداً ولا نجاراً ولا بنّا : وهكذا الامير المذكور ابتعد عن العسكر باحتداد واسياد اخر كثيرون اهملوا سنجق هذا السلطان راجعين الى الوراء واما هو فمع شراسته وحدة طبعه قد كان يسمع هذه الانواع من التمرمر والتشكى ضده ويشاهد خروج العساكر عن طاعته صامتاً بروح هادي مستهزياً بهم ☆

ثم ان الجيوش المسيحية اجتمعوا فى سهل اسكالون لكى يحتفلوا بعيد الفصح سنة ١١٩٢ واذا بقصاد اقبلوا من بلاد الانكليز مخبرين سلطانهم ريكارد بان اخاه يوحنا سان تارا خرّب المملكة على صالحه واستولى عليها فلما سمع هو هذا الخبر جمع اليه روسا العساكر واعلمهم باغتمام شديد انه ملتزم بان يسافر عاجلاً نحو الاوروبا فهولاء الروسا اذ ندبوا بمرارة نوع لزوميته لهذا السفر فاهتموا حينيذ فى ان يختاروا سلطاناً ذا كفاية في ان يحامى عن خير المسيحيين فى المشرق ومن حيث ان غوي ده لوزنيان الضعيف الذي كان سلطاناً حيناً ما على اورشليم وقد طرد

من ولايته وقتيئذٍ تنزل عن حقه تماماً متفرغاً عن سلطنةٍ لم يعد هو بعد ممتلكاً فتم الانتخاب عوضه سلطاناً على اورشليم في شخص امير صور كونراد الشريف الذي معسكر الصليبيين عرف جيداً ان يعتبر شجاعته وكفاءته . ومن قبل انهُ حينيئذٍ كان هو مقيماً في مدينة صور فأرسل قصاداً يخبرون هذا الامير الشاب بانتخابه الشرعي لتخت سلطنة المدينة المقدسة غير ان هذا البطل الشهير الاسم في الحروب لم يكن مزمعاً ان يتمتع بهذه السلطنة اصلاً لانه حينما سكان مدينة صور اقاموا عيداً مشاعاً للافراح بارتقا اميرهم هذا الجليل الى كرسي السلطنة ففي بهجة هذا العيد تداخل فيها بين الفرحانين شابان اسماعيليان من خواص شيخ الجبل فقتلوا السلطان كونراد بضرب الخنجر هذا ولين كان وقع الظن الغير عادل في الحادث المذكور على راس السلطان ريكارد بانه هو العلة السرية لقتل المذكور فحينيئذٍ انريكوس ده شامبانيا الذي عمه سلطان فرانسا وخاله سلطان الانكليز قد تزوج ارملة السلطان كونراد وصار التنزل عن امرية جزيرة قبرص الموسسة من السلطان ريكارد الى غوى ده لوزينيان وهو اى انريكوس اقيم سلطاناً على اورشليم ثم ان السلطان ريكارد اعطى ابن اخته هذه المدن الذي امتلكها بقوةٍ عسكره في بلاد فلسطين وقد توجه السلطان الجديد المذكور الى مدينة عكة حيث سكانها باحتفال عظيم وفرح جسيم استقبلوا هذا الخليفة الاخير كموسس سلطنة اورشليم غودافروا سلطانها الاخير ※

ثم ان قصاداً اخرين اقبلوا من اوروبا الى السلطان ريكارد فجددوا قلقه وانزعاجه بما اخبروه عن بلبلة مملكته بانواع محزنة من قبل اخيه الامير يوحنا وبان امرية نورمانديا متهددة من قبل سلطان فرانسا فيلبس افغوسطوس فاي نعم ان عزم

ريكارد كان راسخاً على الرجوع الى سلطنته ولكن من حيث انه صعب عليه ان يفارق بلاد المشرق خلواً من ان يملاها رهجةً بسمعة بطش اقتداره ضد الاسلام فقد اراد ان يمارس موقعةً شديدة الباس مع هولاء الغير المومنين بها يظهر افعال استطاعة ذراعه وعظم رجوليته الفريدة فاذاً قد شوهد هو كمنتصر جايلاً بعسكره فى سهل مدينة الرملة وقد امتلك بندر داروم فى ناحية فلسطين القبلية واذ كان فى كل آنٍ هو متبوعاً من عساكر طايعة لهُ وامينة في حقه قد رمح هو نحو اكتساب انتصار جديد *

الا انه فيما بين اعماله هذه الناجحة قد كان افتكاره فى امر سفره راجعاً الى الاوروبا يتجمع فى مخيلته غيوماً من الكدر والغم وهذه سببت لهُ باطناً مخاوف واسعة واستولت على روحه محذروات سودا ثم ان روسا الجيوش الصليبية قد صمموا الاعتماد الراهن الجهبزي على انهم ما عادوا يرجعون اصلاً الى الورا عن مداومة معاطاتهم الحرب ضد الاسلام سواءً كان السلطان ريكارد يسافر عنهم او كان يبقى فيما بينهم فهذا الاعتماد عرف عند العسكر جميعه وجلب لهم كافةً فرحاً فايق الوصف عاماً ولكن حينما اجواق الصليبيين كانت تعلن دلايل المسرة بواسطة التراتيل والولايم واعياد البهجة فالسلطان ريكارد وحده كان يوجد كايباً فى حال افتكارات عجيبة وعميقة وتاملات موضوعات مضاد بعضها بعض وبالتالى لم يكن هو مشتركاً مع الفرح العمومى فالجيوش سارت ثم نزلت تحت اسوار حبرون مكان مولد القديسة حنه ام والدة الاله كما هو راى كثيرين وهناك ريكارد استمر مهموماً مقطباً عابساً وابخار طبعه الحاد ابعدت عنه مشورات محببيه وتعزية اصدقاه المرفوضة منه غير انه لما كان هو يوماً ما

وحده فى خيمته ساهياً بوجهه نحو الارض قد دخل اليه كاهن
اسمه غويليوم من اقليم بواطان وتفرس فيه بعينين دارفتين الدموع
صانعاً له خطبة ذات براهين لكي يلزمه بان لا يفارق بلاد
فلسطين فهذا السلطان اذ اقتنع جداً من كلامه قد وعده بالا
يسافر اصلاً الى بلاد المغرب قبل الايام الفصحية من السنة
المقبلة فحالاً خرج المنادى فى العسكر جميعه بان السلطان ريكارد
لا يغرب من بينهم قبل فصل الربيع الاتى وبان كل واحد
منهم يستعد للمشي نحو اورشليم فهذه البشارة اوعبت الجيوش
الصليبية ابتهاجاً سامياً على ما سواه وكلهم رفعوا ايديهم الى
السما صارخين لك الشكر ايها الاله القادر على كل شى هوذا
الزمان ذا البركات قد دنى منا والشرور كلها التى احاقت بنا
لحد الان قد نسيناها بعد اننا منطلقون لاجل تخليص مدينة
اورشليم وبالحقيقة انهم اجمعين ما عادوا يفتكرون باتعاب او
بغيرها لان تاملهم هذا وحده فى انهم ازمعوا عن قريب ان
يشاهدوا اورشليم قد جعلتهم ان يسموا بشجاعتهم على المخاطر
مهما كانت وان يستهونوا بكل المشقات وبالا يبالوا من مشقات
الحرب ✡

فسارت العساكر المسيحية نحو بيتانوبولى المسماة الان بيت
نوبا وحلوا هناك بعيدين عن اورشليم نحو عشرين ميلاً وبعد
ان لبثوا مقيمين فى ذلك المحل ثلاثين ذات انتظار بالباطل
قد جددوا تشكيهم وتمرمرهم قايلين بحزنٍ وكآبةٍ يا ربنا تري
ماذا عتيد ان يحدث لنا افهل اننا ما عدنا نذهب اصلاً
الى اورشليم اما السلطان ريكارد ففي الوقت الذي فيه كان يظهر
على ذاته كانه غير سامع التشكى والتمرمر ففيه عينه كان يستبين
عنه انه كان هو باطناً يشاركهم بالغم ويتاوّه من حظه الخصوصى

(فيقول المورخ فينيصوف) ان هذا السلطان يوماً ما في غزواته
ضمن جبال اليهودية قد بلغ الى بركة عمواص وجري في اثر
بعض عساكر الاسلام حتى الى تل مودوين الذي من فوقه
يمكن ان تشاهد اورشليم فمن نظرة نحو اسوارها قطرت الدموع
من عينيه عند مشاهدته هذه المدينة المقدسة التي لحد ذاك
الوقت هو ما كان خلصها ثم رجع فصنع ديوان مشورة مولفاً من
خمسة خيالة اشراف من جمعية الهيكليين ومن خمسة امرا
فرانساوية ثم من خمسة نبلا من اهل سوريه فدام اجتماعهم
عدة ايام في جلسات متكررة فراي الفرنساويين كان معولاً على
وضع الحصار بدون تاخير بتةً ضد اورشليم لان الوقت كان يبان
ملايماً لذلك جداً من انهُ كان الخبر شايعاً بان اهالي بلاد
بين النهرين تعصبوا ضد السلطان صلاح الدين رافضين ولايته
عليهم وبان الخليفة المقيم في بغداد كان يتهدد السلطان المذكور
البربري عن السلالة تهديداً شديداً بابادته (ثم يقول المورخ
المذكور) ان سكان اورشليم حينيذٍ كانوا مملوين رعدةً وخوفاً
فلو كان ريكارد يمشي ضدها في ذلك الوقت بعساكره لكانت
الاسلام خرجوا منها واهملوها للنصاري لان هولاء الاسلام لكانوا
يهربون محتقرين مواعيد صلاح الدين وشجاعته بعد ان سلطانهم
هذا (كما يقرر المورخ المذكور) حينما تحقق قدوم الجيوش الصليبية
اخذ من هناك اجود خيوله وهرب مولياً من وجه السلطان
ريكارد ☆

ولكن اشخاص اخر من ارباب الجمعية المذكورة قدموا رايهم
بالضد مقنعين هذا السلطان بعدم امتحان حصارٍ مثل هذا
مخطرٍ زاعمين ان الاخبار المتواردة الى المعسكر ضد صلاح الدين
انما كانت شركاً وحيلةً منه ثم اوردوا الصعوبة في قلة المياه

فى فصل الصيف فى وسط اراضى ناشفة مقحلة والاخطار التى تلم بالصليبيين فى خطوط طريق طويلة ذات جبال وعدم امكان الرجوع الى الورا فى حادث الاحتياج اليه فهذه البراهين التى قبل بمدة نحو ماية سنة ما منعت اصلاً ارفاق الجليل غودافروا عن حصار اورشليم فقد بلغت مفعولها بالقبول من ريكارد فى ديوان مشورته ومن ثم بالاصوات الاكثر فى هذا الديوان وقع الاعتماد على الابتعاد عن اورشليم وعوضاً عن حصارها يصير السفر الى بر مصر ويتم الحصار على القاهرة فهذا الاعتماد هو غريب فريد مذهل مبلبل وكان يلزم ان يُظَن مع ذلك انهُ كانت توجد اسباب اخر اشد قوةً لهذا الاعتماد قد بقيت خفيةً عن التاريخ الذي ههنا يحفظ الصمت وايرادنا هذا الجزء من الاخبار قد بقى كانه مخبو ضمن امور سرية ✿

اما ريكارد ففيما بين ايام المجادلة عن اختلاف الاراء المذكورة ما اهمل هو مواصلة جهاده ضد الاسلام فبعض من اهالى سوريه تحت اجرتهم منه للاستخبار اذ اتوه يوماً محققين له ان قافلة عديدة محمولة اشيا غنية جداً كانت انية من مصر الى اورشليم فهذا السلطان الشرس حالاً جمع اخص الجنود الابطال ولمرهم بالذهاب معه اضرب هذه القافلة فهولاء الشجعان اهملوا العسكر مساءً وساروا صحبته طول الليل على ضياء القمر وفى صباحه بلغوا الى حدود حبرون في مكان اسمه هاري حيث كانت القافلة حالة مع عدد وافر من العساكر المغفرة اياها فالسلطان ريكارد هجم بعساكره على الاسلام كالاسد وهم فى الابتدا (كتقرير فينيصوف) تبلبلوا من هذه المداهمة وهربوا كالارانب من امام الكلاب الراكدة فى اثرها فقتل من الاسلام سبعة عشر شخصاً من الخيالة واُخذت القافلة وهكذا رجع هذا السلطان ووراه

الغنيمة مسحوبة وهى سبعة الاف واربع ماية جمل وعدد عظيم من الخيل والاتن والبغال واحمال هذه الدواب كانت بضايع متجرية من الاشيا الاكثر ثمناً واعظم قيمةً من انواع متاجر الاسيا حتى ان العساكر اعترفوا بانه قط ما فاز الصليبيون قبلاً ولا فى نصرة ما من انتصاراتهم الحربية فى اعظم المعركات بغنايم مثل هذه ذات غناء غير محدود ☆

فاخبار هذه الخسارة العظيمة على الاسلام اذ شاعت فى اورشليم قد القت الخوف والهلع فى قلوب العسكر المسلمين هناك ولكن مع هذا جميعه لم يصير الاعتماد على حصار المدينة المقدسة الا ان الصليبيين ابتداوا ان يشعروا بالشدايد المتزايدة يومياً بمقدار زيادة ابتعادهم عن جبال اليهودية ورجوعهم نحو الشطوط البحرية كما ان الاختلافات والخصومات تولدت فيما بين الفرنساويين والانكليز وكذلك تواجدت فيما بين السلطان ريكارد والدوكا ده بورغونيا المذاكرات والغيظ بواسطة قصايد الهجو والاستهزا المتبادلة من الطرفين والرجا قد زال من قلوب الصليبيين بالارتيابات والمهلات ثم فى بحر هذه المدة عساكر صلاح الدين اذ تكاثرت من قبل المعونات المتواردة اليه بجيوش جديدة قد اتي هو بها ضد مدينة يافا وبعد هجمات ماء قوية قد امتلكها ولما استدعى ريكارد من سكانها المسيحيين لاعانتهم فهو على الفور نزل فى المراكب مع جانب من العسكر الجياد من عكة ووافاهم عاجلاً فمينا يافا كان حينيذٍ مملواً من العساكر الاسلام الذين لما راهم ريكارد رفع ذاته من المركب الي الارض وهجم عليهم بسيفه فتراكدوا امامه وفروا هاربين فادركهم الى المدينة وهم ادبروا منها الى خارج حيثما كان سلطانهم صلاح الدين ناصباً خيامه الذى لما راهم مكسورين هاربين قام صحبتهم راكضاً اما

ريكارد فلم يكن معه من الخيالة سوي ثلثة فقط (فيقول المورخ فينيصوف) ان الازمنة القديمة قط ما وجدت شاهدةً على امر عجيب مثل هذا لان صلاح الدين من جري الحادث المذكور شمله ارتعاش الجزع وبالكاد قلع خيامه وهرب نظير التعلب الخايف وريكارد سعى فى اثر الاسلام مسافة ميلين خارجاً عن يافا ثم رجع فنصب خيمته في المكان نفسه الذي فيه قبل بعض ساعات كان صلاح الدين موطداً مضاربه ❁

فالسلطان ريكارد بعد ان سلم لامانة العساكر قلعة يافا وحصنها قد بقى صحبته من الجيوش بالكاد الفين محارب فغب ثلثة ايام فقط من استخلاص هذه المدينة قد اتفق جانباً من عساكر الاسلام بارتباط سرى فيما بينهم على ان يداهموا ريكارد سراً على غفلة ليل وياخذوه من خيمته ومن حيث انهم حينما قربوا من معسكر الصليبيين حدث ما بينهم اختلاف اعاقهم عن المسير فعند نهايته كان تبدد ظلام الليل باشراق اول الفجر فاحد الجنود المسيحية اذ خرج من خيمته لمصلحة لحظ عن بعد مجى الاسلام ورجع صارخاً : الى الاسلحة : الى الاسلحة : فالسلطان ريكارد استفاق على الصراخ فنهض حالاً ولبس خوذته متقلداً باسلحته ثم ركب جواده وهجم على الاسلام فيما لحقته خيالته سرعةً نصف عراه من الملابس ومن حيث ان عساكر الاسلام ما هربوا من امامه بل اصطفوا للمعركة فهو وقتيذٍ رتب جنوده بصورة حرابة محرضاً اياهم على الجهاد فى هذه الحرب الجديدة وهوذا سبعة الاف مقاتل مسلم المولف منهم ذات الجمهور قد دفعوا ذواتهم شديداً على المسيحيين الذين صمدوا مقابلتهم خلواً من خوفٍ من هذه الهجمة القوية غير ان هذا السلطان فى حال المعركة عرف ان جيوش الاسلام الاخر من وراه قد

دخلوا مدينة يافا وان دم النصاري كان يسفك بسيوفهم داخل اسوارها ولذلك طار هو لاسعاف اخوته وتبعه عدد ليس بوافر من الخيالة مع بعض منجنيقات وعند قربه من المدينة وسماع صوته حصل التبديد فى الاسلام وهو ادركهم وكان يرميهم قتلى بسيفه حيثما كانت نطولهم يده ثم انه صادف فى احدى ساحات المدينة ثلاثة امرا اسلام محاطين من جيشهم الغفير فهجم عليهم ضارباً يميناً وشمالاً مجندلاً فى الارض خيالتهم ومبدداً الباقيين بالهرب السريع واذ بلغ الى شط البحر وشاهد الجنود المسيحية هاربين هناك من سيوف الاسلام الذين باغتوهم قد جمعهم ورجع بهم الى اسعاف الصليبيين الذين فارقهم يحاربون مع ذلك الجمهور الاول وحالما دنا منهم انتض على الاسلام برجولية عجيبة فهولاء الذين الى حد وصوله اليهم كانوا باقيين فى قوة ترتيبهم الحربى لم يعد يمكنهم ان يصادموا بدون تشنيت هذا النهر الخطاف المغرق اياهم غير انهم مارسوا اشد اهتمامهم بالقوة والجهاد الفايق التصديق لكى يفوزوا باخذه حياً او مقتولاً واما هو فمتخلواً من ادنى خشية قد احمى ميدان حصانه وانحدف كالصاعقة على باطن جمهورهم الاوسط داخلاً فيما بينهم بنوع انه غاب. تماماً عن منظر جنوده الذين ركضوا الى كل جهة مفتشين عليه فهو وقتيئذٍ حصل محاطاً من الوف عديدة من الاسلام الذين كان يحاربهم برجولية فاقدة الشبه حتى ان الذين شاهدوا باعينهم اعماله هذه (يقول احد المورخين) وقفت شعورهم فى روسهم فاحد امرا الاسلام الشجعان احتمى رجزاً من تهديدات هذا السلطان الجبار واعلن ذاته في حومة الميدان مريداً محاربته مفرداً فانتظره ريكرد واقفاً ليري كيفية هجمته عليه وحالما بلغ حد ميدانه اليه فهو استحكمه بضربة بلطة دانيمركية كانت

بيده فقص بها نصف راسه وكتفه وذراعه فالاسلام عند مشاهدتهم ذلك لبثوا مذهولين واذ طلبهم ريكارد ان يتقدموا الى الميدان فهم بالخلاف ابتعدوا الى الوراء واكتفوا بان يرشقوا سهامهم عليه بقدر امكانهم فعندما شاهد ذاته هذا البطل ناجياً من تفاطر جماهيرهم امامه وحوله قد فتح لنفسه مجالاً ورجع الى بين جنوده الذين ما كان باقياً فيهم امل ان يشاهدوه لظنهم فقدانه فحصانه كان مغطى الجسم بالدما والغبار وهو عينه (كقول فينيصوف بسداجة الفاظ) كان منقوشاً بالسهام المتعلقة باثوابه رشقاً من اعدايه عن بعد نظير الطابة المغروسة بها الابر. فهنا المورخ فينيصوف نفسه يهتف قايلاً (لانه كان هو شاهداً عياناً لهذه المعركة) ان الحكايات المقولة فى تقريظ انتيا وفى اخبار اسكندر الكبير وعن اعمال يهوذا المكابى فهذه كلها لا تقرب بالتمثيل والمشابهة اصلاً لما فعله ريكارد فى اليوم المذكور ورولاند الشهير بالشجاعة البطلية لان هذا الاسد في الابطال فى مدة المعركة المذكورة كلها لبث غير مغلوب وغير مجروح ايضاً وقد وجد هو وحده كافياً لمحاربة معسكر تام وبقوة ذراعه ادثره ✿

فالناس المحدثون بالكاد يمكنهم الان ان يصدقوا اعمال شجاعة ريكارد هذه العجيبة المماثلة للحوادث المذهلة اشد انذهالاً الموردة فى التواريخ القديمة جداً عن الازمنة المقبلة بازمنة سمو القوة الرجولية ولقد كانت احتسبت الاخبار الموردة عنه من المورخين الانكليز بانواع فايقة التعجب مبالغات كلية انجذبوا الى تعظيمها من قبل الغرض الجنسى لولا تكون اعمال سلطانهم هذا الجهبرية المحيرة الافكار بشجاعة هكذا فريدة غريبة موردة بمصادقة من المورخين الاخرين الغربا عن طايفة الانكليز وفيما بين هولاء الغربا المدققون فى التاريخ قد وجد كثيرون الذين قرروا بان

مجرد اسم ريكارد وحده كان يلقى فى قلوب الاسلام فى الاسيا رعدةً بخوفٍ عمومى والعلامة جوانفيل يتحقق بتاكيد انه هو نفسه سمع مثلين مقالين بتكاثر فى بلاد المشرق مولفين بسبب اذاعة صيت شجاعة ريكارد موردين من احد المورخين قايلاً ان اطفال الاسلام حينما كانوا يبكون فامهاتهم كنَّ يقلنَ لكل منهم اسكت ها هو السلطان ريكارد آتٍ ثم عندما احد خيالة الاسلام كان يوجد راكباً على جواد ركيك الذي حين مشاهدته ظله كان يجفل راجعاً الى الوراء فكان المسلم راكبه ينهزه بالضرب قايلاً لهُ امشِ ما لك خايف اهل تظن ان السلطان ريكارد هو فى هذا الظل يصرخ بعجيجه ☆

غير ان مقدار هذه الاعمال العظيمة وكثرة هذه الامجاد كان يلزم ان تضيع على الصليبيين لان الدوكا ده بورغونيا قد كان قبلاً انسحب ذاهباً الى مدينة صور رافضاً دوام مسيره فى الحرب ونظيره ليوبولدوس دوكا ده اوطريش كان سافر بعساكره النمساوية من بلاد فلسطين والسلطان ريكارد حصل مريضاً وتخلى لارادة كثيرين من عساكره فلم يعد يهتم فى شى اخر سوي في المعاطاة ما بينه وبين صلاح الدين فقد كان يستبين ان الفريقين ملّا من اتعاب الحروب فاذاً قد صار العهد بالصلح فيما بين السلطانين علي شروطٍ مقبولة من الجهتين وروسا المعسكر اجمعون ابرزوا القسم فالمسيحيون علي الانجيل والاسلام على القرآن بحفظ تلك الشروط وكلٌ من السلطانين اثباتاً لذلك تلفظ بكلمات العهد ودق يده بيد قصاد الاخر بالتبادل فعهد الصلح هذا كان منطوياً على رفع السلاح وابطال الحرب بين النصارى والاسلام مدة ثلاثة سنين وثمانية اشهر وعلى ان المسيحيين يدومون اولياء مطلقين على شطوط بحر سوريه التى ضمنها يافا وحيفا

وعكة وصور وعلى ان يكون مسموحاً للنصاري ان يزوروا مدينة اورشليم بحريةٍ خلواً من مانعٍ وعلى ان مدينة اسكالون التي كلٌ من الفريقين محامٍ عن حقه بها كان يلزم ان تهدم الى الارض لاجل خصم النزاع وعلى ان غوي ده لوزينيان الذى اسمه لم يظهر بصورةٍ فى هذا العهد كان يحفظ له التولى الحر على جزيرة قبرص في الوقت الذي فيه سلم لعناية انريكوس كونته ده شامبانيا حماية بلاد فلسطين بالعساكر التى تحت امرة ❁

ثم ان الدوكا ده بورغونيا حينما ازمع ان يسافر الى فرانسا راجعاً قد توفى ونحو هذا الزمان الصليبيون توجهوا بدون اسلحة مقسومين اجواقاً بمسير ذي حسن عبادة الى اورشليم زواراً لقبر المسيح ثم بعد رجوعهم قد كان اناسٌ منهم يلبثون داخل اسوار المدن الباقية فى ايدى المسيحيين وغيرهم المشتاقون الى مشاهدة اهاليهم كانوا يسافرون بحراً نحو بلاد اوروبا ❁

وهكذا السلطان ريكارد عينه نزل فى مراكبه من مدينة عكة مسافراً نحو مملكته وحسب تقرير احد المورخين انه قبل ان يبعد هو من المينا قد سمع عند الجميع صوت النحيب بهطل الدموع من كل الاعين على فراقه طالبين له من الله البركات والنجاحات وكانت مفاوضتهم عموماً عن اعمال شجاعته وعن افعال سخايه وعن فضايله متواترة على افواههم ثم انه من قلة الريح سار مركبه كل تلك الليلة مسحوباً بالمقاديف على ضياء النجوم وعند الصباح حوله الريح نحو الشط وحينيذٍ هذا السلطان لمح الارض بعينين مبتلين بالدموع وقال هاتفاً بصوتٍ كائيبٍ متاسف هذه الكلمات هكذا اواه ايتها الاراضى المقدسة اننى اتركك تحت حماية الله فان كانت العناية الالهية تمنحنى اياماً من العمر طويلة ويكون الرب اراد انى ارجع الى هاهنا

لاجل اعانتك فارجو موملاً انك تشاهديني مرةً اخري ✿

فهذه كانت حال الحرب الصليبية الثالثة التى فيها مملكة النمسا قد فقد من كان الاعظم فيها بين ملوكها وخسرت معسكرها الاجمل بين مصافات جيوشها وفيها ممالك المغرب كلها حملت الاسلحة لاجل تخليص مدينة اورشليم من ايدي الاسلام فما فازوا بشي سوا بامتلاك مدينة عكة وبهدم مدينة اسكالون الى الارض ولكن قلما يكون الصليبيون فى هذه الحرب الثالثة قد انشحوا بمجد الاعمال الجهادية وهكذا افعال الحرب العجيبة المختلطة مع تذكار هذه المرسلة قد كفت التشكى والملامات التى كانت تتواجد فى الاوروبا باقوال فى ان اجتهادات عساكر الصليب هذه الجديدة لم تحصل علي فايدة ما منها ✿

ثم ان هذه الحرب الثالثة قد بقيت مرسومةً بصفات خصوصية قد دُوّنت فى التواريخ لامور مهمة جداً على انه قد استبان انه بالحرب المذكورة شعوب الديانتين المسيحية والاسلامية قد نزعوا عن ذواتهم بعض خصال وعوايد من فضلات التوحش البربري القديم وفيها شوهدت ملوكٌ عظما من اوروبا يباشرون الحرب فى المشرق من دون ان يكفوا عن كرامة عزتهم الذاتية ثم ان المسيحيين فيها مدحوا جودة بعض افعال ذات شهامة صادفوها فى شخص السلطان صلاح الدين والاسلام قرظوا بنعوت المديح لصفات سلطان فرانسا الجليلة كما انهُ مرات كثيرة وجدت امراء الاسلام على مايدة السلطان ريكارد يغتذون معه ومثل ذلك اشراف الصليبيين على مايدة صلاح الدين ياكلون ويشربون برفقته فهذه المعاشرة الاختلاطية المختلفة بالقبايل قد صارت علةً لتغييرات سعيدة في العوايد وفى معرفة الامور وفى اكتساب الفضايل عينها وفى العهد المذكور اخذت فى الاوروبا مباديها

التصليحات التى عنها تولدت توطيدات الشرايع والصنايع والبراح فى عمل آلات المهن لاسيما الملاحظة الاسفار البحرية واتقان المراكب الحربية وغيرها ومن حيث ان اكثر الصليبيين والزوار مارسوا اسفارهم من المغرب الى المشرق فى البحر فصنعة السفر البحري فازت بنمو وفوايد عظيمة يوماً فيوماً بالنجاحات وبنتيجة المتاجر مدت ذراعها باتساع والاختراعات الصناعية اخذت اساساتها من مباديها القديمة من المشرق وتمارست لسد احتياجات جديدة ملاحظة للحيوة البشرية كما ان المهنة العسكرية وصنعة الحرب صارت مدنونة فى نجاحاتها المتاخرة لما اخذته من هذه الحرب الصليبية ركناً منه وعليه شيدت اختراعاتها الجديدة الا ان الثمرة الناتجة عن هذه الحرب لافادة الاوروبا بنوع اعظم جداً من الفوايد الاخر المشار اليها انما هى الحصول على تهذيب اشد صرامةً الذي عود على الطاعة للروسا والخضوع لاوليا الامور العظما كل اوليك الامرا والاشراف المقلقين ذوي التحزبات التى خصوماتهم الحربية بعضهم ضد بعضٍ قد ادثرت مرات كثيرة اوطانهم وسببت سفك الدما البشرية ✲

ثم ان راس هذه الجيوش الصليبية السلطان ريكارد قد كان معداً له فى الاوروبا السقوط فى اسر طويل المدة على ان المراكب التى كان هو مسافراً فيها قد تعطلت عند سواحل ايطاليا غرقاً وتكسيراً ومن حيث هذا السلطان لم يرد الاجتياز الى كرسيه براً فى اراضى مملكة فرانسا فاخذ الطريق من على اراضى النمسا وحده مختفياً بصورة احد زوار القدس البسيطة ولكنه التزم بان يمر ضرورةً فى مقاطعة حكم الدوكا ليوبولدوس ده اوطريش فهذا الدوكا عرف امر مجيه الى بلاده ووقتيذٍ تذكر بان بيرقه الذى كان هو نصبه فوق احد ابراج سور عكة قد رفعه ريكارد

وطرحه فى الخندق الامر الذى صيره ان يعاديه عداوة غير عارفة سكنة الروح فمن ثم عند وصول ريكارد الى اراضيه ارسل هو جنوده يفتشون عليه فوجدوه ومسكوه واتوه به فالدوكا الحنق المذكور اذ تناسى حق كل الامم العمومى وساير الصفات الانسانية قد وضع ممسوكه هذا الشريف فى حبس مظلم تحت الارض ☆

فممالك الاوروبا ما عرفت ماذا جري بالسلطان ريكارد ولا طايفة الانكليز عينها الا بعد ان رجع اليها احد خدام ريكارد الامنا واخبرهم بما حدث لسلطانهم التعيس الحظ فهذا الخادم انما هو احد الاشخاص الشرفا الذين كانوا فى خدمة السلطان ريكارد الشريفة فى داره الملوكية اسمه بلونديل وهو احد شعرا ارآس فهذا عند فقدان سيده من دون ان احداً يعلم ماذا اصابه قد خرج هو من بلاد الانكليز جايلاً فى الاقاليم مفتشاً لعله يجد له اثراً او عنه خبراً ثم دخل الى بلاد النمسا بملبوس وذوى انسان دقاق العود كاحد ارباب صنعة الموسيقا وبعد ان طاف امكنة كثيرة بلغ الى امام قلعة حصينة فجلس تحت حايطها واذا به يسمع صوت انين شخص ات من عمق جدارها واذ اخذ بيده العود وضرب به ناشداً بترتيله الابيات الاولى من قصيدة كان الفها هو وريكارد جملةً وكانا معاً يرتلانها فى بعض الاوقات بالانشراح والبسط سابقاً فالسلطان ريكارد من داخل الحبس المظلم الذي كان هو مطروحاً فيه داخل تلك القلعة لما سمع هذه الابيات قد رتل هو من ضمن الحبس الابيات الثانية من القصيدة عينها فسمعها بلونديل وحالاً عرف نغمة سيده وصوته فامتلى فرحاً ورجع مسرعاً الى بلاد الانكليز واخبر ارباب الحكم بهذه القضية وهكذا شاع العلم بها واما الدوكا ده اوطريش فقد خاف من انكشاف القضية المذكورة

ولم يعد يريد دوام حبسه السلطان ريكارد عنده بل اسرع
بارسالة اياه الى انريكوس السادس ملك النمسا الذي كان قبلاً
حدث له من قبل هذا السلطان بعض اهانات وكان يترقب
الفرصة لينتقم لذاته عنها منه فلما وصل اليه جنود ليوبولدوس
الاخذون ريكارد صحبتهم فهذا الملك امر بتقييده بسلاسل حديد
وارسله هكذا الى ديوان عظما المملكة الملتيم وقتيذٍ في مدينة
فورمس فهناك البغضة والحسد صورا ضد هذا السلطان عدداً وافراً
من الذنوب وطلب منه الجواب عنها واحدةً فواحدةً الا ان
ريكارد ذا اللب الباسل والشجاعة الغير المغلوبة المتعزي باطناً
بامجاد اعماله في بلاد فلسطين والحامل دايماً على صدره الصليب
علامة شريفةً لزيارته الاراضي المقدسة ما سمح بان تنقص
شجاعته تحت ثقل السلاسل الحديدية وامتنع مطلقاً عن
التشكي والتضرع نحو احدٍ بالكلية بل ردّ الاجوبة الراهنة
فى تبريره من تلك الذنوب فعند فحص هذه الاجوبة وبراهينها
فى الجمعية اربابها ما قدروا ان يمسكوا ذواتهم عن البكا حين
ظهور برارته والقضاة الذين حضروا هناك ليحكموا بشجبه قد
خرجوا منها غب معرفتهم كذب الشكايات واما الملك فلم يهجع
عن عزمه الغضوب بل ترك ريكارد محبوساً تحت حمل تلك
السلاسل مدةً تنيف عن سنة كاملة ✲

واما مملكة الانكليز فلم تكن تغافلت عن الاجتهاد الكلى
فى امر خلاص سلطانها لاسيما لان شعوبها كانت تحبه جداً غير
ان عناية عظمايها تارةً بالمكاتبة والبراهين والتشكى العادل وتارةً
بالمراسيل واستخدام الوسايط واحياناً بالتوسلات ولكن هذه كلها
ذهبت سدى لان رسايل امرا المملكة وتضرعاتهم لدي انريكوس
السادس لم تفز بان تروض نفس هذا الملك الموعبة احتداداً

وبغضة" ضد سلطانهم فلزم الامر لاجل نهاية هذه القضية استخدام عناوة ام فايقة الطبيعة (اى الكنيسة) ✿

على ان السلطانة اليونورا ام ريكارد اذ اهتمت كثيراً زماناً طويلاً بخلاص ابنها بانفاذها رسايل متعددة للملك انريكوس ولم تنل مرغوبها فقد التجات بالرسايل للحبر الروماني الذي من قبل سمو سلطانه الكنايسي ومن قبل سهرة العام قد كان في تلك الازمنة يصير الالتجا اليه من الشعوب ضد سلاطينهم اذا وجدوا ظالمين او ذوي الام نفسانية اثمة فاخيراً هذه السلطانة فازت بثمرة اتعابها بعد مدة سنة مستعملة التوسلات والوسايط والتهديدات وغيرها ولكن الملك انريكوس ما اطلق ابنها من القيود والحبس الا تحت مبلغ مال عظيم جداً دفعته له المبلغ الذي الخزنة عجزت عن دفعه والتزمت السلطانة بان تكسر الاواني الذهبية والفضية التي في القصر الملوكي وتاخذ ايضاً بعض اواني مقدسة من الكنايس وتضرب الجميع معاملة وتفي بها تمام المبلغ وهكذا اشواق هذه الام واتعابها ومرغوبات شعوب الانكايز كملت بقدوم سلطانهم ريكارد اليهم حيث اقتبلوه بسمات الفرح العام وبرايات الظفر الذي ناله في بلاد فلسطين ✿

ولكن تري ماذا اصاب في قاطع البحر صلاح الدين المقتدر الذي كان هو الثاني بعد السلطان ريكارد في جهابزة الجيل الثاني عشر الفريدين في الشجاعة وقد كان اشغل عقول اهالي المشرق والمغرب في اواخر الجيل المذكور انه حينما كان السلطان ريكارد يتكبد في الاوروبا اضامات اسرة محبوساً فامير المسلمين السلطان صلاح الدين مات في دمشق سنة ١١٩٣ غنياً شبعاناً من الخزاين والاموال ومن الكرامات والانتصارات فالبعض من المورخين يوردون ان هذا السلطان اذ شعر اخيراً بعدمية مجده وفساد

الآشيا البشرية فعند قرب موته استدعى اليه العظما في جيوشه ورسم عليهم بان يرفعوا على راس رمح الكفن المزمع هو ان يدفن فيه مكفنا ويدوروا به في ازقة مدينة دمشق وينادوا بصوت عالي قايلين هذه الكلمات وهى: هوذا الشي الوحيد الآخذه معه صلاح الدين المنتصر على المشرق من جميع ما قد امتلكه من الاكتسابات ✿

الفصل السابع

عن الحرب المقدسة الرابعة

في الحرب الصليبية المصنوعة من الملك انريكوس السادس

و في حصار قلعة ثورون ثم في نهاية هذه الحروب

ان موت السلطان صلاح الدين قد اقام البلبلة في المملكة الاسلامية فهذا السلطان المقتدر كما يقول المورخون المشرقيين قد خلف سبعة عشر ابنا الذين كل منهم حصل لذاته مقاطعة من الملك الواسع الذى خلفه ابوهم ولكن ولا واحد منهم كان متصفا بجودة عقل ابيه ولا كان يستطيع ان يحفظ سطوة الولاية على الاقاليم الذي هو فاز به بالقسمة فاخو صلاح الدين الامير مالك آدل الذي كان مزينا بصفات كريمة من حسن التدبير وسمو الاقتدار واشراق السمعة باذاعة الصيت قد اغتنم فرصة الانقسامات والبلبلة الحادثة فيما بين اولاد اخيه فجمع تحت يديه البقايا المتبددة من الدولة الايوبية ✿

ثم ان روح الانقسام وعدم الشجاعة قد تداخلا وقتيذ ما بين مسيحيى المشرق بعد سفر السلطان ريكارد من فلسطين وهذا الامر قد جاد على صالح مرغوبات الامير مالك آدل لانه تحت

تدبير انريكوس كونتة ده شامبانيا الذي السلطان ريكارد قد عرفه واضحة" بتسمية سلطات اورشليم مسلما" اياه حماية بلاد فلسطين فالصليبيون المتوطنون هناك كانوا يوميا" يسيرون الى سوء حال ماشين نحو سقطتهم بالتقهقر فامير الاسلام سلطانهم الجديد مالك اذ كان يشاهد مملكته صايرة بمنزلة ملجا الاتيين اليها من الطوايف الخارجة فكان يبان عليه الكدر من ذلك وشرع يضايق امورهم فامير انطاكية بوهيموند الثالث ومثله امراء بلاد ارمينية قد اشهروا الحرب ضده واما بلاد فلسطين فلم يعد باقيا" من يحامى عنها سوي خيالة الجمعيات الرهبانية المقاتلين الذين لبثوا مقيمين فى الاسيا من قبل حسن ديانتهم فى تكريم الاراضى المقدسة او لاجل حفظ نذوراتهم الاحتفالية التى لكانوا خالفوها لو انتزحوا عن الاراضى المذكورة ثم انه كانت عدمت من مسيحى المشرق القوة الاقتدارية لالزام الاسلام بواسطتها على حفظ عهد رفع الحرب لتمام الثلاث سنين وثمانية اشهر المصنوع قبلا" من الفريقين اذ ان الاسلام وجدوا حينيذٍ دايما" تحت الاسلحة متظاهرين بعدم الصبر على احتمال وجود ولاية ما للمسيحيين في المشرق لانهم قاصدون بعزم وطيد ملاشاتهم من هناك تماما" وحينما احتياج هولاء المومنين الزمهم بتكرار التماسهم من اهالى اوروبا الاعانة فى حال ظروفهم المحزنة قد استبان ان سكان المغرب وجدوا قليلى الاستعداد فى امتحان حروب جديدة ضد الاسلام اما نظرا" الى السلطان ريكارد فتحفظ على الدوام صليب الحرب المقدسة معلقا" على صدره دليلا" على ثبات عزمه الراسخ علي الحرب الصليبية ولكنه بعد عتقه من الاسر الذى استمر هو بهِ زمانا" طويلا" ما عاد يفتكر سوي فى ان يحمى مملكته الخصوصية وفى ان يكون متهيئ لمصادمة السلطان

فيلبس افغوسطوس فى ضرورة الاحتياج الى الحرب بينهما كما
ان سلطان فرانسا المذكور فيلبس كان يتخشى من ان ريكارد الحاوى
فى لبه المغايرة ورغبة اخذ الثار يبلبل بلاد فرانسا فى غيابه اذا
هو ابتعد عنها الى المشرق فاذاً ملك النمسا انريكوس السادس
ابن فريداريكوس الاول وحده قد كان فى تلك الازمنة قادراً
على ان يمتحن عمل حرب جديدة ضد الاسلام فهذا الملك
الذي المورخون يصورون لنا صفاته بانه ذايب تعطشاً نحو زيادة
الارتفاع والبطش موعب من الصلف متفطراً بكبريا كلية واهتماماته
كلها كانت متجهة نحو المجد الباطل راغباً فخرة القياصرة الاولين
مومّلاً ان يقول مع اسكندر الكبير ان جميع ما تشتهى امیالى
ومرغوباتى ان تتمتع به هو محق لى فالبابا سيليستينوس الثالث
لمعرفته احوال سلطانى فرانسا والانكليز المذكورين انفاً وجه نظره
نحو هذا الملك لكى يمارس حرباً صليبية جديدة فى تلك
الظروف ☆

على ان الحبر الاعظم المذكور ابذل عنايته واهتمامه جداً فى
ان يحرك قلوب المومنين الى هذه الحرب بغيرة متقدة ففى
المنشور الرسولى الذى انفذه الى المسيحيين الذين فى المغرب
بفصاحة وبراهين اخبرهم به بموت السلطان صلاح الدين وكان
يحرضهم على حمل الاسلحة تحت راية الصليب والذهاب
الى المشرق لاسعاف اخوتهم الحاصلين دايماً تحت الجور والمظالم
والمصايب المتتابعة في عبودية الاسلام ثم ارسل من قبله قصاداً
الى الملك انريكوس السادس (بعد ان سلطانى فرانسا والانكليز
ما امكن اعتمادهما على هذا الحرب) مذكراً اياه بواسطتهم بنموذج
والده الجليل فريداريكوس الاول ومنهضاً غيرته على الاقتدا
بهذا النموذج فالملك المذكور وان كان وقتيذ ساقطاً فى الحرم

الذي كان رشقه به البابا سيليستينوس نفسه لاجل مسكه عنده المسلطات ريكارد اسيراً فمع ذلك اقتبل هو القصاد الرسوليين بكرامة وافرة واعتمد تتميم مرغوبهم وهو عينه نادي بالحرب المقدسة في جمعية عظما للملكة الملتهمين في مدينة غورمس على ان هذا الملك الذي كان حينيذٍ هو يدرس في ايجاد الطرايق التي بها ممكن له ان يمتلك جزيرة سيشيليا وبلاد اليونان قد اقنع ذاته بان هذه الحرب المقدسة مفيدة له لاجل اتمام مبتغاه المذكور واشفا غليل محبته زيادة المجد والمجد فخطابه الفصيح الذي تلاه في تلك الجمعية بلغ مفعوله وعدد عظيم من اشراف المملكة المتقدمين اقتداءً بمثله اخذوا صلبان هذه الحرب ومن حيث المانيا النمساويين كانوا على نوعٍ ما وحدهم باشروا التهيي للحرب فشعوب بلاد جرمانيا ايضاً غايروهم بحركة الديانة واكتساب المجد وهكذا من كل جهات المملكة الخاضعة لانريكوس السادس كانت الناس تتقاطر لتكتتب تحت سنجق الصليب ☆

فانقسم المعسكر جميعه ثلثة اقسام وكل قسمٍ سار في طريق مختلفة عن سبيلي القسمين الاخرين فجيوش القسم الواحد كانوا تحت رياسة الدوكا ده ساكسا والدوكا ده برابانت وسافروا بحراً من مين البحر المحيط والبالتيكو اما عساكر القسم الثاني المتراس عليهم الكونته ده لامبورك ريس اساقفة مايانص وفالارن فقد اجتازوا نهر الطونا متجهين نحو مدينة القسطنطينية واما نظراً الى الملك انريكوس فبعد ان كان هو اعتمد على انه هو بشخصه يقود المعسكر الى المشرق كما كان نادي بذلك فقد غيّر رايه محتسباً ان دوام اقامته في الاوروبا كان اشد لزوماً ومن ثم تراس هو على هذا القسم الثالث من المعسكر وسافر

الى بلاد نابولي بهذه الجيوش كي يواصل الحروب التى هو كان ابتدي بها ضد جزيرة سيشيليا ۞

فالصليبيون النمساوية وصلوا الى بلاد فلسطين واظهروا رغبتهم الشديدة بمحاربة الاسلام غير ان المسيحيين المتوطنين هناك اذ خافوا من حدوث اضرار جديدة فارادوا احترام العهد الممنوع بعدم الحرب الى نهاية المدة المعينة قبلاً ولكن هولاء العساكر النمساوية قد غضبوا من ان يوضع مانعٌ لمفعول شجاعتهم وخرجوا من مدينة عكة بالاسلحة وقبل كل شي شرعوا في نهب اراضى الاسلام ودثار بلادهم الا ان هولاء الغير المومنين قد التيموا حالاً من كل جهةٍ وجاوبوا بالحرب الشديد فايزين بالظفر فى هذه الموقعة الاولى ثم ان السلطان مالك آدل مشى بعساكره وحاصر مدينة يافا والحال ان هذه المدينة ذات المينا البحري لانها الاقرب من جميع المين الى اورشليم فقد كانت هى الاعظم لزوماً وافادةً للمسيحيين لانها تفتح الطريق للصليبيين بسهولةٍ نحو المدينة المقدسة وتعطيهم الوسايط باوجز مجال واجود حال لحصار اورشليم المقصود منهم ومن ثم كان السلطان ريكارد حصن يافا جيداً ووضع ضمنها عدداً عظيماً من العساكر لمحافظتها غير ان هذا جميعه كان عديم الاستطاعة لمقاومة قوة شقيق صلاح الدين لان مالك هذا المقتدر استولى على يافا اخذاً اياها بالسيف وينيف عن عشرين الف مسيحي بادوا تحت اسلحة الاسلام ۞

فخبر امتلاك هذه المدينة اقام الحزن الاليم والتوجع الجسيم فى قلوب المسيحيين الذين فى مدينة عكة اذ انضافا الى الكدر المر والغم المفرط اللذان قبل بمدة وجيزة شملاهم بموت انريكوس ده شامبانيا سلطان اورشليم بسقوطه من احدا شبابيك قصره الى الارض حيث توفي حالاً فى الوقت الذي فيه كان هو

مجدّاً على السفر بالعساكر لاسعاف يافا حين حصارها ووقتيذٍ جيوشه عوضاً عن سيرهم السريع الى الحرب رافقوا جسد سلطانهم الى القبر الا ان المسيحيين فى حال ذلك الخطر المبين ما ارادوا انْ يضيعوا الزمان بافعال حزنٍ غير مفيد لهم بتةً بل خرجوا من مدينة عكة ومعهم العساكر النمساوية الذين انضافوا اليهم وزادوهم قوةً ثم مشيوا ضد الاسلام معتمدين على حصار مدينة بيروت المماثلة صور بالفوايد نظراً الى سكناها وميناها ومتجرها ليس باقل مشابهةً لمدينة عكة وكانوا ذايبين شوقاً نحو معركة شديدة بها ينتقمون من الاسلام عن اخذهم يافا ❊

فالسلطان مالك اسرع بجيوش غفيرة لاسعاف بيروت الكاينة تحت الخطر فالعسكرات تصادفا عند شطوط نهر الوثيرا (المدعو الان النهر الكبير) الجاري ما بين طرابلوس وطرطوز فهناك اشتبك الفريقات بمعركة مهولة والصليبيون فازوا بالانتصار ثم ان السلطان مالك الذي بهذه الحرابة اظهر صفات قايد شجاع حسن التدبير جداً فى القتال قد جُرح ولم يُفز بالحيوة الّا بمنة شجاعة حامل سلاحه الذى خلصه فبعد انكسار جيوشه وحصول الظفر عليه للمسيحيين اكثر المدن التى على ساحل بحر سوريه وهى صيدا واللادقية وجبلة وغيرها سقطت تحت ولاية الصليبيين كما انهم امتلكوا مدينة بيروت ايضاً تسليماً بدون حرب بعد ان هربت منها عساكر الاسلام الذين كانوا يحامون عنها فجنود الصليب هولاء صادفوا فى هذه المدينة اشيا غنية جداً جداً فمن ذخاير القوت وحدها كان موجوداً ما يكفى سكانها اجمعين مدة اطول من ثلث سنوات مع كمية وافرة من الالات الحربية كافية لان توسق مركبين كبيرين غير ان الغنيمة الاعظم قيمةً والاشد تعزيةً للغالبين هى مشاهدتهم داخل المدينة تسعة الاف

اسير من المسيحيين كانوا عبيداً ارقا من الماخوذين فى الحروب المتقدمة بايدي الاسلام متوقعين بقلة صبرٍ ذاك اليوم الذي فيهِ يفرحون باخذ ثار الاهانات والمظالم التى تكبدوها ازمنةً طويلةً فى حال الاسر ثم ان الصليبيين بعد ان قدموا لله جزية الشكر الواجب فى كل المدن التى بايديهم احتفالياً بسمات التهليل على ما انعم عليهم بهِ تعالى ما عادوا تكلموا عن موضوع اخر الا بان يسيروا خلواً من تمهلٍ الى تحت اسوار اورشليم ✿

فلنحولنّ الان نظرنا نحو الاوروبا حيث الملك انريكوس السادس استخدم كل الاقتدار الذى سلمته اياه العساكر الصليبية بطاعتهم لهُ بالمجى معه فى ان يستولى على سلطنة نابولى وسيشيليا لان هذا الملك اذ قد تزوج بالاميرة قسطانسا ابنة روجار فقد خصص ذاته بالتسمية الارثية للابنة المذكورة وهى سلطانة نورمانديا غير انه صادف هو خصماً قوياً لهُ الامير تانكريد الابن الطبيعى (لا الشرعى ناموسياً) لروجار نفسه لاسيما بعد ان اشراف جزيرة سيشيليا قد عرفوه سلطاناً عليهم (كما ذكرنا فى محله) ولكن تانكريد عند موته ترك هذه السلطنة خالية من رئيس اعلى ساقطة تحت كثرة الانقسامات والتمردات ومن حيث ان انريكوس السادس انتصر بقوة عساكره على العصاة فقد استولى هذه البلاد الجميلة سلطاناً عليها غير انه استعمل فى حروبه هذه سيف جلاد قاسٍ احري من سيف محارب كما ان الخوف الشديد من عذاباته البربرية انهى خضوع الناس لشرايعه بابلغ مما لم يكن هو قادراً ان يفوز بهِ من قبل انتصاراته ✿

فهذا الملك الغالب الجديد ظافراً بسيشيليا مصبوغاً بدما المسيحيين مستمراً تحت الحرم المرشوق ضده من راس الكنيسة

المنظور فانه لم يحتسب هو ذاته اقل من شخص صليبى
امين ملتزم بحفظ اليمين الذي حلفه تحت راية الصليب المقدس
قد وجه اهتمامه بمحاربة الاسلام بعد فوزه بالنصر فى ايطاليا
فمن ثم انفذ اوامره الى روسا اقاليم مملكته كلها بان يجتهدوا
فى سرعة الزام كل الذين ابرزوا القسم الصليبى بالسفر الى بلاد
فلسطين وكان هو يلزم ذاته بان يستمر فى الحرب المقدسة مدة
سنة كاملة كما انه كان يعد بان يعطى ثلثماية درهم ذهباً لكل
واحدٍ من الصليبيين المحاربين الذين يبتون الى المنتهى على
حفظ الحلف الذي صنعوه بالذهاب فى هذه الحرب المقدسة غير
ان هذا الملك ما وضع ذاته اصلاً قايداً للجيوش الصليبية
بشخصه بل سلم الرياسة عليهم بيد مستجل المملكة كونراد اسقف
هيد السكيم لكى يقودهم الى بلاد سورية *

فهولاء الجيوش بلغوا اخيراً الى اقليم فلسطين بحراً واوعبوا
قلوب جنود الصليب فى بلاد المشرق فرحاً وتشديد غيرةٍ وحينئذٍ
حصل الاهتمام فى امر حصار اورشليم ولكن من حيث ان اوان
فصل الشتاء كان دنى منهم فقر رايهم على انتظار دخول فصل
الربيع القادم ليمكنهم مباشرة حصار مدينةٍ مثل هذه اضحى
اوفر خطراً واشد صعوبةً مما كانت حالها وقت حصارها الاول
من غودافروا لان الاسلام بعد سفر السلطان ريكارد من سورية
قد حصنوها جداً فبلغ اخيراً الحين الذي فيهِ كانوا مزمعين على
اخذ المسير نحو المدينة المقدسة وقد كانت وقتئذٍ مدن اقليم
فلسطين الاخر صارت تحت ولاية المسيحيين ولم يعد فى عاودية
الاسلام الا مدينة اورشليم غير ان امراء الصليبيين عوضاً عن
انهم يجذبون ذواتهم الى نخوةٍ جهبزية بها اخيراً تنقذ غيرتهم
على تخليص القبر الخلاصى من ايدى الامم قد وجهوا اهتمامهم

نحو حصار قلعة تورون الحصينة فى الغاية الكاينة فى اخر جبل لبنان بعيدة مسافة بعض اميال عن مدينة صور فالصليبيون فى حصارهم هذه القلعة قد استخدموا جميع ما امكنهم الحصول عليه وايجاده منهم وما دربتهم اليه صنعة الحروب بجهاد لا مزيد عليه ولكن نبالهم وحجارة الضرب بالات الحرب التى كانوا يحذفونها على الحصن بالكاد كانت تبلغ الى شرفات السور والى مرامى البرج فى الوقت الذى فيه الاعدا من داخل القلعة حينما كانوا يحذفون من علو اسوارها الحجارة الغليظة قد كانت هذه بسقوطها ضد الصليبيين توعب المعسكر رعدة وانزعاجا وضررا غير انهم اضحوا سعدا لما ساعدتهم صناع النقب الفوزلاريون الماهرون فى حفر المعادن الذين بعياقة اهتموا فى انهم فتحوا لهم مسالك فى الجبل الذى فوقه القلعة مشيدة واذ امكنهم بهذه الطريقة ان يوصلوا الى مرامى البرج قد قوروا حيطانه فهدموا جانبه فالاسلام داخل القلعة اذ تضايقوا من ثم وكانوا معوزين من ذخاير القوت ارسلوا قصادا الى معسكر الصليبيين طالبين تسليم الحصن تحت شروط غير ان الانقسام الردي تداخل بين روسا الجيش وازال عنهم مجد الانتصار لان قصاد الاسلام ادخلوا الى جمعية هولاء الروسا المختبطة بين نفسانيات كثيرة واراء مختلفة والبعض من اربابها على ما قيل قد ارتشوا بمال من السلطان مالك فانفصلوا بندالة مرذولة عن ارفاقهم فلما صارت الاسلام شهودا عيانيين على انقسام امراء النصارى بالصورة المشروحة نزعوا عن ذواتهم الخشية منهم وجددوا شجاعتهم وتناسوا سقوط سور البرج ثم حلفوا بانهم يموتون احرى من ان يسلموا الحصن وفيما هم فى ذلك واذ بخبر شاع فى المعسكر بان السلطان مالك هو ات عليهم بعساكره فهم حينيذ امتلوا خوفا ولم

يعودوا ينتظرون بلوغه اليهم بل رفعوا الحصار عن القلعة راجعين نحو الساحل بجزعٍ وبلبلةٍ مذهلة ودخلوا مدينة صور صانعين بذلك مشهداً غريباً وهو ان عساكر هاربة كانهم امام عدوٍ منتصر عليهم مع انه لم يكن وراهم احد يطاردهم واما انقسامهم فعوضاً عن زواله تزايد جداً وكلٌ من ذوي الاحزاب كانوا يوبخون الاحزاب الاخر على هربهم بالتبادل والهيج والسخرية ويومياً كان يشتد التنافر بين العساكر النمساوية وبين الذين كانوا قبلهم في سوريه حتى انصلوا الى الانفصال عن ان يحاربوا معاً تحت سنجق الصليب الواحد ※

فنحو ذلك الزمن الامير اموري الذى كان خلف غوى ده لوزينيان بالولاية على جزيرة قبرص قد اضحى سلطاناً على اورشليم مشتركاً بهذه التسمية مع ايزابال ارملة انريكوس ده شامبانيا لقباً على سلطنةٍ وهمية ثم فى تلك الايام عينها الخيالة الصليبيون ذوى جمعية التيوطونيين قد فازوا بنصرةٍ على الاسلام نواحى يافا فالامل بان تشاهد الالفة والاتحاد بين الجيوش المسيحية قد حصل وقلوب المومنين لاجله قد طفحت فرحاً عظيماً ولكن هوذا حادثٌ بغيث ورد على الفور مغيراً وجه الامور ووقفهم بكدرٍ وحزنٍ مرين عن مجرى اعتمادهم الاخير بخصوص اورشليم وهو انهُ حينما كان صايراً فرح الاحتفال بزيجة الامير اموري مع الاميرة ايزابال قد ورد على البدية خبر موت الملك انريكوس السادس فمن قبل هذه الخبرية المحزنة امراء العساكر النمساوية واشرافهم انبغتوا وزالت شجاعتهم ولم يعودوا يفتكرون سوي فى ان يرجعوا الى الاوروبا ولكن سلطان هونكريا وحده بقى امينا على القسم المبرز منه ولبث مداوماً على الاقامة مع جماعته النبلا فى فلسطين ففى مدينة يافا قد كان

وضع جانب من العسكر الصليبيين مقيماً لاجل حمايتها ولكن غب زمانٍ قليل من توطيدهم هناك قد هجمة عليهم الاسلام بغتةً حينما كانوا مجتمعين فى يوم عيدٍ فاحاطوهم وقتلوهم اجمعين ☆

فالكونته ده مونتفورت الذي كان قبل بايامٍ قليلة جاء بحراً الى سوريا بعساكره مع الصليبيين الاخر كان فى العسكر متراساً عليه فقدٍ اتفق مع الاسلام على عهد جديد برفع السلاح وابطال الحرب بين الجهتين مدة ثلثة سنوات وهكذا انتهت هذه الحرب الصليبية المصنوعة تلك المرة من طايفةٍ واحدة واظهرت لدينا المشهد الغريب وهو ان حرباً مقدسة تُمارَس من ملك محروم ولكن هذه الارسالية لم تكن خالية من المجد للصليبيين لان انتصاراتهم بها قد صيرتهم مالكين جهات معتبرة من اقليم سوريه الا ان الامور سريعاً تغيرت عندما قوة الجيوش النمساوية كلها توجهت نحو محاصرة قلعة صغيرة فى نهاية جبل لبنان كما ان الانقسامات التى اعتقبت هذا العمل قد كردست المسيحيين وجعلت ان تزول مضمحلةً بتعاسةٍ تلك الاثمار كلها الناتجة عن اكتسابهم ما فازوا بهِ قبلاً ☆



الفصل الثامن

فى الحروب الصليبية الخامسة

فى الاعمال البابوية نحو الحرب المقدسة وفيما يلاحظ فولك نويلّى
وفى اتحاد الصليبيين مع المشيخة البندقية وفيما يتعلق بشان
انريكوس داندولو وفى حرب مدينة زارا وفى سفر الجيوش
نحو القسطنطينية ثم فى حصار المدينة المذكورة المرة
الاولى وكل هذه الامور حدثت من
سنة ١٢٠١ الى سنة ١٢٠٤ .

انه فيما بين الصور المختلفة المختصة بالحروب الصليبية التى تواريخها تقدمها لدي اعيننا بالتتابع قد يلزم ان تلاحظ جيداً صورة ذات عظمة موطدة دايماً فوق الموضوع الاول وهذه الصورة ذات المشهد النبيل تجذب قبل كل شي الابصار بجملتها الى ملاحظتها حسناً جذباً فاعلياً وهى الرياسة البابوية المقتدرة المتصفة بالوصاية العامة على المسيحيين المتد وجودهم فى العالم اجمع وبالمحافظة على اربابهم العامة لان المسيح عند صعوده من الارض الى السماء بعد ان اعطى المسكونة شريعته قد ترك هاهنا اسفلاً اقتدار سلطان منظور رابطاً عليه ومعلقاً به بحسب كونه ممثلاً مملكته السرمدية جانباً عظيماً من ولايته الالهية فهذا الاقتدار السلطانى ما جلّ اصلاً فى رسوليته المقدسة لان البابوية ذات الاقتدار المذكور المستحرة بالنار المقدسة المنحدرة من السما لانارة العالم قد سهرت نهاراً وليلاً دايماً كمحافظ امين على حراسة الوديعة الالهية وعرفت ان تزيدها انواراً في

كل المرات التى فى مجرى الاجيال اقتضى لها الانتشار سهراً وعرفاً اجود كثيراً من ذينك الذين اتصف بهما الكهنوت القديم الذي كان صورةً لحقيقة هذه ☆

فمجري الولاية البابوية فى دوام اجيال الكنيسة المتوسطة قد وجد هو اوفر سمواً واشد عظمةً مما صودف فى ازمنةٍ اخر سابقة ومتاخرة ولكن ليس هو المكان اصلاً فى الفصل الحاضر لتبيين الخيرات جميعها الاتية جرياً وقتئذٍ من هذا الينبوع العجيب الفايض بسخاء مخصب الذي امواهه الخلاصية كانت تشفى فى تلك الازمنة حيناً فحيناً اوجاع الشعوب والسلاطين ☆

بل اننا ناتى هنا الى الموضوع الذي نحن فى صدده مكتفيين بان نعرف قلما يكون الاعمال البابوية فيها يلاحظ الحروب الصليبية قد وُجدت عديمة ان تُحد وقط ما صودفت بطالةً لانهُ لا ريب بتةً في ان الاحبار الرومانية قد استعملوا قوة سلطانهم باسرها بالتفويضات والمشورات والتشجيعات عنها لهذه المرسلات الحربية العظيمة ولكن ان كان ينسب الى الحروب الصليبية الخير الادابى والخير العشرى الانسانى الناتج منها للشعوب وكذلك النجاحات المدنية لاسيما التهذيبات البشرية وان كانت هى ادثرت ام ضاعفت كثرة الشعوب فى جهات المشرق فالمتمسكون بعقيدة نبيهم محمد لولا هذه الحروب المقدسة اللامعة لكانوا شوهدوا الان فى راس العالم المسيحى رومية العظمى نفسها واضعين راية نبيهم موضع صليب يسوع المسيح فاذاً من تراه يمكنه ان يتجاسر بعد هذه الملاحظات على ملامة الاحبار الاعظمين لاجل اهتمامهم فى مداومة الحروب الصليبية مدةً مستطيلةً من الازمنة افهل انهم لم يكونوا ملتزمين بحسب صفتهم محافظين على دوام ثبات الايمان بان يستعملوا نفخة افواههم المقدسة القوية ليردوا

بها الى الوراء الريح الاسماعيلى الذى كان يتهدد بان يمتد فى اراضى المغرب *

فالحروب المقدسة فى مدةٍ تنيف عن جيلٍ ونصف قد أعتبرت بمنزلة العمل المهم جداً اعظم اهتماماً فيها سواه عند المسيحيين اجمعين باشتراك مشاع وبالتالى كان بنوع حى ذى اهتمام اشد وعنايةٍ ابلغ كاينا في المحل الاول عند راسهم الروحى العام ثم فى بحر المدة المرقومة ما وجد ولا حبرٌ رومانى واحد من كل الذين جلسوا فى السدة الرسولية غير مباشر اجتهاده كله واعتنايه باسره وسلطانه بجملته. وفصاحته جميعها فى هذا الشان لا بل الى حد يومنا هذا ما اخذ التامل بكفايةٍ بتةً فى المناضلة الدايمة والمحاربة الغير هاجعة مطلقاً المارسنين من الكنيسة ضد الاغتصابات البربرية فكيف اذاً لا تُلاحظ جيداً قوة ثبات هذه الباباوية بنوع عديم الملل بالمداخلة الاساسية مدة جيل ونصف فى القضية الصليبية بعزمٍ كذا شديد القدرة وباتحاد هكذا وطيد حتى انه يمكن القول ان كرسى بطرس فى دوام اكثر من مايةٍ وخمسين سنةً كان مدبراً من حبر اعظم واحد نظراً الى هذا الموضوع فى الوقت نفسه الذى فيه يُلاحظ بعد ذلك ان كنيسة الله من الجيل الرابع عشر الى الجيل السابع عشر دامت محاميةً عن المسيحيين دون كفاف ضد هجمات الاسلام ومظالمهم والباباوات فى مدةٍ تنيف عن مايتى سنة لبثوا باذلين اعز ما عندهم من الاجتهادات فى ايجاد حسن التهذيب والانسانية فى الاوروبا مصيرين اصواتهم بالتحريضات الفعالة الموثرة ان ترن فى اذان الشعوب والسلاطين مستحلفين اياهم بمناشدةٍ رعائية فى ان يتناسوا خصوماتهم وحمية غضبهم لكى يسيروا جملةً باتحادٍ ضد الطوايف الغريبة البربرية الذى فى

سياقات انتصاراتهم كانوا يتهددون بان يلاشوا الاسم المسيحي في كل جهةٍ فتري كيف لا يعرف انهُ خلواً من غيرة الاحبار الرومانيين وعناية سهرهم وصرامة قوة اوامرهم المقدسة لكانت بلاد اوروبا هذه الجميلة اضحت منهبةً ومغزي لشعبٍ معروفة لدى الجميع كيفية شرايعه المحمدية ☆

فالبابا القديس غريغوريوس السابع قد افتكر نحو اواسط الجيل الحادي عشر بان يسافر هو نفسه من رومية على راس العساكر الصليبية وقد اجتهد كثيراً في جذب الملك فريداريكوس الى مقاصده وقد شوهد كيف انه في اواخر الجيل المذكور الحبر الاعظم اوربانوس الثاني متمماً مرغوبات سالفه المشار اليه وقد رقد بالرب في بلاد رومية قبل نهاية الحرب الصليبية الاولى التي تلالات باعمالها في زمان حبريته ثم ان الاسقف الروماني اوجانيوس الثالث تلميذ القديس برنردوس وصديقه اذ ورث الغيرة عينها فنحو نصف الجيل الثاني عشر شوهد مستحثاً محرضاً مفوضاً القديس المذكور بالمناداة معه وعنه بتجديد حرب اخرى ضد الاسلام في المشرق كما ان الحبرين اسكندر الثالث ولوكيوس الثالث اذ خافا من الانتصارات التي فاز بها السلطان صلاح الدين قد ابذلا اهتمامهما في شان تجهيز جيوش اخرين وارسالهم ضده تحت سنجق الصليب وهكذا اوربانوس الثالث حينما كان في البندقية وبلغه خبر اخذ الاسلام اورشليم فالحزن الشديد الذي شمله من هذا الخبر التعيس سبب لهُ الموت وبعده البابا غريغوريوس الثامن الذي ولين لم يستمر خليفةً لهُ في الكرسي الروماني سوي مدة شهرين فقط فهو في هذه الايام القليلة مارس عنايةً فايقة الوصف في امر استنقاذ الاراضي المقدسة من ايدي الغير المومنين ثم ان خليفة الحبر الاعظم اكليموندوس

السابع. لم توجد اهتماماته اقل حرارةً من سلفايه نحو ارسال
عساكر صليبية جديدة الى المشرق الامر الذي اشغل وقتيئذٍ
عقول اهالي الاوروبا باسرها في هذا العمل العظيم وباسمه قد
نودي بالحرب الصليبية الثالثة من غويليوم الصوري ولخص
اثمار هذه الحرب هي ممنونة لاجتهاداته وكذلك بعد سنين قليلة
نري البابا سيليستينوس الثالث موزعاً في رومية اغصان النخل
علامة الانتصار على سلطان فرانسا فيلبس افغوسطوس وعلى عساكره
حين رجوعهم من امتلاك مدينة عكة هذا ولين كان اهتمامه
العظيم الناتج عن امتلايه من شدة حرارته الصليبية في درسه
الكلي نحو تخليص الاراضي المقدسة لم يفز بمرغوبه بواسطة السلطان
ريكارد فنحن نتذكر توسلات هذا الحبر الروماني بواسطة قصادة
لدي الملك انريكوس السادس لكي يجتذبه الى عمل الحرب
الصليبية واخيراً رقد هو بالرب فيما بين اجتهاداته في ان العساكر
النمساوية تستمر في بلاد اسيا بعد موت ملكهم المذكور سنة ١١٩٨ *

فهوذا نحن بلغنا الى الحين الاعظم مجداً من الاوقات المختصة
بازمنة الاحبار الرومانيين المقدم شرحها «ففي نهاية الجيل الثاني
عشر» (يقول الكاتب الجليل مونتالامبارت الحي في زماننا) قد
شوهد صاعداً على كاتدرا القديس بطرس الرسول انسانٌ في
قوة السن اسمه اينوشانسيوس الثالث الذي كان يلزمه ان يحارب
بشجاعةٍ غير مغلوبة اعدا الكنيسة والعدل كلهم وربما يعطى العالم
نموذج حبرٍ اعظم الاكثر كمالاً ومثال وكيلٍ لله الاوفر سمواً
فهذا البابا الجليل قد انهض فيما بين اعماله الاخر بابلغ نوع
العمل اللامع جسداً والمقتدر في الغاية عن فعل الباباوية فيما
يلاحظ الحرب الصليبية لانهُ اظهر حال كونه ذايباً من شدة
الحرارة الكاينة فيه بنوع فايق على غيرة سلفايه بعد غريغوريوس

السابع فى ان يحارب لاجل الصليب المقدس ❁

فقد كان مضى جيل تام غب انذار بطرس السايح الذي بالفاظه القوية كان انهض هذه المغايرة الصليبية التى بها الشعوب تكريماً للايمان المسيحي ضحوا اراضى مولدهم لاجل اراضى غريبة عنهم وامنيتهم فى بلادهم على اخطار اسفار شاسعة فبعد كثرة الاضرار والشدايد التى طرت على الجيوش الصليبية لم تكن خمدت من قلوبهم بالكلية تلك الحرارة الاولى وقد امتد متزايداً يومياً اقتناع المومنين بان العساكر الباقية فى المشرق من حاملى الصلبان على صدورهم لم تكن كافية لتخليص القبر المقدس من ايدي الاسلام وبانه مختص بالله وحده ان ينتصر للامكنة المكرسة بحضور ابنه بالجسد فيها ومع ذلك حدث التفكر فى نهاية عساكر الملك انريكوس السادس المستحقة الندب ثم فى ملاحظة ملاشاة الشجاعة من الجنود المذكورين وغيرهم خلواً من مجد فمن ثم صار الافتكار من ذلك الوقت فصاعداً بتخليص اورشليم كما ان الحبر الاعظم اينوشانسيوس الثالث قد اعتقد فى قلبه النبيل بانه كان يرجى بعد انقاذ المسيحيين فى المشرق من عبودية الاسلام ❁

فالحبر المذكور لم يكن له من العمر اكثر من ثلث وثلاثين سنة حينما ارتقى الى السدة البطرسية وحالاً هو باشر العمل فى ايقاد النار المقدسة فى قلوب الجميع نحو الحرب المقدسة الصليبية بغيرة رسولية شديدة وبثبات متداوم من عنايته الفاقدة ان تكلّ الخاصة بصفاته الذاتية لانه بواسطة رسايله المترادفة التى انفذها عموماً وخصوصاً الى الملوك والسلاطين والى الامراء والاسياد والى الروسا العساكر والى الاساقفة ثم الى شعوب فرانسا والانكليز وهونكريا وسيشيليا قد اعلن لهم انهُ عازم مطلقاً عزماً راهناً

عديم التزعزع على ان يضحّي اعز ما لديه وعلى ان يكسر قوة سلطانه كلها في شان استنقاذ الاراضي المقدسة من العبودية وقد ارسل فى الوقت عينه مُرسلين وسعاة الى البلاد باسرها التى تحت الاسم المسيحي لكى ينهض بكتاباته واقواله حرارتهم التى وهت كما انهُ فوض قصاداً خصوصين من قبله الى اكثر جهات الاوروبا واقاليمها لينادوا باسمه وينذروا الشعوب بالحرب المقدسة واعظين مهتمين منذرين مرشدين الى الصلح بين المتعادين والى اتحاد الجميع بتوجيه اسلحتهم معاً ضد اعدا يسوع المسيح ☆

اما السلطان ريكارد فبعد نجاته من الاسر قد صودف على نوعٍ ما دايماً مهتماً فى اعمال الحروب الحادثة بينه وبين سلطان فرانسا فيلبس افغوسطوس فهذان السلطانان كانا يتحاربان بحدوث انتصارات متبادلة لكلٍ منهما على الاخر حيناً بعد حينٍ فالبابا المشار اليه وكّل الكردينال بطرس فى ان يتوسط بينهما من قبله ويعقد العهد منهما على رفع السلاح وابطال الحرب بين الجهتين الى مدة خمسة سنوات الا ان عناية هذا الحبر الاعظم فى ذلك لم تفز فى المبادي باتمام مرغوبه ثم ان احوال الاوروبا وقتيذٍ لم تكن ملايمة لتجهيز عساكر جديدة تسافر نحو المشرق كما ان اوثون والى امور ساكسيا وفيلبس امير سوابا كانا يتخاصمان امير جرمانيا وبلاد النمسا كلها كانت متداخلة فى هذه الخصومة واما البابا فكان مسك الحق بيد اوثون ثم من جهةٍ اخري السلطان فيلبس افغوسطوس تبعاً لزواجه بانيسيا ده ميرانيا قد صودف تحت خطر ان يُرشق بالحرم من رومية ومملكة فرانسا التى طعنت من الكرسى الرسولى بسبب زيجة سلطانها المذكور بقصاص المنع الكنايسى لم تكن وقتيذٍ مفتكرة باهتمام فى امر الصليبيين القاطنين فى المشرق فهذه كانت

احوال البلاد التى اتجهت نحوها مواعظ المنذرين بالحرب الصليبية الخامسة ✿

ففى القرب من الزمن المذكور قد كان موجوداً فى فرانسا كاهن اسمه فولك خورى كنيسة نويلّى سورمارنا وكان اكتسب لذاته تعلقاً كلياً من الشعب نحوه نظراً الى مواعظه وخطبه ذات الفصاحة ثم نظراً الى فضايله والى العجايب التى كان الله يصنعها بواسطته فهذا الخوري (الذي المورخون مثّلوه بصفة بولس اخر) المرسل من الله لارتداد شعبه اليه وطريق الخلاص فى جيله قد املى الامكنة التى كان هو يصير فيها صوته المقتدر مسموعاً عند سكانها ضجةً من صيت تقويماته واذاعة اسم فضايله حتى ان الواعظين الاخر الاكثر اشتهاراً فى ذاك العصر قد جعلوا افتخارهم الاخص فى ان يلقبوا ذواتهم بتسمية تلاميذ له' والجميع كانوا مقتنعين بان الروح القدس هو الناطق بفمه فمن ثم كثرة الشعوب تمسكوا به تعلقاً وتحركت معه بارتجاج المملكة حتى انه' اوصل الى القصور الملوكية رعد تهديداته الانجيلية وفصاحته كانت بلهج بسيط طبيعى لكنها حيّة نقّادة موثرة جداً (فيقول عنه المعلم يعقوب ده فيتري) ان فولك قد كان يعظ مرات كثيرة فى مدينة باريس في ساحة اسمها شامبوز فهناك المرابيون والنسوة الدنسات السيرة والخطاة الاكثر مآثم كانوا ياتون الى استماع مواعظه التى لتخشعهم منها كانوا يدرفون دموع التوبة الحارة وينطرحون على قدميه معترفين بخطاياهم ويتمسكون بطريق الخلاص ثم ان المرضى كانوا يُحملون اليه والجموع يتواقعون على رجليه ويقطعون قطعاً جوانب اثوابه ليتقاسموها ما بينهم بركةً منه فقد كان هو مجلدة مولمة ضد الناس الشهوانيين والمنافقين وكل المخالفين شريعة المحبة „ والشعب كانوا يدعونه قديساً وقد

نسب اليه روح النبوة ايضاً وصنع المعجزات لانه كان يقال عنه انه رد التكلم لخرس وبامره صير عرجاً يمشون متقومين وانهُ بارك بعض اسبلةٍ فاعطى امواهها قوةً لشفى المرضى ✿

فيقول فيلاهردوين لفاريين اقواله „ اعلموا ان اذاعة اسم هذا الانسان القديس وصيت اعماله بلغت حتي شخص الحبر الرسولى اينوشانسيوس الرومانى الذي ارسل اليهِ اناساً عقلا لكى يهتموا فى الزامه بان ينذر على اسم البابا نفسه بالصليبية المقدسة " فاذاً قد افتبل فولك التفويض من الحبر الاعظم اينوشانسيوس الثالث نظير ما سلفاؤه فوضعوا قبلاً بطرس السايح والقديس برنردوس وغويليوم الصوري ✿

فقد سافر اذاً فولك وصحبته رفيقة بطرس [illegible]رزونى لاجل الانذار بالحرب المقدس جايلاً فى اقاليم نورمانديا وفلاندرا وبورغونيا موعباً سكان تلك المقاطعات الواسعة من مواعظه العجيبة فالجموع كلهم ارادوا استماعها متقاطرين اليه مندهلين من مشاهدتهم المعجزات طالبين منه الشفا من الامراض ومرات كثيرة كانوا يحجزون ملبوسه بالازدحام اخذين الاجزا كذخاير مكرسة ومن شدة جماهير الجموع حوله بمضايقةٍ كان يحتاج الامر الى جنودٍ تبعدهم عنه قليلاً وتسكّن الضجة وعدة امرار لم يكن هو قادراً على نوال الصمت من الكثرة الا بان يضع تحت قصاص اللعنة مسبب الهيج „ او بان يستخدم العصا التى بيده ضرباً لحد انها احياناً جرحت لبعض المضروبين بها ولكن المجروحون هكذا كانوا يقبلون دمهم بمنزلة كونه مكرساً من قبل ملامسة عصا رجل الله هذا " ✿

(كما يقرر فريداريجى المورخ) ففى مجري اسفار هذا الكاهن الجليل بلغ الى قلعة داكري „ فصادف هناك جمعية عديدة

من الاشراف فى وليمة رقص ومسرات مصنوعة من تيبولت كونته ده شامبانيا فى زمان توقيف الحرب بين فرانسا والانكليز فهذا الواعظ صير هولاء الاشراف ان يسمعوا بلسانه تشكى صهيون وتنهدها نادبة اهمالها من ابنايها سماعاً محزناً فى وسط ذالك الفرح المدنى المتمتع به الاشراف الموصى اليهم الذين عند سماعهم الفاظه الفعالة قد انجذبوا الى الخشوع والغيرة ومحبة تخليص هذه المدينة ليكتسبوا لذواتهم اكليلاً مجيداً لا يفوز احد من الانام النبلا بتاج اشرف منه » وحينيذٍ هم لم يريدوا » بل احتقروا التفكر بالمعركات الحربية وضرب الرماح ورشق النبال وخطر الموت حتى انهم اهملوا نساهم وخطيباتهم الشريفات كانهنّ لم يوجدنَ وذلك جميعه لاجل المسيح فقد تراس عليهم تيبولت ده شامبانيا المحاريب الشجاع الذي بالكاد بلغ وقتيذٍ السنة الخامسة والعشرين من عمره هارباً جيداً بصنعة الحرب ومتفقهاً جداً فى عروض الشعر وكان تحت لمرهِ الف ونمانماية خيال مقاتل مختصون بشخصه وهذا الامير العظيم هو ابن اخى سلطان فرانسا وابن اخت سلطان الانكليز واخو سلطان اورشليم انريكوس ده شامبانيا المتوفى » وسلطان نافارا كان زوج اختهِ ☆

فنموذج هذا الامير حالاً اتبعه الكونته ده شارتراس والكونته ده بلواز ولحقهما الكونته ده سان بول وسمعان ده مونتفورت ورينهارد وبرنردوس ده مونتميريل الاخوان والكونته غوتير والكونته يوحنا ده بريانّا ثم منسى ده ليزلا ورانود ده رابيّارا ومتى ده موغورانسى وهوكوز مع رومبارتوس ده بورن والكونته ده اميانس والكونته رانواد ده بولونيا وجفروا كونته ده براش والكونته جفروا ده فيلاهردوين والمرشال ده شامبانيا الذى هو المورخ النقى الروح لهذه الحروب

إلصليبية الخامسة الذايعة الصيت ☆

ثم ان اشراف امرية فلاندرا قد اقتفوا اثر المذكورين الجليل قدرهم وهولاء هم الكونته بودوين الذي ابرز القسم الاحتفالى فى كنيسة القديس زوناتسيانوس فى بروجاز بان يحارب الاسلام وقد ارادت زوجته الشريفة ان ترافقه لزيارة الاراضى المقدسة وقد التيم تحت سنجق الصليب اوسطاكيوس وانريكوس اخو الكونته بودوين المذكور ويعقوب ده افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا ده نازالا وكونون ده بيتونا المشهورة شجاعته وفصاحته كما ان عدداً وافراً من الاشراف اتوا من جهات اخر واخذوا صلبان الحرب واما الرياسة العليا على هذه الجيوش فقد فوضت الى تيبولت كونته ده شامبانيا نفسه بمنزلة قايد عام لهذا العسكر ☆

فروسا الجيوش المتقدمون قد اجتمعوا اولاً فى مدينة سواسنوس وبعد ذلك فى مدينة كومبيينا واتفقوا على ان العساكر تسافر الى المشرق فى البحر وعلى ان قصاداً ترسل من قبل الثلاثة الامرا العظام المترأسين على الصليبيين الى المشيخة البندقية لكى يطلبوا منها المراكب الضرورية لنقل المعسكر الى الاسيا (فهولاء القصاد كانوا جفروا ده فيلاهردوين وميلون ده باربانت من قبل القايد العام الكونته ده شامبانيا ثم كونون ده بيتونا والين ده ماشيكوس من قبل الكونته ده بودوين ويوحنا ده فريزا وغوتير ده غاندوفيد من قبل الكونته ده بلواز) فيقول فيلاهردوين : ان الستة القصاد هولاء سافروا هكذا وبعد ان اتفقوا معاً على الطريق استحروا شديداً فى سرعة المسير حتى انهم بلغوا البندقية فى الجمعة الاولى من الصيام الكبير سنة ١٢٠٠ ☆

ففيها بين الثلاثة المدن البحرية فى ايطاليا وهى بيزا وجينوا والبندقية التى مشيخاتها فى تلك الازمنة كانت مزهرة جداً

فالثالثة منها اي مشيخة البندقية كانت هي الاقوى والاعظم ازهاراً لانها قبل حبرية البابا اينوشانسيوس الثالث بمدة نحو ماية سنة كانت باطشة في البحر فارباب هذه المشيخة كانوا يفتخرون تغطرساً بالكبريا عند تدكرهم الحادث الاتي شرحه وهو ان البابا اسكندر الثالث بعد انهم حاموا عنه ضد ملك النمسا قد سلم بيد راس مشيختهم خاتماً قايلاً له انت تزوج البحر بهذا الخاتم لكي تعرف البشر الاتون بعدكم ان اهل البندقية قد ملكوا سلطنة البحر بمراكبهم وان البحر خضع لهم كما تخضع العروس لعريسها فاهل المشيخة ابتداوا من ذاك الوقت وصاعداً ان يصنعوا تجديد هذا التذكار باحتفالات كلية مرةً في كل سنةٍ (فيه راس المشيخة يسير في البحر مرافقاً من ارباب ديوانه واشراف المدينة واهلها بفشخشة وحفلة ملوكية الى حدٍ معلوم وهناك يرمي في البحر خاتماً) وهذه العملية ضاعفت فيهم قوة المراكب والنجاحات والاسفار البحرية بالتتابع فاذاً ولين كانت البندقية في جيلنا التاسع عشر الحاضر ضعيفة الحال (معدومة مشيختها القديمة خاضعة لولاية ملك النمسا) فمع ذلك هذه المدينة الشهيرة الصيت في عماراتها وقصورها وكنايسها وصنعها حتى الان قد كانت حينما بلغ اليها القصاد المذكورون سلطانة البحور ومتاجرها وغناها وقوتها كانت كلية وكانت مراكبها قبل ذلك بمدة خمسة وعشرين سنة انتصرت مرتين على مراكب المشيختين البيزاوية والجينواوية مبددت عماراتها ذات المراكب العديدة جداً لان الاستطاعة البحرية التي لليونانيين بالقوة قد كانت وهت جداً وكانها تلاشت من ذي قبل واستطاعة اهالي جزيرة سيشيليا في البحر كانت سقطت في ازمنة سلاطين نورمانديا فاذاً مشيخة البندقية وحدها وقتيذٍ كانت مستولية

على الصولج البحرية وكانت عماراتها مرات كثيرة تخرج بمايتين مركب قوية وتسطو على بحر نصف الارض وكانت جيوشها تحت بيارقها في هذه المراكب دايماً تصير اصوات انتصاراتها مسموعة *

فحينيذٍ عند وصول القصاد الى هذه المدينة كان ريس المشيخة (الذي صفة لقب وظيفته دوجه) الرجل الجليل انريكوس داندولو وكان هو في سن التسعين سنة حاوياً في لبه نار الشجاعة والقوة وفاعلية الاعمال كانه شاب ولم يكن فيه خواص الشيخوخة الا الفضيلة والخبرة الممتحنة جيداً وكان قلبه يلتهب غيرةً عن اسم وطنه ومجد مشيخته المجرد اهتمامه نحوهما وديوان مشورة المشيخة كان يطيعه جداً وكان هو ماهراً في صنعة الحروب البحري على العمارة بهذا المقدار من البراعة حتى انه كان يستخدمها كمن يترأس على جمعيةٍ في ديوانه ، ثم ان تعليمه ومفاوضاته كانت تجذب الملاحين والجنود الى طاعته كانهم مقيدين بسلاسل العبودية وكان بيرق القديس مرقص الانجيلي من عن يمينه منتصباً سنجقاً عظيماً وجميع روسا المراكب في مرورهم من امامه لياخذوا منه اوامره كانوا يركعون جاثيين على الارض وكانت قوة الذاكرة فيه مذهلة وجودة العقل غريبة مع فطنة زكية بهذا المقدار حتي انه بعد ان فقد بصره كاعمى كان يعرف الظروف ويعلم الحوادث ويستدرك المحذورات بابلغ من ذوي الاعين المفتحة * ثم ان اهل وطنه كانوا يضيفون الى روح حسن التدبير في المصاريف وملاحظة حسابات الامور المميزة اياهم عما سواهم روح انسانية شهماً وصفات تجارية بمعاطات امور كلية جداً وكان يبان ان الدولاب المحرك اعمالهم باسرها هما شيان فقط اي البندقية ومجدها وهذان وجدا العلة في هبوط مجد القسطنطينية ودثارها *

فاذاً الستة القصاد عند وصولهم الى البندقية قدموا الرسايل التى معهم من امرايهم الثلاثة الى الدوجه انريكوس المشار اليه متوسلين لديه بان يتراف على الاراضى المقدسة ويمن على العسكر الصليبى بان مراكبه تنقلهم الى الاسيا „ فاجابهم الدوجه قايلاً " كيف وتحت اية شروط انا اصنع هذا „ فاجابوه بقولهم " تحت الشروط التى انت تريدها وتكون مبلغةً الى الغاية المقصودة „ فقال الدوجه " ان المطلوب هو امر مهم „ فهذه القضية تستلزم تاملات وملاحظات كثيرة فنحن ضمن ثمانية ايام نعطيكم الجواب عن ذلك " ✲

واذ رجعت القصاد فى اليوم الثامن الى القصر الديوانى قال لهم الدوجه ان البندقية تهيى مراكب كافية لنقل اربعة الاف وخمسماية خيال بخيولهم وساير لوازمهم مع عشرين الف من العسكر المشاة وتستطيع ان توسق ذخاير القوت لهذا العسكر كافية لتسعة اشهر ولكن امرا العسكر يلتزمون بان يفوا المشيخة البندقية عند رجوعهم خمسة وثمانين الف وزنة فضة (كل وزنة ماية درهم) ثم ان الدوجه قدم للقصاد طريقةً اخرى على اسم المشيخة عينها وهى ان هذه المشيخة تهيى خمسين مركباً حربياً بعساكرها وترسلها مع الصليبيين تحت شرط ان جميع ما يمتلكه العسكر المسيحى فى هذا الحرب من البلاد يكون نصفه خاصة المشيخة ملكاً حراً لها ✲

فهذان النوعان المحكوم بهما بديوان الدوجه ومن نبلا المشيخة قد اعلنا لشعبها لاجل اثباتهما حسب رسومهم (فيقول المورخ فيلاهردوين) انه قد اجتمع من الشعب البندقى نحو عشرة الاف شخص فى كنيسة القديس مرقص الاجمل من ساير كنايس المدينة وهناك قيل لهم ان يحضروا الذبيحة الالهية حسب

الليتورجيا الملقبة بليتورجيا الروح القدس وان يتضرعوا لله لكي يلهمهم نظراً الى المطلوب المقدم لهم ما ينبغي ان يفعلوه بحرية رضاهم » ثم انه بعد نهاية القداس تقدم أحد الستة القصاد وهو جفروا مرشال ده شامبانيا وخاطب الشعب الملتيم مستحلفاً اياهم على اسم اشراف دولة فرانسا وعساكرها بان تاخذهم الشفقة نحو مدينة اورشليم التي تحت نير العبودية اسيرةً للاسلام » ثم اضاف الى ذلك قايلاً « ان الامرا والنبلا مع ساير الاشراف قد اوصونا بان ننحني نحو اقدامكم . وبان لا ننتزح عنكم لحينما انتم تتممون مطلوبنا » وعند هذه الكلمات القصاد جثوا على ركبهم مادين ايديهم كمتوسلين نحو تلك الجمعية بنوال المرغوب . واذاً بصوتٍ كأنه واحد خرج من افواه اوليك العشرة الاف الذين صرخوا قايلين « نحن نرتضي بذلك « نحن نرتضي بذلك » ففي اليوم الثاني قد أُرسلت شروط الاتفاق المذكور الى الحبر الروماني لكي يثبتها فحالما وصلت الى رومية قد اثبتها البابا اينوشانسيوس الثالث بمسرةٍ قلبية غير ان هذا الحبر العظيم اذ لاحظ الظروف المستقبلة قد حرض الجيوش الصليبية بالفاظ قوية جداً على انهم لا يحولون اسلحتهم اصلاً ضد الشعب المسيحي فوكيل الكرسي الروماني كتب هكذا . ان الباباوات لا ينبغي ان يُنسب اليهم بتةً ذاك الشي الذي الصليبيون يكونون صنعوه مما هو في اكثر جهات مخالفاً للغاية التي من اجلها هم سافروا من المغرب الى المشرق فلو ان روسا الكنيسة حصلوا على الاستطاعة والارادة لكي يقدروا يصيروا تاملات الامرا والاشراف كلها فردياً وخصوصياً مجذوبةً الى الغاية الوحيدة وهي استخلاص الاراضي المقدسة لكانت قوة المحمديين تلاشت ولما كان سُفك دمٌ بار سفكاً عظيماً كما صار ☆

ولما رجع القصاد الستة من البندقية الى شامبانيا وجدوا الكونته تيبولت مريضاً مرضاً ثقيلاً فهذا الامير قد فرح برجوعهم وعند ما فهم الشروط المختومة بالعهد المقدم شرحه قد قبلها بمسرةٍ هكذا وافرة حتى انهُ تناسي مرضه واراد انه حالاً ينهض من فراشه لابساً اثوابه واسلحته ويركب حصانه كما فعل . ولكن هذا كان لهُ ضرراً عظيماً (يقول فيلاهردوين) لانه ما استطاع ان يركب جواده الا تلك المرة فقط لان مرضه قد ازداد وقوي عليه بهذا المقدار حتى انهُ صنع وصيته الاخيرة . بما قرره من التقسيمات عن املاكه وموجوداته الغنية ووزع اسلحته الحربية العظيمة الكمية والقيمة على رجاله وارفاقه . ثم رقد بالرب . وقد وجد هو فريداً بفوزه فيما بين رجال العالم بميتةٍ صالحة هكذا . فالصليبيون الذين كانوا اختاروا هذا الامير العظيم قايداً على معسكرهم ندبوا خسارتهم اياه بمرارةٍ وبكوا على فقده بشدةٍ . ثم بعد ذلك وضعوا اعينهم على بونيفاسيوس امير مونتفرات وانتخبوه لهذا المقام راساً لجيوش هذا الحرب المقدس فهذا الامير الشهم النفس والمختبر جداً باعمال الحروب والماهر كثيراً في حسن تدبير العساكر وصنعة القتال جاء الى مدينة سواسونس حيث اقتبل الصليب من يد فولك المنذر . ثم بمحضر الاكليروس والشعب في كنيسة سيدتنا مريم البتول الكلية القداسة قد نودي بهِ قايداً عاماً لهذه الجيوش الصليبية ✲

وهكذا في فصل الربيع سنة ١٢٠٢ نفسها اخذت العساكر بالسفر فجازوا الجبال الالبية متوجهين نحو البندقية وكان في معسكرهم عدد عظيم من الخيالة الذين من فلامندا ومن شامبانيا وكان راساً عليهم بودوين كونته ده فلاندرا مع الكونته ده بلواز والكونته ده سان بول والمرشال ده شامبانيا فالمشيخة البندقية اقتبلت

هولاء الجيوش الصليبية باكرام ومودة وقممت ما الزمت به ذاتها تتميما ذا شهامة وسخاء فالمراكب التى تهيات لتنزيل هذه العساكر كانت ثلث مرات زايدة بالكثرة وبالقوة وبالذخاير وبالجودة وبالالات اللازمة مما كان يومل ولكن حينما ارباب المشيخة طلبوا من الصليبيين غب وصولهم الى هناك ببعض ايام ايفاء مبلغ الخمسة وثمانين الف وزنة فضة المعين بشروط العهد فالامرا والاشراف وجدوا وقتيذٍ غير قادرين على اتمام هذا الوعد ولو اعطوا كل المال النقدى الذي عندهم بل كانوا قادرين على دفع ثلث المبلغ حالاً ففى ذلك الوقت الدوجه انريكوس جمع شعب البندقية واوضح لهم كيف انه غير لايق بشرف سمعة مشيختهم ان يستعملوا الصرامة مع زوار يسوع المسيح ثم اضاف الى ذلك قايلاً „ اما ان التدبير يصير اجود ان نلزم هولاء العساكر بان يساعدوا مشيختنا على اخضاع مدينة زارا لولايتها المدينة التى سلطان هونكرا اختطفها منا ودايماً يظهر ذاته مستعداً ضدنا باعتمادٍ على الحرب فالصليبيون باعانتهم ايانا على هذا الامر يصيرون خالصين من التزامهم بايفاء المطلوب لنا منهم بعد الان ” فروسا الجيوش المقدمة لديهم هذه الشرطية لوفاء ما عليهم بمجرد اعانتهم المشيخة على اخذ المدينة المذكورة قبلوا خلواً من ادنى صعوبة غير ان كثيرين من الصليبيين تمرمروا متذمرين وكانوا يوضحون ان مقصدهم انما هو محاربة الغير المومنين ومن ثم رفضوا ان يحولوا اسلحتهم ضد اناسٍ مسيحيين ثم بنوع اخص الوكيل البابوي بطرس ده كابوا الذى كان صحبتهم قد نهض مقاوماً هذا الراى مسمياً اياه راياً نفاقياً شانه ان يقلب غاية جنود الصليب الى ما هو ضدها واما الدوجه انريكوس فلكى يجذب هولاء الى رايه ويتمم مرغوبه

بالانتصار على هذه المقاومة قد اعتمد انه هو نفسه يتخذ علامة الصليب كبّاقي المحاربين فى هذه الحرب المقدسة ثم الزم ابناء وطنه البنادقة بانهم هم ايضاً يقتفون نموذجه باكتتابهم فى سجل جنود المسيح وعلى هذه الصورة عدد وافر من اشراف البنادقة وجموع غفيرة من شعب المشيخة اجتمعوا فى كنيسة القديس مرقص فى يوم عيدٍ والدوجه صعد الى المنبر وخاطب اهل البندقية قايلاً انكم لقد اتحدتم برباط المحبة والاتفاق مع الانام الاشد قدرةً علي الاعمال الحربية والاوفر شجاعةً من اهل الارض كلها فانا صرت طاعناً جداً بالسن ضعيفاً فاقداً حسن الصحة كما ترونى ويلزمنى الاحتياج بان استريح ومع ذلك لا يوجد شخص ما اكثر كفاءةً منى فى المقصد الذي اعتمدوه ان يتعاطى الامور فاذاً ان كنتم تريدون انى اخذ الصليب مسافراً وان ابنى يستمر هاهنا بدلاً منى فانا اذهب برفقتكم صحبة الصليبيين الى الحيوة والى الموت فعند نهاية هذه الكلمات الجميع صرخوا هاتفين اننا نستحلفك باسم الله العظيم فى ان تاتى صحبتنا فالدوجه نزل من المنبر واجتاز فيما بين تلك الجموع المتموجة واتى الى امام الهيكل الملوكي جاثياً على ركبتيه باكياً وصير ان يعلّق فى عنقه على صدره صليب كبير وحالاً جماهير غفيرة من البنادقة صنعوا نظيره فعند ما اضحى الصليب المقدس علامةً للاتحاد التام فيما بين البنادقة والفرنساويين بارتباط مقدس الذي صير صالح الفريقين واحداً مختلطاً غير متميز بنوع ان شعوب الطايفتين صاروا كانهم طايفة واحدة لا غير فحينيذٍ اقوال الوكيل الباباوى قلّ سماعها واتباعها والجميع اعتمدوا الذهاب معاً لاجل استخلاص مدينة زارا بحرارةٍ متساوية من الجهتين ولكن فى مباشرة هذا العمل

قد سمع امرٌ مذهلٌ جداً (يقول المورخ فيلاهردوين) في حادثٍ غير مومّل غريب عما سمع قبلاً وهو ان اليكسيوس آخا ملك مدينة القسطنطينية واسحق كومنينوس (الملقب بالملاك) الذي كان تمرد على الملك اخيه المذكور ومسكه فقلع عينه وطرحه في السجن مع ابنه اليكسيوس سنة ١١٩٥ فابن الملك اسحق الشاب اليكسيوس هذا قد فاز بعد ذلك انه كسر السلاسل الحديد التي كان هو مقيداً بها في بيت عمه اسيراً وقد هرب من القسطنطينية في مركبٍ واتى الى مدينة انكونا ومنها ذهب الى بلاد النمسا لدى صهرهِ الملك فيلبس ده سوابا ثم بعد ذلك توجه الى مدينة فارونا حيث هو تصادف مع عددٍ وافر من الصليبيين اتين الى البندقية لينضافوا الى المعسكر الصليبي العام فالبعض منهم خاطبوه قايلين له ايها الامير هوذا قريب منا يوجد في البندقية معسكرٌ مولف من انامٍ هو الاعظم اقتداراً وشجاعة وشرفاً من سكات العالم اجمع قاصدين الذهاب الى الحرب في المشرق فانت امضي اليهم متوسلاً لديهم بان يشفقوا على حال الملك ابيك المحزنة وشدايده المرة ويترآفوا على شقايك لانه يمكن ان مصايبك التعيسة تحرك قلوبهم نحو الرافة واذ تاخذهم الغيرة على صالحك فيساعدونك ويسعدونك اما اليكسيوس فاغتنم فرصة هذه المشورة فارسل من قبله معتمدين الى امراء الجيوش الصليبية في هذا الشان فوصول هولاء القصاد الى المعسكر بالمطلوب غب الاخبار عن احوال الاب والابن المذكورين قد اوعب روسا الجيوش انذهالاً وغيرةً وحنواً عليهما ولكن من حيث انهم كانوا في صدد السفر نحو زارا لان كل شي كان تهيي للمسير فقد اخروا اعطاء الجواب للقصاد عن ذلك الى وقتٍ اخر اكثر ملايمة للمقصود ☆

ففى اليوم المتقدم على عيد القديس مرتينوس (يقول المورخ المذكور) قد بلغ معسكر الصليبيين الى امام اسوار مدينة زارا فى اقليم سكلافونيا المدينة الحصينة الكبيرة الحاصلة على اسوار متينة شاهقة علواً التى باطلاً يقدر احد ان يتصور اجود منها مكناً وجمالاً وغناءً فلما شاهدها الصليبيون امتلأوا انذهالاً وافراً وتعجباً باهراً وشرع بعضهم يخاطب بعضاً قايلين ترى كيف يمكن ان نبلغ الى ان نستولى على مدينةٍ هذه صفتها ولكن خوفهم استبان زايلاً من الوسط عندما ضربوا اخيامهم حول اسوارها مباشرين قوة اقتدارهم ضدها متفاوضين فيما بينهم بقولهم لاحظوا جيداً كثرة عدد الخيالة وعظم طغمات المشاة التى تخرج من المراكب الوافرة وبكم من النشاط والهمة يمدون المضارب فى الاراضي وينصبون البيارق فاذاً الجيوش وطدوا مركزهم حذا المدينة ومارسوا حالاً اعمال الحصار الشديد فهذه المدينة ما امكن لاهلها ان يقاوموا قوة اقتدار العساكر البنادقة والفرنساويين مدة مستطيلة بل انهم بعد جهادٍ حربى قوى جداً بالمناضلة عن ذواتهم ومدينتهم مدة اسبوعين اياماً قد سلموها لارادة الصليبيين الغالبين الذين امتلكوها بالانتصار واقتسموا غنايمها الغنية جداً بالمساواة فيما بين البنادقة والفرنساويين ومن حيث اوان فصل الشتاء قد كان داهمهم فقد اعتمدوا الاقامة فى المدينة المذكورة الى ان يدنوا منهم الفصل الملايم لنزولهم فى المراكب مسافرين بحراً ✿

غير ان اختلافاً ذا انقسامٍ حدث فى معسكر هولاء الغالبين لان عدداً ليس بقليل منهم قد تذكروا الملامة الواردة عليهم من الحبر الرومانى الذي لم يكن يكف عن اظهاره لهم التزامهم بحفظ القسم الذي ابرزوه فملاحظتهم ان مدينة مسيحية قد سقطت تحت اقتدارهم فقد سببت لهم الكدر وتوبيخ الضمير

اذ ان البابا كان يوجب الذنب على البنادقة بانهم اعاقوا جنود المسيح فى ممارسة حرب غير عادلة ومدنية محضاً ومن ثم كان يطلب من روسا الجيوش ان يمارسوا علانيةً توبةً واصلاحاً للضرر الذى به اضروا سكان مدينة زارا فالبنادقة صيروا ذواتهم اصمّا عن سماع الصوت البابا وى ومارسوا اعتمادهم فعلاً بهدم اسوار المدينة المذكورة واما اشراف العساكر الفرنساوية وقوادهم فاظهروا ذواتهم مطيعين ارادة السدة الرسولية وحالاً ارسلوا من قبلهم قصاداً الى رومية لكى يهتموا لهم بنوال الغفران عن ذنوبهم فالبابا اينوشانسيوس انجذب من حسن طاعتهم وروح ديانتهم ودلايل توبتهم فملحهم المغفرة والبركة بحنو ابوي وحرضهم بسرعة السفر نحو بلاد سوريه خلواً من ان ينظروا لا يميناً ولا شمالاً ☆

ثم ان المعسكر الصليبى العام افتبلوا فى مدينة زارا قصاد الملك فيلبس سوابا الذين عن لسانه جاؤا يترجون امراء المعسكر بان يتعطفوا الى مساعدة نسيبه الامير اليكسيوس ابن الملك اسحق كومنينوس ثم ان هولاء القصاد اعلنوا قايلين ان كان الله يريد انكم توطدون هذا الامير الشاب فى ميراثه تخت القسطنطينية المحق لهُ خليفةً لابيه فيهتم هو فى ان يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية ثم يدفع اليكم مايتى الف وزنة من الفضة مقابلة لمصاريف الحرب كما انه يعطى جميع ذخاير القوت للصليبيين كلهم وهو نفسه يرافقكم فى المعسكر الى بلاد فلسطين او اذا انتم فضلتم ان يرسل صحبتكم عشرة الاف محارب من عساكره تحت بيارقكم وامركم على مصاريفه الذاتية مدة سنة كاملة فهو يتمم ذلك وما عداه ففى طول مدة حياته يضع على مصروفهُ خمسماية خيال دايمة فى حدود المشرق محافظة لبلدان المسيحيين فهذه المواعيد والشروط قد فُحصت جيداً

وتلاحظت فوايدها فى ديوان مشورة المعسكر فالبعض من الروسا قد انذهلوا فى انه يوضع فى كفة الميزان الواحدة الله وفى الكفة الثانية الامير اليكسيوس ويصير التامل فى اختيار احدهما وصرخوا هاتفين انهم ما خرجوا من بلادهم مبتعدين عنها لكى يحاربوا اناساً مسيحيين لكن ليقاتلوا اعدا الديانة المسيحية وانهُ ان كان المرغوب هو ان تصير المحاربة ضد الظلم لازالته واسعافاً للمضنوكين فى الشدايد لتخليصهم منها افهل ان الاراضى المقدسة كان ينقصها حينيذٍ الظلم وينقص عن سكانها المسيحيين الاحتياج لتعزيتهم من احوالهم المحزنة الا انه من الجهة الاخري غير هولاء من الروسا كانوا يجادلون بالضد مبرهنين بانه اذا صار الاهتمام اولاً فى تخليص الاراضى المقدسة من ايدي الاسلام فانما هم يصنعون هذا التخليص لا لذواتهم بل لفايدة المسيحيين الروم والمصريين فاذاً ان كانوا هم يرفضون قبول هذا التوسل والشروط المفيدة فكم من الملامات القوية تتجه ضد الصليبيين فعلى هذه الصورة انقسمت الاراء بين روسا الجيوش غير ان ارباب المشيخة البندقية الراغبين قلبياً ان مراكبهم تجوز منتصرة فى البوسفور وميناء القسطنطينية ومعبر البحر الاسود قد مارسوا اهتمامهم فى انهم امالوا كفة الميزان بجذبهم الاخرين بعد جدالٍ مستطيل الى صالح الامير اليكسيوس المستغيث بهم اجمعين وهكذا صدر الحكم من ديوان المشورة بان تقدمة هذا الامير بالشروط المرقومة قد قبلت وبان الصليبيين ينزلون فى المراكب ويسافرون بها نحو القسطنطينية في اول ايام فصل الربيع *

فالبابا اينوشانسيوس حينما عرف هذا الاعتماد وجه خطابه ضد الصليبيين بتوبيخات مرة مشبهاً اياهم حال كونهم متعرجين فى مسيرهم بامراة لوط ثم تهددهم بحلول الغضب الالهى عليهم

الا ان ارباب العسكر ولئن شاهدوا ذواتهم معاقبين بكدر من قبيل سقوطهم من نعمة السدة البطرسية فمع ذلك داوموا اعمال تحضيراتهم للسفر المتقدم شرحه مومِّلين انهم غب نوالهم الانتصار غايةً لما باشروه فحينئذٍ يفوزون برضى اب المومنين العام عليهم وبمديحه اعمال شجاعتهم وجهادهم ويعرفهم انهم لم يزالوا جنوداً امينين ليسوع المسيح ☆

فبينما كان الصليبيون في همة السفر من مدينة زارا قد وصل الى هناك الامير اليكسيوس وجدد توسلاته اليهم بشخصه ايضاً في اغاثته واقتبل منهم تجديد مواعيدهم لهُ فعمارة المراكب فلحت القلوع وسافرت في اواخر شهر نيسان وبعد زمان وجيز ارست في مينا دوراتسيوس وفي مينا كورفو وهناك نودي بالامير اليكسيوس ملكاً ثم رجعت الجيوش الى المراكب وسافروا من جزيرة كورفو في ٢٤ ايار واقتربوا من جهات بيلوبونيسا وعبروا الى يينارا (الذى هو راس ماتابان) ووقفوا متابل الاندروس ونكرابونت واذ نالوا ريحاً موافقاً لهم قد جازوا بعد ذلك الاسبونطوس وساروا الى شطوط تروادا ففي البلاد كلها التى هم مروا عليها سكانها قد اقتبلوا ولاية ملكهم الجديد اليكسيوس وكان الزمان حينئذٍ ايام الحصاد والاراضي جميعها تعطي مشهد الخصب فجودة مناخ البلاد والمسرات وشدة اشواق الروم المنبثة نحو مشاهدة ملكهم الشاب وبهجة المدن المعتبرة المنظر الصادفة في السير وملاحظة بلاد ومحلات كانت مجهولة عند الصليبيين فهذه كلها كانت يومياً تضيف الى فرح هذه الجيوش وفاخرة مواكبهم تنعماً وسروراً فايضت على جماعتهم زيادة الراحة والحصول على الابتغاء ثم اخيراً بلغوا الى مدخل البوسفورو ورموا المراسي عند شط مدينة القديس استفانوس في ٢٣ حزيران سنة ١٢٠٣

حيث استطاعت روسا الجيوش ان تشاهد عن بعد امامهم سلطانة المدن رومية مشيدة بفتخرة وعظمة فوق حافة مياه البحر التى تلاطم اسوارها وعماراتها الشاهقة (فيقول المورخ هوتير) ان القسطنطينية هى الميناء الكلى العظمة لبحرين وهى كالالماس اللامع فيها بين امواج النسيم وبرها بالبساتين والحقول يتموج بلون غروسه ونباتاته الاخضر كالزمرد وهى المسكن الاشد تنعماً للبشر نظراً الى طيب الخاطر وانشراح الصدر والامينة فهى عديلة رومية بالمقام وشبيهة اورشليم بتكريم كنايسها الذايعة الصيت ومثيلة بابل فى كبرها وبطشها على ان القسطنطينية فى زمان هولاء الصليبيين كانت هى المدينة الاكبر اتساعاً والاقوي تحصيناً والاكثر غناً من مدن العالم جميعه فمتاجرها واعمالها وصنايعها ومدارسها واختراعاتها وحال كونها مقراً سعيداً واماً لساير المدن من الاوروبا ومن الاسيا كانت تجذب ضمنها واليها قبايل ماية طايفة من المسكونة لان ثلاثة بحور ترطب هذه الارض التى كانها جزيرة مثلثة الزوايا القايمة فيها المدينة المذكورة الشهيرة الاسم ثم ان مدينتى خلكيدونيا واسكدار فى شقة البوسفورو البحرية من ناحية الاسيا ومثلها الغاطا فى اخر الخليج تصور بالنسبة اليها ضيعاً حولها كثلاثة قري عظيمة جداً وميناها الذي فيه مراكب جميع الشعوب ترسى كان يلقب بالرومى بتسمية قرن الذهب او قرن الخصب وكان يظهر عمار ابراجها فى حصون اسوارها نظير برج بابل المحسوب اعجوبة العالم وخنادقها الموعبة من مياه البحر الحية كانت تستبين عديمة الاجتياز فى حادث حصارها وبسهولة فى وقت الاحتياج تمكنها ان تفصلها عن الارض الثابتة مصيرة اياها جزيرة ولها اثنان وثلاثون باباً للدخول الى باطنها حيث النظر كان يندهل من مشاهدته

ضمنها خمسماية كنيسة التى فيها بينها كانت تتلالاء بالمجد والعظمة كنيسة اجيا صوفيا ومن ملاحظته خمسة قصور ملوكية كان يظهر كلٌ منها كانه مدينة فى اتساع مجالها ❊

اما نظراً الى الصليبيين فامرٌ عسرٌ هو ان يشرح ماذا اعتراهم عند مشاهدتهم هذه المدينة تارةً من الخوف والانذهال وتارةً من الابتهاج الخارج عن الحدود ففى اليوم الثانى روسا الجيوش صيروا ان تنتشر بيارقهم فوق سوارى المراكب وتفتح القلوع وتعبر العمارة كلها فى الخليج الكبير وقد ساعدهم الريح الى ان المراكب جميعها صارت تحت اسوار هذه المدينة بيزانصيا القديمة ولكن شعوبٌ فايقة الاحصاء قد املوا الاصوار علواً وشطوط البحر اسفلاً وحينيذٍ العساكر الصليبية قد ظهروا بشجاعةٍ فوق ظهور المراكب وجردوا الاسلحة والات الحرب ضد تلك الجموع الاعدا ولكن (يقول فيلاهردوين) لم يوجد هناك منهم احداً هكذا جسور ولا ذو قلبٍ لا يرتجف لانه ما اتفق لهم ان يتعاطوا قبلاً قط عملاً مثل هذا خطيراً فى الغاية فكل واحد منهم كان واضعاً يده على سيفه كانهُ متحرك من الشجاعة غير انهم كانوا يتجهلون ان سكان راس مدن المملكة هذه كانوا ذوي عيشة بذخة فى ملذاتهم المفسودة ولم يكن موجوداً فيهم من العساكر الا اوليك عنايتهم قايمة فى ان ياخذوا العلايف ويتبجحوا بها ومن ثم ولين كانت هذه المدينة محصنة بثماية برج وباقناع متينة وبتكوينها الفايق الانغلاب وبكثرة الالات الحربية المهيلة الموجودة فيها والنار المعدة المدعوة عن تجاوز التى بحذفها ضد العدو تدوم عديمة ان تُطفَى الى ان تصير رماداً وهى شديدة الاحراق بنوع كلى الفاعلية فمع ذلك هذه جميعها كانت مزمعة باطلاً تمارس ضد مقدرة الجيوش الصليبية لان الساعة التى

فيها كانت احكام الله رسمت بان بابل البوسفورو هذه تسقط من مجدها وتنزل من عظمتها قد كانت دنت وازمع لها ان تهبط تحت سيوف هولاء الغالبين ☆

فالجيوش اللاتينية من حيث انهم خرجوا من المراكب على شط البحر من جهة الاسيا فرتبوا سكناهم فى قصر المختطف التخت الملوكى من اخيه اسحق وفى بساتينه التى هو قبلاً كان قاطناً فيها وكان عندما بلغه خبر قرب العساكر الصليبية اليه هرب بندالةٍ الى القسطنطينية وهناك داوم على حال عيشته السابقة عينها بالرخاوة والبذخ وتنعمات الحواس واعياد الرقص ☆

(فيقول المورخ) ان رخاوة العيشة التى استدام بها الملك قد صيرته موضوعاً غير قابل معاطات الامور حتى جعلته كضايع الروح . فالخصيان كانوا حرسةً فى الجبال وفى الاحراش ليلا احد يمارس فيها الصيد غير الملك بحرصٍ كلى نظير ما كانت عباد الاوثان يحرسون الاحراش المكرسة لالهتهم وكان هذا الملك اليكسيوس نفسه ملتهياً فى التنعمات حينما اهالى المغرب الجيوش كانت مقبلة على راسه وعندما هم كانوا بكثرتهم يخطون الجبال والوديان والسهول الوعرة فهو كان يضحك مستهزياً باستعدادات الايطاليانيين وكان يسخر بمن يراهم موهومين منهم (ثم يستخدم هنا المورخ نيكيطا نفسه) : الفاظاً تشير بمعنى سرى الى المقصود قايلاً : ترى لماذا يصير الانذهال ويقع الوهم بالخوف من الجسارة التى الايطاليانيون كانوا يظهرونها فى اعمالهم هذه للحرب فان ذلك كان من حيث انهم قد عرفوا جيداً ان الملك كان مالٍ من شدة شرب الخمر غارقاً فى بحر لذة الحواس وان القسطنطينية كانت موعبةً من الفساد ومن البذخ ومن الاعمال الدنسة كما كانت هذه سيباريوس القديمة مرةً ما شهيرة بالاعمال المرذولة ☆

غير ان اليكسيوس هذا حينما شاهد الصليبيين ممتلكين قصره وبساتينه فقد ابتداء ان يخاف منهم قليلاً : ثم ارسل من قبله نيقولاوس روسى لكى يسلم على روسا هولاء العساكر ويسالهم لماذا فتحوا ابواب المحلات التى للملك : فلما تمم ذلك اجابه كونون ده بيتونا : ببرودة دمٍ قايلاً : ان الارض التى نحن نملاها من الناس انما هى مختصة بالملك اسحق المعزول بظلمٍ ضد الحق وهى ميراث مختص بابنه الملك الشاب الموجود فيما بيننا فاذهب وقل لسيدك ان يسال ضميره وذمته ويتذكر ذنوبه كلها فان كان هو يريد ان يلتجوا من حكم عدل الله والناس فليرد التاج الملوكى الذي اختطفه عن اخيه وعن ابن اخيه ويستمد بالتوسل رحمة الله وهذا الملك نحوه والا فاخبره باننا نحتقر وعيده ومواعيده على حدٍ سوا وانت احرص على نفسك من ان ترجع الى ههنا ☆

فبعد اعطاء هذا الجواب الذي هو اشهار حقيقى للحرب قد التيم ديوان مشورة روساء الصليبيين فى السهل الذى هو الان مدفن اهل اسكوتري او اسكدار وصدر القرار على ان العساكر تجتاز الخليج الكبير منتقلةً الى البر الاخر وتصنع الحصار على القسطنطينية من جهة الارض فلما دنى الوقت المعين هم قدموا لله التضرعات بطلب معونته وصنعوا هذه النقلة واما اليكسيوس فكان خرج بعساكره الى البر وترتبوا بصورة معركة حرب فى ناحية المدينة فى المكان الدعو سيكير او بدرا فلما شاهدوا الصليبيين مقبلين الى هناك نزلوا الى حد البحر ولكن لما قربوا منهم فهم اهملوا اسلحتهم اسفلاً من شدة الخوف الذي اعتراهم وفازوا بانفسهم ركضاً الى داخل المدينة من دون علم الاتين ضدهم فالروسا والجيوش بلغوا الارض وخرجوا اليها موعبين شجاعةً

هاجمين للحرب بحرارةٍ فايقة الوصف حالفين بانهم اما ينتصرون او يموتون ولكنهم باطلاً كانوا يفتشون على الاعدا الذين قبل برهةٍ كانوا شاهدوهم خارج المدينة لانهم لم يروا منهم احداً فسعوا في اثرهم ولكن نظروهم راكضين نحو المدينة وبالكاد ان تصل السهام اذا رشقوهم بها الى الاخرين منهم ☆

فزمن الليل مسك هولاء العساكر عن اعمال انتصارهم وفي الصباح المقبل حالاً علقوا الحرب ضد برج الغلطا الذي ما ثبت امام قوتهم بل ملكوه وحالاً نصبوا في اعلاه سنجق الصليب كما ان بيارقهم الاخر غرسوها في الشط كله الذي من جهة المغرب ثم في الوقت عينه الذي فيه العساكر الفرنساوية امتلكوا الغلطا ففيه نفسه العساكر البنادقة في مراكبهم قطعوا السلسلة الحديد التى تصد المراكب عن الدخول الى المينا المدعو قرن الذهب ودخلوا بانتصارٍ الى المينا المذكور في جوف القسطنطينية وكذلك طغمة عساكر فرنساوية نحو عشرين الف مقاتل تساعدوا من بعض مراكب البنادقة حاصروا المدينة من البر والبحر مع انه على تقرير بعض المورخين ان هذه المدينة كانت وقتيذٍ تحوي ضمنها مليوناً الف الف نسمة من السكان مع نحو مايتي الف رجل قادرة على نقل السلاح ولكن شجاعة الفرنساوية الشديدة الباس ما كانت تعرف حساباً لعدد الاعدا من حيث ان رجوليتهم تسمو على الاعداد فلما ملكوا الغلطا والمينا قد اظهروا قوة جهادهم في امتلاك المدينة نفسها فالجيوش الفرنساوية انقسموا الى ست طغمات ووطدوا ذواتهم فيها بين قصر بلاكارناس وبين قلعة بوهيموند ثم بعد ذلك شوهدوا محاصرين احد ابواب القسطنطينية : فهذا امرٌ مذهلٌ جداً : (يقول المورخ فيلاهردوين) وهو انهُ مقابل كل شخص من الرجال خارجاً كان في المدينة ضده ماية محارب

ثم ان العساكر البنادقة اعلنوا بافعالهم من جهة البحر جهاداً سامياً فالدوجه انريكوس الشيخ قد صير المراكب ان تترتب صفين فالصف المتقدم كان محمول مراكبه آلات حرب قوية فعلقوا الحرب ما بين العمارة والمدينة فان كانت كرات النار الفريتجاواز تنحذف من المدينة على المراكب فالصخور والنبال والمواد الاخر كانت من المراكب بالالات نحذف على المدينة نظير عاصفة البرد فهذه مع صراخات الجيوش القوية التى كانت ترعد من البر ومن البحر قد صورت منهداً مخوفاً مذهلاً مهيلاً جداً ثم ان الدوجه فى مراكب الحرب المركب الذى صعد اليه قد جسر عساكره بالفاظه الفعالة المحترمة وبنموذجه المهاب منهم وهكذا فيما بين ذاك الشغب والضجة العظيمة صرخ هو صوتاً مرعباً بامره لجنوده بان ينزلوا من المراكب الى الارض متهدداً اياهم بقطع روسهم ان لم ينزلوه حالاً فامره قد اُطيع لان العساكر حملوه على ايديهم وانحدروا به فوقف على شط البحر وامامه واحد من اصحاب الوظايف والسنجق الكبير المختص بالقديس مرقص منتشر على الرمح المحمول بيده . ثم على البدية بغتةً شوهد السنجق المرقوم منصوباً فوق احد ابراج السور كانه بيدٍ غير منظورة فحينيذٍ مراكب الحرب تقدمت نحو شط المينا والجيوش الاشد شجاعةً حذفوا ذواتهم منها الى الارض حيثما كان الدوجه واقفاً وعلى هذه الصورة العساكر البحرية كلهم صاروا على الارض امام السور باستواء فالابراج المتموجة بالمحارسين من داخل الجهة ضربها على العساكر الا ان هولاء حالاً تعلقوا بالصعود الى المرامى بواسطة السلالم وغيرها واذ هرب من امام سيوفهم الروم فالجيوش سعوا فى اثرهم الى باطن المدينة واضرموا النيران فى البيوت القريبة من الاسوار فيا لهُ من مشهد يستحق الندب

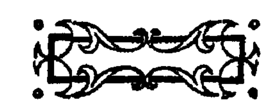
(يقول المورخ نيكيطا) وهو موضوع قابل للبكا الشديد بدموعٍ غزيرة يمكنها ان تطفي هذا الحريق المهيل الواسع جداً الذي امتد من حد قلعة بلاكاراناس الى دير ايفارجيت والى حد دانتير ❊

فمشاهدة الملك حينئذٍ راس مملكته هذه اضحت عداً للهيب النار قد ايقظته من غفلته فخرج من قصره مزحوماً من الشعوب مرافقاً من شبان فايرة دماهم وجيوشه المولفة من ستين طغمة الموازية اربعة اضعاف زايدة عن عساكر اللاتينية قد خرجوا فى الوقت عينه من ثلثة ابواب مختلفة من المدينة الى خارجها فروسا العساكر الصليبية مع جيوشهم الضايقين الاسوار من جهة البر عند مشاهدتهم تلك الكثرة العظيمة الخارجة من عساكر الروم الى برا قد انتظروا ليس من دون خوفٍ اعتراهم حدوث معركة دموية مهيلة بين الفريقين واستعدوا لها كما ان العساكر البنادقة ايضاً من ناحية البحر تهيأوا لاتباع اعمال هولاء الذين في البر اخوتهم غير ان الملك عند نظره اعداه مرتبين جيداً للمعركة بشجاعة عزم شديد قد شمله الخوف جداً وصير ابواق الحرب ان تنادي بالرجوع الي الوراء داخلين المدينة الامر الذي جذب الصليبيين حالاً الى الجري فى اثرهم منتصرين عليهم خلواً من قتالٍ فرجوع الروم بهذه الصورة الى المدينة القى الرعدة والبلبلة العظيمة فى اهاليها بالهرب والتبديد مع عساكرها فلما راي ذاته اليكسيوس مهملاً من الجميع لم يعد يفكر سوي فى ان ينقذ حياته من القتل ففى ظلام الليل ما بين شغب الشعوب نزل هو فى احد المراكب مع خزاينه وسافر هارباً مفتشاً لذاته على مقرٍ ما من اراضى المملكة ❊

ففى صباح تلك الليلة وجدت المدينة فى حال تمام القلق والانزعاج والاياس ولما راي سكانها ذواتهم خاليين من ملكٍ

لانهم علموا امر هرب اليكسيوس فهم انفسهم حالاً مضوا الى الحبس الذي كان مسجوناً فيه ملكهم السابق اسحق المسكين المضنوك فى حال يرثى لها ودخلوا اليه وقطعوا عنه السلاسل الحديه واخرجوه وساروا به باحتفال عظيم الى القصر الملوكى واجلسوه في العرش القيصرى فهذه الخبرية الغريبة لما بلغت اذان امرا الصليبيين قد اوعبتهم من عدم الثقة بالروم : وحالاً اهتموا في ترتيب جيوشهم جيداً باستعداد للحرب على اول اشارة تعطى : ثم ارسلوا من قبلهم متى ده مونمورانسي والمرشال فيلاهردوين ومعهما اثنين من اشراف البنادقة الى المدينة لكى يقفوا على حقايق الامور اي هل انه حقاً تُسمّى اسحق ملكاً من جديد ام لا. فلما هولاء الاربعة قصاد دخلوا المدينة والقصر الملوكى قد شاهدوا حقاً اسحق جالساً على الكرسى الذهبى بحلة المجد واصحاب الوظايف وقوفاً حوله نظير ما كان قبلاً فى عزه فالقصاد سلموا عليه باحترام : ثم بعد ذلك طلبوا منه ان يصادق بالتسجيل على الشروط والمواعيد المقررة لهم من ابنه اليكسيوس فى مدينة زارا فاسحق قد سهى مندهلاً من عظم الثمن الذي اقتضى لاكتسابه من جديد تاج الملك ولكنه كتم فى باطنه عدم رضاه بهذه الشروط واظهر قبوله ان يصادق عليها فحينيذ مشهد عجيب موثر قد أعطى لسكان هذه المدينة العظيمة وهو أنهم نظروا الدوجه راس المشيخة البندقية مع امرا الصليبيين واشرافهم محاطين من جيوشهم العظيمة داخلين فى طرقات القسطنطينية باحتفال النصر والغلبة وفيها بينهم برتبة المجد كان اليكسيوس الامير ابن اسحق فالكنايس ضربت نواقيس الفرح على تراتيل الاكليروس بتسابيح الشكر وطرقات المدينة تزينت بافخر زينة واصوات التهليل من الشعوب رنّت

بهتافات المسرة طول المجال حتى دخولهم القصر الملوكي حيث اسحق اعتنق ابنه اليكسيوس بدموع الفرح وهو وابنه الجهـا يقدمان الشكر والمديح بالفاظ المنة ومعرفة الجميل لروسا الصليبيين على انقاذهما وترجيعهما الى تخت المملكة ثم بعد ذلك صُنع عيد احتفالي في البلاط الملوكي وفي المدينة ابتهاجاً وافراحاً عامة لهذه النهاية السعيدة وكانت اشخاص امرا اللاتينيين في هذا العيد لامعين في اول رتبة بين عظما المملكة بمجدٍ سامٍ افتخر زينةٍ لهُ والروم اذ امتلاوا انذهالاً من اعمال الصليبيين المتحدين على صالحهم ومن مواعيدهم الشهمة شرعوا يتخاصمون فيما بينهم على المسابقة في تكريمهم وعلى الافتخار بان يوجدوا حولهم في مدينتهم هذه . ثم ان الشاب الامير اليكسيوس غب دخوله القسطنطينية ببعض ايام قد تتوج احتفالياً بالاكليل الملوكي في كنيسة اجيا صوفيا شريكاً لابيه اسحق في تخت الملك والامرا والاشراف والجيوش النبلا من الصليبيين حضروا هذا الاحتفال ومع الاخرين دعوا للملك الجديد بنمو العز والاقبال واخيراً اتحاد احتفالي فيما بين الروم واللاتينيين قد أشهر وفودي بهِ وكان يستبين هذا الاتحاد ذا دوامٍ مديد والقلوب كلها بعد ذلك حصلت على المسرات والرجا بالراحة ولكن اواه انه كان يجهل وقتيذٍ العتيد ان يحل على تلك المدينة المتكبرة من العواصف المكدرة عقيب الافراح المتوافرة ☆



الفصل التاسع

في حدوث الاضطراب ضمن القسطنطينية وفي المناداة بصفة ملكٍ لمورزوفلا وفي حصار هذه المدينة مرةً ثانية من اللاتينيين وامتلاكهم اياها ثم في تاسيس مملكة جديدة على المشرق

فالانتصار العظيم الذي فاز بهِ الصليبيون مما تقدم شرحه قد شاعت اخباره في العالم المسيحي كله سرعةً وفي كل الامصار كانت المفاوضات تبجل صنيعهم المجيد ففيها كان الناس اجمعون يلهجون بمديحهم وتقريظاتهم فروساهم من دون النفات الى ذلك اجتهدوا في ان ينالوا رضى الحبر الروماني عنهم فاعرضوا لديه خبرية ما حدث بحقايقه مبينين لقداسته كيف ان ذلك كان عمل يد الله لا بقوةٍ بشرية ونظيرهم الملك الشاب اليكسيوس باتفاقٍ معهم كتب للبابا اينوشانسيوس نفسه مستعطفاً غايته الابوية نحو مسراه ومرضاته على الامرا رفقاه في الحرب *

غير ان المودة وحسن الاتفاق الجاري فيما بين العساكر اللاتينية وبين الروم ما توخر زماناً مديداً عن ان تبرد حرارته وزمان ايفاء الشروط الواقع عليها العهد قد دنى وطلبت من الملك الاموال الموعود بها للصليبيين كما طلب بان ينادي باتحاد طايفة الروم مع الكنيسة اللاتينية فشعوب القسطنطينية العديموا الثبات والرصانة قد صيروا عدم رضاهم بهذه الاشيا معلوماً بواسطة احاديثهم وتمرمرهم ونميمتهم الجسورة وفيما بين تصرفاتهم القلقة وعدم ترتيبهم الحسن قد ولّدوا ثانيةً نفور القلب والبغضة وصيانة الارواح التي كانت اياماً ما ابعدتها من بينهم اشراقات انتصار الصليبيين المجيد كما انهم اظهروا تشكيهم من ان تصليح

الامور المختصة بالملكة قد اشترى بثمنٍ هكذا ثقيل (ولكن المورخ نيكيطا يقول) ان الخزاين التي كانت جمعت من الملوك صار الابتدا بتوزيعها على مخلصي المملكة : الا ان هذه الاموال الغنية لم تكن كافية لاشباع جوع اللاتينيين نحو احتشاد الغنى فاحتاج الامر الى كسر الاواني المقدسة مع زينة الايقونات وسكها معاملة للوفاء : (ثم ان المورخ المذكور) لم يرتاب في ان هذا الفعل الاثيم قد جذب الى المملكة القصاص المهيل الذي احاق بها فيها بعد : ومن حيث ان امرا الصليبيين طلبوا اتمام الشرط الاخر وهو ان البطريرك القسطنطيني والاكليروس يرفضون اضاليلهم المشافية خلواً من تاخير فالبطريرك المذكور صعد الى المنبر في كنيسة اجيا صوفيا وقرر عن ذاته وعن لسان المسيحيين الشرقيين اجمعين قايلاً : انه يعترف بان البابا اينوشانسيوس الثالث هو خليفة القديس بطرس الرسول وهو النايب الوحيد ليسوع المسيح على الارض غير ان هذا الاتحاد الاغتصابي لم يكن حقيقياً اصلاً : لانه بالخلاف هذان الشعبان انفصلا بالاكثر احدهما عن الاخر في ذلك النهار عينه المقتضى فيه اتحادهما من حيث ان الانشقاق المتاصل في الروم بشلوشٍ عميقة لا تقوي على اقتلاعه الملاحظات الزمنية مهما كانت في حال اضرارة على ان يهمل توليه فوق ارواحهم : ثم بعد ذلك بزمنٍ وجيز حدث في القسطنطينية حريق مهيل جداً احال نصف دايرتها الى رمادٍ وكانت بدايته من نارٍ اشعلها البعض من العساكر الفلامنديين نحو كنيس اليهود الذى في ميسيانا (فيقول المورخ نيكيطا عن هذا الحادث) ان النيران قد امتدت الى كل جهة طول النهار والليل التابع برجزٍ هكذا شديد الاضطرام حتى انه يصدق القول انه لا يمكن يشبه بمثلٍ على ان السن اللهيب قد انحدرت الى

واحدٍ من امكنة مختلفة لكي تفنى الاشيا باشد قوةٍ وكانت تبيد العواميد الاوفر صلابةً والقناطر والاروقة المزينة بها الساحة العامة ابادةً سريعةً كان هذه المواد وجدت من تبنٍ وكانت تنبعث من جوف لهيب هذا الحريق المخوف مدةً من الساعات كرات نارية وتنحذف على البيوت البعيدة جداً وتحرقها ❊

اما الصليبيون (يقول فيلاهردوين) الذين صاروا شهوداً عيانين لهذا الحادث المرعب فقد شملهم حزن عظيم وتوجع اليم واشفاق وسيم من جرى اضرارة الباهظة فالشعب الذين لم يعد لهم ماوي ولا موجودات جلسوا فى الطرقات مشتكين على ان سبب مصيبتهم هذه العظيمة اتٍ من اللاتينيين ومن الملكين اللذين جاءوا الصليبيون ليرجعوا اليهما تاج الملك ومن حيث ان الملك فرض على الشعب اموالاً لاجل تمام ايفاء ما كان باقياً للجيوش الصليبية فهم ما عادوا وضعوا حداً لملاماتهم وتشكيهم (بل كقول نيكيطا عينه) حصلوا كالبحر العجاج المختبط بشدة الامواج مظهرين التعصب العنيف والشغب المخيف فهذا الشعب الواطى العنيد فى اول قومتهم بالرجز وجهوا فاعلية غضبهم ضد التماثيل الرخام اي انهم سحقوا الشخص المجسم من مرمر الذى كان مثلاً مينارفا سيدة العلوم وانما كسروه لاجل ان عينيّ هذا التمثال ويديهِ كانت محولة الى جهة المغرب فظهر لهم كانه معضد اللاتينيين : فهكذا (يقول المورخ الذي وصف باسهابٍ جودة صنعة هذا التمثال الفريد) لم يعد الشعب يحتمل ان يوجد فى هذه المدينة المتملكة تمثال الوهية متراسة على افعال الفطنة والشجاعة فاجتماعات الشعب كانت مترادفة حول دايرة التمثال الذى هو شخص خنزير برى كان منصوباً فى ساحة كاليدون فى المحل المدعو ايبودروم وكانوا يملاون الفضاء من عجيج

صراخهم وتهديداتهم فالملك اسحق الشيخ الضعيف المتمسك بالمحفظات الباطلة قد وهم ان يمنع هذا الشعب الواطى عن التعصبات والتمرد اذا صير ان ينقل الى القصر الملوكى الذى فى بلاشرناس التمثال المذكور بحسبما يشير الى صفة شعب احمق غضوب غير انه بعد نقالة هذا التمثال لم يهجع الشعب العديم الادمار ومن كل جهة بروق عواصف الانقلاب كانت تدل على انقضاض صواعق الخراب ومن ثم الملك اليكسيوس اذ استوعب خوفاً من حدوث شي ينزع التاج عن راسة قد فكر بان ينتزح عن سيدة المملكة القسطنطينية فى الوقت الذى فيهٍ ابوه اسحق كان فى اسفل قصره محاطاً من الوزرا الملاقين ومن الملجمين متراخياً لحماقة اماله فى ان يفوز بالسعادات المقبلة العجيبة فاخيراً هذا الشعب انتقل من التهديد الى الفعل فنهضوا بصورة تمرد عام متهورين من نير اللاتينيين وهجموا على القصر الملوكى بصراخ مهول طالبين من الملك اسلحة لكى يقاتلوا بها وينقذوا المدينة من ظالميها المكروهين ☆

فقد كان موجوداً في القسطنطينية امير شاب اسمهُ اليكسيوس من عيلة دوكاس الملوكية بالقرابة ولقبه مورزوفلا فهذا كان هو المحرك الاول والاخص للاضطراب المذكور وهو فايق على جميع اهل وطنه فى الخباثة والحيل والمرايات حاوياً على نفس قوية مضافة الى مسراه بالملاعبات عارفاً ان يخفى تحت برقع الديانة والغيرة على شرف الوطن الكمين الباطن فى قلبه نحو محبة الارتفاع ومن حيث انه كان شجاعاً باغضاً كل الطوايف الغربا فقد جذب الى ذاته ميل الشعب ومعاً كان هو فايزاً بانعطاف الملك اسحق نحوه بزيادة ومن ثم لم يترك من جهده جهداً بان يقنع الملك فى انه يبتعد عن اللاتينيين

ولو عاداهم لكي يكتسب محبة رعاياه الروم ثم لم يكن هو يهجع عن ان يحرك بذاته وبواسطة الغير الروم الى مقاومة الصليبيين والتكره منهم ومشوراته هذه كانت مرافقة منه بعض احيان بموذجه العملي لانه يوماً ما جمع حوله جانباً من العسكر واقتحم الصليبيين مريداً ان يعاركهم فى حومة الميدان فاذاً الشعب القسطنطيني فى حال تمرده المقدم شرحه اختاروا هذا الامير ريساً اعلى ومنقداً لهم فنصب خيمته معهم ✲

ففى الوقت المومى اليه بلغ الى تحت اسوار المدينة قصاداً اتين من بلاد فلسطين كي يتوسلوا الى روسا المعسكر الصليبى من قبل مسيحي تلك البلاد بدموع سخينة فى ان يعجلوا لمعونتهم واغاثتهم الا ان هولاء الروسا حكموا بانه لم يكن ممكناً لهم خلواً من خطر وخجل ان يبتعدوا عن سكان مدينة قد اظهروا ذواتهم مستعدين الى نقض الامور وملاشاة العهد والمواعيد بل ارسلوا الى الملك اليكسيوس رسلاً يحرضونه على حفظ القسم الذى ابرزه ولكن حينما رجعت الرسل فارغين من الافادة فحينيذٍ انقطع الامل مطلقاً عند الصليبيين من امكانية حفظ الصلح بل حالاً شهر الحرب فالروم اذ لم يجسروا على معاركة اللاتينيين فى موقعة برية وجهاً بازاء وجهٍ احتالوا فى ان يحرقوا عمارة مراكب البندقية واما الملك اليكسيوس فقد اضحى غايصاً فى بحرٍ من الجزع فيما بين شعبٍ لم يقدر هو على توقيفهم عند الحدود بتة وبين الصليبيين المحاربين المدينة تحت خطر مبين على سقوطها ثانيةً تحت سيوفهم الا انه التجاء اليهم مرتعداً طالباً نجدتهم متوسلاً اليهم بان يدخلوا المدينة ويسندوا تحت الملك الحاصل على حافة سقوطه موعداً اياهم بان يسلمهم قصره الملوكى بما فيه واما الامير مورزوفلا فلما

توطد من حقيقة تمرد الشعب عموماً قد ذهب الى الملك اليكسيوس مجتهداً في ان يعزيه متوجعاً معه صورةً من حالة المحزنة ومستحلفاً اياه بان يركن اليه بثقةٍ ثم ان الخاين قد غطاه بثوبه الطويل بصورة ان يحتجبه عن نظر الشعب واخذه الى خيمته وعما قليل (يقول نيكيطا) كاد هذا الملك السليم ان يقر لهُ بمعرفة الجميل بالفاظ داود النبي القايل انهُ اخفاني في خيمته يوم ضرى ولكن اواه ان تعزية اليكسيوس بهذه الحماية كانت برهةً لان مورزوفلا في تلك الخيمة عينها امر بان يوضع قيد الحديد في رجلي الملك اليكسيوس وبان يطرح في سجن مظلم كما تم. ثم ان هذا الخاين الظالم قد تردي هو حينيذٍ بالبرفير الملوكي وفي ساحة المدينة المسماة ساحة نيقولاوس كانايوس قد صير ان ينادي بهِ ملكاً اذ ان هذا الشاب الاحمق كان قبل ذلك بايامٍ قيل لهُ من الشعب العاصي الملتيم حوله انت لابس اثواب جيدة فكن علينا ملكاً فلما هو حصل على السلطان الاعلى حسب زعم اوهام عقله الاعوج فحالاً رجع الى حيثما كان الملك اليكسيوس محبوساً واسقاه شراباً مسموماً ولكن لما راه بعد ذلك متاخراً عن الموت قد خنقه بيديه الملوثين شراً ✿

فعندما هذا الشقي فاز بقتل اليكسيوس قد اضمر على حيلةٍ شيطانية بها يبيد حيوة امرا الصليبيين وروساهم المتقدمين بخيانةٍ سوداء الا ان الفضل لجودة انتباه الدوجه راس المشيخة البندقية الذي بالصواب لُقب بافطن الفطنا الذي بمشورته خلصهم من هذا الخطر المبين وهكذا الامرا الفرنساوية امتنعوا عن الوقوع في الحيلة الخبيثة التي كانت تدبرت لهم من عدوهم وان عرفوا ما صنعه هذا الاثيم بقتله اليكسيوس استوعبوا انذهالاً

وربعا ً معا ً لاسيما حينما توكدوا ان الملك اسحق ايضا ً مات في قصره من شدة حزنه على ابنه وخوفه على ذاته فمن ثم حلفوا حالا ً على حرب مهيلة ضد المغتصب الرذيل الذي صار واليا ً اعلى باختلاسه التخت القسطنطيني وصرخوا بعزمٍ وطيد انهم غير راجعين عن ان يعاقبوا طايفة ً حوت في حضنها قوة الخيانة الردية والقتل المهيل وقد اعطت هذا المنافق تاجا ً ملوكيا ً مكافاة ً لنفاقه ✽

فاذا ً حينما كان الخاين مورزوفلا مهتما ً في تحصين الاسوار لكي يجعل المدينة مستطيعة ان تحمي ذاتها من هجمات الجيوش الصليبية ففي الوقت عينه امرا اللاتينيين شرعوا في تحضيرات الاشيا الضرورية لحصار القسطنطينية ثانية ً فقد رتبوا الآت حربية قوية جدا ً وقد وعدوا بمبالغ غنية من المال لاوليك المحاربين الذين يكونون هم الاولين في الصعود على اسوار المدينة حين حصارها ثم اعتمدوا على ان لا يفعلوا نظير الحصار الاول بانقسام العسكر الى جهتين برا ً وبحرا ً بل ان قوة العساكر تكون متحدة معا ً في ناحية الميناء من البحر فاذا ً في اليوم الثامن من شهر نيسان الجيوش التي كانت في البر كلهم نزلوا في المراكب وفي اليوم التاسع عند اشراق الشمس تقدمت العمارة كلها بصورةٍ متهددة الي امام اسوار القسطنطينية ورتبوا صفوف المراكب باسرها على خطٍ مستوى مغطية وجه البحر في مسافة ميل ونصف كما ان العدو من داخل قد تهياء ليدافع عن المدينة ضدهم وقد نصب مورزوفلا خيامه فوق احدى السبع تلل او تلال المبنية عليها المدينة قريبا ً من القصر الملوكي الذى فلاشراس لان هذا التل هو الاعلى من الستة الاخر وهناك جميع عساكره كما ان مراكبه المتلية من المحاربين قد اصطفت محامية عن السور ✽

فلما أعطيت اشارة الحرب قد ابتدي الضرب من الجهتين اذ ان الروم دوروا آلتهم ضد المراكب واللاتينيين وجهوا حربهم ضد الاسوار ففي المبادى الصليبيون بصعوبات شديدة ردوا عن ذواتهم قوة اعمال الروم الحربية ونبابلوا جداً مغلوبين (لان فيلاهردوين يقول) ان عوارض الموقعة وخطايانا ارادت اخنا بعد نصف النهار بثلاث ساعات نرجع الى الورا متقهقرين. لان الروسا امروا بضرب ابواق الرجعة وهكذا توقف الضرب بين الفريقين ولكن بعد ذلك بثلاثة ايام الصليبيون تقدموا من جديد بالمراكب نحو المدينة متقدين بنار غيرة أكلة فى ان يصلحوا بغلبة مجيدة للخجل الذى اعتراهم فى الموقعة الاولى وتقدمهم هذا كان بمركبين مركبين بعضهم وراء بعض مملوة جنوداً ودنوا من الاسوار بشجاعة غريبة وكلّ من الروسا والاشراف كان يتميز عن الاخر بافعال رجولية عجيبة واخيراً حركت هواء شمالى جذبت فساقت اثنين من المراكب الى حد السور اسم احدهما الزاير وثانيهما الفردوس الموجود فيهما اسقف ترويا واسقف سواسونس فحالما مسّا ركن السور قد صعد منهما اثنان من الجنود احدهما فرنساوى اسمه اربوازا والثانى بندقى اسمه بطرس البارتى وتعلقا على احد الابراج متبوعين من ارفاقهما الشجعان ونصبا فوق البرج بيارق الصليب الامر الذي صير الجيوش الصليبية كلهم عند مشاهدتهم بيارقهم تتموج بالهوا فى اعلى البرج ان يصرخوا بهتافات الفرح بالغلبة ويتقاطروا ركضاً نحو الخروج من المراكب والتعلق بالسلالم على الاسوار ثم فتحوا من ابواب المدينة ثلثةً بقوة الهدم وهكذا الجنود اللاتينيون الباقون هجموا من المراكب داخلين الى باطن المدينة التى منها الروم كانوا يتهاربون متبددين والخوف والاضطراب املئا قلوب السكان ومن حيث

ان الصليبيون القوا نار الحريق الذي لهيبه امتد واباد مضارب
مورزوفلا فهذا المنافق هرب منها مع جماعته (فيقول المورخ نيكيطا)
ان هذا الامير صودف راكضاً فى الطرقات باذلاً جهده وصارخه
فى جمع عساكره المتبددة ولكن جنوده قد كان شملها الرعب
وقطع الرجا بهذا المقدار حتى انه ما عادت لهم اذان تسمع
اصواته ولا عزايم تطيع اوامره . فلما شاهد ذاته هذا الرجس
مهملاً من الجميع ارتجفت اوصاله ولم يعد يفكر سوى فى ان
يخلص حياته من الموت فخرج من الباب الملقب بالذهبى
وصعد الى احد المراكب وسار مفتشاً لذاته على ملتجاء مجهول
نحو شطوط اليسبونطوس او فى جهة تراكيا وحينيذٍ شابان من
العيلة الملوكية طفقا يتخاصمان على وراثة التاج القيصرى (يتبع
نيكيطا كلامه المتقدم بهذا والاثنان جيدان شجيعان حسنا العقل
احدهما تاودورس دوكاس وثانيهما تاودورس لاسكاريس) مخاصمةً
تشبه مقاتلة اثنين من النوتية على امتلاك مركب كسرته
العواصف غارقاً الا ان الثانى لاسكاريس قد اختير مفضلاً على
الاول غير انه لما تردى هو بالعلامات الملوكية وشرع يحرض
الشعب والعساكر على النهوض والمحامات عنه فالمنكود الحظ
لم يصادف حوله لا اهل المدينة ولا جنوداً فالتزم هو ايضاً
بان يهرب خارجاً مهملاً تخت المملكة للغايلة التعيسة ✿

افهل اذاً القسطنطينية اضحت متروكةً على مفاعيل اعدا
حاصلين فى حال فورة غضبهم وشدة احتداد رجزهم اواه ان
النفس تتوجع بمرارةٍ والفم يصمت من عظم الغم عند التامل
بالحوادث المكرهة التى شوهت انتصار الصليبيين هذا بافعالٍ
صدرت منهم وتلفت اسم مجد غلبتهم بقساوةٍ بربرية بعيدة
عن ان تليق بمسيحيين متسلحين لغاية تخليص قبر المسيح من

ايدي الامم على ان هولاء القوا نيرانًا متعددة معلقين الحريق المهيل الذى احال الى رمادٍ جهات عظيمة من المدينة وحسب تقرير اشرافهم انفسهم ان هذا الحريق قد اباد من العماير العظيمة والكاينة الكبر والغناء والزينة اكثر مما كانت وقتيذٍ حاصلة عليه من امثال الثلث المدن الاعظم من ساير المدن المملكتين الفرنساوية والنمساوية ثم ان الصليبيين اذ لم يجدوا ولا فى جهةٍ من اقسام المدينة احدًا يصادمهم بتةً بل شاهدوا الطرقات كلها امامهم خالية من محاربٍ قد طفقوا جريًا فى الازقة والاماكن باسرها بايديهم السيوف ومشاعل النار للحريق ولكن عوضًا عن انهم يرون كما كانوا يظنوا اناسًا يقاتلونهم قد صادفوا امامهم نساءً واولادًا وشيوخًا يبكون تابعين الاكليروس الحاملين الصليب والايقونات المقدسة فحينيذٍ روسا الجيوش انعطافًا نحو توسلات هولاء المساكين ورافة على دموعهم. السخينة وصراخاتهم ابرزوا الاوامر على العساكر بان يوفروا حيوة السكان متوقفين عن سفك الدما وبان يحترموا كرامة النساء ومن حيث انه أُضيف الى اوامرهم هذه صراخ الاكليروس اللاتينى بالتحريضات الفعالة على الكفاف عن القتل فهكذا بطل ضرب السيف الشديد القساوة ولكن ان كانت سيوفهم توقفت حينيذٍ عن اهراق الدماء بعد ان قتلوا اعداهم فلم يتوقف رجزهم الذي اضحى وحشيًا عن شى مما كان يقع بايديهم نهبًا عموميًا خلوًا من ان يوقروا لا الكنايس المقدسة ولا معافاة الامكنة السلامة المشاعة ولا قصور النبلا بالغناء حتى ولا مساكن الفقرا بل ان السلب والخطف والدثار قد احاق بالجميع بدون استثنا حيثما دخلوا وايما اجتازوا فكنيسة اجيا صوفيا العظيمة قد أخذ ما كان فيها وشوهدت بانواع الخراب والهيكل الشايع الصيت فيها المختص بمريم البتول الذي

كان اعظم زينةٌ لهذه الكنيسة قد هدم واحيل الى مكسرةٍ رديمة والزينات التى كانت فى الساحات والاروقة وامام القصور من اعظم صنايع المهندسين والمرخمين من مرمر ونحاس مذهب وامثال ذلك من اعاجيب الدنيا قد ادثرها رجز الجنود البربري واحالها الى خراب لانه لم تكن توجد وفتيذٍ واسطة يمكنها ان تهدي غضب هولاء الغالبين الذين استخدموا اختصاص النصر بيئس الاستخدام خارجاً عن كل قياس فلاجل معرفة الحوادث التى رافقت هذا الاقتصار بانواعها الردية تفصيلاً تلزم مراجعة نيكيطا الشاهد العياني عليها الذى حررها باسهاب المشابهة افعال الفنداليين وقد دنست شرف افتتاح القسطنطينية هذا بايدي الصليبيين فهناك فى التاريخ المرقوم يوجد شرح خصوصي مستحق الوقوف عليه مما يلاحظ اسماء الصنايع القديمة وصفات الموضوعات الفريدة التى كانت مزينةً بها هذه المدينة اعجوبة الدنيا فى ذالك العصر التى اذ صمدت هي قايمةً في عزها بعد خراب ممالك عديدة فقد جمعت ضمنها نواجم الموجودات واخص التحف وادق الصناعات المتخلصة من غرق تلك الممالك وقد استغنت بغنايم مدن العالم كله على نوعٍ ما « فالمورخ المذكور بعد ان يندب بمرارةٍ علقمية خسارة هذه الموضوعات الفريدة تاخذه حمية الغضب ضد تاليفها فيقول » ان اللاتينيين فتحوا قبور الملوك التى كانت مزينة بها الكنيسة العظمى واخرجوا منها بجوع كلبي نحو احتشاد الغنى اللولو والالماس والحجارة الكريمة ثم احرقوا بلهيب النار ستر الكنيسة المذكورة الكلى القيمة المشغول من شرايط الذهب النقى والفضة المروبصة الثمن بمليونات من المال وقد حلوا فى اتون النار ذايبةً تلك الاشجار المجسمة التى كانت من المعادن النقية وسكوها معاملة وكان الاول فى

تذويب الاشخاص المذكورة ذاك التمثال المعدنى العظيم قدا ً وصناعة ً وقيمة ً الذي كان زينة ً لساحة قسطنطين الكبير واما المرتبة المعدنية المسحوبة من اربعة روس خيل معدنية فبالكاد امكن انتقالها الى القصر الملوكى فنجت من الغايلة والتمثال الكريم المسمى باريز امام التمثال الاخر المدعو افينوس الاخذ من يده تفاحة ً كانت علة لخصومة مهولة قد 'قلبا عن مركزهما الجليل الى الارض معدومين حتى ان رجز الجنود ما عفَّ ولا عن ذاك العمود الهرامى الذي كان اطول عواميد المدينة كلها المفرقة فى ساحاتها الذى كان مجرد النظر الى الاشيا المرسومة فيهِ حفراً وتكويناً يوعب متامليه انذهالاً من براعة صناعته وبالاجمال ان هذه وباقى الاشيا القديمة الكلية الاعتبار قد ابيدت باسرها متلاشية فمن جملتها كان ذاك التمثال الكبير جداً المثل اركوله تريهيزبيروس الذى صنعة عملة من مرمر قاسٍ كانت عجيبة كلية الاعتبار فوق مركز فى كوفيوس مغطى بجلد اسد وحال كون هذا التمثال الفريد من مادة صلدة لم يكن 'يمنع (من شدة براعة صانعه) عن ان تظهر عيناه كانهما متحركتان بحدة الغضب وكان غلظ كبره من علو مركزه بهذا المقدار عظيماً حتى ان ثخانة باهم يده كانت موازية ثخانة رجل كامل السن وفخذه كان الثخن دايرة من طول اسمن الرجال مهما كان واطولهم : ثم ان الصليبيين قد ابادوا بالنار تمثال الديبة ايضاً التى كانت ترضع ريموس وروملوس الطفلين الاخوين : اهل تراني انسى تمثال الحصان الغير المكبوح الذى انتصاب اذنيه وصرير اسنانه فى فمٍ صاهل مع نط يديه ورجليه علامة لفرحة وشدة بأسه كان يشير الى الحرية بعدم الخضوع او هل انى اهمل ذكر تمثال الدبة العظيمة الكبر التى هيئة رجزها كانت

تقير الى القوة والى الشراسة وماذا لكان يمكنني اصف تمثال هيلانه التي كانت اقادت الروم الى تحت اسوار مدينة ترويا سوي اني اقول انه في المحال مطلقاً ان احداً من البشر العتيد وجودهم يمكنه ان يصل الى ان يصنع تمثالاً مثل هذا مجسماً او مصوراً بنوع تام نظيره اوآه ايتها المدينة العظيمة ابنة تيندارا اين غاب جمالك الكلي الافتدار ✿ انتهى

ثم ان البساتين والقصور الغنية المجاورة شط البوسفور ما فازت بالنجاه من الدثار العمومي المذكور فلانها كانت املاكاً للعيلات الملوكية وللانام العظما والمتقدمين بالوظايف فهذه ايضاً اضحت ماكلاً للهيب النيران التي استطال مداها حول المدينة الا القصر العظيم المختص بتسمية بوكوليون الذى اجتمع فيه عدد وافر من النساء الشريفات اللواتي كنّ من اعظم عيلات المملكة هاربات اليه محتميات فيه فهذا وحده العساكر عفوا عن حريقه لان مرغرينا ابنة بيلا سلطان هونكريا ارملة الملك اسحق وانيسا ابنة احد سلاطين فرانسا عروسة وارملة ميكين جثتا على ركبهما امام اشراف الصليبيين بالبكا والتوسل فصدر امرهم بعدم حريق القصر المذكور اشفاقاً عليهما واما البطريرك القسطنطيني فلشدة الخوف الذي اعتراه شوهد هارباً خارج المدينة حافي الرجلين خلواً من عكاز مترديا بثوب دني خلواً من زنار فاقد من المال والاشيا الاخر وبالكاد حصل لذاته اناناً ليركبه تعباً من الجري . ففيما بين اعمال النهب والحريق والدثار المختلفة الانواع قد صودف مشهد مضحك قصدت به العساكر الفرنساوية زيادة اهانة الروم وهو ان كثيرين منهم غب نهبهم امتعة الروم قد تردوا بملابسهم الثمينة وشوهدوا مزينين باثواب ذات الوان بهية جيئة او رابطين روس خيولهم بالشيلات المعتبرة الحريرية التى

كان الروم يزينون بها روسهم والبعض كانوا يجرون في طرقات المدينة حاملين بايديهم الدرج التي من ورق مع دوايات الكتابة استهزاءً بالروم المدعوين كتبة الدواوين ☆

ولكن يلزم ان ننهي الكلام عن هذه الامور المحزنة لكي نتكلم عن مشاهد ذات موضوعات اخر نقدر ان نريح تاملنا اياها باقل كدرٍ وغم من المتقدم شرحها فسيدة المدن القسطنطينية ما عدا التحف الثمينة القديمة المشار اليها من القصور البهية المنوه عنها كانت تمتلك ذخاير قديسين وايقونات مقدسة فريدة فهذه الكنوز الروحية المكرمة بحسن عبادة ازمنة مديدة من المسيحيين لم تكن اقل من الاموال التي اخذها الغالبون ذهباً وفضةً وحجارةً كريمةً واقمشة غنية وملابس ثمينة حسب فخفخة الشرقيين اصحابها حركت انشغاف الصليبيين المتعطش الى الاحتشاد نحو اخذها لذواتهم بروح العبادة ايضاً على ان العباد الانام الاوفر تقاوةً فيما بينهم خاصةً الاكليروس اللاتيني قد جمعوا بحرارةٍ هذه الكنوز المقدسة الاشد اعتباراً من الصلبان التي كانت الجنود معلقتها على صدورهم مختصةً باورشليم فمن ثم كنايس القسطنطينية تسلحت من هذه المواد الجليلة النادرة الوجود خارجاً عنها الملاحظة سر الافتدا المقدس والمختصة بالرسل القديسين والشهدا والمعترفين فقد خُطِفَ اذاً من تلك الكنايس جميع الاشيا المومى اليها من الات مخلص العالم التي امامها الشعب القسطنطيني جثواً كانوا يقدمون تكريمات العبادة ومن فضلات اجساد القديسين ابايهم والمحسنين اليهم وروسايهم التي بمجرد النظر اليها كان يشفي اعلاهم ويعزيهم من الاحزان (وفيها بين هذه الذخاير كان في كنايس المدينة حسب تقرير المورخين الحجر الذي كان يعقوب ابو الاسباط وضع راسه عليه

وتام حين ظهور الله له' وعصا موسى الذي كان هو صنع بها الايات والمعجزات وبعض من ملابس والدة الاله كثوبها وزنارها والسباني التي كان لُفَّ بها جسد المسيح في دفنه وسن من اسنانه تعالى التي بدلها في حداثته وجانب من شعر راسه وبعض اجزاء من اثواب الارجوان الذي البسه اياه هيرودس راجعاً به امام بيلاطس واكليل الشوك الذي كُلل به هامته المقدسة وغير ذلك من الذخاير الفريدة) فهذه الكنوز الروحية الفايقة الاكرام والاثمان قد نقلت الى كنايس فرانسا وايطاليا زينةً سامية لها وبنوع اخص كنايس البندقية اضحت غنيةً بجانب كلي منها وقد اعتبرت هذه الذخاير المقدسة في تلك الاجيال ذات الامانة الحارة والهدو المسيحي كانها الثمرة الاخص والاعظم والاثمن من كل الاشيا التي فاز بها الصليبيون في انتصارهم هذا الذايع الصيت ☆

فمملكة القسطنطينية سقطت تحت تملك الصليبيين في شهر نيسان سنة ١٢٠٤ والعرش الملوكي الذي للقياصرة ذوي اسما قسطنطين ولاون وكومنينوس قد 'هدم اخيراً بهذا الامتلاك فهكذا اجتازت منتهيةً خيطان حرير الشرنق المزهرة (يقول المرشال فيلاهردوين بروح السداجة) والروسا والجيوش اقتسموا النهب جميعه الذي اغتنموه من المدينة المذكورة المقول عنه من فيلاهردوين نفسه انه قط منذ خلقة العالم الى ذاك الوقت نفسه ما صودفت غنيمة غنية مثل هذه (ولكن حسب تقرير بعض المورخين ان هذه الغنيمة كلها قد تثمنت وصفيت بمبلغ احد عشر ماية الف وزنة من الفضة وحين اقتسامها وجد نصيب كل واحد من الروسا والاشراف عشرين وزنة فقط وحظ كل واحد من العساكر المشاة خمس وزنات لا غير) ثم بعد ذلك الصليبيون افتكروا في ان ينتخبوا شخصاً مستحقاً ان يترأس كملك على القسطنطينية

التى هم امتلكوها فقد أختير برضى الجميع افراداً وعموماً اثنى عشر شخصاً مفوضين ملو التفويض بان ينتخبوا هذا الوالى ستة من البنادقة وستة من الاكليروس الفرنساوي واخذوا منهم الحلف الاحتفالى على الانجيل المقدس فى الكنيسة بانهم لا يمنحون هذا التاج بانتخابهم الا لمن تستحقه فضايله وصفاته الجليلة فقد استبان بعد الفحص ان اصوات هولاء الوكلا الاثنى عشر قد اتفق على ثلاثة اشخاص من امراء الجيوش متساويين بالاستحقاق لهذا المقام وهم انريكوس الدوجه راس المشيخة البندقية (لان هذا الشيخ الجليل قد كان فى اكثر الاعمال الحربية هو اللولب المحركها والاخص فى جودة المشورات والتدابير) وبونيفاسيوس امير مونتفرّات الذى شجاعته وفطنته وجودة عقله كانت ذايعة الصيت فى الاوروبا ثم بودوين كونته ده فلاندرا الشاب السعيد الذي باعمال جهاداته الحربية وبشهامة النفس والقناعة وحسن التهذيب ومحبته الحارة نحو اعمال الديانة وفضايله الاخر السامية لاسيما العدل والاستقامة قد كان اكتسب لذاته الاعتبار وكرامة الاسم والوقار ليس عند الصليبيين فقط بل عند الروم المغلوبين ايضاً انفسهم فالاثنى عشر المنتخبون استمروا فى كنيسة اجيا صوفيا يومين مغلوقاً عليهم لعمل هذا الانتخاب والصليبيون كافةً ملتهون خارج ابوابها بانتظار كلى لحكمهم ونهاية الانتخاب نفى ساعة نصف الليل من اليوم الثانى فُتح الباب واسقف سواسونس ظهر امام الشعوب مخاطباً اياهم بصوتٍ عالٍ قايلاً انهُ فى هذه الساعة التى فى مثلها قد ولد يسوع المسيح مخلص العالم فهو تعالى اعطى ميلاداً الي مملكةٍ جديدة تحت العزة القادرة على كل شى فنحن قد سمينا ملكاً عليها وهو بودوين كونته ده فلاندرا وهنّو فهذه المناداة قبلت من الجموع

كلها بغاية الابتهاج وهتافات المسرة وهكذا بودوين أُخذ محمولاً بالزينة الملوكية الى الكنيسة المذكورة برايات الانتصار وهناك فتوج ملكاً بموجب الرتبة اليونانية عينها حسب الطقس الرومي واذ جلس هو في العرش الذهبي قد لبس البرفير الملوكي من يد النايب البابوي المتعاطي حينيذٍ وظيفة بطريرك القسطنطينية واثنان من الاشراف امامه حامل احدهما رسوم وظيفة القناصل الرومانيين وثانيهما ضابط السيف الملوكي والاكليروس امام الهيكل الكبير صرخوا يونانياً „ اكسيوس" (اى مستحق ان يملك) والشعوب المجتمعون كرروا الهتاف „ اكسيوس „ مستاهل لذلك مستاهل لذلك" وقد تم هذا الاحتفال في اليوم السادس من شهر ايار سنة ١٢٠٤ نفسها ☆

فهذا الملك بودوين بالحقيقة كان هو المستحق اكثر من الصليبيين اجمعين ان يجلس فى التخت القسطنطيني لانه كان مولوداً من اصل الملك كارلوس الكبير دموياً بتسلسلٍ شرعي وكان متحداً بالصلح والمحبة الودية مع ملوك الاوروبا الاعظم اقتداراً وكان هو موضوعاً قابلاً بالكفاية لان يحفظ مقام التاج القيصري وشرفه وفي الوقت الذي كان هو فيه عزيزاً محبوباً من جيوشه ففيه عينه كانت مدايح اعدايه تقرظ صفاته الجليلة مقرّين بانه فيما بين ضغطات امتلاك القسطنطينية وما حدث فيها قد حفظ ذاته طاهراً عفيفاً شريفاً بعيداً عن كل ما زل به الاخرون محامياً عن الضعفا سنداً للفقرا محباً خاصاً للحق والعدل موعباً من حسن العبادة نحو الديانة خليلاً ومفتخماً للحكما جامعاً فى ذاته صفات ملكٍ سلمي هادي مضافة الى صفات ملكٍ كلي الشجاعة فى الحروب وتدابيرها للفوز بالغلبات ومن ثم ارتفاعه الى العرش القسطنطيني اعطى

سكان هذه المدينة رجاءً وافراً بان ولايته تكون سعيدة مستطيلة وطايفة الروم التى اعتادت على سرعة تغيير الملوك قد اقتبلت هذا الملك الجديد بالرضى والياً عليهم واضافوا افراحهم به الى افراح الفرنساويين والبنادقة ✿

ثم ان وظايف البلاط القيصري العليّ قد توزعت على اشراف الصليبيين فالدوجه انريكوس سمّى امير الرومانيين وفيلاهردوين دعى مرشال بلاد روماليا والكونته ده سان بول اقيم بوظيفة ساري عسكر قايد عام للجيوش وكونون ده بيتونا اُختير كريس اعلى لحراس الامتعة الملوكية ثم بعد ذلك في ديوان مشورة مولف من اثنى عشر شخصاً ستة فرنساوية وستة بنادقة قد صارت القسمة مناصفة لاراضي المملكة الرومية ومدنها وبلدانها وجزايرها وكل ما هو مختص بها فيها بين طايفتى الفرنساوية والبنادقة فاقاليم البتينيه وتراكيا وتصالونيكية وكل البلاد اليونانية القديمة بحدودها وجزاير الارشيبالاغوس الكبار جداً ولّفت القسم الذى اختص بالفرنساوية كما ان القسم الذي اختص بالمشيخة البندقية قد احتوى على بلاد سبوراداس وكيلاراس وجزاير البحر الادرياتيكى واراضى بروبونديا ولهيسبونطوس وجزاير كيانياس ومدن كيسيداس وديديموتيك وادريانوبولى وشقة تصالونيكية البحرية فالاقاليم اليونانية حينيذٍ شوهدت مقسومة تحت ولايات الشرفا اسياد ارغوس وكورينثا وتيبارس ودوكات اتينا وامراء خايًيا واما الاراضى التى في عبر البسفورو من الجهة الثانية فتصورت سلطنة خصوصية مع جزيرة كنديا واُعطيت الى امير مونتفرات كما ان الكونته ده بلواز قد تملك اقاليم اسيا الصغري واتخذ تسمية دوكا نيقية او دوكا البتينية واما الجهات الاخر نظير بلاد ميداس و برتاس والاقاليم التى استولتها قبلاً الاسلام فقد توزعت كذلك على

الاشراف الاخرين وعلى هذه الصورة استمرت القسطنطينية في مدة ايام القسمة بمنزلة سوق متجر عظيم بها كانت اقاليم المشرق والابحار والجزاير وسكان المملكة موضوعاً مشاعاً للاقتسام والامتلاك والاختصاص كبضايع متجرية فلم تكن قدمية المدن واذاعة صيتها الموضوع الواقع عليه التامل والملاحظة فى هذه المعركة (يقول المورخ نيكيطا برجز انسان محتد) بل ان الموضوع المهم هو المحلات التى تقدر ان تورد مداخيل غنية لاوليايها واخيراً هولاء البربر كانوا يتخاصمون على اقتسامها كانها غنيمة دموية وقعت تحت ايديهم ✿

ثم ان الكاهن توما موروسيني البندقي قد اقيم بطريركاً على الكرسي القسطنطيني ونال فيها بعد التثبيت بهذه الوظيفة من الحبر الروماني كما ان الاكليروس الفرنساوي والبندقي اخذوا التملك على كنايس القسطنطينية وكذلك اساقفة وكهنة أُرسلوا الى المدن الاخر التى دخلت فى قسمة الامرا ثم ان الملك بودوين بعد تتويجه بايام كتب الى البابا مخبراً اياه كيف ان القدرة الضابطة الكل قد توجت جهاد جيوش الصليب بالغلبة مقرراً باعترافه فى ان يدوم اميناً نحو نايب المسيح على الارض ومخصصاً ذاته بصفة جندي السدة البطرسية كما ان امير مونتفرات الرئيس المتقدم فى اشراف الصليبيين ارسل من قبله قاصداً الى رومية مقدماً بواسطة حفظ خضوعه للكرسى الرسولى واخيراً انريكوس الدوجه راس المشيخة البندقية قد ترك جانباً شدة الامور الحربية وارسل يستمد من البابا اينوشانسيوس رضوانه عنه ✿

فامرٌ مبهجٌ ان تشاهد هولاء الامرا الموعبون رجزاً فى الحروب المستولون على مملكة بجملتها يحنون اعناقهم بكل اتضاع امام خليفة القديس بطرس الرسول نايب المسيح منكسين روسهم المكللة بالتيجان لديه وملتمسين منه على نوعٍ ما الغفران عن

ذنب انتصارهم المجيد غير ان مشهداً اعظم من ذلك يوضع الان امام اعيننا وهو ما يلاحظ هذا الحبر الروماني العجيب على ان الجيوش الصليبية الموازين نصف العالم المسيحي الذين تبعاً لارادة البابا المذكور وسلطانه قد اهملوا بلادهم وسافروا بقوة الاسلحه نحو المشرق فحينما توسلوا اليه لم ينعطف بعذوبةٍ نحو الكنايس التي هم ملكوا اراضيها فهو من دون ان يظهر ادنى علامة لمسرته بذلك او اقل الفاظ بمديحهم قد رفض ان يشارك اعمال انتصارهم لان هذا الحبر وبخ تصرفهم الذي بهِ فسروا غلطاً شرايع العدل وتناسوا تخليص قبر المسيح اذ ان قلب البابا المذكور التهب بنار محبة الاستقامة المقدسة وقد وضع اعمال الديانة والعدل في المرتبة الاولى فوق الاشيا الاخر مهما كانت عظيمة من حيث ان مجد الله وشرف مقام الكنيسة وخلاص الانفس قد كانت دايماً الغاية الوحيدة والمحرك الاوحد لاعماله كلها ❊

فالان نحن نعطي ملاحظةً عن حال هذه المملكة الجديدة الموسسة من بعض اسياد فرنساوية ومن بعض تجار بندقية في غلطات الجيل الثالث عشر فاي نعم ان اخبار امتلاك القسطنطينية قد بلغت الى بلاد المغرب والاكثرون هناك فرحوا بذلك ولكن هذا الفرح قد كان اعظم من كلهم عند اوليك المحاميين عن المسيحيين الذين في سوريه لانهم اذ قد ارادوا ان يشتركوا بسعادة المتلكين بلاد الروم وبمجد انتصارهم ومن ثم شوهدت القسطنطينية حاوية ضمنها عدد عظيم من سكان سوريه الذين اسرعوا اليها من هناك كما ان اعضاء جمعية الهيكليين ورهبان القديس يوحنا المعمدان الخيالة المحاميين عن الاراضي المقدسة اهملوها وجاءوا الى المدينة المذكورة وهكذا سلطان اورشليم المتروك من جماعته بقي كانه وحده في بلاد فلسطين ❊

فمعسكر مولف من نحو عشرين الف محارب قد وجد كافياً لان يقتصر على اسوار سيدة البوسفورو المتملكة ولكن هذا العسكر الذي يوماً ما في الظفر الذي هم نالوه قد وضعوا ايديهم على اقاليم واسعة كثيرة العدد اهل انهم كانوا يستطيعون ان يمتلكوها ويحفظوها تحت ولايتهم ازمنةً مديدة ام انه بالضرورة كانت مزمعة ان تنتشي حروب جديدة خصوصية ضدهم مثل هذه فعساكرها الروم المدججون وقتيئذٍ باسلحتهم التي لم يكونوا فقدوها كانوا يفتشون على ان يحفظوا تحت ولايتهم مستمرةً مدينة ما او اقليماً ما او سلطنةً ما فاذاً من كل جهات المملكة كان الروم ينتهضون من بين دثار بلادهم ويتهددون الصليبيين المتولين جديداً بخرابهم وهكذا اخبار الخوف شملتهم من كل جانبٍ وهوذا ابنٌ صغيرٌ لاندرونيكوس وهو مخاييل الملاك من عيلة كومنينوس الملوكية قد جاء الى الاسيا الصغري ليوطد لذاته امريةً فيها تحت تسمية امرية ترابيزونضا مريداً انهاض تحت سلطنة ابيرا وايضاً لاون سفورا كان يجمع تحت شرايعه شعوب ارغوليدا واهالي كورينثا في الوقت الذي فيهِ اذ كان تاودوروس لاسكاريس في حين هربه من وطنه الملتهب وقتيئذٍ بنيران الحريق قد جمع عساكره المتبددة وسار بها الى اقليم البثينية وبعد عدة معركات قد عُرف ونودي بهِ سلطاناً على نيقية وكذلك الملكان اليكسيوس اخو اسحق ومورزوفلا اللذان كانا يتخاصمان هكذا على ابادة الصليبيين ولكن العناية الالهية ما سمحت بانهما يستطيعان ان يجمعا فضلات اقتدارهما السابق ولانهما عدوان قتالان احدهما ضد الاخر فما كانا يتقاربان الا تحت غاية ان يغدر كلٌ منهما بالاخر وعندما اليكسيوس نفّذ حيلة في مورزوفلا قد مسكه وقلع عينيه وحينيئذٍ ارفاق هذا التعيس اهملوه فوقع بايدي الصليبيين

الذين اخذوه الى القسطنطينية وجندلوه رمياً من فوق عمود تاودوروس الى الارض فمات واما اليكسيوس اخو الملك اسحق قد خامرت عليه خدامه واخوانه فهرب تايهاً ازمنةً طويلةً فى بلاد مختلفة من اوروبا والاسيا والمورخون ما تنازلوا الى ان يفحصوا عن كيفية نهايته التعيسة ويعرفونا عن احواله الاخيرة الملايمة للاعمال الاثيمة منه ☆

واما الامرا الفرنساويون فقد تفرقوا من القسطنطينية فى اراضى المملكة الرومية مجاهدين لكى ياخذوا التملك على المدن والاقاليم التى تخصصوا بها ولكنهم عوضاً عن ان يصادفوا شعوباً مكسورين طايعين فغالباً كانوا يجدونهم اعداء محاربين اياهم وبالتالى ان الاراضى المخصبة التى انتصارهم على القسطنطينية اعطاهم الولاية عليها لم يقدروا ان يملكوها الا بقوة سيوفهم بحروب خصوصية ثم فى تلك الايام التابعة لقد حدث انقسام مر فيها بين الملك بودوين وبين امير موفتفرات الذي اضحى سلطاناً على اقليم تصالونيكية وهذا الانقسام اتصل بينهما الى اشهار الحرب مع كونهما اخص الموسسين لهذه المملكة الجديدة (فيقول فيلاهردوين) انه فى هذه الظروف لولا ان الله يتراءف على الصليبيين لكانوا حصلوا فى ضرر ان يفقدوا ما كانوا اكتسبوه ولكان المسيحيون فى المشرق وجدوا فى خطر ان يبادوا ☆

فنحن هاهنا لا نتبع كل واحد من الاشراف بسياق اخبار ما فعلوه فى الاراضى التى كلٌ منهما تخصص بها مكافاةً لاعماله الحربية بل نقول ان هذه المملكة الجديدة غب ولادتها بقوة الانتصار طفلةً فقبل ان تشب منتشيةً بالثبات ابتدات ان تميل الى السقوط على ان الامرا الذين امتلكوا القسطنطينية من حيث انهم وثقوا زيادةً عن الحدود بقوة سيوفهم فلم يتصرفوا

بعد ذلك الا بشدة الجبر والقهر بالاسلحة عينها واذ كانوا على هذه الصورة سقطوا عند الشعوب المقهورين منهم سقوط البغضة والاحتقار كما ان الصليبيين كذلك استهانوا كثيراً بطايفة الروم وازلوهم فلم يريدوا يستخدموا احداً منهم في جملة عساكرهم ثم اهملوا ان يتحدوا بصلحٍ ما مع الامرا القريبين منهم فاذاً الروم المظلومون ببعض انواعٍ من المنتصرين عليهم قد تيقظوا من غفلتهم يوماً ما وصادفوا الشجاعة التي كان يبان انهم حيناً ما اضاعوها كما ان الشعوب اقاليم البولغار عندما راءوا ذواتهم مخذولين من اللاتينيين قد اتحدوا بارتباط شديد مع اعدايهم وهكذا على اول علامة أعطيت لهم بالحرب ضد الافرنج اهالي اقاليم تراكيا كلهم تمردوا ناهضين بالعصاوة عليهم ادريانوبولي وديديموتيك ومدن اخر كثيرة نشروا بيارق التعصب ضدهم الامر الذي صير اللاتينيين ان يتناولوا الاسلحة في كل ناحية ولكن جهاداتهم كلها ما استطاعت ان تبعد عن معسكرهم الحوادث التعبة حتى ان الملك بودوين عينه اذ استخدم شجاعته خارجاً عن حدود الفطنة قد وقع اسيراً في ايدي البولغاريين في ١٥ نيسان سنة ١٢٠٥ فحينئذٍ كثيرون من الاشراف الصليبيين لقطع رجاهم من مقدرتهم على حفظ البلاد التي في ايديهم وعلى توطيد هذه المملكة تحت ولايتهم قد اهملوها نازلين في مراكب البنادقة ورجعوا الى المغرب ومن حيث ان الروم والبولغاريين تقدموا دايماً الى ما قدام ناجحين على اللاتينيين فهولاء اضحوا موعبين خوفاً من انهم يوجدون محاصرين ضمن القسطنطينية نفسها ومن ثم اسرعوا بارسال معتمدين من قبلهم الى فرانسا وايطاليا وفلاندرا يستمدون من سكانها الاغاثة بالمعونة عاجلاً الامر الذى صير الغربيين في كل جهةٍ يندبون سرعة انغلاب اللاتينيين

والشعوب تقاطروا اجواقاً الى الكنايس متوسلين بحرارةٍ لدي الله في ان يتراف على سكان المدينة سيدة المشرق الحاصلة فى تلك الحال المكربة وفيما بين هذه الاخطار المنتشية يومياً خلواً من كفاف كان مجهولاً ماذا جري بالملك بودوين القليل الحظ فلما طلب من سلطان البولغاريين ان يطلق من الاسر السلطان المذكور قد اجاب بان بودوين لم يعد تحت استطاعة البشر لانه مات ولذلك انريكوس ده هالينولت قد أُنتخب خليفةً لهُ ملكاً على القسطنطينية وريثاً لشقيقه بودوين المسكين وذلك فى ٢٠ اب سنة ١٢٠٦ ☆

ثم نحو هذا الزمان الدوجه انريكوس راس المشيخة البندقية قد انهى مسير ايامه مايتاً ملاحظاً بتوجعٍ النصيب المحزن العتيد ان يلم بالمملكة الجديدة التى هو كان اخص الذين انشوها كما ان اكثر روسا اللاتينيين قد بادوا في معركات الحروب المتواصلة والامير بونيفاسيوس هو نفسه جرح فمات في الحرب التى مارسها ضد شعوب رودوبا وسلطنته فى اقاليم تصالونيكيا بعد ان كانت فازت تحت ولايته باشراقٍ ما من السعادة قد اضاعت بهاها بعده من قبل الانقسامات التى انتشت فيها بين ارفاقه وبعد ذلك قد بادت تماماً من ايدي الصليبيين من قبل الاختلافات او بالاحري من شدة حروب الغربا ضدها واخيراً فى سنة ١٢٦١ فى زمان بودوين الثانى الذي هو الملك الخامس على القسطنطينية فى نهاية السنة السابعة والخمسين من تملك الغربيين هناك قد زالت بالتمام مملكة المشرق الرومية من ايدي الفرنساويين وما عادت رجعت تحت ولايتهم اصلاً حتى الان ☆

فهكذا اضمحل من الوجود هذا الاكتساب المجيد والتولى السعيد علي القسطنطينية تحت أيدى خلفا ضعفا للملك بودوين

الاولى واخبار هذا الاضمحلال تجعل قاريها ان ينتقل من انذهال الى اخر وتصيره متواترا ان يحزن مكتايبا بتامله اياها نظرا الى اعمال الصليبيين فى الحرب التى بها توجهوا الى القسطنطينية من مدينة زارا ولين لم تكن تصادف قبولا واثباتا لدى خلوص استقامة للبابا اينوشانسيوس الثالث فمع ذلك لا يمنع النظر عن ان يلاحظ فيها نوعا من الفخرة والعظم وبعضا من انواع الغيرة المسيحية نفسها التى حركت هولاء الجيوش الشجعات الى ذلك على ان اتحاد الكنيسة اليونانية مع الكنيسة الرومانية قد كان دايما موضوع اشواق الاشراف الفرنساويين وهذا كان هو المقصود الاول والاخص الذي اعتمدوا على ان يكون ثمرة انتصارهم اهل لا يعتبر ممكنا ان يقال ان انتصارهم العجيب على القسطنطينية قد كان بمنزلة قصاص عادل من قبل الله عاقب به تعالى خيانة ملوك الروم وخباثاتهم المستديمة وفساد سيرة شعوبهم وسفكهم الدما ظلما بتعديهم على ملوكهم بالعزل والحبس واحيانا بقتلهم اياهم ثم ان استيلا اللاتينيين على المدينة المتملئة المذكورة قد افني على نوع ما مدة جيل سنين باهتمامات كلية في امور الحرب الكثيرة الانواع ولكن من حيث ان هولاء الجيوش فى اعمالهم هذه العظيمة ما صنعوا شيا نحو خلاص اورشليم من العبودية فالعناية الالهية التى استخدمتهم هم انفسهم الة للانتقام من ملوك الروم ومن طايفتهم الرومية قد ارادت فيما بعد ان تنكسر عصا التاديب هذه التى بعدله الالهى ضربت اوليك وان تنتقل يدها فوق هامة هولاء الغالبين اعينهم قصاصا عن عدم امانتهم فى حفظ اقسامهم التى ابرزوها على خلاص الاراضى المقدسة وعن محبتهم المجد الباطل واحتشاد الغنى اللذين من اجلهما احادوا طريقهم عن الذهاب الى بلاد فلسطين فاذا

الاشراف الفرنساويون ما اكتسبوا من هذه المرسلة الا المجد فى انهم مدة سبع وخمسين سنة اجلسوا من ابناء طايفتهم ملوكاً خمسةً على التخت القيصري القسطنطيني وسلاطين مختلفين على اقاليم اليونانية وساير مملكة الروم واما البندقية المشيخة المتعطشة لاحتشاد الاموال واتساع الباع فى المتاجر فهى وحدها قد فازت مدة مستطيلةً من السنين بالتمتع باثمارٍ من هذه المرسلة ذات الظفر اذ مدت قوتها ومتاجرها الغنية فى المشرق كل تلك المدة خلواً من مانع ۞

الفصل العاشر

حربٌ صليبية سادسة

فى الصليبيين الفتيان وفيما يلاحظ يوحنا ده بريانا وفى شان سلطان اورشليم ثم فيما يخص المجمع العام الذى صنعه البابا اينوشانسيوس الثالث فى رومية وعن سلطان هونكريا اندراوس الثانى وفى حصار قلعة جبل ثابور ثم فى ارسال الجيوش الى البر المصرى وفى حصار مدينة دمياط وفى مسير الصليبيين نحو مدينة مصر ثم فى اعاقتهم ضمن المنصورة وذلك جميعه حدث من سنة ١٢١٥ الى سنة ١٢١٩

انه غب التامل فى حوادث الخمس حروب الصليبية السابقة التى مشاهدها تقدمت لدينا من التاريخ لحد ههنا لا ريب فى انه يسال استفهاماً كيف ان الحرارة التقوية تستمر مداومة نحو الحرب المقدسة وتثمر حرباً سادساً ايضاً بعد صعوبات عديدة وخساير كثيرة وتعاسات وافرة بل كيف لا يخمد اتقاد

هذه النار المنعشة الهوس والمغايرة فى المسيحيين بالاشواق المتواترة فيهم الى الذهاب لاجل القتال فى اراضي بعيدة عن اوطانهم عقيب ما حدث للذين قبلهم اجتازوا هذه الطرقات اخوتهم وقبلهم ابايهم اهالي اوروبا فبالحقيقة ان ثباتاً هذه صفته مقابل اسباب كافية للاهمال ولابادة الشجاعة يوجب الانذهال ويخجل اهالي اجيالنا ذات روح عدم الاعبا بشي ولكن هذا الثبات الراهن المستديم العديم التزعزع اما هو برهان عملي فاقد الانغلاب على ان روحاً باطناً فايق الطبيعة مهيجساً به من الله فى تحريك قلوب المومنين الى هذه الحروب التى من اجلها اجدادنا اتشحوا. بعلامة الصليب المقدس على صدورهم فالايمان المسيحي وروح الديانة الصبور الشهم السخي الجاري نحو غايته منتصراً على الموانع كلها ما كف قط من ان يكون المحرك الرياسي الاخص لشجاعتهم فهو هو نفسه الذي قواهم بالجسارة الرجولية هكذا وحفظهم ثابتين فيما بين معركاتهم الحربية الكافية الدموية واما ان كان الصليبيون لم يحققوا بالعمل جميع الاعاجيب التى كان يبان مومّلاً نوالها غب نجاحاتهم الاولى فيلزم منا ان ننسب هذا التاخير لعلل التواني التى مرات كثيرة عطلت اهتمامهم واعمالهم المذهلة ثم للالام البشرية التى لما خلطت فيهم الاميال الارضية الدنية مع الالهامات الالهية الواردة اليهم فقد وقفت فى حوادث عديدة جري انتصاراتهم ☆

ففى الجيل الثالث عشر قد كان الايمان حياً بهذا المقدار حتى ان مجرد ذكر الحرب الصليبية كان يجعل القلوب ان تخفق فرحاً بها ويحرك طوايف بجملتها الى المسير فيها فهذا الجيل الذي صير ان تزهر فيه رجالاً عظما وولد اموراً معتبرة ففيه استبان ان الحرارة المتقدة نحو تخليص قبر المسيح من ايدي

الامم ونحو اخضاع بلاد المشرق امام الصليب قد امتدت الى قلوب سكان المغرب اجمعين ولم يمت منهم هذا الشوق الحار الا بموت القديس لويس سلطان فرانسا فهذه الحروب المقدسة قد مارست فى قلوبهم قوةً جاذبةً تعسفاً مقدارها هكذا شديد حتى انه ولا واحد من المسيحيين الاتقيا ولا واحد من الاشراف الشجعان امكنه ان يعرف واسطةً بها يريح ضميره بازاحتها من لبه او يعلم كيف يخمدها عنه خاصةً سكان مملكة النمسا الذين لم يكونوا الى حد ذاك الوقت الاولين دايماً فى ان يسيروا قبل الجميع الى الحرب المقدسة ذات الخساير الشريفة على القلوب فقد اتقدوا بنارٍ اكلة واستوعبوا شهامة الابطال التى تنفضح لنا من تاملنا فحوى القصايد المشهرة من شعرا ذاك الحين فاحدهم قبل ذهابه برفقتهم الى الاراضى المقدسة قد كتب قايلاً اننا نعلم كيف ان هذه الاماكن المقدسة حاصلة فى التعاسة وكيف هى مهملة بالانفراد عن المسعفين فاورشليم تبكى نايحةً وتندب ذاتها متوجعةً اواه كيف انا اتركك يا مدينة الله ان الحيوة تجوز والموت يصادفنا خطاة وانما نُكتَسب النعمة بواسطة احتمال الخساير والاضرار والمحن فلنذهبنَّ اذاً الى الحرب فى سهول السيح ولنمضينَّ لكى نكسر السلاسل عن بلاده وانتِ يا سلطانة النساء باسرهنَّ اجعلينا ان نشاهد اسعافكِ ومعونتكِ لنا فابنكِ مات هناك مقتولاً هناك اراد ان يعتمد من يوحنا مع انه النقاوة بالذات لكى يطهرنا نحن الادناس هناك اهمل ذاته ان يباع لكى يستفكنا من العبودية وقد صير ذاته فقيراً هو الغنى والمغنى لاجل خيرنا واخيراً هناك هو احتمل موت العار المولم لاجلنا : فالسلام عليك ايها الصليب . السلام عليكِ ايتها الحربة . السلام عليك ايها الاكليل الشوك . والويل

لكم ايها الغير المومنين ، لان الله يريد ان ينتصر ضد اهانته منكم بواسطة ايدي عبيده السعدا ☆

ثم انه نحو الزمان المومى اليه نفسه عواطف مثل هذه قد جذبت الشاعر الملوكي الذي في نافار تيبولت ده شامبانيا الى انه بصورة شعر لطيف يخاطب نبلاه هكذا اعلموا جيداً ايها السادات ان من لم يذهب الى تلك الارض مقر السعادة التي فيها الاله مات بالجسد وهو دايماً حيّ بل يتاخر عن حمل الصليب مستصعباً الاجتياز في البحور بهذا الزيّ فبالكد ينجو من الخطا ويمكنه الدخول الى السما فكل انسان يرغب ان يكون تقياً ويتامل في ان لهُ رباً علياً يلزمه ان يتجند في معسكره للفوز بنصرةٍ جهبزية ويحارب لاجل تخليص بلاده من رق العبودية فنحن ان كنا نمضي الى هناك كملاحين ساهرين فانما نكون من خلان الله الفالحين لان الذين يحبون الله وشهامة انفسهم يسيرون اليه تعالى في سبيله من اجله بانفسهم فعميانٌ هم اوليك الذين في حياتهم لا يسعفون ما هو لله بشي من الاعانة ويخسرون مجد شرفهم لاجل قليل من خيرات الارض ذات النتانة فالاله الذى حباً بخلاصنا ترك ذاته بالجسد ان يُعلق على الصليب سيقول لنا في اليوم الذى كلنا فيه سنحضر امام منبره الرهيب انتم الذين حملتم صليبي وساعدتم في اتمام مشيتي الالهية اذهبوا الى السعادة المتمتعة بها الصفوف الملايكية حيث تشاهدون مجد شريفة الاصول امي الشريفة الجليلة مريم البتول وبالخلاف انتم الذين انا ما حصلت منكم على خدمةٍ اصلاً اهبطوا الى الجحيم في العذاب موبداً فيا ايتها السلطانات المتوجات والسيدات مع الامرا صلوا من اجلنا وانتِ ياملكتهم مريم الطوباوية بتضرعاتكِ حامي عنا وبهذا تبتعد عنا الاخطار

ولا ينالنا شي من الاضرار ☆

فعلى هذه الصورة كانت تاهبات قلوب المومنين حينما البابا اينوشانسيوس الثالث اشهر فى العالم المسيحى رسايلة ذات المناداة بحرب صليبية جديدة على ان هذا الحبر الاعظم قد كان مملواً من الغم والحزن قبلاً عند مشاهدته ذهاب اجتهاداته وشدة عنايته فى تخليص الاراضى المقدسة خلواً من ثمرةٍ من حيث ان الجيوش الصليبية التى كان جمعها بغيرته واهتمامه معسكراً قوياً جداً قد باينوا مقاصده ودثروا فى اكتساب مملكة الروم غير انه فى تلك الحال الوعبة من الموانع فى ظروفها العسرة هو لم يهلع راجعاً الى الوراء عن عزايمه المقدسة لا سيما عند تامله الشدايد والاحزان والمخاطر الملمة باهل المشرق الذين لم يكفّوا عن التماسات الغوث والمعونة عاجلاً ثم انه بعد وفات سلطان اورشليم اموري وزوجته ايضاً بَل فسلطان فرانسا فيلبس افغوسطوس عندما وصلت اليه قصادٌ من قبل الاشراف الباقيين فى بلاد فلسطين قد عيّن سنة ١٢٠٩ يوحنا بريانا سلطاناً على اورشليم خليفةً لموسس هذا التخت غودافروا الامير الذي من ارضى البابا المذكور فمدحه وبارك صولجان هذا السلطان الجديد فلما سافر هو من فرانسا وبلغ بلاد فلسطين قد امتلات سكان سورية من الفرح والابتهاج وهناك تم احتفال تتويجه بعيدٍ ملوكي وبعد ايام قليلة اضيف الى ذلك فرح زواجه بالأَميرة مريم الابنة الكبري للسلطانة ايضاً بَل متوفية ولكن خلواً من تاخير شاهد ذاته يوحنا متهدداً من الاسلام فى ابادة بلاده كلها ملتزماً بالمحاماة عنها ولكنه فى مجيه من فرانسا الى اراضى فلسطين ما كان احضر صحبته من العساكر سوي ثلثماية خيال فمن ثم فى حال ضيقته هذه الشديدة لم يجد لذاته تدبيراً

اخر ملايماً الا في انه اسرع بارسال معتمدين من قبله الى سلطان فرانسا المشار اليه والى الحبر الروماني والى ساير سلاطين المغرب مستحلفاً اياهم ان يعجلوا باغاثته وبانقاذ سلطنته الكاينة في حال خطر كلي على ملاشاتها التامة غير ان الانقسامات والاضطرابات الحادثة في ذاك الحين ضد الكنيسة المقدسة عينها في المغرب والحروب القايمة في شان الايمان ضمن البلاد الشمالية بنوع مهيل مدثر وراء حدود بلاد فرانسا قد صيرت المومنين ان يحولوا النظر عن مسيحيي بلاد المشرق لاسيما لان الاسلام كانوا دخلوا مملكة اصبانيا ويوماً فيوماً كانوا يتقدمون في امتلاك البلاد ودثار مقاويهم ولذلك البابا نادي بحربٍ مقدسة ضد هولاء الاسلام السودان معونةً لاهالي اصبانيا محرضاً اشراف المسيحيين على تناول الاسلحة لكي يردوا هولاء البربر الى افريقية محلهم الحار ومع كل ذلك هذا الحبر الاعظم الملو غيرةً لم يكن فيها بين همومه واتعابه واجتهاده في تدبير احوال المغرب متغافلاً عن امتداد نظره دايماً نحو الاراضي المقدسة مفتكراً في ايجاد الوسايط التي كان يمكنه ان يسعفها بها ولهذا قد نادى هو بالتيام مجمع عام في رومية قاصداً بهِ تجديد حرارة المومنين نحو معونة الاراضي المذكورة ✿

فنحو سنة ١٢١٢ في بعض اقاليم من ممالك المغرب قد وُجدت سكانها شهوداً عيانيين على حادثٍ لقد كان عديم ان يصدق لولا تكون حقيقته موكدة جداً من مورخين كثيرين معاصرين وهو ان عدة الوفٍ من المسيحيين الفتيان والاحداث جداً في السن من بلاد فرانسا والنمسا وايطاليا قد اهملوا بيوت والديهم مجتمعين لكي يذهبوا الى المشرق محاربين تحت سنجق الصليب فاجتهادات اهاليهم في منعهم عن ذلك حتى بالاغتصاب قد

ذهب سدى لانهم كانوا يكسرون الابواب والشبابيك المغلوقة عليهم كمحبوسين بل يهدمون السياجات والجدران المعيقة اياهم ويهربون ملتيمين معاً لاجل السفر سايرين اجواقاً في المدن والقرى والحقول في ذهابهم نحو الاراضي المقدسة وحينما الناس كانوا يسالونهم عن غاية سفرهم فالجواب منهم للجميع واحد بقولهم نحن ذاهبون الى اورشليم نحن مغازون من اجل تخليص الاراضي المقدسة فهولاء الاحداث المولف منهم معسكر صليبى عديد كانوا يجتازون البلاد وراء سنجق الصليب المحمول امامهم قايلين ان الرب يعطينا الاراضي المقدسة كما كان اعطاها لبنى اسرائيل بعد ان خرجوا من مصر (فيقول المورخ ريشار) ان اهالى بعض المدن التى هولاء الفتيان مرّوا عليها قد كانوا يقتبلونهم باسم الرب كانهم يتامى وقصر (كما هم كذلك) وكانوا يعطونهم ذخاير القوت ويسرحونهم وكان المومنون عند مشاهدتهم اياهم مسافرين بهذه الصورة يصرخون قايلين ان هذا هو فعل الله الذي الهم الفتيان الى سفرٍ مثل الحاضر لكى يخجل بهم يسوع المسيح كبريا المقتدرين والحكما على الارض مظهراً لهم كيف انهُ تعالى سلّم دعوى مختصة بهِ لايدي احداثٍ ذوى قاماتٍ غضة فالبابا عندما بلغه خبر هذا الحادث الغريب الفريد ما استطاع ان يمسك ذاته عن هطل الدموع من عينيه فهتف متنهداً ان هولاء الفتيان صيرونا عند ذواتنا مخجولين ففيما نحن نايمون هم سافروا بفرحٍ لاجل تخليص الاراضي المقدسة فالصليبيون الاحداث بعد ان اجتازوا الجبال الالبية واقاليم لومبارديا ونزلوا الى ايطاليا قد تقسموا في المدن البحرية مومّلين ان يجدوا فيها مراكب تقودهم الى بلاد فلسطين ولكن اذ نزل منهم جانب وافر في عدة مراكب وساروا قد داهمتهم عواصف بحرية فغرقت المراكب

غير بعيد عن الشطوط فماتوا (وفيها بعد البابا غريغوريوس التاسع صير ان تشيد كنيسة عند الشط الذي فيه البحر قذف اجسادهم وسماها كنيسة الفتيان الابرار الجدد بعد فتيان بيت لحم وفيها حفظ اعضاهم كذخاير شهدا مقدسة) واما الباقون من الصليبيين الاحداث فبعضهم تورطوا في الاراضي المقفرة فبادوا من التعب والحر والجوع وغيرهم سقطوا اسارى في ايدى البربر فأخذوا الى افريقية وابيعوا كعبيد ارقا للخدمة والاعمال الشاقة وغيرها وجانب منهم الذين اكبر سناً واوفر فطنةً قد تفرقوا في البلاد القريبة وشرعوا يخدمون في فلاحة الاراضي والاعمال المدنية واخيراً البعض منهم رجعوا الى اوطانهم قايلين انهم ما عرفوا لماذا سافروا وكيف رجعوا فهذا كان منتهى الحادث المذكور الذي دون في التواريخ ونحن حتى الان نجهل من هو الذى نادي بهذه الحركة الغير اعتيادية ❊

فالمجمع العام التيم في رومية وفيه اخذ التدابير الملايمة التي بها آب المومنين العام جال بنظره الرعائي نحو احتياجات المغرب والمشرق وابذل اجتهاده الذى لا مزيد عليه في ان يجمع من كل الجهات جنوداً صليبيين يقاومون امتداد الاسلام الى كل جهة فروساوه وقصاده والواعظون باسمه قد امتدوا الى كل الممالك والبلاد المسيحية باتصال التحريضات الفعالة على حمل الاسلحة والاندراج في الحرب المقدسة والى حد فيتري على حد نهر رين بطرس كورصون والمنذرون في اقاليم فرنسا قد أملاوا المدن والبنادر والقرى من اصوات مواعظهم وسلطان فرانسا فيلبس اغوسطوس قد اوهب الجزء الاربعين من مداخيل مملكته وارزاقه اسعافاً لمصاريف هذا الحرب واتباعاً لنموذجه كل الامرا والنبلا وروسا الاكليروس مارسوا اجتهاداتهم الفعالة في البلوغ

الى تجهيز العساكر الصليبية الجديدة ثم ان يوحنا سلطان الانكليز
اذ انصاغ الى تحريضات ريس اساقفة كانطورباري قد اتخذ صليب
هذه الحرب جملةً مع عدد وافر من اشراف مملكته في الوقت
الذي فيه فريداريكوس الثاني ملك النمسا قد تردي بثوب
الزوار الصليبيين مومّلاً ان يرضى بذلك مشية الحبر الروماني
وينال منه مساعدةً ضد خصمه اوطونه ده ساسونيا ☆

فالمجمع العام الذى التيم فى رومية فى كنيسة القديس
يوحنا اللاترانية بترأس البابا عليه فى شهر تشرين الاول سنة ١٢١٥
حيث اجتمع فيه ما ينيف عن خمس مايه شخص من
الاسافقة والروسا الكنايسيين قد شوهدت فيما بينهم قصاد من
انطاكية والاسكندرية مع البطريركين القسطنطيني والاورشليمي
اللاتينيين ووكلا الملك فريداريكوس والسلطان فيلبس وسلطاني
الانكليز وهونكريا وهناك الحبر الروماني اينوشانسيوس الثالث
نفسه باقواله الباباوية ندب بفصاحةٍ شريفة وغيرة ديانية اضاليل
ذاك العصر واضرار الكنايس وصير اورشليم كانها مغطاة بازار الحزن
الاسود حاضرة امام اهل المجمع مورية اياهم سلاسل قيودها
الحديدية تحت رق العبودية مستمدةً منهم باصوات انبيايها
القدما معونة المسيحيين واسعافهم فعدة جلسات من هذا المجمع
تخصصت للاهتمام فى ايجاد الوسايط والطرايق المبلغة الى استنقاذ
الاراضى المقدسة من ايدي الاسلام ومن ثم رُسم بان الكنايسيين
روسا ومروسين يقدمون الجزء العشرين من مداخيلهم كلها فى
اسعاف مصاريف هذه الحرب وبان البابا والكرديناليه يقدمون
العُشر من المداخيل التى لهم وقد صار العهد بين اولياء امور
المغرب ملوكاً وسلاطين وامراء وحكاماً اجمعين برضاءٍ تام على
ابطال الحروب من بلادهم مدة خمسة سنوات كاملة والمسيحيون

الذين كانوا مقسومين بحروب جنسية فى بلادهم ابرزوا الاقسام الرهيبة على انهم ما عادوا اصلاً يستخدمون اسلحتهم الا ضد الغير المومنين ☆

الا ان هذا الحبر الاعظم بعد ان هيي الامور اللازمة لارسال هذه الجيوش الصليبية نحو المشرق تحت الامل الوطيد ببلوغ الغاية لم يتمتع باثمار عنايته فى حياته لانه في شهر تموز سنة ١٢١٦ اذ كان مهتماً فى ايقاع الصلح ما بين البيزاويين والجينواويين قد رقد بالرب مملواً من الفضايل والاعمال السامية والسنين وخلفه البابا اونوريوس الثالث الذي اذ ورث عنه الغيرة المتقدة عينها فحالما جلس فى السدة البطرسية حول نظره نحو سواحل سوريه وكتب الى مسيحي بلاد فلسطين قايلاً لهم ان خبر وفات اينوشانسيوس لا ينبغي ان يضعف شجاعتكم لانى نظيره اوضح بالعمل الغيرة الحارة في تخليص الاراضى المقدسة ومثله اصنع اجتهاداتى كلها فى ان اعينكم وبالحقيقة ان هذا البابا الجديد ارسل من قبله عاجلاً معتمدين الى كل الملوك والسلاطين والاساقفة فى ممالك المغرب محرضاً مناشداً واعظاً اياهم بسرعة اتمام ما قد كان حصل من التدابير والاستعدادات الى الحرب المقدسة ☆

ففيما بين السلاطين والامرا الذين اتخذوا الصلبان لهذه الحرب قد تلالا بالاعتبار اندراوس الثاني سلطان هونكريا الشجاع الشهم السخي الذى حلف لابيه السلطان بيلا الحاصل على فراش الموت بانه هو يتمم نذره الاحتفالى المبرز منه قبلاً على محاربة الاسلام فتحت سنجق هذا السلطان قد التيم النبلا والاشراف من اكثر جهات الاوروبا فاذاً قد اخذ هو بالسفر نحو المشرق مرافقاً من ليوبولدوس دوكا ده اوطريش ومن دوكا بافييرا ومن غيرهما من الامرا اللامعين بالشرف واجتازوا اولاً الى مدينة

سبولاترو وهناك انتظروا المراكب الاتية اليهم من البندقية ومن
ارا وانكونا ولكن جيوش غفيرة قد كانوا قبلاً نزلوا فى المراكب
من مرسيليا وجينوا وبريندلس وسبقوا سلطان هونكريا وعساكره
وهو فيها بعد لحقهم كما ان هوكز الاول سلطان قبرص عندما تحقق
اخبار هذه الجيوش الصليبية من المغرب قد اخذ معه اشراف
دولته وعساكره ونزل من مينا ليمسيون بمراكبه وسافر الى عكة
فسكان بلاد فلسطين المسيحيون اقتبلوا هذه العساكر بافراح فايقة
الوصف لانه بعد ازمنة السلطان صلاح الدين ما شاهد قط جيوشاً
عديدة مثل هذه واردة الى شطوط بحر سوريه ولكن حالما خرجت
هولاء الجيوش المحاربة من المراكب نظروا اراضى بلاد فلسطين
مضروبة بالقحط واهاليها متكبدين بلية الجوع الشديد لان هذه
السنة كانت عقيمة من الغلات فى الوقت الذي فيه محمول
تلك المراكب المتواردة لم يكن سوى آلات حربية قوية كثيرة
واسلحة متوافرة وامتعة العساكر الاتيين فيها الامر الذي اضام
العساكر جداً اذ لم يجدوا ما يقتاتون به ومن ثم اباحوا لذواتهم
الخروج عن الرسوم والخطف والنهب فروسا الجيوش لكى يصدوا
هذا التصرف قد افادوا العساكر الى اراضى الاسلام وقد فازت
موقعاتهم الاولى فى الحرب مع هولاء الاعدا ببعض اثمار مجيدة
لان السلطان مالك ادل الذى اسرع بعساكره من مصر الى
محاربة الصليبيين الجدد قد اضطر مغلوباً منهم الى ان يهرب
امامهم بجيوشه مدبرين ❁

فامرا العساكر المسيحية قد اعتمدوا حينئذٍ ان يسيروا بالعساكر
الى شطوط النيل وان يحاربوا اعداهم الى وسط بلادهم ولكن
من حيث ان اوان الفصل الشتوي كان دنا منهم غير سامحٍ
لهم فيه بان يعانوا اسفاراً شاسعة فقد اتفقوا على انهم لكى

يلايموا مناسبة شدة حرارة الجيوش الطالبة القتال بان يمضوا ويضعوا الحصار ضد القلعة التى كان السلطان صلاح الدين شيدها فوق جبل تابور فهذا الجبل الذايع الصيت فى الناموسين العتيقْ والجديد هو مرتفع جداً نظير سيدٍ على اراضى الجليل فى وسطها فمن فوق احدي جهاته السامية يقدر الناظر بلذةٍ ان يشاهد عن بعدٍ نهر الاردن وبحيرة طبرية وبحر سوريه واكثر الاماكن المكرسة بعجايب مخلصنا الاله المتانس وهنالك فوق هذا الجبل حينما كان فادى العالم تجلى امام اعين رسله كانت متيدة كنيسة جليلة معمرة من الملكة القديسة هيلانه ام قسطنطين الملك كما ان ديرين عظيمين للرهبان والسواح فى اعلى الطور كانا قبلاً قايمين وتلك وهذان مع القبر المقدس سابقاً كانت تجذب الزوار اليها بحسن عبادةٍ جموعاً متقاطرةً ولكن عقيب الانتصارات التى كان فاز بها صلاح الدين قد شوهد سنجق محمد منصوباً فوق هذا الجبل الاقدس (كما يسميه القديس بطرس الرسول) وكنيسة القديسة هيلانه مع الديرين المبنيين على اسمى النبيين موسى وايليا قد هُدمت من الاسلام وفوق رديمها كان صلاح الدين شيد قلعةً حصينةً جداً متهددة البلاد التى فى السهل حولها عن كل نوعٍ من العداوة وصاينة اياها من ارجل الاعدا وبالتالى ان تقدم هولاء الصليبيين نحو جبل ثابور قد كان عسراً مملواً من الموانع المضرة غير ان حرارة شجاعتهم قد فاقت عليها فبطريرك اورشليم قد اسرع الى هذا المعسكر حاملاً جزءً من عود الصليب الكريم الحقيقى الذى يقال انه فى حرب طبارية قد أخذ من خشبة الصليب التى وقتيذٍ استولت عليها الاسلام فلما دنى بهذه الذخيرة المقدسة من الصايبين جميعاً سجدوا لها بحسن عبادةٍ وتضاعفت فيهم الشجاعة وساروا بقلوبٍ رجولية نحو

جبل ثابور الذى تصاعدوا اليه صحبة سلطان اورشليم يوحنا بريانا بدون اعياء من الصخور والحجارة والنبال العظيمة الكثيرة التى كانت الاسلام من فوقه يرشقونهم بها كالبرد وداوموا مسيرهم حتى بلغوا ابواب القلعة المرقومة ولكن بعد انهم مارسوا ضد هذا الحصن المتين انواع حروب قوية جداً اوصلتهم الى قرب امتلاكه بلا ريب فعلى الفور بغتةً قد شملهم خوف شديد افضى بهم الى ترك القلعة والرجوع عنها باضطراب وبلبلة فالتاريخ حفظ الصمت عن السبب الذى من اجله هذه الجيوش رجعوا الى الوراء رجعة كذا غريبة غب دنوهم من الانتصار واحد المورخين القدما عند ايراده خبر هذا الحصار لم يقل عن الادبار المذكور سوي الالفاظ التابعة وهى (اننا نظن ان المسيح ربنا قد حفظ لذاته هو وحده الغلبة على هذا الجبل الذى يوماً ما صعد اليه مع عدد قليل من تلاميذه وهناك اراهم مجد قيامته العتيدة) وانما هذا المورخ (الذى هو اوليفيري المسكولاستيكى) قال كذا لانه لم يمكنه الفحص عن احكام الله الغامضة ☆

فرجوع الصليبيين بهذه الصورة قد اوقع فى قلب المسيحيين جملةً معهم القلق والانزعاج الشديد فبطريرك اورشليم بغضبٍ ابتعد عن المعسكر آخذاً صحبته ذخيرة العود الكريم التى امامها لم تبالى العساكر المسيحية من الحرب وروسا الجيوش حين عودتهم الى مدينة عكة قد تفرقوا ذاهبين الى بلاد فينيكيا مفتشين على اسبابٍ يسترون بها خجلهم من رجعتهم مكسورين ومن حيث انه وقتيذٍ كان على روس العساكر الصليبية فى بلاد فلسطين ثلاثة سلاطين مسيحية محاربين (اى سلطان هونكريا وسلطان قبرص وسلطان اورشليم) ولكن ولا واحد منهم كان حاصلاً على ملو الرياسة العليى لتدبير المعسكر جميعه فكانت الجيوش مقسومة

الى عدة اقسام وكلٌ من ذويهم كانوا يحاربون من ذوي الاقسام الاخر وهكذا جميعاً كانوا يفنون قواهم بدون فايدة ثم فيما بين هذه الحوادث كلها سلطان قبرص انطرح مريضاً فى طرابلس وتوفى هناك سنة ١٢١٨ حينما كان هو فى صدد رجوعه الى ولايته وبالقرب من ذاك الحين سلطان هونكريا اذ أيس من نجاح هذا المعسكر الذى صارت بداية حروبه تعيسة وفكر بان نذره ونذر ابيه قد اوفيا بمجيه الى بلاد فلسطين وبما صنعه مما استطاع عليه قد سافر راجعاً الى بلاده غب اقامته مدة ثلاثة اشهر فى بلاد سوريه مصطحباً معه ذخاير مقدسة مختلفة قد جمعها من بلاد فلسطين الا انه لكى لا يُقال عن تقاوته كلامٌ يشير الى الملامة برجعته هذه قد ترك نصف عساكره تحت ارادة سلطان اورشليم وارجع معه نصف العساكر الاخر الى مقره ❊

ولكن حينما بلاد فلسطين فقدت الاشراف المحامين عنها بما سبق شرحه قد شوهدت جيوش صليبية عظيمة الكثرة متواردين الى مدينة عكة من المغرب مسافرين من مين اولاندا وفرانسا وايطاليا اتين ايضاً من اقاليم فريزا وكولونيا وشطوط نهر الرين وقد كانوا معاقين فى اسفارهم بسبب محاربتهم مع الاسلام السودان فى نواحى البورتوغال واخيراً وصلوا الى عكة وبلوغهم اليها كان قوةً ذات معونة للصليبيين الذين هناك قد جدد شجاعتهم وانعش حرارتهم وعزى قلوبهم ومن ثم التيم ديوان المشورة من الروسا وفيه تم الاعتماد على انه خلواً من ابطاء يصير مسير الجيوش نحو البر المصرى وهكذا المعسكر تحت رياسة سلطان اورشليم مع ليوبولدوس دوكا ده اوطريش وغويليلموم كونته ده اولاندا قد سافروا من عكة فى شهر ايار سنة ١٢١٨ عينها ضمن المراكب وبلغوا الى امام مدينة ضمياط وخرجوا الى البر على الشط الغربى الذى

منه قسم نهر النيل ينتهى الى البحر ✿

فمدينة ضمياط القايمة فى صقعها بعيدة عن البحر المالح مسافة ميل واحد على حد قسم نهر النيل من جهة اليمين قد كانت محصنة بسورٍ مضعف من جهة النهر المذكور وبسورٍ مثلث من ناحية الارض وبابراجٍ عديدة متينة فيما بين هذه الاسوار وكان لها قلعة او برج عظيم جداً ومنه الى المدينة كان منصوب سلسلة من حديد قوية طويلة مانعة المراكب من العبور الى الميناء وكان ضمن المدينة عدد وافر من العساكر مع ذخاير واسعة كافية لحصارٍ مديد فالصليبيون وجهوا قوة حربهم ضد البرج العظيم المذكور الذى على شط النيل واذ حدث حينئذٍ انكساف القمر كاملاً بهِ صار الظلام حالكاً فوق المعسكر فالجيوش المسيحية اتخذوا من ذلك دليل انكساف سنجق الاسلام المصوّر فيه القمر وتضاعفت فيهم الشجاعة وامل الانتصار وفى ذلك الوقت وصلت اليهم المراكب المتاخرة الموسوقة الات حربية قوية وسلالم وجسورة نقّالة وهم استخدموها بانواع كثيرة وجهاد رجولى واستظهروا على الاسلام باعمال حربية عجيبة ولكن هذه كلها فى الاول اضحت غير مفيدة واجود المحاربين الفطاحل بادوا بشدة جسارتهم مختنقين فى المياه وتحت سهام العدو الذي كان يواصل المعونة يومياً من المدينة الى البرج المذكور بواسطة جسر منصوب فيما بينهما وبهذه المعونات كانت احوال البرج بقوة مترادفة تصلح ما يكون الصليبيون اضروه بهِ الا ان هذا الجسر غب ايام كثيرة قد دثر باعمالهم وحينيذٍ هم خارجاً نصبوا برجاً خشبياً فوق مركبين موثوقين بالقيود ووضعوا اخص الجنود الاقويا الشجعان فيه وترأس عليهم الدوكا ده اوطريش كى يمكنهم من ان يعلقوا الحرب ضد برج النيل فلما دخل من البحر الى النيل المركبان

فوقهما هذه القلعة الخشبية العظيمة فالاسلام تقاطروا الى الاسوار موعبين اندهالاً من هذا المشهد الغريب الذى ارجف قلوبهم و بالخلاف العساكر الصليبية من البر شمالى النيل هتفوا باصوات البهجة مسلمين على بلوغ قلعتهم هذه امام البرج على الماء ولكن حالما بلغ المركبات الى حذا السور وارميت مراسيهما وتمكنا فالاسلام من فوق السور مارسوا بنوع مهيل جداً رمى النشاب وحذف الحجارة ورشق الكرات النارية الغريجوارية فوقهما للابادة الامر الذي لما شاهده عن بعدٍ بطريرك اورشليم والاكليروس جثوا على ركبهم امام ذخيرة العود المكريم بروس مكشوفة منكسة الى الارض مقدمين التضرعات الحارة لدي الله من اجل عبيده لان النار حرقت جانب الجسر المنقال الذي نصب من البرج الى السور فسقط ومعه الذين عليه وسنجق الدوكا ليوبولدوس وقع فى ايدي الاسلام الذين ضجوا باصوات الفرح وبالضد الصليبيون فى جهة النيل الثانية انكبوا على وجوههم متضرعين لله بالدموع فى طلب الاغاثة من اجل ارفاقهم الكائنين فى خطر الابادة (فهنا يقول احد المورخين) ان الله استجاب صلوات عبيده مع كهنته لانه على الفور قد خمدت النار من البرج وامكن للجنود ان ينصبوا من جديد الجسر النقال وهكذا عساكر ليوبولدوس ضاعفوا شجاعتهم بحرب قوية ضد الاسلام ثم وثبوا من فوق الجسر الى السور واسلحتهم بايديهم فولت من امامهم الاعدا وهم ادركوهم من كل جانبٍ برمى الحجارة والسهام فوق روسهم وحينيذٍ الاسلام ايسوا فرموا اسلحتهم فى الارض متوسلين لدى غالبيهم بان يعفوا عن حياتهم (فالمورخون يوكدون) بان محاربين سماويين ظهروا وقت المعركة معونةً للمسيحيين لان الاسلام بعد سقوطهم فى الاسر كانوا يطلبون ان يشاهدوا فيما بين العساكر

النصاري اوليك الجنود الذين نظروهم باعينهم حين الحرب لابسين اثواباً بيضاء وبايديهم اسلحة بيضاء وكانوا يقاتلون بشدةٍ وكانهم طايرون فوق اعلى البرج الخشبى فلم يصادفوا منهم احداً بعد نهاية المعركة ومن ثم الصليبيون فهموا جيداً من اقوال الاسلام هذه ان الله بنوع فايق الطبيعة حامى عنهم وبالتالى كانوا يعتبرون هذه الغلبة انها مفعول يمين العلى ✿

فامتلاك المسيحيين البرج بهذه النصرة قد افاض فى قلوبهم تعزية ومسرة فايق وصفهما وكانوا يريدون سرعة مسيرهم بالغلبة ضد مدينة دمياط ولكن قلة وجود المراكب اعاقتهم لان اكثر المراكب التى كانت نقلتهم من عكة الى شط دمياط كانت رجعت مسافرةً نحو بلاد الغرب بالصليبيين الذين عدلوا عن دوام اقامتهم فى بلاد المشرق الا ان خسارة العسكر بابتعاد هولاء الجنود الانذال عنه برجوعهم الى اوطانهم بجنود اخرين اكثر منهم عدداً واقتداراً قد اقبلوا اليه من بلاد النمسا وبيزا وجينوا والبندقية ولنكليترا وفرانسا لان البابا انوريوس الثالث اذ كان ملتهباً بالغيرة لاجل انتصار الصليب فلم يكن يكف عن ملاحقة التحريضات الفعالة لكل الباقين فى المغرب من الذين اتخذوا على ذواتهم علامة الحرب المقدسة فى ان يسافروا سرعةً فاتباعاً لصوته الموقر اذاً من كل الجهات المقدم ذكرها سافرت بحراً هولاء الجيوش الجدد وفيما بينهم تلالاء بالمقام والصيت الكردينال بيلاجيوس الذي اصحب معه الى العسكر خزاين الاموال التى انجمعت من التعيينات السابق رسمها على اهالى المغرب فهذا الكردينال المفوض سلطان النيابة الباباوية على الصليبيين والمتصف باخلاق جليلة وبالشجاعة لما بلغ الى المعسكر فى شط النيل الشمالى مقابل دمياط قد اهتم في تنشيط المحاربين الذين

بمحضورة فيما بينهم جددوا شجاعتهم التى كانت وهت فى جلوسهم تحت مضاربهم ببطالة مكروهة منهم ففى يوم عيد القديس ديونيسيوس اذ كانت العساكر الاسلامية جاءت فى البر بعدد عظيم وعلقوا الحرب ضد النصارى فهذا الكردينال ركب امام الجيوش حاملاً الصليب ومشى بهم ضد هولاء الاعدا فالمعركة فى اليوم المذكور قد كانت مهولة والجنود المسيحية مارست فيها اعمالاً عجيبةً من الفروسية والاكفاح الاسدي (فيقول المورخ) انه بقوة العلى هولاء المقاتلون صودفوا حسب القول النبوى الداودي واحدٌ منهم كان يهرّب امامه الفاً من الاعدا واثنان منهم شرعا يهرّبان ربوةً عشرة الاف وهكذا فى اليوم المذكور هم فازوا بانتصارٍ مجيد ✿

الا انهم مع كل انتصاراتهم قد استمروا على شط النيل الشمالى خلواً من انهم يقدرون ان يحاصروا مدينة دمياط كونهم بالباطل امتحنوا مرات عديدة ان يجتازوا نهر النيل اذ ان الاسلام كانوا دايماً يردونهم الى الوراء كما ان العواصف ايضاً بعض الاحيان رجعتهم عنفاً ومن ثم كانوا يتنفسون الصعدا غماً وحزناً من عدم افادة جهادهم واتعابهم وتضييع زمانهم بالباطل وصاروا يتمرمرون متضمرين بالنميمة ضد النايب الباباوي هاتفين فى المعسكر. اواه ترى ماذا عتيد ان يلم بنا فى هذا القفر ذى الاراضى المرملة افهل انه تنقصنا قبور فى بلادنا نُدفن فيها ✿

فالكردينال عند سماعه هذا التشكى والضجر قد رسم بان يصير صوم ثلثة ايام فيها العساكر يواظبون التضرعات امام الصليب المقدس ملتمسين من الرب ان يرشدهم الى الطريقة التى يمكنهم بها ان يعبروا النيل الى الجهة القبلية ففى بحر هذه الثلاثة ايام حدثت عواصف شديدة ونزلت امطار هكذا غزيرة كطوفانٍ

حتى انه ما عاد يتميز النهر عن الاراضي التي اضحت معه
ومع البحر المالح كانها بحر واحد كما ان قوة الريح العنيف مزقت
الخيام وبددتها والعسكر جميعه صار عايماً في المياه ثم ان بعض
المراكب التي كانت بمشقات مرّة عمروها قدفها الريح الي
جهة الاسلام الذين حرقوها بفرحٍ عظيم فالصليبيون في هذه
الحال المحزنة اوعبوا الفضاء من ضجيجهم وتنهداتهم كمويسين
فالكردينال فيما بين هذه النكبات القاسية عج الى الله باسطاً
يديه بالتضرع مكشوف الراس صارخاً يارب انت الذي اجبت
بطرس حين كانت السفينة مغمرة بعاصف الماء قايلاً له يا قليل
الايمان لما شككت تراف الان على شعبك وكما صنعت تلك
المرة آمر الرياح بالهدو والبحر بالسكون (فيقول المورخون) انه حالاً
تبددت الغيوم واشرقت الشمس وضحى الجوّ وهداء الريح وانسحبت
المياه عن الاراضي الى البحر والنهر ولكن بعد ذلك دامت
اجتهادات العساكر في اجتياز النيل عديمة الفايدة كالسابق لان جيوش
الاسلام في شقة الشط الاخري كانت ممتدة بقوة كلية مانعة هذا
الاجتياز الذى استبان محتاجاً الى قوة الهيئة باعجوبة فايقة
الطبيعة فالمورخون ههنا يقررون عن ظهور القديس جاورجيوس
الشهيد مع مصافٍ سماوي بملابس بيضاء واسلحة مشرقة فوق
معسكر الاسلام في بحر ثلاثة ايام وهولاء الاسلام سمعوا صوتاً خفياً
مجهولاً يهتف نحوهم باتصالٍ „اهربوا ان كنتم لا تريدوا ان تموتوا"
ثم يوم عيد القديسة اغاتي "سمع صوت" في طول مدي النيل
هناك حتى ان الصليبيين الموجودين في المراكب خارج فم
النيل سمعوه يقول هوذا الاسلام هاربون . وبالحقيقة ان هولاء
الاعدا قد اهملوا مضاربهم وكل مالهم وهربوا مدبرين باضطرابٍ
كمطرودين امام غالبيهم واما المورخون العرب فيوردون سبب

ادبار الاسلام بالهرب على نوعٍ اخر وهو انه تعصباً ذا تمردٍ قد تحزبت بهِ امراء الاسلام ضد السلطان مالك كامل الذي كان في المعسكر. فلما هو عرف انه في اليوم المقبل كان المتمردون مزمعين ان يخرجوا من دمياط ويهجموا عليه قد هرب حالاً ليلاً تاركاً خيامه بما اهمله فيها. فهربه على هذه الصورة اوقع الخوف والاضطراب فيما بين عساكره الذين بقيوا بلا رئيس فهم ايضاً هربوا الى الاماكن القريبة منهم فكيفما كان الامر ان الصليبيين بعد هرب اعدايهم قد عبروا النهر خلواً من مانعٍ الى البر القبلي وهكذا حاصروا مدينة دمياط من جهتي البر والبحر ☆

ثم ان المورخين يوردون انه في ذاك الوقت والحين تبعاً لاوامر المسلط كورادين قد هدمت اسوار اورشليم وحصونها هدماً كلياً غير ان الاسلام وقتيذٍ قد اعلنوا حكمهم بان قبر المسيح لا يهدم بالصورة المذكورة اصلاً بل يبقى كما كان (لانه كما يقول المورخ اوليفير) لم يكن احد من الاسلام يتجاسر على ان يمد يده الى هدم هذا القبر المجيد لو كان الامر بالخلاف من حيث ان الاسلام يقرون معتبرين بان يسوع المسيح نبي عظيم ☆

فالصليبيون بعد وضعهم الحصار ضد مدينة دمياط براً وبحراً فالاسلام انفدوا رسلاً الي ابناء مذهبهم في بلاد سوريه طالبين معونتهم ولما تواردت اليهم العساكر سيراً في بحر النيل فالجيوش الذين كانوا هربوا من الشط القبلي تشجعوا فرجعوا الى نواحي دمياط بجسارة وافرة والسلطان مالك كامل عندما تحقق الخطر المبين على سقوط دمياط في ايدي النصاري وتقوي بالمعونات المذكورة قد جدد عزايمه وعاد الى هناك مترأساً على العساكر الاسلامية فالصليبيون وقتيذٍ وُجدوا مضطرين الي ان يحاربوا الاعدا المحاصرين في المدينة والاعدا المعسكرين ضدهم خارجاً

في البر من ناحيتي النيل بعددٍ كلي قد غطى الاراضي مثل الجراد بقوة عظيمة ☆

فنحن هاهنا لا نتخذ تحرير الشرح التفصيلي عن جميع الاعمال الحربية التي تمارست في الحصار المذكور الذايع الصيت في التاريخ بل انما نورد اخص الحوادث الصادرة من عساكر هذه الحرب الصليبية السادسة (فنقول نقلاً عن المورخين المعاصرين) انه في يوم احد الشعانين من حيث ان الاسلام عارفون ان النصارى في اليوم المذكور يحتفلون بتكريم دخول المسيح الى اورشليم قد هلقوا ضد معسكر الصليبيين حرباً شديداً في صباح هذا اليوم منذ الفجر حتى المساء ودخول الليل ولكن يسوع المسيح (المهان من الاسلام بهذه الصورة) قد ساعد شعبه بمعونةٍ كذا حتى انهم ثبتوا امام اعدايهم غالبين وقتلوا منهم ما ينيف عن خمسة الاف واخذوا منهم ثلاثين سفينة. ففي اليوم المذكور (يواصل المورخون اقوالهم) الجيوش المسيحية ما حملوا بايديهم اغصاناً اخر سوى السيوف والقسي الرامية النبال والحراب والرماح فهكذا هم احتفلوا بعيد الشعانين ومن مات منهم في هذا اليوم المقدس مُثّل امامه تعالى حاملاً غصن الانتصار الحقيقي كفحوى المزمور الداودي القايل ان الصديق كالنخلة يزهر وكمثل الارز في لبنان ينمو ☆

ثم ان الصليبيين يوم خميس الصعود قد صنعوا مع الاسلام امام اسوار دمياط معركةً مهولةً لان اعداهم هجموا عليهم لحد متاريسهم ولم يكن خلاصهم في هذه الموقعة بمعونة الله الّا بواسطة رجولية للخيالة الهيكليين والتيطونيكيين وبعد ذلك في مولد القديس يوحنا المعمدان قد سيّر الكردينال بيلاجيوس جميع الملاحين الذين في مراكبهم ان يحملوا الاسلحة مع ساير

الجيوش بالذروخة والزرديات والخوذ وشجعهم كافةً علي حملةٍ قوية ضد المدينة ففى اشراق النهار علقوا السلالم على الاسوار وشددوا الحرب بشجاعةٍ فريدة طول ذاك اليوم الا ان الاسلام من داخل قد جاهدوا بمصادمةٍ غير مغلوبة لاسيما برشق النيران الفريجاوازية التى حرقت السلالم وغيرها الامر الذي احزن العساكر المسيحية وكثيرون منهم غرقوا وجناتهم بالدموع بكاءً وقبلوا الارض متضرعين لله كافةً بقولهم ايها السيد يسوع المسيح انت الذى خلصت الثلثة فتيان حنانيا وعازاريا وميصائيل من اتون النار المضطرم وانقذت يونان من بطن الحوت خلص عبيدك وخدامك من كل الشرور والاضرار الاتية عليهم من الغير المومنين لكيلا ينتصر هولاء الامم الغريبة ولا يقولوا فى قلوبهم اين هو الاه المسيحيين . فبعد تقدمتهم هذه الصلوات نهضوا مجددين العزايم واتقاد حرارة الغيرة وشددوا الحرب ضد المدينة من ناحية نهر النيل غير ان السلطان مالك وثب على معسكرهم بجنود عديدة جداً من ناحية الارض لحد متاريسهم وعلّق ضدهم معركة شديدة وتقدم عليهم بقوة كاسرة الامر الذى افقد منهم فى هذه الحرابة اناساً كثيرين واوقع فيها بينهم الاضطراب والرعدة فغُلبوا اما سلطان اورشليم فقد اباح كل قوته فى جمع المتبددين منهم الا ان صراخه وعنايته ذهبت بالباطل وهو نفسه بصعوبةٍ كلية امكنه ان ينفد من النار المقدم ذكرها فقد كان سبق حدوث حرب اليوم المرقوم فيها بين الصليبيين تنافر قلوب ومغايرة وانقسام (ولذلك المورخ الشاهد العيانى) قال عن هذه الكسرة التعيسة بروح السداجة ان انغلابنا امام اعدائنا فى المعركة المذكورة قد ورد علينا من قبل خطايانا ولكن هذا القصاص هو بعيد عن ان يوازى جرم الاهانة الاعظم منه ✽

فقد مر فصل الربيع وبعده جاز فصل الصيف والصليبيون لم يزالوا امام المدينة بحروب وموقعات مترادفة تارةً ياخذون بها الغلبة على الاسلام بدون نهاية وتارةً يغلبون منهم بغير نجاز وكل مرةٍ الاسلام داخل المدينة يتضايقون من شدة الحرب ضدهم يسرعون الى ايقاد النار فى البرج العالى المسمى مورجيتا علامةً لطلب المعونة من عساكر البر والسلطان عند مشاهدته ذاك اللهيب يثب من الارض على متاريسات الصليبيين الذين هكذا يلتزمون بالرجوع عن المدينة ليصادموه ولكن العساكر الصليبية كانوا ينالون المعونة من الجنود المتواردين اليهم باتصال من جهة البحر وقد شاعت الاخبار بان ملك النمسا عن قرب موافٍ اليهم الامر الذي بمقدار ما اسر قلوبهم فباكثر من ذلك ارعب قلوب اعداهم فاذاً من حيث ان الاسلام تصوروا فى عقولهم الخايفة انه غير مستطاع لديهم ان يقاوموا بالحرب قوة اعظم ملوك الاوروبا الاتى ولاحظوا ان ذخاير القوت فنية من دمياط وهم وسكانها شعروا بداهية الجوع ثم ان القحط وانفساد الهوا داخلاً من جثث موتاهم سبّب امراضاً قتّالة لكثيرين منهم وقد تزايد قطع رجاء اهل المدينة عند مشاهدتهم انسداد ابوابها بنوع انهم ولو ناهزوا الموت غير ممكن لهم الخروج منها ✿

(كقول المورخ) انه اذا اتفق لاحد منهم ان يهرب نافذاً من محلٍ ما من حيطانها الى خارج فكان يُشاهد من الجوع والضناء كانه خيالٍ اتٍ من سلطنة الموت فحينيذٍ سلطان مصر على اسما الامرا اشخاص عيلته قدم لروسا الجيوش المسيحية الصالحة ليكفّوا عن حصار دمياط تحت شروط انه يرد اليهم مدينة اورشليم مع مقاطعتها ويسلمهم جميع الاسرا المسيحيين الموجودين فى مصر وفى دمشق الشام موعداً بان يعمر لهم على

معروفة اسوار القدس المهدومة ولم يحفظ لذاته الا مدينتى الكرك ومنتريال وعوضاً عنهما يعطيهم جزية معينة فسلطان اورشليم مع الامرا الفرنساوية والنمساوية والانكليز انفق رايهم على ان يقبلوا هذه الشروط ويعدلوا عن دمياط الا ان الكردينال بيلاجيوس مع اكثر الروسا الكنايسيين وامرا ايطاليا لم يلاحظوا فى هذه المواعيد الواسعة سوي ظاهر غير باطن ومخباثة من العدو احتال بها ان يكسب الزمان ويوفر فقدان دمياط من يده وقد استبان لهم امراً مزهلاً مخجلاً ان يرفعوا الحصار عن مدينةٍ لبثوا امام اسوارها سنة وخمسة اشهر مضايقين سكانها الذين ما عاد يمكنهم ان يداوموا امام قوتهم بل عجزوا عن ان يحموا ذاتهم فبعد ان استمر الجدال بين الفريقين عدة ايام قد تغلب الراى الثاني وصار عليه المعول والاعتماد بعدم الانفكاك عن المدينة ومن ثم تجدد الحرب . والصليبيين ضاعفوا قوة الحصار جداً لاجل سرعة امتلاكهم دمياط ☆

فمعركات حديثة صارت فى البر ضد الاعدا الذين قتلاهم اضحت مغطية وجه الارض (وكقول احد المورخين) ان موتى الاسلام اضحت مطروحا فى الحقول نظير شمايل القمح المحصودة من ارض مخصبة متكاة فى الحقل قبل نقلها الى البيدر) واما الجوع الشديد داخل المدينة فكان يميت من سكانها التعسا اكثر من المقتولين فى الحرب واما الاوفر ثروةً بالمال من جميعهم فقد امكنهم يستطيعوا ان يحفظوا حياتهم بواسطة الخبز والبطيخ والجبس واللحم المملح الاشيا التى كانت ترسل اليهم اما ضمن زقاق معبوة مخيطة ملقاة فى نهر النيل عن بعدٍ وهم من داخل الاسوار يصطادونها او ملفوفة بسباني جملةً مع اجساد موتى مطروحة فى النيل لاجل اخفا حقيقتها ولكن اجتهادات

الصليبيين قد قطعت اخيراً قطعاً مطلقاً كل اتصالٍ بين المحاصرين وبين الاسلام الذين من خارج بنوع انه ما عاد يعرف اصلاً لا عند سلطان مصر ولا عند الصليبيين ماذا كان حادثاً داخل الاسوار اذ انه حسب تقرير احد المورخين العرب انه ضمن المدينة حينيذٍ تملك الموت والصمت لا سواهما وصارت كانها مدفن مغلق واخيراً الشيوخ والاحداث اذ لم يعد ممكناً لهم الثبات على الشدة ولا على القتال ضد شجاعة الصليبيون فقد نبشوا شعور روسهم وصرخوا هاتفين اواه يا محمد لما انت اهملتنا ✿

فعقيب ذلك جميعه فى اليوم الخامس من شهر تشرين الثانى سنة ١٢١٩ ليلة عيد القديس لاوناردوس غب ثمانية عشر شهراً من بداية الحصار قد شاهدت الجيوش المسيحية ذواتهم متوجين بالظفر بسقوط مدينة دمياط تحت ولايتهم اذ دخلوا فى الصباح بسيوف مجردة بايديهم ولكن يا لهُ من مشهدٍ مكروه فى الغاية ظهر امام اعينهم لان سكان هذه المدينة الكبيرة الذين قبل بمدة وجيزة من الزمن كانوا سبعين الفاً من الاهالى فحين دخول الصليبيين اليها ما صودفوا الا بعض الوف قليلة بصور صفرة فيما بين قبور فايقة الاحصا (فيقول المورخ اوليفير) ان رايحةً منتنة غير محتملة ومنظراً لا تطيق الاعين ان تشاهده قد ازعجَ الجيوش المسيحية فالموتى اضحوا قتالين الاحيا لانه ليس فقط الساحات المشاعة شوهدت مملوة من اجساد الاموات بل الدور والبيوت والسراير ايضاً صودفت معبوة من الجثث لان البنين فى اثر ابايهم والعبيد بعد اسيادهم كانوا يموتون ضعفاً وجوعاً فالاطفال كانوا يطلبون الخبز خلواً من يجدوا من يعطيهم اياه والرضعان على صدور امهاتهم المنازعات يبكون مايتين والاغنيا فيما بين خزاين اموالهم يموتون جوعاً ✿

غير اننا نحول نظرنا الان على ملاحظة هذا المشهد المحزن المكرب نحو الصليبيين الذين فى يوم انتصارهم هذا عينه مارسوا تقدمة الشكر لله ففى دمياط كان للاسلام جامعٌ مشيد في اعلى العمارات العامة والخاصة المعتبرة معقود على ماية وخمسين عاموداً من مرمر صلب مقسوماً الى ستة صفوف وعمار متين فحالاً هذا الجامع قد تكرس كنيسةً على اسم مريم والدة الاله والجيوش المسيحية قد دخلوا اليهِ مقدمين جزية الشكر لرب الجنود الذى منّ عليهم بالغلبة وفى اليوم المقبل غب اخذهم التملك على المدينة بما فيها قد اتفقوا جميعاً اكايروساً وامرا واشرافاً على اعطايها ملكاً لسلطان اورشليم يوحنا ده بريانا كما تم ❊

فهذا الانتصار الذايع الصيت كان يبان انهُ اعطى سهولةً وافرة لامتداد الصليبيين الى البلاد الاخر والى الاتجاه نحو مدينة مصر نفسها لاجل الاستيلا على هذه المملكة الواسعة المخصبة الغنية فبعد ذلك ببعض ايام قلعة تهانى المشيدة فى وسط البحيرة المساة مانظالا بعيدة عن دمياط مسافة يوم واحد قد هربت منها العساكر الاسلام محافظوها والجيوش المسيحية تسلمتها من غير حرب ومن حيث ان السعادة تلالت على وجوههم والرعب ملك قلوب اعدايهم فاينما كانت تسمع رنّة اسلحتهم كانت الاسلام قبل بلوغهم يتهاربون من امامهم ومن كون نهر النيل وقتيذٍ رجع الى مجراه الاعتيادي نازلاً عن الزيادة فالاراضى وجدت ناشفة من الغرق وما عاد ولا مانع يصد الصليبيين عن الذهاب ضد مدينة مصر غير ان الانقسام بالاختلافات التى انتشت فيما بين روسايهم واضعفت شجاعتهم وفرقت وحدة قوتهم فهذه قد عطلتهم عن ان يفوزوا بالغلبات التى كانت تظهر ساهلةً امامهم على ان سلطان اورشليم اذ لم يعد يحتمل

سمو ولاية الكردينال بيلاجيوس الذى كان يامر وينهى فى المعسكر بصورة ريس وحيد اعلى فقد اهمل هو الجيوش ورجع الى مدينة عكة بارفاقه فاي نعم ان العساكر التى جاءت حينيذٍ من فرانسا والنمسا وايطاليا وصحبتهم الاموال الغنية التى ارسلها الحبر الاعظم الى المعسكر قد املآت قلب الكردينال المذكور زيادة الامل فى انه يمشي بالعساكر الى مصر وينهى نجاز هذه البلاد تحت ولاية المسيحيين ولكن الامرا والاشراف رفضوا ان يتبعوه فارسل معتمدين الى سلطان اورشليم مستحلفاً اياه بان يعود الى المعسكر ويشترك باعمال العساكر فى اخذ البلاد ولكن من حيث ان الصليبيين قد لبثوا عدة اشهر منتظرين مجى هذا السلطان خلواً من اعمال حربية فالعدو فى هذا الزمن امكنه ان يجمع عساكر عديدة من كل الجهات ويستعد الى الحرب استعداداً مستوفياً من اللازم وهكذا السلطان مالك قد نصب مضارب معسكره خارجاً عن مصر مسافة خمسة واربعين ميلاً وهناك كانت تتوارد الى سلجقه العساكر من كل بلاد الاسلام ومن حيث انه سيج المعسكر بحايط مستدير بمنزلة سور فاقام لذاته فى وسطهِ قصراً وحمامين واروقة واسواق وبالتالى قد اضحى مدينة واسعة واتخذت اسماً خصوصياً لها : وهو المنصورة : (كما بقيت ليومنا هذا بالاسم المذكور) وبهذا اللقب توجد هى مذكورة منا فى تتابع التاريخ الحاضر *

فلما رجع سلطان اورشليم الى معسكر الصليبيين انعقد ديوان المشورة بخصوص الاعمال الواجبة مباشرتها فبعد مفاوضات ومجادلات احتدادية قد صار الاعتماد على راي الكردينال بيلاجيوس الذي كان يريد ان يصير مشى الجنود خلواً من ابطاء ضد مدينة مصر فالعساكر اخذت المسير من جهة شط النيل الشمالى فى الوقت الذي فيه مراكب عديدة رافقتهم في النيل موسوقة زخاير واسعة

للقوت والات حرب قوية مختلفة الانواع فلما وصلوا الى المحل الذي فيه مفتسم النهر الى الخليج المدعو اسكاموس قد شاهدوا خيام عساكر الاسلام منصوبة فى جهة شط النيل اليمنى فى الاراضى وضمن المنصورة فعدد الجيوش المسيحية (اذا صدّقنا ما يقوله احد المورخين العرب) قد كان ماية الف مقاتل مشاة وعشرين الف خيال فرجاوهم واثق بالغلبة قد ضربوا خيامهم حول الخليج واقاموا متاريس وحصّنوا معسكرهم استعداداً للحرب ولكن من حيث ان الخوف والقلق غمّر قلوب سكان الاقاليم المصرية الاسلام كلهم ومراسيل السلطان مالك تواترت اليهم بالطلب الحثيث فكل من استطاع منهم حمل الاسلحة اقبل الى معسكر المنصورة (فيقول المورخ العربى المقريزي) ان الجزع والحزن عند الاسلام بلغا حدهما والشعوب كافةً تدججوا بالاسلحة ولم يعد باقياً فى المدن الا الشيوخ والاولاد والنسا ومدت يومين فى القاهرة أُهملت الابواب مغلوقةً تكاسلاً ولم يعد يوجد فيها شى للمبيع والمشترى لان الاعمال كلها توقفت عن مجراها وصمتٌ ذو اكمداد تملك فى الطرقات اذ ان هذا الحين هو زمان الحزن والبكاء لانه زمنٌ قط ما حدث لهُ شبيه فنهر النيل كان وقتيذٍ اوان زيادته المفرحة ولكن ما كان احدٌ يلتفت الى التفكر به كما انه لم يهتم احد فى ان يتامل ان كانت تلك السنة مخصبة او ممحلة لان البحث والافتكارات كلها كانت متجهة نحو المصيبة ام الدواهى الحاضرة ☆

غير انه مهما صارت حينيذٍ جيوش السلطان مالك عديدةً جداً مخيفة المشهد فمع ذلك انواع عديدة ايضاً من الخشية والرعب كانت مستولية على روحهُ وعلى اوهام معسكره ومن ثم كان يريد ان يوفر عن ذاته وعن معسكره معركةً تحت

خطر مبين واضرار جسيمة ولذلك ارسل الى الصليبيين معتمدين يقررون لهم رغبته بعمل الصلح تحت الشروط عينها التى كان قبلاً قدمها لهم عدة امرار موعداً اياهم بان يرد لهم مدينة اورشليم مع جميع المدن والبلاد التى كان امتلكها السلطان صلاح الدين فى اقليم فلسطين وبان يدفع لهم ثلثماية الف ريال من ذهب لكى يعمروا بها من جديد اسوار المدينة المقدسة المذكورة ان كان يرجعون الى ولايته مدينة دمياط فهنا ايضاً يوحنا سلطان اورشليم والاشراف ما رفضوا ان يقبلوا صلحاً مثل هذا مفيداً الا ان الكردينال بيلاجيوس المتنفخ بروح الصلف دايماً والمتراس على ديوان المشورة بالامر والنهى قد كان يظن ان الاوان الذى فيه تتلاشا الديانة المحمدية من الوجود قد دني ولهذا قد رفض كل نوع من المصالحة معهم ولم يكن يفكر سوي في ان يجعل البلاد المصرية كافةً خاضعةً تحت ولاية جنود الصليب ففيما كان ديوان المشورة المذكور يصرف اياماً فى الجدال الى الاعتماد الاخير قد كان معسكر السلطان مالك تتزايد جداً عدداً واقتداراً ومن حيث ان هذه الجيوش الاسلامية كانت تقتبل نموها من الاتيين اليها من المنصورة فيوميا كان يتناقص منهم الهلع ويكتسبون رجوع الشجاعة الى قلوبهم رويداً رويداً وبالخلاف زخاير القوت نقصت فى معسكر الصليبيين ومراكب المصريين انزلت واعتدلت فى زيادة النيل فتواردت واجتمعت امام بارامونت تحت المنصورة بمسافة اثنى عشر ميلاً ما بينها وبين دمياط بنوع انها قطعت الاتصال فيما بين معسكر المسيحيين وبين دمياط فلما شاهد الصليبيون ذواتهم تحت الخطر الكلى خاصةً من قبل فروغ زخاير القوت اعتمدوا على الرجوع نحو دمياط وصنعوه باضطراب وانزعاج غير انهم ما قدروا ان يجوزوا الي ما قدام

من حيث انه بامر السلطان كانت فُتحت مداخل النيل الى الترَع التى في الجهة الشرقية فى طريق مجالهم فطافت المياه وغمّرت الاراضى ومن الجهة الاخري الاسلام سلكّوا سبيل الخليج الاسكاموني وادركوا اعداهم النصاري الذين راوا ذواتهم محاطين من المياه ومن الاعدا وداخل معسكرهم سيف الجوع ابتدي ان يفنى حياتهم فحينيئذٍ مدينة دمياط التى لم يرتضوا قبل ذلك ببعض ايام بان يردوها للسلطان مالك وياخذوا عوضها سلطنة اورشليم فهم انفسهم فى هذه الضيقة قدموها له لكي يفسّح لهم فى حفظ حياتهم من الموت فامرا الاسلام استمروا بعض ايام يتداولون فى هل يقبلون هذا الصلح ام لا فالبعض منهم ارتاوا بان تصير موقعة الحرب بشدةٍ لانها كافية لاخذ معسكر النصاري جميعه غنيمةً وسبياً ولكن سلطان مصر الاشد فطنةً منهم قد خاطبهم بلسان اخر انني واياكم ههنا لسنا مالكين فى حوزتنا الصليبيين كلهم فلنفرض اننا اخذنا او ابدنا هولاء العساكر التى امامنا اجمعين فليس لاجل ذلك نكون استرجعنا دمياط الموجودة الان فى ايدى العساكر الاخر حافظينها ثم ان جيوشاً اخر تاتى من المغرب ونحن وقتيئذٍ نكون فى خطرٍ اعظم اما تفتكرون بان هذه الحرب يمكن ان تدوم مدة ثلاثة سنوات اخر وشعوبنا يبادون فاذ قال هذا فالامرا كلهم سلموا الى رايه ✿

(فاذاً كما قرر المورخ اوليفير) انه في اليوم الثالث من شهر ايلول قد تمهدت الصعوبات جميعها ونحن مددنا ايدينا الى سلطان الاسلام والى امرايهم الذين من سوريا مستمدين منهم الخبز والحرية في خروجنا من اراضى مصر ولم يكن الزمنا الى هذا الذّل المرّ لا سيف الاعدا ولا الرجوع الذى مارسناه ولكن غريق المياه والجوع بنقص الذخاير فعهد الصلح قد تم على

ترجيع دمياط الى ولاية سلطان مصر وحصل الاتفاق على منع الحروب بين الجهتين مدة ثمان سنوات والمحابيس الاسرا من الفريقين اطلقوا بالتمام وفيها بين الماسورين من الاسلام قد كان ابن السلطان نفسه واولاد المتقدمين فى الامرا وبين الاسرا المسيحيين قد كان النايب البابلوى وسلطان اورشليم والدوكا ده بافيرا لانهم كانوا وقعوا فى ايدي الاسلام ☆

فهذه كانت نهاية مرسلةٍ هكذا عظيمة مستظهرة عند الناس اجمعين انها كافية للاستيلا في ممالك الإسلام المصرية السيورياوية جميعها وبالتالى ان اعمال هولاء الصايبيين المتلالية بالرجولية والبطش واحتمالهم ما تكبدوه من النكال والخساير الباهظة رجالاً واموالاً قد صودفت عقيمة من ثمرةٍ ما ثم ان المسيحيين القاطنين عند شطوط النيل قد اقتطفوا لذواتهم غلاتٍ مُرّةً كالموت لانهم اضحوا كذبيحةٍ لانتصار الاسلام ذوي القساوة البربرية فاكثرهم فقدوا املاكهم الذاتية وحريتهم الانسانية وبعضهم خسروا حياتهم عينها وما عدا ذلك قد هدمت الاسلام كنايس النصاري فى كل الاقاليم المصرية التى قبل بايام قليلة كانت مشهداً شريفاً مضيفاً الى بهايها وخصبها جمال الانتصار المسيحى فقد صارت بعد ذلك مشهد الدثار والبوار لسكانها ابناء الكنيسة وساير المسيحيين الاخرين فلو ان الصليبيين كانوا اقتبلوا تقدمة السلطان مالك فى حينها لكانوا فازوا بامتلاك اورشليم والقبر الخلاصى فالتاريخ يشكوا من صلابة راي الكردينال بيلاجيوس العديم الانثناء كانه صار علةً فعالةً لدثار هذه المرسلة الحربية ولكن انقسامات الصليبيين وخصوماتهم الحدة ورذايل كثيرين منهم الامور التى قبلاً كانت متكاثرة فى مضاربهم فهذه ما نقص وجودها من عندهم فى الحرب المذكورة ايضاً ولم تكن لهم اقل ضرراً من

راي الكردينال نفسه الذي هو تصلب فيه الى المنتهى التعيس ✿

❋ الفصل الحادى عشر ❋

في الجيوش الصليبية المختصة بالملك فريداريكوس الثانى وحرم هذا الملك ثم فى استخلاص اورشليم لولاية المسيحيين وفى صليبيين اخرين خاصة الامير تيبولت كونته ده شامبانيا ثم فى الغزوات الحاصلة فى الاراضى المقدسة من العساكر الكاريزميانيين وذلك من سنة ١٢٢٠ الى سنة ١٢٤٥

ان الجيوش الصليبية العديدة العظيمة التى اعمالها ذهبت سدي اذ لم يحصل المسيحيون القاطنون فى المشرق علي فايدة ما لذواتهم من مجيها من المغرب لاسعافهم فقد ورثت نهايتها المقدم شرحها لهم زيادة الغم والقهقرة على ان يوحنا سلطان اورشليم بعد ان نجا من الاسر ورجع الى مدينة عكة شاهد شعبه هناك حاصلين فى الخوف وضعف القلب وفقد الشجاعة ومن حيث ان هذه الحرب الاخيرة افنت ما كان عنده من المال والوسايط الزمنية فلم يعد يوجد لديه ما به يمكنه ان يحمى البلدان الباقية تحت ولايته فمن ثم هذا السلطان القليل الحظ قد اجتاز البحور الى المغرب ملتمساً من سلاطين المسيحيين مرةً اخري الاسعاف والمعونة لذاته ولشعبه ✿

فالبابا انوريوس الثالث قد اقتبل هذا السلطان باكرام سام وتفخيم وسيم وتبعاً لنموذجه سلاطين المغرب استقبلوه بسمات الشرف وبنوع من حسن الديانة بحسب صفة كونه حارساً قبر المسيح والاراضى المقدسة واينما كان يذهب فى اسفاره كان

الفضاء يرنّ من دق النواقيس المنذرة بقدومه والشعوب مع الروسا والولاة يلاقونه ويرافقونه بزياحات وبواعيث في المدن والبنادر مقرظين بالمدايح فرحين بمشاهدته اذ هو وريث التخت الموسس من الدايم الذكر غودافروا ولكنهم كانوا يكتيبون بالحزن عند تفكرهم بالمصايب الملمة بهذه السلطنة المسكينة ومن جهة اخرى الحوادث الاخيرة وعدم الفايدة من كل الاهتمامات التي تمارست في الحرب المنتهية قد بردت حرارة المومنين في المغرب نحو الحروب الصليبية *

فاحد ملوك الاوروبا الاقويا قد كان قبلاً اتخذ صليب الحرب المقدسة ولم يذهب اليها وهو الملك فريداريكوس الثاني قيصر النمسا الذي كان ارسل من اشراف مملكته كثيرين الى الاراضي المقدسة مع عساكر وافرة (كما لاحظنا في هذا التاريخ في محله) ولكنه شخصياً هو توخر عن السفر الى الشرق فهذا الملك عند وفاة ابيه كان حدثاً جداً في السن وكان هو الوريث الوحيد الباقي من عيلة هوهازطوفان الملوكية وقد تُرك تحت وصاية البابا اينوشانسيوس الثالث الذي اتخذ عليه عناية ابوية بعواطف خصوصية فاتمم درسه وتربيته بمناظرة هذا الحبر الذي اهتم في حفظ املاكه وميراثه بكل غيرة فنحن عن قرب مزمعون ان نلاحظ الاحبار الرومانيين متحاربين مع هذا الملك الناكر جميل السدة البطرسية عليه لانه قد انفق كل الدراية الصادرة عن جودة العقل وكل الاقتدار البشري لكي يتجدد انتصار التراتيب المادية على الايمان والعدل ولكن نظراً الى الحرب المقدسة قد كانت اعين اهالي المغرب منتظرة حركته وكان يبان انهم متوقعون اقتفا نموذجه لكي يسافروا جديداً الى جهة المشرق فالبابا ما تغافل بقة عن ملاحقته وتحريضه على سرعة السفر ثم لكي يقيده

بلوفر فعلية نحو خير هذا العمل قد اهتم فى انه ازوجه بابنة سلطان اورشليم يولاندا وريثة ابيها وقد كمل احتفال هذه الزيجة فى مدينة رومية نفسها بفخرة ملوكية عظيمة وهو اي فريداريكوس فى هذا الحادث جدد ابراز القسم بان ينطلق ليحارب الاسلام وقد اظهر اهتمامات شديدة وغيرة متقدة فى هذا الشان حتى ان الجميع اعتبروه سنداً فعالاً وركناً وطيداً لهذه الحرب الصليبية كما ان المسيحيين الذين فى اراضى فلسطين قد وضعوا فيه رجاهم الاخير بشرياً وسكان شطوط الاردن وبحر النيل كانوا ينتظرون قدومه كما كان وقتاً ينتظر مجى المسيح مخلص العالم ☆

فالمناداة بهذه الحرب الصليبية قد كان الواعظون اكملوها فى الممالك المسيحية جميعها فبلاد فرانسا ولين كانت حينيذٍ ممزقة بحروب الالبيكجاويين وبالمعركات الشديدة الممارسة من سلطانها لويس الثامن ضد انريكوس الثالث فمع ذلك سكانها ما رفضوا يفوا ما يخصهم بالاموال وبارسال المحاربين من طايفتهم واهالى ايطاليا الذين في ذاك الحين كانوا منشغفين فى حركات تكوين الحرية فلم يتاخروا عن تجهيذ عساكر عديدة لهذه الحرب لاجل تخليص القبر الخلاصى كما ان بلاد المانيا والانكليز اخرجت من سكانها عدداً وافراً من العساكر وارسلتها لهذه الغاية والدوكا ده بافيرا مع الدوكا ده اوطريش اذ كتبا ذاتهما تحت سنجق الصليب فعدد جزيل من الاشراف خواصهما قد تبعوهما مع العساكر المختصة بهم وكان تعيّن اجتماع العساكر كلها فى مدينة بريندس البحرية حيث كانت فى ميناها حاضرة عمارة مراكب عديدة لكى تقود الجيوش نحو المشرق ☆

ففيها بين امرا مملكة النمسا الكثيرين الذين هم سلاطين فى اقاليمهم وقد اخذوا صلبان الحرب المقدسة وساروا فيها فقد تلالأ

الشاب لويس لاندغرافا ده طورينغا الحكيم الفضيل في الامرا المحبوب من عروسته القديسة اليصابات محبة شديدة (الذي منذ زمن قريب احد الكتبة البارعين اشهر سيرة حياته البارة الخشوعية) فهذا لتفاضل محبة يسوع المسيح في قلبه على محبة عروسته التقية الامينة قد سافر من قلعته وتخته فارتبورك آخذاً صحبته خواص اشراف ولايته واشجع خيالتها وما عدا رعاياه الخصوصية قد جذب وراه عدداً عظيماً من خيالة سوابا وفرانكونيا ومن شطوط نهر الرين فاجتاز بهم جميعاً الجبال الالبية فعبروا اقاليم لومبارديا وتوسكانا ومضوا فاتحدوا مع عساكر الملك فريداريكوس في ابوليا فهذا الملك اذ وافق اخيراً ترادف تحريضات الحبر الروماني اياه على السفر قد اعلن امره بالمسير وجاز بالمعسكر العظيم في الوقت الذي فيه تمارست تقدمة الصلوات والتضرعات من المومنين بلجاجة واتمام مقاصده الصالحة وقد تواردت اقتداءً بنموذجه صليبيون من جميع ممالك اوروبا الى بريندَاس لكي يسافروا من هناك بحراً نحو المشرق فالسلطان في الامرا لاندغرافا قد اجتمع بالملك فريداريكوس في مدينة ترويا في اواخر شهر آب سنة ١٢٢٧ وكانت امرا النمسا الاخرون جمعوا في المدينة المذكورة معسكراً قوياً جداً مولفاً من نحو ستين الف مقاتل تحت بيرق الصليب ☆

ولكن هولاء العساكر قد فتروا عن حرارتهم الاولى من قبيل المشقات التي تكبدوها وبنوع اخص من جري الامراض الردية التي اعترت الكثيرين منهم وكانوا يومياً يشاهدون رجالهم الابطال محصودين بمنجل الموت من هذه الامراض حتى ان الملك المذكور عينه ظهر غير ثابت على عزمه بمداومة السفر ولكن مع ذلك قد نزلوا جميعاً في المراكب وفتحوا القلوع سايرين

الا انه بالكاد كانوا ابتعدوا قليلاً عن الميناء واذا بعواصف الارياح والبحر تواردت بغتةً فتبددت بها المراكب متفرقة الى جهات مختلفة فالملك بعد ثلاثة ايام اذ لم يعد يحتمل اضامة سفره البحري قد تكره من معاطاته هذه المرسلة وخاف جداً من الغرق وربما خشي ايضاً من حركات اعدايه في غيابه عن كرسيه فرفع من عقله حالاً بالتمام الذهاب الى المشرق ورجع الى مينا اوترانتا واما الامير لانتغرافا ده طوريسفا الذي كان حين نزوله في المركب شعر بحمى مع قشعريرة فقد لحق الملك الى الشط وهناك بعد ايامٍ قليلة توفي قبل ان يتم السنة السابعة والعشرين من عمره ولين كانت فضايله موازية فضايل الشيوخ الكرام (فيقول الجليل موطالامبارت) ان هذا الامير رقد بالرب بعيداً من عروسته العزيزة اليصابات تاركاً تمام سفره الى الاراضي المقدسة القابل الموت لكي يدخل الى الوطن السماوي وياخذ محلاً فيما بين اشراف مدينة الله ✡

فالبابا غريغوريوس التاسع الذي خلف انوريوس الثالث في السدة الرسولية وورث غيرة اينوشانسيوس الثالث وحرارته واهتمامه الفعال قد كان احتفل مفتخراً بسفر الملك فريداريكوس مكرماً اياه كمحامٍ اخص عن بيعة الله ونصرةً لها فتري كم كان حزنه شديداً وتوجعه مرّاً عندما سمع خبر رجوعه وعدولة عن تمام السفر فمن ثم هو اعتبر تصرفه هذا الغريب بمنزلة عصاوة على السدة البطرسية وبالتالي قد اعلنه لدي المسيحيين كافةً بانه اثيم حانث في يمينه واشهره بحكمه عليه محروماً فهذا الملك اجتهد باطلاً في ان يبرر نفسه واذ عجز عن ذلك قد استوعب غضباً وانفذ رسالةً دوارة على السلاطين كلها بها يشكو بمرارةٍ من تصرفات البلاط الرسولي كانّه مختطف الولاية ضد الحقوق ويحرضهم

على الاتحاد معه لكي يقاوموا جملةً اعمال الدينة المخفية منه تحت صورة الغيرة مسميا اياها تصرفات متجهة نحو الاتساع بالمجد الباطل فمشهد محزن جداً يظهرها هنا امام لحاظنا كاينا في الاوروبا التي منذ ينيف عن ماية سنة الى ذلك الوقت كانت بغيرة متقدة تواصل تقدمة المعونات الكلية لسكان المشرق المسيحيين وهذا المشهد هو الحرب التي فتحت ميدانها فيما بين راس الكنيسة وبين راس مملكة النمسا المسيحي غير انه ليس هو موضوع تاريخنا الحاضر ان نشرح مفصلاً الحوادث الحربية الدموية التي جرت في مدة نحو نصف جيل فيها بين الاحبار الرومانيين وبين ملك النمسا . ولكننا في الوقت الذي فيه لاحظنا فريداريكوس هذا راجعاً عن اتمام سفره حانثاً بيمينه محامياً عن ذاته ففي وقت اخر بغتةً نراه ذاهباً براً مسافراً بحراً واصلاً الى حد ابواب اورشليم الا ان سفره هذا انما كان لفايدة تخص مملكته محركة فيه من روح محبته الاتساع والمجد الباطل لانه اذ طرح جانباً كل نوع من تصورات روح العبادة المسيحية الواجبة فذهب الى اورشليم لا بصورة زاير محارب تحت راية الصليب بل بحسب اتحاده برباط الصلح مع الامرا الاسلام ❊

على ان هذا الملك قد كان شفى غليل الامه بالانتقام لذاته منتصراً على الحبر الاعظم بالحرب التي دخل بها مدينة رومية واوعب البابا الشيخ الجليل من الاهانة والافترا امام الهيكل المقدس والزمه قهراً واغتصاباً بالخروج من رومية فاذاً حينما مسيحيوا بلاد المشرق قطعوا رجاهم من نوال المعونة وكانت الناس في بلاد المسيحيين مضطربين من قبيل الحوادث المذكورة وكان يظهر عنهم كانهم نسيوا اورشليم بالتمام فسلطان مصر مالك كامل فيها بين البلبلة والانقسامات المتولدة حينيذ ما بين الاسلام

مع امرايهم والمتقدمين فيهم قد فكر بان يهتم فى الاتحاد مع الملك فريداريكوس اذ ان اشواقه كانت متقدة نحو حصوله على سند هذا الملك ومن ثم ارسل اليه مستدعياً اياه بعزومةٍ الى المشرق موعداً اياه بانه يعطيه اورشليم فالملك المذكور اهمل ذاته ان يلجذب من سلطان مصر بهذه العزومة والوعد وحالاً فى سنة ١٢٢٨ سافر من مملكته خلواً من ان يستمد من السدة الرسولية تفويضاً ما وبدون ان يستغيث باسم يسوع المسيح منطلقاً الى بلاد سوريا ✲

فالمومنون الذين فى تلك البلاد قبل بمدةٍ كانوا ينتظرون قدوم هذا الملك اليهم كانه المسيا والمخلص اياهم فلما راوه فيما بينهم قد قبلوه بمنزلة ملكٍ اثيم قد ارسله الرب بغضبه ثم باطلاً كان هو يعد بان يستنقذ قبر المسيح المقدس لانه قد عرف عند الجميع انه مرذول امام الله وعاصٍ على ارادة الكنيسة ومن ثم عوضاً عن الاكرام والاحترام والخضوع فى القلوب نحوه قد تواجد الاحتقار والبغضة وعدم الاركان اليهِ ولذلك اجتهاده فى ان العساكر التى فى بلاد فلسطين يجتمعون تحت سلجقه محاربين معه قد ذهب سدى ولم يكونوا يجاوبون عن تحريضاته اياهم الا بصمتٍ ناتج عن الكآبة والعساكر بالكاد كانوا يغتصبون ذواتهم بتسميتهم اياه ريسهم فمن حيث ان الاصول كانت على هذا المنوال فاعمال هذا العسكر اضحت فاقدة الامل اما فريداريكوس فقد طلب من سلطان مصر اتمام وعده فهذا السلطان الذي فى الاول توقف عن ذلك من قبل ممانعة امراء الاسلام عن الرضا بهِ فقد وافق اخيراً مراجعات الملك بالطلب وتوطد فيما بينهم صلح اكيد بمودة متبادلة من الجهتين وبعلامات راهنة لم تترك محلاً للارتياب اصلاً فبالحقيقة انه لمشهدٌ فريد غريب مذهل وهو ان هذه المعاطاة بالصلح فيما بين ملكين يتخايلان طبعاً وعدم

الاركان لاحدهما بالاخر تبادلاً معلوم على دعوي كلٍّ منهما يناقض الاخر بها فاخيراً يتقاربان ويثقان ويتوددان ويعهدان الصلح برغبة قلبية مترادفة متبادلة منهما في الوقت نفسه الذي فيه كل الذين حولهما من المتقدمين يكونون مملوين من دخان البغضة ومن نيران الحرارة نحو الحرب ☆

فما عدا ذلك اذا صدقنا ما يقوله المورخون العرب فلا هذا ولا ذاك ما كان عنده تملك اورشليم ذا قيمةٍ معتبرة فالسلطان مالك كان يقول لامرا الاسلام كانه تبريراً لذاته عندهم نحن لا نسمح للافرنج شياً عظيماً بل كنايس ومساكن خربة والملك فريداريكوس كان يقول لفخر الدين اعظم امرا الاسلام اني لما كنت اصلاً كررت طلب هذه المدينة لولا اخشى من ان اخسر الاعتبار عند اهل المغرب لان مجي شخصي الى هاهنا لم يكن لاجل تخليص اورشليم بل اني اردت ان احفظ لذاتي الاعتبار عند الافرنج ثم لقد صار بين الجهتين عهد رفع الاسلحة ومنع الحرب الى مدة عشر سنوات وخمسة اشهر وبعض ايام من شهر اشباط سنة ١٢٢٩ فاذاً سلطان مصر مالك كامل قد اوهب الملك فريداريكوس اورشليم وبيت لحم وكل القرى الكاينة في طريق القدس من يافا اليها ومن عكة اليها بشرط ان الاسلام يستمرون مالكين جامع الامام عمر في اورشليم ومداومين على اعمال ديانتهم هناك بحريةٍ ☆

فلما عرفت هذه العهود والشروط عند الجميع فمعسكر الاسلام ومثله معسكر الصليبيين قد اعتبروا ذلك مع الصلح كانه شي نفاقي فالاسلام وروساوهم قد رذلوا عقد صلحٍ مع النصارى على خسارتهم مدينة مقدسة قد تكلف السلطان صلاح الدين على امتلاكها جهادات كلية واتعاباً لا توصف وسفك دما غزيرة

من جيوشه ثم ان الكدر والحزن باكثر من ذلك تواجد عند الصليبيين والمسيحيين الاخر المتوطنين فى المشرق غير مرتضين اصلاً بالعهد الذي قبله فريداريكوس بان يبقى للاسلام جامع مشتهر امام قبر المسيح الامر الذي على نوعٍ ما يخلط مذهب الاعتقاد المحمدى جملةً مع الديانة المسيحية وكانوا يندبون تخليص اورشليم على هذه الصورة الموازية تقريباً حال عبوديتها السابقة ثم فى الوقت الذى فيه خرجت العساكر الاسلام من اورشليم وكانوا يلعنون سلطان مصر على هذا الصلح خفيه نفسه بطريرك اليهودية اللاتينى قد وضع المنع الكنايسى على الاماكن المقدسة المستخلصة بالصورة المرقومة ونهى الزوار عن زيارتها واما الملك فريداريكوس فاذ توجه الى اورشليم لم يرافقه احد سوي جماعته النبلا والخيالة الطوطونيكيين ثم فى اجتيازه فى الاماكن والبلاد صمتٌ معبسٌ كان شاملاً سكانها وحين دخوله المدينة المقدسة قد كان رُفع عنها كل علامةٍ تدل على الانتصار وكنيسة القيامة التى هو اراد يتتوج فيها قد كانت موشاة بعلامات الحزن والايقونات والاشيا المقدسة ماخوذة عنها الى خارجٍ والكهنة المعينون لحراسة قبر المسيح قد كانوا هربوا من وجه هذا الملك والهيكل الكبير لم يوجد حوله الا سيوف والات القتال فحينئذٍ فريداريكوس اخذ بيديهِ تاج غودلفروا ووضعه هو ذاته على راسه خلواً من احتفال وبدون طيقسٍ كنايسى بل ان الانفار الموجودين معه من جماعته وعسكره قد نادوه سلطاناً على مدينة اورشليم وهتفوا لهُ بالدعاء وكان ذلك فى شهر ادار سنة ١٢٢٩ نفسها . ثم ان هذا الملك بعد تتويجه بالصورة المشروحة قد حرر رسايل الى البابا والى سلاطين المغرب مخبراً اياهم بانه قد امتلك مدينة اورشليم خلواً من حربٍ وبدون سفك دمٍ بل كانه

باعجوبة من الله القادر على كل شي غير ان بطريرك اورشليم كان انفذ رسلاً بمكاتيب منه للحبر الاعظم غريغوريوس التاسع ولجميع المومنين مخبراً اياهم بعهد الصلح المزل والمخجل المعقود ما بين سلطان مصر وملك النمسا اما فريداريكوس فلم يمكث في تخت سلطنته هذه الجديدة سوى يومين وحسب تقرير احد المورخين القدما قد اظهر قلة اعتبار نحو الاماكن المقدسة ابلغ من الاسلام انفسهم ملاحظاً امر الصليبيين كانه لم يكن غير ملتفت الى شي من امور الديانة وهكذا سافر راجعاً من القدس بدون ان يرسم بتحصينها بل تركها سايبة لغزوات الغير المومنين وان اتى الى عكة فما وجد فيها الا رعية قليلة عاصية ومسيحيين مشككين من تصرفاته الاثيمة فلهذا قد أسرع هو بالسفر من هناك راجعاً الى المغرب في شهر ايار سنة ١٢٢٩ عينها وكانت الحرب في بلاده متوقفة على وصوله اليها فحالما خرج من البحر في ايطاليا شرع يحارب اهالي لومبارديا العاصين عليه فيوحنا ده بريانا سلطان اورشليم حموه المعزول منه بظلم لانه توج ذاته بدلاً منه في كنيسة القيامة قد كان دُعي الى تدبير التخت القسطنطيني وصيّاً على الفتى بودوين الثاني الى حين زمان رشده ومن حيث انهُ توكل في اشغال الكرسي البطرسي المدنية ايضاً فقد اخذ العساكر الباباوية ودخل بها الى اقليم بوليا ضد صهره الملك فريداريكوس الذي بمجرد حضوره هنالك بدد تلك العساكر خوفاً منه غير ان هذا الملك اذ لم يعد يحتمل ثقل صاعقة الحرم المنقضة عليه من الكنيسة قد توسل الى البابا غريغوريوس التاسع مستمداً رافته عليه بالصفح عنه والحبر المذكور حينيذٍ انعطف لقبول تضرعاته وحله من الحرم الذي كان اطلقه عليه قابلاً توبته غافراً لهُ ما صنعه

باورشليم ايضاً باكتسابه اياها لذاته وهذا قد تم سنة ١٢٣٠ ☆

فالمدينة المقدسة اى نعم كانت رجعت تحت ولاية المسيحيين ولكن من حيث ان اسوارها مهدومة فكانت دايماً خاضعة لهجمات الاسلام ضدها ومدنسة بعبادات الديانة الغريبة وبالتالى لم تكن بعد فايزة بالحرية بل كانها لم تزل تحت رق العبودية والمجاهدون المسيحيون ضمنها على الدوام ملتزمون بكيانهم تحت الاسلحة لحماية حياتهم ولم يكن احد من المومنين مستطيعاً ان ياتى من خارج الى زيارة الاماكن المقدسة (وحسب تقرير المورخين) قد باد من المسيحيين بسيوف الاسلام في اراضى اليهودية وجبالها حيناً بعد حين ما ينيف عن عشرة الاف شخص ومن ثم توسلات المومنين الكاينين فى المشرق لم تكف عن التكرار بحرارةٍ الى اخوتهم الذين فى اوروبا بان ينقذوهم من هذه الحال المرثي لها فالحبر الاعظم المتوجع بمرارةٍ لشقايهم صنع مجمعاً فى مدينة سبولاته سنة ١٢٣٢ وحضر اليه الملك فريداريكوس نفسه ومثله بطريرك اورشليم والقسطنطينية وهناك سُمعت رسايل الشرقيين وتضرعاتهم وندبهم احوالهم وكيف انه بعد سفر ملك النمسا من اورشليم عدة امرار رنّت صراخات المومنين بالبكا والعويل فوق جبل صهيون تحت سيوف الاسلام لانهم من شدة خوفهم قد اختفوا فى مدينة داود ضمن المغاير والمكنة السرّية فسلاطين المغرب قد انذهلوا من كيان المسيحيين هناك تحت اخطار هكذا عظيمة بعد النصرة التى كانوا سمعوا التخبير عنها من كتابات ملك النمسا ولانهم رثوا لاحوالهم فقد اعلنوا اتفاق ارادتهم فى المجمع المذكور بمواصلة الحرب المقدس ضد الاسلام الخاينين عهد الصلح وبالاهتمام فى انقاذ المومنين والاراضى المقدسة من نير عبودية هكذا قاسى محتمل ☆

فالحبر الرومانى باشر العناية بحرارة فى المناداة بالتيام عساكر صليبية جديدة وفى بحر انتظار تجميع الجيش المعتمد على ارساله الى الشرق قد ارسل البابا المذكور علما الى هناك بصفة مرسلين يحاربون بسيف كلام الله علماء الاسلام كما كان صنع قبلاً نحو الالبيجازيين والامم التى فى شمال فرانسا وفي الوقت عينه بعث معتمدين من قبله الى الخليفة المقيم فى بغداد والى سلطان مصر ودمشق والى غيرهم من امرا الاسلام كى يخاطبوهم بكفاية بانهم اذا لم يريدوا ان يعتنقوا الايمان بالمسيح فقلما يكون يحامون عن المتمسكين بالانجيل ثم ان رهبان القديس عبد الاحد ومثلهم رهبان القديس فرنسيس الكبير الذين فى المغرب كانوا متجددين بسيرتهم وفرايضهم المثبتة من الكرسى الرسولى حديثاً قد فوّضوا من البابا بالانذار فى هذه الحرب الصليبية الجديدة فهولاء قد تفرقوا فى كل مكان بهذه العملية موزعين الصلبان على المريدين الذهاب الى المشرق ومفسحين من هذا الالتزام للغير المريدين متى اعطوا الصدقة حسب حالهم اسعافاً لهذه الحرب طالبين من المومنين اجمعين باسم الحبر الاعظم ان يعطى كل فرد منهم ديناراً واحداً فى كل سنة (فكل ماية دينار توازى ريال واحد) فجميع المرسلين المذكورين خدام المسيح كانوا يطوفون المدن والقرى فقرا سبارته نظير رسل المسيح لكنهم اغنيا بالفضل والكنوز الروحية التى كانوا يوزعونها على الشعوب بالوعظ والنموذجات الصالحة والانعامات البابا وية محرضين الجميع على اسعاف اخوتهم الشرقيين ✲

فهذه المنادات قد استمرت متصلةً مدة نحو ست سنوات واخيراً سنة ١٢٣٨ قد استبان ان الجميع كانوا تاهبوا الى الحرب القريب الاجتماع اليها واذا غفلةً تواردت الصراخات من نواحى القسطنطينية واوعبت المغرب قلقاً على ان يوحنا ده بريانا

الفرنساوي الشريف الذي بعد ان كان لحظ رفعه الى سلطنة اورشليم وضهره اخذها منه واختير هو أن يملك في القسطنطينية مدة زمان قيصر الفتي بودوين فهذا الشيخ الجليل كان ذهب الى هناك لكي يسند العظمة الملوكية التي سقطت بالدثار فقد باشر اهتمامه وجهاده في ان يقيم ذاك التخت القيصري الذي اضحى مهدوماً ولكن لم يكن موجوداً هناك من العساكر الا عدد قليل بايديهم الاسلحة كي يقاتلوا عن ذواتهم تجاه البربر حماية عن مملكة قد اسسها بمجرد الشجاعة ثم ان هذا الملك القيور بعد أن اعضد الصولجان القسطنطيني مدة من السنين بحروب متصلة وكانه باعجوبة حفظه ثابتاً قد رقد بالرب سنة ١٢٣٧ التي هي التاسعة والثمانين من عمره منهوكاً من مشقات الحروب اكثر مما من اثقال الشيخوخة بعد ان خلع عنه قبل وفاته البرفير الملوكي ولبس ثوب رهبنة القديس فرنسيس الكبير المنضع فالشاب بودوين المتزوج ابنة الملك يوحنا المذكور وخليفته في الملك الذي كان هو الوريث الوحيد الباقي من عيلة كورتاناي قد صودف مضطراً الى الهرب من القسطنطينية فخرج منها وطاف في بلاد اوروبا ملتمساً حلو السلاطين واشفاق الشعوب نحوه فمصايبه وتوسلاته احزنت قلب الحبر الاعظم الروماني وجذبته الى اسعافه لانه لم يقدر أن يسد اذنيه عن سماع تنهدات الكنايسيين اللاتينيين الخادمين الكنيسة القسطنطينية فمن ثم حرض هو العساكر الصليبية المستعدة وقتيذٍ الى السفر نحو بلاد فلسطين بان يتجهوا الى اسعاف اخوتهم الذين في القسطنطينية قايلاً هذا البابا غريغوريوس التاسع نفسه في خطابه لهم هكذا ان بلاد اليونان انما هو طريق اورشليم وقضية الملك بودوين قد اضحت قضية مختصة بالله عينه ❊

فقيما كان الصليبيون المعينون للذهاب الى فلسطين ملسومين بالاسفار بين القسطنطينية واورشليم فالاسلام رجعوا وامتلكوا هذه المدينة المقدسة لان زمان عهد الصلح قد انتهى ثم هدموا برج داود والمحلات التى المسيحيون كانوا عمروا بها بعض جوانب من السور فقطع الامل مع الاحزان المرة استحوزت على قلوب المومنين القاطنين بلاد فلسطين الغير هاجعين اصلاً عن مداومة التوسلات لاخوتهم الغربيين بالاسراع الى معونتهم ولم يروا منهم احداً بسلاحٍ بل ان سكان عكة المنتظرين سنةً بعد سنةٍ ان يشاهدوا فى ميناهم ذاك المعسكر العظيم الموعود اقباله اليهم كانوا ينظرون زواراً بسيطين بدون اسلحة مخبرينهم بحروب كاينة فى المغرب بين الامرا والسلطين المسيحيين ثم فى الوقت الذي فيه جانب عظيم من الصليبيين الجدد قد سافروا نحو القسطنطينية صحبة ملكهم بودوين ففيه عينه قد تجدد الغيظ فيما بين البابا غريغوريوس التاسع وبين فريداريكوس ملك النمسا ومن ثم جميع المراكب الموجودة فى بحر نصف الارض كانت تتقارب بعضها على صالح البابا وبعضها على صالح الملك النمساوي حتى ان هذه الحروب قد اشتدت براً وبحراً بين الكنيسة والمملكة واتصلت الى ما هو خارج عن الحدود الامر الذى قدم للعالم مشهداً مكروهاً فالحبر الاعظم المقارب وقتيذٍ المايه سنه من العمر لم يكن يجزع من ان يقاوم فيما بين هذه المعركات الشديدة رداوة قيصر النمسا قوةً ضد قوةٍ مع انه قبل بمدةٍ حينما كان ارسل سلطان اورشليم يوحنا ده بريانا بالعساكر ضد هذا الملك كان اوصاه كثيراً بحرارة فى ان يستعمل الحلم والحنو والعذوبة والاعتنا بالمحابيس الماخوذين فى الحرب فاذاً فريداريكوس حاصر مدينة رومية والجميع حتى سكانها هذه المدينة اهملوا اباهم

وجبرهم الا ان هذا البابا نايب المسيح قد صادف في حال ضعفه قوةً مختصة بمختارى الله فاخذ ذخاير القديسين بطرس وبولس وخرج بها في زياحٍ ضمن طرقات رومية طالباً من الرومانيين المتعصبين ضده هل انهم ما عادوا يريدون ان يحاموا ولا عن هذه الوديعة المقدسة المحفوظة في وطنهم بل يهملونها ان تفقد منهم فحالاً قلوب العصاة تخشعت وحلفوا في ان يموتوا من اجل آب المومنين العام فحملوا الاسلحة وخرجوا ضد الملك فطردوه هارباً وفازت الكنيسة بالنصر عليه ✲ .

فاخيراً جيوش صليبيون اقويا باساً وكثرة ساروا باسراعٍ نحو بلاد فلسطين من المغرب ولكن روساهم اذ لم يجدوا مراكب كافية لنقلهم اجمعين اخذوا منهم جانباً بقدر ما صادفوا من المراكب لحملهم وتوجهوا بهم الى هناك اذ ان بعض العساكر سافروا من مين مرسيليا وبعضهم من مين ايطاليا وكان القايد العام لهولاء الصليبيين اجمعين تيبولت الرابع كونته ده شامبانيا سلطان نافارا فهذا الامير كان ذايع الصيت بالاعتبار فيما بين امرا الطوايف وتنعماته في الامور المدنية كانت دايماً ذات افتكارات عن عقل جيد وشهامةٍ فريدة وقد صير مسموعاً عند الناس تشكي اورشليم من احوالها المرثى اليها بقصايد جميلة حرّك بها حرارة الصليبيين وهكذا هوكاز دوكا ده بورغونيا وبطرس ده دروكس دوكا ده براثانيا والكونته ده بار وعدداً وافر من الاشراف الاخر قد تبعوا هذا الشاعر الملوكي تيبولت بعساكرهم مع عساكره مسافرين نحو بلاد سوريا سنة ١٢٣٩ فلما بلغ الى هناك هذا المعسكر الذي زمان اقامته كان وجيزاً واثماره قليلة قد انقسموا الى عدة اجواق غير مريدين ان يحاربوا جملةً تحت راية واحدة بل كلٌ من الروسا خصص ذاته بجهةٍ من الاعدا

وشرع يحارب بعساكره الخصوصية باسمه الذاتي وبالتالى كل واحدٍ على راس جنوده رعاياه طفق يغازي فى جانب من اراضى الاسلام فالدوكا ده براثانيا من حيث انه غزا فى ديرة دمشق الشام فاخذ غنايم كثيرة من المواشى كالجمال والبقر والغنم والبغال فالصليبيون الاخر عندما شاهدوا هذه الغنايم الاخر الغنية جداً اقتفوا حالاً النموذج حباً بالمال فضربوا جهات غزة صانعين فى تلك النواحى هجماتهم ولكنهم لحال تفرقهم اجواقاً بضعف القوة اوقعوا ذواتهم تحت قوة الاعدا المجتمعة وخلواً من تاخير اختبروا فى ذواتهم قصاص عدم فطنتهم فغلبوا لان العساكر الصليبية التى كانت تحت اوامر الكونته ده بار وسمعان ده مونتفورت ان تباغتوا غفلةً من جيش الاسلام فبعد ان ناضلوا عن ذواتهم بمعركة شديدة قد انكسروا اخيراً كسرةٍ تامة لان عدداً وافراً منهم قتلوا فى الحرابة والكونته وسمعان المذكورين عقيب ان جاهدوا برجولية فريدة عدة ساعات قد كلّا من الاتعاب المهلكة وسقطا فى ايدى الاسلام واذا صدقنا ما قاله عنهم البعض من المورخين فلم يتخلص ولا واحد من تلك العساكر بل ان الذين يقاومونهم فى الحيوة اخذوا اسراء (كما قرر احد هولاء المورخين بقوله) ان كل اوليك الذين لم يفتكروا فى المعركة قد اُقيدوا الى الجيوش ماخوذين بالسلاسل الى مصر والى دمياط والى محلاتٍ اخر من البلاد المصرية وحين اجتيازهم بهم فى المدن والبنادر قد عوملوا من سكانها باهاناتٍ مختلفة الانواع من الزل والاحتقار والخجل والعار *

فلما بلغ الخبر الموقعة الى سلطان نافارا جمع الصليبيين الباقين فى مدينة اسكالون واسرع بهم الى مساعدة ارفاقهم حينما كانت المعركه بينهم وبين الاسلام انتهت فشاهد عن بعدٍ هولاء الاعدا

وقتيلى مهتمين فى ربط الاسرا كما ان الاسلام عند نظرهم قدوم صليبليين اخرين عليهم فلم ينتظروهم بل حالاً اخذوا مرابيطهم وهربوا بهم فبلغ السلطان المذكور الى سهل المعركة فراه مملواً من جثث القتلى الا بعضاً من المجرحين كانوا فى اواخر انفاسهم فنقلوهم محمولين الى اسكالون على اتراس الخيالة فقد اعتمد وقتيئذٍ السلطان المذكور على ان يمشى بعساكره فى اثر هولاء الاعدا مومّلاً ان يدركهم منتقماً منهم غير ان الخيالة الهيكليين وضياف الغربا وعسكر البلاد قرروا لديه ان الاعدا وقتيئذٍ كاينون فى برهم فاذا تضايقوا يهربون الى الحصون وحينيئذٍ يقتلون جميع الاسرا الذين فى ايديهم ومن ثم رجعوا جميعاً الى اسكالون واقاموا حزناً شديداً بمناحةٍ على هذا الحادث المرّ ❊

فبعد هذه الكسيرة الحادثة نواحى غزة ما عاد احد من الامرا والاشراف يخاطر بذاته وبجماعته كالسابق بمعركات جديدة بل انهم تركوا اسكالون وداروا بالتبادل والترادف على يافا وعكة وسور وطرابلوس وعلى مدن اخر جميلة من المدن التى فى تملك المسيحيين ففى كل الامكنة التى كانوا يدخلوها (يقول احد المورخين) صادفوا الناس يندبون بصراخات ونحيب وبكاء وعويل اوليك العساكر الذين فقدوا في موقعة غزة واما البعض فكانوا يقولون ان هذه الخسارة المت بهم حسناً من قبل كبرياهم وخطاياهم الاخر ❊

فالعساكر الصليبية حينيئذٍ كانوا يصورون مشهداً غريباً على ان البطالة قد ولدت الرذايل (كونها قرمة الشرور) وسبب الانقسامات التى نتج عنها قطع الامل من اثمار هذه الرسالة الحربية وكذا اهملت الغاية التى من اجلها عانوا هذه الاسفار فاذاً حيثما كانوا الاكليروس يشجبون روح الكبريا والمغايرة المضرة فى روسا العساكر ولم يكفوا عن الاجتهاد فى ان ينعشوا فيهم

روح الغيرة على تكرمة الصليب المحمول منهم لاجل الجهاد ففيه عينه كان النايب البابوي غويليوم ايضاً يكرر نحوهم هذه الالفاظ قايلاً ايها الانام الاجلّا لاجل محبة الله توسلوا اليه تعالى بان يرد اليكم القلوب البشرية السامية التي بموجبها ابتداتم ثم ان المعسكر كان يرنّ من موافقية التشكيات التي بها كان يُندَب تعس هذه الحرب الصليبية ولكن سلطان نافارا الذي بقصايده واشعاره كانت قبل بمدةٍ الاشراف والمتقدمين اتقيدوا بالغيرة التي هو جذبهم اليها وصيرهم ان يتخذوا لذواتهم صلبان الحرب فبالضد في تلك الحال الاخيرة هو قد حفظ الصمت غير انه فيما بين نبلاه قد وجد شعرا مختلفون الذين كانوا يولفون ويرتلون القصايد المحزنة على انكسار اوليك العساكر وعلى وجود الصليبيين الاخر كانهم في المنفى عن بلادهم خلياً من ثمرةٍ مفيدة لمسيحي المشرق ولمدينة اورشليم كما ان الانبيا القدما في تلك البلاد عينها يندبون سبى صهيون ويبكون على شقا شعب الله المختار وعلى احزان اخوتهم الموجودين تحت نير الاسر في مصر فهكذا الصليبيون في ذاك الاصطبار التهوا حول ذواتهم ينشدون المراثي بنغماتٍ محزنة ❊

فاخيراً الامرا والاشراف غب اقامتهم في اراضي الاسيا عدة شهور خلواً من اعمالٍ حربية بتةً لم يعودوا يفكروا سوى في ان يرجعوا الى بلادهم فاذاً قد تعاطى كلٌ من الامرا بانفصال عن الاخر فيما للصلح مع الاسلام واغوة كانهم قبلاً تحاربوا كما كان يجب ووطدوا عهداً جديداً على رفع الاسلحة وابطال الحرب بين الجهتين ازمنةً معلومة مع سلطان مصر ودمشق وهكذا سلطان مصر رد الاسرا الذين سقطوا تحت يده في معركة غزة غير انه عند رجوع هولاء الماسورين من اراضي مصر الى المعسكر ما وجد

فيما بينهم الكونتة ده بار وبقى امر حاله مجهولاً بالكلية فعدم معرفة حقيقة ما اصابه قد اعطى سبباً لان تولّف مراثي وقصايد كثيرة جداً في شانه واستمرت تتلى ازمنةً مديدةً في ذاك الجيل الذي اهله كانوا متعطشين الى الامور الموجبة الانذهال فتبعاً لعهود الصلح المذكور استمر المسيحيون مالكين الاراضي المقدسة مع اورشليم غير ان استخلاص هذه المدينة الباقية معدومة كل نوعٍ من التحصينات والوسايط الضرورية لحمايتها لم يعد عند المومنين في القبول وسيمات المسرة كما كان امتلاكها قبلاً في حالها الاول سبب في قلوبهم افراحاً فايقة الوصف ❊

فبعد ذلك سلطان نافارا والدوكا ده براثانيا والدوكا ده بورغونيا قد سافروا من بلاد فلسطين راجعين نحو اوطانهم ولكن بالكاد كانوا ابتعدوا عن عكة مسافةً قليلة قد بلغ اليها عوضهم جيوش انكليزية عديدة تحت رياسة ريكارد ده كورتويلاس شقيق السلطان انريكوس الثالث وابن اخا ريكارد قلب الاسد وذلك سنة ١٢٤٠ فهذا الامير احد العظما الاكثر غناً وسعةً في ممالك المغرب قد كان وارثاً شجاعة عمه السلطان ريكارد الفريدة التي مجرد ذكرها مع اسمه عند الاسلام كان يرجفهم جزعاً ثم ان العساكر الاتية صحبة هذا الامير كانوا مشتركين بشجاعته الجهبذية مشتدين غيرةً نحو القتال وكانوا يظهرون لدي الاعين مستعدين الى اعمال حرب قوية تنتج عنها اثمار سنية ولكن بعد ان مارسوا بعض افعال ذات فايدة جزئية اذ شاهدوا ذواتهم غير متبوعين من مسيحي بلاد فلسطين حسبما كانوا يوملون فاضطروا الى ان يجددوا مع سلطان مصر الصلح ورفع السلاح بابطال الحرب كما صنع الذين سبقوهم ولم تكن اثمار هذا الصلح شياً اخر سوي تبديل المحابيس الحربية اي ترجيعهم للاسلام الاسرا الذين اخذوهم منهم واسترجاعهم

اليهم الاسرا الذين كانت الاسلام اخذوهم منهم ثم استيذانهم من سلطان مصر فى ان يدفنوا جثث القتلى الصليبيين الباقية فى اراضى غزة وعلى هذه الصورة الامير ريكارد بعد ان زار مع عساكره مدينة اورشليم رجع الى مراكبه مسافراً فيها نحو ايطاليا سنة ١٢٤١ *

فهكذا شوهدت نهاية هذه الحرب الصليبية السادسة التى تم الانذار بها بالتتابع والترادف بعناية اربعة احبار رومانيين الواحد بعد الاخر فى مدة ثلثة سنين متواصلة غير انه في بحر هذه السنين قد تمارس جهاد الحرب الصليبى ليس ضد الاسلام فقط فى الاسيا بل ضد الالبيجاوزيين فى فرانسا وضد عبّاد الاوثان فى بروسيا وضد الملك فريداريكوس ايضاً الا ان هذه الحرب الديانية التى ما خلت منها الالام البشرية قد اقلقت الارواح واقترنت بالاتعاب الكلية ووجدت اثمارها قليلة جداً بالنسبة لما فاز به الصليبيون فى حروبهم الاولى ثم ان تاريخ الصليبيات لقد كان ندب فقدان جانب عظيم من تلك الاثمار المجيدة ومن اعمال هكذا سامية مستحقة الذكر الدايم والاندهال الوافر مما حصل عليه المسيحيون فى اقاليم سوريا اجدادنا القدما زوار اورشليم المحاربون الابطال ولما كان هذا التاريخ منذ ذاك الوقت فصاعداً الا صور اعمال شعوبية يعسر ترددها فى الافكار لولا يوضع لنا هذا التاريخ عينه سرعة ظهور ملك عظيم يعد فى قلوب المومنين جديداً حرارتهم القديمة نحو الحرب المقدس ويعطى تحت خيام الصليبيين نموذج الشجاعة الاوفر فعلية مضافة الى الفضايل الاعظم سمواً غير اننا قبل ان ناتى الى الاخبار عن المرسلتين الحربيتين اللتين تعاطهما هذا الجليل فى السلاطين العظما القديس لويس سلطان فرانسا يلزم ان نحول لحاظنا بتامل ما حدث من الضيقات والشدايد والاحزان للمسيحيين الكاينين

في اراضي فليسطين في ازمنة تملك السلطان المشار اليه في فرانسيا ☆

على انه في سنين كثيرة من اول الجيل الثالث عشر الى اواسطه فالمشرق والمغرب قد صودفا تحت اتعاب واضرار ودثار من قبل هجمات الشعوب البرابرة الوافري العدد بانواعهم والغير المحصى عددهم ومجموع افرادهم التي صنعوها بغزواتهم في اقاليم مختلفة نظير الانهر الشتوية القوية المدثرة الاراضي والامكنة في طوفانها اذ ان طايفة الططر في الموغول تحت رياسة قايده جانجيس بعد ان كانوا ادثروا اكثر جهات الاسيا قد جازوا الفوغا وانتشروا في بلاد الاوروبا باسره ولصوصهم المفرقة بين منابر عديده كانوا ينهبون ويقتلون ويخربون بلاد شطوط نهري فيطولا والدانوبيوس وفي الوقت نفسه تهددوا بهذا الدثار عينه ممالك النمسا وفرانسا وايطاليا بنوع ان السلاطين وشعوبهم كانوا يرتجفون رعبةً عند سماعهم تقاربهم الى بلادهم ولكن مع ذلك في حال وجود المسلطين ورعاياهم في ذلك الخطر المبين لم يكونوا يفكرون في ان يجمعوا قواهم متحدةً معاً ويسيروا ضد هولاء الاعدا العموميين فالسلطانة بلانشا ده كاستيا اذ عرفت ما صنعه الططريون من الشرور المهلكة في بلاد هونكريا قالت لابنها السلطان لويس الشاب تري ماذا نصنع يا ابني العزيز بعد الحوادث المحزنة التي اخبارها التعيسة تواردت الينا فهوذا هجمات البربر الططريين بلغت الى ان تتهددنا بخراب عام نحن والكنيسة المقدسة معاً ☆

فالشاب الملوكي ابنها هذا اجابها بقوله „ ان التعزية السماوية تعضدنا في الحالين فان كانت هذه الامة البربرية تصل الينا فاما اننا نردهم مكسورين الى بلاد الططر التي هم خرجوا منها واما انهم يرسلوننا الى السما ” ☆

ثم ان الحبر الروماني بدون فايدة قد نادى بحرب مقدسة

ضد هولاء الغزاة البربر الوحشيين لانه في بلاد هونكريا التى دخلتها هذه العساكر القاتكة لم يعد يوجد ولا اسقف واحد يمكنه ان يحرّض الشعب على حمل صليب الحرب وملك النمسا قد مارس هو ايضاً اجتهاداً ما في ذلك لكى ينهض حرارة سلاطين المغرب واصرايها المسيحيين مرسلاً اليهم كتابات فعالة في ان يسرعوا باجتماعهم جملةً ضد شعبٍ عدو قتّال للشعوب الاخرين كلهم الا ان اصوات رسايله هذه ما حركت احداً من المشار اليهم الى اتباعها فهكذا قد كان وقتيذٍ انشغال افكار الناس في موضوعات اخر بنوع ان المسيحيين ما اهتموا في ان ينهضوا الى رفع الططريين بقوةٍ والى تهريبهم الى اصقاع بعيدة بل انهم في احوال المخاوف والاضطرابات المستحوذة على قلوبهم من الخراب العام المقبل عليهم كانوا يكتفون بان يتقاطروا افواجاً الى الكنايس وهناك يكرروا هذه الصلوة مراتٍ مترادفة هاتفين انقذنا يارب من رجز الططريين ✿

ففي حوادث غزوات الططريين الموغلين هذه المهيلة المضرة في الغاية قد نجت من الاشتراك بها المدينة القسطنطينية المجهولة من هولاء الجيوش الضارية ومثلها جبال اليهودية المقحلة اذ ان اضرارهم ما اتصلت لا الى هذه ولا الى تلك ولكن طايفةً اخرى قد طُردت من خلفا جانجيس من بلاد العجم وكانت اهلها يفتشون على صقعٍ يوطدون فيهٍ ذواتهم فقد دعاهم الى بلاد سوريا سلطان مصر وهولاء هم طايفة الكاريزميانيين المتوحشين طبعاً واخلاقاً الذين يطوفون الاراضى بالسيوف والنيران في ايديهم فالتاريخ يخبرنا عنهم بانهم كانوا هاربين الى بلاد المشرق حول شطوط نهرين الفراة والعاصى تايهين خلواً من ثباتٍ في مكانٍ ولم يكن معاشهم وقيام حياتهم الا من السلب

والنهب والقتل والخطف بانواعٍ مرعشة المفاصل وكانوا يقيدون منهم كثرةً من الرجال والنساء مربوطين اسراء وعدداً وافراً من العجلات المسحوبة وراهم موسوقة من الغنايم الظالمة التى ايديهم الدموية سلبتها من الناس والاشخاص الاكثر جبارةً فيهم كانوا يعلقون على رماحهم مربوطةً جمم شعور روس البشر الذين يكونون ذبحوهم بايديهم فى المعركات فاذاً هولاء الكاريزمياني‌ون عندما دُعوا من سلطان مصر لكى يساعدوه ضد الافرنج الكاينين فى بلاد فلسطين قد اسرعوا كالوحوش الكواسر الى بلاد اليهودية الموعود لهم بها من السلطان المذكور هبةً تحت انتصارهم عليها فامتلكوا مدينة اورشليم ولكن الشعب المسيحى الموجود ضمن جدرانها ابيدوا قتلاً بسيوف هولاء الكفار الا الذين عفوا من دماهم فثقلوهم بالسلاسل الحديد ثم بعد ان اشفوا غليل رجزهم ضد المسيحيين الاحيا قد وجهوه ضد الموتى ايضاً بنفاق بربري لانهم فتحوا قبور المومنين الراقدين واخرجوا منها عظامهم واحرقوهم بلهيب النيرات ولم يحترموا لا قبر المسيح ولا قبر السلطان غودافروا ولا قبور الشهدا وجهابزة الديانة المسيحية بل صنعوا بها النفاق والحريق وهكذا شوهدت ضمن اورشليم متجددة رذالة الخراب وتدنيس الالهيات واعمال القساوة الوحشية الاشد تعاسةً من ايام هذه المدينة الاوفر شراً ✿

فالمتقدمون فى روسا المسيحيين قد اجتمعوا فى مدينة عكة وعقدوا عهد الصلح مع امراء الاسلام المتوليين فى بلاد سوريا لكى يتخلصوا من ايدي هولاء البربر اراضى فلسطين ومشوا بجيشهم ضد معسكر الكاريزميانيين المجتمع فى مدينة غزة فبسهول هذه المدينة صودفت مشهداً مريعاً لمعركةً دموية مخيفة قد استمرت مدة يومين كاملين بهما عساكر المسيحيين دثروا بالتمام وكان عددهم

ثلاثين الف محارب الذين بعد جهادٍ هكذا شديد مديد ابيدوا
بسيوف الكفرة الذين ابقوا منهم من مسكوهم احيا تحت قيود
الاسر ثم بعد ذلك الكاريزميانيون غزوا جميع البلاد المحيطة
بالاردن وباسكالون وبعكة من مدن وقري ومزارع ناهبين مبددين
داثرين البلاد والمحلات واخيراً جاءوا فحاصروا مدينة يافا وقد
كانوا ساحبين وراهم فيها بين الاسرا واحداً من عظما الصليبيين
السامي بالشرف معتمدين على انهم من جرايه يصيّرون المسيحيين
الكاينين داخل يافا ان يفتحوا لهم ابوابها فهذا الاسير انما هو
غوتيرده بريّانا البطل العظيم الذي كان هو راس العسكر الذي
صنع المعركة التعيسة امام مدينة غزة فهولاء البربر قد ربطوا القايد
المذكور على صليب عالٍ نصبوه امام اسوار يافا وشرعوا يعاملوه
بالاهانات والعذابات مظهرين ارادتهم بان يميتوه حالما سكان
يافا يمارسون ادنى ممانعة عن فتح ابوابها غير ان هذا الشهم
النفس المملو غيرةً حقيقية لم يحتفل بنفسه بل كان بشجاعةٍ
عجيبة يتكبد النكال ويصرخ باعلى صوته على اهل المدينة
ارفاقه هاتفاً ان التزامكم الصارم هو ان تحاموا عن مدينة ممتلكة
من المسيحيين والتزامي انا ان اموت من اجل يسوع المسيح
فمن ثم سكان يافا تشجعوا وناضلوا عنها فلم تسقط بايدي
الكاريزميانيين ولكن النبيل غوتيرده بريّانا صار من اجلهم
ضحيةً وفاز باكليل الشهادة ✿

فاسقف بيروت فاليران قد سافر الى بلاد المغرب سنة ١٢٤٤
مخبراً سكانها بالدواهي الجديدة الملمة بالمسيحيين الذين في سوريا
والبابا اينوشانسيوس الرابع قد اقتبله بكل حنو واشفاق موعداً
اياه باسعاف الاراضي المقدسة ولانه متقداً بالحرارة والغيرة
الشديدتين نحو هذا الموضوع فمنذ جلوسه في السدة البطرسية اباح

كل استطاعته موجهاً عنايته الخارجة بجملتها فى هذه القضية التى سلفاية البابوات قد ابذلوا نحوها اهتمامهم فى مدة نحو جيلين ثم من حيث ان الملك بودوين الثانى ايضاً قد التمس من هذا الحبر الاعظم الاغاثة لاسناد كرسيه القسطنطينى المايل الى السقوط متوسلاً اليه باعانته ضد البرابرة الكاريزميانيين وضد الروم الشاقين العاصيين عليه وضد الاسلام المتهددين اياه وكان وقتيذٍ البابا نفسه مباشراً حرباً مخوفاً ضد الملك فريداريكوس ومهتماً فى حماية الاوروبا من غزوات الططريين الوحشيين فهو بروح شجاعة لم يتوقف عند خطرٍ ما بل كان قايماً حسناً بالحمل العظيم جداً الذي فى تلك الظروف وضعته على كاهله العناية الالهية ومن ثم اجتهد فى ان ينهض العالم اجمع الى تناول الاسلحة ضد اعدا المسيح وكنيسته المختلفى الانواع ولكن اذ قد تضايق من الحرب وحصل فى الخطر فقد هرب الى مملكة فرانسا وعقد مجمعاً عاماً فى مدينة ليون سنة ١٢٤٥ ☆

ففى هذا السينودس حضر الاساقفة وامرا المشرق وبودوين ملك القسطنطينية وقصاد الملك فريداريكوس لكى يحاموا عنه ضد الشكايات المقدمة عليه من اينوشانسيوس الرابع البابا المذكور الذي وجدت حوله الاساقفة الذين امكنهم النفود من ايدي الملك المذكور ومن ممانعة اخوته الكردينالية فقد افتتح هذا المجمع فى ١٨ حزيران السنة المرقومة وغب تقدمة صلوات استدعا معونة الروح القدس تلى هو فى هذا المجمع خطبةً جليلةً بها شرح ظروف الخمسة الاحزان المولمة قلبه ممثلاً اياها بالخمس الجراحات التى تالم بها مخلص العالم على الصليب وهذه الخمسة الاحزان هى هجمات الططر وانشقاق الروم وغزوات الكاريزميانيين وامتدادت الارتقات ثم الاضطهاد الصادر من الملك فريداريكوس

غير ان اهتمام ابآ هذا المجمع قد اتجه بنوع اخص نحو اعانة القسطنطينية واورشليم ولذلك حكموا بعمل حرب صليبية لاجل تخليص هاتين المدينتين المنضامنتين ورسم بان البابا والاساقفة يقدمون لاسعاف مصاريف هذا الحرب عشر مداخيلهم وباقى الاكليريكيين يوردون لهذه الغاية نصف عشر علايفهم وما يدخل لايديهم ثم اعطى التدابير والاوامر الضرورية لتجهيز هذه المرسلة الحربية ونجاح اعمالها ✿

وقد اتخذ المذكور الوسايط الملايمة لصد امتداد الاراسيبيس ايضاً وفى الاجتماع المرقوم قد منح البابا الكردينالية ان يلبسوا اثوابهم بلون احمر موضحاً لهم بهذا التزامهم بان يكونوا مستعدين دايماً الى سفك دماهم من اجل الكنيسة ومن حيث ان التفكر المرّ جداً الذي كان يولم قلب هذا الحبر الاعظم الجليل الهارب الى فرانسا قد كان بنوع اخص اضطهاده من الملك فريداريكوس فهو اراد ان ينهي هذه الدعوة في المجمع المذكور بالصلاح الاخير فقام هناك الفحص عن اعمال هذا الملك فى عدة جلسات وسمعت الدعوي بظروفها والقصاد المحامون عن ملكهم اوردوا كل السنادات التى عندهم من المحاماة عن ملكهم كعادة المحاميين الدعاوى فى المحاكم ثم فى نهاية الفحص صدر الحكم من البابا واباء المجمع كمن الديوان الاعلى المقبول من الملك المذكور عينه بواسطة قصاده حكماً قانونياً بعزل هذا الملك عن كرسيه لاجل ظلمه الحرّية الديانية اغتصاباً وتشليحه الكنايس من موجوداتها وسقوطه بالارتقة كاراتيكى واغتصابه الشعوب بالمظالم (فيقول النبيل مونطالامبرت) يا له من انتصار دايم الذكر للحق على القوة وللايمان على الخير المادى قد تلالا بالعمل فى هذا الحكم مرةً ثالثة غب العملين المصنوعين مثله من البابا غريغوريوس

السابع ومن الحبر الرومانى اسكندر الثالث بها الحط الى الحضيض العنصر المتمرد بالعداوة تبعاً للمناداة المصنوعة من القديسين ومن البشر الاخرين فمعلوم بكفاية هو كيف ان العناية الالهية اتخذت على ذاتها المصادقة على هذا الحكم لانه قد عرف القصاص الملم بالملك فريداريكوس واحوال سنى حياته الاخيرة وموت ابنه فى صبوته وابادة سلالته المخيفة ✿

فمجمع ليون هذا قد اشهر المناداة بحرب صليبية جديدة ولكن فيما بين ظروف مقلقة ممالك المغرب بحوادثها المضرة جداً التى لقد كانت انست الشعوب التفكر باورشليم و بالاراضى المقدسة مطلقاً لولا يكون احد السلاطين العظما المحبوب من رعاياه بطاعة وتكريم قد تقدم بشخصه متراساً بذاته على تجهيز هذه الحرب والسير بها قايداً لها هو عينه الى اراضى سوريا مرافقاً من اشراف مملكته فاذاً مشهد عظيم يظهر امام عقولنا جديداً فى هذا الشان وهو ان سلطاناً قديساً محترماً بمقدار ما هو حكيم وشجاع فبمقدار ذلك حاوٍ في لبه قلب متصف بالابتعاد عن كل الامور الغير لايقة بالبشر والاداب المسيحى يوضح لنا باجود نوع غودافروا ومن تانكريد حقايق صفات انسان صليبى شريف اسماً وفعلاً فالتاريخ المختص بالحروب المقدسة ولين كان اضحى فى تاليفنا الحاضر مناهزاً نهايته فمع ذلك هو في هذا انلجاز ايضاً يوجد مملواً من التعاليم المفيدة نظراً لما هو متعلق بهذا السلطان الفضيل لحسن العبادة الذي وجد هو النموذج الحى والسند القوى والمدبر السعيد فى المرسلتين الحربيتين التى الان نحن ناخذ بالتكلم عنهما فى الفصلين التابعين الذين هما ختام هذا التاريخ ✿

الفصل الثانى عشر

في الحرب الصليبية السابعة المختصة بالقديس لويس سلطان فرانسا
وفيما يلاحظ السلطان المذكور لويس التاسع وفى نوع صورته
وفى اتخاذه الصليب مسافراً بحراً نحو المشرق ثم فى امتلاكه
مدينة دمياط وفى الحرابة الحادثة فى المنصورة وفى
الشدايد التى آلمت بالصليبين ثم فى سقوط القديس
لويس نفسه اسيراً بايدى الاسلام

ان لويس التاسع الذى كان جده السلطان فيلبس افغوسطوس وابوه السلطان لويس الثامن بكراً اكبر من اخوته قد جلس فى تخت مملكة فرانسا فى شهر تشرين الثانى سنة ١٢٢٦ وريثاً لابيه ولم يكن له وقتيذٍ من العمر سوي احدي عشرة سنة ومخاطر بلا عددٍ قد استدارت حول صبوته ولكن من حيث ان العناية الالهية كانت اختارته لما اعدته له فقد دبرت له سنداً يحفظه من الشرور وهو والدته النقية الحكيمة بلانشا ابنة الفونسيوس التاسع سلطان كاستيلا ارملة السلطان لويس الثامن ابيه التى كانت اكمل اميرات دهرها مضيفةً الى جمالها الشريف جمالاً اعظم بالفضايل نبيهة نشيطة ناصحة في تدبير الامور حسناً ممتلكة كل الصفات الاخر اللايقة بسلطانة عظيمة فهذه الجليلة قد سميت وكيلة سلطنة فرانسا وصيةً على ابنها القاصر لويس التاسع المذكور وقد باشرت واجبات هذه الوظيفة الثقيلة الحمل جداً بكل اتقان وفطنة ونجاح عجيب والتواريخ قد وضعتها فى الرتبة الاولى الفايقة المعادلة بين سلطانات فرانسا المعمات كلهنّ فضلاً عن بقية الامريات ✲

فاذاً هذه السلطانة النموذج الحي للامهات المسيحيات بعد ان كانت هي نفسها ارضعت ابنها لويس قد اهتمت هي ذاتها في تربيته الحسنة ومن حيث انهُ اتخذ هو من هذه الوالدة لبن التعاليم النقية وقوت التهذيبات الادبية منذ نعومة اظفاره فقد اعطى قلبه رحباً لاقتبال النعم الالهية التي اهّبته لما كان عتيداً ان يتمم هو بهِ مراسيم الارادة القدوسة في هذا العالم على ان هذه الوالدة الفاضلة اذ احبت ان توجد في ابنها الصفات اللايقة بالاسم المسيحي متلالية بابلغ نوع من اشراق ضيا صفة كونه وريثاً تخت مملكة عظيمة كما هي فرانسا فقد بذلت اهتمامها الذي لا مزيد عليه في انه هو يتقن جيداً التزامات هذا الاسم المجيد فقد اسست في قلبه منذ الاقماط احتراماً جزيلاً نحو الاشيا المقدسة وعبادةً حيّة لله وحباً شديداً نحو الطهارة والعفاف لانها مراتٍ كثيرة كانت تعانقه قايلةً لهُ انني احبك يا ابني محبةً اكيدة بمقدار ما يمكن للامهات ان يحببنَ اولادهنَّ بعواطف قلبية ظاهرة وافرة ولكنني مع ذلك احب اشد حباً بما لا قياس له ان اشاهدك ساقطاً لدى قدمي ميتاً افضل من اني اراك ساقطاً بخطية واحدة مميتة وهكذا الفتى لويس قد اقتبس في مدرسة والدته وعند المعلمين الذين تحت مناظرتها درسوه تلك العلوم الضرورية والمفيدة لمساعدته على انهُ يوماً ما يقوم هو بواجبات وظيفة السلطنة الاكثر سمواً لاسيما لان هذا الشاب الشريف المولد قد كان هو طبيعياً سريع الانقياد لطيف الاخلاق عذب المناولة ومن ثم بكل سهولةٍ وافق مقاصد هذه الام الصالحة فاقنومه كان موازن اعضاه بجودة الكون الطبيعي وجمال الخلقة ونفسه كانت شهمة بروح ثابت قوي وحذاقة عقل ناضجة وقد تميز بنوع خاص

فى السخاء وعمل الخير نحو القريب ليس باقل من اعمال الفضايل والتقوي والحكمة المزمعة ان تتلالى فيهِ بالاكثر عندما توجد هامته مزينةً بتاج اجداده ✿

فعواصف الامور المدنية المقلقة التى كانت تصادم سير مركب تدبير المملكة فى تلك الازمنة قد وجدت على نوعٍ ما متواصلة فى كل السنين التى فيها كان الشاب الملوكى المذكور قاصراً الا ان حسن تدابير والدته الوصية عليه بالحكمة وحسن الانتباه والسهر قد بددت العواصف المنوه عنها لانها باهتمام غريب كانت تتعاطى اعمال الامور الخارجة وتتصرف باصلاح الاشيا الداخلة ضمن المملكة بالسلام والسكينة ومن ثم بلغت بعنايتها وبشجاعتها الى انها حفظت حقوق ابنها السلطانية خلواً من ادنى انثلام فلما اكمل لويس التاسع السنة الحادية والعشرين من عمره قد تسلم هو زمام تدبير المملكة سنة ١٢٣٦ وبروحه السلامى احب ان يكون لسلطنة فرانسا بصفة ابٍ احرى مما بصفة سلطانٍ وهكذا قد امتلك هو قلوب رعاياه حباً واحتراماً وطاعةً بواسطة العذوبة واللطافة ومساواة التصرف الثابت الروح والحب الشديد نحو العدل والاستقامة والتيقظ الزايد الدايم على استدراك حدوث الامور المقلقة قبل كونها او على تبديدها السريع حال اتلادها واخيراً بحسن تقواه وسمو فضايله فجودة عبادته الحارة لله فى واجبات الديانة هى كانت الزينة الاجمل لتاجه الملوكى فقد كانت منذ ازمنةٍ سالفة دخل في العالم روح دينونة باطلة ردي جداً منتشراً من مبادي فلسفةٍ ذات حماقةٍ فظيعة مضرة جداً ومن بغضة الديانة فاستولى بدون لجام ضد خيرات الانفس الروحية وبتعاسةٍ قد اعتنق من بعض الاشخاص ذوي النباهة والشجاعة انفسهم خلواً من

خشيةٍ وهو احتقار اعمال الديانة والسخرية بها على ان افعال التقوى ذات الروح الفضيل التقوى الالهى المتوقفة جوهرياً على اساس المحبة لله وللقريب قد صورتها الفلسفة الاثمة المذكورة كانها غير ملايمة لشرف المفعولية وللغيرة فى الامور الدنية العظيمة وللمجد الملتجاء الوطنى فاعتبرت من ذوي التيه فى بحر روح العالم بانها تليق بالناس الصعاليك ذوى مولدٍ دنى واضحت بعيدةً مكروهةً مهملةً عن ابواب العظما الذين مقروا بها ولكنها وجدت لها مقراً دايماً حينيذٍ في قلوب الانام المتواضعين المساكين بالروح وعند ارواح هولاء النقية الخالية من تراكيب الشر قد صادفت هى مدخلاً رحباً مطلوقاً لسكناها ونمو اثمارها الا ان المجد السامى هو ثابت للقديس لويس الذي يبان ان العناية قد اوجدته ورفعته الى العرش الملوكى ذى التقدم فى العالم اجمع لكى تسيره فى الدهور كلها تمثالاً شهيراً لتكذيب التعاليم المذكورة المدثر التقوي الحقيقية لان هذا السلطان العظيم الشان فى الوقت الذي فيه هو وجد متواضعاً سادجاً بعقايد الايمان ففيه نفسه هو صودف شريفاً مولداً وافعالاً شهماً شجيعاً فى اعماله كلها وان تحقيقنا اياه الان فى السما مكللاً بتاج المجد العالى الغير البالى مشرقاً بالبهاء الابدى فتاج السلطنة الفرنساوية الزايل الذي كان مزيناً هامته فى هذه الارض قد كان هو ايضاً مجيداً جميلاً شرفاً معطى لابناء البشر ان يستعملوه فى الحيوة الحاضرة فاذاً كان هو متولياً رقاب العباد سلطاناً شريف النسب خيالاً بطلاً اميراً شجاعاً متصفاً بكل ما هو جليل مشوق اليه من لطافة الجسم وجمال الخلقة مزيناً بجودة العقل وزكاوة الروية وبساير المزايا السعيدة التى اوجبت احترامه وحبه وطاعته عند رعاياه ومعاً وجد هو فى حال كونه

شخصياً من اولى الرتب العليى والوظايف العسكرية مسيحياً طاهراً عفيفاً وفيها كان هو مجللاً بعظمة العرش الملوكى بكل البطش والعزة السامية المحققة لسلطنته فان كنا نلاحظه جاثياً امام الهياكل جالساً اوطى من خدام الانجيل او نتامله مترأساً على المعركات الحربية فهو دايماً موضوع جليل لاعتبارنا اياه واندهالنا من اعماله ولم يوجد فيها بيننا اجود منه محققاً بالفعل الفاظ الرسول بولس القايلة ان العبادة الحسنة فى كل شي هى مفيدة للجميع ولها مواعيد الحيوة الحاضرة والمنتظرة فى الدهر العتيد (تيموطاوس اولى ص ٤ ع ٨) *

فقد كان لايقاً بسلطان تفتخر بهِ مملكة فرانسا ان يجدد حرباً صليبياً قد وُجدت فى مدة اجيالٍ موضحة لنا اجدادنا سامين بالفراسة والرجولية على جميع ما تخبرنا بهِ القدمية عن الانام الاشهر اسماً والاوفر شجاعةً فى الدهور السالفة لان مجرد ذكر اسم اورشليم الذي اوعب قلوب المسيحيين كافةً عواطف تقوية كان بلا ريب لازماً ان يحرك بشدةٍ قلب من هو اسمى قداسةً فى سلاطين فرانسا اجمعين ثم تفكره بزيارة قبر مخلص العالم هناك كان من الضرورة ان يُنعش فى فواده شوق حسن العبادة بحرارة ملتهبة والرجا فى انه ينفذ اخوته المسيحيين الكاينين فى المشرق من رق العبودية كان خلواً من شك يبهج لبهُ ويضاعف شجاعته الرجولية لان اوليك المومنين المساكين كانوا وقتيذٍ من جديد سقطوا تحت نير الاسر يأنون نادبين حظهم فى بلاد فلسطين مستعبدين من امةٍ اخري بربرية كما كانوا وقتاً ما تحت رق الاسلام الامر الذي افعم قلب هذا السلطان القديس مرارةٍ علقمية من اجلهم وكان قبل حربهُ هذه الصايبية اسعفهم باموال غزيرة جداً وبمعونات اخر ولكنهُ

صودف هو منقذ الشوق الحار الى ان يذهب بشخصه لاغاثتهم ويكسر بسيفه القيود الحديدية الماسكة اياهم فى حال العبودية الا انه قد اعيق من قبل ممانعات والدته وارباب ديوان المشورة الملوكية باجتهادات كلية عن ابتعاده خارج فرانسا غير ان شوقه المذكور لم يزل مشتدًا حينما جدّ حادثٌ غير مظنون قصيره ان يعتمد اخيرًا اعتمادًا مطلقًا على سرعة تكميل مرغوبه المشار اليه ☆

فالحادث المنوه عنه هو ان هذا السلطان البار سقط فجاءةً فى مرض عضال قد اوصله فى زمن قليل جدًا الى ابواب المنون الامر الذى اخباره شاعت حالًا فى المملكة واملاءت قلوب الجميع حزنًا ومرارةً فايق وصفهما لان كلًا من الرعايا أخذ من الرجفة خوفًا من فقد ملكٍ فريد الصفات هكذا محبوب من الكل حتى ان اصوات الندب والبكا كانت ترّن فى طرقات فرانسا والاكليروس والشعوب كانوا يتقاطرون الى الكنايس مقدمين التضرعات الاشد حرارةً لله بان لا يسمح تعالى بخسراتهم من هذه الحيوة قلبًا هكذا راوفًا عزيزًا لديهم جدًا (وكتقرير غويليوم ده نانجيس) ان الرهبان كانوا يصنعون زياحات بواعيث بارجل حافيه مدرفين الدموع ببكاء شديد وبالكاد استطاعوا ان يرتلوا الصلوات من زيادة كدرهم الموجع بسبب مرض هذا السلطان فالقديس المذكور غب مجري الداء الذى اعتراه لبث زمانًا طويلًا هاجعًا غير مستطيع لا على التكلم ولا على الحركة بجسمه ففى دوام هذا الحال شاع الخبر بدون تعقل بان السلطان قد مات ومن ثم سكان المدن والقرى وجدوا فى تمام قوة الحزن بالندب والشهيق وسكب العبرات وكلٌ منهم كان يتاوّه من صميم قلبه على وفاة ملكه الجليل الفريد فى سن الشبوبية (فيقول النبيل جوانفيلا) ان ربنا وقتيذٍ انعطف نحو دموع شعب مملكةٍ يصرخون

اليه ويقدمون الصدقات ويستحرون بالصلوات ويتنهدون من قواصي قلوبهم متنفسين الصعداء ففتح فاه القديس لويس ومنحه النطق . فلما عاد الى ذاته هذا السلطان حياً كانه من الموت استدعى اليه عاجلاً اسقف باريس غويليوم وطلب منه الصليب فاخذه وقبّله وعلّقه في عنقه ثم ابرز النذر فى ان يزور الاراضى المقدسة بذاته وحالاً ظهر هو فيما بين شعبه كأبٍ عزيز بين اولاده وقد اكتنفه الخشوع والحنو عند مشاهدته الفرح والابتهاج والتهليل الغير الممكن وصفه المصنوع من الرعايا لاجل شفايه ولكن منذ قيامه من المرض فصاعداً ما عاد يوجد شي من المصنوعات كافةً ممكناً ان يعيقه زماناً اخر بل اهتم عاجلاً بالاستعدادات الى الحرب الصليبية ولم يعد مفتكراً سوى فى امر سفره القريب ✿

فالامرا والاعظم شرفاً بين اسياد مملكته اتخذوا صلبان هذه الحرب اقتفاً بمثل سلطانهم وكان فيما بين هولاء اخوة هذا السلطان الثلاثة والكونته ده براثانيا واولاده ثم الدوكا ده بورغونيا والكونته ده فلاندرا والكونتيه ده لامارسا وده دروكس وده بار وده سواسونس وده مونتفورت وده فاندوما وده سان بول مع ابن اخيه الشاب شاتيلّون ثم اسياد اخرون كثيرون معتبرون جداً اما نظراً لشرف سلالتهم واما نظراً لصفات وظايفهم وصيتهم الذايع بالرجولية ولكن ولا واحد منهم بالاكثر يستحق بعدلٍ محلاً شريفاً فى التاريخ بمقدار امير جانفيلا صديق السلطان لويس وامين اسراره البهى الاسم والصنديد فى الحرب والمورخ الخالى من الغش وهو الشاهد العيانى على اعمال هذه الحروب الصليبية وهو الذي يقودنا فيما نورده من ههنا فصاعداً واحياناً نستخدم الفاظه نفسها المدونة كما هى باللغة الفرنساوية القديمة (والقاري يعرف الفاظه

من مشاهدته نقطتين هكذا : قبلها وبعدها) فيما كتبه عن افعال سيده السلطات السامية وعما اصابه من الشدايد ✿

ففي جمعيةٍ التيهت في مدينة باريس لاجل قضية هذه الحرب قد تعين سفر الجيوش في شهر حزيران سنة ١٢٤٨ والسلطان لويس اقام والدته السلطانة بلانشا نايبة عنه ممتثلة شخصه في تدبير المملكة مدة غيابه والامرا والاشراف كلهم ابرزوا القسم بين يديه بان يحفظوا صدق امانة الطاعة لعيلته الملوكية ان كان يحدث له' شي ردي في مدة سفره المقدس نحو المشرق وقد رتب هو التدابير ذات الحكمة لاجل تاكيد حفظ العدل والاستقامة في مملكته حال غيابه عنها بشرايع خصوصية كما انه ارسل من قِبله معتمدين مفوضين سلطانه لكي يجولوا بلاد فرانسا كلها ويصلحوا المظالم المكن ان تكون حدثت ويعالجوا الاعمال الخارجة عن الطريقة المضرة الرعية وقد رسم بابطال الحروب الناتجة عن الخصومات بين المتقدمين مدة خمسة سنوات رفع سلاح وبهذه الصورة قد وفز عن مملكته الانقسامات الجنسية والاختلافات المكن اتيانها من خارج وفيما كانت الاوروبا كلها وقتيذٍ قلقة مبلبلةً من الاضطرابات فاقاليم فرانسا كانت متمتعةً بالسلام تبعاً لهذه الحروب الصليبية ✿

فحينيذٍ تُلِت في الكنايس مناشير البابا اينوشانسيوس الرابع التي بها قرظ بالمدايح السامية احتفاليا ً اعمال الفرنساويين الجليلة ذات الرجولية الفريدة وفخم صفات سلطانهم العظيم الكريمة وبها منحهم بركته الرسولية محرضاً اياهم جداً على عدم تاخير سفرهم عن الوقت المعين فبلاد فرانسا باسرها في ذاك الحين وجدت مهتمة بالاستعدادات لهذا الحرب ونبلا الدولة مباشرون جميع عساكرهم الخصوصية كما ان عدداً وافراً من الزوار بدون

اسلحة بل بمجرد العبادة تبعوا العسكر ماشيين بارجل حافية حاملين علامات زيارتهم وكثرةً من الاشراف قبل سفرهم خلعوا اسلحتهم وزاروا ذخاير بعض القديسين فى كنايس او امكنة تقوية قريبة لمحلاتهم وجيوش الصليب ودعوا اقرباهم واصحابهم باعين دارفة الدموع مفارقين اوطانهم وموجوداتهم فمن دون ريب اكثر من شخص عند رجوعهم من زيارة بعض الامكنة بروح العبادة ارادوا قبل ان يسافروا فى العسكر ان يشاهدوا مرةً اخيرة محلاتهم الخصوصية غير ان امير جانفيلا منعهم عن ذلك خوفاً من ان قلوبهم تتزعزع بل كان يقول لهم عن ذاته : انى لما رجعت من زيارة بليكورت لدي القديس اوربانوس وكان يلزمنى ان امرّ على الطريق نفسها من على قصر جانفيلاّ فما حوّلت نظرى نحو جانفيلاّ اصلاً خشيةً من انى اشعر بكدر وافر وقلبى ينعطف نحو ما تركته هناك اى اثنين من اولادي وقصرى الجميل الذي فى جانفيلاّ العزيز جداً على فوادي : ✿

فلما قرب عيد مولد القديس يوحنا المعمدان سنة ١٢٤٨ نفسها مضى السلطان لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس ليستمد شفاعة رسل فرانسا ويستلم سنجق الحرب الذي مراتٍ عديدة قبلاً نُصب فى اراضى سوريا كما انه هناك لبس من يد النايب الباباوي اثواب السفر فى الحرب الصليبية ثم رجع الى باريس وحضر الذبيحة الالهية في كنيسة والدة الاله الكاتدرائيية وفى اليوم الثانى سافر من المدينة المتملكة المذكورة مرافقاً من الاكليروس الى بابها مرتلين المزامير الداودية والسلطانة بلانشا استمرت صحبة ابنها الى حد دير كلوى وهناك تفارقا ليس من دون سكب الدموع من اعينها وهى رجعت الى باريس فى حال حزنٍ شديد غير مومّلة ان تشاهد ابنها الملوكى الا فى السما واما السلطانة

مرغريتا عروسة القديس لويس فرافقته نحو بلاد فلسطين اذ لم يمكن لاحد ان يقنعها بالخلاف فالعسكر قد سار في جهة بلاد فرانسا القبلية لان هذه الملكة لم يكن لها وقتيذٍ مينٌ على حد بحر نصف الارض ومن ثم السلطان البار قد مرّ في اقليم لانكادوك ونزل في عمارة المراكب من مينا اكاس بورتاس في ٢٥ اب سنة ١٢٤٨ عينها ✿

: فحالاً ريسنا الاعلى في المركب الذي نزلنا فيه صرخ على جماعته بقوله هل ان احتياجكم حاضر هل جمعتمونا الى القطب فاجابوا كلهم «اي نعم اي نعم» فلما دخل الكهنة وساير الاكليريكيين الي السفينة صيّرهم ان يرتلوا باسم الرب هذه الصلوة الجميلة وهي «هلمّ ايها الروح الخالق الخ» وفيها كان الصليبيون يرتلون ويتجاوبون منتقلين من صلوةٍ الى صلوة فالملاحون فتحوا القلوع باسم الله والارياح نفختها وعندما ابتعدوا عن مشاهدة الارض ما عدنا نظرنا شياً الا السما والبحر سايرين يومياً الى ما قدام وبالابتعاد عن المحل الذي سافرنا منه ومن ثم رايت ملايماً ان اقول انه جاهل احمق ذاك الذي يعرف ذاته حاوياً عنده شي يخص القريب ولا يرده اليه او الذي يعلم ان نفسه حاصلة تحت خطية مميتة ولا يعترف بها تايباً وبعد ذلك يضع ذاته في خطر كذا لان المرء منا ينام مساءً ولا يعرف ان كان ياتي عليه الصباح وهو في ظهر البحر او في عمقه : ✿

ثم ان عمارة المراكب قد بلغت جزيرة قبرص سالمةً حيثما كان يملك سلطانها لوزنيات ولكن في ايام اقامة العسكر هناك دخلت بينهم الامراض واضرتهم كثيراً بموت عدد وافر منهم فالكونتة ده دروكس والكونتة ده مونتفورت والكونتة ده فاندوما والارشامبود ده بوريون مع كثرةٍ من الاشراف وغيرهم قد اعترتهم

حمى وبائية واعدمتهم الحيوة فقبل وفاتهم زارهم السلطان لويس وكان يعطي البعض منهم ادوية طبية وغيرهم فضةً ويعزى جميعهم بالرجا ومن حيث ان هذا السلطان القديس قد استمر مقيماً في قبرص الى زمن الربيع فقد تواجدت لديه هناك حوادث كثيرة فيها اظهر هو سمو حكمته وحقايق فضايله الراهنة فقد جلب الصلح والاتحاد فيما بين اهالي الجزيرة المذكورة الذى كان نصفهم من طايفة الروم والنصف الاخر لاتينيين وكذلك ازال الاختلافات واوقع الاتفاق فيما بين الخيالة الهيكليين وبين رهبان القديس يوحنا المعمدان الاورشليميين وكانت مشاهدة الناس اياه وحدها تجذبهم الى احترامه وتوقيره ومحبته والرجا به وتقرر عن عددٍ ليس بوجيز من الاسلام الماسورين حينما تاملوه امام الهيكل ممارساً صلواته بذاك الورع والخشوع وحسن العبادة ورصد العقل فاختاروا لذواتهم اتباعه في الديانة المسيحية معتنقين اياها ✿

ثم عندما اعتمد هو على السفر من قبرص ارسل من قِبله قاصداً الى سلطان مصر يوضح انه قد اشهر الحرب ضده فهذا الايوبى مالك حالاً رد الجواب برجزٍ وحشى الى السلطان لويس عن ذلك ومن ثم عمارة المراكب سافرت حالاً من قبرص وبعد ان تكبدت عواصف عنيفة بددت منها مراكب مختلفة تشتيتاً قد بلغت اخيراً الى مينا دمياط وحينيذٍ مشهدٌ ذو بطشٍ واقتدار عظيمتين صودف تحت ابصار المسيحيين الذين هناك لانهم من الجهة البحرية راوا عمارة المراكب كثيرة قوية ممتلية جيوشاً صليبية والسناجق السلطانية والامرية تتموج فوق سواريها وعاينوا من جهة البر عساكر الاسلام مثل الجراد مقبلة مغطية وجه الارض الى مداء بعيد واسلحتهم تلمع تحت حرارة مناخ افريقية ثم ان الطبول والزمور ترعد فى الفضاء مهيجة جسارة

العساكر الشرسين وفى وسط هولاء الجموع كان سلطان مصر تحت مظلةٍ من ذهب تشعشع غالبة على اشعة الشمس مسيرة اياه نظير كوكبٍ متلالٍ بالضياء مبهر النظر ☆

فحالما وقعت عمارة مراكب الصليبيين تحت اعين الاسلام فالسلطان لويس ظهر على راس مركبه المتقدم معلناً لهم ذاته بشجاعةٍ صنديدية فارموا المراسي وهو عقد ديوان المشورة فروسا العساكر قدموا رايهم بان العساكر تتوخر اياماً ما عن الخروج الى البر واما السلطان المتقد بنار الغيرة والمتشدد بالرجولية اراد الخروج حالاً ونصب علامة النزول الى البر فالجيوش من دون تاخير انحدروا من السفن الى القوارب والقياسات البطحة الخالية من سرسبة وانقسموا صفين باعتدال فالقديس لويس قد جاز امامهم مع اخويه واحد الاشراف رافعاً بجانبه سنجق الحرب والنايب البابا وي امامه حاملاً الصليب المقدس فلما شاهدته الجيوش متقدماً نحو البر فحالاً الامرا والنبلا والاشراف والعساكر اسرعوا بايديهم السيوف مجردة وبالاتراس محامون عن ذواتهم من نبال العدو فلما دنوا من الشط السلطان طرح ذاته فى البحر عايماً الى الارض والجميع هجموا نظيره فملكوا البر وردوا الاسلام عن الشط الى الورا فالاعدا رجعوا الي مضاربهم واصطفوا الى معركة حربية شديدة فاصوات الجيوش من كل جهة رنت فى الفضا بموقعة قوية برهةً من الزمان فالاسلام وجدوا في ارض مرملة يجاهدون بحرارةٍ رجولية الا انهم غب ساعاتٍ من المدافعة عن انفسهم ما عاد لهم الاستطاعة بالثبات امام الابطال الفرنساويين فاضطروا الى الهرب بعد ان تركوا عدداً عظيماً منهم قتلى في السهل ثم فى الوقت نفسه تعلق الحرب ما بين مراكب الصليبيين .وبين عمارة سلطان مصر التى اقبلت عليهم فالموقعة

بحرا ً اشتدت عنيفا ً من الفريقين ولكن الغلبة اشتدت للمسيحيين على الاسلام فى البحر ايضا ً وهكذا اذ فازوا بالنصر مرتين فى يوم واحد وملكوا طريقا ً سهلا ً الى دمياط فمن دون تاخير ساروا اليها ودخلوها فشاهدوها من الناس المحاربين خالية ً لان الاسلام المحافظين المدينة ارتعشوا من الغلبة التى اكتسبوها الصليبيون على سلطان مصر وجيوشه خارجا ً فاستحوذ عليهم الخوف الشديد وحالا ً تركوا المدينة هم ايضا ً وهربوا فحينيذٍ العساكر مع السلطان لويس جميعا ً اجتازوا بترتيب واخذوا التملك على دمياط خلوا ً من معركةٍ اخرى والقديس لويس المتضع فى حال انتصاره نفسه اخذ صحبته عيلته والامرا والاشراف وتوجه الى الجامع الكبير بصفة كونه كنيسة سابقا ً وهناك رتلوا صلوة الشكر لله على هذا الانتصار الغريب السريع بمعونته تعالى ☆

فاخبار هذا الظفر قد طنّت فى الاقاليم المصرية بسرعةٍ والسلطان مالك حالا ً قد غضب على العساكر الذين اهملوا مدينة دمياط وهربوا فقتل روساهم حالا ً اربعة وخمسين شخصا ً وغب ان جمع جيوشه المتبددة جاء بها طالبا ً من سلطان فرانسا صنيع معركة حربية فهذا البار فى السلاطين كان يرغب امتداد ذراعه الى ما قدام ضد الاسلام من دون توقف الا ان ارباب ديوان مشورة الامرا والقواد اقنعوه بالتمهل الى ان يكون وصل اليه اخوه الثالث الكونته ده بواتيارس الاتى بعساكر جديدة معونة ً لهم فمن ثم قد اجتهد هو في تحصين معسكره واجتاز كمالة زمان الصيف فى دمياط غير ان هذه الاعاقة اضحت مضرة ً الى الصليبيين لان الراحة بالبطالة والرخا بالمعاش وتنعمات الجسم اصلّت فيها بينهم اباحة الالام الامر الذي جعل السلطان القديس ان يتنهد بمرارةٍ امام الله متوجعا ً جدا ً من اعمالهم الغير المرضية

وان يجتهد بكل استطاعته بالصرامة العادلة وبنموذجات سيرته المقدسة فى ان يوطد ما بينهم التهذيب وحسن الترتيب فاذاً عساكر المعونة المنتظرون قد اقبلوا الى دمياط وحرارة فصل الصيف قد زالت ونهر النيل الفايض قد رجع الى مجراه الاعتيادى ومن ثم فى شهر تشرين الثانى تحرك العسكر الصليبي بالمسير نحو مدينة مصر فالسلطان لويس ترك السلطانة مرغريتا قرينته والاميرات فى دمياط مع جانب وافر من عساكره لمحافظتها وسار على روس باقى الصليبيين فى طريق القاهرة ✿

ففى بحر مدة اقامتهم فى دمياط سلطان مصر مالك حالاً قد كان مات معيناً ابنه قبل وفاته خليفة لهُ ومفوضاً تدبير الجيوش للامير فخر الدين : الاشد رجوليةً والاكثر كفاءةً من كل الامرا الغير المومنين : فهذا القايد العام فخر الدين حينما عرف سفر العسكر الفرنساوي من دمياط انفذ رسايل الى الجهات المصرية تُليت بالجوامع مخبراً فيها الاسلام بقدوم الصليبيين ضدهم الامر الذي جلب للسكان اجمعين قلقاً وخوفاً عظيمين ونظير مؤيسين حملوا الاسلحة بجملتهم واجتمعوا جماهير غفيرة جداً وفخر الدين سار بهم بقوةٍ كلية نحو الدلتا (التى هى البلاد الكاينة ما بين البحر المالح وبين شقتى نهر النيل الدمياطية والرشيدية وتُسمى الجزيرة ايضاً لانها محاطة بالبحر وبنهر النيل وانما دُعيت الدلتا لانها مثلثة الزوايا هكذا ∆ نظير صورة الدلتا الذي هو احد حروف الهجا اليونانية الكبيرة ∆) فجاء بالعسكر الاسلامي وضرب خيامه مقابل احدا زوايا الدلتا حيثما ينقسم نهر النيل الى الشقتين الدمياطية والرشيدية معتمداً ممانعة الصليبيين عن اجتياز النيل من الجهتين الى اراضى القاهرة ✿

فالجيوش الصليبية ما سافروا من اراضى قرية فارسكور الا فى

اليوم السابع من شهر كانون اول فبلغوا فى اليوم التاسع عشر منه الى امام اسكامون ونصبوا المضارب فى المحل نفسه الذي قبل بمدة ثلثين سنة كان سلطان اورشليم يوحنا ده بريانا ضرب فيه خيام معسكره فقد وطدّ هناك السلطان لويس جيوشه بصنعةٍ وبتحصيناتٍ قوية حتى كان يُشاهد من البعد كانه مدينة حرب ولكن من دون فايدة كان الصليبيون يمارسون اجتهاداتهم في ان يجتازوا نهر النيل او خليج الطانيس الفاصل ما بينهم وبين عساكر الاسلام الموجودين فى المنصورة الصادمين هذا الاجتياز وكذلك استمروا عدة سبّات مقيمين فى الدلتا مكانهم الخاضع لرشق النبال من العدو ولحذف الكرات النارية الفريجاوزية من الاسلام عليهم ويومياً خيالة الاعدا كانوا يمارسون هجماتهم ضدهم من برهم لحد متاريسهم وكان القديس لويس كل مرةٍ يشاهد النار الردية المذكورة مرشوقة على معسكره بنوع مهيل فكان يجثو على ركبتيه مع الامرا طالباً من يسوع المسيح الرحمة باعلى صوته لان الاسلام قد اباحوا كل ما دربهم اليه روح الخباثة والحيل ووضعوا بالعمل كل الوسايط الجسورة والقوة الرجولية فى انهم يفوزوا بمباغتة الصليبيين ودثارهم . فالمورخون العرب اذ يتكلمون عن الحرابات اليومية المارسة فى البر وفى النيل من الاسلام ضد النصارى فى مدة الايام المنوه عنها بانواع مختلفة من الخداعات والاشراك يخبرون من جملتها بان احد العساكر الاسلام اخذ قرعة شتوية وفرّغ داخلها اسفلاً ولبسها فى راسه ثم نزل فى نهر النيل وعام فيهِ بصنعةٍ بها لم يكن ظاهراً منه شيءٌ سوى القرعة كانها طايفة على وجه الماء سايرة مع الطيار من جهة الارض الكاينة فيها العساكر الصليبية الذين احدهم شاهد القرعة مارة من قرب الشط فتقدم ماداً يديه لياخذها فحالاً المسلم من تحتها

مد يده فقبض عليه وجذبه الى النهر وغطس به ثم اخرجه من الناحية الاخرى الى معسكرهم اسيراً ✿

فلما استمر الصليبيون على هذه الحال مدة ثلاثة اشهر خلواً من ان يقدروا ان يمروا من على النيل الى الجهة الاخري وقد كلّوا من التعب والاقامة فقد ارتأوا بالرجوع الى دمياط الا ان واحداً من العرب اتاهم مخبراً اياهم بانه عارف فى احد الشطوط بمجال فى نهر النيل عريض غير عميق قادرة الخيالة ان تجوزه بخيولهم من جهة الى اخرى وبانه هو يقودهم اليه فهم فرحوا بذلك جداً وبرضى السلطان لويس سار مع ذاك البدوي اخو السلطان الكونته روبارتوس ده ارتواز وصحبته الخيالة الهيكليون وضياف الغربا غير ان المجال المنوه عنه كان عسراً جداً والعساكر اصرفوا على عبوره زماناً طويلاً فالكونته المذكور الشاب الفريد فى الشجاعة الذى جاز النهر الى الجهة الاخرى قبل الجميع قد صادف عن بعد فى تلك الناحية جمهوراً عديداً من عساكر الاسلام فالبطل الشديد الحرارة المحب مجد الانتصار بزيادة هجم بسيفه هجمة خالية من الفطنة مبدداً كلما صادمه متقدماً فى اراضى الاعدا فالخيالة ارفاقه بدون فايدة كانوا يصرخون عليه بقولهم انه بذلك خالف امر السلطان اخيه الذى حتم على الجميع بان ينتظروه فى قاطع النيل خلواً من مسير الى ما قدام فحينيذ فوكوت ده ميلاس مربيه القديم شد لجام حصانه وبداء يصرخ على الخيالة بصوت عظيم عليهم عليهم ولكن بدون ان يسمع صراخ الخيالة بتشكيهم المرّ من ابتعاد الكونته اخا السلطان عنهم : فالهيكليون لما شاهدوا ذلك ظنوا الكونته مغتاظاً فتركوه يسير كما اراد قدامهم وهم بقدر ما استطاعوا ساقوا خيولهم وراه جرياً عنيفاً : فمن دون اعاقة بلغوا الى جمهور

الاسلام غفلةً وهجموا عليه ضاربين بسيوفهم ورماحهم يميناً وشمالاً كل ما كان يقع تحت ايديهم ولكن ههنا كان معداً للكونته ده ارتواز التعاسة التى سببتها له شجاعته الجسورة لانه بعد ان هربت امامه العساكر الاسلام المتبددون من ذاك الجمهور العديد الذي ضربهم قد سعي فى اثره فاضحى هو بمنزلة محبوس فى مدينة الاعدا الذين تكاثروا حوله فدخل الى احدي الدور محامياً عن ذاته بجهادٍ عنيف ولكن بدون فايدة لا من شجاعته ولا من مدافعة الخيالة الذين معه لانه شاهد بجانبه ريس عام الهيكليين سقط مقتولاً مع خيالته الفطاحل كلهم على نوعٍ ما وهم راول ده كوزي وغويليوم لونكايه مع ثلاثماية خيال من جهابزة عسكر الصليبيين واخيراً هذا الكونته نفسه لحقهم ساقطاً تحت سيف الاعدا قتيلاً بعد ان استمر مجاهداً الى اخر نسمة من حياته وهذه الخسارة العظيمة حدثت فى شهر اشباط سنة ١٢٥٠ فحينما هذه المعركة الدموية كانت في المنصورة فالسلطان لويس كان اجتاز مع العساكر خليج طانيس مهتماً فى ترتيب المعسكر الى معركة حربية وكان منظره ذا عزةٍ ملوكية يبهر الابصار كما يقول جوانفيلا : انى رأيت السلطان اتياً وامامه الجيوش بمشهد مهيل كانهم عناصر متعاصفة تبرق لامعةً فانا اقرر راهناً انه ما سبق قط انسان متسلح جميل نظيره لان قامته كانت مرتفعة اعلى من كواهل جميع الخيالة الذين حوله فخوذته المذهبة الجميلة فوق راسه مضية باشعتها وسيفٌ نمساوى قريبه في يده فانت يا هذا الان تتامل تابعاً مسيره لكى تشاهد اعماله الحربية فى هذه المرة هناك ذات الشجاعة العجيبة والافعال التى ما حدث مثلها قبلاً فى معركات الحرب الصليبية السابقة : ففيما كان المعسكر ساير بهذه الصورة واذا على البدية بامير جيوش فرانسا النبيل

يوجو مقبلاً نحو السلطان لويس مخبراً اياه بان اخاه الكونته ده ارتواز هو فى حال ضررٍ عظيم داخل اسوار المنصورة فاجابه السلطان قايلاً : يا امير الجيوش اسرع انت بما معك امامنا ونحن نتبعك وشيكاً : فهذا السلطان قد سبق ملاحظاً الحادث ومن شدة خوفه على حيوة اخيه الفريد جداً لديه قد اجهد العساكر بسرعةٍ اجتياز النهر لكى يعجل نحو اسعافه فامير الجيوش اخذ معه الشريف جوانفيلّا وعدداً وافراً من اخص الخيالة وساروا ركضاً وهجموا على الاسلام الذين كانوا ستة الاف مقاتل فتصادم الجيشان بمعركة شديدة الباس لا بصورة حرب صفوفية بل بالتحام الجسم بالجسم و بضرب السيوف والارماح والحراب والبلطات بانواع مهيلة و بقعقعة الاسلحة ومصادمتها وضرب الخيول كانت الارض ترتج والفضاء يرّن فهناك بعد جهاد عجيب قد قُتل وآلى تريشاطو وهوكزده اكوسا وراول ده فينوت وفاريّس ده لوبّى واما ارارد ده ايرى فوجهه ُضرب بسيف احد المماليك مقسوماً ثم ان النبيل جوانفيلّا سقط فى الارض تحت ارجل الخيل ولكنه نهض مجروحاً كانه فى حال الموت وان لم يعرف شياً اخر سوي دوام افعال شجاعته ركب جواده واسرع ورا عساكر امير الجيوش وهناك صادف جيش الاسلام مانع المجال فقد تعلق الحرب جيشٌ بجيشٍ من جديد بمعركة شديدة جداً عند المجال المهّم فى الغاية للفريقين فالشريف جوانفيلّا بجهاده الرجولى قد انجرح خمس جراحات وحصانه خمسة عشر جرحاً ثم ان الكونته جاهان ده سواسون موعباً من العرق مكسياً من الغفار كان فى هجماته على الاسلام بسيفه يغوص فى وسط جماهيرهم الاشد التحاماً فاتحاً وراه طرقاً واسعة ممن كان يرميهم قتلى ومجرحين واخيراً بفرحٍ كان يقول نحو جوانفيلّا : ايها العظيم الشان

فلنتركن هولاء الاندال يصرخون ناهقين كالحمير ونحن بمعونة الله سنتكلم عن اعمال هذا اليوم انا وانت فى اجتماعاتنا امام نبيلات الشرف : ✫

اما السلطان لويس فكان يحارب مع معسكر الاعظم كثرةً على شط النيل وهناك اعماله الحربية فاقت على كل ما سواها مع جيوشه الابطال الى ان تقدم الى السهل لاسعاف الخيالة (فيقول المورخ) انه عندما شاهدهم فى حال قتالهم ظن ان الملايكة كانت تحارب معهم : فانت يا هذا كن متحققاً ان الذى صنعه هذا السلطان الصالح فى اليوم المذكور قد كان اعظم من جميع الاعمال الحربية التى حدثت فى زمانى وانا وجدت فى معركاتها ويمكن القول انهُ لولا يكون هو معنا بشخصه الملوكى لكنا دثرنا باجمعنا وبدنا من الوجود فى مصادفتنا مع قوة الاسلام الغريبة فى اليوم المرقوم المخيف وانا موقنٌ بان فضايله السامية ومنظر قنومه المهاب قد ضاعف شجاعة الجيوش بقوة الله لانهُ كان هو يدفع ذاته جرياً فى وسط الجميع حيثما كان يرى عساكره مضرورةً وكان يضرب اعداهم بالسيف بنوع عجيب مبدداً اياهم : ✫

فهذا الجليل فى الملوك كان راكباً على حصان حرب عظيم عالٍ جداً ومن فوق ظهره كان هو يبان سامياً على روس جميع اتباعه وهو شوهد فى اوقات الحرب نظير سنجق مقدس مرتفع وحوله متجددة متوافرة انواع الرجولية الفايقة الوصف كما ان ثباته بالرسوخ خلواً من قلق فى حين الخطر المبين والفاظه الجليلة ونموذج اعماله قد كان يحفظ الترتيب والنظام وابعاد البلبلة من المعسكر ويوطد الرجا وحسن الامل ويصد عن الجنود وقوعهم فى التبديد فعندما كان هو اجتاز الخليج وُجد فى حال خطر عظيم من الاعدا وكانت الجيوش لم تزل باقية فى الناحية

الاخري من النيل قد شملهم الخوف (يقول المورخ ده روتهالين) فكبارهم وصغارهم طفقوا يندبون باكيين ويصرخون باعلى اصواتهم من شدة الحزن ضاربين ارجلهم فى الارض ولاطمين روسهم ناتفين شعورهم مخدشين وجوههم قايلين اواه . ويلاه . واحسرتاه . ان السلطان واخوته وارفاقه كلهم فقدوا . فستة خيالة اسلام اقبلوا راكضين باستقامة ضد السلطان عند خروجه من النهر وحده واستبان بلا ريب انهم اخذينه اسيراً : ولكن الاسد سلطان فرانسا (يقول جونفيلا) قد اعلن افعال شجاعته المذهلة بقوة غريبة حتى انه هو وحده خلواً من معين بدد الستة خيالة وخلص ذاته من ايديهم : *

فاذاً نظراً الى المعركة الكبرة بين الجيشين المسيحى والاسلامى المتقدم ذكرها قد استدامت حتى المساء وحينيذٍ العدو ارجع الى الورا والصليبيون عادوا الى معسكرهم وفى ذاك الوقت بلغ السلطان الخبر المحزن الذي لحد الحين المذكور كان هو يجهله فالاشراف الفرنساوية قد وقفوا حوله بصمتٍ عميق احتفالى والبعض منهم بعد ذلك سرع يقول نحوه بعض الفاظ تعزية : الا ان السلطان القديس اجابهم قايلاً فليكن لله السجود والتكريم عن جميع ما اعطانى واذ تفوه بهذه الالفاظ هطلت من عينيه على وجهه دموعٍ خشنه بسخاء فالعظما عند مشاهدتهم اياه باكياً يحمد الله عن كل ما اراد ان يمتحنه بهِ قد شملهم حزنٌ شديد : فوقتيذٍ الريس ده روزنى تقدم اليه وقبل يده مسايلاً اياه هل عنده خبرٌ عن اخيه الكونته ده ارتواز فاجابه السلطان : اي نعم بالحقيقة اعرف خبراً . وهو ان شقيقى الصالح هو الان حاضر فى الفردوس السماوى : مشيراً برفع هامته نحو السما *

ثم فى اليوم التالى الذي هو نهار الجمعة من السبّة الاولى من الصوم الكبير عددٌ فايق الاحصا من الاسلام المحاربين قد احاطوا

معسكر الصليبيين بشدةٍ متواثبين عليه كوحوش كاسرة وفي وسطهم كانوا رافعين على راس رمحٍ عالٍ هامة الكونته ده ارتواز المقطوعة مع سيفه مزين بزهر الزنبق فالجيوش المسيحيـة المستدركين من الليل هجوم الاسلام عليهم قد كانوا حصنوا متاريسهم فحاموا عن ذواتهم جيداً برجوليةٍ ولكن بعد ان كلّوا من الجهاد وادمرتهم اتعاب المصادمة ما عـادوا قادرين على المناضلـة الا بضعـفٍ من الملل لا بنقصٍ عن الشجاعة وكادوا عما قليل يعجـزون تماماً ويدثرون بالكلية من شـدة الاصابـات التي المت بهم من قبل النيران الفريجاوزية التى كانت الاعدا يرشقونهم بها بتكاثرٍ وهذه النار ما عاد احد يعرف سرّ صنعتهـا الا الاسلام وحدهم وكانت تتعلق على ملابس الصليبيين وعلى شعور خيلهم وهكذا العنصر المذكور كان يقلق المعسكر من كل ناحيةٍ ويعذب الناس والحيوانات ويرعب القلوب واما السلطان البطل الصنديد فكان يجول في المعسكر من جهةٍ الى اخـري مشجع الجميع مساعداً الذين في اعظم خطر خلواً من مبالاة بالنيران المذكورة المتعلقة في كل مكان وحسب تقرير جوانفيلّا انـه بـلا ريب لم تكن حيوة هذا السلطان المحفظت من الموت الا باعجوبـة خصوصية من الله القادر على كل شي فاخو السلطـان الكونتـه ده انجو اذ كان في هجومه على الاعدا سقط فيـه حصانـه الى الارض بعيداً عن ارفاقه فالسلطان عندما عرف ذلـك حـذف ذاته اليه فيما بين النبال والكرات النارية المنقضة عليه كالصواعق فخلصه سالماً ورجع بهِ الى المعسكر اخذاً العساكر وهاجماً بهم على الاسلام الذين ردهم الى الورا وامتلك الارض التى كانوا فيها وبهذه الهجمة وما تبعها من الجهاد فاز الصليبيون بالنصر على اعدايهم الذين هربوا مدبرين وحينيذٍ السلطـان لويـس اغتنم

القومة بالمراحة من الحرب فى انه قدم لله الشكر الواجب باحتفال مع جيوشه على الغلبة التى نالوها بمعونته تعالى ✿

فجنود الصليب فى اليومين المذكورين فازوا باعمال حربية مذهلة وبانتصارات مجيدة قد اضحى ذكرها شايع الصيت بابلغ مديح واوفر تعاجب من جميع المعركات الموردة فى تواريخ الحروب المقدسة كلها ولكن الفوايد من ذلك عادت الى الاسلام لان الجيوش الصليبية ولين كانوا حصلوا على الغلبات المذكورة فمع ذلك خسايرهم كانت باهظة من قبل ما فُقد منهم فى المعركات من ارفاقهم الكثيرى العدد لانهم بقوا بالكاد نصف ما كانوا عدداً حين قدومهم نحو دمياط وبالتالى ما عادوا قادرين ان يواصلوا مسيرهم ضد مدينة مصر لعلتهم وهكذا الاسلام ولو انهم انكسروا مرات وخسروا كثيراً من قوتهم فمع ذلك لانهم فازوا بعدم امكانية تقدم الصليبيين ضدهم قد كانوا يفتخرون بهذا التعطيل الذي صنعوه لاخصامهم وقد كلوا من محاربة المسيحيين ضعفاً مدة ايام وهذا حصل بالتبادل من الفريقين اللذين شعرا وقتيذ بالضرّ مما حدث فلم يعد احدهما نظير الاخر يفكر بان يجدد المعركات بينهما ولكن فى هذه الفترة من الحرب تواجدت فيها بين المعسكر الصليبى امراض ردية معدية كما شملهم الجوع من نقصان ذخاير القوت وعدم نوالهم امكانية الفوز بماكولات من البلاد التى حولهم المملوة من الاسلام اعداهم فالامراض والجوع وشدايد اخر المت بهم بانواع يرثى لها فيقول النبيل جوانفيلّ الشاهد العيانى والمشترك بهذه الاحوال : انه بعد معركات اليومين المذكورين قد احاق معسكرنا سوء الحظ بشدايد اخر لان جثث القتلى المطروحة على الاراضى فى شط النيل الشمالى والاجسام المايتة الذجوجة فى مياهه بعد ثمانية او عشرة ايام كلها ظهرت

بشدة النتانة وكانت كثرتها هكذا عظيمة براً وفي الخليج طايفة منتفخة حتى انها غطت وجة المياه وما عاد يُشاهد شي الا هذه الجثث العايمة فابخرة هذه المجموعات من الاجسام الفاسدة قد عجّت في الفضاء وكيّفت الهوا فساداً وعكّست مناخ الارض القتالة في المعسكر وامتدت بين الجنود بهذا المقدار حتى ان لحمان ساقاتنا قد يبست لحد العظم وجلود اجسادنا اضحت مدبوغةً سواداً او بلون التراب وهكذا كلٌ منا صار ينتظر الموت حاضراً بين عينيه ولم يكن احد يفتكر بانه يبقى في الحيوة نافداً من هذه الشدة بل لم يعد يُصادف احد منا جميعاً عند مشاهدته كيان الاعضا المايتة من يحزن على قريبه المقتول او من يندب صديقه المتوفى وبالكاد امكن ان توجد خيمة او ماوى او محل من المعسكر خالياً من مرضى مطروحين او من موتى ابادهم الداء الوبائي : ✫

ثم اُضيف الى ذلك ان بعد مدة ايام فنيت ذخاير القوت كما اشرنا الى ذلك انفاً واستحوذ الجوع القاسي حتى ان الاشد قوةً فيهم والاسمن جسماً منهم قد انتحلوا ضعفاً واعترتهم الحمة الرفيعة ورويداً رويداً استحال المعسكر الى بيمارستان عمومى بالكاد من كان يُشاهد منهم قايماً على رجليه وغب ايامٍ اخر صار بمنزلة كمنتير مشاع لدفن الموتى منهم في ارضه والاحيا منهم فيها بين الدافن كانهم يشاهدون ارواح اقرباهم واصحابهم كاينة معهم وسيف الجوع ضرب بهم تكميلاً للدنار لان الاسلام قد كانوا فوق المنصورة جمعوا عدة مراكب رابطة النيل وكل السفن الواردة من دمياط بذخاير المعاش نحو معسكر الصليبيين كانوا اما ياخذونها غنيمةً او تهرب راجعةً الى دمياط وهكذا لم يعد يصل شي من القوت الى الجنود المسيحية وبالتالى ان المحاربين

الذين نجو من المرض صاروا يموتون من الجوع : واما السلطان لويس الفضيل فقد كان مشاهداً هذه الحال المحزنة بصبرٍ عجيب رافعاً يديه نحو السما مباركاً الارادة الالهية عما سمحت بان تفتقده بهِ : فلم يكن في هذا المنهد المرثى له شي يوجب الانذهال بمقدار ما ظهر عن هذا القديس من تسليم الارادة التام لله بالخضوع الكامل لمراسيم عزته الالهية خلواً من ادنى تشكي وقد تناسى اضامته الشخصية وكان يومياً دايراً على خيم الجيش وهناك بيديه الملوكيتين كان يضمض جراح المصابين بالسهام ويعالج المرضى وبالفاظه العذبة يعزى المضنوكين ويشجع صغرى الانفس ويفتح امام المنازعين ابواب الفردوس بميتة صالحة بدون ان يوجد امر من الحوادث ممكناً ان يقلل ثباته او ينقص شجاعته او يضعف غيرته او يبرد حرارة محبته نحو القريب وهكذا الجميع كانوا يشكرون فضل سلطان كذا قديس ومن كان يتوفى بحضورة لم يكن يشعر لا بالحزن ولا بالخوف فاحد خدامه المدعو غانجلم اذ دنا من الموت وكان الكاهن عنده يحرضه على تسليم الارادة بميتة صالحة فاجاب قايلاً للكاهن : كلا انا لا اموت اصلاً ان لم اشاهد المرة الاخيرة سيدي القديس : فالسلطان جاء اليهِ ليزوره ويعزيه وحينيذٍ المريض امتلى مسرةً وبكل هدوٍ رقد بالرب ثم ان الشريف فى النبلا جوانفيلاً نفسه قد انطرح مريضاً بالداء الردي المعدي المعترى ارفاقه فلنسمعنّ الفاظه بالسداجة الموردة بها عن مرضه وعن موت كاهنه الخصوصى اذ يقول : اما نظراً اليّ فانا لم اكن اجود من رفقاي الاخرين لانى كنت موجوعاً جداً ومجروحاً جرحاً عضالاً فقد وجدت على فراشي مريضاً بزيادةٍ ومثلى كان معترى من المرض كاهن دارى المسكين فيوماً ما اذ كنت انا متضايقاً كثيراً من الاوجاع فالكاهن

المذكور الذي لم يكن يفارق سريري قام ليقدم الذبيحة الالهية امامي ولكن لما بلغ هو الى وقت تلاوة كلام التقديس قد لاحظته اذا مضاماً بشدة المرض وقريباً من ان يغيب عن حواسه ساقطاً في الارض فانا مع حال كوني معذباً من المرض نهضت من فراشي ودنوت منه ماسكاً اياه من ورايه قايلاً له ان يعي لذاته وليكن حاصلاً على السكينة وان يتخذ ثقة وشجاعة بقوة ذاك الذي ازمع ان يوجد بين يديه فقد رجع الى ذاته ومن حيث انه تساعد بسندي اياه هكذا قد اكمل القداس تماماً وبعد ذلك توفى راقداً بالرب الذي نساله راحة نفسه : ☆

وكذلك السلطان لويس بعد ان احتمل اتعاباً ومشقاتٍ شديدة قد انطرح هو ايضاً مريضاً ومن دون اطالةٍ بلغ بهِ المرض الى ضعفٍ كلي فكل احدٍ من العسكر كان يرتجف خوفاً من فقد هذا الملك المحبوب من الجميع حباً عظيماً ففي هذا الحادث المحزن في الغاية زالت الشجاعة من قلوب الروسا والمروسين ولم يعودوا يفتكرون في شي سوي في ان يتعاطوا ما للصلح مع الاسلام متفقين على عهد رفع السلاح وابطال الحرب الى مدة معلومة ☆

ففيما كانت الجيوش الفرنساوية حاصلة في هذا الحال في تلك الارض الافريقية قد اقبل من بلاد بين النهرين الى مدينة المنصورة الامير الشاب علم الدين ابن سلطان مصر المتوفي وخليفته في التخت المصرى فالاسلام المحاربون تشجعوا واضافوا ذواتهم الى عساكر سلطانهم هذا الجديد فتضاعف عددهم واشتد باسهم وفازوا بذخاير حربية وقوية وغنية جداً فصاروا معسكراً مهاباً ومشهداً مرعباً وكانوا يمدحون ذواتهم بالمصايب الحالة بالمسيحيين فالقديس السلطان لويس اذ اراد ان يخلص حيوة الباقيين

من جيوشه من اخطار جديدة ارسل للسلطان علم الدين بطلب الصلح بناءً ان يرد اليه مدينة دمياط وياخذ عوضاً عنها مدينة اورشليم فالسلطان علم الدين رد الجواب عن ذلك بانه لا يمكن ان يقبل معاطاةً بشروطٍ وصلح ان لم يسلمه ذاته السلطان لويس رهناً عنده على العهود المزمع الاتفاق عليها فهذا الملك البار الذي كان يشتهي ان يبيع حياته هو وحده لاجل خلاص عساكره ورجاله لم يتاخر عن ان يسلم ذاته لهذه الشريعة القاسية واستعد الى ان يودع عظما دولته الوداع المرّ المحزن الّا ان النبلا جفروا ده سارجيناس وموفواسين وشاتيلون وجوانفيلاً مع باقي اشراف الفرنساويين انطرحوا على قدميه صارخين بغيظٍ انهم يقتلون ذواتهم باسلحتهم نفسها احري من انهم يسمحون بان سلطانهم يضع ذاته اسيراً بايدي الاسلام وهكذا جميعاً قطعوا حبل الصلح واستعدوا الى ان يجوزوا نهر النيل راجعين الى محلهم الاول ✿

ففي اليوم الخامس من شهر نيسان نهار الثلاثة من السبّة الثانية بعد الفصح الصليبيون اخذوا طريق دمياط بالرجوع فقد انزلوا في السفن ضمن نهر النيل المرضى والنساء والاولاد واما باقي المعسكر فساروا من جانب الشط في البر والسلطان متقدمهم بحرصٍ واهتمام وافرين وتيقظ كلي لانه وان يكن هو وقتيذٍ لم يزل مريضاً فمع ذلك لم يرد ان يسافر في المراكب بل ان يستمر مع شعبه ولو حدث ان يموت معهم فالاسلام لما عرفوا اجتياز الصليبيين النيل الى الشقة الاخرى مسافرين قد اسرعوا هم ايضاً بانهم عبروا الخليج الى الجانب الاخر واملاوا الارض بكثرتهم قبل وصول المسيحيين الى هناك وهوذا شدايد اخر عظيمة احاقت بالفرنساويين لان اعداهم صادموهم من كل جهةٍ واضيف الى الاضطراب ظلام الليل حتى انهم ما عادوا يعلمون اين

وكيف يسيرون ومن اية ناحية يحامون عن ذواتهم ثم لخوفهم من التيه والتبديد كانوا يصرخون بعضهم نحو بعض باسمايهم مهتمين في اتحادهم معاً لان الذين حفظوا ذواتهم من اكثر من غيرهم من الافتراق والتيه فهم انفسهم لم يستمروا تحت سنجق قايدهم ولا تابعين روساهم ولم يكن يسمع في تلك السهول الا صهيل الخيل وقعقعة الاسلحة واصوات التوجع وتنهدات قطع الرجا وبعد ذلك اليوم قد اكتنفهم الجوع والعطش زيادةً على هجمات الاعدا وهذه البلايا يوماً فيوماً ضاعفت فيهم النقص بالموت ثم ان الصليبيين الذين نزلوا في السفن لم تكن مصايبهم اخف من الذين سافروا بالبر لان الاسلام الذين في سفنهم من النيل والذين منهم في الشطوط قد ضايقوهم من الانحا كلها وابادوا اكثرهم بنبالهم والنيران الفريجاوزية التي كانوا يرشقونهم بها والبقية اخذوهم اسرا ما عدا السفينة التي كان بها النايب البابوي فهذه وحدها نفذت من ايديهم وبلغت الى دمياط سالمةً ❊

فرجوع الفرنساويين الى الورا لم يكن بمنزلة هاربين بل في حال كونهم محاربين وجدوا مضطربين من شدة قوة اعداهم الى التاخير وبالتالي كانوا كانهم في معركة متصلة حتى بلغوا الى قريةٍ الغزال وغيرة سماها سارموساك فالجمهور الجزئي المحتوي على المقاتلين الشجعان وفيما بينهم كان السلطان لويس قد جاهدوا كثيراً باتعاب رجوليةٍ حتى امكنهم ان يدخلوا القرية المذكورة وحينيذٍ اهتموا في ان السلطان المضنوك جداً ياخذ هناك قليلاً من الراحة اذ انه من التعب الشديد ومن المرض ثم من الغم والتوجع على شعبه : كل الذين كانوا برفقته ظنوه دنا من الوفاة : فاخذوه الي بيتٍ من القرية محمولاً وغايباً عن الوعي وخيالته

استداروا حول المكان صانعين اجسادهم وخيولهم بمنزلة سور ليمنعوا دخول الاسلام اليه فالشريف غوشارده شاتيلون البطل الصنديد قد وقف وحده فى الطريق الموصلة الى البيت الموجود فيه السلطان يحارب الاسلام برجولية عجيبة ويصدهم عن العبور اليه وقد فاز بانه مدة ثلث ساعات لبث يعارك جمهورهم فاخيراً الاعدا زاحموه جداً بقوة اسلحتهم فهو انتصب على ركابات حصانه صارخاً : الاغاثة لشاتيلون . الاعانة لشاتيلون . اين انتم يا رجالى الشجعان : ولكن ما استطاع احد ان ياتى الى معونته فالامير الفطحل تكاثرت عليه الاسلام واوعبوه من الجراحات القتالة فسقط فى الارض مستحما بدمه وتوفى والاسلام الشهود العيانيون على هذا الشهيد الجليل فى معركته الاخيرة قد اذاعوا بها واحدهم الذي اخذ سيفه شرع يريه للاخرين ويفتخر بانه قتل اعظم ما كان عند الصليبيين من الجهابزة بالرجولية ☆

فالسلطان لويس لما رجع الى ذاته من الغيوبية واُخبر بالاضرار المحيقة بعساكره ارسل فيلبس ده مونتفورت الى احد امراء الاسلام لكى يتعاطى معه الصلح فالاسلام اذ اخذهم الروح الانسانى بملاحظتهم الاضامة الحالة بسلطان هكذا عظيم الشان فريد الصفات وبالشدايد الملمة بالانام الذايعى الصيت الذين معه قد ارتضوا بعمل رفع السلاح من ذو كرامةٍ ولكن بتعاسةٍ الجيوش المسيحية الاخر الغير عارفين معاطات الصلح حينيذٍ بنهاية الحرب قد خشوا بالصواب من ان مداومة المصادمة تقضى بخسرانهم سلطانهم قتلاً او موتاً من المرض والاضامة : قد صرخت روساهم : سلموا ذواتكم اجمعين : اعطوا ذواتكم للاسلام كلكم : السلطان يامركم بذلك : لا احد منكم يخالف ارادة السلطان : فالفرنساويون عند سماعهم هذا الصوت راوا ذواتهم ملتزمين بطاعة سلطانهم بهذا

النوع فرموا اسلحتهم في الارض : وسلموا سيوفهم بايدي الاسلام :
ووقتيذٍ احد امراء المسلمين المتقدمين دخل البيت الذي فيه
السلطان لويس واعلن لهُ انهُ اسيرهم وخلواً من احترام نحو
المقام الملوكي قد صيّر جماعته ان يقيدوا هذا السلطان البار بالسلاسل
الحديدية ومثله ثم باخويه وبعظما دولته كلهم الذين بعد جهادهم
الغريب الذي مارسوه في المعركات اضحوا مقيدين بالحديد
والسناجق والخزاين والموجودات الاخر صارت منهبةً للاسلام ✿

ثم ان هولاء القوم البربر قتلوا جميع المرضى الصليبيين الموجودين
في السفن وكل المحابيس الذين لم يوصلوا منهم استفكاكاً غنياً
فالنبيل جوانفيلاّ قد كان من عدد الذين نزلوا في السفن للسفر
نحو دمياط فخيالته اذ نظروا عدة سُفن موعبة عساكر اسلام أتين
ضدهم مستقيماً طفق يسال احدهم الاخر عما كان ينبغي صنيعه
في حال هذا الخطر فاحدهم اجاب قايلاً انى ارتاي بان ندع
ذواتنا ان نقتل جميعاً لكي نذهب الى الفردوس السماوي
واما الشريف ريسهم جوانفيلاّ فاوضح لهم حقيقة ما في باطنه
بان هذا الراى لم يرخيه بل انهُ فضّل الاسر على الموت ومن
ثم طرح في نهر النيل جواهره وذخايره وحال وصول سفن الاسلام
اليهم قد سلّم ذاته مع ارفاقه اسرا بايديهم فالاعدا اقادوا اكثر
هولاء الماسورين النبلا الى مدينة المنصورة . فيقول جوانفيلاّ نفسه :
انهُ كان غيرنا كثيرين من جماعتنا المسيحيين محابيس نظيرنا
قد وضعوا داخل دار واسعة مسيحة دايرتها بحيطان من طين
ثم شرعوا يمارسون اخراجهم الى برا كل بمفرده ويسالونه وحده
هل كان يريد ان ينكر ديانته المسيحية ويعتنق المحمدية فالذين
كانوا يردون جواباً بسيطاً بقولهم اى نعم والذى بالحقيقة صنعوا
ذلك فقد أبقوهم جانباً واما الذين رفضوا مطلقاً هذا الكفران

فقد قطعوا روسهم حالاً: ☆

واما السلطان لويس فاقيد هو ايضاً الى المنصورة وحبس فى دار الامير فخر الدين لقمام كاتم اسرار علم الدين السلطان وتعين عليه حارس داخل البيت المظلم الصغير جداً احد الخصيان اسمه صبيح فهنا يستحضر امام عقولنا مشهدٌ جليل يسميه احد المورخين القدما مشهداً سامياً على ما سواه يستحق الملاحظة الالهية „ان الانسان البار اُخذ مع المغاصبين" اى ان ملكاً تجند صليبياً لكى يكسر القيود عن اخوته الكاينين فى المشرق فهو نفسه سقط اسيراً بالقيود فى ايدي الغير المومنين ولكن ان كان هو ُصودف عظيماً فى معركات الحرب على روس جيوش اشراف فقد وُجد هو عظيماً ايضاً بافضل نوع فى حال اسره وهذه التعاسة الزمنية المحتوية على ما هو اشد مرارةٍ ما اُستخدمت منه الا فيما اعلنه عن الفضايل السامية اللايقة بمسيحى قديس ففيها هو محبوس ومريض لم يوجد عنده الا خادم واحد وكاهنان يشاركهما فى الصلوات ومن امواله وخزاينه الغنية ما فاز سوى بكتاب المزامير وهذا الكتاب كان يجلب له التعزيات فهدوٌ تام وسكينة روح كانت ممتلكة نفسه ورواقة عذبة كانت تلمع فى وجهه واهل السماء والارض قد اندهلوا من رسوخ ثباته فى حال هذه الشدة العظيمة حتى ان اعداه البرابرة انفسهم اذ كانوا شهوداً عيانيين على شجاعةٍ وشهامةٍ كذا ففى رجوعهم الى معسكرهم قرروا (كما يقول جوانفيلاّ) هذه الالفاظ وهى : انهم اعترفوا بان هذا الرجل هو الاشد والاعظم والافضل من كل النصارى الذين شاهدوهم لحد ذلك الوقت فى حياتهم : ☆

ثم ان سمو صفات روح هذا السلطان الجليل ما تناقص عن شجاعة نفسه ولا برهة واحدة فقد اُعرض لديه انه كان ُيطلق

من الاسر اذا رجع الى الاسلام مدينة دمياط مع البلاد التي بايدي الافرنج في اراضي فلسطين. فاجاب هو عن ذلك قايلاً : ان مدن المسيحيين التي في اقليم فلسطين ليست خاصتي ولا بوجهٍ من الوجوه. واما نظراً الى مدينة دمياط فالله هو الذي وضعها في يدي فلا اتصرف بها بحسب هواي : فالسلطان علم الدين ارسل يتهدده بان يذيقه عذابات شديدة مخيفة. اما هو فاجابه قايلاً : انني محبوس السلطان وهو يقدر ان يصنع بي ما يشاء : وكذلك امرا الفرنساويين واشرافهم اقتداءً بموذج سلطانهم قد احتقروا تهديدات الاسلام بجملتها واظهروا ذواتهم ابطالاً بالشهامة في حال الاسر والهوان والشدايد كما اعلنوا انفسهم قبلاً ابطالاً في ظروف الحرب والانتصارات المجيدة بالشجاعة غير ان شياً واحداً كان يحزن قلب هذا السلطان القديس بمرارةٍ كلية وهو تفكره باحوال عساكره المساكين الذين كانوا مجموعين كلهم في دارٍ واحدة بازدحام فايق الاحتمال منتظرين الموت فيما بين انواع مختلفة من الاضامات القاسية جداً فاذاً من حيث ان شدايدهم المرة هي التي كانت تعذب روحه فقد اعرض لجهة سلطان الاسلام في ان يستفكهم من الاسر بالاموال من حيث ان وجوده هو بالاسر لم يكن يهمه الا ربما قليلاً ولم يرد ان يفوز بالعتق الا بعد خلاص عساكره الماسورين جميعهم ولانه كان هو الاخير ممن اخرجوا من معسكر الحرب فلم يشاء الا ان يكون هو الاخير ممن يخرجون من الاسرا الموجودين في حبوس الاسلام ✲

ثم فيما كانت احوال التعاسة والنوايب المحزنة ملمّة بالسلطان لويس قد كانت الاسلام محاصرين مدينة دمياط بقوةٍ حيث كانت قرينته الجليلة السلطانة مرغريتا المحبوبة لديه جداً

مقاسيةً اوجاع الطلق اذ ان احزانها والمراير التى املاءت قلبها عند سماعها ما اصاب المعسكر الصليبى الفرنساوي وسقوط قرينها السلطان فى الاسر لم تعد تعرف احداً وكانت الاحلام المهيلة فى كل ليلةٍ تقلقها بمشاهدتها عساكر الاسلام يسفكون دم رجلها البار وحينيذٍ كانت تنيق على صراخها هى نفسها بقولها عينوه خلصوه واحرستاه عليه فقد كان عندها حارساً عند باب قصرها احد الاشراف ذو ثمانين سنة من العمر فهذا كان يجتهد بان يزيل من مخيلتها الوهم المذكور الذي كان مراتٍ يلقيها بالغشو وكان الشيخ الشريف يمسك يدها قايلاً لها : ايتها السيدة لا تخافى اصلاً انا موجود ههنا . فهذه السلطانة كانت ترتعد فرقاً من عظم الخوف الشامل قلبها عند تفكرها فى انها يمكن ان تقع هى فى ايدي الاسلام : فيوماً ما انطرحت هى على اقدام حارسها الشيخ النبيل قايلةً لهُ : اعطنى وعداً شريفاً بما انا الان مزمعة ان اطلبه منك : فهو وعدها بالقبول فحينيذٍ هى اجابت بقولها له : حسناً . ايها السيد الشريف انى اطلب منك بقوة الامانة بحفظ الوعد الذى انت ارتضيت بهِ انهُ اذا الاسلام ملكوا هذه المدينة فانت حالاً اقطع راسى قبل ان تصل الاسلام اليَّ لياخذونى : فالنبيل قد اجابها بكل صدقٍ قايلاً : انى ساصنع ذلك بكل طيبة خاطرٍ . لا بل انى من ذي قبل انا مفتكر بان افعله اذا الحادث اوصلنى اليهِ : فالملكة الجليلة فيها بين احزان قلبها واتصال بكاها والمخاوف المحيقة بها قد ولدت طفلاً فسمته تريستان (اي الحزين) لكى تشير الي مولده انهُ كان فى حضن الاحزان والشدايد والاوجاع ثم بعد ايامٍ ما هذه السلطانة السامية بالصفات الفريدة قد استدعت اليها روسا العساكر الصليبية الموجودين ضمن المدينة المحاصرة

وهم من البيزاويين والجينواويين الذين كانوا اعتمدوا على ان يهملوا المدينة واعطتهم بيدين مملوتين حفنات جميع الذهب والفضة الباقيين فى خزنتها متوسلةً اليهم بان تاخذهم الشفقة والعناية بالمسيحيين الموجودين داخل الحصار وبالطفل المولود منها بين يديها ✿

اما السلطان القديس فكان فى ركن حبسة يكرم بالسجود لمراسم العزة الالهية المكتومة فى اسرارها الغير الممكن ادراكها وكان يرفع يديه المثقلتين بالسلاسل نحو السما هاتفاً ✿

انك انت وحدك يا الهى مستحقاً ان تُخدَم هكذا وان اسمك يكون مباركاً فيما بين الحديد . فالسلطان علم الدين قد انذهل من مشاهدته ملكاً عظيم النفس فى وجوده ضمن سجن مظلم بنوع اعظم شهامةً من حال كونه فى عرشة الملوكي نفسه : فقد ارسل اليه ملابس فاخرة ليستعملها . الا ان هذا الجليل فى سلاطين فرانسا ما قبلها بل قال للاتين اليه بها : انني مالكٌ على اقليم سلطنةٍ اكبر اتساعاً من مملكة السلطان علم الدين ولست محتاجاً اصلاً الى هداياه : ثم بعد ذلك دعاه علم الدين الى عيد فرحٍ مصنوع منه فكذلك استعفى من الذهاب اليه اذ لم يشاء اصلاً ان يعطى ذاته مشهداً للغير مومنين فاخيراً السلطان علم الدين اعلن ذاته مستعداً لمعاطاة الصلح وقد طلب لاجل استفكاك السلطان لويس والمحابيس الفرنساوية من الاسر مليون معاملة ذهب معلومة الوزن وترجيع مدينة دمياط لولايته فاجاب هذا السلطان الشهم النفس دايماً بقوله انه لا يليق ان يُستفك سلطانٌ ما بثمنٍ بل ارسل يعد علم الدين بانه يرد اليه مدينة دمياط لاجل انفتاذه ويعطيه مليون المعاملة الذهب لاجل استفكاك الاسرا من عساكره فلما سمع السلطان

علم الدين هذا الجواب قال وحق ديني ان هذا الفرنساوى هو شهم وحقاني لانه ما اراد ان يوفر عن ذاته شياً من مبلغ هكذا عظيم من المال فالان امضوا وقولوا له انى اهبه عما يخص استفكاكه مايتى الف من العاملة الذهب فاذاً قد حصل الاتفاق على ذلك وعلى عهد رفع سلاح بعدم الحرب بينهما على مدة عشر سنوات وهكذا صار اجتماع السلطانين معاً وتخاطبا بما لزم واحدهما السلطان لويس باشر الاهتمام بالسفر هو وجماعته والثاني صار منتظراً اتمام الوعد باستلام مدينة دمياط وباخذ الثمانماية الف من العاملة الذهب *

ولكن السلطان علم الدين فيما كان مظهراً دلايل الصلح هذه قد فقد من الوجود بواسطة تعصب صار ضده من المماليك الاسلام لانه اذ كان يمارس قوته في ملاشاة التعصب ويلزم المتمردين بالطاعة له فاحد المتعصبين ضده هجم عليه فقتله وشق بطنه واخرج منه قلبه واتى به بايدي مصبوغة بالدما الى السلطان لويس قايلاً له ان السلطان باد من الوجود فما الذى اذت تعطينيه لاجل انى انقذك من ذاك الذي كان يريد ان يميتك فالقديس لويس قد استوعب كرهاً من هذا الفعل ولم يرد ان يتنازل الى ان يرد علي القاتل جواباً فوقتيئذٍ هذا البربري الشرس دوّر راس سيفه المسل بيده نحو السلطان صارخاً بقوله انتخب لذاتك اما ان تموت بيدي مقتولاً او تعطينى علامة الشرف التى تمنع لنبلا دولتك. فاجابه السلطان قايلاً : صير مسيحياً وانا حينيذٍ اعطيك صليب الشرف: فهذا الثبات الرجولى اخجل البربرى فانصرف من امامه ليس من دون خشيةٍ فبعد خروج هذا المسلم من عند السلطان واذا باوفاقه ذوي التعصب دخلوا اليه جمهوراً وبايديهم السيوف

المخضبة بالدما من سلطانهم فلما راهم البطل السلطان لويس اتين اليه بهذه الصورة فمن دون تحرك من مكانه وخلواً من ادنى خوفٍ نبه عليهم بان يحترموا العزة الملوكية التى لهُ فيا لسمو ارتفاع الفضيلة ان هولاء حالاً انطرحوا امام قدميه باحترام وعوضاً عن ان يبيدوا حياته تداولوا فيما بينهم فى هل يمكن ان يختاروه سلطاناً عليهم ☆

ثم ان ذوى التمرد كانوا يركضون ضمن الامكنة بالمنصورة وخارجها وفى المراكب الرابطة فى نهر النيل يفتشون على الباقيين من غرضية السلطان علم الدين ويقتلونهم وشرعوا ينهبون البلد فجمهورٌ من هولاء القاتلين قد هجم نحو السفينة التى كان امرا الصليبيين واشرافهم نازلين فيها لكى يسافروا نحو دمياط فلما النبلا المذكورون شاهدوهم فى حال الرجز متعطشين لسفك الدماء ظنوا ذواتهم فى الساعة الاخيرة من حياتهم فاسرعوا الى الكاهن الذى معهم من جمعية الثالوث الاقدس معترفين لديه باختصارٍ بخطاياهم طالبين الحلة متاهبين الى ميتة مسيحية وكان فيما بينهم الشريف جوانفيلّ الذى اعد ذاته للموت ومدَّ عنقه نحو احد هولا البربر بكل صفاوة نية قايلاً هكذا ماتت القديسة انيسيا غير ان البارى تعالى قد ظلل بعنايته عبيده اكابر دولة فرانسا المذكورين خلواً من ان احداً منهم يقتل بايدى الجلادين المنوه عنهم ☆

فشروط الصلح بين السلطان لويس وبين السلطان علم الدين قبل قتله كانت أمضيت من الفريقين ثم تكررت بعد موته بالصداقة من امرا الاسلام ومن القديس المذكور نفسه الا ان الاسلام طلبوا ان يصير الحلف الاحتفالى على حفظها باليمين الذي طلبوه بصورةٍ والفاظٍ لا توافق معتقد الديانة المسيحية فالسلطان لويس رفض ان يبرزه فامراء الاسلام تهددوه بالعذابات وبالموت

عينه لئن كان هو فى تلك الساعة لا يحلف به فاجابهم القديس بكل هدو وسكينة قايلاً : لا سمح الله بان كلمات مثل هذه تخرج من فم سلطان فرانسا اصلاً : ثم انجه بعد ذلك الى الامير المتوكل فى ان ياخذ منه هذا القسم متفوهاً نحوه هكذا : اذهب فقل الى روساك انهم فى هذا الشان يقدرون ان يصنعوا ما يشاءون فنظراً اليّ فاحب لديّ ان اموت كمسيحي جيد من انى اعيش تحت اغاظة الله ووالدته وقديسيه : فامراء الاسلام قد امتلوا رجزاً وانتضوا سيوفهم بايديهم ودفعوا ذواتهم على خيمته حتى اما يغتصبونه على ابراز القسم المذكور او يقتلونه فاجابهم السلطان خلواً من ادنى خشية قايلاً انى كاين تحت اسركم وانتم قادرون ان تصنعوا ضد جسدى ما يرضيكم لانه هو فى حوزة ايديكم واما نفسى فليست مختصة بولاية احد غير الله وحده ☆

فاخيراً الاسلام اذ غلبوا من رسوخ فضيلة محبوسهم الغير قابلة التزعزع قد اعترفوا بانتصاره عليهم بهذا الشان وكفوا عن طلبهم والقديس بعد ان امضى صك الشروط خلواً من ابراز الحلف الغير اللايق به قد نزل فى المركب ومعه تابعيه متجهاً نحو دمياط وفيها الصليبيون اجتمعوا فى السفن سايرين فى نهر النيل قد رافقتهم العساكر الاسلام براً من على الشط ثم انه بموجب الشروط قد سلم المسيحيون الباقيون فى دمياط هذه المدينة لايدي الاسلام وفى الصباح المقبل شوهدت البيارق المحمدية متموجة فى اعلى ابراجها فالعساكر المصريون الكاينون خارجاً عند نظرهم هذه البيارق هجموا على المدينة كانهم اخذوها بالسيف حرباً لا صلحاً وذلك ضد العهد الذي هم حلفوا على حفظه : ثم قتلوا المرضى الذين وجدوهم فيها ونهبوا او ابادوا بالنار كل ما كان مختصاً بالفرنساويين : فعقول المماليك اذ عميت من سكر الغلبة

وارواحهم ازدادت شراً من سفك الدما قد خرجوا عن كل حدٍ ودايرةٍ وارادوا ابادة المسيحيين الذين تحت حوزتهم اجمعين ☆

فالامرا المسلمون قد ملكوا من اصوات الجمهور العام تابعين الامهم النفسانية فاجتمعوا ليقبضوا على المحابيس المسيحيين الذين لم يزالوا فى اراضيهم فالبعض منهم قد قبلوا الراي المقصود من الكثرة وهو ان يقتلوا سلطان فرانسا وعساكره كلهم فبعد جدال وخصام مستطيل فيما بينهم تم الاعتماد الاخير على ابراز الحكم حسب الراى الاثيم المرقوم وعما قليل كان يصدر ويوضع بالعمل واذا بواحدٍ من الامرا نبههم على ملاحظة هذه القضية بقوله لهم ان القتل لا يفينا المال الواقع عليه الشرط اصلاً فهذا التامل وقف السيف المستل فوق روس المسيحيين وهكذا خوف الاسلام من انهم يخسروا مبلغ ثمانماية الف قطعة من الذهب حفظ حيوة سلطان فرانسا وعساكره وبعد ان اوفاهم هذا السلطان نصف المبلغ المرقوم نزل فى مركب جينواوي مع عيلته ثم بقايا عساكره نزلوا في المراكب الاخر وجميعاً سافروا من دمياط وغب مسيرٍ فى ستة ايام بلغت مراكبهم مينا مدينة عكه فى ١٤ ايار سنة ١٢٥٠ وارست هناك ☆

فالسلطان فى خروجه الى مدينة عكة لم يكن برفقته الا عدد قليل من الاشراف الامنا اذ ان عدداً وافراً من النبلا الفرنساويين بعد تسليم مدينة دمياط قد سافروا راجعين الى المغرب ثم ان هذا السلطان الفضيل حالما وصل الى عكة قد اهتم فى ايفا المبلغ الباقى للاسلام فارسل من هناك قصاداً الى مصر كي يدفعوا تمام الثمانماية الف قطعة ذهب ويستلموا الاثنى عشر الف اسيراً من الصليبيين المحفوظين فى سجون الاسلام فالقصاد بعد ذلك رجعوا اليهم باربعماية فقط من هولاء الاسرا

المساكين الذين اخبروا القديس لويس ساكبين الدموع من اعينهم عن العذابات والاضامات التى ارفاقهم متكبديفها من قساوة الاسلام البربرية فى مصر فالسلطان باشر الاهتمام الفعّال فى استخلاص باقى الاسرا واذا برسايل وارده من السلطانة بلانشيا الى ابنها السلطان المذكور بها تحرضه على سرعة الرجوع الى مملكته فحينيذٍ هو فكر بالانتزاح عن بلاد فلسطين·كما ان نبلا بلاطه الباقيين معه كانوا يحركونه الى اتمام ذلك لانهم ملّوا من الاضامات والاتعاب السابقة واما المسيحيون الذين هناك فكانوا يستحلفونه بالا يهملهم اصلاً لانه اذا هو رجع الى الاوروبا ماذا كان يحل بالاراضى المقدسة الدائرة على الدوام من اعمال الاسلام الوحشية بالنهب والسبى وما يصيب الاسرا المضنوكين الباقيين فى مصر فلما سمع هذا القديس توسلاتهم انعطف قلبه الشفوق نحوهم بالاجابة واعلن اعتماده بالاقامة فى المشرق فلما سمع منه هذا الكلام فالحاضرون كثيرون منهم اذرفوا الدموع السخينة من اعينهم فرحاً بوعده واما اخوا السلطان فلما شاهداه ثابتاً على قوله المذكور سافرا حالاً ومعهما عدد وافر من الاشراف وقد رافقهم هذا السلطان الغيور برسالةٍ ملوكية خطاباً منه لرعاياه بها اوضح لهم الانتصارات التى فاز بها مع عساكره والشدايد التى ألمت بهِ وبهم· ثم ارادته بان تلتئم عساكر جديدة من مملكته وترسل اليه لكى يواصل هو الحرب على صالح المسيحيين فى بلاد فلسطين ❊

ثم ان السلطان المذكور بعد سفر اخويه ومن معهما من عكة قد باشر هو تجهيز عساكر من بلاد المشرق عينها واهتم فى تحصين المدن والقرى التى فى الاراضى المقدسة بنوع انها تقدر ان تحمى ذاتها من غزوات الاسلام ضدها وقد استبان انه فى تلك الايام

المسيحيون الكاينون في المشرق قد فازوا بانواع من الطمانينة والامنية من غوايل الغير المومنين الذين من جهة كانت امراوهم حاصلين في الانقسامات المدنية الامر الذي اضعف قوتهم نوعاً ومن جهة اخرى انهم قد لاحظوا كيف ان السلطان لويس الذي قبل بزمن وجيز كان تحت سلطة عدوه قد اضحى وقتيذ في سوريا مخوفاً : ثم ان سلطان دمشق اذ كان راغباً جداً ان ينتقم عن قتل السلطان علم الدين من اعدايه وان يعاقب تمرد المماليك المصريين فقد اجتهد في ان يتحد بالصلح مع سلطان فرانسا هذا العظيم الذي اكتفى بان يرد له جواباً بسيطاً بانه توجد شروط مما أمضى منه ومن الامرا الاسلام الموجودين في مصر: ومن الجهة الاخرى هولاء الامرا المصريون كانوا باذلين عنايتهم في ان يتخذوا السلطان لويس عينه على صالحهم ومن ثم اهتموا بتتميم الشروط كلها المعهودة فيما بينهم وبينه مظهرين له بذلك امانتهم في حفظ العهود لانهم اطلقوا من اسرهم مايتين خيال صليبي الذين وصلوا الى مدينة عكة مستتري الاجسام بقطع ورقع رثة بحالٍ محزنة وعند تخبيرهم بما قاسوه في مدة الاسر من الشدايد الفايقة الاحتمال طفرت سواقي الدموع من اعين سامعيهم وقد احضروا صحبتهم محزماً محتوياً على عظام احد قواد الصليبيين وهو غوتيردە بريانّا كونتة دە يافا شهيد الامانة المجيد الذي تكلمنا عما يخصه من الفضيلة السامية فيما وقع مقتولاً من الاعدا في الفصل السابق فالسلطان القديس اراد بغيرته ان يهتم في تكريم جندي الصليب هذا الامين فقد احتفل برياح عظامه ماشياً مع الاكليروس في بالبوث فنقلتها الى كنيسة جمعية ضياف الغربا حيث دُفنت هناك في قبرٍ ضمن الكنيسة عينها بكل وقارٍ وتكريم ✲

فلما كانت امرا الاسلام يفتشون برغبةٍ متقدة هكذا على الخائن سلطان فرانسا صديقاً لهم فلقد كان ممكناً لهُ ان يعوض خسارة معسكره الملمة بهِ في المنصورة لو امكنه ان يقدر ان يجمع من المشرق عساكر كافية لحربٍ مجيدة ولكن تلك البلاد الشرقية بالكاد انها اعطته كمية جزئية من الجنود واقاليم المغرب من حيث انها كانت مضطربة من قبيل حروب اخر فلم يكن ممكناً لها ان ترسل اليه وقتيذٍ جيوشاً صليبية . فآب المومنين العام الحبر الروماني كان انفذ الى الملوك والاساقفة الذين في الاوروبا رسايل مملوة من الالفاظ المحزنة والمحركة اياهم الى اسعاف الاراضي المقدسة كما انهُ كتب الى سلطانة فرانسا بلانشا معزياً اياها والى ابنها السلطان لويس نفسه مشدداً اياه في عزايمه المقدسة ومرطباً خاطره عما اصابه من الشدايد المرة في البر المصري فالاشراف الانكليز طفقوا يونبون سلطانهم انريكوس الثالث لاجل انه اعاقهم راسخين ضمن بلادهم في الوقت الذي فيهِ الجيوش الفرنساوية قد تكبدوا اضاماتٍ هكذا مهيلة عند شطوط نهر النيل والملك فريداريكوس ارسل من بلاده النمساوية قصاداً الى سلطان مصر محرضاً اياه على سرعة اطلاق الاسرا وسكان اصبانيا انفسهم المضنوكين جداً من غزوات الاسلام هناك قد ندبوا حظ الصليبيين والمسيحيين المصابين في المشرق (مغتمين من عدم امكانهم اسعافهم) واما سلطان كاستيلا فقد اتخذ صليب الحرب المقدسة كي يتوجه نحو سوريا لمعونتهم ✫

ولكن هذه الظواهر والاهتمامات كلها ذهبت سدى لان موت الملك فريدريكوس الذي حدث في الازمنة المنوه عنها ما اوقف جري الاضطرابات الحادثة وقتيذٍ في المملكة النمساوية ثم في اقاليم ايطاليا كان جانبٌ من سكانها يحاربون على صالح الامير

كونرادوس ابن ملك النمسا المذكور وخليفته والجانب الاخر منهم
كانوا يحاربون على صالح الامير غويليوم كونته ده اولاندا الذي
كان الحبر الروماني اهتم في انه انتخب بتسمية سلطان الرومانيين
واما سلطان كاستيلا فبعد توفي حينما كان ماضيا ليسافر بحرا نحو
المشرق وخليفته قد وجه تلك العساكر وعنايته ضد الاسلام الذين
بافريقية المتعبين بلاد اصبانيا وكذلك في بعض اقاليم من مملكة
فرانسا قد تظاهر التشكي المر من اجتماعات اناس عديدة من
الصناع ومن رعاة المواشي الذين ارادوا كما كانوا يقولون ان يوطدوا
تحت سنجق الصليب عظما الارض المرفوضة خدمتهم من يسوع
المسيح منذ انذاره فصاعدا فهذه الجموع الفلاحية قد تسموا في
التواريخ بلقب العسكر الرعاة فقد كانوا يجولون في اقاليم مختلفة
من مملكة فرانسا خلوا من ترتيب وتهذيب حاملين بيارق
مرسومة فيها صورة خروف وبعد ذلك انقسموا اجواقا بحال
انهم ذاهبون الى المدن البحرية ليسافروا الى الاراضي المقدسة
غير ان هولاء الصليبيين الجدد قد تناسوا سريعا اورشليم والامكنة
الفلسطينية فسلطانة فرانسا بلانشا في المبادي اظهرت ذاتها راضية
من اجتماعات غريبة مثل هذه من العساكر مؤملة ان تحصل
منهم معونة للمعسكر الصليبي المضنوك في المشرق ولكن لما لاحظت
بلبلتهم وعدم تهذيبهم وعرفت ذنوبهم قد تيقظت حالا وارسلت
عاجلا الى سكان المدن المعتبرة والى حكام المقاطعات اوامرها بان
يهتموا في ملاشاتهم عن الاجتماعات وردهم الى محلاتهم بل ان
البابا نفسه الذي كان انخدع منهم في الاول قد ارتد باوامره
ضدهم وهكذا اجواقهم المضرة الجمهور قد تبددت باهتمام الحكام ❊
فالسلطان لويس اذا لما تحقق انه ما عاد ينتظر مجي عساكر
اليه لا من مملكته ولا من غيرها من الاوروبا قد باشر حينئذ

تجهيز جنود بعلايف على مصروفه من اقاليم المورة ورومانيا وقبرص الا ان هذا الاهتمام لم يوصل الى بلاد فلسطين سوي عساكر عديمي الثبات وخالين من الغيرة الدينية حتى ان اناساً مختلفين منهم قد خدموا عند الامم البربرية ثم من جهةٍ اخرى الخزاين الملوكية قد فرغت من قبل المصاريف الكلية التى فقدت منها بعناية السلطان لويس الذي ما عاد يمكنه ان يحفظ عنده تحت اوامره اكثر من ستماية او سبعماية خيال محارب بعلايفهم الا انهُ من المحال كان هو يقدر ان يمارس بهذا العسكر الجزئى حرباً لايقاً بل تحت امل نوال مجد الانتصار غير انه مع ذلك لا هو ولا ارفاقه المتقشفون نمونج شجاعته وغيرته ما فقدوا جمال اسمهم ولا رجاهم نحو المبتغى فيوماً ما اقبل الى مدينة عكة قصاداً من شيخ الجبل راس المناسر اللصوصية ومثّلوا امام السلطان لويس طالبين اليه ان يجاوبهم فى هل انهُ كان يعرف من هو واليهم ام لا. فاجابهم هو بقوله قايلاً: انى سمعت الناس يتكلمون عنه: فاحد هولا القصاد قال لهُ حينيئذٍ فاذاً لاي سبب انت ما فتشت على ان تجرى الصداقة والمودة فيما بينك وبينه بارسالك اليه بعض هدايا كما صنع قبلك ملك النمسا وسلطان هونكريا وامير الاسلام سلطان مصر وغير هولاء كثيرون من الامراء العظما. فالقديس لويس قد تعكر خاطره من هذا اللسان واكتفى بان يرد الجواب بقوله ان كلاماً مثل هذا لا يورد على سماع سلطان فرانسا ثم ان روسا جمعيات الهيكليين وضياف الغربا الحاضرين فى المجلس قد وبخوا اوليك القصاد بحرارةٍ وقالوا لهم انه ان كان شيخ الجبل لا يرسل حالاً الى سلطان فرانسا هدايا لايقة فجسارته هذه تجذب ضده عقاباً عادلاً فلما رجع المرسلون المذكورون الى ريسهم واخبروه بهذا الكلام قد استحوذ

عليه خوف شديد وعاجلاً وجّه هدايا معتبرة جداً للسلطان لويس ومن جملتها رقعة سطرنج بآلتها ثمينة جداً وفيل من بلور حجري مضيفاً الى ذلك خاتم وقميص دلالةً على الصلح والاتحاد فهذا الجليل في الملوك حينيذٍ اقتبل قصاد شيخ الجبل باكرامٍ وعند رجوعهم حملهم اواني من ذهب وفضة مع اقمشة مقصبة وجوخ واثواب حريرية (فرقعة السطرنج بما فيها الى الان تشاهد محفوظة في الخزنة في مدينة باريس) ثم من حيث ان الحروب وقتيذٍ كفّت فالصليبيون قد كرسوا بطالتهم في زيارات تقوية نحو اورشليم فكثيرون من الاشراف وعدد وافر من الخيالة المتقدمين بالوظايف نزعوا عنهم سيوفهم واتراسهم وارماحهم وباقي اسلحتهم ولبسوا اثواب الزوار النسكية وتوجهوا بعبادةٍ لزيارة الامكنة المتقدسة بحضور سيدنا يسوع فيها بالجسد وبعجايبه وبايات الرسل القديسين فالشريف جوانفيلا اخبرنا في تاريخه عن ذاته انه ذهب زايراً كنيسة والدة الاله التي في طرطوز. واما القديس لويس فبعبادته الحارة قد زار باحترامٍ كلي جبل ثابور وقرية قانا الجليل ومدينة الناصرة (فيقول المورخ جفروا ده بوليو) ان السلطان لويس اذ لبس ثوب المسيح وتوجه نحو مدينة الناصرة راكباً فعندما لحظ عن بعد المكان المقدس الذى فيه بُشرت مريم البتول الكلية القداسة بالحبل الالهي نزل عن فرسه حالاً وبعد ان سجد في الارض سار ماشياً على قدميه نحو المدينة المذكورة المقدسة صايماً ذاك النهار كله على الخبز والماء ولين كانت المسافة التي مشاها برجليه واسعة متعبة جداً فقد يمكن بسهولةٍ ان يفهم كيف هو والذين معه حضروا احتفال صلوة الغروب مساءً والفروض السحرية والقداس الالهي صباح اليوم المقبل ويمكن القول انه من حينما تانس في احشاء والدته

مخلص العالم فى الناصرة الى ذاك الوقت ما احد من اهل هذه المدينة شاهد قط زواراً لهذا المحل بعبادة حارة مثل هذه واما مدينة اورشليم فالقديس لويس ما توجّه اليها اصلاً ولين كانت امراء الاسلام انفسهم عزموه لزيارتها فقد كانت كملت نذوره لو زارها غير انهُ كان يرتاى بان سلطاناً حاملاً فى عنقه صليب الحرب المقدسة لا يليق به ان يدخل اورشليم قبل ان يكون امتلكها حرةً من عبودية الغير مومنين بانتصار عليهم ☆

ثم ان السلطان المذكور داوم معطاته مع مماليك مصر واخيراً اختمت بينه وبينهم شروط راهنة على انهم جملةً المصريون والصليبيون يمشون بالعساكر معاً على بلاد سوريا التى بايدي الاسلام ومهما امتلكوه منها يكون مناصفة بين الفريقين وان جميع بلاد فلسطين اي اورشليم وجميع الامكنه التى فى الاقليم بيد الاسلام ترد الى ولاية الفرنساويين ما عدا غزة وداروم وحصل الاتفاق علي ان المعسكرين يجتمعان فى غزة ولكن المصريون ما جاءوا الى هنا اصلاً وبعد انتظار مدة سنة من غير فايدة قد عرف اخيراً القديس لويس ان سلطاني دمشق ومصر قد رجعا الى الصلح والاتحاد وقد ضاعفا قوتهما معاً لكى يضربا جملةً المسيحيين الذين فى سوريا وحينئذٍ كل الشروط والعهود بين السلطان لويس وسلطان مصر قد انفسخت وبطلت ومن ثم لم يعد سلطان فرانسا مهتماً فى شي اخر سوي فى ان يحصن جيداً البلاد التى تحت ولاية الصليبيين ويدبر اهلها بنوع انهم يقدرون ان يحموا ذواتهم من الاسلام الاتين ضدهم واما الاموال التى اصرفها هذا الملك الغيور فى تمكين حصون يافا وقيسارية وعكه وصيدا فهى فايقة الاحصا وكان بحضوره الشخصى ومناظرته على هذه التحصينات يشجع الجميع وينجح الاعمال

(فيقول جوانفيلاّ) انهُ مراتٍ شوهد هو نفسه حاملاً بين البنايين الجير والمونة قصداً منه باكتساب الغفران فحينما كانت اسوار صيدا ترتفع بالعمار جاء من بانياس بغتةً جمهور عظيم من العساكر التركمان فقتلوا الفين شخص من الفعلة الذين كانوا يشتغلون في تشييد هذه الاسوار فالسلطان لويس اذ كان في يافا وسمع بمجي هولاء التركمان اسرع حالاً لاسعاف المسيحيين الذين في صيدا ولكن لما بلغ الى هناك شاهد الاراضي مزروعةً اجساد هولاء المساكين مشلحة غارقة بالدما لانه لم يكن احد يتجسر ان يدفن منهم ولا واحداً فالسلطان استوعب رجزاً وغماً من ذلك ثم نزل من على فرسه وهو عينه حمل جسداً منتناً من تلك الاجسام ونقله الى ارض صيرها ان تتكرس مقبرةً قايلاً هلمَّ بنا الى ان نستر بقليل من التراب جثث شهدا يسوع المسيح فنموذجه هذا حرك في قلب ارفاقه الرافة والشجاعة وهكذا ان المسيحيين المذبوحين بايدي البربر قد نالوا كرامة الدفن باللياقة الواجبة كافةً ✡

ثم انه في الايام التي استمر هذا السلطان بها مقيماً في صيدا بلغه الخبر المحزن بوفات والدته السلطانة بلانشا ففي مبادى سماعه هذا الخبر قد سكب من عينيه تياراتٍ من الدموع على فقدهِ هذه الامّ التي بمشوراتها ذات الحكمة قد حفظت صبوته من كل الاخطار واقادت نفسه بسعادةٍ في طرق الملكوت السماوي ولكن عندما رجع الى ذاته صاحياً من اضطرابه الاول سجد على الارض بوجهٍ متطاطٍ امام وليّ الحيوة والموت وبسط يديه متضرعاً وقايلاً اني اشكرك يا الهي على اعطايك اياي اماً عزيزةً وعلى حفظك اياها لي بمقدار ما انت ارتضيت بان لا تدعوها اليك فاي نعم ايها الرب انني كنت احبها اكثر

مع بقية المخلوقات الاخر جميعها ولكن من حيث ارادتك هي هذه فليكن اسمك مباركاً فهكذا كان تسليم الارادة لله مع شدة عواطف القلب من هذا الملك العديم الشبيه فيا لعظم قوة الديانة المستولية على قلب من هو اوفر ليونة من سكان مملكة بجملتها ☆

فوفاة هذه السلطانة التي كانت نيابةً عن ابنها قايمةً بتدبير مملكة فرانسا قد الزمت هذا الابن القديس بالرجوع الى سلطنته حيث اضحى حضورة الشخصى من الزم واعظم الضرورات فمن ثم لم يعد هو بعد ذلك يفتكر فى شى اخر سوى فى ان يعجل سفره من المشرق ولكنه قبل ذلك قد اهتم هو فى تدبير الوسايط المبلغة الى امنية المسيحيين المقيمين فى سوريا اذ انه ترك عندهم جميع عساكره مع الاموال اللازم استخدامها واخيراً هذا السلطان نزل فى المركب من ميفا عكة يوم عيد القديس مرقص الانجيلى متكدراً جداً من انهُ التزم بالسفر هكذا قبل ان يتمم عنايته فى ان يستعوض بالنصر عما كان اصاب معسكره من الضرر فى الاراضى المصرية ومن حيث ان عمارة المراكب عند قربها من جزيرة قبرص قد صادم احدى الصخور البحرية المركب الموجود هو وعيلته فيه وانفتح باطنه فالملاحون اسرعوا مهتمين في ان ينزلوه مع عيلته فى احد القوارب ليحفظوا حياتهم من الخطر المبين غير ان السلطان الراوف ما اراد اصلاً ان ينفصل عن ابناء رعيته الذين معه بل اجاب قايلاً ان هذا المركب الحامل الاشخاص الفرنساويين هو نفسه يلزم ان يحمل سلطانهم فثبات عزمه الشجيع احيى شجاعة النوتية وصيرهم ان يمارسوا شدة قوتهم فى خلاص الصليبيين الذين فى المركب من ضرر وهكذا بعد سفر بحري استمر مدة شهرين قد بلغت العمارة الى المين التى

فى اقليم بروفانص والسلطان لويس مع ارفاقه دخلوا فى حدود مملكته سالمين سنة ١٢٥٤ بعد غيابه عنها مدة ستة سنوات ☆

الفصل الثالث عشر وهو الاخير

فى الحرب الصليبية الثامنة والاخيرة

عن احوال القديس لويس ضمن مملكته وفى الشدايد الملمة بالمسيحيين فى المشرق ثم فى المرسلة الثانية الحربية التى مارسها سلطان فرانسا المذكور وفى وصول المعسكر الصليبى امام مدينة تونس ثم فى مرض القديس لويس ووفاته وتكريم ضريحه

ان الحروب الصليبية السابقة (المقدم شرحها فى الفصل المنتهى) التى فى مباديها قد اوعبت قلوب المسيحيين فرحاً وابتهاجاً قد اضحت اواخرها فى ارض مصر ممتلية من النوايب المرّة ذات الخساير والدواهى المكروهة لان هذه الارض التى يوماً ما قد فازت بتمام الرجا فى ان تشاهد جمعاً فرنساوياً متملكاً فى حدودها قد رجعت كما كانت فى ولاية الاسلام وضبطتها المماليك واستمرت تحت سلطتهم الى حينما السيف الفرنساوى نفسه وجه الى تلك الارض التى كان هو امتلك جانبها معسكراً ثانياً الى حد نيلها حيث لاشى هذا الشلش الملوكى المتعظم بالكبريه (ونعنى بذلك عن العساكر الفرنساوية التى ذهبت الى هناك سنة ١٧٩٨ تحت رياسة قايدها بونابارته الذي ملكها وهكذا فنيت منها دولة المماليك) ولكن الحرب الصليبية السابعة المذكورة ولين كانت أُصيبت بكوارث محزنة وافرة فمع ذلك فرانسا فيها بعد قد اكتسبت فوايد كثيرة بها استعوضت نوعاً

ما عن خسايرها لانه فى الوقت الذى فيه صودفت الاوروبا كلها مضطربة بالحروب الحادثة فيما بين الكهنوت والتاج الملوكى (اي بين البابوات وملك النمسا) فوطننا الفرنساوي (يقول المورخ صاحب هذا التاليف) الذي ارسل عساكره محاربةً فى عبر البحور سوريا ومصر قد أحترم جداً من الشعوب الاخرين فى المغرب نظير ما يُعتبر الذهب بعد أختباره فى كور السبك لان السلطان لويس التاسع بعد ان أختبر فى نار الامتحانات فى المشرق قد رجع الى مملكته الفرنساوية اشد لمعاً واعتباراً وعظمةً مما كان هو قبل سفره منها وفى مدة الخمسة عشر سنة التى هو استمر فيها ضابطاً زمام مملكته الفرنساوية غب عودته من الاراضي المقدسة قط ما تناسى المثولة التى علمته تحت ثقل ما اصابه قبلاً من المكروه ان يتذكر دايماً حوادثها ويبذل اجتهاده بحرارة اشد انتقاداً فى ان تفوز رعاياه وبلاده بالسعادة والنجاحات والخير العام ☆

على ان هذا السلطان العظيم حينما رجع الى رعاياه الذين كان يسميهم عيلته قد اتخذ من جديد تدبيرهم بغيرةٍ ومحبةٍ ساميتين ممارساً بالعمل الفعال كل ما كان يأول الى خيرهم وسعادة بلادهم متقداً بنارٍ اكلة نحو ما يلاحظ انتشار مجد الله الاعظم الخليل الامين للعدل والاستقامة فايزاً بملو الولاية على اناسٍ كليين العدد مخضعين لتاجه الملوكى بدون واسطة وعلى امرا واسياد كثيرين غربا عن سلطنته صايراً اباً للمساكين سنداً للمظلومين مجدداً اتصال سلسلة احساناته نحو الجميع كلاً فى نوعهِ ويمكن للقاريين ان يقفوا على ايضاح اعمال هذا السلطان القديس ذات الفضايل السامية والاثمار العظيمة والامور المذهلة المدونة باتساع وتفصيل بسداجة مسيحية من الجليل في الاشراف

النبيل جوانفيلا الخادم الامين والمحب الصادق المحبوب من السلطان لويس نفسه الذي نذكر هنا من اقواله ما اورده عن كيفية تصرف هذا القديس فيما يخص حفظ العدل نحو رعاياه اذ كتب هكذا : انني مرات عديدة جداً شاهدت هذا السلطان البار بعد ان يكون في فصل الصيف استمع القداس كان يذهب الى حرش فيلجانسيوس لاستنشاق النسيم وهناك كان يصيرنا ان نجلس حوله باجمعنا وكل المحتاجين من الرعايا الى التكلم معه عن امورهم كانوا ياتون اليه ويخاطبونه بدالة خلواً من ان يوجد ادنى مانع يصدهم عن الدنو منه وهو كان يسال الناس بصوت جهير هل لهم حاجة يعرضونها لديه وماذا كانوا يرغبون منه واذا اتفق لاحد منهم ان يزاحم الاخرين في استدعايه مطلوبه هو كان يجيبه بقوله : يا صاحبي تمهل بالسكوت لانني هوذا اقضي لكل منكم مسالته بالتتابع الواحد بعد الاخر: ثم اني نظرت السلطان القديس احياناً عديدة في ايام الصيف الطويلة اتياً الى بستان باريس لابساً احد اثوابه من صوف وحرير وفوقه نصف رداء بسيط خلواً من كمين وعلى كتفيه وشاح طويل من صندل اسود وهناك كان يامر بفرش سجادة واسعة مصيراً ايانا ان نجلس معه عليها مستمعاً دعاوي الشعب المتقدمين اليه نظير ما سبق مني الشرح عن اعماله في حرش فيلجانسيوس وقد كان هذا المعظم في الملوك سخي اليد جداً باتساع في اعطا الصدقات لانه الى اينما توجه في بلاده كان يزور الكنايس الفقيرة وامكنة المرضى والبيمارستانات ويسد احتياجات المفتقرين من اصل شريف والارامل وجهازات البنات الفقيرات لزواجهن وفي كل الامكنة حيثما كان يعلم وجود الضرورة وحال العوز والضيم قد كان هو يجود باعطاء المال بسخاء واما للفقرا المتوسلين فكان

يعطي الطعام والخمر وانا نفسي مرات كثيرة رايته يقطع لهم الخبز ويسقيهم الخمر بيديه : فيا لسذاجة روح الاجيال المتوسطة المحبوبة ذات نقاوة الايمان البسيط فترى كيف اضحت هذه السذاجة في ازمنتنا الحاضرة ☆

ففيما كان القديس السلطان لويس يمارس اعمالاً هذه صفتها نحو خير رعاياه فالمسيحيون في المشرق وجدوا يأتون تحت ثقل شدايدهم وبلاياهم في احوال الاخطار السابقة عينها فكل من البلاد والاصقاع كان حاصلاً على مالكه سيداً وعلى روسا مدنيين خصوصيين والمغايرات والخصومات متواجدة في الامكنة كلها وكان البنادقة والبيزاويون والجينواويون والهيكليون وضياف الغربا يحاربون فيما بينهم ولم تكن ولا في بلدٍ ما موجودة ولاية محترمة كافية لان تجري شرايع التهذيب من داخل ولان تجعل العهود والشروط محفوظة من خارج ولكن الخطر الاعظم المحيق بالمسيحيين كان اتياً اليهم من ناحية مصر لان دولة المماليك كانت تتسع وتتقوى يوماً فيوماً مزادةً تحصيناً وكان المترأس عليهم وقتيذٍ بيبارس بوندوقدار الذي اصله كان عبداً رقيقاً مشتري بالمال من شط الاكسوس. فهذا بيبارس نفسه بقوة الجسارة وبالافعال الاثيمة بلغ الى انهُ صار وريثاً السلطنة الموسسة من صلاح الدين ونظيرهُ شرع يهتم بايجاد الطرايق الموصلة اياه الى ابادة المسيحيين الموجودين فيها الذين لم يرتضوا بان يخضعوا لمعتقد الاسلام فالتاريخ يقدم لنا مشهد هذا المغتصب البربري الوحشي مغازياً مع عساكره بنوع مهيل وبدثار مخيف في كل سواحل سوريا وحيناً فحيناً كان يصنع هجماته ضد الناصرة وقيسارية وارسوف الى ان امتلكها واينما كان يمارس غزواته فالمحلات تاول الى كيمان حجارة خربة والشعوب مهدورة دماهم ثم انه حاصر مدينة

صفد المبنية فوق اعلى جبال اقليم الجليل والهيكليون الذين كانوا يحامون عنها داخل الحصار التزموا بان يسلموا اياها بالامان تحت شروط التسليم بحفظ الحيوة ولكنه بعد ان دخلها لم يتوقف عند عهدٍ اصلاً بل ابادهم اجمعين بحد السيف حتي ان مدينة يافا عينها التى كان القديس لويس حصنها جيداً قد سقطت فى ايدى هولاء المماليك الذين ذبحوا سكانها عن اخرهم واضرموا النار فى المدينة كلها وادثروها دكاً دكاً واخيراً مدينة انطاكية البلد الكلية الغنا الذى امتلاكها تكلف على الصليبيين مشقات فايقة الوصف وسفك دما غزيرة وقد استمرت هذه المدينة سياجاً وحصناً للمسيحيين فى المشرق مدة نحو مايتى سنة بنوع اعظم من كل الحصون فهذه المدينة نفسها ما قدرت ان تثبت امام قوة عساكر بيبارس بل بادت تحت اقتدارهم فالكونته ده طرابلوس المتولى وقتيذٍ على انطاكية قد هرب منها قبل سقوطها فى يد بيبارس الا ان هذا السلطان المنافق كتب لهُ خبرية انتصاره عليها بالالفاظ التابعة قايلاً لهُ : نحن ملكنا انطاكية بالسيف والجنود الذي انت استودعتهم حمايتها قد قتلوا كلهم اواه لو انك كنت تشاهد خيالتك كيف تطحنوا تحت ارجل الخيول ومدينتك انطاكية تسيبت للنهب واضحت تحت ارادة كلٍ من المنتصرين وخزاينك وقعت عليها المقاسمة بالقنطار ليتك كنت تنظر الكنايس والصلبان منقلبة مهدومة وكتب الاناجيل منتثرة وقبور البطاركة مفتوحة او كنت ترى الاسلام اعداك دايسين فوق الهياكل وبيوت القربان وهناك كانوا يذبحون الكهنة والشمامسة والرهبان مع البطاركة يا حبذا لو انك شاهدت قصورك مستحيلة الي اتونات نار بالحريق والاموات منتهيين الى رماد بلهيب النار العنصرية وضيعك وحصونك وما يتعلق

بها قد بادت من الوجود واما كنيسة قديسك يولس فقد هدمت حتى اساساتها هدماً تاماً فلو انك نظرت هذه الامور كلها لكنت صرخت ليت الله كان يرتضي بأني اكون رماداً وغباراً: ✿

ففيما كان المسيحيون في بلاد المشرق يسقطون من كل جهةٍ تحت سيوف سلطان مصر وعساكره الهادمة قد سقط حصن اخر للصليبيين كان مسيجاً عليهم في القسطنطينية لان مملكة اللاتينيين التي عاشت هناك مدة حيوة انسانٍ ما قد بادت خلواً من ضجةٍ عظيمة عند شط البوصفورو لان الروم رجعوا داخلين الى القسطنطينية كالسارق في الليل (كما يقول احد المورخين) وشبح القوة الملوكية القديمة قد نهض من الموت تحت شخص ميخائيل الباليولوغوس الذي جلس في التخت القسطنطيني في شهر تموز سنة ١٢٦١ ✿

فصراخات المسيحيين الموجودين في بلاد فلسطين قد رنّت في اقليم المغرب والبابا اكليمنضوس الرابع اذ تمزقت احشاوه توجعاً على مصايبهم ارسل من قبله قصاداً الى سلاطين اوروبا وامرايها لكي يحرضوهم على اخذ صليب الحرب المقدسة وقد صار الانذار بهذه الحرب في ممالك مختلفة غير انه ولا واحد من الناس لبس ثوب الصليبيين ولم يعد احد يستمع صوت الواعظين بهذه الحرب لانه قد استيات تجليد القلوب بالبرودة وعدم الالتفات الى هذه القضية عموميا عند الجميع اذ انه بعد سقوط مدينة اورشليم ثانيةً بايدي الاسلام اضطرابٌ بربري وغيرة اميّة غلقت ابوابها في وجوه الزوار وطريق صهيون لم تعد تُشاهد نظير السابق مُغطاة بكثرة الواردين الى المدينة المقدسة حتى ان المومنين القاطنين في بلاد فلسطين انفسهم ما عاد فيهم استطاعة ان يزوروا قبر المخلص ومن ثم عندما زيارة اورشليم التي

كانت هي اصل الحروب المقدسة قد ضعفت يوماً بعد يوم فقد فتر معها حتى لا نقول انطفى الشوق نحو الحرب الصليبية والغيرة فى ممارستها ☆

ثم فيما كانت الاضطرابات قد صارت متواصلة فى بلاد المغرب مقلقة سكانها فما وُجد حينئذٍ الا سلطان واحد مهتماً نحو اغاثة المسيحيين الذين في المشرق وهو القديس لويس التاسع سلطان فرانسا الذي اشواقه لم تزل ملتهبة بالحرارة فى ان يحارب من جديد تحت بيرق الصليب لان رجاه فى ان يستعوض عن الضر الذي اصابه فى ارض مصر ويسترد الشرف لاسم العساكر الفرنساوية قد جذبه الى التمسك بقضيةٍ قد كان العالم باسره اهملها اي الحرب الصليبية الثامنة مع ان هذا الغيور لم يكن حينئذٍ في سن الشبوبية ولا فى صحة الجسم التى انتهكت جداً مما احتمله لحد ذاك الوقت حتى انهُ ما عاد مستطيعاً ركوب الخيل ولا حمل اثقال تدبير معسكر حربى غير ان قوة شهامته وشدة حرارة غيرته ما تناقصتا اصلاً لا بل انه كان يحتسب نهايةً مجيدةً لحياته ان يموت هو بصفة صليبى محارب حيثما مات يسوع المسيح وهذا هو الامر الذي كان قلبه يثوق اليه الاّ انهُ مع ذلك هو قد استشار البابا اكليمنضوس الرابع بالتامل فى الضرر الممكن حدوثه من قبيل ابتعاده عن مملكته طالباً منه الجواب عن هذه القضية فناله اثباتياً وحينئذٍ كما كان هو يقول قد اقتنع بان اعتماده على هذا الحرب المقدسة كان اتياً من قبل الله ☆

ثم ان هذا السلطان القديس قد اهتم بالتيام جمعية من عظما المملكة فى قصر لوير فى باريس سنة ١٢٦٨ وحضر هو فى الاجتماع الاحتفالى المرقوم مرافقاً من النايب الباباوى حاملاً

يهديه اكليل الشوك الذي كان تكلل به فادي العالم (لان ملك القسطنطينية بودوين الثاني الذي كان رهن هذه الذخيرة المقدسة الفايقة الاثمان تحت يد البنادقة على مبلغ وافر من المال قد وهبها للقديس لويس الذي اقتبل الايهاب واوفى الدين للبنادقة وهم ارسلوها اليه صحبة اثنين من رهبان القديس عبد الاحد اللذين بلغا بها الى باريس في ١١ من شهر آب سنة ١٢٣٩ وحتى الان هذه الذخيرة هي محفوظة في خزينة كنيسة مريم العذراء الكاتدرائية في باريس) فالسلطان الجليل في هذه الجمعية الحافلة اوضح اعتماده على السفر بالعساكر لاجل اسعاف الاراضي المقدسة وحرض كل الذين التيموا حوله على الذهاب معه نحو الشرق وبعد ذلك النايب الباباوي صنع هناك خطبة ملايمة الموضوع جداً ثم استدعى اشراف فرانسا الى تناول الاسلحة لاجل محاربة اعداء الايمان المسيحي وحينيذٍ القديس تسلّم صليب الحرب المقدس من يد النايب الرسولي المومى اليه واقتفاءً لنموذجه ثلثة من اولاده اخذوا الصلبان وتبعهم عددٌ وافر من الروسا الكنايسيين ومن الامرا والكونتيه والاشراف الاخر بعزايم السفر صحبة سلطانهم وفيما بين هولاء التاريخ يعطي التمييز في التقديم على الاخرين للاتام الاتي ذكرهم اي يوحنا كونتة ده براثانيا وتيبوت سلطان نافارا والفونسوس ده بريانا والكونتة ده فلاندرا وده سان بول وده مارشا وده سواسون ثم ان النسا الشريفات قد اظهرن حرارة العبادة نحو الاراضي المقدسة وهنّ السيدة ده بواتيارس والكونتا ده براثانيا ويوليانذا ده بورغونيا وجونّا ده طولوزا وايصابيلا ده فرانس واميليا ده كورتانـاي اللواتي تركن الركّة والمغزل الذين في ذاك العصر كانت الاميرات يبرمن بهما خيطان الصوف والقطن وتبعن رجالهنّ في هذا الحرب ❁

وكذلك عدة سلاطين من الاوروبا وقتيئذٍ تمسكوا بمثل سلطان فرانسا الجليل وباشروا استعدادات الحرب ليسيروا تحت سنجق الصليب وهم ايدوارد سلطان الانكليز وغاسطون سلطان بيارن وسلطان البورتوغال وسلطان اراغون كما ان سلطنة كاسقيلا وسلطنة كاطالونيا قد جهزتا عدداً غفيراً من الصليبيين ثم ان سلطان نابولي الجديد كارلوس ده انجو المتدنس باعدامه الحيوة للشاب كونرادين قد صيّر ان ينادي بالحرب المقدسة في بلاده مؤملاً بدون ارتياب ان هذه الحرب تكون موافقةً له بايجاد الوسايط المبلغة اياه لاشفا اشواقه المتجهة انصباباً نحو توسيع سلطنته اما باكتساب البلاد اليونانية لتحت ولايته او باخضاع جهة سواحل افريقية لاقتداره ✿

ثم ان قلب القديس لويس المملو حرارة نار حسن العبادة ولئن كان ابرز الى الوجود شرارات حيّة ايقظت وقتيئذٍ قلوب ابنا سلطنته مضرمةً اياها بلهيب الغيرة نحو هذه الحرب الصليبية فمع ذلك قد شمل الحزن المر سكان المملكة بوجه العموم عند تاملهم في ابتعاد سلطانهم عنهم في الوقت الذي فيه هم عارفون جيداً ان حضوره الشخصي وحده فيما بينهم هو الحافظ لهم الامن والصلح والسلام وهو العلة في خيرهم الخاص والعام وهو الموطد التهذيب وحسن الترتيب وقيام العدل وجودة الانتظام وهكذا الذين منهم حملوا الاسلحة وساروا في العسكر الصليبي قد انقادوا من قبل حبهم هذا السلطان وعدم مفارقتهم اياه احري مما من قبل غيرتهم نحو صالح الاراضي المقدسة كون هذه الامكنة ما عادت تقدم لافكارهم الامل السابق بانهم يمتلكون هناك مدناً غنية وبلداناً مثرية بل كانت تهيئ لهم احتمال الشدايد والاضامات ثم الموت بالاستشهاد ولكن مع ذلك جميعه

لم يكن يظهر فيها بين الاشراف لا تمرمر ولا تشكى من هذه الجهة اصلاً لان روح تسليم الارادة لله الكاين فى لب القديس لويس ذي الفضايل السامية قد استبان تبعاً لنموذجه جايزاً فى قلوب شعوبه ايضاً لان الفرنساويين كانوا يلاحظون غيرة سلطانهم هذه الفريدة كانها ضحية شريفة موجعة مقدمة المسيحيين الذي من اجله لم يوفّر البارى تعالى نفسه عن ابنه الوحيد ان يقدم ذاته ضحيةً ✿

فالزمن الذي تعين لسفر الصليبيين هولاء هو بداية فصل الربيع سنة ١٢٧٠ والسلطان لويس اصرف مدة الزمن من حين اعتماده هذه الحرب الى الوقت المذكور فى مهمات متصلة لتجهيز اللوازم لمرسلةٍ عظيمة كذا ومن حيث ان صحة جسمه كانت تزداد ضعفاً يوماً فيوماً كقول الشريف جوانفيلّ انهُ اُضحى ضعيفاً ومنحط القوي بهذا المقدار حتى انه ما عاد يستطيع لا ان يضبط ذاته فى مسيره جيداً ولا يطيق ركوب الخيل فقد فكر بالتزامه فى ان يصنع وصيته الاخيرة ويجريها عملياً بنفسه ومن ثم وزع على بنيه الاربعة مواريثهم الذاتية منه واعطى لكلٍ من بناته الباقيات بلا زيجة ما كان يختص بنقدها وجهازها كما اوصل قرينته السلطانة مرغريتا صداقها وما يخصها ارثاً ثم وزع صداقاتٍ غنية جداً الى ثمانماية مكان للمرضى فى مملكته والى البيمارستانات والاديرة وقد ساعد على سد احتياجات الفقرا والارامل والايتام وقد امتد حنو قلبه الابوي لاسعاف كل نوع من المحتاجين فى اقاليم مملكته كلها وكذلك هذا المعلم الصالح والسلطان الجليل فرق على خدامه الخصوصيين الروحيين من الاكليروس والجسديين من العلمانيين مكافاتٍ واجبة عن خدمتهم اياه ودارة الملوكية واخيراً بعد ان اقام لذاته

من يمثل شخصه في مدة غيابه عن المملكة مفوضاً هذه الوظيفة الى متى ده فاندوم والى سمعان ده ناظلا قد توجه هو الى كنيسة القديس ديونيسيوس كي يزور قبور رسل فرانسا ويستلم سنجق الحرب وثاني الايام حضر الذبيحة الالهية في كنيسة الكاتدرا في باريس مع الصليبيين ورقد تلك الليلة في فيلجاناس حيث اخذ من هناك طريقه مسافراً في هذه الحرب العظيمة في شهر ادار سنة ١٢٧٠ نفسها فالمكان الذي تعيّن لاجتماع العساكر فيه عموماً قد كان اغوزمورتاس حيث بلغ السلطان لويس الى هناك بعد عيد الفصح بايام قليلة وقد كانت العساكر الذين من اراغون ومن اقاليم اخر نزلوا قبلاً في السفن وسافروا الى شطوط سوريا وكان الحبر الروماني اوضح للمسيحيين الذين في بلاد فلسطين قرب حصولهم على صليبيين جدد لمعونتهم من المغرب غير ان الجيوش الفرنساوية كانوا يجهلون وقتيذٍ الى اية جهةٍ كان يريد سلطانهم القديس ان يسير بالعساكر ففي ديوان مشورة قوادهم قد انقسم الرأى الى ثلاثة انواع من الجهات لان البعض منهم قدموا رايهم بان المراكب تذهب الى عكة وغيرهم ارادوا السفر على خطٍ مستقيم الى قلب اراضي مصر والاخرين رغبوا التوجه قبلاً الى مدينة تونس وناضلوا عن اعتمادهم هذا الى ان فازوا بهِ وعوّل عليه الاعتماد لاستناده على بعض حجج مدنية اذ اوردوا ذلك بقولهم ان التونسيين قد اقلقوا امنية البحر بغزوات مراكبهم ومراتٍ كثيرة اغتنموا الاسعافات المرسلة من المغرب الى المسيحيين الشرقيين واعضدوا سلطان مصر بارسالهم اليه الخيول الكثيرة مع اسلحة وعساكر ايضاً فاذاً ينبغي ان الجيوش الفرنساوية تستولي على هذه المدينة وتخصم جسارة هولاء البربر لكي تعود المرسلات الى الاراضي المقدسة ساهلةً بالاكثر واما السلطان لويس

شقته تحرك لقبول هذا الراي من سبب اخر لايق بتقواه وغيرته الديانية وهو ان سلطان تونس قد كان عدة لمرار كاتب القديس لويس نفسه واعطاه اشارات مورثة الرجا في انه يترك ديانته المحمدية ويعتنق الديانة المسيحية ولكنه ان حصل هو في خوف من قبل تعصبات حدثت ضده من الذين تحت ولايته فقد استغاث بالجيوش الفرنساوية مستدعياً اياهم لمعونته (بواسطة قصاد ارسلهم الى المعسكر الفرنساوي) فالسلطان لويس (يقول جفروا ده بوليو) قد حصل مسروراً بهذه الفرصة لاملة بان الديانة الفرنساوية ترجع داخلة الى افريقية وتبتدي ان تزهر حيثما حيناً ما في زمن القديس اغوسطينوس كانت متلالية اشرافاً وقوةً ونقاوةً بعدد غير محصى من المومنين وبالتالي لم يعد يستطيع ان يمسك ذاته عن شدة الابتهاج عند تامله بانه من الممكن ان سلطنةً مثل هذه بجملتها تقبل سكانها الى الايمان المسيحي ومن ثم تفوه هو قايلاً : هنيأً لي ان كنت اقدر ان اشاهد ذاتي صايراً اشبيناً لسلطان مسلم معتنقاً الايمان بالمسيح : ثم قال في وقت اخر لمرسلي سلطان تونس : امضوا اخبروا سيدكم من قبلي باني لقد كنت ارتضي بطيبة خاطر ان اجيز باقي ايام حياتي مكبلاً بالسلاسل الحديد في حبس مظلم خلواً من ان اشاهد الشمس ان كنت بهذا الثمن اقدر ان انال له الملك السماوي وهكذا اكتسب لشعبه نعمة المعمودية :*

فاذاً العمارة الذي نزل في مراكبها السلطان لويس وعساكره قد قلعت قلوعها وسافرت نهار الثلاثا الذي هو اول يوم من شهر تموز واتجهت نحو سواحل افريقية وفي اليوم السابع عشر من الشهر ذاته اقبلت الي امام مدينة تونس عن بعد وارست عند فضلات دثار مدينة قرطاجنة القديمة والعساكر الفرنساوية

خرجوا الى البر خلواً من مانعٍ ورتبوا ذواتهم بمعسكرٍ ذي حربٍ مستعدين الى المعركة وهناك بطرس ده كوندان وكيل صدقات السلطان لويس قد اشهر في المعسكر صك اخذهم التملك على الارض التي خرجوا اليها مبتدياً تلاوة الصك بقوله : اني اعلن لكم اجمعين المنادات من قبل سيدنا يسوع المسيح ومن قبل لويس سلطان فرانسا رئيس عساكره الخ وبعد ذلك الجيوش نصبوا مضاربهم عند بقايا خراب مدينة انيبال غير ان الامال التقوية التي جذبت عواطف قلب السلطان الحسن الديانة الى التوجه نحو هذه البلاد الافريقية قد تبددت لان الاشواق التي تظاهر بها سلطان تونس الغير مومن والعديم الامانة قد كانت منه حيلةً وفخاً اذ انه لم ياتي اصلاً لمقابلة العسكر الفرنساوي كوعده بل ضداً لذلك ليس فقط ما اظهر علامةً ما تدل على ارادته اعتناق ديانة القديس لويس لكنه ايضاً ارسل يتهدده بانه يذبح بحد السيف المسيحيين كلهم الموجودين ضمن افريقية من البلاد الخاضعة له ان كان لا يبتعد هو وعساكره حالاً عن ارض تونس ثم انه عاجلاً جمع عساكره هذا السلطان المحمدي ليمشي بها ضد الفرنساويين مرسلاً من يقول لسلطانهم انه اتٍ اليه لكي يقتبل المعمودية في ميدان الحرب ومن ثم الصليبيون قد تهيوا لكي يدافعوا عن ذواتهم بالاسلحة هجمات الاسلام عليهم لا بل انهم مشيوا ضد قلعةٍ كانت سلاطين تونس شيدوها في تلك الحدود وملكوها بالسيف وحينيذٍ سلطان تونس هذا اغلق مدينته المذكورة ورتب احوال المحاصرة ضمنها ☆

فمدينة تونس هذه هي كاينة بعيدة عن قرطاجنة القديمة مسافة خمسة عشر ميلاً وكانت هي وقتيذٍ متسيدةً باعمالها وكثرة شعبها على اعظم مدن افريقية المزهرة مستغنيةً جداً جداً

بغنايم مجموعة فيها نهباً وسلباً من طوايف مختلفة ومن ارباح
المتاجر الكلية محتوية ضمنها على عشرة الاف من الدور وعلى
ثلثة بلدان متحدة بها محصنة بابراج واسوار قوية فى الغاية الّا
ان السلطان لويس قد كان منتظراً لبداية حصار هذه المدينة
مجى شقيقه الكونته ده انجوكارلوس المنتصر على منفروا ثم على
كونرادين والمنادي به سلطاناً على سيشيليا الذى منها كان
مزمعاً ان ياتي الى المعسكر الفرنساوى بمعونة قوية من جنوده
ففى بحر مدة الانتظار المذكور قد اهتم الصليبيون فى تحصين
معسكرهم جيداً وفى مصادمة غزوات الاسلام المتواصلة ضدهم
لان جموعاً غفيرة فايقة الاحصاء من العرب والسودان كانت
محيطة بهم من كل جانب زايرين كالوحوش الضارية ليخطفوهم
ولكن من حيث انهم قط لم يتجسروا ان يواقفوا العساكر
الفرنساوية موجهة بصورة المعركة الحربية بل عن بعد باستدارة
يثبحون متوقعين المغافلة للنهم فالصليبيون كانوا يسخرون بهم
غير مستليقين ان يوزنوا ذواتهم مع هولاء البربر بالمشى ضدهم الا
ان اخطاراً مهيلة جداً كانت مهياة لجيوشنا الفرنساوية لان
اراضى افريقية هذه التى وقتاً ما وُجدت مخصبة من كل
الاشيا فحينيذ لم تكن هى الا حضيضاً عقيماً خاوياً من
السكان والغلات شديداً فى حرارته صقعاً ويبساً ففى الايام
الاولى من وصول العساكر الفرنساوية الى هناك تناقصت عنهم
المياه واخص زخاير القوت الموجودة معهم كانت لحوماً مملحة
فقد اعترى كثيرين منهم داء الدسنتاريا والامراض والحمى
الخبيثة واذ اشتدت هذه عليهم ففى زمن وجيز افنت منهم
بالموت نحو نصفهم كما ان الشمس الشديدة الحرارة هناك عذبت
جداً هولاء الجيوش المتربين فى اصقاع عذبة واضيف الى ذلك

ان الاسلام السودان كانوا بواسطة آلات صناعية يرشقون فى هبوب الهوا القبلى كميات وافرة من الرمل ضد معسكر الفرنساويين فتنزل فوقهم كانها محماه فى اتون النار فهذه المصايب مع الاتعاب فى مصادمة هجمات العرب والسودان على المعسكر قد اوصلت الجنود الصليبيين الى الضعف والملل والضجر في الوقت الذي فيه الاحيا منهم ما عادوا كافيين لدفن موتاهم حتى ان حفاير المتاريس المصنوعة نظير خندق حول المعسكر استخدمت قبوراً للجنود المساكين الذين املآتها جثثهم ❊

ثم ان الكونتيه ده ناموس وده فاندوما وده مارشا والاسياد ده موغورانسى وده بياتا وده بريّاك بادوا من الوجود من جملة الموتى والقديس السلطان لويس شاهد بين يديه موت ابنه العزيز الشاب الصالح الكونته ده نيفارس وهو المولود فى حصار دمياط الذي والدته سمته تريستان كانها بروح النبوة دعته هكذا نظراً الى ميتته نظير مولده لا بل ان هذا السلطان نفسه شعر بنفسه مضروباً بالمرض القتال وعرف ان ساعته الاخيرة العظمى قد دنت ففى هذه البرهة النهائية الاحتفالية التى فيها صورة هذا العالم تعبر زايلةً والانسان البار يبقى مع فضيلته ففيها السلطان لويس القديس خلع عنه عظمة شجاعته وفخر شهامته وعزة اقتداره بجملتها واعلن لدي الاعين مشهداً لا يوجد اسمى منه فطالما كان يوجد فيه نوع من القوة الطبيعية لم يكن يغفل اصلاً عن احتياجات المعسكر باعطايه الاوامر الضرورية لانه لم يرد ان يفتكر فى شى اخر سوى الاضرار الحاصلة لشعبه خلواً من ان يهتم فى ضرره الذاتى بالمرض الملم به لكنه كان يموه عنه ويخفى امر حزنه على موت ابنه وعند استطاعته المشى كان يزور محلات المرضى وبكلماته يعزي المنازعين

وهكذا ايامه الاخيرة فيها بين اعمال اقام سامية بالقداسة وبين التزامات سلطان غيور على رعيته وعندما لم يعد يستطيع الخروج من خيمته لثقل المرض عليه لزم فراشه واضعاً امامه الصلبوت المقدس فيقول معلم اعتراف السلطانة مرغريتا : ان هذا القديس كان ينظر الى الصلبوت مرات ٍ متواترة متقصداً وعلى الغالب عيناه محولتاه نحوه : ثم كان يرفع يديه الى السما وبصوت ٍ عالى كان يطلب المعونة والرحمة من مخلص العالم واما الجيوش فوجدوا اجمعين غايصين في بحر الحزن الشديد واعين الكل تذرف الدموع الحارّة فالسلطان البار لم يكن يتناسى تركه شعبه هذا الفرنساوي الذي كان يحبه محبة ابوية عطوفاً مهملاً في ارض غريبة ومن حيث انه هو نفسه لم يعد قادراً على ان يكون مفيداً لهم فقد اجهد ذاته فى ان يوطد لهم خيرهم العتيد فقد جمع قواه التى كانت ناهزة الاضمحلال ووجه خطابه نحو ابنه البكر فيلبس ووريثه فى تخت الملك معطياً اياه هذا الارشاد العجيب الذى لا يُقرى بدون ان يحرك الى سكب الدموع قايلاً : يا ابنى الحبيب ان الشي الاول الذي ارشدك اليه وامُرك بان تحفظه هو ان تحب الله من كل قلبك وفوق المخلوقات كلها لانه خلواً من ذلك لا يمكن لانسان مطلقاً ان يفوز بالخلاص . ثم احتفظ جيداً من انك تصنع شياً لا يرضيه تعالى اي اهرب من الخطية لانه يلزمك ان تشتهى ان تحتمل انواع العذابات كلها احرى من ان ترتضي بان تخطى مميتاً وان كان الله يفتقدك بكارثة مكروهة احتملها بوضاعة ٍ واشكره عزّ وجلّ مفتكراً بانك قد استاهلتها وبانها تعود الى خيرك واما ان كان يمنحك تقدس اسمه سعادة فكذلك اشكره باتضاع ٍ كلى واحرص من ان ياخذك حينيذ ٍ روح الصلف بالكبريا او بغيرها لانه لا

ينبغى ان يحارب الله بمواهبه ثم اقتبل سر التوبة بتكاثر مختاراً لذاتك معلم اعتراف ماهراً حكيماً خبيراً يستطيع ان يعلمك بتاكيد تلك الامور الذي يلزمك ان تصنعها بالعمل وتلك الاشيا التى تلتزم بان تتجنبها ثم اصغ الى خدمة الله وخدمة امنا الكنيسة بحسن عبادةٍ فماً وقلباً خاصةً فى حضور القداس حين تقديس جسد يسوع المسيح ربنا ودمه واجعل قلبك حلواً رأوفاً نحو الفقرا وساعدهم فيما انت تستطيع عليه وكذلك اهتم فى ان تحفظ ضمن مملكتك العوايد الصالحة وفى ان تهذب فيها الطالحة لا تحمل رعيتك اوامر ثقيلة او مطاليب عسرة ان لم تمسّك الحاجة بضرورةٍ قصوى تكون راجعة لمناضلتك بالمحاماة عن مملكتك ثم اذا حدث ان يوجد فى قلبك شى من الغم والكدر اشرحه لمعلم اعترافك او لشخصٍ صالح وهكذا تستطيع ان تحمل ضرّك بسهولةٍ بواسطة ما تناله من المرشد لتقويتك ثم اتخذ لذاتك باحتراس رفقا يكونوا اناساً حكما مستقيمين امنا مقسطين لا توجد فيهم محبة المال واهرب من معاشرة الارديا مجتهداً جداً فى استماع كلام الله واحفظه فى قلبك ومارس بطيبة خاطر الصلوات والابتهالات ساعياً فى اكتساب الغفرانات احبب شرفك واحرص من انك تحتمل احداً ان يتجاسر امامك على ان يقول كلمةً ما تحركك الى الخطية او احداً يلعن غيره فى غيابه او فى وجهه او ينم فى حقه ولا تسكت الى احدٍ يتكلم عن الله باحتقارٍ او عن والدته بما لا يليق او عن القديسين بما لا يجب قدم لله جزية الشكر عن الخيرات والنجاحات التى يعطيكها ثم اعمل العدل والاستقامة مع الفقرا نظير صنعك ذلك مع الاغنيا ولكن نحو خدامك كن مقسطاً سخياً عذب الكلام لكى يحبوك

ويهابوك كمعلمهم واذا حدث شي من الخصومات او من الاعمال الردية اجعل نهايتها بالحق ان كان ذلك على صالحك او ضدك وان كنت تنتبه على شي اتصل اليك او الى سلفايك مختصاً بالغير وتحققت ذلك فحالاً خلواً من تاخير رده الى صاحبه لاحظ بكل سهرٍ كيف تعيش الناس والرعايا بالسلام والصلح والاستقامة تحت ولايتك لاسيما فى المدن الجيدة والبلاد الاخر واحفظ الطلاقة والحرية فى المملكة حيثما وحسبما سلفايك حفظوها وانت استخدمها فيها للخير بمحبةٍ لان اعداك بواسطة استغنا مدنك الجميلة وقوتها يجتهدون فى ان يعلقوا المقاومة ضدك ثم احبب جماعة الاكليروس واكرمهم ومثلهم ذوي خدمة الديانة واحترس من ان احداً يسلب عنهم مداخيلهم تلك التي سلفاوك اوهبوهم اياها وتصدقوا عليهم بها . اكرم اباك وامك واحترمهما واحذر ان تخالف ما اوصيك بهِ باوامر صالحة ثم اعطى الوظايف والانعمات للانام الجياد ذوي السيرة النقية واصنع ذلك بمشورة الاشخاص الحكما الفطنين واحذر من ان تشهر حرباً ضد اناس مسيحيين خلواً من ديوان مشورة هذا اذا لم يمكنك ان تستدرك التدبير بنوع اخر يوفر الحرب واذا التزمت الى عمل الحرب فخذ الاكليروس تحت حمايتك (لكيلا يلتحق بهم من ذلك ضرر) ومثلهم اوليك الذين لا يكونوا صنعوا شراً فى هذا الحادث واما اذا انتشت حربٌ ومعركاتٌ فيما بين الذين تحت ولايتك فانت اهتم بمصالحتهم بقدر ما يمكنك من السرعة اسهر على ملاحظة حواشيك ونظارك واصحاب الوظايف الاخر وراقب تصرفاتهم وتدابيرهم وتحفظ من ان تجري فى مملكتك ماثم مشتهرة متاصلة او تجاديف او ارتقات واجتهد فى ان مصاريف دارك تكون

بحسب الفطنة وبموجب القياس والترتيب ثم انى اتضرع اليك يا ولدي بانك عند وفاتى تفتكر بى وباسعاف نفسى المسكينة مساعداً اياها بتقدمة القداديس والصلوات والابتهالات والصداقات والاعمال الصالحة فى سلطنتك كلها واجعل لها شركة فى جميع افعالك المدوحة ومن ثم انا امنحك كل البركات الابوية بمقدار ما يستطيع ابٌ ان يعطيها لابنه متوسلاً للثالوث الاقدس ملك السموات الاب والابن والروح القدس بان يحفظك ويحميك من كل الشرور خاصةً من انك تموت تحت خطية مميتة لكى نقدر يوماً ما بعد هذه الحيوة الفانية ان نوجد جملةً امام الله لنشكره ونسبحه خلواً من نهايةٍ فى ملكه امين ✿

فالسلطان لويس بعد ان تمم التزامات ابٍ صالحٍ وملكٍ جيدٍ فلم يعد يهتم فى شى اخر سوى فى تتميم التزامات مسيحى حقيقى فقد اقتبل سر المسحة بالزيت المقدس بعبادةٍ حارة واقات نفسه المرة الاخيرة بجسد مخلصنا يسوع المسيح بفرحٍ وابتهاجٍ عظيمين وشرع يطلب مرارتٍ مترادفة ان يقدموا اليه الصلبوت المقدس الذي هو كان يقبل بعبادةٍ حارة وحبٍ قدميه المقدستين ومن حيث ان مخيلته كانت موعبة من تفكره فى الاراضى المقدسة فقد كان يسمع من فمه فى حال غيابه عن الوعى ترادف هذه الكلمات بقوله نحن سنذهب الى اورشليم ولكن لممكنٌ ان يكون معنى قوله عن اورشليم السماوية التى هو كان دايماً يعتبرها بانها وطنه الحقيقى لانه حقيقةً ما عاد هو يتوق الى شى الا نحو ان يصير هو عاجلاً واحداً من اهل مدينة الله هذه السماوية وكان يشكر الله ارتضايه بان يفتح امامه باب الحيوة العديمة الموت وكان يناشده تعالى باستحلافٍ فى ان يفيض رحمته على الخطاة وفى ان يشرق انوار الايمان

المسيحي في الامكنة التي تحت ولاية الغير مومنين *

فهذا السلطان القديس استمر الى حين الساعة الاخيرة من حياته معمراً انفس المحيطين بفراش اوجاعه بكلمات تقوية ذات فوايد روحيه ثم اتجه نحو القديس ديونيسيوس المعتاد مرات كثيرة خاصةً في اوقات الحروب ان يستغيث بشفاعاته بعد التجايه الى الله مستمداً منه الحماية لعسكره وكذلك التمس معونة القديسة جانافياف فاحد الشهدا العيانيين (وهو ثيبوت سلطان نافارّا في رسالته الى اسقف تونس) كتب عنه بقوله : اعلم يا هذا انه منذ نهار الاحد الساعة التاسعة الي يوم الاثنين الساعة الثالثة فم السلطان البار ما كفّ النهار والليل عن ان يسبح ربنا يسوع المسيح وعن ان يتضرع من اجل الشعب الذي هو اقاده الى هناك ثم حينما هو فقد جانباً من القدرة على التكلم قد كان حيناً فحيناً يصرخ بصوتٍ عالٍ قايلاً : يا الهي صيرنا ان نحتقر سعادة الارض وان لا نخاف بتةً من محزنات العالم وشدايده : وقد كان مراتٍ كثيرة يهتف بقوله : كن ايها الرب مطهراً شعبك بالقداسة وحافظاً اياه من الشرور : فاخيراً قد عدم هو الاستطاعة على التلفظ . ونهار الاثنين صباحاً الذي هو اليوم الخامس والعشرين من شهر آب اذ شعر هو ذاته بدنو الموت منه قد صيّر ان ينزلوه عن فراشه ويمدوه فوق الرماد وهكذا كتف يديه صليباً فوق صدره رافعاً عينيه نحو السما : ولكنه كان ينظر الى الواقفين حوله ايضاً بكل عذوبةٍ واحياناً بتبسمٍ وفيما بين الساعة الثالثة ونصف النهار قد اغلق عينيه كانه نايم . ولبثت عيناه مطبوقتين مدة نصف ساعة واخيراً فتحهما وحدق بهما نحو السما قايلاً : ادخل الى بيتك يارب واسجد في هيكل قدسك : وبعد هذه الكلمات ما عاد تفوه

بشي وعند الساعة التاسعة رقد بالرب فى ٢٥ شهر آب نفسه سنة ١٢٧٠ عينها ❊

فهكذا توفى فى ارضٍ غريبة بعيداً عن رعاياه الذين احبهم شديداً السلطان لويس التاسع اجود السلاطين . الاوفر قداسةً والاكثر استقامةً وعدلاً من كل الذين لبسوا التاجات الملوكية (يقول العلامة بوصوبت) وهنا كاهن هذا السلطان خادم مصلاة العابد قد كتب مقسوماً بين الحزن والانذهال قايلاً : اهل يلزمنا ان نبكى ام نبتهج : اواه ان الكنيسة تسح الدموع على فقدها هذا المحامى عنها الغيور والشعوب ينوحون على من كان هو مجد المملكة وزينتها ولكن ان كان الحزن يترك برهةً من الزمن فارغة للتامل فنحن بالحرى نفرح مسرورين من وفاة هذا السلطان القديس الذى عندما اهمل هو مملكة ارضية قد مضى ليتمتع الى الابد بمملكةٍ سماوية صحبة مختارى الله ومحبينه ❊

واما فيلبس ابن السلطان المتوفى البكر ففيها بين مراير الاحزان العامة اقتبل جزية الخضوع والحلف بالطاعة له من امراء المملكة واشرافها الحاضرين فى المعسكر ثم فى ذات اليوم عينه شوهد ظهر البحر مغطى بكثرة المراكب الواردة باصوات ابواق الحرب وطبولها رنّت فى الفضا من تلك المراكب والملاحون هتفوا بصراخات الفرح وارعدوا فى شط افريقيا رهجة اسم الافرنج مع اسم السلطان لويس وهولاء كانوا عساكر كارلوس سلطان سيشيليا الذى ترافق من متقدمى جيشه وخرج من المراكب الى شقة الارض عند كارتاجنه القديمة ولكن ما احد جاوبهم بعلامةٍ ما ملايمة لقدومهم ولا احدٍ توجه لمقابلتهم ونُظر المينا بانه قفر والمراكب مهملة فحينيذٍ السلطان كارلوس قد خامره الشك مفتكراً بحدوث شرٍ ما فمن ثم اقبل مسرعاً نحو خيمة السلطان فشاهده ممتداً

على الارض فوق الرماد مايتاً فانطرح على قدمي القديس مقبلاً اياهما دارفاً عليهما الدموع السخينة فقد كانت بالكاد صورة القديس وهيئة جسمه تغيرت قليلاً لانه رقد بالرب بكل هدوءٍ وسلام ثم ان السلطان المذكور ركع على ركبتيه وخاطبه كانه حي مسمياً اياه سيده واخاه وشرع يندب ذاته موبخاً على كونه لم يسرع اليه ويدركه قبل وفاته ويسمع منه كلماته الاخيرة البارزة من فم من هو اجل الاخوه واجود السلاطين ✿

ثم بعد ذلك التيم ديوان المشورة من روسا العساكر وقرّ الاعتماد على مداومةّ الحرب ضد سلطان تونس والجيوش الصليبية تحت رياسة سلطان سيشيليا ضربوا عساكر الاسلام السودان والعرب الذين في البر في عدة معركات فانتصروا عليهم مرتين بشدة باس وقتلوا منهم كثيرين جداً وبددوا الباقيين وحينئذٍ وضعوا الحصار ضد مدينة تونس وشددوه بقوةٍ عظيمة فلما راي ذاته السلطان المسلم تحت الخطر المبين الداهم راس مدن بلاده هذه اخذته الرجفة خوفاً فارسل من قبله قصاداً الى روسا الصليبيين مفوضين الاعتماد في عمل الصلح معتمداً ان يشتريه بتيمة خزاينه كلها مرتضياً بان يصير هو خاضعاً لسلطان سيشيليا باعطا جزية سنوية لهُ معلومة وبان يدفع مايتين وعشرين الف وزنة من الذهب مصروف هذا الحرب للصليبيين فالجيوش الفرنساويون اذ كانوا بوفاة سلطانهم القديس فقدوا سندهم الاخص قد اعتنقوا هذه التقدمة الصلحية بحسن الرضا من سلطان تونس وبموجبها في اخر يوم من شهر تشرين الاول اختمت شروط الصلح بينه وبين سلاطين فرانسا وسيشيليا ونافارّا على رفع السلاح بعدم الحرب بين الفريقين مدة خمسة عشر سنة وعلى ان محابيس الحرب من الجهتين يطلقون وعلى ان الكهنة والرهبان الكاثوليكيين يقدرون

بكل حرية يقطنوا ويقيموا لذواتهم كنايس وامكنة سكنى فى كل البلاد الخاضعة لحاكم الاسلام سلطان تونس ويمارسون اعمال ديانتهم خلواً من مانع بتة ثم بعد ذلك بايام قليلة الجيوش اجمعون نزلوا فى المراكب وسافروا من حدود افريقيا راجعين نحو فرانسا ☆

ففي زماننا الحاضر عمارة جديدة تحت سنجق دولة فرانسا اذ اتخذت عساكرها الفرنساويون طريقاً فى بحر نصف الارض كما سبق القديس لويس مخبراً عن ذلك فاتوا الى اراضى افريقيا وخرجوا اليها فاي نعم ان علامات الصلبان لم تكن متلالية على صدورهم نظير زوار اورشليم ولكن مع ذلك العناية الالهية ارادت اخيراً بعد خمسة اجيال ونصف ان تعطى للخصب لهذه الارض الافريقية الشاربة دما كثيرين من جهابزة فرانسا الشرفا وان توافق اشواق سلطانها المستشهد هناك فوق حضيض افريقيا المحمى بحرارة شمسها فابنا فرانسا هولاء الاسعد من عساكر القديس لويس قد انتصروا على البربر الغير المومنين فوق الارض المذكورة (بامتلاكهم الجيرى والجزاير منذ عشر سنوات) وهكذا سنجق الصليب الفرنساوى قد انتصب عليها وبذلك تمجدت العناية السماوية باتمام مرغوبات قديسها لان كرسي الجليل في اباء الكنيسة القديس اغوسطينوس قد ارتفع من جديد فوق دثاره القديم ومنذ ايام قليلة اشواقنا قد استوفيت برسول جديد هناك السيد مطران الجيري المتقد بالغيرة على الايمان الذي سافر من اراضينا الفرنساوية الى افريقيا كي يشهر ضياء الايمان الكاثوليكى فى تلك الاراضى البربرية ونحن نسال الجود السماوي ان يمنح اعماله الرعائية تلك الاثمار السرية المطابقة اماله ☆

فلنعودن الى سياق نهاية اخبار الحروب الصليبية فنقول ان

عمارة المراكب التى فارقت مينا تونس قد جازت الى بحر جزيرة سيشيليا وهناك صادمتها عواصف شديدة افقدت منها عدت مراكب فيها غرق من الصليبيين ما ينيف عن اربعة الاف شخص ثم ان السلطان كارلوس دخل الى بلاده مصحباً معه فى صندوق نظير ذخيرة جليلة قلب القديس لويس واحشاوه ووضعها باحتفال فى كنيسة دير مونتسريال قرب مدينة ساليرنو واما فيلبس الثالث سلطان فرانسا الجديد فقد داوم مسيره نحو مملكته مرافقاً من بقايا الجيوش الذين قبل بزمان قليل سافروا مع ابيه بمجد وكثرة وافرة وقد اصحب معه جسد والده القديس وجسد اخيه تريستان ثم جسد عروسته السلطانة التى توفت هى ايضاً ضحية مع الاخرين في هذه الحرب الصليبية وقد بلغ الى مملكة فرانسا التى راها بوشاح الحزن العام والندب المر ولما دخل مدينة باريس وضع الاجساد المذكورة فى مدفن سلاطين فرانسا فى كنيسة القديس ديونيسيوس وهناك ذخاير جسم القديس لويس تكرمت من المومنين ازمنة مستطيلة بحسن عبادة ففى الجيل الماضى قد شوهدت هذه الاعضا مطروحة فى الهوا·(مع اعضاء سلاطين فرانسا حين التمرد المعروف) الا ان الباري تعالى قد ارتضي بان يمنح ضريح القديس لويس قوة صنع العجايب التى تلالت بانواع كثيرة وهكذا مملكة فرانسا التى كانت عديمة التعزية من قبل فقدانها من على الارض سلطانها هذا البار فقد اتخذته بسلطان الكنيسة وصونها محامياً عنها خصوصياً لها فى السما ومن حيث ان القديس لويس تتوج فى المملكة الابدية بدار السعادة الدايمة المختص بالقديسين مع الله سرمداً فقد اضحى هو على نوع ما سلطاناً ابدياً لمملكة فرانسا ❊

خاتمة الكتاب والتاريخ الحاضر

فى ملاحظة تالى الثمان الحروب المقدسة فى الاجيال المتاخرة وفى ختام هذا التاريخ

فالحربان الاخيرتان المقدستان المصنوعان من القديس لويس سلطان فرانسا وهم السابعة والثامنة لم توجدان كما شاهدنا انفاً الا سياقاً طويلاً من الاحزان والشدايد ولم ثمرت جهاد هذا الملك الغيور الفريد بالشجاعة مع اعمال اشراف مملكته الجهابزة سوي توقيف دثار امريات المسيحيين في المشرق الاخير مدةً من السنين لان نهاية خراب هذه الامريات قد صارت بعد الصليبيتين الاخيرتين بعشرين سنة كون سقوط مدينة عكة جديداً فى ايدي الاسلام حدث سنة ١٢٩١ بعد جهاد عظيم ومناضلة كلية من سكانها وهكذا قد هُدم الحصن الاشد لمسيحى المشرق بفقدان هذه المدينة من ولايتهم لانه تبعها من دون تاخير سقوط مدن صور وصيدا وبيروت التى بعد ايام قليلة وجدت بيارق الاسلام متموجةً فوق اسوارها وسكان هذه المدن المسيحيون اما قتلوا بسيف الغير مومنين واما اقيدوا اسرا الى مدينة مصر وحينيئذٍ من جميع المدن والبلدات التى تكلفت امتلاكاتها على المسيحيين سفك دموم هكذا غزيرة وسكب دموع مرة جداً بالشدايد قد فقدت بالتمام ولم يعد يوجد لهم ابن فيهِ يستنشقون النسيم المتقدس من نفس الاله المتانس فى تلك الاراضى ولكن يلزمنا ان نحذر من ان نلوم مع ذلك تصرف القديس لويس التقوي الذى بنية صافية وعزم نقى قد حرك بغيرته اتقاد حرارة الحربين الاخيرتين فيما بين شعوبه وغيرهم لانه ولين كانت اعمالهما

لم تفوز ببركات سماوية كما كان يومل فمع ذلك اجتهاداته فيهما لم تلاحظ اقل اعتبارا ً واشد انذهالا ً على ان العناية الالهية قد كانت لها غايات اخر ملاحظة السلطان البار المذكور العظيم لان الاله الذي جذبه الى حمل الاسلحة ولم يرد ان يمنحه الغلبة في الاراضي المقدسة بمجد ٍ ارضي انما شاء ان يعطي العالم نموذجا ً دايم الذكر للصبر فيها بين الشدايد الاشد مرارة ً وان يمتحن اماذن البار بتجارب قاسية جدا ً ويتوج هامته بالاحتمال العجيب لكي يكلل انتصاره في السموات . فنحن في ازمنتنا الناجحة في التهذيب الدني لا ننسى اصلا ً ان هذه الحرب في بلاد ٍ بعيدة وازمنة قديمة في الجيل الثالث عشر التي فيها مات احد سلاطين فرانسا قد كانت غايتها تجديد نور الانجيل في بلاد بربرية وجذب شعوب افريقيا الى الاشتراك بسعادة الاوروبا المسيحية ✿

فمع موت القديس لويس ومع سقوط مدينة عكة في ايدي الاسلام توجد نهاية تاريخ الحرب المقدسة بخصوص المشرق لانه بوفاة هذا الملك العظيم قد غاب من الوجود لهيب نار الغيرة ذات الشهامة والتقوي التي استدامت مدة جيلين مشغلة افكار سكان الاوروبا واعمالهم واقادتهم الى اجتياز الف من الاخطار والاضرار لاجل استنقاذ الاراضي المقدسة من ايدي الامم الغريبة وملاك الصليبيين في حدوث الانقلاب فد رجع الى السما صحبة نفس السلطان القديس بدون رجوع لانه اي نعم حدث بعد ذلك في الاوروبا مداولات ورغبات واعمال بخصوص حروب صليبية جديدة نحو بلاد فلسطين ولكن هذه المداولات والتظاهرات والافعال قد كانت صناعة ً من اوليا الامور لغايات ٍ مدنية لا غيرة ً ديانية لخلاص الاراضي المقدسة من العبودية لان

هذه الامتحانات اما انها اهملت عقيب انتشايها واما انها ذهبت سدي من غايتها ففى الجيل الخامس عشر قد شوهد مسيحيو الاوروبا مراتٍ حيناً بعد حينٍ متحاربين مع الاسلام ولكن هذه لا تُدعَى حرباً مقدسة لانهم بها كانوا يحامون عن بلادهم واراضي اوطانهم من غزوات هذه الامة البربرية اذ انه وقتيذٍ لم تكن اعمالهم متجهة الى استنقاذ مدينة اورشليم ولا الى محاربة الاسلام فى باطن الاراضى المتملكة منهم منذ اجيال فهذه الحروب الجديدة التى توجد اخبارها فى التاريخ العام المختص بالشعوب هى متميزة من الحركة العظيمة التى في الاجيال المتوسطة قد جذبت طوايف بجملتها وجمعتها تحت سلجق الصليب لغايةٍ اخرى ☆

ولكن فى هذه الحروب الاخيرة تُشاهد مشرقةً حوادث ما تستحق الذكر ونحن هاهنا نوردها باختصارٍ على ان شهامة النفس وشجاعة القلب التى تلالت فى اجدادنا القدما يبان انها تورثت للبعض فى ازمنة غير بعيدة جداً منا لان مرسلة العساكر التى كانت تحت اوامر القايد دة بوسيكوت الى شط البوسفورو حيث هذا الجيش المسيحى بدد عساكر محمد واهلك العمارة البحرية العثمانية سنة ١٤٥٦ تستحضر فى الفكر الاعمال الحربية السابقة ذات الانتصارات المفوعة من غودافروا وارفاقه لان غيرة البابا اينوشانسيوس الثالث استبانت متجددة فى قلب البابا بيوس الثانى لكون هذا الحبر الرومانى المجيد حينما كانت بيارق الصليبيين لم تزل منصوبةً فى بلاد جزاير الارشيبلاغوس كلها وفوق اسوار اليونانيين وصودفت مين ايطاليا تحت خطر مبين قد جمع الكردينالية واوضح لهم اعتمادة على ان يسير هو نفسه ضد الاسلام اذ قال لهم هكذا : انى مثقلٌ بالسنين الكثيرة

وبالامراض ولست مومّلاً ان اعيش مدةً مستطيلة بل سايرٌ نحو ميتةٍ اكيدة على نوعٍ ما ولكن تري ماذا يهمني المكان والساعة المختصين بعمري ان كنت اموت من اجل المسيحيين: فحرارة انسان واحد المتقدة فيه عن نار الغيرة الآكلة التى بها اراد ان يقدم ذاته ضحية من اجل قضية تخص الصليب قد صيرت ان تتلد فى فسحةٍ من الزمان تلك الشهامة القديمة فى انفس مسيحيى زمان شبيهةً بالصليبيين الاولين وعلى هذه الصورة البابا المذكور بعد ان استمد حماية الله القادر على كل شي فى كليسة الرسل قد سافر من رومية على راس العساكر المسيحية فى شهر حزيران سنة ١٤٦٤ وقد اعترته حمى رقيصة ازعجته ولكن خوفاً من ان اظهار مرضه يضعف شجاعة الجيش قد كتمه بقدر اغتصابه ذاته على اخفايه مجتازاً البلاد مباركاً الشعوب الذين اعتبروه كمنقذ العالم المسيحى حتى بلغ الي مدينة انكونا حيث كانت مراكبه تتهيى للسفر غير انه هناك ضعفت قواه جداً وشعر بدنو المنية منه فجمع الكردينالية مرةً ثانية قايلاً لهم: انني لحد هذا اليوم صنعت كل ما قدرت عليه من اجل الرعية المستودعة لامانتى ولم اوفر بذلك عن ذاتى لا اتعاباً ولا اضراراً ولكنى الان ما عدت استطيع ان اكمل ما ابتدات بهِ فعاد يلزمكم انتم ان تتمموا عمل الله: فبعد هذا الخطاب ادركته الوفاة ونفسه البارّة صعدت الى اورشليم السماوية فى ١٦ آب سنة ١٤٦٤ نفسها قبل سفر العساكر ❊

ثم انه فى الجيل السادس عشر المعركة الشايعة الذكر الحادثة سنة ١٥٧١ فى ليبنات تجلب الى المخيلة صورة الحروب القديمة المقدسة العظيمة لان الاسلام بعد ان ملكوا بانتصار جزيرة قبرص التى هى كانت اخر الامريات الموسسة فى المشرق من المسيحيين

قد امتدوا فى البحر بقوة مراكبهم فعمارة بيت عثمان والعمارة المسيحية المتراس عليها يوحنا ده اوطريش قد تلاقيتا الواحدة ضد الاخري فى بحر اكتيوم فقبل بداية المعركة الشريف يوحنا المشار اليه رفع على سواري مراكبه سنجق الصليب وبيرق الكنيسة وعساكره كلهم صرخوا باصوات التهليل تكرمةً لعلامة الغلبة هذه المقدسة فمعركة بحرية مثل هذه ما شوهدت قبلاً قط فالاسلام كانوا يقاتلون لاجل مملكة العالم التى قصدهم الاستيلا العام عليها والمسيحيون كانوا يقاتلون حمايةً عن بلاد اوروبا فالصليب اكمل الغلبة التامة على الاسلام لجنوده فى ذاك النهار الدايم الذكر والعالم المسيحى احتفل بالافراح العامة لهذا الانتصار واهالى فرانسا وانكلترا واصبانيا والبلاد الشمالية قدموا لله جزية الشكر عن ذلك باعياد مقدسة والمشيخة البندقية وضعت في سكة المعاملة اسم ليبنات مكان الموقعة كما انها عينت فيها بين الاعياد السنوية يوم تذكارها ورومية اظهرت الفرح العديم ان يوصف . ومرقص انطونيوس المتراس فى الحرابة على مراكب البابا بيوس الخامس اذ رجع الى رومية ومعه البيارق التى اخذها من الاسلام قد مضي صحبتها الى كنيسة اراشيلى ووضعها هناك وراس البيعة رتّب تكريماً لوالدة الاله المحامية عن العساكر المسيحية عيداً لها تحت تسمية عيد الانتصار ☆

ثم اخيراً عند نهاية الجيل السابع عشر حرب شديدة فى موقعة مهولة حدثت فيها بين تابعى مذهب محمد وبين جنود الصليب قد اظهرت فى مبادى هذه الحرب بطلاً صنديداً شجاعته مضاهية سمو فضايله المسيحية وهو الجليل سوبياسكى سلطان بولونيا الدايم الذكر المستحق ان يُعدّ من المقتدين بالجهابزة القدما غودافروا وبودوين وتانكريد فقوة اقتدار الاسلام الاتراك قد كانت

وقتيئذٍ مالت الى النقص لانه استبان ان الدولة العثمانية قد اباحت قواها باسرها فى امتلاكها القسطنطينية وبلاد الروم ولكن لما ملكت هى جزيرة كنديا قد انتعش فى الاسلام من جديد روح صلفهم السابق وعجرفة اعتدادهم بذواتهم الاولى انتعاشاً وقتياً لان المملكة الاسلامية فى ذاك الحين رعاياها كلهم تناولوا الاسلحة وثلثماية الف مسلم ظهروا منهم سنة ١٦٨٣ امام اسوار مدينة فيّنا تحت مملكة النمسا التي ارتعدت سكانها خوفاً ومعهم اهالي اوروبا باسرهم شملتهم الرجفة من هذا البحر العجاج من عساكر اسلامية هذه كثرتهم ممتدين بقوة مرهبة الى ممالك المسيحيين فيوحنا سوبياسكى سلطان بولونيا بلاد الله اقبل بجيوشه الابطال الذين انضافوا الى عسكر كارلوس ده لورين قايد عام المعسكر النمساوي فوالي الامر الشجاع نظير قدماينا الجهابزة قط لم يدخله الارتياب في رجاه الاكيد بالعون الالهى المنتظر من رب الجنود الذي هو وضع فيه ثقته بجملتها ومن ثم كارلوس ده لورين ويوحنا سوبياسكى قبل بداية المعركة العظيمة اسرعا الى كنيسة ليوبولديسبورك القديمة لكي يستمدا هناك معاً مساعدة يد ذاك الذي هما من اجله كانا يجاهدان واحد الرهبان الكهنة الافاضل القادم وقتيئذٍ من رومية ليمنحهما من قبل البابا اينوشانسيوس الحادي عشر البركة الرسولية لهذه الحرب قدم الذبيحة الالهية بحضورهما فى مصلّى مقام وسط العساكر المسيحي حيث وُجدت عظما المملكة وامراوها واشرافها يسمعون هذا القداس الذي خدمه السلطان يوحنا المذكور نفسه جاثياً على ركبتيه عند درجة الهيكل براس متطاطى الى الارض ويدين مكتوفتين صليباً على صدره متضرعاً لله بحرارةٍ واتضاع واذ تناول القربان المقدس قد نهض بعد ذلك مملوا من الرجاء

والقدرة المولدة الاعاجيب وفى الوقت عينه الكاهن البار باثوابه المقدسة تقدم ماشياً فى المصلى حاملاً الصليب الخلاصى ثم قال بمسمع الجمع مخاطباً قواد الجيوش هكذا : اننى من قبل السدة البطرسية ابشركم بان الغلبة بالنصر والظفر هى لكم ان كنتم تتقون بالله : وبالحقيقة ان النصر العظيم فى اليوم الثانى عشر من شهر ايلول سنة ١٦٨٣ عينها قد توّج هامات الجيوش المسيحية والبيارق التى أخذت من الاسلام نُقلت بعد ذلك الى رومية وتعلقت فى كنيسة والدة الاله التى تشيدت فى ساحة ترايانّا تكرمةً لهذه السيدة سلطانة السما التى بشفاعاتها فاز المسيحيون بذاك الانتصار) ثم ان السلطان يوحنا المذكور بعد الظفر الذي ناله دخل مدينة فيّنا من الطريق نفسها التى لولاه لكان قايد الاسلام العام دخلها منتصراً فالشعوب تقاطروا باصوات الفرح يحيون بالاحترام منقذهم هذا العظيم الذى اتجه باستقامةٍ الى الكنيسة حيث ابتدي هو عينه بترتيل صلوة الشكر لله ومكث برهةً مستطيلة منحنياً براسه بوجهٍ ملتصق بالارض فى جزية الشكر لعزته تعالى وفى ذاك الوقت سُمع صوتاً من باطن الهيكل قايلاً : كان انسان مرسلاً من الله اسمه يوحنا : ✡

فلما لم تعُد تُعمَل حروبٌ فى الاسيا ضد الاسلام قد رجع استعمال الذهاب الى اورشليم بصورة زيارة بسيطة فقط فاذاً الحروب المقدسة الصليبية فى المشرق قد انتهت كما ابتدات ففى بحر الجيلين السادس عشر والسابع عشر عددٌ وافر من انام قديسين وسلاطين اجلاّ قد زاروا الاراضى المقدسة بعبادةٍ حجاجاً سادجين خلواً من علامةٍ ملوكية فسلاطين فرانسا والاخرون من السلاطين المسيحيين اقتداءً بنموذج كارلوس الكبير قد جعلوا افتخارهم لا بامتلاك اورشليم من جديد لكن بحماية الامكنة المقدسة

ورعاياهم القاطنين فيها والعهود المصنوعة من السلطان فرنسيس الاول مع الاسلام قد تجددت من كثيرين من خلفايه متضمنةً ان المسيحيين الشرقيين يتمتعون بمباشرة اعمال ديانتهم بحريةٍ وسلام خلواً من مانعٍ ثم انه فى زمان ولاية سلطان فرانسا انريكوس الرابع وكيله الملوكي فى القسطنطينية داسهاياس قد ذهب الى اورشليم مفتقداً سكانها المومنين وعلى اسم سلطانهم الملوكي عزاهم واوصلهم اموالاً غزيرة لمعونتهم وكذلك وكيل سلطان فرانسا لويس الرابع عشر لدي الباب العثمانى قد مضى هو ايضاً الى الاراضي المقدسة واهل اورشليم باحتفالاتٍ جليلة اقتبلوا قاصد السلطان العظيم هذا من حيث ان اسم سلطانه ومرسله قد كان مشاعاً بانه محامٍ عن المسيحيين الذين فى البلاد الشرقية واخيراً في عهد سلطان فرانسا لويس الخامس عشر بعد شروط الصلح المصنوعة بينه وبين الدولة العثمانية فى بسّار وفيتنز قد أرسل من باب همايون قصادٌ معتبرون باحتفالٍ الى فرانسا مصاحوبين بفرمان خط شريف الى السلطان المذكور فحواه ان السلطان العثمانى قد اعطى النصاري سكان اليهودية تملكاً مطلقاً على قبر المسيح والحرية التامة فى ان يشيدوا كنيستهم المهدومة هناك مع كنايسهم الاخر ومن ثم الزوار الكثيروا العدد المتواردون الى اورشليم تحت حماية اوليا الامور في الاوروبا ما عادوا يقبلون فى امكنة رهبان التدبس يوحنا المعمدان الخيانة المحاربين نطير السابق بل ان المتضعين رهبان القديس فرنسيس اسيزي صاروا حافظين حراسة القبر المقدس مقتبلين ببشاشة تقوية الزوار الكاثوليكيين القادمين الى اورشليم والان فى الاحتفالات الكنايسية الغير اعتيادية يومياً تشاهد داخل كنيسة القيامة الخزاين الفايقة الاثمان التى اغنت بها هذه الكنيسة سلاطين المغرب بالهدايا

الفاخرة من كل نوعٍ زينةً كلية الجمال لها وهكذا اهل السما والارض يفرحون الى الان بالكرامات السامية والاعمال الدايمة الذكر التى بها هولاء السلاطين ورعاياهم ضحّوا اعز ما لديهم من اجل مخلص العالم ✿

ثم ان عوايد زيارة الاماكن المقدسة آلة الى مآل الصليبيات وحروبها اي انها اخذت بداية استعمالها بحرارةٍ ومع تمادي الازمنة تكاثرت ممارستها جداً ثم رجعت رويداً رويداً متناقصةً ففى الجيل الذي قبل جيلنا الحاضر تملك فى الاوروبا روح الشك والريب مع روح الجدالات السفسطية ولم يترك مكاناً الا ما قل لرغبة السفر نحو الاراضى المقدسة بروح الزيارة وحينيذٍ بفتورٍ لا بل ببرودة قلبٍ كان الكثيرون يلاحظون فوايد الحروب الصليبية باطلةً فذوي الارواح الصالحة كانوا يتوجعون من تذكرهم النوايب المرة التى اصابت الصليبيين وشفاههم المتكبرة كانت تترك ان تسقط منها كلمات ما ذات احتقارٍ مهين ضد الصليبيين المحاربين وضد الزوار البسيطين ثم عند اواخر الجيل المنتهى نفسه مين بلاد فرانسا قد شاهد سكانها جيشاً حاملين الاسلحة ومسافرين نحو المشرق تحت رياسة قايدٍ شجاع (بونابارتة) مشهور بالغلبة فعساكرنا هولاء الفرنساوية الابطال انتصروا على الاسلام عند هرامات مصر وعند تيبيرياده وحذا جبل تابور الا ان اورشليم المدينة المقدسة القريبة منهم لم تحرك قلوبهم بالعواطف اليها بل اجتازوا من هناك بانفس باردة من جهتها غير محولين ابصارهم نحو حيطانها الغير بعيدة منهم ✿

واما اهالى جيلنا التاسع عشر كما قلنا فى محله فقد اظهروا ذواتهم اصحاب عدالة واستقامة وشهامة اكثر من الذين تقدموهم لانهم بعد المجادلات السابقة المستطيلة قد اتفق راي جميع

الذين يعتبرون في الاوروبا ذوي عقول جيدة ومعارف سامية في وقتنا الحاضر على انهم نسبوا لاعمال الحروب الصليبية في المشرق الامور الاتي ذكرها وهي اخماد قوة الامريات السابقة في الاوروبا (التي كانت باتصال تقلق الناس بالحروب الجنسية) والراحة من المواقع الحربية الاهلية والاطلاق من عبودية الخدم الامرية وترتيب احوال المقاطعات باحكام مدنية مشاعة والامنية فيما بين الاقاليم بالاتحاد والشركة وامتداد المتاجر المتسعة الى بلاد المشرق وخصم الاسلام ضمن حدودهم الرمليه وخلاص ايطاليا واصبانيا من ولايتهم وغزواتهم واخيراً استنقاذ الاوروبا كلها استنقاذاً موبداً من المعتقد المحمدي ومن ذويه وهكذا عوايد السفر لزيارة الاماكن المقدسة قد اتخذت من جديد مجراها والان المسافرون الى تلك الجهات يشاهدون رهبان القديس فرنسيس الكبير موطدين في اورشليم وفي بيت لحم وفي الناصرة وفي الرملة وفي يافا وفي عكة حافظين انواع حسن العبادة في تلك الاصقاع المقدسه يقتبلون داخل اديرتهم وانا طيشهم الغريب كاحد اخوتهم ونهاراً وليلاً تسمع اصوات تسابيحهم لله في المحلات التي ضمنها عاش ومات مخلص العالم ثم حينما ايام الربيع تزيل عن الناس كدر مصاعب فصل الشتا او في ايام الاعياد السيدية الاحتفالية تشاهد جماعة الزوار اتين للاشتراك بتذكرات اسرار الافتداء الالهية المكملة حيناً ما في اراضي اليهودية لانه في الاوقات المومى اليها تغول الزوار تتوارد الى ضمن مدينة صهيون والجموع تتزاحم حول قبر المخلص ودموع المومنين المتخشعين تنحدر الى ارض كنيسة القيامة حين ارتفاع تضرعاتهم وصلواتهم نحو السما فمغبوط هو ذاك الذي نصيبه يدعوه الى ان يتجول هذه الارض المرنخة بالعجايب ويتامل

هذا القبر الذى هو وحده فى يوم القيامة العامة لا يخرج منه
شخصاً خاضعاً للمحاكمة وسعيد المرء الزاير الذي يجتاز
حذاء جبل الجلجلة وعند تاملة كيف ان الاله
المتجسد سفك هناك دمه يقطر هو من
عينيه بحركة الحب الالهى دموعاً ما
مقابلةً لحب الله اياه (فليكن
ذلك حظاً لمن يتوق اليه
ويمارسه بروح العبادة
المحققة امين)

تم الكتاب
والله تعالىٰ المهديْ الى الصواب



